في نور محمد

فاطمة الزهراء

تأليف
عبدالفتّاح عبدالمقصود

تحقيق
شوقي محمد

سرشناسه : عبدالمقصود، عبدالفتاح، ۱۹۱۲ – ۱۹۹۳م Abdal-Maqsud, Abd al-Fattah
عنوان و نام پدیدآور : في نور محمد فاطمة الزهراء / تأليف عبدالفتاح عبدالمقصود؛ تحقيق شوقي محمد(شالباف).
مشخصات نشر : تهران: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية، المعاونية الثقافية
مركز التحقيقات والدراسات العلمية ۱٤۳۰ ق. = ۲۰۰۹م= ۱۳۸۸
مشخصات ظاهری : ۷۱۲ص.
شابک : ۸۵۰۰۰ریال: ۹۷۸-۹٦٤-۸۸۸۹-۰۵-۵ ISBN:978- 964 - 8889 - 05 - 5
وضعیت فهرست نویسی : فیپا.
یادداشت : عربی.
یادداشت : چاپ دوم.
یادداشت : چاپ اول ۱۳۸٤.
یادداشت : چاپ قبلی: مكتبة الحيدرية، ۱٤۲٤ق = ۱۳۸۲.
موضوع : فاطمه زهرا(س)، ۸؟ قبل از هجرت – ۱۱ق.
شناسه افزوده : مجمع جهانی تقریب مذاهب اسلامی، معاونت فرهنگی، مرکز مطالعات و تحقیقات علمی
رده‌بندی کنگره : BP ۲۷/ ۲/ ۲۵ع ۹ف ۱۳۸۸
رده‌بندی دیویی : ۲۹۷/۹۷۳.
شماره کتابشناسی ملی : ۲۵۹٦۸ – ۸٤م

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

اسم الكتاب: في نور محمد فاطمة الزهراء
المؤلف: عبدالفتاح عبدالمقصود
المحقق: شوقي محمد
الناشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية،
المعاونية الثقافية، مركز التحقيقات والدراسات العلمية
الطبعة: الثانية–۱٤۳۰هـق ۲۰۰۹ م
الكمية: ۱۵۰۰ نسخة
السعر: ۸۵۰۰۰ ريال
ردمك: ۹۷۸-۹٦٤-۸۸۸۹-۰۵-۵

العنوان: الجمهورية الاسلامية في ايران _ طهران
ص. ب: ٦۹۹۵ _ ۱۵۸۷۵ تلفكس: ۸۸۳۲۱٤۱۲ – ۲۱ – ۰۰۹۸

جميع الحقوق محفوظة للناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تمتاز المكتبة الإسلامية عن غيرها من المكتبات في العالم فضلاً عن الخلّاقية المستمرة، والابداع الرائع في مواضيع كتبها، فإنّها تتّسم بـالجودة فـي المـحتوىٰ، «والهدفية» التي أخذت موقعها في مظانّ محتوياتها، وفوق هذا وذاك الأخلاقية السامية التي تتّصف بها كمسحة اتّخذت بعناية كبيرة من قبل وأصحاب القلم من المسلمين.

وكلّ ذلك ساهم مساهمةً بالغةً في ضخّ التراث الإسلامي بمواد علمية وثـقافية وتاريخية نالت إعجاب الآخرين، بل وحظيت بتقدير القائمين بـالأعمال الثـقافية والفكرية في عالمنا المعاصر.

وليس هذا بعجيب، فإنّ كتّابنا ـ وأغلبهم من الفقهاء أو من المتفقّهة ـ ومنذ صدر الاسلام وحتّىٰ وقتنا الحاضر، يكتبون وينشرون من العلوم والمعارف المستمدّة من وحي الفكر الاسلامي القويم، ويتعرّضون لمواضيع بصورة علمية مستلهمة من أُصولنا القرآنية الكريمة، ثم أضفوا عليها نظراتهم القائمة على أسس متينة، بأُسلوبٍ أقـلّ مـا يـقال فـيه الصدق والهداية، ومحاولة التماس الحقيقة من منابعها الأصيلة بكلّ جرأة وموضوعية.

ولذلك برزت علىٰ هذا الصعيد طائفة كبيرة من الكـتب الإسـلامية ـ القـديمة والجديدة ـ التي يمكن أن تصنَّف ضمن قائمة الروائع الفكرية أو الأدبية أو الإنسانية.

ومن هنا فليس من قبيل الصدفة أن يحظىٰ هذا الكتاب: «في نور محمد: فاطمة الزهراء» للأستاذ الأديب المرحوم عبدالفتاح عبدالمقصود، باهتمام المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، ورعاية مركزه العلمي، بعد ما استقطب أنظار القرّاء ودور النشر العربية.

إذ أنّه ـ فضلاً عمّا يشتمل عليه من لغة صادقة، وسبك أدبي متين ـ يتناول موضوعات تاريخية متفرّقة، ويتعرّض بحثاً وتحليلاً لجملةٍ من القضايا في حقل التاريخ الاسلامي، والتي لاتزال تحمل الكثير من المناقشات الفكرية والفقهية والسياسية. وهذه الدراسة تتوخّىٰ تقديم منهج علمي وتاريخي لنمطٍ من العلاقات التقريبية التي كانت قائمة بين الصحابة في أكثر من مشهد من مشاهد التاريخ الإسلامي، إبّان العهد النبوي وبعده، ربّما تثري تجاربنا بمزيد من الدروس والعبر، وتُلهم نفوسنا روح المودّة والإيثار المستلهمة من حياة جيل الإسلام الأول.

وقد ارتأى المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب أن يخطو خطوةً أخرىٰ باتجاه تصعيد المودّة بين الأطراف، فقام المركز العلمي التابع له بتبنّي تحقيق وطبع هذا الأثر القيّم، ونشره بحلّة جميلة بعد توثيق مصادره علىٰ يد أحد المحقّقين الأفاضل ممّن شمّروا سواعدهم لهذا الغرض الشريف.

ونحن إذ نقدّم فائق شكرنا وتقديرنا للمحقّق الكريم الفاضل شوقي محمد الذي تحمّل عبء هذا العمل، وقدّم ما هو الأفضل في هذا السياق، وإلىٰ قسم التاريخ والرجال في المركز الذي لم يبخل في تقديم ما يلزم في هذا المضمار، فإنّنا نغتنم الفرصة في تجديد دعوة أصحاب القلم الحرّ والنزيه من عالمنا الاسلامي إلى سلوك هذا السبيل، وإرسال نتاجاتهم الفكرية والثقافية التي من شأنها تصعيد الوحدة بين أبناء أمتنا، وتعزيز الأخوّة والتعاون، ونبذ الخلاف والشقاق، كما أمر به الله سبحانه ورسوله الأمين ﷺ والله هو الموفّق والمعين.

مركز التحقيقات والدراسات العلمية
التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

كلمة المحقّق

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على محمدٍ وآله الطيّبين الطاهرين ولاسيّما بضعته الزهراء البتول، وعلىٰ صحبه الأبرار المنتجبين.

وبعد، فإنّ من نافلة القول أن ادّعي بأنّني أحد قرّاء أعمال وكتب الأستاذ المرحوم الدكتور عبدالمقصود، والمتابعين بشغف لأغلب كتاباته القيّمة، وأحد المنجذبين بقوة لمطالعة مؤلّفاته التي لايبعد أن يجد المرء نفسه أمام لوحات فنّية خلّابة، ملؤها الصدق والإخلاص، والشجاعة التي قلّ مثيلها... كلّ ذلك جعلته يبرز بقوّة أمام حشود الكتّاب المصريّين ويرتفع عالياً حتّىٰ كاد ليلمس السحاب!

إنّ ريادته للمواقع التاريخية، وتعرّضه ـ بحثاً وتحليلاً ودراسةً ـ لمواضيع يكاد يرغب الناس عنها، لا زهداً فيها، بقدر ما هو خشية من بعض «المطبّات» التي قد تعترض السبيل، لأدلّ دليل علىٰ صلابته وشجاعته، وقوّة يقينه بأنّنا في حاجةٍ ماسّةٍ إلى دراسة التاريخ بتأمّل وموضوعية علمية محضة، مجرّدة عن الانحياز نحو الميول المذهبية أو القومية، بل وفي حاجةٍ أشدّ إلى دراسة ما نُشرعن تاريخنا الإسلامي ـ في الغرب أو الشرق ـ بصورة معمّقة، ليتعرّف الناس علىٰ مدىٰ صحّة ما نُشر، وسلامة ما نُقل، ووثاقة ما روي، وليميّزوا بين الحقّ والباطل، السمين والغثّ، بعيداً عن كلّ عمليات التحريف والتزييف.

ولذا ليس من الغرابة بشيء أن أتقبّل عملاً كلّفني وشرّفني به المركز العلمي الأغرّ، وهو تحقيق وتوثيق كتاب «في نور محمد: فاطمة الزهراء» الذي هو آخر ما

كتبه الأستاذ المرحوم، وخاتمة سلسلة أعماله النجيبة، والذي لم يمهله القدر في أن يرىٰ طبعته وهي تخرج إلى النور كما يخبرنا به صاحب دار نشر الزهراء في مقدمة طبعته للكتاب، وأنّه ألحّ على طباعته وأوصىٰ بذلك قبل أن يلفّه الموت بغياهبه!

لكن السؤال المثير هنا: لماذا الإلحاح على طبع كتابه «فاطمة الزهراء»؟

لماذا «فاطمة» بالذات؟

من هي فاطمة الزهراء؟

ترىٰ من هي فاطمة؟

حقّاً أقول: من هي الزهراء؟

إنّ أيّ حديثٍ عن هذه السيّدة الطاهرة قد يخطئ الهدف، وينحرف إلى غير ما أُريد منه إذا لم نمسك بالخيط الأساسي في الموضوع منذ ابتداء الأمر. أعني بصراحة: أنّه إذا لم نعرف على وجه الدقّة الاسلام بكلّ جوانبه ومراحل تاريخه المثير، ونتأمّل كلّ حلقات فصوله، فلايمكننا ـ والحال هذه ـ أن نعرف من هي فاطمة بصورة دقيقة.

فالميزان متىٰ انضبط أتىٰ بقراءة صحيحة ورشيدة دون شكّ، ومتىٰ ما اختلّ فيه شيء انعكس خلله بصورة واضحة على قراءته، فخرجت مشوّهة وبشكل مرعب علىٰ صفحته البيضاء.

وهل رأيتم ميزاناً مختلّاً ينطق حقّاً؟!

إنّ الحقّ إذا عُرف، وتكشّفت ملامحه بوضوح، فسوف يُعرف أهله، وستتّضح بالتالي من تشمله المظلّة، وأين تميل كفّة الميزان.

والمؤرّخون المتقدّمون تمثّلت أجوبتهم علىٰ سؤالنا في صورتين: هناك من قدّسها، وثمة من لم يفعل ذلك. والاثنان معاً ـ سواء كانوا عن قناعة أم لا ـ كانت أجوبتهما قد امتدّت عبر الأزمان والقارات.

وأمّا المتأخّرون فلم يقدّموا شيئاً، بل كانت أجوبتهم لا تعدو أن تكون عمليات

تتميم أو إعادة لصياغات قد قولبت منذ زمن بعيد.

والآن... أين الواقع الصحيح من هذا وذاك؟

أو ليس من حقّنا أن نطرح أجوبتنا وآراءنا في صياغة جديدة، وبقوالب مختلفة تماماً عمّا مضىٰ؟

وربّما ستحمل هذه العملية على معترك صعب وخطير! ذلك لأنّها ستكون ـ شئنا أم أبينا ـ جزءاً حيوياً من التصوّر الإسلامي تجاه مكانة الإنسان وخلافته في الأرض، ورؤيةً شاملةً للكون والحياة، بل هي أساس متين لبناء فكري وعقائدي، تقوم عليه صروح أخرىٰ لها علاقة بالدين والوجود برمّته.

وأمّا حقّنا هذا الذي ندّعيه إنّما هو نابع من كون السيدة «فاطمة الزهراء» هي للجميع، من مسلمين وغير مسلمين، وليس لأحدٍ من البشر أن يدّعي غير ذلك، لأنّها كانت تمثّل الإنسانية برمّتها، فضلاً عن كونها كانت تجسّد الإسلام نفسه.

فكما أنّ الإسلام يعني محمداً ﷺ، فإنّه يعني فاطمة! لأنّ فاطمة تعني محمداً، ومحمد يعني فاطمة، إذ أنّها بضعة منه، يؤذيه ما آذاها، ويرضيه ما أرضاها.

ولذلك فلكلّ مسلم فيها حقّ «التقديس» كتقديسه للإسلام، وأن لايتجاوزه بحال. وهذا «التقديس» لم يأتِ عن فراغ، وإنّما هو قائم علىٰ أدلّة شرعية ـ لفظية وغير لفظية ـ تشيد وتمجّد هذه السيدة الشريفة.

ومن يقف أمام هذه النصوص الواردة في حقّ الزهراء ﷺ، يجد نفسه أمام ساحة مقدّسة بالفعل، لامحيص عن أن يذعن بالخشوع والهيبة والانصياع.

لسنا وثنيّين

سامحهم الله أولئك الذين اتّهمونا بالشرك تارةً وبالوثنية أُخرىٰ!!

فهم إمّا أنّهم لم يعرفونا حقّ المعرفة، وإمّا أنّهم لم يفهموا الإسلام أو الوثنية بالمرّة!

ذلك لأنّهم وضعونا في جانب، ووضعوا «الزهراء» في جانب آخر، وحالوا بيننا

وبينها «أكداس» من النصوص في الوسط، ثم تركونا ومضوا!!

ولم تنقض مدّة وجيزة حتىٰ أشرقت الحقيقة، وتكشّفت أوجهها أمام الناس، فاندلع الخلاف والنقاش بينهم: فثمة فريق اصطدم بالواقع، وأخذ يصفع خدّيه من هول ما ارتكبه، وفريق عانى الحرج والكلفة وهو يحاول الخروج من ورطته التي أقحم نفسه فيها، وفريق آخر ألجمه المشهد، فظلّ جامداً مكانه لايتحرك، لايدري ما هو فاعل، حيث يرىٰ أكابر العلماء، وأعاظم المحدّثين، وأعلام المفسّرين، يروون فضائل محكمة السند والمتن، وآخرين يخوضون عبابها شرحاً وتبييناً، فأدهشه المشهد، فلم يجد بدّاً من أن يقفل فمه... ويرحل!

ثم هنالك فريق آخر حاول أن لايجعل قبضته في الهواء، ونصب جهده للبحث عن الحقيقة بكلّ وعي وأمل، ويقف عندها بتأمّل، من دون أن يفكّر في القفز من فوقها!

ربّما كان قصد «أولئك» أن يحموا تاريخ الإسلام من الانفراط، ويضيّقوا منافذه عليه، فلم يجدوا بدّاً من التشبّث ببعض «التفسيرات» قدر ما استطاعوا، رغم ما وجدوا فيه من الكلفة والإقحام. وهذه ربّما «إيجابية» نسجّلها لهم جملةً، ولكنّنا مع ذلك نأخذ عليهم أنّهم ظلموا الاسلام، وظلمونا نحن أيضاً!

فقد ظلموا الإسلام حينما قدّموه إلى الناس على شكل «تفسيرات» و«فتاوى» مقدّسة ولو كانت مخالفة لنصوص كثيرة وصحيحة واردة عن الشارع المقدّس، ثم قولبت هذه «التفسيرات» المقحمة بصورة قوالب «صخرية» مختلفة الأحجام!

وظلمونا أن ألصقوا فينا ماليس فينا،وقذفوا بنا بعيداً!! بل وظلموا أنفسهم بأن أقنعوها بأنّ الدين الإسلامي برمّته ـ تاريخاً ومنهاجاً وحضارةً ـ ما هو إلّا هدف، وليس وسيلة إلى الكمال، وأنّ الإنسان إنّما وجد للدين، وليس الدين هو الذي جاء من أجل الإنسان.

وهذه هي الوثنية الجديدة!

ذلك أنّ «الوثنية» ليس فقط عبادة الأوثان المنحوتة، وهي الصيغة «القديمة» لها،

بل الوثنية بصيغتها «الجديدة» صارت تتمثّل في عبادة «القوالب» المصنوعة من الفتاوىٰ الشاذّة، وخضعوا الناس لها، وحذّروا تجاوزها بكلّ الوسائل الممكنة!

وهذه الجهود، فضلاً عن كونها ظلماً بحقّ الإسلام وشريعته، ومصادرةً لحقوق المسلمين، وجفاءً لرموز الإسلام المقدسة، فهي تعدّ محاولة خطيرة لتعطيل عقل الانسان المسلم وقدراته التي أرادها الله أن تكون خلّاقة!

فالمسلمون جميعاً ـ بكلّ مذاهبهم الفقهية ـ متّفقون على أنّ ثمة معبود واحد لا غير، وهو الله سبحانه وتعالى، ومن يدّعي بأن هنالك معبود آخر غيره سبحانه فهو مرفوض. ومثلما ثار أسلافنا علىٰ وثنية الزمن القديم، فنحن نرفض ـ بنفس القدر ـ وثنية هذا الزمن الجديد.

نحو قراءة رشيدة للإسلام

معذور كلّ مسلم إذا ما أوقعته محاولته لقراءة الإسلام بصورة صحيحة في حيرة وتردّد، وبذل جهداً في سبيل ذلك لكنّه وجد نفسه عند مفترق الطرق، لكن أن يتعمّد القراءة المغلوطة،ويحا كي ما يعلم بطلانه وفساده فهذا ما لاعذر فيه، ولا يرضىٰ عنه سكّان السماوات ولا أهل الأرض!

وهل رأيتم أحداً يكافأ على الخطأ العمد إلّا الجزاء المبرّح؟

فمن حقّ المسلم أن يسأل ويناقش حتّىٰ يعثر علىٰ طريدته،لكي تتجذّر عقيدته، وتنصقل رؤاه عن علم ودراية. وهذه ليست مشكلة، وإنّما المشكلة هنا هي قضية الفهم المغلوط، والقراءة المعكوسة، فإنّهما يشكّلان من الخطورة بمكان!

وهذا الأمر هو الذي دعا المصلحين إلى بذل ما بوسعهم لغرض معالجة هذه المشكلة عن طريق القراءة الواعية والرشيدة للنصوص الإسلامية، التاريخية منها وغيرها، والتأمّل فيها، وربط بعضها ببعض، حتّىٰ تنكشف الحقائق عن الزوائف، ويتغربل الصحيح عن المغلوط.

ولايتفرّد الإسلام والمسلمون بهذه الظاهرة السلبية، فما أشدّ ما عانت منه

الأديان السابقة جراء المشاكل التي كان يصنعها أولئك الذين حاولوا الاحتماء بالسماء في تمرير أفكارهم وآرائهم في الناس، فإذا رغبوا في أن يمرّروا شيئاً سرعان ما وجدوا «نصوصاً» من مشايخهم يحتمون ويحاجّون بها.

فما أكثر «النصوص» المفسَّرة تفسيراً خاطئاً، وما أعظم الخطايا والمظالم التي ارتكبت جرّاء ذلك عبر عصور مريرة!

لكن السؤال المثير هنا: لماذا شاع ظاهرة الفهم المغلوط في بعض حقب التاريخ دون آخر؟

فهل ثمة علاقة ما بين هذا الشيوع والظروف السياسية المحيطة بكلّ حقبة، أم هو إفراز طبيعي لآثار التدهور أو التغيّر المربوطين بكلّ حقبة؟!

وقراءة واعية لفكر الآخرين

كما أنّنا بحاجة إلى قراءة رشيدة للإسلام، فنحن بحاجة أيضاً الى قراءة واعية لفكر الآخرين، ونقصد به جهود وآثار وإبداعات المذاهب الإسلامية الأخرىٰ، الذي قد يطلق عليه بعض الناس اسم «الدخيل» أحياناً أو «المخالف» في أحايين كثيرة! محاولةً لتجريحه أو تصغيره.

والأمر كلّه يصوّر الموقف وكأنّنا في حالة «حرب شعواء» بين أبناء الإسلام أنفسهم، بين أهل السنّة والحديث وغيرهم!!

وهذه مغالطة كبيرة أخرىٰ في صميم صياغة الفكر الاسلامي الأصيل.

ورغم أنّنا نشكّك في مقاصد «الصيحات» التي تطلق بين الآونة والأخرىٰ للتحذير من الفكر «الدخيل» أو «المخالف»، ولاتكفّ عن اختراع الحجج «الشرعية» لإضفاء صفة «دينية» لها، إلّا أنّنا لو افترضنا فرضاً حسن النيّة، وسلامة القصد، فسوف لاتخلو من ضرر يصيب الأمة، ويزيد من عذابها.

ذلك لأنّ ضرره إنّما هو في الاسلام نفسه، الذي هو في الأساس دين موجّه للبشر كافة، لايحدّه زمان ولا مكان، وإنّ أيّ تسليم لتلك الصيحات سيقود ـ بلا

شكّ ـ إلى قوقعته وتحجيمه لدرجة أن يخيّل للمرء أنّه لايتّسع إلّا لمذهبٍ واحدٍ فقط! ولايتجاوز عرب الجزيرة!!

وهل هذا إلّا مصادرة للإسلام وفكره الوقّاد؟

وليس من شكّ أنّ محاولة «قوقعة» الإسلام، وحبسه داخل أربعة جدران، لا يعني إلّا محاولة قتله بعد إفراغه من محتواه.

ولذا لابدّ أن نقرّر ابتداءً أنّ ثمة مغالطة كبرىٰ تمّ طرحها بقالب جديد في زماننا الحاضر، ضمن مقولة «الفكر المخالف» أو «الفكر الدخيل»، وأن نؤكّد أنّ هذه المقولة ما هي إلّا امتداد لتلك المقولات التي أُطلقت في ظلّ ذلك المناخ الذي ظهر فيه اختلاف المسلمين حول خلق القرآن، وانشغل علماؤهم طويلاً بالإجابة عن سؤال: هل القرآن مخلوق أم قديم؟ وضيّعوا جهودهم التي كانت من المفترض أن تصبّ في إطار إزالة هموم الأمة، وتكريس سعادتها، ضيّعوها في مناقشة قضايا لاتسمن ولاتغني من جوع.

وهل ننسىٰ محنة الإمام أحمد بسبب قضية خلق القرآن؟ وقبله الإمام الشافعي بسبب أشعاره في محبّة آل بيت الرسول ﷺ الذين فرض الله مودّتهم في قرآنه، ولولا حضور القاضي أبي يوسف الذي بذل جهداً كبيراً لإنقاذه لكان في عداد القرابين!

ويقيناً أنّ التعصّب الأعمىٰ والفكر المغلوط هما الصفتان البارزتان لأولئك الذين جرّوا المحنة لهذين الإمامين الجليلين،وسعوا إلى سحب مركبة الاسلام بعيداً عن ساحل الاستقرار والأمان.

فليس هناك ما يمكن أن نسمّيه فكراً موافقاً وآخر مخالفاً، أو فكراً أصيلاً وآخر دخيلاً على المذهب! وإنّما هو فكر موافق للإسلام وآخر مخالف له، وفكر إسلامي أصيل وآخر دخيل. الأول منهما نافع ينبغي أن نسعىٰ إليه ونلحّ في طلبه، والثاني ضارّ يجب مقاومته ونبذه.

إنّ هذه الرؤية المشوبة بالخوف والذعر من «المسلم الآخر» لم يعرفها المسلمون

في سنوات الدعوة الأولى رغم كلّ الظروف التي طرأت عليهم آنذاك وحساسيتها، وبدلاً من ذلك فضّلوا التعايش والإخاء على التباغض والعداء، برغم انتماءاتهم القبلية وتعدّد القبائل، وما كان بينها من عداوات ضارية، وثارات متقابلة، وظلّوا مع بعضهم البعض لمواجهة التحدّيات الخطرة التي كان يبرزها أعداؤهم في الداخل والخارج من حدود الجزيرة العربية، ثم التحدّيات الحضارية والثقافية التي استهدفت الفكر والتراث الإسلامي، والتي ظهرت بعد أن تخطّى المسلمون حدود الجزيرة باتجاه أوربا وأفريقيا وآسيا الوسطىٰ.

لقد ظلّ المسلمون على ثقة بدينهم وأنفسهم، يستلهمون قرآنهم وأحاديث نبيّهم الأكرم ﷺ في مواجهة المواقف المستجدّة، والتعامل مع الآخرين، ضمن نصوص واضحة ظاهرة، ولم يتكلّفوا تأويلها، ولا استجداء تفسيرها من غيرهم.

وإلى هذا المعنىٰ يشير الاستاذ العقّاد وهو يصف موقف المسلمين تجاه غيرهم من الحضارات الاخرىٰ، يقول في كتابه «التفكير فريضة إسلامية»: «خاضوا غمار الأفكار الاجنبية بين يونانية وهندية وفارسية، وعرضوا لكلّ مشكلة من مشاكل العقل والإيمان، وتكلّموا عن وجود الله ووجود العالم ووجود النفس، وخرجوا من سبحاتهم الطويلة في هذه المعالم والمجاهل فلاسفة مسلمين أيضاً، دون أن يعنتوا أذهانهم في التخريج والتأويل».

فإذا لم يكن المسلمون يخشون تفاعلهم مع «الآخرين»، ملتقطين كلّ ما هو إيجابي ومفيد من علاقاتهم معهم، فحريّ بهم أن لايخشوا تفاعلهم مع «بعضهم»، وأن ينطلقوا بثقة أكبر في علاقتهم فيما بينهم، مستوعبين كلّ ما هو مثمر ومفيد منها، بل وأن يزيدوا من تماسكهم في ظلّ تكالب أعدائهم على أُمتهم الخيّرة.

وكم المفارقة هنا مثيرة للدهشة: أن يكون المسلمون «تقريبيّين» في سنوات دعوتهم الأولى وهم في ذروة قوتهم وسطوتهم، وأوج انتصاراتهم وتقدّمهم، بينما

ليسوا كذلك حينما ألقوا أسلحتهم واحداً بعد الآخر، وتحوّلوا إلى «مغلوبين» بعدما كانوا «غالبين»!!

فهم إلى «التقريب» و«الوحدة» أحوج من أيّ شيء آخر في زمن المحن والتحدّيات الكبرىٰ.

التقريب والتثريب

هل ثمة علاقة بين التقريب والتثريب؟

إنّ أيّ استطلاع نجريه في أوساط المسلمين يكشف أنّه هناك من اتّخذ الربط بين «التقريب» و«التثريب» منهجاً في الدعوة، ومعياراً يقيسون به للتفريق بين «السلفي» وغيره!!

وكأنّ تقريب القلوب والموادّة بين أبناء ديننا صار جرماً قبيحاً، يعاقب عليه مرتكبه، رغم أنّ نبيّنا الأكرم ﷺ كان سيّد التقريبيّين حينما أعلن الإخاء بين المسلمين!!

ولست هنا في مقام المناقشة وردّ هؤلاء الذين لايرون مخالفيهم إلّا كفّاراً وجاهليين، فهؤلاء لا نقاش لنا معهم، لأنّهم يرون الاسلام بعينٍ واحدةٍ فقط، ومن يرىٰ بعينٍ واحدةٍ لايمكنه أن يدرك الحقيقة بصورة سليمة، فهؤلاء يسيئون إلى الإسلام بأكثر ممّا يسيء اليه ألدّ أعدائه ولو من حيث لايشعرون.

إلّا أنّ ما يعنينا هو تناول القضية الأهم في المقام، وهي شيوع النظرة «العوراء» إلى الإسلام بين جمهور المسلمين، وهي بطبيعتها آفة لم تصب شباباً متهوّراً حديث السنّ والتجربة فحسب، بل أصابت ـ وهو ما يثيرالدهشة ـ شيوخاً يفترض فيهم الحكمة والقدرة على التمييز والقراءة الرشيدة للاسلام، فبدلاً من أن يدعو إلى وحدة الصفّ وتقريب القلوب بالتحابب والإخاء والموادّة بين الناس، تراه يرعد ويزبد وهو يلوّح بعصاه الغليظة لكلّ من لايرىٰ العلاقة بين «التقريب» و«التثريب»!

والآن... هل هناك علاقة بينهما حقّاً؟

إنّ طرح هذا السؤال يفترض توفّر عنصرين مهمين، وهما: أنّنا جادّون في هذه الدعوة: دعوة التقريب الخالصة، وأنّنا متّفقون على التصوّر الاسلامي تجاه هذه القضية.

فإنّ ثمة من يراوده الشكّ في جدّية المنادين بالتقريب في عالمنا الاسلامي، ويرون «التقريب» أشبه بمبادرة إلى تشديد «الحصار» على المذاهب الأخرىٰ، وبعبارة أخرىٰ: يرونه صيغة «وصاية» لمذهب علىٰ آخر، أو عملية «انقلاب» يقودها أحد المذاهب ضد مذهب الأسلاف!!

ولا أريد مناقشة هؤلاء أيضاً، لأنّهم ـ في الواقع ـ يعرفون جيداً جوهر القضية، ويدركون الأمور ومفاتيح المشكلة، لكنّني أودّ الإشارة إلى نقطة مهمة وخطيرة فيها، وهي أنّ ممارسات هؤلاء وجهودهم المبذولة في هذا السياق، إنّما يدخل في باب توظيف الاسلام كورقة رابحة لصالح الاستعمار والصهيونية العالمية.

ولعلّ في التجارب التي نمرّ بها في تاريخنا المعاصر، كما في باكستان، ومروراً بالجزائر ولبنان، وانتهاءً في العراق، دروساً غنيةً تفيد في هذه المناقشة!

فمن منّا ينكر أنّ الاستعمار ظلّ يقاتل طوال قرن كامل ليستولي على العالم الاسلامي، وطوال قرن آخر ظلّ يكافح من أجل تقويض أركان الإسلام بمختلف الحيل والألاعيب؟!

وبعد... فهل ثمة جريرة أعظم من جريرة تفريق المسلمين، وتكريس العداوة والبغضاء بين فرقهم ومذاهبهم الرشيدة؟

فاطمة بضعة النبي ﷺ

ما شأن فاطمة بالتقريب؟

سؤال قد يطرحه من يلتقط هذا الكتاب، فيجد عنوانه الذي يشير إلى اسم هذه السيدة الخالدة، ثم يرسل نظره إلى أعلى الغلاف فيجد علامة الناشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، عندئذٍ يقفز هذا السؤال إلى ذهنه!

قد يقال: أنّه لا شأن لها به! فالسيدة تعدّ إحدىٰ أعلام النساء المسلمات، لم تعش طويلاً، قضت جلّ حياتها في خدمة أبيها، وشطراً منه في خدمة بيتها الزوجي، فلم يُعرف لها نشاط تقريبي!

دعونا نسمّي هذه المقالة بالمقالة الخاطئة!

وقبل المناقشة ينبغي أن نسجّل ابتداءً نقطتين مهمتين ومثيرتين في هذا النطاق:

الأولى: أنّ الذين يردّدون هذه المقالة لايطلقونها إلّا وهم يصرّون على أنّ فاطمة شخصية مستقلّة عن أبيها ﷺ، بمعنى أنّهم ينادون بالفصل بين الشخصيتين، بل ولايتردّدون في تأييد فكرة انتصاراها لتيار زوجها فحسب. وهذا خطأ!

إذ لم يسبق أن شهد التاريخ علىٰ أنّها كانت بمعزل عن خطّ النبوّة أبداً، ولم يذكر أحد أنّها استقلّت مركبةً بعيدةً عن مركبة أبيها النبي الأكرم ﷺ. وهذا الكتاب يروي من الحوادث ما يدعم قولنا ويؤيّد وجهة نظرنا، ويكفي قوله ﷺ: «فاطمة بضعة منّي» في بيان ما نصبوا إلى الإدلاء به.

الثانية: أنّ الذين يرون هذه المقالة وأمثالها إنّما هم ينظرون بعين واحدة كما هو واضح!

فهم لم يجدوا في شخصية هذه السيدة الطاهرة سوىٰ أنّها امرأة كغيرها من نساء المسلمين اللاتي يمتلكن بعض الفصاحة والإيمان! وخارج هذا الإطار فأغلب الظنّ أنّ أحداً لم يجد الجرأة الكافية على كسر هذا الطوق الذي أحكمه الاضطهاد السياسي، ولا الجسارة إلّا ترديد هذه المقولة التي لاشكّ أنّها ضمن مواريث الفكر القسري الذي أخذ مكانه في التفكير الاسلامي إبّان عصور الانحطاط والتدهور.

وقتذاك صفّق له اثنان: الطامحون إلى «الملكية»، وأعداء الأمة الذين قرّت أعينهم بهذه المقولة التي لاشكّ ستفرز نتائج «ايجابية» أقلّها إحداث شرخ في صميم العلاقات القائمة بين أكبر وأبرز فريقين: الشيعة والسنّة.

ببغاوات ومستشرقون

ومن الثابت تاريخياً أنّ الذين انتصروا لهذه المقولة الخاطئة، ورفعوا لواء تجريد السيدة الزهراء من قدسيّتها و«بضعيّتها» من غير أهل السياسة هم فريقان:

الببغاوات الذين استقرّ في أعماقهم ما ردّده البعض من الذي لم يكن يرىٰ إلّا بعينٍ واحدة!

وأمّا الفريق الثاني فيضمّ عدداً من المستشرقين الذين جلّهم لايتمنّىٰ الخير لأهل الاسلام، ولا الصلاح لهم بحال.

ولعلّ هناك فريقاً آخر من الباحثين ممّن لبس عليه الفهم، واجتاحه قصور في الرؤية تجاه الأحداث والأسماء، فتخبّط في كلامه، وراح يكتب بلاتأمّل!

وليس من شكّ أنّ المستشرقين لا تجدي معهم المناقشة، وهم بطبيعة مهامهم لا يرغبون حتّى بالمناقشة. وأمّا المتلبّس عليهم الفهم فأمرهم هيّن إذا حسنت نواياهم، وأمّا الببغاوات فهم المشكلة الأكبر.

إذ أنّ هؤلاء هم الأغلبية في هذا المضمار، وهم أصحاب «مدارس» ضاعت من بين أوراقها بطاقات الانتماء، وأُلغيت في قاموسهم مصطلحات «الحصانة» و«القدسية» و«الرموز المقدّسة» و«الشرف»، فهم تستهويهم صياغات خاصة، وشعارات محدّدة و«مقولبة» طالما كانت تخدم مصالحهم الشخصية.

رجال جريئون

وحتّىٰ لا يكون التعميم ظالماً، لابدّ أن نشير إلى أنّ ثمة من لجأ إلى ركن وثيق، وتأمّل الواقع والحوادث بموضوعية مجرّدة عن الأهواء والميول، وسعىٰ إلى أن يتّخذ منها دروساً وعبراً ونتائج انطلق منها إلى عملية «تحديث» صياغات جديدة، دون صياغات وقوالب الببغاوات.

والواقع أنّ الباحث يستطيع أن يجد في كتابات كثيرين من المفكّرين والفقهاء ـ

من غير الشيعة ـ شيئاً من هذا القبيل. ولعلّ من أبرز هؤلاء الاستاذ الدكتور عبدالفتاح عبدالمقصود الذي أتحف المكتبة العربية والاسلامية بجملة كتب جادة وهادفة أخذت موقعها المشرق في مظانّ رفوفها، واحتلّت مكانةً لائقة عند القرّاء، لما ساهمت في ضخّ التراث الاسلامي بمواد علمية وثقافية وتاريخية قيّمة.

هذا الكتاب

وهذا الكتاب الذي تغفو دفتّيه بين يدي القارئ اللبيب فهو أحد مؤلّفات الأستاذ الدكتور عبدالفتاح عبدالمقصود المصري، الذي حاز على توفيق عظيم لأن ينهض بمشروع ثقافي خاص تمثّل بتأسيس تيّار فكري ثقافي جديد يهدف من ورائه الدعوة إلى دراسة التاريخ الاسلامي دراسة علمية وموضوعية، قائمة على أسس متينة لإتمام عملية الفرز والتمييز بين الواقع والخيال، الحقّ والباطل، الصحيح والغلط... التي قام بها بعض الأسلاف وامتدّت إلى الآن.

إنّ التعرّض لموضوعات تاريخية ومحطّات اسلامية قد لفّها الغبار، وتكاثرت الأقاويل عليها، ثم تسديد القلم باتجاه البحث عن الحقيقة، وكشف الغطاء للعيان لتبديد كلّ غموض قد أحاط بالشخصيات الاسلامية البارزة، وتحديد صورتها الواقعية والحقيقية... لعملٌ يتطلّب رجلاً يتوافر فيه وعي كبير، وثقافة واسعة تحاكي مناخات متعدّدة، وقدر كافٍ من المهارة الأدبية لبيان المطلوب إلى أذهان الناس.

إنّ هذا الانتماء إلى تيّار «التصحيح» الذي جسّده المؤلّف في سلوكه وردوده ومناقشاته، وتعبيره في أكثر من موضع من هذا الكتاب عن رفضه الكثير من المقولات التي لاتمت إلى الاسلام بصلة، ودعا إلى غربلة التاريخ، والتأمّل بمحتوياته الخليطة، لخليق بأن يحظىٰ بتقدير النقّاد، وأن لايكون بمعزل عن دائرة النتاجات العلمية والأدبية الرائعة التي ظهرت في ظروف كانت الحاجة شديدة إلى بعث الحياة في مجرىٰ الأبحاث الهادفة.

فمن الروعة حقّاً أن تبرز الاهتمامات من قبل الكتّاب والعلماء والمؤرّخين

المسلمين تجاه هذا السفر الذي يتعرّض بحثاً وتحليلاً إلى جملة محطّات مشرقة في تاريخنا العربي الاسلامي، فأفصحت عن مدىٰ قوة الاسلام، ودور رجاله وشخصياته في نشر رايته، وإعلاء كلمته: كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة، في بقاع عريضة على سطح كوكبنا الدوّار.

والأروع منه هذا الإيحاء الصادق الذي يقوم به هذا الطيف من المفكّرين والباحثين الذين استوعبوا هموم الرسالة المحمدية، وتحمّلوا المشاقّ في سبيلها، ومنهم هذا المؤلّف القدير الذي حاول أن يرسم منهجاً علمياً قويماً لدراسة التاريخ وشخصياته الفذّة.

لقد أظهر هذا الكتاب بأسلوبه الشيّق، وبيانه الرائع، وأدبه البليغ، وقلمه الجذّاب، ولغته المسبوكة... مدى ثقافة واطّلاع الكاتب، وموهبته الخارقة التي جمعت رشاقة الأدب، وجفاف لغة الفقه، ومطوّلات قصص التاريخ في بوتقةٍ واحدةٍ ليصبّ منه قالباً أثار إعجاب ودهشة قرّائه.

وكلّ ذلك يشير إلى أنّ شخصية المرحوم عبدالمقصود ليست من الشخصيات المغمورة أو العادية في مجتمعها، ولايصنّف ضمن الرجال الذين كانوا يطرقون في الحديد البارد، بل كان يعدّ من الشخصيات الملهمة والمستنيرة، وفي عداد الصفّ الأول ممّن حملوا معاولهم بأيديهم وانطلقوا بحثاً عن الحقيقة.

وفي الوقت الذي كان يتحلّىٰ به من شجاعة وجرأة في البحث والحركة في أرضٍ متعرّجة، كان يمتلك البراعة والمهارة الكافية ما تتيح له الجري بتلك الأرض من دون أن يثيرالغبار حوله، ولا النفرة من الذين يراقبونه، بل العكس من ذلك، فقد اكتسب اشادة الجميع بعد أن منح كتابه صفةً قلّما تتمتّع بها كتب الآخرين، وهي صفة التقريب، ومحاولة طبعها بطابع الرغبة في معرفة الحقّ والإنصاف، بلغة مشوبة بالأدب واحترام الآخرين.

ولذلك لابدّ من التنويه بقيمة هذا الكتاب في إطار التقريب بين المذاهب، لأجل ما تضمّنه من مواضيع جادة وهادفة ينقل القارئ من محطة تاريخية إلى أخرىٰ،

لا يخلو من مناقشة رزينة، وتحليل دقيق. وهذا ما دعا المجمع العالمي المبارك إلى تحقيقه وطبعه ونشره بثوب جديد يليق ومكانته.

وختاماً، اغتنم هذه الفرصة لكي أتوجّه بالشكر والتقدير إلى مركز البحوث والدراسات التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الذي أتاح لي شرف المساهمة في نشر الأفكار والمشاريع التي تصبّ في خدمة الإسلام والمسلمين، وخدمة المسيرة الوحدوية التي دعا إليها علماؤنا الأبرارمن المتقدّمين والمتأخّرين.

نسأل الله سبحانه أن يوفّقنا والعاملين في هذا السبيل إلى المزيد من القوة والنصر على أعداء أمتنا الذين تكالبوا علينا من كلّ حدبٍ وصوب، إنّه خير موفّق ومعين.

شوقي محمد

الفصل الأول

- النار في الكعبة
- سفينة باقوم
- من باب الصفا
- الرداء والحجر
- الموعود
- نجم الزهراء

اللوحة الأُولىٰ

النار في الكعبة

أهذه هي مكة؟

أهؤلاء أهلوها؟

فأين منها الأمان الذي كان رايتها المرفوعة؟ ومن لهم بالطمأنينة؟

* * *

الصفاء الذي أطلعته أرضها الطيّبة، السنين الطويلة، تكدر وتغبر[1].

علىٰ أُفقها الضاحي الضاحك كِسَف[2] من الغيم الأسحم[3].

في سمائها الرقراقة[4] بقع شهباء[5] وسوداء، شهباء كالضباب[6]، سوداء كالظلام بين

---

١ . الكَدَر والكَدارة والكُدُورة والكُدْرة: نقيض الصفاء، يقال: كَدر علىٰ فلان: أي اغتاظ منه واغتمّ. وغَبَر من الأضداد: مضىٰ ومكث، فالغابر جمعه غُبَّر وغابرون: أي الماضين أو الباقين.

٢ . الكِسْف والكِسَف والأكساف والكُسُوف، مفردها: الكِسْفَة والكَسِيفة، وهي القطعة من الشيء.

٣ . سَحِمَ وسَحُم سَحَماً: إذا اسودّ، فهو أسْحَم، وسَحَم وجهَه: سوّدَه.

٤ . الرَقْراق: المتلألئ بأن يجري جرياً سهلاً رقيقاً، يقال: ترقرق السحاب: ما جاء منه وذهب، والشمس: صارت كأنّها تدور.

٥ . الشَهَب والشُهْبة: بياض يتخلّله سواد، والشَهْباء مؤنّث الأشْهب.

٦ . الضباب: سحابة تغشى الأرض، وتحجب الرؤية.

نورها خيوط وخطوط من الظلّ كآثار لسع السياط.

هنا وسوسة عاصفة، وهناك همهمة[١] إعصار.

الجوّ كلّه بروق ورعود، رياح وزوابع[٢]، تراب وغبار.

❊ ❊ ❊

ولّى الهدوء، أفَل الضياء.

وها هي البلدة الحرام الوادعة، التي تحتضنها الجبال الخرساء، ينتهشها[٣] الضجيج، وتعربد[٤] فيها الضوضاء.

ها هي على فُرقة من بعد وحدة، وشقاق من بعد وفاق، شطرها الاختلاف.

الأحاديث فيه جلبة وقرقعة[٥]، الآراء أشتات والنفوس، من وراء هذا قلقة، والعيون حيرانة.

والأحداس[٦] في الخواطر تضطرب وتموج، تنتشر لتنحسر[٧]، وتنحسر لتنتشر، تماماً كصفحة البحر حين يبسطها المدّ، ويطويها الجزر[٨].

❊ ❊ ❊

---

١ . الهَمْهَمة: كلّ صوت معه بَحَحٌ، وأصلها: صوت البقر والفيلة وشبهها.

٢ . الزوابع: مفردها زَوْبَعة، وهي هيجان الرياح وتصاعدها إلى السماء.

٣ . ينتهشها: أي يجهدها، وأصله تناول الشيء بالفم ليعظّه فيؤثّر فيه ولا يجرحه، كذلك نَهْش الحيّة، ويقال: نَهَشَه الدهر: إذا جهده وأوقعه في الحاجة.

٤ . العَرْبَدة: الشدّة في كلّ شيء.

٥ . الجَلَبة: الأصوات والصياح إذا اختلطت. والقَرْقَعة: الصوت الجافي، كصوت وقوع الحديد على الحديد، ونحو ذلك.

٦ . الأحداس: جمع حَدْس، وهو الظنّ والتخمين والتوهّم.

٧ . الانحسار: نقيض الانتشار، يقال: انحسر الشيء إذا انقطع وانكشف.

٨ . المدّ والجَزْر: ظاهرتان تصيبان النهر والبحر، فالمدّ إذا زاد ماؤه وامتدّ وانبسط، والجَزْر ضدّه إذا انحسر الماء ورجع.

حتّى الأصابع راحت تتقبّض وتتوتّر، كأنّها مخالب تهمّ بالنشوب[١].
وحتّى السيوف راحت تهتزّ وتتحفّز[٢]، كأنّها قضاء يهمّ بالنزول.
كما في ساحة الوغىٰ، قسم الخلاف أهل مكة صفّين متناجزين، كلاهما يواجه الآخر بأسلحة السخط والتجبّر والعنف، وكلاهما مشدود الأعصاب علىٰ أهبّة الهجوم.
والأفق فوقهما أحمر، والسُحُب[٣]، في جنبات سمائهما، دم متخثّر[٤].

* * *

الخلاف الناشب الآن بينهما استفحل، وغدا كماردٍ[٥] رهيب.
والإحساس الثقيل بالخطر المقبل قد عشش وأفرخ في كلّ الأذهان.
وأهلها جميعاً في الهمّ سواء، لا فرق فيهم بين قريب وبعيد، كبير وصغير.

* * *

المقيمون بالبلدة كانوا يتنفّسون خوفهم من المجهول، صباح مساء.
والظاعنون[٦] عنها كانوا يصحبونه معهم علىٰ طريق الرحيل.
والعائدون إليها، من بعد غياب، كانوا يرونه ستاراً من العذاب.

* * *

ما من فرد بمكة آنذاك إلّا عاش ذلك الخطر الذي يوشك علىٰ التهام الأمان.

---

١ . المخالب: جمع مَخْلَب، وهو الظفر خصوصاً من السباع، فاستعير لغيرها. ونَشَب الشيء في الشيء نُشُوباً ونَشَباً ونُشبةً: إذا غلق فيه ولم ينفذ.
٢ . تتحفّز: أي تتهيّأ للوثوب.
٣ . السُحُب: جمع سَحابة، وهي الغيمة.
٤ . خَثُر اللبن والدم وتخثّر: إذا ثخن واشتدّ وغلظ، فهو خاثر، ضد الرقيق.
٥ . المارد: العاتي المرتفع، كأنّه تجرّد من الخير.
٦ . الظاعن عن الديار: الراحل عنها.

كلّهم عاشوه بالأجساد والأرواح، بالجوارح والمشاعر، بالأوصال والأعصاب.

في خلوتهم كان يخامر الأخيلة[١] والعقول، في اجتماعهم كانت تلوكه الحلوق والأشداق[٢]، في رقادهم كانت تبثّه الرؤىٰ والأحلام.

في مناخ إبلهم كما في مساري قوافلهم، في البيوت والمضارب كما في الطرقات والدروب، في الآهل المعمور كما في البَلْقع[٣] الخراب، في بطن البلدة كما في البِطاح[٤].

في كلّ مكان، وفي كلّ جانب من مكان.

بل السوامر[٥] التي تضمّ الرفاق والندامىٰ، إبّان الليل، علىٰ شرابٍ ولهو، وتندّر وحديث، لم تكن تخلو من شبح ذلك الخطر المستتر الماثل، الذي يخايل النوظر، ويخالط الخواطر، ويغزو القلوب.

* * *

ولم يأخذ الأمس ـ أيّ أمسٍ تولّىٰ ـ مارد الخط في ركابه عندما سار في رحلة المغيب، فهذا المارد الجبّار كان يعود من جديد، مع كلّ نهار، كما كان يسبح في الظلمة كان أيضاً يسبح في النور، كما كان يغرب في الليل كان يقبل مع الشروق، كان دائماً يتعلّق بشعاع الشمس البازغة[٦] ويجيء.

* * *

---

١ . يخامر: يخالط، يقال: خامر القلبَ الخوفُ إذا داخله. والأَخْيِلَة: جمع الخيال، وهو الظنّ والوهم.

٢ . الأشداق: جمع شِدْق وشَدْق، وهي زاوية الفم من باطن الخدّين، وشِدق الوادي: ناحيته.

٣ . الآهل: أي المأهول بالناس وغيرهم. والبَلْقع والبَلْقَعَة: جمعها بلاقع، وهي الأرض القفر، يقال: أرض بَلْقع إذا كانت مقفرة وخالية من أحد.

٤ . البِطاح والبطائح: جمع البَطحاء، وهو مسيل كلّ وادٍ الذي يشتمل على الحصى الليّن والرمال الرقيق، أي الشريف منه المرتفع، ولذا قيل: قريش البِطاح، أي الذين ينزلون أباطح مكة وبطحاءها.

٥ . السوامر: جمع سامر، وهو مجلس المتسامرين، يقال: تسامر القوم إذا اجتمعوا وتحدّثوا ليلاً.

٦ . بَزَغَت الشمس بَزْغاً وبُزُوغاً: إذا طلعت وأشرق نورها، يقال: نجوم بوازغ أي طوالع.

إنّه لخطر يشيع في الهواء، يسدّ منافذ الفضاء، يملأ العيون، ويحشو الأسماع، ويكتم الأنفاس.

وإنّ له لوناً قانياً كنفثات الشفق ومسايل[١] الجروح، وله وقدة[٢] تشوي الأحاسيس، وله زهمة[٣] تخنق الحلاقيم.

وهل في جوار بيت الله آنذاك امرؤ يحلم بغدٍ آمن، لا تصطفق فيه الأسنّة، ولا يصلصل[٤] السلاح؟

* * *

بل لا، ولا رجاء في أمان، فالبلدة المقدّسة صارت على فوّهة بركان.

النقاش بين فريقي أهلها المتنازعين نقلهما إلى مثل ميدان قتال، التراشق بالكلام أوشك أن ينقلب إلى تراشق بالسهام.

أقد تمزّقت الآن وشائج[٥] القربىٰ، التي جمعتهم من قبل في وحدةٍ وثيقة، وتناثرت تحت الأقدام؟

أقد انحلّت كلّ عروة، وتقطّع كلّ رباط، فانبتّ الفرع من الأصل، وانفصل الحاضر من الغابر؟

أقد تحوّل الدم في عروقهم إلى ماء؟

* * *

لعلّ كلّ هذا كان.

---

١ . النفثات: جمع نَفْثَة، وهو ما يظهر من الشيء، كالدم من الجرح، والهواء من الفم، والسمّ من الحيّة. والمسايل والمُسُل والمُسْلان والأَمْسِلة: جمع مسيل، وهو موضع السيل، فمسيل الجرح: موضع جريانه.

٢ . الوَقْدة: المرّة من وَقَد، وهي أيضاً: أشدّ الحرّ.

٣ . الزَهْمة: ريح اللحم المنتن. والحلاقيم: جمع حُلْقوم، وهو الحلق.

٤ . اصطفقت: أي تحرّكت واضطربت مع بعضها فأحدثت صوتاً. وصَلْصَل: أي صوّت حينما تصطدم بعضها مع البعض.

٥ . الوشائج: جمع وشيجة، وهي الصلة القائمة بين الأقرباء، وأصلها: عِرق الشجرة، وليف يُفتل ثم يُشَدّ به ما يُحمل.

فهاهم أولاء، بعد الولاء أعداء، ها هم نقيضان لا يلتقيان.
ها هم بنو عدي وبنو عبدالدار في حلف، ومن عداهم من قبائل قريش في آخر.

* * *

فما للقوم! ما خطبهم، وماذا غيرهم؟
وأين عِرْق الأصل، وصِلَة الرحم، ووثاق الدم، وعِشْرة العمر؟
تبدّدت كهباء[١].

وها هي صلة هذا البيت العتيق العريق: حرم الله، التي وشجت ما بينهم، ولمّت شعثهم[٢]، وجمعت شملهم، ووصلت حاضرهم بماضيهم، ولفّت أجيالهم المتعاقبة عبر الزمن حول صرحه الأشمّ[٣]، كالسياج المنيع، منذ رفعه جدّهم الأعلىٰ إبراهيم، لم يعصمها منهم عاصم، وأوشكت أن تنهار.

تلك الصلة الروحية القدسية، الضاربة إلى بعيد في أغوار الأعصر، أخذ يلعب بها الشيطان، أحالها أداة إغواء، استغلّها كما استغلّ عاطفة حواء.

فكيف جرفهم التيار؟

لكأنّهم ـ أمس القريب ـ إذ هدموا الكعبة الغرّاء ليعيدوا بناءها أرفع وأروع، إنّما هدموا بهدمها حصن وحدتهم الأهلية الوثقىٰ، وقوّضوا دعاماته من الأساس.

لكأنّما ـ في غمرة خلافهم هذا الأرعن ـ نسوا حرمة البيت المقدّس الذي جعله الله لهم وللناس كافّة مثابةً وأمناً، ونسوا معها حرمة القتال في البلدة الحرام.

لكأنّي بهم لم تلدهم هاجر، لكأنّهم ليسوا بني اسماعيل.

لكأنّ فريقيهم هذين آثرا أن يعيدا كرّةً أُخرىٰ إلى الحياة مأساة هابيل وقابيل.

* * *

---

١ . الهَبَاء: جمع أهْباء، وهو الغبار، دقائق التراب العالقة والمنثورة علىٰ وجه الأرض.

٢ . شَعَث الأمر: انتشر، وشعَّثه إذا فرّقه ونشره، يقال: لمَّ الله شَعَثَهم، أي جمع أمرهم.

٣ . شمَّ شَمَماً: تكبّر، والجبل: إذا ارتفع أعلاه، فهو أشمّ.

فإن يكن عجباً من العجب ـ وانّهم لإخوة ورفاق ـ أن يقع بينهم ما وقع، وينشب ما نشب، فأعجب منه وأمعن في العجب أن تكون ذريعتهم إلى اللدد[١] والشقاق هذه الكعبة، وإنّها لرمز سلام ووفاق!

لكن الأغرب المستنكر غلب الأولى المنتظر، والمحال اقتحم واقع الحال.

* * *

وهذه هي بداية الأمر كلّه:

الجمر أحمر، ومض[٢] وتلألأ كحصوص[٣] الياقوت، احترق عليه الصندل[٤] والعود، تعالت من المجمرة سحائب البخور، تردّدت أنفاس المسك والعنبر، امتلأ الجوّ بنفح الطيب.

فثمّة امرأة رأت على نفسها حقّاً لبيت الله أن تبخّره، إنّها تطوف بمجمرتها، في أرجائه، هنا وهناك، لا تمرّ منه بموضع إلّا غسلته بأريج العطر الذي ينفثه الجمر.

وكانت تتحرّك كأنّها في حلم، كانت كسابحة على الهواء، خفيفة كطيف، نعسانة الخُطىٰ كنسمة صيف.

سحائب البخور تلتفّ حولها التفاف ثوب شفّاف، والدخان الرقيق ينبثق من بين الرماد المتوهّج انبثاق ينبوع، ثم يتلوّى كجدول يحاول تياره الحائر أن يجد لنفسه منفذاً بين الصخور، ثم ينعقد براعم براعم، وعناقيد عناقيد، ثم تنفرط العناقيد انفراط حبّ وثمار، وتتفتّح البراعم عن زهر ونوار[٥].

ثم تنساح هذه وتلك، وهي ترفّ وتشفّ، حتّى لتغدوا بلون السماء الشهلاء ساعة ميلاد النهار.

* * *

---

١ . اللَدَد: الخصومة الشديدة.

٢ . وَمَضَ: لمع خفيفاً.

٣ . الحُصُوص والأحصاص: جمع حُصّ، وهو اللؤلؤة.

٤ . الصَنْدَل: جنس شجر هندي، خشبه طيّب الرائحة، مرغوب فيه.

٥ . النَوَار: الزهر الأبيض منه.

وبدت ضبابة البخور الرمادية رقطاء[١]. فعلىٰ ديباجتها الرقيقة أخذت تظهر نقط بيضاء كالنجوم، نقط تتراقص في رشاقة واتّساق.

آناً تترآىٰ وآناً تتوارىٰ، تارةً تومض وتارةً تأفل، مرّة تشرق فتبرق، ومرّةً تبهت فتغرق في أغوار الدخان.

* * *

ومضت المجمرة المعطّرة في يد صاحبتها، تعلو وتهبط، وتلفّ وتدور، وهي تنثر الشذىٰ الذكي، في جَنَبات[٢] البيت الحرام، بين الأَبْهاء[٣]، على الجدران، عند الحطيم والحجر والمقام.

* * *

ولحظة أن أخذت المرأة تدثّر الكعبة بزفير الجمر، طفت فوق طرف غمامة البخور العائمة في جوّ المكان، قطرة من ضياء، كأنّها فقاعة هواء في ماء رقراق.

كانت بهيّة السنا واللألاء، كان كفراشة هائمة حيرانة، تتأرجح وتتذبذب على غبش[٤] الدخان الرمادي، باحثة عن طريقها إلى التحرّر.

كانت شرارة نار.

* * *

في لمحة عين، تركت قطرة الضياء الوهّاجة موكب الضباب الذي تسير فيه، واتّجهت إلى ذلك البناء الأقدس الأغرّ الذي بدأت تتجمّع حوله سحابات العطر.

---

١ . الرُقْطَة: السواد المشوب بنقطٍ بياض، أو البياض المشوب بنقطٍ سواد.

٢ . الجَنَبات والأَجْنِبَة: جمع جَنْبة، وهي الناحية.

٣ . الأَبْهاء والبُهُوّ والبُهِيّ: جمع بَهْو، وبهو البيت معروف، وهو كلّ ما يقام أمام البيت من منزلٍ للغرباء والضيوف، وهو اليوم غرف الاستقبال، وقاعات الضيوف الصغيرة والكبيرة.

٤ . غَبِشَ الليل وأغْبَش: إذا خالط البياض ظلمته في آخره.

إلى الكعبة طارت بلا جناح، ثم حامت حولها هنيهات، ثم حطّت بغتةً على سترها كما ينقضّ شهاب.

وفي الحال زمجر[١] اللهيب، وشلّت المباغتة العقول والأوصال.

* * *

ألا ما كان أبلغ منطق ألسنة النار!

لكأنّها تتحدّث بكلّ لغات الدمار! لكأنّما تفجرت الأرض كلّها بركاناً يثور! لكأنّما بُرّزت الجحيم، لكأنّما تلظّت[٢] السعير.

إنّها لتزحف، عاويةً مسعورةً، كأنهار غضاب[٣] من العذاب.

وإنّها لتسرح منهومة شرهة على الكعبة، تزدرد[٤] منها ما تشاء، وتلتهم ما تشاء.

وعندما خلص الناس من صدمة المباغتة، وهبوا من غشيتهم ليبطشوا بتلك الفراشة الجهنمية التي طفقت ترقص رقصة الفناء على الأرض والجدران والأستار، كان الحريق المجنون قد نال من البقعة المقدّسة شرّ منال.

وتلفّت القوم مفجوعين يتساءلون: ماذا وقع؟ ما الذي بقي، وما الذي ضاع من البناء الطاهر العتيق؟

بعضه قد تفحّم، بعضه قد تهشّم، وكلّه مشت عليه النيران العاتية مشية الزمن على طلل[٥]، وصبغته بظلال قاتمة بدت كبقايا الوشم على يد موشوم.

---

١ . زَمْجَر زَمْجَرةً: إذا أكثر الصياح والصَخَب، ومنه جاء أنّ زَمْجَرة كلّ شيء: صوته.

٢ . تَلَظَّت النار: التهبت مع شدّة وغيظ.

٣ . غِضاب وغَضْبىٰ وغَضَابىٰ: جمع غَضُوب وغَضبانة.

٤ . ازدراد الشيء: ابتلاعه بسرعة.

٥ . الطَّلَل: جمعه أطلال وطُلُول، وهو الشاخص المرتفع من الآثار المتبقية.

اللوحة الثانية

سفينة باقوم

تلك الليلة لم تنم قريش، لم يغمض لها جفن، لم يهدأ لها بال.

أم كانت تغفو وتقرّ ويستريح لها جنب وإنّ هذا الذي وقع بالكعبة ليكاد يكون نذيراً لها بغضب الله؟

وقلقت كما لم تقلق من قبل، وراحت تتقلّب في الحيرة.

ثم تمالكت، فنشطت تراجع الحال، وتراجع النفس، وتراجع الجهد، وتراجع المال، ولم يكن أمامها إلَّا أن تعزم... وتحسم.

وأجمعت رأيها على أمر.

* * *

إنّ ما تلف ينبغي أن يُرَمّ، وإنّ ما انقضّ لابد أن ينهض، وإنّ ما ضاع يجب أن يعود.

فالمال جمّ كثير، والجهد قويّ شديد، والعزم صليب عنيد.

والنفس توّاقة، قصاراها مرضاة ربّ هذا البيت الذي وهبهم به العزّة والشرف والأمان.

فلَكَم طالما ودّوا من قبل لو أنّهم شدّوا بنيان الكعبة القديم، ودعموا جدرانها،

ورفعوا أركانها، وعلّوا بابها، ومدّوا فوقها سقفاً يمنع كنوزها ونفائسها أن تظلّ عرضةً للانتهاب.

ولَكَم طالما أعدّوا، وهمّوا بتنفيذ ما ودّوا، ثم كانت تقعدهم عن التنفيذ خشيتهم أن يسخط ربّ الكعبة اجتراءهم علىٰ هيكلها العريق بالتغيير.

ثم لَكَم طالما تجاذبهم الخوف من سخط الله، والقلق على البنيان المقدّس أن ينهار، فعاشوا ـ من السخط والقلق ـ بين لظىٰ نارين لا تخمدان.

* * *

واتّفقوا، تعاقد الذهب مع الساعد مع العزم.

وتمّ الإعداد، وهمّوا بالعمل الجادّ، وضعوا أقدامهم على أول الطريق.

* * *

لكنّهم ما كادوا... حتّىٰ حدث ما لم يكن بحسبان.

فمن أعالي الجبال التي تحتضن البلدة الآمنة، انصبّ سيل كأنّه طوفان، طغىٰ على البيت الحرام، فزلزل منه البنيان، وهزّ الأركان، وصدع الجدران، وكاد يقتلع الكعبة المقدّسة من الأساس، وهالت النكبة الناس.

أفهذا نذير لهم أن يكفّوا تفكيرهم وأيديهم عن بيت الله؟ ألّا يضيفوا إليه؟ ألّا يغيّروا فيه؟

أم هي دعوة أن يبادروا فيثبتوا عماده، ويوطّدوا[1] أوتاده، ويدعموا كيانه، ويرسخوا[2] حيطانه، ليصلب ويقوىٰ علىٰ مجابهة كرّ[3] السنين؟

* * *

---

١ . وطّد الشيء: قوّاه وأثبته وأثقله.

٢ . رسخ الشيء: إذا ثبت في موضعه.

٣ . الكرّ: العودة المرّة بعد الأخرىٰ، والمراد: شدتها المتلاحقة وغيرانها المتتالية.

بعضهم ظنّ هذا، آخرون ظنّوا ذاك.

لكن أكثر الكثيرين كانوا مع الإبقاء على القائم إلى تلك الأيام من البيت الحرم، على الهيئة التي خلّف الزمن من بنائه، منذ عهد إبراهيم، علىٰ نفس صورته الماثلة الآن للعيان: رسوماً دارسة[١]، وآثار حطام.

بلا تغيير، ولا تعمير أرادوه، بغير تبديل أو تعديل، بغير ترميم أو تقويم.

فهل عن وفاء لعراقة ماضية، أم عن خشية من خفايا المجهول؟

* * *

وعندما اجتمع سادة القوم بمكة ذلك اليوم، ليروا رأيهم فيما فعل طغيان السيل بحرم الله، تاه تفكيرهم في بوادي الشكوك والوساوس، ومهامه[٢] الأحداس والظنون.

راحوا يتشاورون وكأنّهم لا يتشاورون، يقولون ولا يكادون يقولون، يـلغطون[٣] ولا يحسمون.

الألسنة الحائرة تدور وتدور في الأفواه، الشفاه المرتعشة ما أن تقترب من الآذان حتىٰ تفترق الآذان عن الشفاه، القلوب تجفّ في الصدور، وتطفر إلى النحور، العيون تنظر ولا ترىٰ، وهي تحملق[٤] فيما وراء المنظور.

بدا الجمع كأنّما يسيحون في خواء[٥]، يتعلّقون بالهواء.

وبين حدّي القلق والفرق، بين طرفي الاضطراب والارتهاب، بين رحىٰ هـذين الشعورين، توجّسوا[٦] من شرٍّ غامض، نازل بهم لا محالة لو أقدموا على نقض حجر

---

١ . دَرَس الرسم وأندرس: إذا عفا وانمحىٰ وانطمس.

٢ . المَهْمَه والمَهْمَة: جمعها مَهامِه، وهي المفازات والبلاد المقفرة.

٣ . اللَغَط: الصوت والجَلَبة الشديدة، أو الصوت المبهم الذي لا يُفهم.

٤ . تحملق: أي تنظر نظراً شديداً.

٥ . الخَواء: الفراغ والعدم.

٦ . تَوجَّس بالشيء: أي أحسّ به وهو خائف.

أو همّوا بوضع آخر، ليصلحوا من البيت العتيق بعض ما اقتلع السيل، أو أكلت النار.

* * *

وأثبتهم الوجوم[١]، جمّدهم كأصنام.

فكما هابوا الهدم، هابوا أيضاً البناء.

وحين غلبهم الصمت على الكلام، وخرست الأفهام، وتبدّد الرأي هباء، انبرىٰ لهم الوليد بن المغيرة المخزومي[٢]، يحاول أن يحرّرهم ممّا غدوا فيه.

أن يرجّ أخلادهم الآسنة[٣]، أن يكسر الطوق الحديدي الأخرس الذي حبسهم فيه الخوف.

* * *

وأقبل عليهم، في هدوء وثقة يسأل: أتريدون بهدم الكعبة الإصلاح، أم الإساءة تريدون؟

قالوا مذهولين: بل نريد الاصلاح.

قال: فإنّ الله لا يهلك المصلحين.

فسألوه: ومن الذي يعلوها، فيهدمها؟

فأجاب في اطمئنان: أنا.

وتناول على الأثر معولاً راح يضرب به في البنيان[٤].

---

١ . وَجَم وُجُوماً: أي سكت وعجز عن التكلّم من شدة الخوف أو الغيظ.

٢ . الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم، أبو عبد شمس، ولد سنة ٩٥ قبل الهجرة (٥٣٠م)، والد خالد بن الوليد، من زعماء قريش، وقضاة العرب أيام الجاهلية، كانت قريش تكسو البيت جميعها، والوليد يكسوه وحده، وقد أدرك الإسلام وهو شيخ هرم فعاداه وقاوم دعوته، مات بعد الهجرة بثلاثة أشهر ودفن بالحجون.

٣ . الخلد: البال والقلب، والآسنة: أي الراكدة.

٤ . راجع تاريخ ابن الأثير ٢: ٤٥.

هدم الكعبة وإعادة بنائها

لَكَم هالهم فعله! وكم حملقوا فيه مبهوتين! وكم حاولوا أن يمنعوه!

لكن الذي شهدوه من صلابته، وإصراره على إتمام ما شرع فيه، ردّهم عمّا اعتزموه. وما لبثوا أن انفضّوا عنه وتركوه.

ثم هامس بعضهم بعضاً يقولون، وهم يلحظون الوليد من بعيد: نتربّص الليلة ثم ننظر، فإن أصابه شرّ لم نهدم منها شيئاً، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه هدمنا

وباتوا ليلتهم يحلمون بالويل والثبور.

لكن النهار أسفر عن خير، وأصبح الوليد غادياً إلى الكعبة، والمعول بيمينه، ليصل ما انقطع من عمل أمسه الذي انسدل[1] عليه ستر المساء.

إذن نجا! إذن لم يصبه سوء! إذن تقشّعت[2] عنه وعنهم غواشي[3] العذاب المظنون!

والتفّت حوله العيون، تطلّع القوم إليه دهشين.

أول الأمر، لم يصدّقوا المرأى، ففركوا الجفون، وكيف يصدقون؟

ثم ثبتت عليه الأنظار، ثم شدّت إليه تتبعه أينما سار، ثم تألّق بها نور الأمان.

ومن وراء الصدور كانت القلوب أعواداً ومزاهر وطنابير[4].

وكانت عروقها هي الأوتار، وكانت الفرحة هي النشيد، وعلى شموع بسماتهم المتألّقة رقصت كلماتهم فوق الشفاه.

تهاتفوا من هنا ومن هناك: رضي ربّ الكعبة! رضي صاحب الحرم! رضي الله!

* * *

---

١ . سَدَل الثوبَ: إذا أرسله وأرخاه، فتسدّل وانسدل.

٢ . تقشّعت: تفرّقت وانكشفت.

٣ . الغواشي: جمع غاشية، وهي الغطاء، وكلّ ما يغشى الشيء ويغطّيه.

٤ . المزاهر: جمع مِزْهَر، وهي آلة طرب ذات عنق طويل، ولها أوتار. وتسمّى بالطُّنْبُور والطِّنْبار أيضاً، وهي آلة العود في وقتنا الحاضر.

وما أسرع ما أقبلت قريش، سادةً وأشرافاً، يداً واحدةً مع الوليد بن المغيرة علىٰ هدم البنيان المقدّس.

وقد تقسّموه بينهم أربعة أرباع: الربع الأول لبني عبد مناف، الثاني لبني جمح، الثالث لبني عبدالدار، الرابع لبني مخزوم[١].

وأخلصوا الجهد والنيّة، فكما جدّوا في الهدم جدوا في التشييد.

وكانوا كأنّما في سباق، يعملون المعاول، يرفعون الأنقاض، يقتطعون من الجبال القريبة حجارة الصوان الزرقاء ويهيّئونها، مصقولةً ملساء، للبناء.

قطعةً فوق قطعة، وحجراً على حجر، أخذ الأساس يرتفع، كشجرةٍ مباركةٍ، أصلها ثابت وفرعها يتطاول إلى السماء.

ما تأبوا علىٰ عمل، ولا ضنّوا[٢] بهمّة، ولا ضاقوا بلَأْواء[٣]...[٤].

* * *

ولم يلقوا عسراً، بل يسّر لهم أمرهم من حيث لم يحتسبوا، ولم يحتسب إنسان.

فإليهم سعت ـ قبل أن ينشدوها ـ أدوات البناء، وعليهم وفدت ـ دون دعوة دعوها ـ اليد الصَناع[٥].

إنّ حظّهم لسعيد، وإنّ نجمهم لبازغ وفي صعود، فما لم يكن لهم بحسبان، وكانوا به يحلمون، أتاهم وهم بمكانهم كما أتىٰ سليمان عرشُ بلقيس.

لقد قذف إليهم البحر بسفينة عظيمة، راعيها تابع لقيصرالروم، متعدّد المواهب

---

١ . راجع سمط النجوم العوالي لعبدالملك الشافعي العاصمي ١: ٢٠٨.

٢ . ضنّوا: أي شحّوا وبخلوا.

٣ . اللَأْواء: الشدّة والضيق.

٤ . راجع تاريخ ابن الأثير ٢: ٤٥.

٥ . اليد الصَناع: أي الحاذقة الماهرة في العمل، يقال: رجل صَناع اليدين، وامرأة صَناع اليدين، ويقال للشاعر وكلّ بليغ: هو صَنَعُ اللسان، وله لسان صَنَعٌ.

والمهارات، يدعىٰ: «باقوم» ووَسْقها[١] مقادير وفيرة من الجصّ والطلاء، والخشب والحديد، والمرمر والرخام.

ثروة ضخمة من فنون الصناعة، وثروة ضخمة من مواد التعمير.

* * *

تلكم السفينة التي تحمل التابع والمواد بارحت مصر، بأمر قيصر، إلى أرض الحبشة، لإصلاح كنيسةٍ به كان عدوان المجوس قد مشىٰ عليها بالتدمير.

واتّخذت سبيلها في البحر سَربا[٢]، وأوغلت في القلزم بحر فرعون[٣] إلى وجهتها، تتمايل وتختال، وقد حفّها الأمان.

فالجو صفاء، والريح رخاء، والموج حصير.

لكنّها لم تكد تحاذي ساحل الجزيرة العربية، حتّىٰ بذت كأنّما تنجذب إليه بمغنطيس، وجنحت مقهورة إلى شاطئ جدّة، وتحطّمت على الصخور.

فما هو أن عرفت قريش النبأ حتّى ابتدرت الفرصة التي هيّأتها لها السماء، واشترت السفينة وما فيها من باقوم، ثم عادت بحملها الثمين إلى البلدة الحرام[٤].

* * *

ومرّة أخرى يُسِّر للقوم أمرهم، كخير ما يكون التيسير، فقد اهتدوا في «باقوم» الرومي إلى بنّاء، نجّار، حدّاد يحذق صناعاته المتنوّعة حذق آلهة الفنون في أساطير الإغريق.

بمهارة فائقة، تجلّ عن آيات المديح والتقدير، كان يأتي بكلّ معجبٍ معجزٍ في

---

١ . الوَسْق: الحمل، وَسَقَ الشيء: حمله وجمعه.

٢ . السَرب ـ بالفتح ـ : الطريق والمسلك، يقال: خلّ له سَربه أي طريقه.

٣ . بحر فرعون: يريد البحر الأحمر. وأوغلت فيه: إذا ذهبت وتوارت فيه.

٤ . راجع تاريخ ابن الأثير ٢: ٤٤، مروج الذهب ٢: ٢٧٨.

هذه الفنون، البالي الدارس ينشر علىٰ يديه فينبض بالحياة، والرثّ القديم يتحوّل إلى ناضر جديد.

يُرسي ويضع، ثم يُحَلّي وينضّر، ثم يعلّي ويرفع، فإذا البناء قوة وروعة وكبرياء الأيْد[١] في الأساس الموضوع، والرُواء[٢] في المظهر الأزهر، والشُموخ في الصرح المرفوع.

وينجر الخشب أشكالاً شتّى: مستوياً كمرايا، معقوصاً كضفائر، مقوّساً كعقود أحياناً كثيفاً كثافة الجلاميد[٣]، وأحياناً رقيقاً رقّة الشفوف[٤]، وأحياناً ناعماً نعومة خدود الغيد[٥].

ويمرّ بأصابعه البارعة على الحديد، فيلين له مطاوعاً كما لانَ من قبل للنبي داود.

* * *

ثم يسّر لقريش أمرها ثالثة.

انتبهوا أيضاً إلى قبطي مصري، ذي براعةٍ ومهارةٍ وافتنانٍ في الصناعات، يقيم بمدينتهم، فاستأجروه، أضافوا به عوناً إلى باقوم.

وهبّ الرّجلان، في بيت الله، لما اختيرا له، وتقدّمت لهما بالمساعدة أيدي كثيرين.

فسُوّي الصخر والحجر، ونُشر الخشب ونُجر، ثم رُفع للكعبة سقف معروش[٦]، وأُقيم له باب مرفوع، وصنعوا لأركانها دعائم، ولحيطانها مداميك[٧].

* * *

---

١ . الأيْد: القوة والصلابة.

٢ . الرُواء ــ بالضمّ ــ : المظهر الحسن الجميل.

٣ . الجلاميد: جمع جُلْمود، وهو الصخر.

٤ . الشُفُوف: الثوب الرقيق.

٥ . الغَيد: جمع غيداء، وهي المرأة الليّنة الناعمة.

٦ . سقف معروش: أي مرتفع، يظلّل ما تحته.

٧ . المداميك: جمع مِدْماك، وهو الصفّ من اللّبِن أو الحجارة في البناء.

لَكَم تهلّل الناس!

لَكَم كان يمناً عليهم تحطّم السفينة!

فسبحان مدبّر الكون، مسخِّر ما شاء لما شاء، مُسيِّر الأُمور، باسط الظلّ، مرسل النور.

سالخ النهار من الليل، مخرج الحيّ من الميت، والنفع من الضرّ، والخير من الشرّ.

* * *

فهل كلّ هذا الذي قد وقع، في تلك الفترة القصيرة من عمر الزمن، كان مجرّد صدفه عابرة، كخبطة عشواء؟

كذلك تظنّ الظنون.

ففي ظاهرة قد كان، أمّا الحقيقة التي ظلّت خافية خرساء حتّىٰ غدا المستور في نطاق المنظور، فقد نطقت بأنّ ما حدث إنّما كان وليد تدبير، ليس بعده وقبله، أو فوقه ومثله، تدبير.

فكلّ ما جرىٰ، من بدئه إلى نهايته، كان سلسلة متّصلة، تتابعت حلقاتها، حلقة وراء حلقة، في تواترٍ والتئامٍ ونظام.

كان مكتوباً على جبين الأيام.

كان من غرس خطّةٍ محبوكةٍ، رسمها القدر خطّاً خطّاً، ثم نفّذه جزءاً جزءاً، بدقّة وإحكام ... تماماً كما تتفاعل العناصر الكيمائية لتخرج لنا مادّةً جديدةً تختلف في خصائصها وصفتها وهيئتها عن أُصولها الأولية.

تمازجت ظواهر الطبيعة، وحركة الزمن، وخلجات الأنفس[1] البشرية، وثمار العقول والأفكار.

كلّ هذه العوامل أخذت تعتمل في تناسق واتّفاق، تبتعد وتفترق، تلتحم

---

١ . خلجات النفس: ما ينازعها ويخامرها من فكر.

وتلتصق، تتنافر بحساب وتتجاذب بحساب، تسكن بمقدار وتنشط بمقدار.

ثم يفنىٰ بعضها في بعض، ويندمج بعضها في بعض، لتتكشّف للدنيا عن عنصر جديد، لتستقرّ أخيراً عن أمرٍ مقدورٍ في أجل مقدور.

* * *

فما هو ذلك النتاج الذي ينجاب عنه المخاض؟

إنّه مزاج عجيب من نقائض وأضداد، ومن أشباه وأمثال.

إنّه ظواهر ومظاهر، ومشاعر وأحاسيس، وماديات ومعنويات، ولائد عمل وفرائد روح، خلاصة المرئي المحسوس والخفيّ المضمر في طوايا النفوس.

حصيلة العطر والشرر والنار، المطر والجبل والسيل، البحر والريح والصخور.

ثم الرغبة والأمل، الجرأة والفأل، الهيبة والطيرة، القلق والحيرة، ثم اليقين والشكّ، العقل والخرافة، الحقيقة والأُسطورة.

* * *

عناصر وعوامل، وظنون وأفكار، ومراءٍ ومظاهر، وعقائد وأوهام، ذات طبائع شتّى وجواهر مختلفات، كانت تعتمل في الصدور صوراً من الحقائق، وأشباحاً من الخيالات، ما تلبث أن تتخلّق في بطن الغيب: أجنّة تنمو وتكبر لتخرج إلى عالم الواقع، وهي صروف وأحداث لم تكن قطّ في حساب، كلّ صرفٍ منها بموعد، وكلّ حدثٍ بميقات.

وتتعاقب آونات المخاض[1]، وتضع الليالي الحبالىٰ ولائدها، وليداً في إثر وليد.

فعن أيّ جلل وجليل من الأمور سيسفر القدر المقدور، ويتكشّف الغيب المستور؟ ماذا سيدفع به رحم الدنيا إلى مهاد الزمان؟

* * *

١ . آونات وآوان: جمع آونة وهو الحين والزمان. والمخاض وجع الولادة وهو الطَّلْق.

عن كلّ ما لم تنعقد عليه العزائم، ولا قاربته الظنون أو طاف بالأخلاد[١]، أفصح الخبء، وارتفعت الستار.

الليالي ولدن العجائب الغرائب، فإذا النتائج تجيئ على خلاف المقدّمات، وإذا الأولاد والآباء نقائض وأضداد.

فكيف تغيّر المنتظر؟

من جذب الطريق من تحت الأقدام؟

ماذا نكس المسار؟

ما الذي عكس التيار؟

ما لهذه المرأة التي سعت بروحٍ صافٍ ونيّةٍ نقية، لتعطير الكعبة ـ تقديساً وإجلالاً ومحبّةً ـ قد تحوّل العطر في يديها إلى جمر، ونفح الطيب إلى سورة[٢] لهيب، وكأنّها إنّما سعت سعيها لتحرق وتدمّر، لا لتبخّر وتعطّر؟!

ما لهذا السحاب الذي أقلع إلى أرضٍ قفرٍ ليكون بشيراً بالخير، لا يكاد الوَدْق[٣] ينزل من خلاله، يهمّ أن يروي غلّتها، وينضّر وجه رملها الأصفر، حتّى يؤمر فيحتبس زمناً على الجبل، ثم يؤذن، من بعد، للجبل فيرسله سيلاً يدفق فيغرق، ويزحف فيجرف؟

ما لتلك السفينة تبحر من مصر إلى غرضها، حتّى إذا أوشكت أن تقارب مرساها بأرض النجاشي، تبدل أمنها خوفاً، وسلامها تلفاً، فإذا الريح تزمجر وتقصف[٤]. وإذا الموج يهدر ويعصف[٥]. وإذا بها، وبما فيها، ومن فيها، قد قذف اليمّ بهم جميعاً بين

١ . الأخلاد: جمع خَلَد، وهو البال والقلب.

٢ . السَوْرة: القطعة من الشيء.

٣ . الوَدْق: قطر السماء، المطر.

٤ . الزَمْجَرة: الصياح الشديد والصَخَب البالغ. والريح القاصِفَة والقاصِف: الشديدة جداً، تكسّر ما مرّت به من الشجر وغيرها.

٥ . هَدَر الموج: أي صوّت، وعَصَف: اشتدّ.

يدي قومٍ هم أحوج إلى وسقها[١] من أيّ قوم؟

ما لقيصر الروم لم يرسل راعياً لسفينته هذه، من بين أُلوف الأُلوف من تـابعيه، رجلاً غير باقوم؟

كلّ هذه الظواهر، وأمثالها كثيرات، راحت تتوالى هنا وهناك حلقات.

قريباً وبعيداً تتابعت، على الأيام، ومع الأعوام.

ما من ظاهرة واحدة منها، حين بدأت وانعقدت علها النيّة، إلّا كانت تُنبئ عن غرضٍ معلومٍ، وتنطلق في مسارٍ محدودٍ بحدود.

لكنّ الأغراض لا تلبث أن تختلف وتتغيّر، والمسارات تتبدّل مسارات، كأنّما قد غمّ على كلّ ظاهرة منها الطريق الذي كان ينبغي أن تمضي فيه.

وعلى مشيئاتها جميعاً تغلب مشيئة القدر، بيد قادرة مجهولة تسير، ثم تـتجمّع مصائرها الغيبية في نهاية المطاف، كأنّها حزمة من حطب يشدّها رباط وثيق، ثـم تتآلف، تآلف بُرادة الحديد[٢] حول قطب مغنطيس، ثم تتجلّىٰ للناس، أخيراً، حكمة علوية من عليٍّ حكيم.

أقلام الغيب كانت ترسم السطور.

حتّى الخلاف الذي انشطر بقريش، وكاد يلقي بها وقـوداً لعـداوة سـعّر نـارها التفاخر والصلف[٣] والغرور، إنّما كان وسيلةً لظهور بشير النور.

---

١ . الوَسْق: الحمل، الحمولة.

٢ . بُرادة الحديد: ما يسقط منه عند البَرْد.

٣ . الصَلَف: مدح النفس بما ليس عندها، والادّعاء فوق ذلك، إعجاباً وتكبّراً.

اللوحة الثالثة

من باب الصفا

شمخت[١] الكعبة، علت شمّاء[٢].

تهلّلت قريش في فرحٍ وعزّةٍ وكبرياءٍ، بعد طول عناء تحقّق للقوم ما يريدون، هدموا حتّىٰ لم يكد يبقىٰ من الطَلَل القديم حجر علىٰ حجر، وحفروا حتّىٰ ضربت معاولهم في الماء.

وعندما انتهىٰ بهم الحفر إلى جلاميد خضر، ارتدّت عن صلابتها الفؤوس، أرسوا عليها الأساس، ثم أقاموا البناء، ثم زادوا في ارتفاعه تسعة أذرع؛ نحو أربع قامات، ثم شادوه وكسوه بالطلاء.

فما أن أكملوا التشييد، ولم يبق إلّا أن يضعوا الحجر الأسود مكانه، حتّى اضطرب بينهم الوفاق، وعادوا إلى الشقاق.

* * *

انشطروا، انشعبوا شعبة تواجه شعبة، وانقسموا شيعة تجابه شيعة، ملكهم الانقسام، وفارقهم الوئام.

---

١ . شَمَخت: علت وارتفعت.

٢ . الشَميم والشَماء: المرتفع.

وكيف لا يختلفون؟ أم أيّ فريقيهم هو الذي يرفع الحجر المقدّس إلى حيث ينبغي أن يكون؟

أيّهما أولىٰ بهذا العمل الذي هو العزّة والشرف والفخار؟ أيّهما أعلىٰ مكانةً؟

أيّهما أشدّ قوةً؟ أيّهما أعزّ نفراً؟

أيّهما أرفع قدراً؟ أيّهما أبعد ذكراً؟

❋ ❋ ❋

وكرّة أُخرى اشتعلت في الوحدة القرشية النار.

وكان التباهي قادح الزناد، أربع ليالٍ وخمسة أيام حُسُوماً[١]، عاش فيها إبليس تحت ألسنة القوم.

خلالها تفاخروا إلى حدود الخُيَلاء[٢] والاستعلاء، وتهاجوا إلى حدود الغرام والعداء، تصاولوا بالأنساب، تضاربوا بالأحساب، تنابذوا بالألقاب، تعاووا كذئاب!

فلمّا أن كلّت[٣] منهم الحناجر دون الفصل، وعييت الأفواه عن بلوغ ما تشاء، وتطايرت الكلمات بلا نتيجة كَهَباء، نبت السيوف بالأغماد، بل اضطربت كأنّما تروم الخلاص، ثم همّت النِصال[٤] بالانسلال كالصلال[٥].

ثم تحركت القنا والرماح.

❋ ❋ ❋

وشاطت الأنفاس، وبدت الأعين جمرات.

وتطايرت النظرات شرارات تملأ أجواء البلدة الحرام، تكاد تغطّي برذاذها الناري

---

١ . حُسُوماً: أي شؤماً. يقال: أيامٌ حُسُومٌ وأيامُ حُسُومٍ، على الوصف والإضافة، أي حاسمة الخير عن أهلها.

٢ . الخُيَلاء والخِيَلاء والخَيْلَة: العُجْب والكِبْر.

٣ . كلّت: تعبت وأُرهقت.

٤ . النِصال والأَنْصُل والنُصُول: حديدة الرمح والسهم والسكّين.

٥ . الصِلال والأصلال: جمع صِلّ. جنس من الحيّات خبيث، مشبّه بسرعة انطلاقته.

القاع والبقاع، وتتقاطر على الحجر والمقام.

امرؤ واحد[١] في هذا المعترك المعتكر هو الذي خالف الإجماع، عرف كيف يتحرّر من رِبْقة[٢] الضغينة.

طفا بنفسه علىٰ سطح مستنقع النزاع الذي أوشك قومه أن يغرقوا فيه، لاذ من قيظ الحمق بظلّ الحكمة، وفَاءَ إلى رفق الأناة من هجير[٣] الصراع.

وفي هدوءٍ وثقةٍ، تقدّم يتوسّط بجسده الفارع الضامر[٤] الفريقين، وهو يمدّ أمامه ذراعين صلبّين كرُمْحين، كأنّما ليطعن بهما شيطان الخلاف المشبوب[٥].

أينبوع حكمةٍ؟ أصيغ من محبّةٍ؟ أم هو ذلك القدّيس الذي حارب التنّين؟

* * *

كان قوامه فارعاً ناحلاً معتدلاً كقناة، وكان سمته خطوطاً من الغضون، وندفاً[٦] من المشيب، علىٰ كتفيه كان يحمل أكواماً من الأعوام، فقد علت به السنّ، وبرّته[٧] الأيام.

لكنّه صاح فيهم بزئير ليث[٨] ريق الشباب، غضّ الإهاب[٩]:

ـ يا معشر قريش! فسربلهم الصمت، والتوت منهم إليه الرقاب.

ـ يا معشر قريش!

---

١ . والشخص هو أبو أُمية بن المغيرة، وكان أسنّ قريش حينذاك. راجع تاريخ ابن الأثير ٢: ٤٥.

٢ . الرِبْقة: العروة في الحبل، وهنا كناية عن الكربة والشدّة التي وصلت إليها الضغينة والشحناء بين القوم.

٣ . الهَجير: شدة الحرّ.

٤ . الفارع: الطويل، والضامر: النحيف.

٥ . المشبوب: المتوقّد، وهنا كناية عن النشاط والهيجان.

٦ . النُدَف: القليل من الشيء، كأنّه قُطنة بيضاء نُدفت.

٧ . بَرّته: أي أطاعته الأيام في جريانه معه، وهنا كناية عن كبر السنّ وبلوغ العمر مبلغه.

٨ . الليث: الأسد.

٩ . الإهاب: الجلد ما لم يدبغ منه، وهنا يريد البشرة

عندئذٍ هزّتهم الصرخة، فانبعثوا يصغون عن غير وعي ولا إرادة، تلفتوا نحوه، يرنون إليه[1] بعيون واسعة، ثابتة الحملاق، مشدودة الأهداب، كأنّما أيقظهم من كابوس.

والتفّت به نظراتهم التفاف سوار، حتّى إذا تبيّنوه من وسط هرج الزحام، هتف منهم فريق، كأنّما من عجبٍ دهشين: زاد الراكب! وصاحت طائفة: حذيفة! وقال آخرون: أبو أُمية!

* * *

كما عَنَت له الأنظار عَنَت الأسماع.

كان عندهم ذا قدرٍ ومقامٍ، كان مرجوّاً أيّ رجاء، وكان، كما دعوه، كلّ تلك الأسماء، فهو حذيفة أبو أُمية بن المغيرة، وهو زاد الراكب.

وهو أسنّ قريش، وأحكمها، وأنداها كفّاً ولساناً، أكبره عمره، وأكبره قدره، فأكبره قومه ووقّروه.

تمرّس طويلاً طويلاً بغِيَرِ الزمان، ووعى العِبَر، واستكنه أسرار الأخبار، فتعلّم أن يكون خير مشير.

وفاق بسخائه وجوده الأسخياء الجياد، فسمّاه الناس: زاد الراكب، فما من جماعةٍ رافقته مرّة في سفر ـ قلّ عديدها أو كثر، شرفت أقدار أفرادها أو هانت ـ إلّا سافروا لم يتزوّدوا من لدنهم بزاد، إذ كان هو الذي يكفيهم جميعاً الزاد.

* * *

وتحدّث الشيخ الحكيم، فألقت إليه الجموع الزاخرة المشاعر والعيون والأسماع، أصغوا إليه فكراً وعصباً وجارحةً، تعلّقوا بشفتيه، وسمعوه يقول: يا قوم، يا معشر قريش، اجعلوا بينكم حكماً في الأمر الذي فيه تختلفون، أوّل من يدخل من هذا

١ . يرنون إليه: ينظرون ويحملقون إليه.

الباب، وأشار... وتلفّتوا ينظرون، كانت إصبعه النحيلة الجافّة التي مدّها أمامه، تومئ إلىٰ باب الصفا من المسجد الحرام.

* * *

فهل كانت عصا ساحر تلك الإصبع العجفاء[١]، تشير فتسير الأُمور علىٰ ما تشير؟ أم قد نزلت على الفريقين حينئذٍ سكينة من السماء؟ أم تبدّلوا أُناساً بأناس؟

في طرفة عين، انقلب الوضع من حال إلى حال، بخلاف ما كان ينبئ السلوك العام، من لحظات ومن بضعة أيام، زال التوتر المسيطر على النفوس، ارتخت الأعصاب، انبسطت الأسارير[٢]، استضاءت الوجوه، أخذت الملامح المعقدة الكَدِرة[٣] ترقّ وتروق.

انقشع[٤] العبوس انقشاع ضباب الصيف عند ارتفاع صحوة النهار.

* * *

ولانت العبارات كما لانت القَسَمات، رقّت الكلمات، تنغّمت الأصوات، أقد طافت بالمكان نسمة ابتسام؟

فها هو جرس الأحاديث الذي كان، منذ قليل، يهدر ويزمجر، ما لبث أن تغيّر.

إنّه الآن منغوم كنشيد، ناعم كتغريد[٥]، على وَنىً[٦] وترفّق يسبح إلى الأسماع.

---

١ . العجفاء: النحيلة، الضعيفة.

٢ . الأسارير: قَسَمات الوجه.

٣ . الكَدِرة: أي المغمومة، والكَدَر: ضد الصفاء.

٤ . انقشع: انكشف وزال.

٥ . التغريد: غناء الطائر.

٦ . الوَنَىٰ: الفتور، يقال: وَنَىٰ يَني وَنْياً، إذا فتر وقصَّر.

لنبراته المنظومة عذوبة الترتيل، إيقاعها رتيب كهديل حمامة، ألحانها مرحة كشَذْو هَزَار[١]، نغماتها شجيّة[٢] كترنيمة ناي[٣].

* * *

بدّد رأي حذيفة غيومَ الضغينة، مرّ على الهرج بالهدوء، لوّن الوجوه بالصفاء.

فمن هنا تهامست طائفة من هذا الفريق: هذا هو الرأي.

ومن هناك تهاتفت أُخرىٰ من ذاك: القول ما قال.

وفي صفوفهم جميعاً تردّدت لفظة: أصاب، أصاب.

واستبقوا كافّة ـ بلحظ النواظر، وحدس الخواطر ـ الباب، وثبتوا ينتظرون.

* * *

فكم تلبّثوا بموقعهم[٤] آنذاك؟

كم ساعةً، كم يوماً، دام الانتظار؟ أشهراً، أم عمراً، أم دهراً كان؟

في حساب مشاعرهم كان الانتظار أثقل من هذا كلّه وأطول بكثير، كالجبل ثَقُل، كالأبد طال.

أحسّوا به يجثم على الصدور، فيسكن فيها الشهيق والزفير، خالوه[٥] مثل سور، يحيط بهم إلى أقصى الأبعاد وأسحق المسافات، تذوب عنده المرئيات، وتتبدّدت المسموعات.

لكنّه، في حقيقة الأمر، لم يزد علىٰ لحظات.

---

١ . الشَذْو: الغناء والترنّم، والهَزَار: ضرب من الطيور، صغيرة الجثّة حسنة الصوت.

٢ . شجيّة: أي حزينة.

٣ . الناي: آلة من آلات الطرب، يُنفخ فيها.

٤ . تلبّثوا بموقعهم: أي توقفوا وظلّوا بمكانهم.

٥ . خالَ خَيْلاً وخالاً وخَيْلةً وخَيَلاناً ومَخيلةً ومَخالاً الشيء: ظنّه.

ومع ذلك ناءت به الكواهل[١]، ثقل الحمل، ووهن الحامل.

وكيف لا يخالجهم هذا الشعور الذي تنفسح به رقعة الزمن إلى مدىً لا يطويه مقياس الإحساس؟

إنّ الترقّب يمطّ[٢] الوقت حتّىٰ ليرقّ ويشفّ[٣] ويبدو كفراغ، وإنّ جَهْد التصبّر لاستقبال المجهول لجهد ثقيل ثقيل، يعيي الاحتمال.

وعندما تتّسع الهوّة[٤] الشعورية بين الواقع المنظور وبين المغيّب المنتظر يعيش الإنسان في فراغ، وفي زمهرير الضياع ينثلج[٥] الزمن، ويصبح كصحراء من جليد، بلا حدود، سوى الهمود[٦].

* * *

علىٰ هذه الصحراء الشعورية الممتدّة إلى ما وراء التخيّل، غدا القوم كمن احتبسوا وراء أسوار من الجمود، عند حافّتها تموت الأصوات، وتذوب المرئيات.

كانوا كهائمين في بحر لجّي[٧] بغير شاطئ ولا قرار، كَمُدْلِجين[٨] في ليلٍ ما له نهار.

بدوا كأشباح بلا أرواح، كضلال بلا أصول.

لكأنّما كانوا يعيشون خارج الحياة، ما من حركة، ما من حدث، ما من كلمة تهزّ ستر الهواء.

الظنون وحدها هي التي كانت تضطرب في هذا العالم المترامي الموات، كانت

---

١ . ناءَ: أي عجز، والكاهل: أعلى الظهر ممّا يلي العنق.
٢ . مطّ الشيء مطّاً: أي مدّه.
٣ . شَفَّ الشيء شفّاً وشُفوفاً وشَفيفاً وشَفَفاً: رقّ فظهر ما وراءه.
٤ . الهوّة: ما انهبط من الأرض، الجوّ الفاصل بين السماء والأرض.
٥ . الزّمهرير: البرد القارس، والانثلاج: التجمّد، والتوقف عن الحركة والمتابعة.
٦ . هَمَدت الأرض هُمُوداً وهمداً: لم يكن بها حياة ولا عود ولا نبت ولا مطر.
٧ . لجّي: أي واسع.
٨ . أدلج القوم إدلاجاً: ساروا الليل كلّه أو في آخره.

تدور في الأخلاد، رائحة غادية[1]، على غير هدىً، بخُطىً عشوائية، كمثل وحشٍ في قفصٍ يسير ويسير، ثم لا يعرف أَغَدا أم راح.

كانت تتأرجح بين الشعور بالقلق والأمل في الاطمئنان، بين الإحساس بالخطر والتطلّع إلى الأمان، بين معاناة الارتياب وراحة الإيمان، كانت تصارع الحيرة.

* * *

لَكَم طواها ونَشَرها عندئذٍ التساؤل، كم غمرها ونشلها، آناً يغوص بها في الأعماق، وآناً يحلّق مع السحاب.

فمن ذا عسىٰ سوف يفرزه ذلك الباب؟ من هو الحَكَم المجهول الذي سيدخل عليهم من الصفا، ليفتيهم فيما اختلفوا فيه؟

ما شكله، وما أصله؟

ما عمره، وما قدره؟

ما مناقبه، وما سجاياه؟

ما قصاراه لدرء[2] خطر الخلاف؟

ما هي الكلمة التي ينسجها القدر، هذه اللحظة الحاسمة، حروفاً بَكْماء، ليضعها علىٰ طرف لسان ذلك الآتي من وراء الغيب، ثم لن تلبث أن تنفرج عنها شفتاه فتطرق طبول الأسماع، وتملأ الأرجاء بصيحة حرب أو ببشرىٰ سلام، بدعوةٍ إلى الموت أو بدعوةٍ إلى الحياة؟

* * *

إنّها إذن ـ تلك الكلمة المرتقبة ـ مصير، إنّها قضاء.

فإن تجئ بمنطق عدالة، فأيّ عدالةٍ يرتضيها الأضداد؟ أو تجئ بخلاصة حكمة،

---

١ . غَدَى: انطلق.

٢ . درأ عنه درءاً: دفع عنه دَفْعاً.

فمن الحكيم الذي يستطيع أن يجمع الجمر والماء في إناء؟
أم الله يحيي من الموتىٰ لقمان؟ أم يبعث إليهم برسول ينطق بوحي السماء؟

* * *

ثم أنهار سدّ الجمود، فجأةً انهار، وعلى الأثر صحت الحياة.

فمن خلال باب «الصفا» من المسجد الحرام، دلف[١] طيف بشري في هدوء، كأنّما يمشي على الماء، راح يخترق ملتقى النظرات، كان ينفث الحركة وهو يسير، ينفثها في الظلّ والنور، في الأخيلة والعقول، في الشخوص[٢] والأشياء.

وكان كشعاع، وكان يعوم في الضياء.

كما تمحو آية النهار آية الليل، أحسّ القوم ـ مُذ لاح ـ أنّ طلعته أخذت تغسل ما في صدورهم من حقد وضغينة، من رهبة وخوف، من قلق وحيرة، كيانهم كلّه استغرقه هذا الإحساس، الذي كان يشعّه سمته المهيب.

كان الوثوق في خطواته، وكان الجلال في محيّاه[٣]، وكانت الرحمة في وميض[٤] عينيه.

الحبّ رفيقه، اليُمن لصيقه، في آثار قدميه كانت تنبت الطمأنينة، الأمل كان يفرش طريقه.

لكأنّما الأمن كان الظلّ الذي يتبعه حين وقوفه، وحين تلفّته، وحين انطلاقه نحوهم من خلال الباب.

* * *

---

١. دلف: دخل.

٢. شخوص: جمع شخص.

٣. المحيّا: الوجه، قيل: سُمّي بذلك لأنّه يُخصّ بالذكر عند التسليم، فيقال: حيّىٰ الله وجهك.

٤. الوميض: اللمعان الخفيف.

وطفرت إليه الخواطر تسبق النواظر، طارت إليه بغير جناح، استقبلته وهي منهومة بالحنين عانقته عناق اشتياق.

وكيف لا؟ أليس هو من الرجاء فوق الرجاء؟ ألا يتوسّمون فيه ـ وقد اجتاز «الصفا» ـ أن يكون بشير «صفاء»؟

أما خبروه قبل يومهم هذا، ومن سنين طويلة؟ وإنّه الحكمة والعدل، الفطنة والذكاء، الرحمة والبرّ، البركة والخير، الرفق والصدق، السلام والأمان في إنسان؟

وتغنّت الفرحة بأفئدتهم قبل أن يترنّم رنين الأصوات، وهتفوا بجرس كأنّه منغوم[١]: الأمين.

وتتابع الهتاف من كلّ فم في الجمع، ومن كلّ جانب في بيت الله، مرّات ومرّات ومرّات، كترديد نشيد: الأمين! الأمين! الأمين!

ثم انعقد، على هذا الآتي من وراء الغيب، الإجماع:

هذا محمد بن عبدالله، رضيناه!

---

١ . النَّغْم والنَّغَم: حسن الصوت، فهو منغوم.

اللوحة الرابعة

الرداء والحجر

سارعوا إلى لقاء الأمين، خفّوا كثمل ظِمَاء[١] في الصحراء كاد يقضي عليهم العطش، ثم انشقّ لهم فجأةً بطن الرمل عن نبع ماء.

كرّروا صورة «هاجر» ساعة تفجّرت زمزم عند قدمي وليدها إسماعيل بعد أن هرولت مراراً سبعاً، بين الصفا والمروة، بحثاً عمّا يبلّ صداه، ويحفظ عليه الحياة.

وعندما قاربوه، كاشفوه بمحنة ذلك الخلاف الذي أوشك أن يقودهم إلى الحتوف، بكلمات قليلات قصّوا عليه ما هم فيه، اكتفوا بالإقصار عن الإطناب[٢]، بالاقتضاب عن الإسهاب[٣].

ولماذا الإفاضة والنبأ العظيم معلوم؟ وهل في البلدة الحرام من خفي عنه الأمر، واستتر الخبر؟ بل ما من امرئ بأرضهم له سمع إلّا سمع، ولا من فرد به صم إلّا علم، ولا من أحد به بقية من عصب حيّ إلّا أدرك ما وقع.

كلّهم كان يشيم ذلك الخطر الخفيّ المنتظر، كلّهم كان يشفق أن يتجلّى في نطاق

---

١ . ظِماء: جمع ظامئ وظامئة، للمذكر والمؤنث، وهو العطشان الشديد العطش.

٢ . الإطناب: المبالغة في الوصف والإخبار.

٣ . الاقتضاب في الكلام والشعر: المرتجل المختصر. والإسهاب: ضد الاقتضاب، فهو الإطالة الشديدة.

العيان بعد أن جال في متاهة الظنون، كلّهم خشي أن يكون.

* * *

وأسلموه القياد، ثم ألقوا إليه السمع والبصر والفؤاد، ثم تطلّعوا نحوه بترقّب محموم، ومشاعرهم تموج بهم وتحوم في فلك دوّار، حول كوكب سيّار.

تحلّقوه[١] كأنّهم سور، التفّوا حوله التفاف سوار، زاحموه على مواطئ قدميه، أتلعوا[٢] إليه الرقاب، في ارتقاب.

حاولوا تفرّس[٣] ما عسىٰ أن تنمّ عنه عيناه، تفرّس راصدٍ ومض نجوم غلّفتها الغيوم، تعلّقوا بشفتيه حيارىٰ، حادسين هامسين.

أمّا هو فلم يضق بالزحام، لم يبرم بالوجوم، لم يبال بنظراتهم الشرهة التي راحت في توتّر واضطراب، تزحف إليه مخالسةً ومتوجّسةً[٤] من يمينٍ لشمال، ومن شمالٍ ليمين.

لم يشب صفاء ذهنه إلحاحُهم عليه بلمح التشيّم والتوسّم، ولا برنو التشوّف والاستطلاع، إنّما تلقّاهم علىٰ هون وسكينة.

ومن خلال ما كان بهم من قلق الحدق وتحفّز الأسماع، وتوفّز[٥] الإحساس وبَهْر[٦]، نفذت إلى دخائلهم[٧] نظراته كشعاع.

* * *

١ . تحلّقوه: أي داروا حوله، فكانوا كالحلقة حوله.

٢ . أتلع الرجل رقبته أو قامته: إذا مدّهما متطاولاً.

٣ . تفرّس في الشيء: نظر وتثبّت نظره فيه.

٤ . مخالسةً ومتوجّسة: أي تنظر إليه مخاتلةً وحذراً، وتتابع حركاته بخوفٍ وترقّب.

٥ . التوفّز: التهيّؤ.

٦ . بَهر الأنفاس: انقطاعها.

٧ . الدخائل: جمع داخلة ودخيلة، وهي النيّة والباطن.

شهدوه يرنو[1] إليهم بشفقةٍ وإشفاق، يسكب رفقه وحنانه في عيونهم الحيرانـه، يمسّ قلوبهم مسّ طيف، يمسح الخوف، ويضفي الطمأنينة.

فإن هي إلّا لحظات، حتّى تبيّنوه ينأى[2] عنهم ببصره وفكره، بقلبه ولبّـه، بـباله وخياله، بكلّ مشاعر وجدانه.

في الفضاء سبحت عيناه، نحو ما وراء مدارات النجوم والكواكب انطلقت روحه، فوق بقعة غير مرئية في السماوات العُلىٰ اطمأنّ جبينه المشرق، كأنّـما يـلاصقها ساجداً لله.

* * *

وآب[3] إليهم آب من سبحاته القدسية هذه، فإذا هم يرونه علىٰ غير مـا ظـنّوه سيكون، علىٰ غير ما ألفوا قبله في إنسان.

هيئته هيبة، سمته وقار، ملامحة دعة، حوله هالة مـن قـداسـة تـنحسر عـنها الأبصار.

لاح لهم ـ وهو منهم قريب ـ كأنّه بعيد، ولاحوا لأنفسهم كأنّهم عنه غيّب[4]، وإنّهم لشهود!

أفقام بينه وبينهم حجاب؟ أم انسدل سجاف[5] منشور من نور، من خـلفه نـور، ومن أمامه نور؟ أم غاب عنهم، ثم جاءهم آخر غيره كلّه ضياء وصفاء من وراء ستر الغيوب؟

* * *

---

١. يرنو: يديم النظر إلى الشيء بسكون الطرف.

٢. ينأىٰ: يبتعد.

٣. آب: رجع وعاد.

٤. غُيَّب: جمع غائب، وهو ضدّ الحاضر.

٥. السّجاف والسجافة: والسجيف الستر والحجاب.

ثم برقت لهم ومضة[١]، أوشكوا ـ إن هم أُوتوا القـدرة عـلى الاسـتشفاف ـ أن يعرفوا من خلالها ما يكنّ ضميره، وتضمر أساريره، لكنّهم رأوا فيه الملموس ولم يدركوا المحسوس.

فما صَفَت منهم القلوب، ولا شفّت النفوس، وما عنت[٢] منهم الوجوه لله، وما اهتدوا لحقيقة الحياة، وما صغوا إلّا لإبليس، وما عبدوا إلّا صنماً نحتوه أو وثناً صنعوه.

كلّ ما وسعهم أن يشهدوا في الأمين عندئذٍ، لم يكن سوى بضع حبّات من العرق تتدحرج من منبت شعره إلى وجنتيه كقطرات دموع، وعرقٍ نافر نقيّ الزرقة يعترض جبهته، وعقدةٍ كالغُرّة تربط ما بين حاجبيه، ومظاهر بال مشغول.

ربّما لأنّهم حسبوه مكدوداً[٣] أو كالمكدود، ربّما لاستشعارهم أساه علىٰ ما همّوا به، وأوشكوا أن يقترفوه، ربّما لما نضحت به ملامحه من جدّ التفكير.

فليتهم أصابوا التقدير، إذاً لما غاب عنهم أنّ جهد الرحلة النورانية التي ساحت أثناءها روحه في السماوات العُلىٰ هو الذي طبع محيّاه بتلك الآثار، ولما فاتهم أنّ الذي بلغته أعينهم منه كان بشائر إلهام، ولما أغفلوا ـ ضلالةً وجهالةً ـ أنّ ذكر الحجر الأسود الأغر ـ مطافهم في الدنيا ـ قد ذكره عرش الله ـ مطاف الأرواح في الأولى وفي الآخرة ـ فامتلأ كيانه بروعة الجلال.

❊ ❊ ❊

وفي لحظة إلهام، في الوقت الموعود، في الأجل المحدود، جاءهم بما عجزت عن تحقيقه العقول والأفهام، وعييت دونه الأخيلة والأوهام، ونضت[٤] الحماقات من أجله السيوف، وراشت السهام.

---

١ . الوَمْضة: اللمعان الخفيف.

٢ . عنت: خضعت.

٣ . المكدود: أي المغلوب.

٤ . نضت السيوف: سلّت وانتزعت.

لأمَ الصَدْع[1] ولمّ الشِتات[2]، محا المواجد[3] ومسح البغضاء، رأب الفتوق، لحم الشقوق، حملهم على وصل الأرحام، منعهم أهراق الدم الحرام، بالبلدة الحرام.

فسرعان ما استفاءهم إلى الوفاق، سرعان ما أبدلهم بالعداوة المحبّة، وبالظلام الإشراق.

❊ ❊ ❊

بعزم الواثق، بإدراك الواعي، بتواضع المؤمن، التفت يقول بصوت هادئ، جليّ الجرس، غنيّ النبرات: «هلمّ إليَّ ثوباً..».

فأخذتهم الدهشة، وتبادلوا نظرات جوفاء.

ـ «هلمّ إليَّ ثوباً..».

رنّة الحسم في كلماته، لم تدع لهم فرصةً للمراجعة والانتظار، وبادروا إليه، فأتوه بكساء أبيض من متاع الشام، وضعوه بين يديه، ونشر هو الكساء، وتناول الحجر الأسود، فوضعه فيه، وقال لسادة قريش الكبار: «فلتأخذ كلّ قبيلةٍ بناحيةٍ من الثوب».

فأطاعوه، بأحد أطراف الرداء أمسك عُتْبة بن رَبيعة[4]، وبالثاني زَمَعة[5]، وبالثالث حذيفة[6]، وبالرابع قيس بن عدي[7]، ثم حملوه جميعاً ـ وبه الحجر

---

١ . لأم الصدع: أي سدّ الشق وأصلحه.

٢ . الشِتات: المتفرقات.

٣ . المواجد: جمع ماجدة، وهي الشحناء.

٤ . عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، كبير قريش وأحد ساداتها في الجاهلية. كان موصوفاً بالرأي والحلم، وكان خطيباً، وهو الذي توسّط الصلح بين هوازن وكنانة في حرب الفجار، أدرك الاسلام،لكنّه طغى فشهد بدر مع المشركين، وقتل فيها سنة ٢هـ.

٥ . في مروج الذهب (٢: ٢٧٨): الأسود بن عبدالمطلب بن أسد بن عبدالعزّى.

٦ . حُذَيفة أو أبو أُمية بن المغيرة بن عمرو بن مخزوم، زاد الراكب.

٧ . يقول عبدالملك الشافعي العاصمي في كتابه سمط النجوم (١: ٢٠٩): «طالما بحثت عن أهل الزعامة والرياسة من الأربعة الآخذين بطرف الرداء حتىّ ظفرت بأسمائهم على التعيين في مروج الذهب، وهم عتبة بن ربيعة بن أُمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، والأسود بن عبدالمطلب بن أسد بن عبدالعزّى بن قصي، وأبو حذيفة بن المغيرة بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرّة بن كعب، وقيس بن عدي السهمي».

الأقدس ـ يرفعونه إلىٰ قمة البناء.

وعندئذٍ تقدّم محمد فاستلم الحجر وقبّله قبلة خشوع، ثم وضعه بمكانه من الكعبة الشريفة، حيثما كان منذ أيام إبراهيم وإسماعيل.

وعلى الأثر انطفأت الشحناء، فرّت أبالسة العداء، عاد الهدوء، هيمن السلام، انفضّ القوم وهم على أُلفة وإخاء[١].

* * *

لكن، ليس بالفكر وحده يتحقّق الأمان، وتصفو الأنفس، وتطمئنّ القلوب، ويعزّ الإنسان، وتنتصر الحياة.

ليس أيضاً، بسطوة القوة، ليس بصولة الثروة، ليس بعزّة الجاه.

أم لا؟ فأين جبروت فرعون؟ أين سلطان هامان؟

كيف بادت عاد؟ كيف مُحقت ثمود؟ كيف اندثرت إرم ذات العماد؟

ماذا أجدىٰ مال قارون علىٰ قارون؟ من كسر كسرى؟ من قهر قيصر؟

بل العزّة لله، فالحياة بالإيمان، بنقاء الروح، بعزم القلب، بصحو الضمير، بالتسامي علىٰ نزغات النفوس، وشهوات الأجساد.

---

١ . وفي ذلك يقول هبيرة بن أبي وهب المخزومي:

تشاجرت الأحياء في فصل خطّةٍ ... جَرت طيرهم بالنحس من بعد أسعدِ
تراموا بها بالبُغض بعد مودّةٍ ... وأوقد ناراً بينهم شرُّ موقدِ
فلمّا رأينا الإمر قد حان جدُّه ... ولم يبق شيء غير سلّ المهنَّدِ
رضينا وقلنا العدل أوّل طالع ... يجيء من البطحاء من غير موعدِ
ففاجأنا هذا الأمين محمدٌ ... فقلنا رضينا بالأمين محمدِ
فجاء بأمرٍ لم ير الناس مثله ... أعمّ وأرضىٰ في العواقب والبدِي
أخذنا بأطراف الرداء وكلّنا ... له حصّة من رفعه قبضة اليدِ
فقل ارفعوا حتّىٰ إذا ما علت به ... أكفّهم وإلى به خير مسندِ
وكلٌّ رضينا فعله وصنيعه ... فأعظِم به من رأي هادٍ ومهتدِ

وساعة آلّف محمد بين قومه، ذلك اليوم المشهود، عند الكعبة، في بيت الله، فبدّلهم أمناً بخوف، وإخاءً بعداء، ووحدةً بفُرقة، وسلماً بحرب، وبقاءً بهلاك، إنّما كان عندئذ يسير إحدى خطواته المباركة في الطريق إلى الله.

كان يخضد[1] أشواك الشرّ، كان يقتلع شجرة الظلام، جذراً من بعد جذر، كان يمهّد أرض البشرية لاستقبال بذور الخير، كان يهمّ بإعادة بناء الإنسان على أساس جديد وطيد، كان يتهيّأ لتأكيد حقيقة الواجد، وحقّ الموجود.

* * *

وكَمَ شغله هذا الأمر! كم أخذ عليه كيانه!

كم ملكه، سكنةً وحركةً، خفقةً وخلجةً، عقلاً وجناناً، حسّاً وعاطفةً!

أفلم يكن ببعض روحاته وجيئاته، مع الوحدة والرمل والنجم والغيم والمجهول، يستجيش مشاعره ويستجمع شعاث أفكاره، ليطرق باب المغيب المستور، واصلاً نهاره بليله، وواصلاً ليله بنهاره؟

أفلم يكن، في إبّان تأمّلاته ـ وهو يتحنّث[2] بغار حرّاء، قرب أُم القرى مكة ـ يحاول أن يعرف كيف يمكن أن تردم تلك الهوّة الواسعة التي حفرتها جهالات البشر، وعمّقها فساد السرائر وعمى الضمائر، حتّى غدت برزخاً لا يكاد يعبر بين الله والإنسان، وبين الإنسان والإنسان؟

أفلم يكن، في خلواته الروحانية هذه، إنّما يستشعر فيشعر، ويتأمّل فيأمل أن تُرفع عن بصر الإنسانية عصابة الأنانية التي تحجب عن البشر ضياء الهداية، وتغشي أعين القلوب عن رؤية حكمة الحياة؟

أفلم يكن ـ بروحه المحلّقة في ملكوت ربّه ـ يهفو إلى تحرير الناس من أثقال

---

١ . خَضَد: كسر وقطع.

٢ . يتحنّث: يتعبّد، والحِنث: اعتزال الأصنام وترك عبادتها.

المادّة وانحلالها التي تربطهم بالأرض، وتشدّهم إلى الوحل، وتحرمهم القدرة على التحليق في السماوات؟

بلىٰ، قد كان!

* * *

كان علىٰ عدّةٍ من القدر أن تهتدي بديهته اللماحة إلى الحقيقة المطلقة الربانية ليهدي إليها البشرية، كان يجاهد النفس، وأفكار البيئة، وركام الماضي، وتحجّر القلوب والعقول، ليفتح الطريق إلى الإيمان.

كان يعمل ليكون، فبغير العمل لا يقوم كيان.

فما كان هذا العمل ليعجز من أخلص النيّة فعمل، ولا الطريق خفيّاً علىٰ من شاء طروقه، أيّ إنسانٍ كان، في أيّ مكانٍ، في أيّ زمان.

ما كان بعيداً قطّ عمّن أراد الارتياد، فكلّ ذي بصيرةٍ يراه.

والفطرة التي فطر الله الناس عليها أجمعين، مجازٌ إليه قصير، ممهود ميسور.

والله ـ رحمةً بخلقه ـ كان لا يفتأ، منذ أنشأهم، يذكرهم به، ويعاود التذكير.

كان سبحانه يرغّب ويرهّب، يبشّر وينذر، يدعو ويأمر، يعتب ويزجر.

فهل أغنت النذر؟

* * *

القلوب الغلف أغفلت الذكر، خالفت الأمر، تلهّت عن الزجر، حادت عن سِراط[١] النور، كمثل الخفافيش والبوم والهوام، آثرت أن تعيش في الظلام.

ثم استمرأت[٢] الغيّ، ثم قست، ثم نسيت الله.

وعندما انطلق «الأمين» ذلك النهار من جمادى، منذ أربعة عشر قرناً، يغادر

---

١ . السِراط: السبيل الواضح، ويقال: إنّها معرّب ستراتا اللاتينية، ومعناها الطريق المعبّدة المبلّطة.

٢ . مرأ الطعام فلاناً: إذا طاب له ونفعه، ومرأ مراءةً الطعام: صار مريئاً وساغ من غير غصص.

أولئك الذين احتكموا إليه في وضع الحجر، كان بينهم ـ بلا ريب ـ من رأوا فيه.

بنظرة البداهة المشرقة والحسّ الشفيف والفطرة السليمة، ذلك الموعود بهداية الجنس البشري كافّةً إلى طريق الإيمان.

وكان بينهم أيضاً من أنسوا، في بعض الظواهر الطبيعية والحدثية التي توالت على الدنيا ـ قبيل ميلاده وفي أعقابه ـ دلالات تومئ إليه بإصبع ثابتة، لا تخطئ الإيماء.

وكان بينهم من كادوا يجاوزون مجال التوسّم[1] والإحساس إلى دائرة التثبّت والاستيقان، لأنّهم قرأوا وسمعوا ووعوا أنّهم يعيشون في زمان ترقّب وانتظار، وهيّأتهم ملكاتهم النفسية وقدراتهم الروحانية للإيمان بوعد الواعد، فلا حاجة إذاً بهم إلى التردّد في التصديق بمجيء الموعود.

* * *

وها هي مرادات الإيماء، ها هي المعالم الهادية مرفوعة كالأعلام.

ها هي الإشارت، ها هي عجائب وخوارق ونبوءات.

ها هي آيات، وكم من آيات!

كم من بشارات كانت للزمن طليعة، وراحت تتقدّم الأحداث والوقائع، وتسبق الظروف والصروف، تعلن للعالمين عن هذا الآتي من وراء الغيوب!

آونةً بعد آونة كانت تلمع في أُفق الدنيا لمع البرق بين كسف[2] السحاب، تارةً فتارة كانت تهلّ إهلال المعتمر بالتلبية استجابةً لنداء الله، مرّةً مرة كانت تترىٰ[3]، مبيّنة عن إقباله، مواكبة مراحل حياته، مرحلةً تلو مرحلة، إذ هو نطفة، فجنين، فوليد، فرضيع، ففطيم، فطفل، فصبي، فغلام، ففتىً، فشاب متين البنيان صليب العود.

* * *

---

١ . التوسّم: التفرّس.

٢ . الكِسَف والأكساف والكُسُوف: القطع من الشيء.

٣ . تترىٰ: أي متتابعاً.

رؤيا عبدالمطلب

وهو بعد حمل مستكن في بطن أُمّه، لم يكد يتخلّق، أومأ القدر إلى قدره من خلايا رؤيا زارت جدّه عبدالمطلب في المنام.

فلمّا أن انبلج[١] الصبح، سعى الشيخ لتأويل رؤياه إلى كاهنة عرّافة، ذات فراسة وعلم، مضىٰ... لعلّ تفسيرها يخفّف عنه بعض همٍّ أوقره[٢] به ما رآه، وأضاف إلى الغضون[٣] التي شقّتها السنون[٤] في وجهه أخاديد.

وأنبأ المرأة الخبر، قال: «إنّي لنائم في الحجر، إذ رأيت رؤيا هالتني، رأيت كأنّ سلسلةً خرجت من ظهري، وكان لها طرف في السماء وطرف في الأرض، وطرف في المشرق وطرف في المغرب، ثم رأيتها غدت شجرةً، وعلىٰ كلّ ورقةٍ بالشجرة نور، ما رأيت نوراً أزهر منه، ثم رأيت أهل المشرق والمغرب يتعلّقون بها، فرفعت يدي لأتناول منها نصيباً فلم أنله، فانتبهت مذعوراً فزعاً..».

* * *

كان عبدالمطلب ـ وهو يتحدّث ـ كمن يلهث، كلماته تتموّج، صوته يهتزّ بالتوجّس[٥]، نظراته تترجرج[٦].

وكانت الكاهنة ـ وهي تصغي ـ كمن تنعس، رأسها علىٰ صدرها، بصرها إلى الأرض، وعيها غائب كأنّما ذابت في الدهشة.

---

١ . انبلج الصبح: أشرق نوره وأضاء.

٢ . أوقره: أثقله وزاد من حمله.

٣ . الغضون: جمع غَضن، وهو كلّ تجعّدٍ وتثنٍّ في جلد أو ثوب ونحوهما.

٤ . السنون: جمع سنة.

٥ . التوجّس: التسمّع مع خوف.

٦ . الترجرج: التحرّك باضطراب.

وجودها عدم، حركاتها سكون، وبينها وبينه ستار كثيف من الوجوم[١].

* * *

لبضع لحظات يخالها المترقّب عمراً، سربلهما[٢] الخمود، لاحا كهيئتين من فراغ موهوم، كشبحين بغير كتلة، ولا عمق، ولا أبعاد، كجمرتين هامدتين، أُفرغتا من الحرارة والوهج واللهيب، فاستحالتا كومتين من رماد.

وثقل الهواء، وجمد الفراغ، وأمعن الصمت في الصمت.

وعندما اهتزّ أخيراً ستار السكون، وآن للشيخ أن يمدّ إلى الكاهنة طرفه، بدت عيناه ـ من فرط القلق ـ قطرتين من الزئبق.

علىٰ تلك الجاثمة عند قدميه، ألقىٰ نظراتٍ عجلىٰ حائرة، يتجمّع شعاعها ويتفرّق، ويضطرب وينتكث[٣] كحبالة صيادٍ رمىٰ بها في تيه يمٍّ[٤] فوّار هادر لاقتناص فريسة.

يا ترىٰ أقَد لسع المرأة من وقد عينيه لسان نار؟ أم هي تحرّرت من أسار الذهول؟ أم آب وعيها من رحلته في المجهول؟

إنّها لتنفض عن لسانها الخرس، لتقول: «لئن صدقت رؤياك هذه، يا عبدالمطلب، ليخرجنّ من صلبك مولود يتبعه أهل المشرق والمغرب! ويحمده أهل السماوات والأرض!..».

* * *

طفر الشيخ يستوى علىٰ قدميه، وراح يوسّع خطواته إلى دياره، وهو يبارح صومعة الكهانة والسحر والأسرار.

---

١ . الوجوم: السكوت مع ترقّب وخوف.

٢ . تسربل: لبس السربال، وهو القميص أو كلّ ما يلبس.

٣ . ينتكث: ينتقض ويتفرّق.

٤ . اليمّ: البحر.

إنّه غير ما كان قبل التأويل، إنّه ليشعر، وهو يسير علىٰ حصباء[١] الطريق التي ألهبتها الشمس، كأنّما يمشي علىٰ نَوْر[٢] وأزهار، إنّه ليكاد يرى الفرحة تلوّن خدّيه، إنّه ليحسّ بعروقه تتدفّق فيها حُميّا[٣] الشباب كسورة شراب.

فالحنين إلى الغد الموعود هو مسرب[٤] خطاه، والأمل فيه هو حاديه[٥] وهاديه.

كلّ ما مرّ به، ساعة عودته تلك إلى الحيّ والدار، تغيّر، غدا كأحلىٰ ما تخيّل وخال أن يكون، والحلاوة ألوان.

* * *

في بصره كما في سمعه، وفي شعوره كما في يقينه، تبدّلت الأشياء والأُمور هيئةً بهيئة، سمةً بسمة، رنيناً برنين.

تغيّرت صورةً وشكلاً، ومعنىً ودلالةً.

الدنيا حوله جمال وخير، الناس خلّان[٦] وأصفياء، لاضيق باليوم بل رضاء، لا خشية من الغد بل طمأنينة.

فوجمة[٧] النذير إيذان ببشرىٰ وبشر، وظلمة الليل طليعة الفجر، ولغط[٨] الضوضاء شَدْو[٩] ونَغَم، وعصف الرياح خطرات نسيم، ووقدة الهجير[١٠] برد وسلام.

---

١ . الحَصباء: واحدها حَصَبَة، وهي الحصىٰ.

٢ . النَّوْر: واحده النَّوْرة، وهي الزهرة، أو الأبيض منها.

٣ . الحُميّا من كلّ شيء: شدّته وأوّله.

٤ . المسرب: المذهب، يقال: للوحش والنِّعَم مسارب ومسارح، أي أمكنة تذهب فيها وتسرح.

٥ . الحادي: الملازم للشيء ويهديه.

٦ . الخلّان والأخلّة: جمع خليل.

٧ . الوَجْمة والوَجْم: السوء.

٨ . اللَّغَط: الصوت والجَلَبة.

٩ . الشدو: الغناء.

١٠ . الوَقْدة: شدة الحرّ، والهجير: أشدّه.

إنّ جفاف الصحراء لماء ونماء، وإنّ القفر[١] لخضرة ونضرة، وإنّ المحلّ لجنىً وظلّ، والرمل تبر[٢]، والحصىٰ درّ، كلّ الأصوات أغاريد، وكلّ المرائي بسمات.

وإلىٰ بضعة أعوام مرّت عليه بعد يومه هذا، نما فيها الوليد بعض نموٍّ، كان عبدالمطلب يستشعر العذوبة والرفق والجمال ترفّ حوله على الحياة، ويعيش في جنّة ـ دانية قطوفها ـ من الرجاء.

* * *

فيا لبشراه! ما أعظم وأجلّ هذا الذي تفتّق عنه سرّ رؤياه!

وإذا كان ما رآه في منامه أنبأه أن لن يناله نصيب ممّا سيأتي به الوليد، الذي لم تشرق بعد على العالمين شمسه، أفليس بحسبه أن يجيء بضعة منه؟ قطعة من قلبه؟ فلذّة[٣] من صلبه؟

اسمه يقترن باسمه؟ حياته تتجدّد في حياته؟ ذكراه تعيش في ذكراه؟

لسوف يلازمه، عصراً وراء عصر، على مدى الدهر، إلى الأبد الآبد، حتّى فناء الأرض والسماوات.

أفليس هذا حسبه؟

بلىٰ... كفاه، وكفاه!

* * *

وتنتشر قصة الرؤيا والتأويل، في كلّ مكان تصبح محور الحديث، في مجالس القوم عند حرم الله، في ندوات قريش، فيما وراء البلدة المقدسة من تخوم[٤] وحدود، في مساري التجارة والتجّار، في متاهات الجدب[٥] ومواطن الماء، في مرادات

---

١ . القَفْر: الخلاء من الأرض، لا ماء فيه ولا ناس ولا كلأ.

٢ . التِبْر: الذهب غير المصوغ، أو في تراب معدنه.

٣ . الفِلْذّة: القطعة من الكبد أو اللحم أو غيرهما.

٤ . التُخُوم: واحده التُخْم والتَخم، وهو الحدّ.

٥ . الجَدْب: انقطاع المطر عن مكان فَيَبِست أرضه.

الرعاء[١]، في آطام يهود.

والدنيا ـ إلى جوار هذا ـ تنتظر ظهور ذلك الحفيد الموعود، ذلك المحمود من الخالق والخلق، من الربّ والمربوبين.

* * *

فإلىٰ كم طال الانتظار؟

طال، وما طال بحساب الزمن لم يطل، وبحساب الإحساس طال.

كلّ مَشُوق إلى الغد المأمّل استشعر أنّ الأيام تبطئ كأنّها لا تسير، أمّا الفلك فظلّ ـ كعادته ـ يدور ويدور، وأمّا الزمن ـ فبنفس سرعة خطواته الآتية من المجهول، والذاهبة إلى المجهول ـ ظلّ أيضاً يسير.

لكأنّما الأيام كانت تتلكّأ في انطلاقها إلى الأمام، لكأنّما المستقبل تمهّل في إسفاره عن الوسمات والإشارات.

لكأنّما القدر رأى التريّث بإظهار مكنوناته التي ستتكشّف عن خوارق للطبيعة، وعجائب من الأحداث، مؤثراً أن يتقدّم بها للناس علىٰ تتابعٍ وتنجيم مقدور.

جرعة جرعة، وحسوة حسوة، راح يقدّمها ليتذوّق طعمها من له ذوق، ويعي فهمها من له وعي، فيستوعبها المستطيب، ويتمثّلها المستوعب، ثم يتبعها بوشقات آخر: بشائر ونذر، آيات جديدة.

* * *

والفلك يدور.

والزمن يسير.

---

١ . الرُعاء والرعاة والرُعيان: جمع راعي. والمرادات: جمع مراد، وهو مكان رياد الإبل، أي اختلافها في المرعىٰ مقبلةً ومدبرة.

اللوحة الخامسة

الموعود

لم يطل بالدنيا الانتظار، الآيات أخذت تعلن عن المولود قبل أن يخرج إلى الوجود.

أُمّه امتلأت بالنور، من خلالها انتشر سناؤه يغمر ما حولها في الحجرة الصغيرة.

بعض هذا الضياء ـ والجنين في قراره المكين ـ انساب يخترق الجدران، ويفيض على البلدة الحرام، وبيت الله، والكعبة الغرّاء.

شعاع منه، غدا كمركب نوراني، احتمل نظرات «آمنة»[1] إلى بعيد ... بعيد، اخترق بها الحدود، كسر حاجز الزمان، طوى المسافات في لحظات، أضاء لها قصور بصرى من الشام.

بل طار أيضاً إلى ما وراء الوراء، وما أمام الأمام، إلى الأمس: بعيده وقريبه، وإلى الغد: دانيه وقاصيه.

إلى الحكمة الربانية التي قضت بمجيء هذا المولود ليكون الرسول الموعود، إلى نفس ما طالع عبدالمطلب في «تأويل» رؤياه: «ليخرجنّ من صلبك مولود، يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماوات والأرض».

---

١ . آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، من قريش.

إلى دعوة إبراهيم، يوم رفع وإسماعيل القواعد من البيت، ومنذ مئات السنين، ثم دعا ربّه: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

إلىٰ «بشرىٰ» عيسىٰ بن مريم، إذ قال لقومه: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللهِ إِلَيْكُم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[2].

أَوَ لم يفصح عليه الصلاة والسلام للناس عن كنهه بعد بعثته بسنين، فقال: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرىٰ أخي عيسى»[3]؟

بلىٰ، قد أفصح وأبان.

وها هي آمنة أُمه ـ عندما حملت به ـ ترى رؤيا، لها نفس معنى ما رأىٰ جدّه الشيخ الوقور، هاتف مبارك ينفث في روعها، وهي وسنانة[4]، حقيقة الجنين، يزفّ إليها النبأ العظيم: «إنّك حملت بسيّد الأنام»[5].

ونكست رؤوسها الأصنام.

* * *

فأيّ سعادة تلك التي ملأت قلب السيّدة الفضلىٰ، وإنّها لأكبر من أن تتّسع لها رحاب الأكوان؟ أيّ بشر غمرها، إذ علمت أنّها المختارة من لدن الله لتكون الوعاء الطهور للمختار؟ أيّ فرحة كانت تحلّق بها، بجناحي الشوق والأمل، في سماء المستقبل، وهي تعدّ ـ بالثواني واللحظات ـ الأيام الباقية ليجيء ذلك المحمود من الأرض والسماوات؟

---

١ . البقرة: ١٢٩.

٢ . الصف: ٦.

٣ . رواه ابن سعد في الطبقات ١: ٩٦، وابن كثير في البداية والنهاية ٢: ٢٧٥.

٤ . وَسِنَ وَسْناً: أخذه ثقل النوم أو اشتدّ نعاسه، فهو وَسِنٌ، وهي وَسِنَة ووسنانة ووسنىٰ.

٥ . سيرة ابن هشام ١: ١٥٨، البداية والنهاية ٢: ٢٤٥.

السيدة الفضلىٰ كانت تحسّ هذا كلّه، ثم لا تملك إلّا أن تلمح من خلاله طيف زوجها زين الشباب: عبدالله.

فلو أنّه بقي حتّى الآن! لو أنّه لم يَغْدُ مجرّد صورة في معرض الذكريات! لو أنّ قدره أمهله ليكونوا ثلاثة!

لكنّه لم يعش معها غير وقت قصير، يحسب بالأيام ولا يكاد بالشهور، قضىٰ وهو في مثل عمر الزهور، مات بعيداً عنها، غريب الدار.

فلعلّ عينيها، وهما تطلّان عليه من شرفه الذكرىٰ، حيث ثوىٰ هناك في ثرىٰ «يثرب» قد تندّتا، وغشّت تألّقهما غيمة ضباب.

لعلّ تطلق محيّاها ببشراها قد شابته ظلال، لعلّ قطرات تحدّرت[1] علىٰ جانبي وجهها المشرق، لتمزج بسمة الفرح بعبسة قلب محزون، لعلّ واعيتها[2] أخذت تلوك ما كانت أرسلته، من بضعة أشهر، دموعاً مسموعةً، ترثي بها زوجها الحبيب.

بل لعلّ شفتيها راحتا تسرّان لنفسها بكلمات من تلكم المرثية، في همس صامت، وبخفوت كأنّه سكوت، فلا يصل أُذنيها من نواحها نبس، ولا من ندبها جرس، وإن كان صدرها لينشقّ، وكلماتها هذه تضرب بعنف علىٰ أوتار قلبها الجريح[3]:

«عفا جانبُ البَطْحاءِ من آل هاشمٍ[4] وجاوَرَ لَحْداً خارجاً في الغَمائمِ[5].
دَعَتْه المنايا دَعْوةً فأجابَها وما تَرَكَتْ في الناس مِثْلَ ابن هاشمِ.

---

١ . تحدّرت وتحادرت: نزلت وهبطت.

٢ . الواعية: الحافظة.

٣ . الأبيات من الطويل، ينقلها طبقات ابن سعد ١: ١٠٠، سبل الهدىٰ والرشاد ١: ٣٣٢، سمط النجوم العوالي ١: ٢٩٨.

٤ . في المصادر: «إبن هاشم».

٥ . في المصادر: «الغَماغم».

عَشــيَّةَ راحُــوا يــحمِلُونَ سَــريرَهُ تــعاوَرَهُ[١] أصــحابُهُ فــي التَــزاحُــمِ.
فــإنْ تَكُ غَــالَتْهُ المــنونُ[٢] ورَيْــبُها فَــقد كــانَ مِــعْطاءً كَــثيرَ التَــراحُــمِ».

* * *

غير أنّ بسمة الحياة استغرقت كلّ مكة.

مع قرار الجنين في بطن أُمّه، ارتفع عن البلدة الحرام ما كانت تعانيه من جدب وضيق عيش في ذلك العام، برق البرق، ورعد الرعد، وتراكم صيِّب[٣] الغمام.

نزلت نعمة الماء من السماء: لانّ الجفاف، ذهب الجدب، جاءت النضرة بالخير، اخضرّت الأرض، نبت العشب، تفتّح النَوْر[٤]، تسنبل الحبّ، ثقلت الأُشجار بحملها من الثمار.

لكنّ أمنة لم تجد لحمل جنينها ثقلاً، ولا أحسّت مشقّةً. كانت خـفيفة كـنسمة هواء، كانت كأنّها عذراء.

وعندما آن له أن تضعه، بدا كوكب المشتري، بشير اليمن، وقد أزهر في الأُفق، والتمع يبرق ويومض، كما لم يكن من قبل وميض برّاق، له مثل هذا الإشراق.

كان يتألّق كجرم كبير من ماس، يلوح متوهّجاً كشعلة نار، نوره يكاد يـخطف الأبصار والليل عندئذٍ قد غاب في السحر، والسحر قد ذاب في الفجر، والفجر يسبح في نداه إلى شاطئ النهار.

فإن هي إلّا سُوَيْعة حتّىٰ طارت بعبدالمطلب الفرحة.

إنّه ليحسّ كأنّه لمس ببنانه السماء، علا فوق مسرب الشـمس، وجـاوز مـدار القمر، قلّده القدر عقداً من لؤلؤ ودرّ حبّاته النجوم، بكواكب الكون مـلأ حَـفْنَتَيه،

---

١ . تعاوروه: أي تداولوه، مرّة يحملونه يميناً ومرّة شمالاً من كثرة الزحام.

٢ . في المصادر: «المنايا».

٣ . الصيِّب: السحاب ذو المطر.

٤ . النَّوْر: واحده النَّوْرة، زهي الزهرة، أو الأبيض منها.

بكنوزها فرشت الدنيا مواطئ قدميه.

وعندئذٍ هتف، بنبرةٍ هي البهجة والحبّ والحنان: «ولد لي الليلة، مع الصبح، مولود».

فأيّ مولود!

* * *

ونفثت عطرها على الأرض الورود والرياحين، وهزج النسيم[١]، وغرّدت الطيور، ورقصت على موسيقا شَذوها الغصون والأفنان[٢].

ومن فوق أُولئك وهؤلاء: هلّل الملائكة، وزغردت[٣] الحور.

ففي ذلك اليوم المبارك من أيام الربيع، في شهر ربيع.

مع أول لمعةٍ من إشراقة النهار، مع أول شعاعة نور، مع أول أُغرودةٍ لعصفور ... ولد «النور»، أقبل البشير النذير، انفصل عن جسد أُمه ليكون كما سوف يكون، لينير القلوب والعقول، ليهدي العالمين.

وعندما نزل، واستقبل أول أنفاس حياته الدنيوية، تطلّعت إليه «آمنة» فإذا هو ساجد، وإذا سبّابتاه قد ارتفعتا نحو السماء كالمتضرّع المبتهل، وإذا الدنيا في كلّ رجأ وفجّ[٤] تشرق أمام عينيها بفيضٍ من نور، يمدّه نور، من ورائه نور ومن أمامه نور.

وإذا القدرة الإلهية تعلن بآيات بيّنات عن مجيء الوليد المحمود ممّن في الأرض ومن في السماوات.

---

١ . الهَزَج: الترنّم والطرب، أي طرب النسيم واهتزّ في جريانه فرحاً.

٢ . الأفنان: واحده أُفنُون، وهو الغصن الملتفّ.

٣ . زغردت: هدرت هديراً في حَلْقها، وعند العامة: هَلْهلت.

٤ . الفجّ: الطريق الواسع، وضدّه الرجأ. يريد في كل ناحية من نواحي الدنيا قد فاض فيها النور وأشرق بولادته ﷺ.

فالعالم يرتجف ويميد، وبنيان البيت الحرام يرتجّ، والأصنام من مواقعها فيه تسقط مكبّة على الوجوه، منكوسة الرؤوس.

* * *

ومن وراء «أُم القرى»، وفيما حولها، وبين ربوعها، أخذت يد الله تجري علىٰ بعض نواميس الطبيعة بالتغيير، راحت خوارق كونية، وعجائب حدثية، تتوالىٰ هنا وهناك على امتداد الأبعاد، بياناً من بعد بيان.

بمدينة «يثرب»

علىٰ مسافة مئات الأميال من مكّة، في نفس أوان الميلاد، وبعيداً بعيداً عن موضع المولد، يهبّ من أهلها يهودي ذو علم، وعىٰ ما في أسفار الأوّلين، فيعتلي أَطمة[1] مرتفعة من الآطام، ويصرخ بصوت مستغيث ملهوف: يا معشر يهود! يا معشر يهود!

فيهرع إليه قومه على عجل وتوجّس، يسألونه نبأه: ويلك! لماذا تصيح؟

فيجيب، وفي نظراته رعب، وفي نحره مثل حشرجة، ورأسه تتدلّىٰ علىٰ صدره كأنّه ذبيح: طلع الليلة نجم أحمد[2].

* * *

وبمكة أيضاً

في أندية قريش، في ذات الموعد، آخر غيره، من بني جلدته، كأنّه خياله، ينتفض كانتفاضته، يبغت[3] مثل بغتته، يهتف في الناس: ولد الليلة نبيّ هذه الأُمة وهو منكم معاشر قريش.

---

١ . الأطمة: جمعها الأُطُم والآطام، وهي كل بناء مرتفع، من حصن وبيوت وغيرها.

٢ . البداية والنهاية ٢: ٢٤٨ ـ ٢٤٩ يرويها عن حسّان بن ثابت، وعزاه إلى محمد بن إسحاق.

٣ . يبغت: أي يقفز فجأةً.

ثم يطوف بهم، يسألهم جماعةً جماعة: هل ولد فيكم الليلة مولود؟ فيقال له: ولد لعبدالله بن عبدالمطلب غلام.

فكأنّما يتخبّطه مسّ من الجنّ! إنّه ليلهث، قلبه يجب وجيب[١] أرض داهمها زلزال، عيناه تدوران في محجريهما من هلع، كمن يرى الموت يقبل عليه بمنجله ليحشّه[٢].

ملامحه تفرز الحقد، فمه يتلمّظ[٣] الغيظ، ثم يخرّ صعقاً.

حتى إذا ما أفاق، ورأىٰ علىٰ بعض الوجوه ما ينمّ عن استبشارها بخبره، فحّ[٤] كالثعبان ينفث سمّه، وصرخ فيهم: أما والله ليسوطنّ بكم سطوةً يخرج خبرها من المشرق إلى المغرب.

ويتبع قوله ـ متحسّراً ـ همهمةً محمومةً كأنّما يخاطب نفسه: والله ذهبت النبوة من بني اسرائيل[٥].

فإن يكن عجب فالعجب له إذ يعرف ثم يتجاهل ما يعرف، أوَ ما هدته كتبه أنّ علمه حقّ؟ أو ليس وقومه اليهود موقنين من مجيء كتابٍ من لدن ربّهم مبين، علىٰ يد هذا الآتي المختار: هدى ونوراً للعالمين؟

أفينكرونه ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٦].

﴿أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[٧].

وعندما تسأل قريش كبيرها عبدالمطلب عن ابن عبدالله: يا أبا الحارث، ما

---

١ . وجيب القلب: خفقانه.

٢ . يحشّه: يقطعه.

٣ . يتلمّظ: يدير لسانه في فيه ويحرّكه.

٤ . فحّ: نفخ فأحدث صوتاً كالثعبان.

٥ . البداية والنهاية ٢: ٢٤٨ عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، وعزاه إلى ابن إسحاق.

٦ . الشعراء: ١٩٦.

٧ . الشعراء: ١٩٧.

حملك على أن تسمّيه محمداً، وليس هذا من أسماء آبائك؟

يبتسم معتزّاً، وهو يستعيد في باله رؤياه، ويجيب: أردت أن يحمده الله في السماء، ويحمده الناس في الأرض[١].

* * *

وتتوالى النُذُر والبشارات، يرتجف إيوان[٢] كسرىٰ، تترنّح أركانه، تتداعىٰ جدرانه، تتهاوىٰ بعض شُرفاته[٣]، يتصدّع بنيانه.

الصرح[٤] الشامخ الممرّد ينشقّ عن قعقعةٍ[٥] قاصفةٍ، ردّدت دويّها آفاق أرضه الفارسية، كأنّما انفجر صدره بصرخةٍ جبارةٍ تترجم عمّا يعانيه.

أفهذا إيذان بزوال ملك ساسان؟

أعلى الأيام سيطابق المرئي الرؤيا، ويوافق واقع الحال هجس[٦] الأحلام؟

أسيصدق تأويل «سطيح»[٧] الكاهن المعمّر لرؤيا كسرىٰ، ولرؤيا «الموبذان» كبير سَدَنَة النيران؟

أمّا كسرىٰ فقد هاله ذات ليلةٍ أن رأىٰ في منامه ارتجاس الإيوان، وأمّا الموبذان فقد رأىٰ إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً، لا تلبث أن تقطع دجلة فتنتشر على صفحة الامبراطورية الفارسية هنا وهناك، انتشار الجراد.

---

١ . المصدر السابق: ٢٤٧ عن البيهقي وفيه: «وخلقه الذي في الأرض».

٢ . الإيوان: القصر، أو كل مكان متّسع من البيت يحيط به ثلاثة حيطان.

٣ . الشُرفات والشُرَف: واحدها شُرفة، وهي كل ما أشرف من البنا، وخاصة ما أعلى السور والقصر. وقيل: إنّه كانت له ٢٢ شرفةً، سقطت منها ١٤ شرفة.

٤ . الصرح: القصر.

٥ . القعقعة: حكاية حركة الشيء يُسمع له صوت.

٦ . الهَجس: الخواطر التي تدور في النوم واليقظة.

٧ . يقال: إنّ سطيح الكاهن هذا ولد أيام سيل العرم، وخرج من مأرب مع رهط من الأزد، وعاش إلى زمان ولادته ﷺ فكان له من العمر قريب من ستمائة سنة. راجع سمط النجوم العوالي ١: ٢٠٢.

وحار الرجلان فيما رأياه، وأثقلهما هم عظيم.

لكنّ سطيحاً، الكاهن المعمّر الذي أربى على المائتين من السنين، لا استغلق عليه الأمر ولا حار، وكان تأويله: اندثار الدولة الكسروية، وذهاب ريحها إلى أبد الآبدين، تحت أقدام أُولئك القادمين من وديان المحلّ والرمال[1].

* * *

وانطفأت أيضاً نيران دين المجوسية وخمدت في معابدها عند ميلاد محمد، وعهد القوم بنارهم «المقدسة» هذه أنّها عاشت مشتعلة، حمراء الجَذَىٰ[2]، مشبوبة[3] اللهب، على امتداد ألف عام، لم تُهمد[4] قطّ إلّا في هذا اليوم.

آية ... أفهي نذير لمن أراد أن يلقي السمع والبصر والفؤاد وهو شهيد؟

ثم غاضت بحيرة «ساوة» ونَضَب ما بها من ماء[5].

آية أخرى ... أفهي تذكرة، عسى أن يستيقظ من غفوة الروح والعقل الرُّقَّد النيام، وتتحرّك الأفهام والأحلام؟

فهل خمدت يومذاك أنفاس نار المجوس، أسفاً وحزناً على ما أصاب الإيوان؟ هل شفّها الظمأ فعبّت ما بالبحيرة من مياه؟ هل الماء تسرّب ـ إذ هو مقرور ـ من حيث كان، إلى حيث يستدفئ بتلك النيران؟

هل جاز فيهما قول من قال:

كأنّ بالنار ما بالماء من بلل ... حزناً وبالماء ما بالنار من ضرم!

---

١ . راجع البداية والنهاية ٢: ٢٤٩ وما بعدها.

٢ . الجذىٰ: الجمرة الملتهبة.

٣ . مشبوبة: متّقدة.

٤ . همدت النار: سكنت، طفئت.

٥ . يقول العاصمي (١١١١ هـ): «وغاضت بُحيرة ساوة، وهي بين همدان وقم، وكانت أكثر من ستة فراسخ في الطول والعرض، وكان يعبر فيها بالسفن، وبقيت كذلك ناشفة يابسة على هؤلاء القوم حتّىٰ بُنيت موضعها مدينة ساوة الباقية اليوم» راجع سمط النجوم العوالي ١: ٣٠١.

ليست الصدفة وحدها ـ بحال من الأحوال ـ هي التي حرّكت ذينك الحدثين عشوائياً لينساقا إلى التلاقي في مثل هذا الالتقاء، بل التدبير العلوي هو الذي ساقهما هذا المساق، بل الصدفة أيضاً يحكمها قانون مقدور، لا يحيط بسرّه وعي الوعاة.

بل كلتا الواقعتين إيماء إلى ما سيطلع عليه غد قريب، إلى صباح في ضمير الزمان يحمل للعالمين الصفاء والنور.

فالنار تهمد، استجابةً لداعٍ دعاها أن: كوني سلاماً سلاماً. واخشعي وقومك لرسالة السلام والإسلام التي سوف تجيئك من جهه الغرب، عبر تيار مجرىٰ دجلة وأوادي[١] ماء الخليج.

والبحيرة تنضب، وتصبح أرضاً جافّةً يابسةً، كأنّما لكي تعلم الدنيا أنّ أهل الجدب والمَحْل[٢]، أولئك المقيمين في متاهات الرمل ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾[٣] عند البيت الحرام، هم بفضل ربّهم، وبقوة الإيمان، أصحاب الغلبة على أهل الجنى[٤] والظلال.

* * *

ولا يغيض هذا المعين الميمون، تتابع على الأيام، من قبل «الميلاد» وبعده، وعلى امتداد مراحل عمر الوليد الموعود توالت البشارات والآيات، وهي تتواكب بشارة بشارة، وآية آية حتّىٰ يكون آخرها القرآن.

ودَعْ عنك منها ما سجّلت صحائف الأولين، وما هجس في صدور البَرَرَة الأنقياء، وما شأمت فراسات[٥] الكُهّان، وما تلاغط[٦] به في صوامعهم الأحبار.

---

١ . الأوادي: التعرّجات والتثنّيات في الخلجان.

٢ . المَحْل: الجدب، انقطاع المطر ويبس الأرض.

٣ . ابراهيم: ٣٧.

٤ . الجَنَىٰ: جمعه أجناء وأَجْنٍ، وهو ما يُجنىٰ من تمر وغيره.

٥ . شَأَم شَأماً: تشاءَمَ، وجرّ على نفسه الشؤم. والفراسات: جمع فِراسة، وهو إدراك الباطن من نظر الظاهر. والكُهّان: جمع كاهن.

٦ . تلاغَطَ: تصايح بأصوات مبهمة لا تُفهم محدثاً جلبة.

دَعْ عنك هذا كلّه، ممّا يدور في فلك الغيبيات، إلى المادّيات، إلى المرئيات والمسموعات، إلى ما شهدته أعين الشهود، والتقطته الآذان.

أو ليس بمشهود كيف نجا من نذْر عبدالمطلب ـ بالفداء ـ ولده الأثير: ريحانة قريش عبدالله[١]؟

بلىٰ، لتمتدّ حياته بضعة أيام، يبني خلالها علىٰ «آمنة»، ثم يذهب لأجله المحتوم.

أَوَ ليس قد جرى بالندوات، وفي البيوت، وبين السمار، نبأ ما قيل عن أولئك الحسناوات: رقية بنت نوفل، وفاطمة بنت مرّ، وليلى العدوية، إذ دعون إلى أنفسهنّ الفتى الوضيء، فأعرض عنهنّ إعراض يوسف الصدّيق عن زوجة العزيز، وقال:

أمّا الحرامُ فالممات دونَهُ   والحلُّ لا حلَّ فأستبينَهُ
يحمي الكريم عِرضَهُ ودينَه   فكيف بالأمر الذي تَبغينه[٢]

بلىٰ، وما كان ليجري إلّا ليجيء ابنه الموعود طاهراً من أطهار

أو ليس قد علم الناس أنّه جاء من «ذبيح» نزل من صلب «ذبيح» فكنّي ولده ابن الذبيحين؟ بلىٰ، لكي تشير كنيته إلى إسماعيل، وتحمّل رسالته التي بها بعث صفة

---

١. ذكر ابن إسحاق أنّ عبدالمطلب نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم: لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتّىٰ يمنعوه، ليذبحنّ أحدهم لله عند الكعبة. فلمّا تكامل بنوه عشرة وهم: الحارث والزبير وحجل وضرار والمقوم وأبو لهب والعباس وحمزة وأبو طالب وعبدالله، جمعهم وأخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء به، فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع، فاستقسم بالقداح، فخرج على ابنه عبدالله وكان أصغرهم وأحبّهم إليه. فلمّا أخذ الشفرة ليذبحه قامت إليه قريش من أنديتها وقالوا: لئن فعلت لتذهبنّ سنّة، فأشاروا عليه ان يأتي عرافة الحجاز، فأشارت عليه بالفداء. راجع البداية والنهاية ٢: ٢٣٠ ـ ٢٣١، وسمط النجوم العوالي ١: ٢٦٩.

ولذا روى الحاكم (المستدرك ٢: ٥٥١) عن معاوية: كنّا عند رسول الله ﷺ فأتاه أعرابي، فقال: يا رسول الله، خلفت البلاد يابسة والماء يابساً، هلك المال وضاع العيال، فعد عليّ ممّا أفاء الله عليك يا بن الذبيحين، فتبسّم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه. ويعني بالذبيحين: عبدالله واسماعيل بن ابراهيم عليه السلام.

٢. البداية والنهاية ٢: ٢٣١ ـ ٢٣٢، سمط النجوم العوالي ١: ٢٨٧ ـ ٢٨٨. وفي البداية الشعر باختلاف في بعض اللفظ، حكاه عن أبي بكر الخرائطي بسنده إلى عطاء عن ابن عباس.

الحنيفية دين جدّه الأكبر: إبراهيم الخليل.

قيل: وكان من بين النسوة اللائي حضرن ميلاده أم عثمان بن أبي العاص، فلمّا وضعته أُمه تحت عينيها قالت تصف لحظة الميلاد: شهدت ولادة النبي ليلاً، فلم أنظر من البيت إلّا نوراً، وإنّي لأنظر إلى النجوم تدنو حتّىٰ لأقول: ليقعن عليّ![1]

وقيل: وشهدت آمنة النور يضيء حولها الأرجاء إلى أبعاد وأبعاد، وأبصرت إناثاً، مارأت أضوأ منهنّ وجوهاً، كنّ من غير هذا العالم، ومن الحور العين، عاونّها ساعة المخاض[2].

إشارات، علامات مشهودات ومسموعات، تومئ إلى قدر الوليد من قريب ومن بعيد.

أمّا نبأ أصحاب الفيل، والصغير المبارك يستفتح حياته علىٰ هذه الأرض، فلعلّه بشارة البشارات.

* * *

حتّىٰ بعد أن مضت به أيام عمره أشهراً، لا تجاوز العام أو بعض العام، ظلّت تسير في ركابه الخوارق المعجزة التي تحيّر الأذهان.

الصغيرة «الشيماء»[3] أخته في الرضاع، ترىٰ فيه آيةً، إن يكن عقلها قصر عن إدراكها من خلال التفكير، فحسّها الفطري ألهمها ما تعنيه.

كانت مشغوفة به كلّ الشغف، كما تشغف ـ عادة ـ صغيرة مثلها بصغير حبيب

---

١ . حكاه أبو بكر البيهقي بسنده عن ابن سويد الثقفي عن عثمان بن أبي العاص عن أمه. لكن القاضي عياض في الشفاء ذكر أنّ ام عبدالرحمان بن عوف كانت قابلته، راجع البداية والنهاية ٢: ٢٤٦.

٢ . حكاه العاصمي في سمط النجوم ١: ٢٩٩ عن ابن عباس.

٣ . والشيماء اسمها حُذافة بنت الحارث، غلب علي اسمها فعُرفت به بين قومها، وأُمها حليمة بنت عبدالله أبي ذؤيب.

أثير، كانت معتزّة به أيما اعتزاز، دائماً كانت تفصح عن حبّها له، وفخرها به، فتترنّم مغرّدةً:

هـذا أخٌ لي لم تَـلدْهُ أُمّـي   وليسَ مِن نَسْلِ أبي وعـمّي

فأنْمِهِ اللّهم فيمن تُنْمي[1]

أحياناً كانت ترقّصه، وهي تغنّي علىٰ وقع حركاته:

يـا ربّـنا أَبـقِ لنـا مـحمداً   حـتّىٰ أراه يـافِعاً وأَمْـردا

ثـم أراه سـيّداً مسـوّداً   واكْبِتْ أَعاديه معا والحُسَّدا

وأعطه عزّاً يدوم أبدا

مرّة خرجت به إلى البادية، تلاعبه وتشدو له، فاستغرقها اللعب والشدو، حـتّىٰ علت بهما الظهيرة، واشتدّت عليهما وقدة الهجير، فإذا أُمها: حليمة السـعدية عـند رأسها، تخطفه من بين ذراعيها، وتضمّه إلى صـدرها، عسـىٰ أن تـحميه مـن نـار الشمس الملتهبة، ثم تصيح غاضبةً بابنتها الشيماء: ويحك! في هذا الحرّ؟

فتنبري الابنة، تردّ عن حليمة خوفها عليه: يا أمه، ما وجد أخي حرّاً.

وتضيف وهي ترفع إصبعاً تشير بها إلى بقعة رمادية سابحة في السماء: رأيت هذه الغمامة تظلّ عليه، إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت[2]. وكان حقّاً ما قالت الصغيرة.

وامتلأت حليمة السعدية عندئذٍ رضىً وطمأنينة، وضمّت في أحضانها الرضيع وهي تدعو له: أعوذ بالله من شرّ ما نحذر على ابني.

وعادت به، والدنيا كلّها في عينيها المتألّقتين رجاء ومحبّة ونور.

والله يدبّر، والزمن يسير، وتترى الآيات والبشارات، على امتداد عمر هذا الوليد، تبين للعالمين، آناً بإلماح وآناً بإفصاح، أنّه هو البشير النذير.

---

١ . الأبيات من الرجز، ذكرها العاصمي في سمط النجوم ١: ٣١٠، والبيت الثاني منها:

فديته من مخوَل مـعمّ   فأنمِهِ اللّهم فيما تُـنمي

٢ . حكاه الواقدي بسنده عن عطاء عن ابن عباس. راجع البداية والنهاية ٢: ٢٥٦.

اللوحة السادسة

نجم الزهراء

لو كان بشر، في ذلك اليوم الأغرّ، قد فاض بقلوب قريش ـ إذ جنّبها محمد بحكمه الراشد شرّ الحرب الأهلية التي أوشكت أن تقتحم عليهم الأبواب ـ فالبشر في قلبه كان أكثر؛ لأنّ قلبه كان أكبر.

فقلبه حبّ، وحبّه يتّسع لكلّ أفراح الناس، كما يتّسع لكلّ أحزان الناس، وفرحه شدو عذب، يترنّم علىٰ أوتار قيثارة السماء، ومشاعر قومه وخلجاتهم كانت ترقص علىٰ موسيقاه.

وساعة عاد، ذلك النهار المبارك، من بيت الله إلى داره الصغيرة، كان علىٰ عادته صباح مساء يلهج بحمد ربّه، ثم يزيد تسبيحاً وشكراً أن هداه تعالى إلى استرداد الأمن لبلده الأمين.

كان فضل الله عليه عظيماً، لا يحيط به ثناء، كان من توفيقه سبحانه الذي لا يكافئه حمد أن سدّد خطاه ليكون لقومه طوق نجاة، وهل هي إلّا كلمة، ما أن تحرّكت بها شفتاه حتّىٰ كان الخلاص؟

هل هي إلّا لمحة من لمحات العناية الإلهية، وضعت علىٰ لسانه من أسرار الرحمة الربانية ـ في لحظة الحسم والفصل ـ لفظة حكمة وعدل، لا ترقىٰ إلى شأوها[1] في

---

١ . الشأو: الأمد والغاية.

العالمين حكمة عقل، ولا يعدلها استواء عدل؟
وولّى الخطر، طابت الأنفس، قرّت الأعين، جاء السلام، أمنت البلدة الحرام.

* * *

الذين عاشوا من أبناء مكة، ذلك اليوم العظيم في الأيام، خالجهم شعور لا يمارون في صدقه، يؤكّد لهم أنّ الأمن الذي عاد إليهم إنّما كان تبعاً ليُمْن ذلك الحكم الشاب.

ولاعجب، فالعرب أُمة تتشاءم وتتفاءل، الشرّ في اعتقادهم دائماً رهنٌ بطالعٍ منحوسٍ، والخير في اعتقادهم دائماً رهنٌ بطالعٍ سعيد.

ومحمد، فيما رأى كثيرون منهم وعهدوا، بشير خير، قرين يُمْن وإقبال، مسعود النجم، محمود الاسم، مبارك الكلمة، ميمون الغدوة والروحة على امتداد أيامه منذ عرفوه.

أليس فيهم إلّا من استشعر فأله، وأيقن فضله، لحظة أن وضع الحجر الأسود موضعه بيُمْناه، إذ لأَم صدعهم، ولمَّ شتاتهم، فجعلهم وحدةً مؤتلفةً كأنّما قال صرهم جميعاً في ذلك الكساء الأبيض الجديد من متاع الشام؟

أليس فيهم من آنس اليُمن من محيّاه الضاحي، وهو بعد وليد في مهده، يوم تمزّق أصحاب الفيل وتناثروا علىٰ ثرى مكة بغير قتال؟

بل إنّ فيهم لمن رأى هذا اليُمْن يضيء أيضاً وجوه أهل داره الصغيرة، فإذ هم بين بشيرٍ قد أُودع هيئةً توحي الطمأنينة إلى نفوس غيره من الناس، وبين أثرٍ اختُصّ بآيةٍ تنبئ عن جليل قدره عند الله.

لكأنّما شاء ربّه أن يجعل اليُمن في من يشاركونه حياته الخاصّة المحدودة آنذاك كما جعله فيه، لكأنّما ارتأىٰ سبحانه أن يوفّر حوله من مظاهر الفأل الحسن ما يوافق طرق اللين المسماح[1] الراجي، الذي يكلّف بالتبشير، ويأنف التنفير، ويتأمّل

١. سَمُح سماحاً وسَمْحاً وسماحةٍ، فهو سَمْح وسميح ومِسْمَح ومِسْماح، أي: صار من أهل الجود والسماحة.

بالأمل، ويتطّلع لإشراقة الحياة.

لا جدال، فهو امرؤ يحبّ الفأل، ويكره الطيرة.

وكلّ الذين ارتبطوا به، في مجتمعه الصغير: بيته وعمله، من بكرة طفولته، إلى عزّة صباه، إلى ميعة فتوّته، إلى غرّة رجولته، كانت بهم علائم يُمْنٍ وبشائر خير، كانوا مباركي الاسم أو النقيبة، كانوا ميامين، كانوا كمثل شعاعات من سنا[1] نجمه المتألّق الضياء والصفاء.

وضعته آمنة بنت وهب، فإذا عيناه تتفتّحان، في اسمها المبارك، على «الأمن» والسلام.

وأرضعته «ثُوَيْبة» جارية عمّه أبي لهب[2]، بضعة أيام، فإذا لبنها يجري في فيه مع معاني «الثواب» والجزاء الكريم، وتولّته بعدها ظئره[3] «حليمة السعدية» فإذا «الحلم» مع «السعد» به بشيران، وحضنته «بركة أُم أيمن[4]» فإذا «البركة» في اسمها دليل إليه، وإذا «اليُمن» بعض ما اختصّه به الله.

وكان في اسم «مَيْسَرة» غلام خديجة الذي صحبه في تجارتها، إيماء إلى «اليسر» والتيسير، وكان في اسم مولاه «زيد» إشارة إلى الزيادة والنماء.

وكلّها بشارات.

* * *

بل رأىٰ نفر من الناس، فيما كان من ائتلاف قريش علىٰ يديه ـ يوم الحجر ـ بعد

---

١ . السناء: الضياء والرفعة.

٢ . ذكر أنّ ثُوَيْبة أرضعته ﷺ قبل حليمة، كما أرضعت عمّه حمزة وعبدالله بن جحش. وكان ﷺ يعرف ذلك لثويبة ويصلها من المدينة، فلمّا افتتح مكة سأل عنها فأُخبر أنّها ماتت. راجع الروض الأنف ١: ١٨٦.

٣ . الظِئْر: المرضع لولد غيرها.

٤ . وأُم أيمن كان قد ورثها ﷺ من أبيه، فلمّا كبر أعتقها وزوّجها مولاه زيد بن حارثة، فولدت له أُسامة بن زيد. البداية والنهاية ٢: ٢٥٣.

اختلاف، ومن اتّفاق بعد شقاق، أثراً من يمن ضيفةٍ له نزلت عـليه آنـذاك، وليـدة جديدة بنيّة زادت في عدد الأسرة السعيدة.

في الحجرة الواسعة قبالة باب الدار، التي كانت مـخدع الزوجـين الكـريمين، وضعتها الأم.

لَكَم فرحت بها خديجة، فلعلّها قد هنّأها، كما لم تُهنّأ من قبل بمولودة، أن رأت في محيّا الابنة الضاحي، طلعة أبيها الحبيب.

وكم فرح محمد، لعلّه قد هنّأه أن وقع في روعه تلك الساعة: أنّ صغيرته هذه ستكون أم عترته الأطهار.

إنّ العرب أُمة تطلق لفظة «الأبتر» علىٰ من لا ولد له من الذكور، تكره أن تنجب الإناث، تؤثر أن تزفّ البنت إلى القبر علىٰ أن تزفّها للعروس.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾[١].

فإذا كان الزوجان الكريمان قد خامرهما الحنين إلى مولودٍ ذكرٍ بعد ثلاث بنات، فذاك حنين طبيعي، ولكنّه موقوت، ما كان ليغيّر شيئاً من حبّهما الغامر لهذه الوافدة الذي ليس كمثله حبّ، ومن إيمانهما الثابت بأنّ الخير كلّ الخير فيما شاءه الله.

أَوَ ما طهّرهما الله من رواسب الجاهلية؟ أَوَ ما جنّبهما الخضوع لتقاليد مجتمعهما الضالّ؟

وها هي هذه الابنة الأخيرة، تأتي وفي ركابها البركة، كما كان مولد أبيها مـن قبل، بشيراً بنجاة قريش من حربٍ أهليةٍ ضروسٍ[٢]، كانت حريّة بأن تنشر الموت والخراب.

يُمن من يُمن، نجم سعيد يلد، يلده نجم سعيد.

---

١ . النحل: ٥٨ ـ ٥٩.

٢ . الضروس: الشديدة المهلكة.

ولا مشاحّة[١] في هذا الذي يُقال، وكلٌّ وما يخال.

كلٌّ وما يلهمه حسّه من تأويل، كلٌّ وما يكشفه له إيمانه من أسرار القدرة الإلهية التي تحرّك الناس والأشياء والأُمور من وراء الغيب المجهول، ومن وسعه أن ينكر هذا التأويل أو التصوّر فلينكر إذاً خصائص الوراثة، وانتقال شِيَم الأخلاق والمواهب، كانتقال مظاهر القسمات ومعالم الملامح من كلّ والدة ووالد إلى كلّ وليدة ومولود.

أمّا الحقّ الذي لا مِرْية[٢] فيه، وواقع الحال الذي لا تغفله الأبصار والعقول، والأمثال التي تضربها الأقدار، وتجسّمها جليّةً للناس على امتداد الزمان، يوماً وراء يوم، وعاماً وراء عام، كلّ أولئك ينطق بصوت جهير، يعلو على مكر التشكيك وخبث التقرير، معلناً للعالمين: أنّ الوليدة الجديدة كانت من أبيها، هيئةً وسمتاً كصورةٍ لأصل، وسجيةً وروحاً كقدّيسةٍ إلى رسول.

* * *

من رقّة بدنها بدت شفّافةً، لكأنّها جسد من نور، وكانت زهراء كنجم، على جبينها قلبها الطاهر الوضيء، في محيّاها ضحوة نهار تخلّل إشراقها، مثل لون الشفق الوردي ساعة الأصيل.

حاجباها كقوسين، عيناها تتألّقان: لهما دعج[٣] لاحتا به نبعين صافيين، زادهما عمقاً وسعةً، سواد بهما بلون أمسية واجبة، نائمة الأنجم، سربلت[٤] أُفقَها الغيوم.

أهدابها نبال: بها وَطَف[٥] جعلها لفرط ثقلها وكثافتها تستريح فوق وجنتيها

١ . المشاحّة: المماحكة، يقال: لا مشاحّة في الأمر، أي أنّه بيّن ثابت لا مناقشة فيه ولا مماحكة.

٢ . المِرْية: الشكّ.

٣ . الدعج: سواد العين مع سعتها.

٤ . سربل الشيء: لبسه وغطّاه.

٥ . الوَطَف: كثرة شعر الحاجبين والعينين.

الرائقتين كأنّهما خطوط رشيقة من الظلال رسمها قلم عبقري، ومدّها لُمَع ذلك البرق يشعّ من وراء الجفون.

لأنفها الأقنىٰ شمم[١]، شمخ به إلى السماء.

في شعرها الفاحم المسترسل السبط، ظلام الليل، وانسياب الماء، ونعومة النسيم.

أنفاسها عبير.

وعندما تطلّع إليها أبوها، كان كمن ينظر في مرآةٍ، كانت بضعةً منه: بالدم، بالهيئة، باللون، بالقسمات، بالإجمال وبالتفصيل، كانت أشبه به إذ هو الأب الذي ولدها، وكان أشبه بها كأنّها الأم التي ولدته!

كانته وهو صغير، كانت هو، وكان هي.

ولم يكن تماثلهما هذا صورة مرّت بخياله كصدىً لإحساسه العاطفي نحو الوليدة، بل قد كان تعبيراً صادقاً علىٰ لسان الحال، لا يخفى عن لمح النظرة الخاطفة، ولا ينبو[٢] به التمعّن المستأنىٰ فضلاً عن اندفاق الشعور الفيّاض.

* * *

ليس وحده من رأىٰ هذا التشاكل الذي يذهب في التطابق إلى حدّ التوحّد والانفراد، كلّ من في الدار امتلأت عيونهم بالتشابه العجيب: أُم أيمن حاضنته، لحظته منذ لحظة الميلاد، زيد مولاه رآه رأي يقين، خديجة أخذ منها البصر والفؤاد، فازدهاها الفرح والفخر أن شهدت في صغيرتها زوجها الحبيب، ربيبهما الطفل «علي» لم يفته التماثل المثير.

بل الأولى أن يكون الشبه علىٰ هذا النحو المتميّز، قد حرّك من مكامن الدهشة في نفسه ما جعله يقلّب البصر بين ابن عمه وبين الصغيرة، لا يكاد يردّ عنهما عينيه، كأنّما ينظر فيمعن في اجتلاءٍ هو التأمّل، وفي تساؤلٍ ينضح بالحيرة.

---

١ . أقنى الأنف: إذا ارتفع وسط قصبته وضاق منخراه، والشمَم: ارتفاع القصبة مع حسن واستواء.

٢ . ينبو: يتجافى ويتباعد.

أَفَكان ينعم إذ يطالع في محيّاها سماحة محمد أبيها صفيّ روحه وقلبه، ومربّيه وراعيه، ذلك الذي كفله ليخفّف بعض عبء العيش عن كاهل أبي طالب أبيه؟ أم كان يراها أمنيةً عزيزةً شهيّةً، حقّقها له القدر، بعد أن طالما تاقت نفسه، وصبا وجدانه، وحنّت روحه إلى من يبدّد عنه ضباب وحدته ويؤنس وحشته، ويملأ عليه ما يحسّه من فراغ الطفولة؟ أم لعلّه اجتذبه إلى الوافدة الجديدة أن قد تبيّن فيها شيئاً من أُمه الغالية «فاطمة» بنت أسد، إذ تشاركتا في الاسم وإن تباينتا في الرسم.

أيّاً ما كان ذلك النضج المبكر الذي دلّت ليه قسمات «علي» من خلال جبهة عريضة مشرقة، وعينين تومضان بالذكاء، وملامح قوية بارزة، وطلعة مضيئة مهيبة، فإنّ براعة الطفولة كانت حريّة بأن تسفر عن خباياها فيما يخالجه من مشاعر أمثاله الصغار.

وكيف لا وإنّه يومئذٍ لم يكن قد سار بعد علىٰ درب حياته سوى خطوات قصيرات: بضع سنوات؟

أغريب أن يحنّ منذ دخل هذا الدار، إلى أنيس لعب، أو أنيسة، حتّىٰ لقد غدا حنينه هذا مطمع نظره، ومهوى فؤاده، وحلم لياليه؟

أَو ليس أولى به، وهو المشغوف بأُمه ـ التي فارقها فراق ضرورة والتزام أقرب شيءٍ إلى الرغبة والطواعية ـ أن يخال من فرط ولعه بها وشوق لقربها أنّه يراها دائماً في كلّ سمت حلو، ويسمعها في كلّ صوت جميل؟

لَكَم كان يشيم[1] في فضائل ابن عمه وسجاياه أُمثولة بطولةٍ لم ير مثلها في من عرفهم من كبار، أو بلغته من سيرهم شذور[2]، حتّىٰ لأعظمه كلّ الإعظام، وأحبّه حبّاً ليس مثله حبّ، جعله يحسّ بأنّه ـ بكل طاقات شعوره ـ يفنىٰ فيه.

فإذا كان ـ بمستقرّه هذا ـ قد وجد في محمدٍ أكرم أبوّة، وفي خديجة أحنىٰ

---

١ . يشيم: يتطلّع.

٢ . الشُذُور: القطع.

أُمومة، فلقد كان أولىٰ بخيالاته الغضّة أن تحلّق به أيضاً في عالم أشباهه من الصغار، وتنشد رفقةً أدنىٰ إلى عمره الغضّ، وأقرب إلى قلبه النديّ الرطيب.

وها هو الآن، ها هي قد ظهرت له، من وراء ستر الغيوب، أقبلت عليه.

حلمه العذب تجسّد أخيراً، إنسية نورانية، كأنّها إحدى الحوريات، فلعلّه سيغدو من بعد كمثل فراشة تحوم حولها كما تحوم حول ينبوع ضياء، لعلّه من خلالهاسيحسّ البهجة تشيع في دنياه، لعلّه سينغم صوته، ويناغيها بالكلمة الحلوة والدعابة الرقيقة، ليسمع ضحكتها الغردة، ويرى ابتسامتها المضيئة..لعلّ فرحته بها ستزخرف بألوانها مرائية.

ففيما بدا من تطلُّق محيّاه، وبشاشة أساريره، وتألّق نظراته، لاح وقد طاب نفساً، وقرّ[1] فكراً، ونَعَم بالاً بالوافدة الجديدة.

ولاغرو أن يصبح وإنّه لبشْر وتيمّن واعتزاز.

أفليست ستمحو وحشته؟ ستؤنس وحدته؟ ستسعد طفولته؟

وقبل هذا كلّه، وفوقه كلّه، أوَ ليست بالشبه الكامل لأبيها، الماثل فيها، ستجعل محمداً خدين روحه، دائماً معه، غدا أم راح، غاب أم لاح، في كلّ لحظةٍ من نهار، ولحظةٍ من مساء؟

بل إنّ سعادة محمد بالوليدة، كما لم تكن له من قبل سعادة، قد انتقلت عدواها إليه، ملأت بدفئها فؤاده، نضّرت ببشرها محيّاه، أثرت بنورها دنياه.

* * *

حصائد الزمن السَوالف[2] المغفية تحت أطلال الغابر، وذكريات الأماسي القريبة، المطلّة من كوى الماضي الداني على مشاهد الحاضر، ومعالم اليوم السارية، على مهل وهون، في عرق المستقبل، كلّها هي المادة التي رسمت بها ريشة الفنّ العبقري

---

١ . قرّ: برد وسكن.

٢ . السّوالف: الماضية.

القدري بأزهى الألوان، تلك اللوحة الرائعة التي تألّقت علىٰ ديباجتها الطاهرة الأحرف الخمسة للاسم الذي أعلموا به الصغيرة.

من نافذة تراث الأُسرة أطلّت «فاطمة» بنت عمرو، ثم بعده «فاطمة» بنت زائدة، ثم بعدهما «فاطمة» بنت أسد.

ثم ترجع كلّها إلى الوراء، أجيالاً عدّة من الآباء حتّىٰ تلتقي في لؤي بن غالب، وتمعّن القهقرىٰ[1] في غوصها إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل.

ثلاثة أفرع من نهرٍ واحدٍ، ثلاث فواطم من نبعٍ ثريٍّ معطاءٍ، ثلاث نسوة كنيران القمم، من بين نساء عهودهنّ كنّ أمّهات الفضائل، كنّ طاهرات الذيول والأصول، كنّ بارزات بين الأتراب، بالسيرة والاسم، بالصفة وبالرسم، لا تخطئهنّ الأذهان والعيون.

ثم ها هي الرابعة! ها هي «الزهراء»!

أمّا الأُولىٰ: فاطمة بنت عمرو، فأُمّ جدّ الوافدة الصغيرة: عبدالله.

وأمّا الثانية: فاطمة بنت زائدة، فأُمّ والدتها خديجة.

وأمّا الثالثة: فاطمة بنت أسد، فأُمّ ترب طفولتها، وصاحب رفقتها: علي بن أبي طالب، الذي حنّ إلى من يؤنس حياته، فجاد عليه يُمن طالعه بمبعث الحنين.

ولم ينكر امرؤ من الناس يوم مولد الصبيّة الحوراء أنّ الفواطم الثلاث كنّ المرايا التي انعكس علىٰ صفحاتها اللامعة المصقولة، اسم الأخيرة، لكنّ كثرة القوم يومئذٍ جرى في حسبانهم أنّ ابنة أسد هي التي كانت، من بينهنّ، أجلىٰ مرآة.

وحقّ أن يجول هذا في الخاطر جولان يقين، ولا عجب أن يجري ويكون، وهل غاب عن بال أحدٍ أنّ زوج أبي طالب كانت الأم الثانية لمحمد اليتيم وهو بعد طفل لم يجاوز من عمره الغضّ ستة أعوام، ولم يناهز غلومة الغلمان، ما أن غربت شمس أُمّه آمنة وغابت عن دنياه؟

---

١ ـ القَهقَرىٰ: الرجوع إلى الوراء.

ما كان هذا بعيداً عن الذكر، ولا كان دانياً من النسيان.

ففاطمة بنت أسد، أُمّ علي، هي التي احتضنت محمد بن عبدالله، وآوته إلى حنانها منذ كفله عمّه أبو طالب، ورعته كأرفق ما تكون رعاية أُمّ، وأعظم ما يكون حبّها لابنٍ لها، هو قطعة منها حملت به، ووضعته وأرضعته، ثم سهرت عليه الليالي الطويلة، حليفة جهد وصبر وقلق ورجاء، حتّىٰ فتي فتوةً، وشبّ شباباً، وامتلأبالحياة، وملأ الحياة.

كانت له أُمّاً هي الحَدَب[١] والحبّ، وهي الدفء والرفق، وهي العطف ونكران الذات.

* * *

ما كان أعظم ما يكنّه محمد لهذه السيدة الجليلة من إعظام! ما أبلغ ما حباها من المودّة وحسن الصحبة والولاء!

كانت دائماً معه وله، كأنّما تسابق في إعزازه زوجها الكريم، كانت وعمه: كافله، يوليانه من حبّهما ملء قلبيهما الكبيرين، كانا يقدّمانه دائماً علىٰ أبنائهما الخلّص، حيثما وجب ـ في أعراف الناس، وناموس الأُمومة والأُبوّة ـ تقديم الأبناء.

وها هو يعبّر عن مشاعره الرفيعة نحوها، فيضعها في «فاطمة» الصغيرة، لكأنّه كان يرىٰ نفسه جزءاً من حياتها، أو يراها امتداداً في الماضي لحياته، لكأنّما ودّ لو أطبق عليها جنبيه، لكأنّها عدل قلبه!

وهل شيء غيرها، سوى بنته الأثيرة، يعدل فؤاده؟ بل لا يدري أحد أبهذه التسمية كان الأب في محمد يكرم المولودة، أم الابن فيه كان يكرم السيدة العظيمة؟

لئن شطّ بعض الشطّ بينه وبين ابنة أسد المزار، لئن نأت[٢] بعض النأي به الدار عن الدار، لئن أخذت أسرته الصغيرة من اهتمامه الكثير، أو أكثر الكثير، فلقد ظلّت

---

١ . الحَدَب: أي الانحناء على الشيء عطفاً ورعايةً.

٢ . نأت: بَعُد.

هيئة هذه الأم الثانية ملء عينيه.

ذكرها علىٰ لسانه، وكيانها بعض كيانه، وحبّها في وجدانه، وحنانها توأم حنانه، أشبه بإيثاره الصغيرة، كانت هي أيضاً أثيرة.

وأولئك الذين عساهم حسبوا أنّ إحساسه نحوها إنّما كان نـابعاً مـن عـرفانه بالفضل، وإقراره بالجميل، قد أخطأوا في الواقع سواء التأويل.

فما قدّروه حقّ قدره، لا هم أحسنوا سبر أغواره[١]، ولا هم أدركوا حقيقة شعوره، ولا هم خلصوا إلى صفاء روحه، قصارى ما بلغه تفكيرهم أنّه كان يوفيها الجـزاء الأوفىٰ، أخذ منها فكان لابدّ أن يعطي، وكيل له فكان عليه أن يكيل.

إنّهم ذكروا يد فاطمة بنت أسد عليه، إذ احتضنته ورعته، فظنّوه يردّ المنّة بالمنّة، ويطلق اسمها على الابنة.

إنّهم علموا يد عمّه أبي طالب عنده، إذ كفله وربّاه، فظنّوه لقاء هذه اليد قد كفل له ابنه علياً وربّاه.

الأمر في نظرتهم دَيْن وأداء، درهم بدرهم، مثقال بمثقال.

ألا لو أنّهم فقهوا لما فاتهم أنّ العواطف الإنسانية الكريمة هي غير ما يـظنّون، وهي أسمىٰ من كلّ ما يخامر أذهانهم من تقدير، فهي لا تُشترىٰ ولا تُباع، لا تُثمَّن بثمنٍ كما يُثمَّن المتاع، لا تُقاس، كالقماش بالعروض والأطوال، لا توزن بالصناج وزن الأثقال.

فليتهم استشفوا نفس محمدا إذن لعرفوا معدن خلقه، ولتبيّنوا أنّه فوق مثل هذا اللون من العرفان والوفاء، فهو يحبّ حبّاً للحبّ؛ فناءً فـي الله، وهـو يـعمل ولاءً للعمل، عبادةً لله، وهو يمارس مكارم الأخلاق كما يتنفّس الهواء.

---

١ . سبر أغواره: أي الغوص في أعماقه.

الفصل الثاني

- لقاء لبقاء
- عمرها: بالآلام لا بالأعوام
- كمثل درّة مكنونة
- الأصل غدق والفروع جناة
- دموع في الحرم
- الموحّدون

اللوحة الأُولىٰ

لقاء لبقاء

بدار صغيرة من منازل قريش، تحفّ ـ شرفاً وتكريماً لأهلها ـ بالبيت الحرام، وتهبط عن الطريق بضع درجات، وتطلّ من جانبٍ منها علىٰ ساحةٍ لهـا فسـيحة، اتّخذها أصحابها قاعةً لاستقبال الضيفان.

هناك ... التقى الصغيران، وكان اللقاء كما ليس مثله لقاء، فلم يكن لقاء صـدفة عابرة، عن خبطة ارتجال، ولا لقاء ضرورة حتمت الامتثال، ولا لقاء إعداد سـبقه تحسّب واتّفاق، ولا لقاء قرابة دعت إليه الأصول والأعراق، ولا لقاء طفولة، علىٰ دمية ولعبة، أو على لهو وتسرية، كما هو مألوف في دنيا الأطفال.

كلا، لم يكن لقاؤهما كهذا النمط أوكذاك، لم يكن وليد صدفةٍ عفوية أتيح لهـا الانبثاق من ظرفٍ طارئ، كلمحة برقٍ خاطفةٍ يبعثها احـتكاك غـيمتين شـاردتين التحمتا علىٰ غير انتظار، فإذا هي تتوهّج لحظة، ثم لا تلبث بعدها أن تـذوب فـي ظلام ليلة شتاء.

ولم يكن عن ضرورةٍ قاهرةٍ قدّرتها قبل يومها هذا الأُسرة الكافلة، ووقعت لها في حسبان، ولم يكن من غرس دمٍ ورحمٍ أن يـلتحم التـحام السـبّابة بـالوسطىٰ، غصنان طريّان ـ كأنّهما غصن واحد ـ من جذع تلكم الشجرة الباسقة[1] المـورقة،

١ . الباسقة من الشجر: المرتفعة الأغصان الطويلة.

التي أزهر نَوْرها، وطاب ثمرها، وضرب جذرها في الأرض إلى أعمق الأعماق، فإذا أصلها ثابت وفرعاها في السماء، وإذا هي ـ بغصنيها الغضّين هذين ـ تزيد نضرةً إلىٰ نضرة، ونماءً إلى نماء.

فما أكثر ما أغصنت هذه الدوحة، ولكن أين لها بالتحامٍ كهذا الالتحام؟

ولم يكن أيضاً مَسْلاة[١] طفولةٍ بريئةٍ، جمعت الاثنين علىٰ لعبةٍ أو ضحكةٍ، كما يجتمع عادةً أمثالهما من الصغار.

* * *

كلّا، لم يكن لقاؤهما القدري واحداً من هذه اللقاءات دون سواه، ولا كان، فقط كلّ هذه اللقاءات، بل كان لقاءً لبقاء، لقاء بداية ونهاية، لقاء سبيل وغاية، لقاء مسير ومصير.

* * *

معالم القرب التي تشهدها الأعين الرانية، ومشاهد الصلة التي تلحظها الأذهان الألمعية، ودواعي التآلف التي تستشفّها المشاعر المرهفة، جميعها وأمثالها من مظاهر الارتباط بين الصغيرين، لم تكن سوى صور مادية إنسية، يدركها إمعان النظر وإرهاف السمع، أو يهمس بها هجس النفس وحدس الظنّ، ثم لا تزيد مقدار ذرّة عن قشرة رقيقة لا تكاد تخفي جوهر الحقيقة.

فمن وراء إنسية اللقاء كانت قدسية اللقاء، ومن وراء كثافة المادية كان شفيف النورانية، والأرواح تتخالف وتفترق، وتتآلف وتتّفق، فما تجانب منها تجافىٰ واختلف، وما تجاذب منها تصافىٰ وائتلف.

ومنذ أومأ القدر، تلك الجمعة من جمادى الآخرة، إلى مولد فاطمة كبشير يُمنٍ وبركةٍ علىٰ قومها قريش ـ باتّفاقهم بعد خصام، والتئامهم بعد تصدّع علىٰ وضع الحجر الأسود موضعه من الكعبة ـ تبدّت غرّة الصلة الروحية بينها وبين ترب

---

١ . المسلاة: الموضع الذي تكثر فيه التسلية للاطفال.

طفولتها: عليّ، رفيق العرق والربّ والمقام.

لكلّ الضمائر النقية التي لم ترنُ عليها غشاوة الظلام، لكلّ البصائر المستنيرة التي لم تطمسها عماية الجهالة، لكلّ القلوب الصافية التي يطرق نبضها أبواب القدرة الربانية ابتغاء أُنسها بالله، لكلّ أولئك كان ميسوراً ـ من خلال أستار الحاضر المادية ـ استشفاف أسرار الغد الغيبية التي لم يطلع عليها نهار.

من وراء الظاهر الماثل كان هيناً شهود الخفي الذي سوف يكون بجلاء الأرواح، كان في الملاك رؤية ما لايستطاع شوفه بجلاء الأبصار ولا مراء، لا ادّعاء ولا افتراء، فقد التقى الصغيران روحين نورانيين قبل التقائهما المشهود علىٰ هيئتهما الإنسية التي أدركتها الحواسّ، وكان اللقاء في المسجد الحرام، أول بيتٍ وضع للناس، بالكعبة الغرّاء، بلصق الحجر الأسود المبارك، في قدس الأقداس.

لكأنّهما قبسان من ضياءٍ انبثقا من منبع الضياء، ملكان كريمان، روحان، جناحا طائر، يرفرف في جوّ البيت الآمن المعمور، ويطوف حول «الرمز» المقدّس الطهور، كانا في رفقة البركة والنقاء والجلال.

وهل شيء هو عند الله أجلّ وأقدس من الحجر الأسود؟ وأعظم قدراً وأكرم من البيت المحرّم؟ خير يمناً وأمناً من الكعبة المشرّفة؟

بل لا، فعندها تخلع النفوس الأرجاس، وفيها تثوب إلى ربّها القلوب، فتغفر الذنوب، وإليها يتّجه الناس، خالصي النيّات، خاشعي الأبصار، إشارة رامزة إلى اتّجاههم نحو عرش الواحد القهّار.

* * *

ولادة علي

إنّه لقدر مقدور ... حركة غيبية يعيىٰ دون إدراكها جهد التفكير، سرّ مكنون لا يتكشّف الزمن عنه إلّا بعد حين.

كان من قدر فاطمة الزهراء اقتران مجيئها إلى الدنيا بوضع أبيها الحجر الأسود موقعه من ركن الكعبة، فإذا هو يطفئ بحكمته شرر الحرب بين قومه قبيل اندلاع شرّتها[١] ألسنة نار، دارئاً عنهم الدمار والبوار[٢].

أفلا يرىٰ مولدها وكأنّه آية بركة وخير؟ طليعة يُمن وأَمن؟ علامة نفحة قدسية من ألطاف الرحمن؟ بشرى رحمة ربانية أفاءت على الناس المودّة، وغمرت النفوس بالصفاء، ونشرت في مكة السلام؟

وكان من قدر علي بن أبي طالب اقتران مجيئه أيضاً إلى عالم الناس ـ كحال الصغيرة ـ بالكعبة الغرّاء.

فها هي أُمّه فاطمة بنت أسد تطوف بالبيت الحرام، ها هي تكاد تتعثّر في طوافها وقد أثقل بطنها جنين، راح يتحرّك بين جنبيها، كأنّما ينشد الخروج للنور والهواء، ها هي يفاجئها المخاض، فتتوارىٰ من الأعين، وراء أستار الكعبة ... وتضع الوليد.

إلىٰ جوار الحجر الأسود يكون المولد.

فإن تكن إشارة في الزمان، تعلن للعالمين عن حظّ غلامها من الطهر، وإشراق الروح، فإنّها ـ نزوله بأطهر بقعةٍ وبأقدس مكانٍ، كرّم به وجهه كما لم تكرّم وجوه غيره من أطهار الأقران ـ آية، بل آيتان، في خلال بضع سنين، اختُصّ بهما ذانك الهاشميان.

كلتاهما إيماء كإبداء وجلاء، تلميح كإفصاح وتصريح.

آيتان توءمتان، ولا تخطئان، إلى قدرين يتلاقيان ويتلازمان، وميلاد الصغيرة ميلاد الصغير يقترنان بالحرم الشريف.

وقليلاً قليلاً يميط[٣] القدران عن سرّيهما الغطاء، فإذا هم قدران عظيمان عند

---

١ . الشرّة: مؤنث الشرّ.

٢ . البوار: الهلاك.

٣ . يميط: يزيح، يكشف.

الناس، كريمان على الله، كأعظم ما تكون الأقدار عندما ترتفع أسجاف[١] الأسرار، وتتفتح أبواب الغيب أمام الأبصار في هذه الحياة، وكأكرم ما تكون عندما يعرض، من بعد، أصحاب الأقدار على الله.

ولا مغالاة، فالثمرة بنت الشجرة، وعن الفروع تنبئ الأصول.

* * *

وكانت الشجرة ثابتة الجذور، فاستوت على الساق، وطالت الفروع، واخضرّت الأوراق، وكانت طيّبة، فزكا النَوْر، وتضوّع[٢] الزهر، وينعت الثمار.

فما يختلف ماء الجدول العذب عن ماء ينبوعه إلّا بقدرٍ يسيرٍ إن كان لابدّ من تباين واختلاف، وما يخلو غد الناس من آثار ماضيهم، ومن بصمات حاضرهم، وكلّها ـ لا محالة ـ جارية في قابلهم القريب اللصيق، والبعيد العريق، جريان الدم في عروق الأجسام، وما تغيب تماماً من مخايل الأخلاف سمات الأسلاف.

وكيف لا يرى المرء في تربّي الطفولة بتلك الدار القائمة بجوار بيت الله شبهاً من هنا وشبهاً من هناك للملامح المعنوية للآباء والأجداد، فضلاً عن المظاهر المادية للأبدان والأجساد؟

فأمّا السمات العضوية فلا عليها تعويل، إن هي إلا كقشور، بل هي كدهان ... وأمّا السمات النفسية فأبقى على الزمان، جواهر وألباب، كالدماء تجري ـ كلّها أو بعضها ـ في شرايين الأجيال، إلى الذراري تنتقل من البطون والأصلاب، إلى الآباء من الأجداد، إلى الأبناء من الآباء، فإلى الأحفاد وأحفاد الأحفاد.

عادةً عن طريق الوراثة، غالباً عن طريق التلقين، أحياناً عن طريق الامتثال.

* * *

---

١ . الأسجاف والسُجُوف: جمع سَجْف وسِجْف، وهو الستار.

٢ . تضوّع الزهر: تحرّك وتفتّح، ويقال أيضاً: انتشرت رائحته.

الشبه النفسي بين «فاطمة» و«علي» كان أدنى موارده جدّهما «عبدالمطلب» كبير قريش وسيّد الهاشميّين، إن يكونا تألّقا بنور الكرامة فبعض ذلك النور انحدر إليهما من ذلك الشيخ المتألّه الحنّان.

أم من ذا ينكر علىٰ «أبي الحارث» أن قد أودعه الله من فضله ما لم يكد يودع سواه من رفاق؟ من الذي في الناس يجهل ما كانت عليه نفسه من صفاءٍ وحسٍّ رهيفٍ شفيف[١]؟ من الأُلىٰ[٢] بين قومه لم يخيّروا فيه سليقة نقية، حلّاه طهرها بكلّ رفيع وجليلٍ من الشيم والخصال؟

فكأنّ هذا الذي أنعم به عليه ربّه يمثّل فاتحةً لانطلاقٍ من بعد على الطريق إلى الله، كأنّه تسبيب يناسب موازين المعقولات ـ دع عنك انجاز الغيبيّات ـ يؤكّد أنّ لكلّ نتيجةٍ مقدمة، ولكلّ معلولٍ علّة، فإذا الخير المرتقب في الصغير إن هو إلّا ثمرة طيّبة لبذرة طيّبة قد غُرست في كيان الأجداد، فلا الأمر خبطة عشواء، ولا هو أتىٰ من فراغ.

كأنّه إشارة من القدر بليغة، تومئ ـ من خلال فضائل الشيخ الوقور ـ إلى ذخر فضائل حفيده المختار لتبليغ الرسالة الربانية التي ستهدي العالمين للتي هي أقوم، وتنتشل البشرية من وهدة[٣] الغيّ والظلام.

كأنّه بصيص[٤]، يعلن عن وضاءة خِلالِ[٥] الوليد المنتجب ونقاوة سجاياه، التي أجملها الله سبحانه في كريم نطقه، فوصفه بأن قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٦].

---

١ . الرهيف والشفيف: الرقيق اللطيف.

٢ . الأُلىٰ: ترد عوضاً عن «أولىٰ» جمعاً لـ«الذي» يقال: نحن الأُلىٰ، أي نحن الذين، والعرب الأُلىٰ: أي الأقدمون.

٣ . الوَهدة: الهوّة في الأرض، الأرض المنخفضة.

٤ . البصيص: البريق واللمعان.

٥ . الخِلال: جمع خَلّة، وهو الخصلة.

٦ . القلم: ٤.

لقد كان من فضل الله على هذا الأب ـ الجد ـ أن اختصّه بقلبٍ ناصعٍ كبيرٍ، وذهنٍ متوقّدٍ منير، وآتاه نفساً زكيةً نقيةً؛ كنسمة الفجر في يوم نديٍّ من أيام الربيع، وأفاء عليه إشراق الوعي وعبقرية الإدراك، وهيّأ له رحابةً روحيةً اتّسعت لاحتواء روعة المجهول، وأودع ضميره صدق التوسّم والاستجلاء، وملّكه القدرة على استشعار الكثير من المجرّدات والمطلقات، كقدرته على إبصار مظاهر الملموسات والمرئيات.

وما عُرف عنه في هذا السبيل ليس بقليل، والشواهد أعداد.

* * *

فيما وصفه به معاصروه كان ألصق بالطهر، وأفعل للخير، وأحرص على نصوع الضمير، تنزّه عن فواحش الأعمال والأقوال، عفّ عن نقائص بيئته التي عاشت حياتها ـ كفراً وعهراً وهجراً ـ تحت أجنحة الشياطين، تناءىٰ بعيداً ـ بقلبه وفكره ـ عن خبائث العقائد والعادات والتقاليد التي شكّلت شطراً غير صغير من طبائع مجتمع عربيد[١]، الناس فيه أشدّ كَلَفاً[٢] بها من كَلَفهم بالمآثر الزهر، والمناقب الغرّ، وما تدعوا إليه مكارم الخلق من كلّ حميد ورشيد.

فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون؟ أعلىٰ أبصارهم غشاوة؟ أفي آذانهم وقر[٣]؟ أعلىٰ قلوبهم أقفال؟

كانوا يرون في أعرافهم تلك النكراء موائل اعتزاز، لكأنّما امتثالهم طرقها المعوجّة كان لهم فيه الفخار كلّ الفخار، وإقلاعهم عنها هو العار أفدح العار! لكأنّ انقيادهم للموبقات إنّما جاء عن تلبيةٍ حتميةٍ لأمرٍ مقدّسٍ ليس إلى تحلّلهم منه سبيل!

---

١ . العربيد: السيّء الخلق.

٢ . الكَلَف والكَلافة: الولوع بالشيء والحبّ الشديد له.

٣ . الوقر في الأذان: الثقل فيها وعدم قدرتها على السمع.

أمّا أبو الحارث، شيبة الحمد «عبدالمطلب» فلم يكن على نفس هذا الغرار، كما نبذ المنكرات أخذ بالمكرمات، بل دعا القوم للنبذ وللأخذ، ولم ينفرد وحده بهذا الناموس، انتهىٰ ونهىٰ عن الزنا والخنا والفجور، عفّ وأهاب بالتعفّف عن شرب الخمر، امتنع ومنع من زواج المحارم، أدان وأمر بالكفّ عن وَأد الموؤدة، حرّم أن يطوف بالبيت عريان، رأىٰ قطع يد السارق جزاءً ما كسبت يداه، ونكالاً وعبرةً لسواه، أوفى وحثّ على الوفاء بالنذور، ترفّع ونادى بالترفّع عن البغي والظلم، وكان يقول: لن يخرج من الدنيا ظلوم حتّىٰ ينتقم الله منه.

فلمّا قيل له عن ظالم مات قبل أن تصيبه عقوبة بظلمه، ألهمته بصيرته المشرقة أن يجيب: والله، إنّ وراء هذه الدار لداراً يجزىٰ فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

فكأنما ـ بهذا الذي كان يرتأيه ـ قد أُلقي في روعه بعض ما شرّعه الإسلام، وجاء به بعد قليل حفيده النبي المختار.

وهل من عجبٍ أن قد آتاه ربّه هذه الكرامة وإنّه للنقي الطهور الكريم؟

* * *

بل إنّه لكذاك، فلقد ذكر أيضاً ـ وعلم الناس ـ أنّه كان قرين البركة، صادق الرؤىٰ، مستنير البصيرة، تكاد نفسه تشفي على الإلهام.

وكيف لا وهو الذي كان ينقطع الليالي الطويلة عن دنيا زمنه متحنّثاً في غار حراء؟

أكان يتعبّد بالحنفية دين إبراهيم؟ أم كان يتأمّل، كما تلهمه الفطرة السليمة، في عظمة الخالق وهوان المخلوق؟ أم كان يتابع بروحه وعقله شعاعاً من نور الحقيقة الواحدة، انبثق له من بين ظلمة الجهالة الرانية حينذاك علىٰ قلوب البشر، كانبثاق ومضة برقٍ من خلال غيمٍ كثيف؟

وتلبيةً لشعورٍ غامضٍ نزل علىٰ قلبه بالسكينة، أنكر ربوبية المجسّدات والمنظورات، ونزّه مالك الموت والحياة أن يكون علىٰ مثال هيئةٍ من أشكال المادة التي تتغيّر وتحول، وتفنىٰ وتزول.

وانطلاقاً من هذا الشعور خالف عقيدة مجتمعه الوثني، ونأىٰ ـ في أُخريات أعوام عمره كما نقلت الأخبار ـ عن عبادة الأصنام.

خطوة رائدة علىٰ طريق الاهتداء، قدوة مبكّرة لمن شاء من قومه الاقتداء.

أيّما وصف تصوّر به نفس الشيخ الهاشمي الجليل، فلقد كان كما تدلّ فعاله وسجاياه، وتشير إليه أحاديث معاصريه، صاحب كرامة ويُمن، ويقين ثابت في القدرة الربانية، لا يتزعزع أمام نوائب الدهر ومدلهمّات الأحداث.

حين ينظر إلى الأمور كان يراها بكلتا عيني الإبصار والاستبصار، ينفذ فيها إلى أعماق المجاهيل، يشيم بوادر الشرّ قبل أن يحيق، ليس بالخوَّف الخالع[1]، ولا الجزع الهالع، كان يجابه الملمّات[2]، إنّما بالصبر والهدوء، بثبات اليقين، بطمأنينة الإيمان، برحابة روحية تذوب فيها عزائم الأخطار.

كثيراً كان ـ علىٰ غير ما درج الناس ـ لا يستقبل الشدائد بأساليب المقاومة الشرية العنيفة والجلاد المادي الحادّ، كثيراً كان يستعين عليها بقوة غيبية عليا، يؤمن باقتدارها على صدّ البلايا ودرء هوال كلّ الاقتدار كلّ الإيمان، كثيراً كانت أسلحته التي يحارب بها جحافل المحن قلباً خاشعاً، وكفّين يرفعهما إلى السماء، وكلمات ضراعة وابتهال.

إنّه لطاهر الدعاء، مبارك النداء، يسأل فيُجاب، يستغيث فيُغاث، فكأنّما الله شاء أن يمدّه بما يشبه الخوارق، ويماثل المعجزات.

* * *

---

١ . الخوَّف الخالع: أي الخائف الضعيف.

٢ . الملمّات: واحدها المُلمّة، وهي النازلة الشديدة من نوازل الدنيا.

طير أبابيل

في السنين العجاف[١] يعصرهم القحط، فلا حرث ولا ضرع، كان القوم يهرعون إليه لعلّه أن يردّ عنهم غوائل[٢] الجدب والجفاف، فماذا ترىٰ كان يفعل ليجنّبهم بوائق البوار؟

لم يكن يخرج ليمتار لهم من إنسان، ولا ليستعين جيرة بلدته علىٰ ما هي فيه من بلاء، ولا ليضرب في الأرض طلباً لرزق معلوم أو غير معلوم، هنا وهناك، لأنّ الجوع منهوم[٣] لا ينتظر أوبة[٤] السفّار.

كان يرتقي في جبل «ثبير»[٥] حيث ارتقى إبراهيم، وتلّ ـ تصديقاً لأمر ربّه ـ فتاه: جدّهم إسماعيل للجَبين[٦]، وكان يرفع عينيه وكفّيه داعياً، يسأل ربّه أن ينحي عنهم الغمام الجَهام[٧]، ويرسل السحاب الغدق الهتون[٨].

كان يستمطر السماء.

وعندما ولد محمد بن عبدالله، كان الشيخ يحرص علىٰ تقديمه بين يدي نجواه، إيماناً منه بمقامه عند الله، فلا يكاد ينخرط في ابتهاله حتّىٰ يثيبه ربّه مبتغاه ﴿يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ﴾[٩].

---

١ . السنين العجاف: أي سنوات القحط وانقطاع المطر.

٢ . الغوائل: الدواهي.

٣ . المنهوم: ذو النهم، المولع بالشيء.

٤ . الأوبة: العودة، والسفّار: جمع مسافر.

٥ . ثَبير: جبل معروف عند مكة، بل من أعظمها، بينها وبين عرفة. وقد روي أنّه أحد قطع الجبل الذي تشظّىٰ بعدما تجلّى الله سبحانه له يوم موسىٰ عليه السلام.

٦ . إشارة إلى الآيات الكريمات: ١٠٢ ـ ١٠٧ من سورة الصافات المباركة، التي تحكي قصة رؤيا إبراهيم عليه السلام وذبح ابنه اسماعيل عليه السلام.

٧ . الغمام الجَهام: السحاب الذي لا ماء فيه.

٨ . السحاب الهتون: المثقل بالماء، المتتابع القطر.

٩ . النور: ٤٣.

ويستبشر الناس بالغيث ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾[١] وتحيي الأرض، وتنبت الزروع، وتدرّ الضروع[٢]، ويعمّ الخيرُ البعيد والقريب.

* * *

إنّ استشفاف الشيخ للخفايا والمجهولات كان بلا حدود، يخالف المتوقَّع والمشهود، أُسطورة الأساطير.

فحين داهمت الحبشة مكّة، أمدّه جلاء بصيرته بالطمأنينة، علىٰ خلاف قومه أجمعين كان ثابت الجنان، الإيمان زوّده بالأمان.

في ذلك الوقت كانت اليَمَن في ملاك الأحباش، وكان سيّدها أبْرَهَة الأشْرم قد بنىٰ بها «القُلَّيْس» كنيسة كبيرة ذات فخامة وزخرفٍ وبهاءٍ، وبثّ في أنحاء الجزيرة العربية الرُسل والدُعاة: أنّ هذه قبلتنا خير وأبقىٰ لمن أراد ملكوت السماء، وانتظر أن تلبّيه العرب فتعدل إلى حجّها عن حجّ البيت الذي رفع قوائمه إبراهيم وإسماعيل

لكنّ انتظاره طال، أمله خاب، دعوته لم يستجب لها مستجيب، فما استمال أحداً من معبده المستحدث مظهر ثراء، ولا أغرىٰ إغراءٍ.

عندئذٍ صمّم «أبرهة» علىٰ هدم الكعبة لكيلا يكون لهم غير «قليسة» مزار، وأبرم أمره، وبجيش لَجِب[٣]، ذي أعداد وعتاد، زحف من الجنوب إلى الحجاز.

* * *

كانت مسيرته وجنوده كرحلة أخدان[٤] سفر ورفاق طريق، فلم يكد يلقىٰ عنتاً[٥]، ولا عانىٰ مشقّة الحروب، بل وجد من بعض العرب عوناً يدلّه إلى حيث أراد.

---

١ . الروم: ٤٩.

٢ . الضُروع: جمع ضَرْع، وهو مدرّ اللبن للشاة والبقر ونحوها.

٣ . جيشٌ لَجِبٌ: أي ذو جلبة وكثرة.

٤ . الأخدان: جمع خِدْن وخَدين، وهو الصديق.

٥ . العَنَت: الشدة والمشقة.

وبلغ مشارف البلدة المقدّسة، وعمد إلى تنفيذ غرضه، وهو يتصدّر قوّاته، علىٰ ظهر فيل.

وتسامع بأمره الناس، وتناقلت الألسن ما شهدت العيون: إنّه لينطلق كالإعصار، إنّه لهول ليس مثله في الأهوال، إنّه لداهمة قضاء.

فإذا الذعر في مكّة يشيع، وإذا الأبصار تزيغ، وإذا الصدور تموج بالارتياع، وإذا القلوب تبلغ الحناجر ثم تهوي عند الأقدام.

وهل كانت للقوم طاقة بمثل هذا الجيش الجرّار[١]؟ هل لهم قِبَلٌ بما امتشق[٢] الغزاة من سلاح؟ هل رأوا، قبل يومهم، تلك الدابّة الضارية التي اتّخذها قائد المغيرين مطية قتال؟

لكن شيخ قريش لم يروع روعهم، لم يخش الغارة، لم يهزّه الخطب الذي تؤكّد ظواهر الحال أنّه وشيك النزول.

بجأشٍ ثابتٍ، مضىٰ ـ والهيبة له طليعة ـ إلى «الأشرم» ليرىٰ ما جاءهم فيه، وقال له القائد المدلّ[٣] بجبروته: إنّي إنّما جئت لهدم البيت، فإن لم تحولوا بيني وبينه لم أزد علىٰ هدمه، وإن حلتم أتيت عليكم، فما ترى؟

فلم يبال الشيخ هذا الوعيد، وأجاب بهدوء: أقول أيها الملك: ردّ عليّ إبلي التي أخذتها!!

فذهل صاحب الفيل من الجواب، وقال وهو مدهوش، وفي كلماته ونبراته زراية وسخرية: قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلّمتني، أتكلّمني في مائة بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلّمني فيه؟!

---

١ . جيش جرّار: أي كثير الجرّ، سمّي بذلك لأنّه يجرّ غبار الحرب.

٢ . امتشق السلاح: استلّه وشهره بوجه الخصم.

٣ . المُدلّ: الواثق بنفسه وبعدّته.

غير أنّ استهجانه لم ينل شيئاً من سكينة شيخ بني هاشم، بل زاده طمأنينةً، فقال بهدوء: إنّي أنا ربّ الإبل أمنعها، أمّا البيت فله ربّ يمنعه.

عندئذٍ استشاط «أبرهة» غضباً، وصاح باغترار: وما كان ليمتنع منّي.

قال عبدالمطلب بلا اكتراث: أنت وذاك! وعاد بإبله[1].

* * *

ليس حرصاً علىٰ نَشَبه[2] كان موقف الشيخ من عدوّه، ليس خوفاً من جبروت القوة، ليس تخاذلاً ولا ثبوط همّه، ليس تواكلاً ولا تغافلاً عن التبعة.

ليس كموقف بني إسرائيل يوم حثّهم موسىٰ: أن ادخلو الأرض المقدّسة[3]، فازورّوا[4] عنه وأجابوه: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾[5].

أجل، ليس هذا كلّه، ولا بعضه.

أم أين الحرص وقد قلّد عبدالمطلب إبله التي استردّها، وشعّرها، وساقها هدياً إلى الكعبة؟ أم يعرف الرهب سبيلاً إلى قلب من يجابه الأسد في عرينه بما يكره؟ أم هو تخاذل أن يعقد الشيخ راية الحرب، ويجمع أجلاد فتيان قومه يعسكرون بمنىٰ علىٰ أهبّة؟ أم كيف يسوغ دمغه بالتنصّل من التبعة وقد دفع بالنساء والأطفال وضَعَفَة الشيوخ والكهول، فتحرّزوا ـ خشية عليهم من معرّة السبي والأسر ـ برؤوس الجبال، وقمم الشعاب في مكة؟

لا، بل صدىً لإحساسٍ صادق بما سوف يقع كان موقفه من «الأشرم».

---

١ . الطبقات الكبرىٰ ١: ٩١ ـ ٩٢ عن مجاهد عن ابن عباس، البداية والنهاية ٢: ١٥٧ ـ ١٥٨.

٢ . النَشَب: المال.

٣ . إشارة إلى قوله تعالى علىٰ لسان موسىٰ عليه السلام: ﴿يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ المائدة: ٢١.

٤ . ازورّ عنه: مال وانحرف عنه.

٥ . المائدة: ٢٤.

فساعة خطا الجيش أولىٰ خطواته علىٰ أرض البلدة الطيّبة، وانتشر سواده الكثيف في بياض النهار المشرق، وتحرّك الفيل يقوده على الطريق إلى البيت العتيق، انطلق عبدالمطلب يسبق الغُزاة إلى حرم الله.

قلبه كلّه خشوع، عيناه تفيضان بالدموع.

نفحة قدسية من نفحات الإيمان هي التي كانت توجّه تفكيره وتهدي خطاه، وفي سكينة وطمأنينة أخذ بحلقة باب الكعبة الغرّاء، يدقّ بابها، ونظره إلى السماء، وعلىٰ جرس الدقّات راح يستنصر الله:

لا هُـمّ إنّ العـبدَ يَـمنعُ رحَـلَهُ فـامنَعْ حـلالَكْ
لايـغلبنّ صَـليبُهُم ومحالهُم أبـداً مـحالِكْ
جـرّوا جـموعَ بـلادِهِم والفيلَ كي يَسبُوا عيالَكْ
إن كـنتَ تـاركَهُم وقبلَتَنا فأمرٌ ما بَدَا لكْ[١]

ثم مضىٰ في ضراعته وابتهاله:

يا ربّ... لا أرجو لهم سواكا يا ربّ... فامنَعْ منهم حماكا
إنّ عدوَّ البيت مَن عاداكا امنعهم أن يخرّبوا فناكا

* * *

وصدقت مَلَكَة التوسّم والاستجلاء.

استُجيب الدعاء، حقّت على الطغاة المفتونين كلمة الله.

وهل كان سبحانه ليخلّي بينهم وبين حرمه الأمين؟ هل كان تاركهم يعيثون في البلدة المقدّسة، وإنّ فيها ـ علىٰ مرمى الحربة، ومنزع السهم منهم ـ ذلك الوليد اليتيم الذي اجتباه ربّه ليكون هدىً ورحمةً للعالمين؟

إن هي إلّا سُوَيْعَة أو سويعات حتّىٰ ذهب أصحاب الفيل في الغابرين، عاجلهم

---

١ . الأبيات من الكامل، ذكرها ابن سعد ١: ٩٢، وابن كثير الدمشقي في البداية ٢: ١٦٠، والعاصمي في سمط النجوم ١: ٢٧٤ باختلاف في بعض الألفاظ.

القضاء، حصدتهم المنون، هجرتهم الحياة.

في لحظةٍ خاطفةٍ كأنّها بلا عمر خرّوا صرعىٰ، وما حاشهم عن الكعبة بنان، أتاهم أمر الله، «الكلمة» أردتهم، وليس الرماح والسهام والسيوف، «كن» هي التي أوردتهم الحُتُوف[١].

بلا حراك ولا أنفاس تناثروا علىٰ ثرى[٢] البلدة المقدّسة مجندلين[٣]، بلا أجداث[٤] ولا لحود، غسلهم الدم، أكفانهن سافيات[٥] الرمال، لُحّادهم[٦] الوباء، قبورهم العراء.

الهَلَكة جاءتهم من طريق المحال، سحقهم جند مجهول: طير أبابيل، مزّقهم سلاح مجهول: حجارة من سجّيل، فإذا هم جُذاذات[٧] كحبّ الحصيد[٨]، كهشيم[٩]، كتبن مدروس[١٠]، كعصف مأكول، فما بكت عليهم السماء والأرض، وما كانوا منظرين.

❊ ❊ ❊

لقد شاء الأشرم، لكن ما شاء الله هو الذي كان.

نجت مكّة، حمى الله الكعبة، حفظ بيته الحرام، ليكون ذلك الآتي الذي تنفّس يومئذٍ أُولىٰ نسمات الدنيا هو من يفعل فعل أبويه الكريمَيْن: إبراهيم وإسماعيل،

---

١ . الحُتُوف: جمع حَتْف، وهو الموت.

٢ . الثرىٰ: الأرض.

٣ . مجندلين: ممدّدين، صرعىٰ.

٤ . الأجداث: جمع جَدَث، وهو القبر.

٥ . السافيات: الذرّات والغبار المتبدّد المتناثر.

٦ . اللُحّاد: جمع لاحد، وهو الذي يعمل اللحد.

٧ . الجُذاذات: القطع المتكسّرة الصغيرة الفاصلة بعد كسر الشيء.

٨ . الحصيد: ما حُصد من الزرع.

٩ . الهشيم: المهشوم، النبت اليابس المتكسّر.

١٠ . المدروس: المطحون الذي ذهب رسمه وانمحىٰ أثره.

فيطهّره ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَاكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[١].

طاقة روحية عظيمة هي التي بثّت في روع «الشيخ» ما كان يخالجه من أحاسيس وأفكار، قدرة خارقة علوية هي التي رسمت سلوكه وسدّدت خُطاه، بصيرة شفّافة مجلوّة هي التي دلّته إلى النجاة من أصحاب الفيل قبل أن تكون النجاة

وحين أطلق دعاءه ذاك كان كمن يتحدّث بلسان القدر، كمن ينطق عن إلهام، كمن يرىٰ في لوح الغيب مسيرة الأمور.

وكيف لا وإنّ وراءه ليُمْن ذلك الوليد الذي اجتباه الله، يزيده علىٰ بركته بركات وبركات؟

ولا غَرْو[٢]! أوَ ليس في الجدّ شيء من كرامة الحفيد؟ أوَ ليس كخيال في مرآة؟ أوَ ليست الثمرة الطيّبة تؤكّد زكاة النواة؟ إنّ للوراثة لقانوناً يفرض نفسه علىٰ حركة الحياة في الأنسال، ولمزايا الآباء أثرها في تكوين الأبناء، والسمات النفسية لكبير الهاشميّين حَرِيّة[٣] ـ دون ريب ـ بأن تجاور ملامحه البدنية في ذراريه.

ألم يكن إذن لسليلَيه[٤]: فاطمة وعلي، نصيب من هذه السمات؟ بل زادهما الله بسطةً في الفضل من خلال الرسول الكريم، عن طريق القوى الحيوية التي تشكّل الطبائع تلقّيا من الجدّ الوقور، وعن طريق المعايشة والتربية والتلقين تلقّيا من الرسول الكريم.

فأمّا الزهراء فالأُنثى المثلىٰ... وأمّا علي فالرجل الأمثل..وحقّ لهما أن تكون وأن يكون، بل الفيض الربّاني سوف يغمرهما من نعمائه بالكثير والكثير، بل كرامتهما على الله سوف تنطق بآلاء وآلاء.

---

١ . البقرة: ١٢٥.

٢ . الغَرْو: العجب.

٣ . حَرِيّة: جديرة، يقال، إنّه لحريّ أو حَرٍ أو حرىً بكذا وأن يفعل كذا، أي جدير به.

٤ . السليل: الولد، الابن، يقال: هو سليل الأكارم، أي ابن الأكارم.

خطوة خطوة، سيسيران جنباً إلى جنب علىٰ طريق العمر، يبذران في أرض الحياة النور.

فأمّا الصغيرة الأثيرة علىٰ محمد، فإنّها لا تلبث أن تتبدّىٰ، وإنّها من أبيها؛ لنبض قلبه، موئل[1] حبّه، لَجَأ[2] أمره، موضع سرّه، قبس من نورانية هالته المشرقة على الدنيا بالخير.

وأمّا الصغير ربيب محمد، فإنّه سيصبح نجيّه وصفيّه، صاحب وصيّته، سنده في الله، رفيق حربه وسلمه، وعاء حكمته، باب مدينة علمه، خير مقتدٍ أبد الدهر، لخير قدوةٍ عرفها البشر منذ بُسطت الأرض ورُفعت السماوات.

---

١ . الموئل: الملجأ.

٢ . اللَجَأ: الحصن والملاذ.

اللوحة الثانية

كمثل درّة مكنونة

كمثل درّةٍ مكنونةٍ، يحكم عليها الغطاء غلافها الصَدَفي الصلب لكيلا تعبث بها عوادي اليَمّ[1] وأواذيه الهوج[2]، كحبّة قمح تلتفّ بها سنبلتها الذهبية ضنّاً[3] بها أن تنفرط فتذهب بدداً[4] بلفحةٍ[5] غابرةٍ من أنفاس ريحٍ تعربد وتثور، كزهرة الظلّ التي تستنبت في زهرية ثمينة، تحت السقوف وخلف الجدران، حمايةً لعودها الرقيق الرشيق من تقلّب الجو، بتغاير الفصول: من ساكنٍ لعاصف، ومن باردٍ لحارّ، ومن جافٍ لممطر، ومن رائقٍ صافٍ لكدر أغبر مشبع بالرمال والتراب.

كهذه وتلك وهاتيك نشأت الزهراء، كلّ ما حولها هدوء ورخاء، صفاء وأمان.

كانت دائماً تسمع مثل همس النسيم، تحسّ مثل ملمس السحاب، ترىٰ مثل مشهد الأُفق لحظة انبثاق فجرٍ نديٍّ عن نهارٍ رطيب.

في بيتها الصغير عند حافّة الحرم أنست إلى الطمأنينة، بين أحضان أبويها

---

١ . اليمّ: البحر.

٢ . الهوج: الطائشة، المتسرّعة.

٣ . ضنّ بالشيء: أمسك به، وبخل به.

٤ . بدداً: متفرّقاً.

٥ . اللفحة: هبّة ريح حارّة، وضدّها النفحة: هبّة ريح باردة.

الكريمين: محمد وخديجة، عاشت الحبّ والحنان، وارتوت بالجلال والكمال، مع تِرْب[١] طفولتها «عليّ» نعمت بالصحبة الحلوة، من الأُلى جاوروها، من الآل والتبع، لقيت الرعاية.

أينما حلّت تسابقت إليها القلوب والعيون، حيثما كانت كان الإعزاز.

الخفقات دعاء، النظرات بَسمات، الكلام تغريد عصافير، وهَديل حمام، والنبرات ترانيم.

* * *

وكانت هيئتها دعوة للسلام.

بملامحها يترقرق[٢] سحر رباني، إليها يشدّ الانتباه، ويجذب الألباب، ويعطف الأرواح، في عينيها الدَعْجاوين[٣] مثل صفاء ينبوعٍ بكرٍ لم يرد بعد ماءه العذب ورّاد، فوق جبينها الرائق رفق السكينة، بمحيّاها الوضيء دفء الحنان.

كأنّها زهرة جديدة تفتّح عنها برعم وليد: ملساء العود، غضّة اللون، نديّة الوريقات، كأنّها اكتست نضرة الربيع في ريعانه، كأنّها تشرّبت طراوة النسيم في إحدى أمسيات صيف غائب الغيم، ضاحي النجم، ناعس الهواء.

كانت خفيفة كطَيْف، شفيفة كقطرة الطلّ[٤]، رفيقة كالظلّ، رشيقة كسبحات النور.

كلّما أدركتها عين راءٍ أظلّ نظراته إليها من الشفقة مثل ما يلتمع فيها من الإكبار، وكانت رقّتها تجمع الدعة إلى الهيبة، كما تثير العطف كانت تبتعث الاحترام.

* * *

---

١ . التِرْب: جمعه أتراب، مَن وُلد معك.

٢ . يترقرق: يتلألأ، يجري جرياً سهلاً.

٣ . دعجاء العين: إذا كانت شديدة السواد مع سعتها.

٤ . الطلّ: المطر الضعيف، الندى.

ولم تكن بنت عمرها الذي سجّلته الأيـام، بـحساب السـنين هـي طـفلة فـي الخامسة، وبحساب الوقار هي سيدة في الخمسين.

أحياناً كان ينعقد حاجباها كأن عن إمـعان فكـر وتأمّـل حـتّىٰ ليُـظنّ أنّـهما لا ينفصلان، أحياناً كانت تتغضّن[١] جبهتها فتمتلئ أخاديد وخطوطاً غائرة[٢] تـلوح كآثار وشم[٣] الزمان، أحياناً تترحّل بنفسها في الصمت، كأنّها سـهت عـن دوافـع طفولتها الريّانة، ثم تمعن في السهو كأنّها ترهّبت للتأمّل، ثم توغل في التأمّل كأنّها قد انسلخت عن دنيا الناس، وغابت ـ روحاً وذهناً ـ في عوالم سحيقة من أسرار الغد الخفيّ، ورؤى الغيب المستور.

كانت لا تكاد تعرف حياة الأطفال، تنزّهت عن العبث، تجرّدت مـن الصـغائر، باعدت الهَذَر وسقط الحديث.

كانت توجز في القول، تسهب[٤] في الصمت، تتحرّك بـمقدار، إذا لعـبت فـبغير ضجّة، إذا مشت فعلىٰ هون، إذا تكلّمت فبلا جلجلة[٥]،إذا ضحكت فبالابتسام.

وأولئك الذين حسبوا أنّ ألوان هذا السلوك منها إنّما ترجع إلى عيبٍ في طبيعة خلقتها، ونقصٍ في تكوين بنيتها الجسمانية، أو إلى نضوب حيويتها، أو إلى افتقارها النفسي إلى ما هو أولىٰ بمثيلاتها الصغار من جـنوح إلى مـرح الطـفولة، المـتمرّد ـ عادةً ـ علىٰ منطق الاعتدال، كلّ أولاء كان لهم عـذر حـاضر قـد يـؤيّدهم فـيه المشهود وإن هم أخطأوا ـ في الحقيقة ـ السداد.

فلقد كانت حقّاً نحيلة القوام، رقيقة الجسم، خفيفة اللحم، أَمْيَل إلى الهزال الذي

---

١ . الغَضْن والغَضَن: كلّ تجعّدٍ وتثنٍّ في جلد أو ثوب ونحوهما.

٢ . الغائر: ما يدخل في الشيء، والغائرة مؤنثة.

٣ . الوَشم في اليد: الخطوط التي تحصل من غرز الإبرة في البدن وذرّ النيلج عليه، وفي المجاز يقال: وشم الزمان.

٤ . تسهب: تطيل.

٥ . الجلجلة: صوت الرعد، وهو كناية عن كلّ صوت شديد راعد.

قد يترجم إلى ضعفٍ، في زمنٍ كان الناس يرون بدانة الأنثىٰ علامة الصحّة، وآية الجمال.

أفعجب لو ملأتهم عندئذٍ الشفقة على «الزهراء» إذ يظنّون أنّها واهية البنيان؟ إنّ عودها نحل كأنّما يشفي على الضمور؟ وإنّ لونها شفٌّ كأنّما يوشك أن يكون الشحوب[١]؟ وإنّ صوتها خفت كأنّما يهمّ أن يذوب؟

بل لا حيلة لهم فيما يخالون، وكان الحبّ وراء كلّ ما يخالون، أمامه تسرح تهاويل الأحداس، وشطَحَات الظنون.

فعن خشيةٍ عليها من الوهي كان وهم كلّ واهم، وعن رأفةٍ بها كان خوف كلّ مشفق، وعن انعطاف إليها كان قلق كلّ جزوع.

كان إيثارهم لها كأُسطورة، وحد بهم فريضة، واهتمامهم نفث الأنفاس.

فليس الحبّ بشعور منقطع عمّا عداه من أحاسيس، ليس عاطفة سطحية أُحادية العنصر والتكوين، ليس شاغل القلب دون الفكر والضمير والخيال، لكنّه عاطفة عميقة، متراكبة الطباق، عديدة الجوانب، ذات عروض وأطوال، وأبعاد وأغوار.

إنّه يحمل من يعيشه على استيقان النظائر والأضداد في آن، يريه بعين الخيال ما لا يُرىٰ بعين الحال، يثير فيه من الشغف مثلما يثير من الخوف، يحرّك بقلبه الشوق كما يحرّك الإشفاق.

والإشفاق من الشفقة، والشفقة بنت القلق، والقلق باطنه تهيّب، وظاهره تأرجح نفسي بين اليأس والرجاء، هو رحلة بين المحال والممكن، وهو مسيرة علىٰ طريق، أحد طرفيه عَتَم[٢] مرهوب يكاد يُغِير بظلامه علىٰ نور الحاضر المضيء، والآخر وضح مرغوب ينتظره التفاؤل وإن كان لا يعيش إلّا في غدٍ غائرٍ في خفايا الغيوب.

* * *

١ . الشاحب: المتغيّر.

٢ . العَتَم: ظلمة الليل. وضدّه الوضح: نور النهار.

فمتىٰ تطلع الشمس في عيون الإشفاق بالصبح المأمول؟ لماذا لا يضجّ بالحيوية ـ وهو في عمر الوردة ـ القوام النحيل؟

كيف يبدو ذلك الإهاب كأنّما لا يُشرِق، وتلك الوجنات كأنّما لا تزدهر، وهاتان الشفتان كأنّما لا تضطربان في تنافر وتجاذب، وفي تلاحم وانفراج، سريعاً كاختلاج جناحين، لتتزاحم عليهما الكلمات؟ أما تَرِفّ البسمات؟ ألا ترنّ الضحكات؟

لو قد علم أصحاب الخشية أولئك كيف يستشفون دخيلة «الزهراء» لما فاتهم أن يتبيّنوا حقيقة ما فات، لعلموا أنّ نحولها ليس علّة، ولأيقنوا أنّ صمتها ليس عيّاً، ولأدركوا أنّ نأيها عن الضجّة والهزل والعبث العربيد، التي تزمجر ـ عادة ـ في أوصال الصغار، وتتّسم بها مرحلة الطفولة الغريرة[١]، ليس كما يحسبون.

ليس نتيجة شذوذ يخامر سليقتها السوية، ليس وليد نقص في طبيعتها الحيوية، ليس بعيب نفسي يدفع بها حتف رغبتها إلى التنكّر المتجهّم للمرح البريء الذي يلازم طراوة الإهاب، ونظارة الأعمار، ليس بقصور بدني يفرض عليها سلوكاً تلوح معه كأنّها لا تصبر علىٰ جهد الحركة بقدر ما تتهافت على استرخاء السكون.

لكنّهم لا يعلمون، أساءوا التقدير.

فما قعودها عن اللعب المجلجل بعجز في البنية، ولا عزوفها عن المرح المتمرّد بخلل نفسي، ولا صمتها الجاد الذي تلوذ به أكثر الأحايين بميل إلى التجهّم والعبوس تعبيراً عن كفرها بالبشاشة والابتسام.

كلا: لقد كانت تؤثر الهدوء لأنّه وقار، ولأنّه سكينة وطمأنينة، ولأنّه مناخ المعرفة، ولأنّه مسرح التفكير.

وهل قرار النفس وتفتّح الذهن إلّا بقرار البدن؟ وهدوء البال إلّا بهدوء الأوصال؟

❊ ❊ ❊

---

١ . الغرير من كل شيء: أوله وطلعته.

فهل هذه السمات في الزهراء طبيعة أم هي انطباع؟ بل طبيعة وانطباع، كلا الأمرين في الفتاة يلتقيان.

من هوس الضجّة، وعربدة اللهو، وعبث اللغو، وسقط الهراء، عصمها الله، عصمها لأنّها موهوبة للكمال، ولأنّ في دمائها ـ من أبيها ـ نواة لهذا الكمال، ولانّ حياتها في أحضانه طبعتها بما جبل عليه من خصال.

بطبعها وانطباعها هي خليقة بأن تعفّ عن المباذل، حريّة بأن تمتنع عن أيّة بادرة قد تنزل بها ـ ولو قيد شعرة ـ عن قدرها الرفيع، حقيقة بأن تتسامىٰ بسلوكها الإنساني إلى صفاتها النورانية التي تضعها علىٰ قمة المكارم.

تفعل هذا وإن هو جافى السلائق البشرية إبّان عمرها الغضّ الذي ما زال بعد في مستهلّه، وما قطعت من رحلة حياتها علىٰ دنياها إلّا ما يساوي مثل عمر الزهور.

أفهي للجلال منذورة أم هي به مأمورة؟ بل تفعل وإنّها لمختارة، تفعل لأنّ فكرها أكبر من عمرها، ولأنّ طاقتها الروحية أوسع من طاقة جسدها الضئيل، تفعل تطلّعاً إلىٰ غدٍ عظيمٍ حافلٍ، إن لم تكن تلحظ برأي العين وقائعه المقبلات فإنّها ترمقه بعين الشعور، تفعل لتتمرّس بالجدّ، وتعيش الصبر، وتتزوّد بالمعرفة، وتتدرّب علىٰ مجالدة الخطوب ومجابهة جلائل[١] الأمور.

والبشائر تنبئ عن أحداث جِسَام، والمسيرة أمامها عسيرة، والطريق طويل، والمعاناة المنتظرة مفازة وعرة من جلاميد وأشواك، يلفّها ظلام كثيف يحشو الأبصار فيشقّ اجتيازها على السُراة[٢].

أمّا الصغيرة الأثيرة فإنّها تشعّ الضياء، ولأنّها شفّافة النفس، ولأنّها مشرقة الوجدان، ولأنّها مصوغة من إيمان.

فلقد كانت ترىٰ في الدياجير[٣]، برمقها الكاشف ترى البعيد، بقلبها الملهم

---

١ . الجلائل من الأُمور: عظيمها.

٢ . السُرىٰ: سير الليل.

٣ . الدياجير: جمع ديجور، وهو الظلام.

تكتنه[١] الأسرار، بصفائها الروحي تحسّ المجهول، وها هي ذي، تعفّ عن المباذل، وتخلد إلىٰ جلال الهدوء، فالهدوء يسلم إلى الصمت، والصمت يؤدّي إلى حسن الإصغاء، وحسن الإصغاء يمكن في التلقّي، والتلقّي يفضي إلى الاستيعاب، والاستيعاب يفتح الآفاق للتأمّل.

فاذا هي صمتت أصغت، وإذا هي أصغت وعت، وإذا هي وعت أقبلت علىٰ كلّ ما يلقفه سمعها وبصرها وبالها، تتبيّنه تحت وهج التفكير، وإنّ نظراتها عندئذٍ لتبدو كأنّما تشرد، وإنّ جبينها ليظهر كأنّما يتعقّد، وإنّ ذهنها ليلوح كأنّما يسرح مترحّلاً فيما وراء المرئي المنظور.

* * *

ولماذا لا تألف الهدوء؟ لِمَ لا تلزمه وتسير وإيّاه في طريق؟ لم لا تعيشه وهو الحياة التي يحياها كلّ أولئك الذين عاشرت في دنياها الصغيرة؟

إنّها لتعلم كيف اختار أبوها الهدوء رفيقاً له، لا يكادان يفترقان، منذ تفتّحت عيناها علىٰ ما حولها لم يكن يغيب عنها انفراده بنفسه الليالي الطويلة في غار حراء، ولا كانت تغفل عن اختلائه أحياناً بحجرته بعد أن يؤوب من غيابه، أو يفرغ من شواغل يوم مشحون، ولا كان يعوزها أن تدرك إلى أيّ مدىً كانت أُمّها تحرص الحرص كلّه علىٰ أن توفّر لزوجها الأسباب التي تهيئ له تلك الخلوات.

لأمرٍ ما كان محمد يقضي بالجبل معظم لياليه، لأمرٍ ما كان ينقطع عن دنيا الناس، بالغار أو بالدار، لأمرٍ ما كان يؤثر العزلة.

أبحدسها شارفت فاطمة سرّ هذا الاعتكاف؟ أم توسّمته بحسّها الشفيف؟ أم طالعتها في محيّا أبيها صفحات من المعاني البليغة؟

---

١. اكتنه الشيء: بلغ كنهه، والكُنه: جوهر الشيء وأصله وحقيقته.

فالهيئة عبارات، والقسمات كلمات، والأسارير حروف، بل غلبها على الحدس والتوسّم اليقين.

وكيفما كان سبيلها إلى الإدراك، فإنّها استشعرت أنّ الأمر خطير وعظيم وجليل، خطير أيّ خطر، عظيم أيّ عظم، جليل أيّ جلال.

ولقد كشفت عن السرّ الأيام.

عازفاً ـ إلّا قليلاً ـ عن انخراطه في عالم الناس، يمعن محمد نظره الفكري والوجداني الكشّاف في هذا العالم المترامي الحدود، وكيف كان، ومن أين جاء، وإلىٰ أين يعود، يتأمّل في صور الخلق ـ ظاهرها وباطنها ـ على امتداد الأكوان إلى حافّة المجهول الذي يداني المحال، يستشرف القدرة العلوية التي تهيمن علىٰ كلّ حركة وسكنة في الوجود، وتملك مصير الأحياء والأشياء، وتدبّر ـ بنواميسها المحكمة ـ شأن كلّ مرئي وخفيّ، في دنى المادة والروح، ممّا عسىٰ أن تدرك كنهه المشاعر والألباب والأبصار، وممّا لن تحيط به علماً المشاعر والألباب والأبصار.

وكانت «الحقيقة الواحدة» الأزلية الأبدية هي وحدها مجازه إلى ما يروم، كانت المحور الأول، بل الفرد الذي يدور حوله كلّ ما شغل به نفسه من تشيم وتأمّل وتفكير، كانت مثار انسياحه الروحي والعقلي والشعوري في الملكوت، كانت مناط الاستجلاء والاستشفاف والاستبصار.

* * *

النبأ العظيم

ثم أسفرت عن السرّ الأيام.

فمّما كادت الصغيرة النورانية تبلغ من عمرها الخامسة، أو تجاوزها إلّا بقليل، حتّىٰ عرفت النبأ العظيم، وكان النبأ كلمة، كلمة من الله، تنزّلت علىٰ أبيها في الغار، حملها إليه «الروح الأمين»، وكانت الكلمة: «اقرأ»، «اقرأ»، «اقرأ» ... ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ

رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

وكما يفعل حجر يُلقىٰ في ماءٍ راكدٍ، اهتزّت بركة الحياة، صحا ماؤها الهامد بعد موات، تحرّك بعد وَسَن وأَسَن، انتفض وانداح وساح، دوّم كالدوّامات، تشكّل حلقةً تنجب حلقةً، تليها حلقة، تباعاً تباعاً دار حلقاتٍ وراء حلقات، جرى النبض في ركود الوجود.

فالكلمة معرفة، والمعرفة حياة، والدعوة إليها من عند الله.

* * *

منذ تلك اللحظة، أدرك الزهراء، أنّ كلّ ما حولها غدا غير ما كان.

ما من حركة عضو، أو خَلْجة[2] لمحة، أو نأمة[3] صوت، أو نظرة عين، أو رفّة هدب، أو سرحة خاطر، أو خفقة قلب، إلّا بدا كأنّما تهمس في ضمير الصغيرة: «وداعاً أيها الهدوء!».

لكلّ مشيمٍ ومسموع ومرئيٍّ لغة بليغة التعبير، حتّى الصمت نفسه كان ينطق بالتغيير، حتّى انسياح الشعور.

فالأب الحبيب هو النبي الموعود، حامل رسالة ربّ العالمين إلى العالمين، الداعي بالتي هي أحسن إلى الطريق القويم، رافع مشاعل النور الحقّ ليبدّد ظلام الجهالة البهيم.

ولكن لم تكن فاطمة يومئذٍ تحدس الأحداس، ولا تستشفّ[4] بالاستجلاء ما وراء ستر الغيوب، ولا تترسّل مع جموح الخيال، ولا تندفع مع وفز[5] الإحساس، إنّما

---

١ . العلق: ١ ـ ٥.

٢ . الخَلْجة: الغمزة.

٣ . النأمة: النغمة والصوت.

٤ . استشفّ الشيء: نظر فيه وتبيّنه.

٥ . الوَفز: الفوران والتقلّب.

رأت الأمر أبلج[١] كوضح الصبح، مسفراً عن سرّه المكين، رأي يقين.

* * *

حدث هذا ذات فجرٍ في رمضان، عند ذاك كان أبوها قد قفل راجعاً من الغار، علىٰ غير معهود عادته، برح[٢] خلوته، في تلك الآونة المبكّرة من يقظة النهار، بدا بخلاف المألوف، لاح شاحب اللون، واجف القلب، مضطرب النظرة، قلق الخطوة، راجف الأوصال.

لقد فَجَأَهُ في الجبل من وحي السماء ما لم يخطر بباله قطّ أنّ هكذا يـجيئه أو يكون، فإذا كيانه يتزلزل، وإذا ثباته يتقلقل، وإذا هدوؤه يرتجّ، وإذا فكـره يـتبلبل، وإذا شعوره الوطيد بالأمان يتسرّب من كلّ ذرّةٍ فيه كما يتسرّب من بين الأصـابع الماء.

أفحقّ هذا الذي سمعه ورآه؟ أم هو أضاليل أوهام؟

أم هذيان محموم، وما ثمّة حميً لا سورة سقام؟

أم عبث شيطان؟ أم رؤيً من الجانّ؟

وفر منه قراره النفسي، كما عبث ببدنه الاضـطراب، ومـلك عـليه قـلقه آفـاق التفكير.

* * *

وغرق في حيرةٍ سحيقة الأغوار.

ولكنّ صدر خديجة: زوجه العطوف، تلقاه بكلّ ما يضمّ من رعاية ورفق، وحبّ صدر أُمٍّ رؤوم[٣].

---

١ . الأبلج: الظاهر البيّن، الواضح المشرق.

٢ . برح: ترك.

٣ . الرؤوم: العطوف.

هدهدته[١] كما يهدهد فطيم، غمرته بالحنان، في رفقها أذابت روعه، على انزعاجه وبثت[٢] بالطمأنينة، إلى مواثل وجيفة[٣] نفذت بسكينة القرار.

فلمّا إلى نفسه ثاب، وهدأ شعوراً وجارحة، قالت له وكلّها بهجة وابتسام: ابشر يا ابن عمٍّ واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده، إنّي لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأُمّة ... والله لا يخزيك الله أبداً، إنّك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين علىٰ نوائب الحقّ.

* * *

لم تكن وحدها بشيرته، ابن عمّها الحَبْر الوَرِع وَرَقة بن نَوْفَل[٤] كان علىٰ نفس ما هداها إليه صدق التوسّم والاستشفاف.

فعندما ذهبت إليه تستفسره سرّ ما شهد زوجها وسمع، تلك الليلة في الغار، تلبّث هنيهة يستقرئ علمه ـ وإنّه بأسرار صُحُف الأوائل لخبير ـ ثم قدّس وسبح: قدّوس قدّوس! سبّوح سبّوح!

وأجاب: والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتني يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسىٰ وعيسىٰ،... ثم أكّد: إنّه لنبيّ هذه الأُمة، فقولي له: فليثبت.

---

١ . هدهدت الأمّ الصبيّ: حرّكته لينام.

٢ . وَبَثَت: أقامت، ثبّتت.

٣ . الوَجيف والوُجُوف: الاضطراب، يقال: وَجَف القلب، إذا خفق واضطرب.

٤ . وَرَقَة بن نَوْفَل بن أسد بن عبد عُزّىٰ، من قريش، حكيم جاهلي، اعتزل الأوثان قبل الإسلام، وتنصّر، وقرأ كتب الأديان، أدرك أوائل عصر النبوة. وله شعر سلك فيه مسلك الحكماء، ومن المؤرّخين من يعده من الصحابة، وفي وفاته روايتان، ما في البخاري «ثم لم ينشب ورقة أن توفّي» يعني بعد بدء الوحي بقليل، والثانية عن عروة بن الزبير قال في خبر تعذيب بلال: «كانوا يعذّبونه برمضاء مكة، فيقول: أحد، أحد! فيمرّ به ورقة وهو على تلك الحال فيقول: أحد، أحد يا بلال...». راجع الاعلام ٨: ١١٥، الروض الأنف ١: ١٢٤ وما بعده.

وتكرّر التوكيد، فحين أصبح محمد، ونشط إلى الطواف بالكعبة ـ كدأبه في كلّ يوم ـ التقى بالناسك العليم.

وأقبل ورقة عليه بخطىً وئيدة[١]، كأنّما يمشي على استحياء، ثم دنا منه، يتأمّله، ثم هامسه بصوت خفيض: يابن أخي، أخبرني بما رأيت وسمعت، فأنبأه بما جرىٰ في الغار.

قال له الراهب، ورَمَق بصره يهيم في الفضاء: إنّك لنبيّ هذه الأُمّة ... ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسىٰ، ولتكذبنّ ولتؤذينّ ولتقاتلنّ ... ولتخرجنّ.

فسأله محمد: أوَ مخرجيّ هم؟

قال الراهب الشيخ: نعم، فما أتىٰ رجل بما جئت به إلّا عودي ... ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرنّ الله نصراً يعلمه.

وصدق، فما عتم داعي السماء أن عاد إلى محمد مرةً أخرىٰ، من وراء كلّ المحسّات ينقل إليه عن الله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَٱلرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[٢].

إنّها إذاً لرسالة، وكبّر، وتيمّن واستبشر، وسكن وأمن، واطمأنّ وقرّ، ثم صدع بما يؤمر.

* * *

وعلى الفور، تفتّحت براعم الإيمان، بداره ظهرت بشائر الدين الجديد.

كلّ من كانوا به يعايشونه صدّقوه، ما إن دعاهم حتّىٰ لبّوا الدعاء، أسلموا وجوههم لله.

وكانت خديجة رائدتهم علىٰ طريق النور، ثم الابنة الحبيبة الزهراء، فعليّ ربيبه، وصاحب سرّه ونجواه، فزيد مولاه.

---

١ . الوئيد: الرزانة والتأنّي.

٢ . المدّثر: ١ ـ ٧.

لكنّ إقبالهم عليه كان مشوباً بإشفاقٍ سبق مسيرتهم إلى الغد المجهول، فأن يصطفَى من دون الخلق، للدعوة إلى سبيل الحقّ، فإنّه لمجد له عظيم ... تكريم أيّ تكريم.

وأن ينهض بهذه الدعوة ليحقّق غايتها المنشودة، فإنّه لعبء عليه أعظم ... ثقيل، ثقيل، ثقيل.

فالرسالة الإلهية أصبحت في عنقه أمانةً مقدّسةً، واجبة الأداء والوفاء، وأداؤها مهمّة معجزة لا كالمهمّات، توشك أن تشارف حدود المحال، حتّىٰ لتنوء بالعصبة أولي العزم من الرجال، بل لتفدح رواسخ الراسيات[١]، شمّ الأطواد[٢].

أو ليس عليه أن يواجه عالماً من الضلال؟ وأن يناهض بقوة الإيمان كلّ قوى الشكّ والشرك والظلام والطغيان؟ وأن يشفي بالموعظة الحسنة مستعصيات علل النفوس ـ التي استمكنت منها عبر أعصر من الغواية ـ ليهتك الكنان[٣] عن القلب الأغلف، ويمحو الظلمة من العين الكمهاء[٤]، ويذهب بثقل الأُذن الوقراء[٥]؟

الكلمة وحدها هي سلاحه، وبالكلمة وحدها يخوض معركة التغيير، ليصفي السرائر، وينقي الضمائر، ويخلص العقول من رجس الفكر، لا ليلمّع الجوارح أو يصقل الظواهر أو يلوّن الأبشار.

فكأنّه سينصّت[٦] الصمّ! لكأنّه سيسمع من في القبور الدعاء! ودون ذلك محن وشدائد وأهوال.

* * *

١ . الراسيات والرواسي: الجبال الثوابت الرواسخ.
٢ . الأطواد: جمع طود، وهو الجبل. وشمّ الجبلُ: إذا ارتفع أعلاه.
٣ . الكِنّان: ستر الشيء ووقاؤه.
٤ . الكَمهاء: العمياء.
٥ . الوقر: الثقل في السمع، الطرش.
٦ . نَصّت: تكلّف الإسماع.

اللوحة الثالثة

عمرها: بالآلام لا بالأعوام

بالآلام قيس عمرها لا بالأعوام، أهدابها لم تعد تجفّ من دموع، في دخيلتها عشش الحزن وأقام، علىٰ قلبها سيطر الوجيب[1].

الجوّ حولها كآبة، الملامح وجوم، للحياة في فمها مذاق مرير.

فالقلق هو الهواء، والخشية هي الغذاء، تهيّب المجهول كان يطالعها مع أول ومضةٍ للشروق، كما كان أيضاً يعاودها مع أول عبسةٍ للغروب.

التوجّس من الغد المقبل، كانت ترىٰ دائماً فيه صورتها، كأنّها تنظر في مرآة، فإشفاقها علىٰ أبيها محور الشعور، مناط التفكير، صوت الحقيقة، وصورة الخيال.

* * *

كانت لا تأمن قومه عليه، ترتهب منهم قذع[2] الألسن وعنت الأجنان، تخاف ممّا يبدون في العلن، وممّا عساهم يدبّرون في الخفاء، تشيم خطرهم في ظواهر السلوك وخبايا الكتمان.

---

١ . وَجَبَ القلب: خفق ورجف.

٢ . القذع: جمع قذيعة، وهي الفحش والشتيمة.

فأولئك الأُلىٰ جمعتهم به الرحم، وربطهم الدم، ونماهم وإيّاه أصل واحد يـمتدّ ـ وراءً ـ إلى إبراهيم.

كانوا هم الذين بادروا ـ عزّة بالإثم ـ فغرسوا في مواطئ قدميه الأشواك، سدّوا الطريق الذي يقودهم عليه إلى الإيمان بجنادل وصخور مسنّنة الأطراف والسطوح كالحراب، حامية الملامس كأنّها مقدودة من عذاب، شنّوها عـلى الدعـوة حـرباً شعواء لا يفتر لنارها وطيس، ولا يخرس حسيس.

ولم تكن تخشاهم عليه من عنفوان قوة، ولا من صلابة عزم، ولا من حـماسة جسارة، ولا من ختل دهاء، لا ... فكلّ أسلحتهم هذه مـفلولة، ومـا لهـم بـه فـي مضاميرها ـ وبكلّ المقاييس ـ قِبَل ولا طاقة.

إنّها أعلم به ... وإنّه لأعلم بنفسه أين يضع منهم قدمه، ومتىٰ يهزّ في وجـوههم بنانه، فهو أرسخ جناناً، وأشدّ بأساً، وأحمز[١] صراعاً، وأصلب إرادةً، وأصفىٰ ذهناً، وأبلغ نكراً، وأوسع حيلةً.

لكنّها خافت عليه منهم العنف، وطول اللجاج، وضيق الأُفـق، وسـدورهم فـي عنادهم الأهوج إلى أقصى آماده، خافت عليه كفرهم أن يعرقل مسيرته بـهم إلى الهداية، خافت عليه من عنتهم غلوّهم في شقاقه.

وكانت تدرك إلى أيّ مدى سينبذونه كلمة الحقّ، ويطرحون وراء أظهرهم صدق المنطق، ويلتوون بأفهامهم عن سلامة الفطرة إلى الزيغ والعنت والغواية.

فالزيغ غدا لهم ديدناً وعادة، والغواية مبدأً وغاية، والعنت طبيعةً وشيمة.

أمّا العناد المتجنّي فإصرار على الباطل، وهو آفة التفكير، وهو انطماس الأفئدة والعقول.

ومن وراء هذا كلّه كانت تملي لهم في غيّهم تراثات ضخمة من الجهالة، وأرصدة فاحشة من الضلال، ضاربة في أعماق ماضيّهم إلى أبعد الأغوار، لا تني تمدّهم بصيِّبٍ[٢]

---

١ . الحمز: الحدّة والشدّة.

٢ . الصيِّب: السحاب ذو المطر، الغيم المثقل بالماء.

من عتامة الرؤية فتختلط لديهم المعاني، وتتنكث الأفكار، وتختلّ معايير التقدير.

* * *

ومرّت أيام تلتها أيام، وكانت بطيئة السيرْ والسُرىٰ كسلحفاة! متثاقلة الخطو والدبيب، وهي تقتلع أقدامها اقتلاعاً من رمال الزمان، بحساب الأعداد كانت ثلاثة أعوام، وبمقياس الإحساس كانت دهراً من التوجّسات والأحداس.

فالجوّ النفسي مشبع برائحة الغد المجهول، والانتظار قلقٌ ممدودٌ ماله من حدود، والأحداث تتثاءب وتتمطّىٰ! والحركة كأنّها ركود، وعلىٰ حين فجأة تغيّرت الحال، انطلق مارد «الدعوة» من العقال!

* * *

فما أن انطوت تلكم السنوات الثلاث من مستهلّ عهد النبوّة، حتّىٰ تنزّل الروح الأمين علىٰ محمد بأن يظهر الدين.

وصدع الرسول ... وعلى الأثر ارتجّت الألباب والصدور، تفجّرت ثورة التغيير.

في الأيام والليالي السوالف التي أكلت من حياة البشرية ثلاثة حؤول[١]، كانت الحفنة القليلة من روّاد الإيمان يستخفون بعبادتهم عن أعين المشركين، أحياناً فرادىٰ وراء الجدران، أحياناً جمهرة في رباط بدار الأرقم، أحياناً متفرّقين أو مجتمعين، خارج البلدة الحرام، في شعاب الجبال[٢].

وكانوا دائماً علىٰ حذر وتقيّة أن يراهم راءٍ، أو يسمع مناجاتهم لربّهم سميع، فأمّا وقد أمرهم الله، فقد كشفوا عن أنفسهم الغطاء، ومضوا جمهرةً يعلنون عن الدين.

* * *

---

١ . الحُؤُول والأحوال: جمع حَوْل، وهو السنة.

٢ . راجع سيرة ابن هشام ١: ٢٦٣.

إعلان الدعوة

بدأ هذا ذات صباحٍ، ختم مرحلة الخفية والاستتار.

ففي ضحوة نهار، في ساعةٍ من ساعات تلألؤ النور، في لحظة تؤذن بقرب إشراق الأرواح، وانطلاق الأفكار، واستواء البشر وإن تباينت بهم المنازل والأقدار، وتغايرت العناصر والأبشار، صعد محمد على الصفا، يهتف بالناس: «يا صباحاه!».

فتوافد القوم على النداء، من هنا ومن هناك، وقد أخذ منهم الدهش، ينتظرون، وكان صوته مجلجل الرنين، كلّه نذير: «أُتيتم! أُتيتم!».

ومضوا يتساءلون: من هذا الذي يهتف؟

فإذا هو يقول: «أنا النذير العريان».

قال قائلهم: هذا محمد على الصفا يصيح، فتزاحموا، حتّىٰ زحموه، وسمعوه يدعوهم قوماً قوماً: وداراً داراً، ثم يقول: «إن أخبرتكم أنّ خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، أكنتم تكذّبوني؟».

بغير تردّد أجابوه: لا والله ما جرّبنا عليك كذباً.

فقال: «يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار، فإنّي لا أُغني عنكم من الله شيئاً ... إنّي لكم نذير مبين بين يدي عذاب شديد».

لكن كلمة التوحيد التي دعاهم إليها لم تجد بينهم لا أُذناً تصغي، ولا عقلاً يعي، ولا قلباً يفقه، غلبت عليهم شقوتهم، فاستعصموا بالضلال، قابلوا الرحمة المتنزّلة من الله بالاستهزاء، راحوا يتندّرون: إنّ غلام بني عبدالمطلب ليزعم أنّه يكلّم السماء[1]!

* * *

١. راجع صحيح مسلم ١: ١٩٣ ب٨٩ كتاب الايمان ح٣٥٥/٢٠٨، البداية والنهاية ٣: ٣٦ وما بعدها.

حتّىٰ عشيرته الأقربون لم يلبّوا الدعاء، مرّتين جمعهم ـ من بعد ـ ليبصّرهم، وفي المرّتين خذلوه، كان من بعض أحاديث معهم، أن قال: «إنّ الرائد لا يكذب أهله ... والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم والله الذي لا إله إلّا هو، إنّي لرسول الله إليكم خاصّةً، وإلى الناس كافّة».

وأكّد: «والله لتموتنّ كما تنامون، ولتبعثنّ كما تستيقظون، ولتحاسبنّ بما تعملون، ولتجزونّ بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً».

ثم بشّر وأنذر: «إنّها الجنّة أبداً، أو النار أبداً».

ثم ناشدهم، وهو يمنّيهم الجزاء الأوفىٰ: «يا بني عبدالمطلب ما أعلم شاباً جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم به إنّي قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة».

وسألهم أيّهم ناصره لنشر كلمة الله، فلم يجيبوه، ازورّوا عنه، خرست ألسنتهم ـ وإنّهم لذوو الأحلام والرأي في الناس ـ عن الأخذ بالدعوة الهادية، إلّا غلاماً حدثاً منهم أراد ربّه أن يضربه مثلاً للفطنة وصفاء القلب وشفّافية الروح.

عليٌّ وحده هو الذي لبّاه: «أنا يا رسول الله» ثلاثاً أكّد أنّه مجيب مؤازر نصير.

وثلاثاً أمره محمد بالسكوت، ليفسح المجال لأولئك «الكبار»، لكنّهم ظلّوا على الصمت والوجوم، صمتهم زراية[1]، ووجومهم تكذيب.

ثم نطق بلسان حالهم عمّه أبو لهب، كأنّما يردّد عن إبليس، بكلّ ما فيه من صلف الشرك، انتفض مرّةً يصرخ غاضباً في وجه ابن أخيه: ما رأيت أحداً جاء بني أبيه وقومه بأشرّ ممّا جئتهم به، وهمّ أن يقذفه بحجر ... فتبّت يداه!

وأخرىٰ صاح بأهله ـ وشركه ينهش قلبه ـ يؤلّبهم على الدعوة وداعي السماء: هذه والله السوأة! خذوا علىٰ يديه، ثم أسرف في غيّه.

فلولا أن عابت عليه فعله هذا أُخته صفيّة بنت عبدالمطلب، فلربّما سدر عندئذ

---

١ . زرىٰ وتزرّىٰ عليه: عابه واحتقره.

في طغواه إلى غاية مداه، قالت له صفيّة تلحاه: أي أخي، أيحسن بك خذلان ابن أخيك[١]؟

* * *

أفكان أبو لهب حليف الشيطان؟ لكأنّه الشيطان!

وكيفما لاح، فقد كان الأسوة السوداء لكلّ متنكرٍ لدين الله، إنّه لطليعة أهل مكّة إلى العيب والاضطهاد.

وهل كان أحد من القوم ليرود[٢] بمحمد، وكلّهم يرىٰ كيف يعنف به، ويزري عليه أخو أبيه؟ بل فتح لهم ذلك العم الضلّيل باب الإساءة والفحش علىٰ مصراعيه، وأهاب بهم: هلمّ ادخلوه!

فسمعوا له، مشوا علىٰ ظلّه، زنموه[٣] كأنّهم له ذيول، ثم زحموه في المدخل الوبيء، ثم جاوزوه.

وكانت امرأته أسبقهم إلى صدارة صفوف الضغينة والحقد التي راحت تفح وتتلوىٰ على طريق السموم وهي تنساب نحو الرسول انسياب الثعابين.

* * *

فإن يكن أسىً ينهش القلوب، فأيّ أسىً كانت تحسّه فاطمة الصغيرة يفريها وهي أحياناً ترىٰ، وأحياناً تسمع، كيف تناول القوم أباها الكريم بكلّ صنوف الإيذاء والبذاء؟

إنّهم ليتبارون ـ مفاخرةً ومباهاةً ـ في بغيهم عليه، عدواً باليد، وقذعاً باللسان، بل قد بلغ من طغيانهم أن رأوا ألّا هدوء بال، ولا راحة عيش، ولا خلاص لهم من محنتهم به إلّا أن يقتلوه.

---

١ . راجع البداية والنهاية ٣: ٣٨ وما بعدها.

٢ . يرود بالشيء: يرفق به.

٣ . زنمه: اتّبعه.

عن هوىً وزيغٍ وضعوا كلّ ما عرف عن العرب من وفائهم للمروءات تحت الأقدام، تنكّروا لقيم الأخلاق، مزّقوا روابط الدم، أهدروا حقوق الجوار.

وعجبت لهم، أيحاربونه أن ينشلهم من الضلال؟! أن يقشع عنهم الظلام؟! أن يقول: «ربي الله»؟!

أليس الخالق الأحد أولىٰ بأن يسلموا له الوجوه من تلكم الأصنام التي صنعوها بأيديهم كما تُصنع دمى الأطفال؟ أوَ لم تكن لقريش آية في صاحبهم «حصين» الذي وجدوه خير من يوفدون إلى محمد ليكفّه عن دعواه؟

كان لحصين ـ فيما يرون ـ أَقْوَل لسان، وكان ذا عقل وحجّة، وثبات مشهود علىٰ عبادة الأصنام والأوثان، وكانوا يعظّمونه ويجلّونه كلّ التعظيم وكلّ الإجلال، جاؤوه يشكون إليه فتى عبدالمطلب الذي «يكلّم السماء»، قالوا له: يا حصين، إنّ هذا الرجل يسبّ آلهتنا ويذكرها بالسوء، فلو ذهبت إليه فكلّمته لينزع عمّا يقول، قال الرجل الكبير: أفعل.

ومضىٰ وهم معه، فدخل علىٰ محمد، وتلبّثوا ينتظرونه بالباب، فلمّا رآه محمد قال لمن حضره من المسلمين: «أوسعوا للشيخ».

فأفسحوا له في المجلس، وأقبل حصين يخاطب رسول الله: ما هذا الذي بلغنا عنك، إنّك تشتم آلهتنا؟

فردّ عليه النبي سؤالاً بسؤال، وتساجلا الحوار.

كان ممّا قاله له الرسول: «يا حصين، كم تعبد من إله؟».

قال حصين: سبعة في الأرض، وواحداً في السماء.

ـ «فاذا أصابك الضرّ، من تدعو؟».

ـ الذي في السماء.

ـ «فإذا هلك المال؟».

ـ الذي في السماء.

ـ «يستجيب لك وحده وتشرك معه؟!».

فحسر الشيخ عن الجواب، ودعاه محمد إلى الإسلام: «يا حصين، أسلم تسلم» فأحنى الرجل رأسه، يتفكّر ويمعن التفكير.

وهل هي إلّا دعوة إلى العودة للفطرة النقية التي فطر الله عليها الإنسان؟ هل هي إلّا تحرير للعقل البشري من حبائل الشرك، وتسامٍ به أن تمتهنه طقوس مبتدعة أفرزها الزيغ، وزيّنها الجهل، وبثّ بذورها الخبيثة في الأخلاد هوس الأنفس السوء وتهاويل الأباطيل؟

هل هي إلّا كلمة حقٍّ، خفيفة على القلب، خفيفة على اللسان، ينطقها فيكون في المهتدين؟

ورفع حصين عينه إلى النبي بعد قليل، وإنّه ليشعر أنّ صدره قد انشرح، وقلبه قد خشع، وكيانه كلّه يسبح في النور ... ثم تشهّد: «لا إله إلّا الله، محمد رسول الله».

لكنّ قومه بالباب، ما أن خرج إليهم حتّىٰ أنكروه، فلقد عاد من سفارته بسمتٍ غير ذلك الذي عرفوه، وحدّثهم خبره، فإذا هم منه ينفرون.

أبوا أن يسمعوا له، أخذهم صلف الكفر، وعناد الاستكبار، ملكهم العنت، واستبدّ بهم تراث ماضيهم الوبيء[1]، فارتجوا مسالك التفكير، وتفرّقوا عنه وهم عليه زارون.

كانوا يردّدون: صبأ[2] حصين! صبأ حصين! وكان في عيونهم غضب عاصف، وفي قلوبهم غلّ مجنون، وفي وفاضهم[3] خسار وبوار.

---

١ . الوبيء والموبوء: ما يكثر فيه الوباء، والوباء: كل مرض عام.

٢ . صبأ: خرج من دين إلى دين آخر.

٣ . وفاضهم: وعائهم.

اللوحة الرابعة

الأصل غدق والفروع جناة

أكان بدعاً أن جاء محمد قريشاً قومه بدعوة التوحيد؟ أم كان بدعاً في الرسل أن قال: إنّي رسول؟

بل البدع أنّهم ـ إلّا نفراً ـ تنكّروا له، وأنكروا منه ما يقول، نبوا به، كذّبوه وإنّه ـ ولمّا تتنزّل الرسالة السماوية عليه ـ كان عندهم غير متّهمٍ يدعونه الأمين، ثم تألّبوا عليه إلب جهل وحسد وبغضاء ... ثم حاربوه.

إنّهم ـ إذاً ـ وأهل الشرك والعناد في كلّ زمان ومكان على موضعٍ سواء، كمن خلوا قبلهم من الأُمم، استكبروا على الإيمان، مثلهم بين من سلف من القرون مثل قوم نوح، الذين ذكر فيهم القرآن: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلٰكِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ...﴾[1].

* * *

فويح لهم!

---

١. الأعراف: ٦٠ ـ ٦٤.

ألم يعلموا بمبعث محمد قبل أن يأتي إليهم بسنوات؟ ألم يسمعوا قطّ بوحدانية خالق الأرض والسماوات؟ ألم تستفض حولهم ـ قبل مجيئه ـ أنباء رجال منهم نفضوا عن قلوبهم أدران[1] الوثنية كما تنفض عن الثوب الغبار والأقذار، وولّوا وجوههم شطر الله؟ بل إنّ منهم لمن قرّ في أخلادهم صدقه، وأقرّوا به، لا يمارون فيه، حتّىٰ إذا جاءهم بالحقّ إذا هم ينقلبون.

وعجبت فاطمة للقوم كيف يقرّون ثم لا يلبثون أن يلبسوا الإقرار بالإنكار! كيف ينقمون على أبيها أن اصطفاه ربّه لرسالته واجتباه!

كيف يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ...﴾[2].

* * *

إنّما الحسد أعماهم عن الطريق.

أقبل الأخنس بن شريق[3] بعيداً عن سمع كلّ سامع، ونظر كلّ شهيد، علىٰ صاحبه أبي جهل يسأله: يا أبا الحكم، ليس معنا هنا من يسمع كلامك غيري، فأخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟

قال أبو جهل: والله إنّ محمداً لصادق، وما كذب قطّ، ولكن.

ثم أسفر عن نفسه، مال علىٰ أذن رفيقه يحدّثه بصوتٍ خفيض، كأنّما ليستر

---

١ . الدّرَن: الوسخ.

٢ . الزخرف: ٣١ ـ ٣٢.

٣ . الأخنس بن شريق بن عمرو الثقفي حليف بني زُهرة، اسمه أُبيّ، وإنّما لقّب بالأخنس لانّه رجع ببني زُهرة من بدر لما جاءهم الخبر أنّ أبا سفيان نجا بالعير، فقيل خنس ببني زهرة، فسمّي لذلك. وقد أسلم فكان من المؤلّفة قلوبهم، وشهد حُنَيناً، مات في أول خلافة عمر. راجع الإصابة ١: ٢٣.

قال ابن عطية: ما ثبت قط أنّ الأخنس أسلم. قال ابن حجر في الإصابة: لا مانع أن يسلم ثم يرتد ثم يرجع إلى الاسلام. وقد ذكر عن السدي أنّه قال: أسلم ثم هرب بعد ذلك، فمرّ بقوم من المسلمين فحرق لهم زرعاً وقتل حمراً، وفيه نزلت: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا...﴾ الآية.

عورة حسده البغيضة أن يطّلع عليها سواه، وأضاف: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتىٰ إذا تجاذبنا على الركب، وكنّا كفَرَسي رهان، قالوا: منّا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتىٰ ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به ولا نصدّقه أبداً!

وعلىٰ نفس شاكلته كان أئمة الكفر من سادة قريش.

اجتمعت بضعة منهم، في أحد المواسم، فيهم الوليد بن المغيرة، وهو عندهم ذو رأي ومقام، فقال لهم وقد سمعوا بعض ما أنزل على الرسول: يا معشر قريش، قد حضركم الموسم، وإنّ وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم، فأجمعوا فيه رأياً ولا تختلفوا فيكذّب بعضنا بعضاً.

قالوا: فأنت أقم لنا رأياً نقوله فيه، قال وهو يحاورهم: بل قولوا: أسمع، قالوا: نقول: كاهن!

ـ والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهّان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا بسجعه.

ـ فنقول: مجنون!

ـ والله ما هو بمجنون، لقد رأينا المجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا وسوسته.

ـ شاعر!

ـ والله ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كلّه: رجزه وهزجه، وقريضه ومبسوطه.

ـ ساحر!

ـ لا والله، لقد رأينا السَحَرة وسحرهم، فما هو بنفثه ولا عقده.

قالوا وقد حيّرهم الأمر: فما تقول أنت؟

فسرح هنيهة، يفكّر ويدير الرأي علىٰ مختلف وجوهه، ثم قال: والله إنّ لقوله لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أصله لغدق وإنّ فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلّا عُرف أنّه باطل، وإنّ أقرب القول فيه أن تقولوا: إنّه ساحر، جاء بقولٍ هو سحر، يفرّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته.

فما لهؤلاء السادة يأفكون، وإنّهم ليعلمون أنّهم يأفكون؟

وما للذين يلونهم من جماعاتهم ينقادون لهم، صمّاً بكماً عمياً، بغير تبصّر ولا تفكير، انقياد السوائم، تندفع إلى الهاوية، بغريزة القطيع؟

الحسد هو سرّ الأسرار.

* * *

من أقصى الشمال بالشام، وما يليها من دولة الروم، إلى أقصى الجنوب باليمن التي استردّها ابن ذي يزن[1] من أيدي الحبشان، شاع أمره في الندوات، ومسامر السمّار، وتجمّعات الجمهور.

في هذه الرقعة الشاسعة التي كانت مواقعها المختلفات مهابط للوحي ومنازل للأنبياء والمرسلين، على تباعد الأماكن وتواتر السنين، سارت قوافل التجّار، ومساري السفّار، وخطى الظاعنين والمرتحلين، تنشر في الآفاق وفي الأذهان نبأ الرسالة المنتظرة، وذكر الرسول الموعود.

ولم تكن قريش لتجهل هذه الأخبار، ولا كانت لتهملها، وتطويها في جوف النسيان.

بل هي تعلمها علم يقين، أخذتها من كتابات الأقدمين، ومن تشيمات الكهّان، ومن نبوءات الأحبار، ومن بشارات الرهبان، ومن نصوص التوراة والإنجيل.

ومع هذا كلّه، وقبله وبعده، من ظروف الأحوال، وصور الواقع ومجريات الأمور

---

١ . سيف بن ذي يزن بن ذي أصبح بن مالك بن عمرو الحميري، من ملوك العرب اليمانيين، ولد نحو ١١٠ ق هـ ونشأ بصنعاء، وكان الحبشة قد ملكوا اليمن في أوائل القرن السادس للميلاد، وقتلوا أكثر ملوكها، فنهض سيف وقصد كسرىٰ انو شيروان، فأجابه وبعث معه جيشاً، فسار بهم إلى اليمن، وأقبل عليهم رجال اليمن يناصرونهم فقتلوا ملك الحبشة مسروق بن أبرهة الأشرم، ودخلوا صنعاء فكتبوا إلى كسرىٰ بالفتح، فالحقت اليمن ببلاد فارس على أن يكون سيف ملكها والمتصرّف في شؤونها، فمكث ٢٥ عاماً حتّىٰ ائتمر عليه بعض الاحباش فقُتل بصنعاء سنة ٥٠ ق هـ. راجع الاعلام ٣: ١٤٩.

التي كانت تفرض ضرورة التغيير، فما كان العالم عندئذٍ ولا كانوا إلّا بمرحلة توقّع وانتظار.

ولا كان وكانوا بأحوج إلى دينٍ يصلح شأن البشرية، ويحرّر الإنسان من الهوان والطغيان، كمثل حاجتهم إليه في ذلك الأوان.

فمتى يجيء؟

ونشط كلٌّ لما هيّء له: الكهّان جرّدوا كهانتهم أداة كشّافة يشيمون بها الغد المجهول، عسىٰ أن يدلّهم علىٰ هذا الدين، وعلى المبعوث به للعالمين، العرّافون راحوا يقلّبون الماضي وينظرون في النجوم، الحكماء أكبّوا على البحث والتحقيق.

الشعور بالنهم الروحي غدا قوةً جارفةً، حملت المتبتّلين والمتحنّثين على استطلاع الأسفار، واستنباء آثار السابقين، وتأمّل الآيات الكونية، واستجلاء البصيرة والوجدان، لعلّهم برهف الأحاسيس وشفيف النفوس يصلون إلى معرفة المعبود الحقّ، ومعرفة عبادته كيف ينبغي أن تكون.

فهل غاب هذا كلّه عن بصيرة أهل حرم الله الذي كان أول بيتٍ وضع للناس، ورفع قواعده جدّهم الأعلى إبراهيم وأبوهم إسماعيل؟

ما غاب، وما كان ليغيب.

وإنّ منهم لمن عرف بأمر أولئك المتشيّمين[١] والباحثين والعابدين، ومنهم من سمع طائفةً عارفةً تؤمن بما تقول، تطلع علىٰ ملأ الناس تنذر وتحذّر، وهي تدعوهم جهرةً إلى الرجوع عن ديجور[٢] الشرك، واللجوء إلى أنوار الحقيقة الواحدة الواجبة الوجود.

ومنهم من أدركهم، ومنهم من كان لهم ببعضهم لقاءات، إنّهم سمعوا ورأوا ... ولا جدال، وتحدّثوا في المجالس، وفي الروحات والغدوات، بهذا المسموع المرئي، آناً

---

١ . شامَ الشيء شَيْماً وشُيوماً: خمّنه وقدّره، فهو متشيّم.

٢ . الديجور: الظلام.

حديث تعجّب، وآناً حديث إكبار.

لكنّهم ما لبثوا أن أذابوه في أهواء التأويل أو دعاوى الإنكار، ثم ألقوا به وراء الظهور، ثم سدرت بهم شقوتهم سدورها المألوف المأثور حتّىٰ غاصوا إلى قمم الهامات في عماية الضلال.

* * *

الراهب بحيرا[1]

فما بال القوم؟

ما لهم كيف يؤفكون!

ألم يأتهم نبأ بحيرا الراهب إذ أوت قافلة قرشية عليها أبو طالب إلى جوار دير عند بصرى من الشام، فخرج إلى أهلها يتفرّسهم حتّىٰ وقع بصره علىٰ محمد، وهو يومئذٍ صبي، فجعل يلحظه لحظاً شديداً، حيّر من في القافلة، وأثار دهشتهم أجمعين؟

أمّا الراهب فلم يكن ليحار، بل كان على يقين، فلقد شهد، وهو بمعتزله، وهم عليه مقبلون، آيةً لا يغيب مغزاها عن عليم، رأىٰ غمامةً في السماء، تظلّ الصغير من بين القوم، كأنّما قد وكلت به وحده، لتدفع عنه أذى الحرور.

وسأل بحيرا الشيخ القرشي وهو يعلّق نظراته بشفتيه: ما هذا الغلام منك؟

أجاب أبو طالب: ابني.

فردّ الراهب: ما هو بابنك، وما ينبغي أن يكون، فإنّه يتيم.

قال الشيخ: هو ابن أخي، مات أبوه وأُمّه به حبلىٰ، ثم توفّيت عنه أُمّه من قريب.

عندئذٍ بدا الارتياح في وجه بحيرا، وقال: صدقت.

---

١ . بحيرا: الراهب النصراني، وعن المسعودي: أنّه كان من عبدالقيس، وكان اسمه جرجيس. راجع البداية والنهاية ٢: ٢٦٦.

وتمهّل يفكّر هنيهة، مال بعدها يخاطب محدّثه بصوتٍ متوجّسٍ فيه رنّة نذير: فارجع به إلى بلاده واحذر عليه اليهود، فلئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغينّه شرّاً.

ثم فصّل ما أجمل، فأضاف: اعلم أنّي قد أدّيت إليك النصيحة، فأسرع به ... وإنّه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم نجده في كتبنا، ورويناه عن آبائنا ... وإنّه لرسول ربّ العالمين.

* * *

ألم يأتهم نبأ عمرو بن عَبَسَة السُلَمي[1] إذ رغب عن آلهة قومه في الجاهلية، فخرج إلى الشام يرتاد لنفسه ديناً هو أولى بالاتّباع، وأدنىٰ إلى الحقّ من عبادة الأصنام؟

يقصّ عمرو: فلقيت بتيماء شيخاً ذا علم، في سيماه ورع، وعليه مهابة، فقلت له: إنّي امرؤ من قومٍ يعبدون الحجارة، فترى الرجل منهم ليس معه إله، فيخرج فيأتي بأربعة أحجار، ينتقي أحسنها فيجعله إلهه، ويجعل الثلاثة الباقية لقدره!! ثم لعلّه، وهو مرتحل، يجد حجراً أحسن فيتّخذ هذا وينبذ الأول، فإذا نزل منزلاً فراقه حجر غيره آثره دونه بالعبادة ... وقد يظلّ هكذا مرّات ومرّات، يستبدل بإلهه سواه ما وقعت عينه علىٰ حجر آخر يعجبه مرآه.

ويمضي عمرو يتحدّث: فرأيت أنّ هذا كلّه باطل، وما لي بحجر لا يضرّ ولا ينفع؟ فهلّا دللتني علىٰ ما هو خير لي، وأحقّ بالعبادة؟

---

١ . عمرو بن عَبَسَة بن عامر بن خالد بن سليم السُلمي، كنيته أبو نجيح، صاحب رسول الله ﷺ، قديم الاسلام، قال الواقدي: أسلم بمكة ثم رجع إلى بلاد قومه، ثم قدم على رسول الله ﷺ بعد ذلك المدينة. وقال ابن سعد: إنّه رابع أربعة أو خامس خمسة في الإسلام. وقال أبو نعيم: كان قبل أن يسلم يعتزل عبادة الأصنام. وكان أخا أبي ذر لأمه، أُمهما رَملة من بني الوقيعة بن حرام بن غفار. قال الحاكم: نزل الشام، وقال غيره: مات بحمص. وذكر ابن حجر أنّ وفاته كانت في أواخر خلافة عثمان. راجع تهذيب الكمال ٢٢: ١١٨ ـ ١٢٢ رقم (٤٤٠٥)، تهذيب التهذيب ٨: ٦١ رقم (١٠٧).

قال الشيخ: يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه، ويدعو إلى معبود آخر، فإذا رأيت ذلك فاتّبعه، فإنّه يأتي بأفضل دين.

فقفل عمرو راجعاً من حيث جاء ... ثم راح يتحسّس الأخبار بمكة بين الفينة والفينة حتّىٰ علم أخيراً برجل اعتزل هذه الآلهة، واستخفىٰ بدينه عن أذىٰ قومه، فيمّم شطره، وسأل عنه ليعلم أمره، قال: أيّ شيء هو؟ قيل: نبي ... قال: ومن نبّأه؟

ـ الله.

ـ وبم أرسله؟

ـ بعبادته وحده لا شريك له، وبحقن الدماء، وكسر الأوثان، وصلة الرحم، وأمان السبيل.

وما زال يستفسر فيجاب، حتّىٰ بلغ ممّا أراد علمه مبلغه، فطابت نفسه واحتوتها السكينة، أحسّ وإنّه لإنسان آخر غير ذلك الذي كانت تنوشه الشكوك وتضطرب به الخُطىٰ علىٰ درب الحيرة وهو ينشد الحقيقة ... فكأنّه ولد من جديد.

وقبل أن ينطق لسانه، كان قلبه يخفق بدعوة التوحيد، وتشهّد ثم قال: آمنت وصدّقت.

ثم مضىٰ يصغي لحديث الرسول عن الإسلام، حتّىٰ إذا استضاء كيانه كلّه بنور الإيمان، قال: يا رسول الله، مرني أأتمر.

فكره محمد له ـ إن هو لزمه في تلك الآونة ـ أن يلقىٰ من عنت المشركين وأذاهم ما يلقىٰ والبضعة القليلة الصابرة من الروّاد علىٰ طريق الله، فأمره أن ينصرف إلىٰ بلده وأهله فيبقىٰ فيهم، حتّىٰ إذا سمع بمخرجه من مكة شدّ رحاله إليه حيث ينزل، فيلحق به.

وكان[1].

* * *

١ . راجع مسند أحمد ٤: ١١٢.

الراهب عيص

ألم يأتهم نبأ عيص، ذلك الراهب بمرّ الظهران، الذي آتاه ربّه من العلم والحكمة ما لم يؤت مثله كثيرين؟

كان يلزم صومعته معظم أيام العام، فإذا آن له أن يبرحها انطلق إلى مكة يلقى الناس ويقول: يوشك أن يولد فيكم، يا أهل مكة، مولود تدين له العرب، ويملك العجم، هذا زمانه، ألا فمن أدركه واتبّعه أصاب حاجته، ومن أدركه وخالفه أخطأ حاجته.

وظلّ هكذا، سنين عددا، يبشّر بميلاد الرسول.

* * *

الراهب نسطورا

ألم يأتهم نبأ نسطورا، إذ أوىٰ محمد ـ وهو في تجارةٍ لخديجة ـ إلى جوار ديره، في ظلّ سدرة يستريح؟

ولمحه نسطورا، فأقبل يسأل عنه مَيْسَرة، غلام خديجة: من هذا الجالس في ظلّ السدرة؟

قال ميسرة: هذا محمد بن عبدالله.

وأمعن نسطورا النظر، ثم غاب هنيهة يتفكّر، كأنّما يطوف في أرجاء علمه، الذي لم يحط به خبراً سوى ندرة من العارفين، حتّىٰ إذا عاد من تطوافه الروحي قال للغلام: والله إنّه لنبي هذه الأُمة[1].

* * *

١ . راجع الطبقات الكبرىٰ ١: ١٥٦ ـ ١٥٧، وسمط النجوم العوالي ١: ٣١٨ ـ ٣١٩.

أم لم يأتهم نبأ ابن الهيّبان؟

إنّه يهودي من أهل الشام، روىٰ قصّته شيخ من بني قُرَيْظَة بيثرب، قال: قدم علينا قبل الإسلام بسنين، فحلّ بين أظهرنا، فوالله ما رأينا رجلاً قطّ خيراً منه.

فكنّا إذا أقحط المطر أتيناه ليستقي لنا، فيقول: لا والله حتّى تقدّموا بين يدي نجواكم صدقة، فكنّا نخرج الصدقة: صاعاً من تمر ومُدَّيْن من شعير، فيمضي بنا إلى ظاهر حرتنا فيستقي لنا، فوالله ما يبرح محلّه حتّىٰ يمرّ السحاب، ويسقينا الله

يقول الراوية: فلمّا حضرته الوفاة، وعرف أنّه ميت، نادى فينا: يا معشر يهود، ما ترونه أخرجني من أهل الخمر إلى أرض البؤس والجوع؟

قلنا: أنت أعلم.

قال: إنّما قدمت هذه الأرض أتوقّع خروج نبي قد أظلّ زمانه، وهذه البلدة مهاجره، وكنت أرجو أن يبعث فأتّبعه، فلا تُسبَقُنّ إليه يا معشر يهود[1].

فكم هي الأُلىٰ بينهم صدّقوه؟

* * *

لكنّ قريشاً طوت كشحاً عن كلّ تلك الأنباء، ونبت كلّ النبو بما جاءها علىٰ ألسنة أولئك وأمثالهم من الأحبار والرهبان وغيرهم من ذوي المعرفة والصفاء النفسي، الذين دلّهم علمهم بالصحف الأُولىٰ، وغوصهم في آثار الأقدمين، واستجلاؤهم خبايا الأيام ـ من خلال رهف الحسّ، ونقاوة السلائق ـ علىٰ مبعث الرسول.

لقد تواردت عليهم تلكم الأخبار في ذلك الأوان، وكانوا لوقوع ما تومئ إليه من الأحداث ناظرين.

فإن يكونوا جهلوها فهذا هو المحال، أو يكونوا علموها وآثروا كتمانها، فلماذا

---

١ . راجع الطبقات الكبرىٰ ١: ١٦٠ ـ ١٦١.

الكتمان؟ أو يكونوا أنساهم إيّاها الشيطان، فذاك إذاً إلى حين، حتّىٰ يتكشّف الزمن عن أسرارها، وتنتفض في ذا كراتهم بالحياة ما أن يجيء النبي الموعود.

أو يكونوا رأوها تهاويل أقاويل زيّفتها ادّعاءات الكهّان، فكيف ولهم بالكهانة إيمان راسخ يسلكها في الحقائق المقرّرة التي تنأىٰ بها عن مظنّات الادّعاء؟

قيل: والكهانة أصلها نفسي، وهي تكون في العرب على الأكثر، وفي غيرهم علىٰ وجه الندرة، تتولّد علىٰ صفاء المزاج الطبيعي، وقوة مادة نور النفس، وتتعلّق بصفة النفس، وقمع شرّها بكثرة الوحدة، وإدمان التفرّد، وشدّة الوحشة من الناس، وقلّة الأُنس بهم.

فإذا تفرّدت النفس فكّرت، وإذا فكّرت بَعُدَت، وإذا بعدت لحظت بالنور الثاقب، وربما قويت فأشرفت علىٰ دراية الغائبات، واستخرجت أخبار المستترات.

وكيفما نظر إليها، فلقد كانت من العرب قبل الرسالة النبوية بمقام يقين، وكم احتوىٰ تراثهم من ذكر كهّان وكاهنات، ذاع صيتهم على القرون إذ تنبّأوا بوقائع ذات خطر، ذكرت آثارهم أن قد صدّقتها الأيام.

* * *

سطيح[١] الكاهن

هناك «سطيح» الكاهن، الذي كان عجباً في خلقه، جسمه كتلة من لحم، ليس له أعضاء ولا جوارح، وما به من عظم إلّا قشرة رقيقة هي أعلىٰ جمجمته.

---

١ ـ ذكر ابن عساكر أنّ اسمه هو الربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن الأزدي، وأمّه ردعاء بنت سعد بن الحارث الحجوري، كان يسكن الجابية، وقيل: كان من بعد لقمان بن عاد. ولد في زمن سيل العرم، وعاش إلىٰ ملك ذي نواس، وذلك نحو من ثلاثمائة سنة.

قال ابن عباس: لم يكن شيء من بني آدم يشبه سطيحاً، إنّما كان لحماً علىٰ وضم، ليس فيه عظم ولا عصب، إلّا في رأسه وعينيه وكفّيه، ولم يكن فيه شيء يتحرّك إلّا لسانه. راجع البداية والنهاية ٢: ٢٥١.

عندما ارتجس[١] الإيوان، واقترنت به خوارق تعييٰ عن فهمها العقول، غمّ كسرى ما وقع، وهاله ألّا يعلم أحد من موابذته شيئاً ممّا عسىٰ أن تومئ إليه هذه الأحداث من أسرار قدره، فبعث إلى ذلك الأشوه تلميذاً له هو «عبدالمسيح» الغساني، لعلّه أن يجد عنده التأويل.

وأصبح الغساني عند «سطيح» فحيّاه، فلمّا لم يردّ عليه السلام قال:

أصمّ أم يسمعُ غِطْريفَ اليَمن؟

فانتفض «سطيح» وخرج صوته كالفحيح: يا عبدالمسيح، جئت علىٰ جمل مشيح، إلى سطيح، وقد وافى على الضريح.

وكان صدره يحشرج بآخر أنفاسه، وأضاف ولهاثاته تزاحم كلماته: بعثك ملك ساسان، لارتجاس الإيوان، وخمود النيران.

ثم أعلمه أنّ ذلك إيذان بزوال ملك الاكاسرة علىٰ أيدي المسلمين[٢].

* * *

وهناك كاهنة اليمن، التي التقت بعبد المطلب في رحلة من رحلاته، فتفرّست في إحدى كفّيه، وقالت: أرىٰ ملكاً، وتفرّست في الأخرى، وقالت: أرىٰ نبوّةً.

وهناك «طريفة الخير»، تلك الكاهنة من حمير، التي انتبهت ذات ليلة وهي مذعورة تهتف: رأيت غيماً أبرق، ثم أصعق، فما وقع علىٰ شيءٍ إلّا أحرق، ولم يبق إلّا الفرق.

وأسرعت إلى عمرو بن عامر الملك، تنذره بوشك انهيار سدّ مأرب، فما مضىٰ على السدّ وقت يذكر ـ فميا تحدّثت به الأخبار ـ حتّى انهار.

---

١. ارتجس البناء: تحرّك واهتزّ فسُمع له صوت.

٢. راجع البداية والنهاية ٢: ٢٤٨ وما بعدها، وسمط النجوم العوالي ١: ٣٠١ وما بعدها.

اللوحة الخامسة

دموع في الحرم

لعلّها ما بكت يوماً من قبل كمثل بكائها في ذلك النهار.

مرّت بالحرم فاذا هي تسمع فريقاً من السادة يسرّون النجوى، يأتمرون بأبيها ليقتلوه: إذا مرّ محمد، فليضربه كلّ واحدٍ منّا ضربةً.

هيئتهم المريبة كوحوش فلاة، وضواري غاب، كحزمة من براثن ومقالب، ومن مناسر[1] وأنياب، همساتهم الجوفاء كوسوسة شياطين، كفحيح ثعابين.

ولم تنتظر أن ينفثوا بقية السموم، وهل من حاجة للانتظار، وفي أيديهم سيوفهم مشحوذة، من فرط الحدّة والانصقال تلمع كالشعاع؟

وأسرعت تبارح المكان، سابقت خطاها الدموع، وأخبرته الخبر: «تركت الملأ من قريش قد تعاقدوا في الحجر، وحلفوا باللّات والعزّىٰ ومناة وأساف ونائله، إذا هم رأوك يقومون إليك فيضربونك بأسيافهم ليقتلوك...».

تماماً فعلت كذلك الرجل الذي سعىٰ إلى موسى يحذّره البقاء حيث كان: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّاصِحِينَ﴾[2].

لكنّ أباها لم يخرج خروج الكليم، مال عليها وقال بهدوء: «يا بنيّة لا تبكي».

---

١ . المناسر: جمع مَنْسَر ومِنْسِر، وهو للطير الجارح مثل المنقار لغير الجارح.

٢ . القصص: ٢٠.

فطابت نفسها بعبارته التي فاض كلّ حرف من حروفها بالحنان، وجفّت الدموع، وأشرق في محيّاها الوضيء الابتسام.

ومع ذلك، فقد كانت دائماً علىٰ ثقةٍ لاتتزعزع أنّ ربّه لابدّ دافع عنه شرّ ما يبيتون ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾[١].

فإذا كانت شؤونها قد انفرطت من عينيها دون إرادة انفراط، فليس مسيلها نشيج فزع بقدر ما هو نظيم حبّ كبير.

أمّا محمد فقد انطلق إلى المسجد علىٰ طمأنينة ويقين، حتّىٰ إذا قارب عقارب الدسيسة[٢] أخذ حفنةً من تراب ورمىٰ بها نحوهم، وهو يقول: «شاهت الوجوه».

فكأنّه ألقىٰ بهم في جبٍّ بلا قرار، كأنّه حبسهم بكلماته هذه وراء أسوار شاهقة ضخمة من الصمّ والخرس وعمى العيون دونها سدّ يأجوج ومأجوج!

وانطلق من بينهم إلى موضعٍ قريب، وقف فيه خاشعاً يصلّي لله، وهم لا يرونه ولا يدركون أنّه منهم علىٰ ملمس أنملة[٣] لا علىٰ قيد ذراع.

لقد تعطّلت فيهم كلّ أعصاب الإحساس.

* * *

فلماذا إذاً كان بكاء الزهراء؟

أمن جزعٍ ولوعةٍ؟ أمِّنْ همٍّ وقلقٍ؟ أمِّنْ خوفٌ وفرق؟ أمِّنْ توقّع نزول شرٍّ مجهول؟

كلمة بذاتها من هذه لا تقدّم الجواب، لا تحيط وحدها بمعاني النحيب، لا تنضح ـ مفردةً ـ بكلّ الأسباب.

فكما يقطر ماء الأعين حين الحزن يقطر أيضاً حين الابتهاج، قد يهتن عند الألم

١ . التوبة: ٣٢.

٢ . الدسيسة: ما أُكمن من المكر والعداوة.

٣ . الأنملة: بتثليث الهمزة والميم: رأس الأصابع.

كما عند انقشاع الأوجاع، قد ينبجس بانبجاس يأس مكتوم، بانتفاضة رجاء نائم، بانفجار غيظ مكظوم، بانفراج الضيق عن رضاء، بعربدة اللهفة علىٰ ضياعٍ مفقود.

مع مرارة الإخفاق، ومع حلاوة النجاح، فهو مرتع لنقائض الأحاسيس خصيب، والدموع تعبير منظور، كلام سائل، شعور مصهور.

ولحظة أن بكت فاطمة، ذلك النهار، كانت عبراتها[1] التي تجري علىٰ وجنتيها[2] حسرات تقفو حسرات، كانت رثاءً صامتاً لإيمانها بمكرمات قومها الذي مات.

أم أين ما أُثر عنهم من مروءات؟

ذهب مع الريح! تبدّد كهباء، أراقوه كما تُراق قطرات ماءٍ علىٰ رمضاء صحراء فتبتلعها الرمال.

وماذا يقال في قومٍ اجتثّوا شرفهم بأيديهم ـ طائعين ـ من الأساس، وتبدّلوا الحقّ بالباطل، والظلم بالعدل، والغدر بالوفاء؟

فإن يعمدوا إلى البطش برجلٍ واحدٍ أعزل، وهم جماعة مسلحة ـ لا يلاقونه لقاء كُفْء لكُفْء، ولا يواجهونه في وضح الرؤية ـ لضربٌ من النذالة مقيت، في أيّ اعتبارٍ وبأيّ معيار.

لقد تهاووا إذاً في الخسّة ولؤم الطباع إلى أبعد قاع، ولا تعليل يملكونه لهذا الائتمار.

فالوفاء قيمة معنوية مطلوبة، رفضها ـ مهما ألحّت الدواعي ـ لا يقبل الاعتذار، والغدر قيمة معنوية مرفوضة، طلبها ـ مهما ضغطت الظروف ـ لا يقبل التبرير.

لَكَم تحسّرت فاطمة لفداحة فجيعتها في مناقبهم المهدرات! كم أحسّت تلهّفها يطحن قلبها طحن رحىً، فتسيل عصارته من مجرى الأدمع، ويتناثر رذاذها مع كلّ شهيق وزفير!

* * *

---

١ . العَبَرات: الدموع.

٢ . الوجنة: الخدّ.

وليست هي وحدها التي عانت الحسرة والالتياع[١]، أيّما امرئ غيرها بمكة كان حريّاً به أن يعاني نفس المعاناة، فينتصف للحقّ لو كان له ذماً[٢] ضمير، أو ذكر من مزاياهم ما سجّل لهم يوم حلف الفضول[٣].

فذاك حلف مشهود، عصيّ شأنه على الإغفال إذ رفع رؤوسهم فوق الهام، وفاخروا به أهل جزيرتهم كافّةً، من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، ومن أبعد موقع في الجنوب إلى أبعد موقع في الشمال.

وأنّى لقريش ـ خاصّةً وعامةً ـ أن تغفله أو تنساه؟

فأولئك الذين بلغوا الآن من شبابها مبلغ الرجولة حضروه وكانوا شهوده، وأولئك الذين تأخّرت بهم السنّ ولم يتخطّوا عتبة الشباب بعد، لا يبرحون يلهجون به لهج تمجيد، ومن ورائهم العرب كافّة تنظر إليهم من خلاله بإكبار.

يروي الرواة: أنّ رجلاً من زبيد مطله قرشي ذو مقام وشأن بثمن بضاعة باعها له، فاعتلى جبل قبيس، وصاح يستغيث:

يا للرجالِ لمظلُومٍ بضَاعَته ... ببطْنِ مكّةَ نائِي الحِمَىٰ والنَفَر
إنّ الحرامَ لمَنْ تَمَّت كرامتُهُ ... ولا حَرامَ لثوبِ الفاجرِ الغَدِرِ[٤]

وسمع النداء أشراف قريش وهم في مجالسهم عند الحرم، فأخذتهم المروءة، وراحوا يتدبّرون ما عساهم يفعلون، عندئذٍ دعاهم الزبير بن عبدالمطلب إلى

---

١ . كذا في النسخة المطبوعة في دار الزهراء، بيروت. ولم نعثر على أصل لغوي لها.

٢ . كذا في النسخة المطبوعة في دار الزهراء، بيروت. ولم نعثر على أصل لغوي لها.

٣ . حلف الفضول: معاهدة تعاون وتآزر بين قبائل من قريش: بني هاشم، بني عبدالمطلب، بني أسد بن عبدالعزّىٰ، بني زهرة بن كلاب، بني تيم بن مرّة، على ألّا يجدوا بمكة مظلوماً، سواء كان من مكة أو من غيرها، ممّن سكنها أو ممّن دخلها من سائر الناس، إلّا قاموا وكانوا على من ظلمه حتّى تردّ إليه مظلمته. وقد جرت زمن الجاهلية في دار عبدالله بن جُدعان بن عمرو بن كعب بمكة. راجع سمط النجوم العوالي ١: ٢٣٢.

٤ . البيتان من البسيط، نقلهما مع غيرهما العاصمي في سمط العوالي ١: ٢٣٤ باختلاف في بعض الألفاظ عن الزبير بن بكّار.

الانتصاف لكلّ مظلوم من ظالمه وإن كان الظالم هو القريب، والمظلوم هو الغريب.

قال الزبير:

حَلَفْتُ لنَعْقِدَن حِلْفاً عليهم ... وإنْ كُنّا جميعاً أهلَ دارِ
نُسمّيهِ الفُضُولَ إذا عَقَدْنا ... يَعِزُّ بهِ الغَريبُ لَدَى الجِوَارِ
ويَعلَمُ مَن حَوالي البَيْتِ أنّا ... أُباةُ الضَيْمِ نَهجُرُ كلَّ عارِ[1]

وفعلوا، اجتمعوا وتعاقدوا وحلفوا:«لنكوننّ يداً واحدةً على الظالم مع المظلوم، ما بلَّ بَحرٌ صُوفَه، وما رسا مكانيهما حراء وثَبير».

أمّا اجتماعهم فإنّه التأم بدار عبدالله بن جُدْعان[2]، وإنّه عندئذٍ لصاحب شرفٍ وفضل، ومن المكرمات وطيب الشيم في ذروة عليّة، ذاع بها في العرب ذكره، وتضوّع عطره، حتّى لنرى أُمية بن أبي الصلت[3] ـ وهو موحّد انشغل عن الدنيا ومن فيها بأمر الآخرة ـ قد نظم شعراً جرىٰ بمديحه وحمده، جاء فيه:

أأذكرُ حاجَتي أم قد كَفاني ... حياؤُك؟ إنَّ شيمتَكَ الحياءُ
إذا أثنىٰ عليكَ المَرءُ يوماً ... كَفاهُ من تَعرُّضِكَ الثَناءُ

---

١ . الأبيات من الوافر، ذكرها العاصمي في السمط ١: ٢٣٦.

٢ . عبدالله بن جُدعان بن عمرو بن كعب، سيد بني تيم، من الكرماء الأجواد في الجاهلية، وقد أدرك النبي ﷺ قبل النبوة، وكانت له جفنة يأكل منها الطعام القائم والراكب من عظمها، وهو الذي يخاطبه أُمية بن أبي الصلت بأبيات اشتهر منها قوله:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك؟ إنّ شيمتك الحياء

راجع البداية والنهاية ١: ٢٠٢.

٣ . أمية بن عبدالله أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي، شاعر جاهلي من أهل الطائف، قال الأصمعي: ذهب أُمية في شعره بعامة ذكر الآخرة. كان مطلّعاً على الكتب القديمة، ولذا كان ممّن حرموا على أنفسهم الخمر ونبذوا عبادة الأوثان، رحل إلى البحرين فأقام بها سنين عديدة حتّى ظهر الإسلام فعاد إلى الطائف يسأل عن الخبر. فقدم مكة وسمع من النبي ﷺ آيات لكنّه انصرف عنه وخرج إلى الشام. ثم عاد إلى بلدته فعلم بوقعة بدر، فامتنع وأقام بالطائف حتّى مات سنة ٥ للهجرة. وذكر ابن قتيبة: كان أُمية يُخبر أنّ نبياً يخرج قد أظلّ زمانه، وكان يؤمّل أن يكون ذلك النبي! راجع خزانة الأدب للبغدادي ١: ٢٤٤ وما بعده، البداية والنهاية ٢: ٢٠٥ وما بعده.

كَــريمٌ لا يَــغيره صــباحٌ   عن الخُلُقِ الجَميلِ ولا مساءُ[١]

وكان حلف الفضول شامةً بيضاء في جبين الجاهلية الأغبر، عنواناً مضيئاً على الوفاء ـ من أجل الحقّ ـ بالحقّ لأهله، وليس من أجل نصرة قرابة ولا عصبية، بسمةً مشرقةً علىٰ فم قريش المكفهرّ[٢] بالشرك والغواية، فخراً للكبار فيها والصغار ـ من شهده كمن لم يشهده ـ يتيهون به علىٰ أبناء غيرها من القبائل، حتّىٰ لقد أثر أنّ الرسول قال:

«لقد شهدت في دار عبدالله بن جُدعان حلفاً ماأحبّ أنّ لي به حمر النعم، ولو دُعِيَ به في الإسلام لأَجبتُ»[٣].

* * *

لكن أولئك الأشراف نقضوا ما أبرموه، نفوا عن أنفسهم ـ طائعين ـ الشرف الذي أسبغه عليهم الحلف الكريم، بل انسلخوا أيضاً من إنسانية الإنسان كما ينسلخ من إهابه[٤] أُفعُوان[٥].

ولقد وقعت فاطمة منهم علىٰ معالم عديدة لهذا الانسلاخ، فليس ائتمارهم ذاك بأبيها في الحرم هو أول ائتمار ولا آخر ائتمار، تكرّرت وتواترت ألوان العدوان.

ما من يوم مرّ طالعوه فيه بأمان أو بما يشبه الأمان، كانو يطاردونه، إن لم يكن بالمنون فبالأذىٰ والاضطهاد، وكان يلقاهم دائماً بالكلمة الطيّبة، ولا يلقونه إلّا بخبائث الأقوال والفعال، يصلهم ويقطعونه، يقدّم لهم الحبّ والخير والسلام،

---

١ . ذكر الأبيات أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني ٨: ٣، وهي تسعة أبيات من الوافر، ويبدو أنّ المؤلّف قد التقط منها ما تظهر خلاصة الكلام.

٢ . المكفهرّ: المنقبض، الكالح.

٣ . أخرجه أحمد ١: ١٩٠، ١٩٣، البخاري في الأدب المفرد: رقم (٥٦٧).

٤ . الإهاب: الجلد ما لم يدبغ.

٥ . الأُفعُوان: ذكر الأفعىٰ.

ويقدّمون له الحقد والشرّ والخصام.

وأيقنت الابنة أنّهم لا يرعوون عن طغيانهم الذي سدروا فيه، وأنّىٰ لهم الارعواء عن جورٍ لن ينحسر مدّه، ومن ورائهم بحار من أحقادهم تمدّه بمثل الطوفان؟

كلا، لن يغمدوا دونه أدوات حربهم ما ظلّ يدعو إلى رسالة السماء.

كلا، لن يكفّوا عواديهم عنه وإن أتاهم على الحقّ بألف برهان وبرهان

وفيما نخال، كان أشدّ أسلحتهم فتكاً سلاح العناد، وهل أظهر بياناً علىٰ إسرافهم في اللجاج، وغلوّهم في خلافهم الضالّ، من مطالبتهم إيّاه بما يخالف طبيعة الأمور، ويدور في فلك المحال؟

قالوا له: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَٱلْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ﴾

قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾[١].

أفما تحقّ إذاً عليهم كلمات الله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَٱلْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ﴾[٢].

* * *

ومع ذلك فقد كان قلب الصغيرة الكبير يأسف لهم، ويأسىٰ عليهم، ويودّ لو نزعوا عن عنادهم الغوي الظَلُوم، وفاءوا إلى الهدىٰ والصواب.

ولماذا لا تأسىٰ فاطمة ولا تأسف وإنّهم منها لإخوة في الإنسانية قبل أن تجمعهم وإيّاها صلة رحم أو وشيجة قرابة؟

---

١ . الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣.

٢ . الأعراف: ١٧٩.

إنّها لتعجب لعقولهم كيف لا تهديهم والحقّ بيّن! ولإصرارهم كيف يمدّ لهم في الغيّ، والمشاهدة ـ فضلاً عن الفكر ـ تؤكّد لهم أنّهم يمعنون في الضلال!!

المرّة بعد المرّة كانت ترى أو تسمع أنّهم يكيدون لأبيها، ويمكرون به، ويعدون عليه ... والمرّة بعد المرّة كانت ترىٰ أو تسمع أنّ كيدهم يرتدّ إليهم، ومكرهم بهم يحيق، وعَدْوهم يبوء بالإخفاق.

ولم تفدهم تجاربهم المرّة.

وكم جبهتهم الآيات!

* * *

مرّ بهم يوماً يطوف بالبيت وهم جلوس، فتغامزوا به ساخرين، ثم مرّ ثانيةً فلمزوه وعابوه، ثم مرّ ثالثة فزادوه لمزاً وغمزاً وسخريةً، حتّىٰ لقد اشتدّ غضبه واحتقن وجهه، ولم يطق الصبر عليهم، فواجههم يخاطبهم وصوته وعيد:

«أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفس محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح»[1].

فروّعهم قوله، واضطربت في أجوافهم شغاف قلوبهم رعباً وفرقاً، حتّىٰ لقد أطلّ فزعهم من أعينهم وإن حاولوا جاهدين أن يتماسكوا ويغشوا ملامحهم المكفهرّة بمسحة من الهدوء، وقالوا كالنادمين: يا أبا القاسم، انصرف، فوالله ما كنت جهولاً.

* * *

يوماً آخر لجّت بهم سفاهتهم لجاجة لم يملكوا لها دفعاً من فرط بغضهم له وحقدهم عليه، وقد رأوه يصلّي، وعلىٰ مقربةٍ منهم فرث وروث ودم لجزور نحرها بعض الناس، فحرّض أبو جهل مجالسيه: أيّكم يأخذ هذا القذر فيجيء به، فإذا سجد محمد وضعه بين كتفيه؟

---

١ . سيرة ابن هشام ١: ٢٨٩ ـ ٢٩٠، دلائل النبوة للبيهقي ٢: ٢٧٦. كلاهما عن عبدالله بن عمرو، و«الذبح» لعلّه مجاز عن الهلاك.

فانبرىٰ منهم أشقاهم: عقبة بن أبي معيط يقول: أنا أفعل، واحتمل القذر فألقاه على النبي وهو ساجد، فانفجروا ضاحكين.

ولم يرفع محمد من سجدته، حتّىٰ أتت الزهراء فطرحت عن ظهره تلك البقايا، وهي تلحي القوم، وتذمّهم بما هم أهله، أمّا الرسول فما أن قضى الصلاة حتّىٰ التفت إلى العصبة الحاقدة، ثم رفع عينيه وكفّيه للسماء، داعياً الله:

«اللّهم اجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف اللّهم، عليك بأبي الحكم ابن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد، وأُمية بن خلف..»[١].

وبهتوا... سيطر عليهم الوجوم فبدوا كالأصنام، اختنقت ضحكاتهم في الحلاقيم، ولم يبق فيهم عصب واحد إلّا انتفض بالفزع والارتياع.

ومع ذلك فلا يكاد يجنّهم ليل حتّىٰ يتبدّد في أحلامهم ما لاقوا في نهارهم من ذلّة الفشل والانكسار، ثم لا يكاد يطلعهم صبح حتّىٰ تتجدّد خفّة عقولهم، وتزداد مع ارتفاع النهار.

* * *

ذات صحوة، اندفعت أُم جميل زوج أبي لهب، وهي شعلة من البغضاء والعداوة إلى النبي، حيث يجالس عند المسجد الحرام ـ كمألوف عادته اليومية ـ بضعةً من أصحابه، كانت قد سمعت أنّه أذاع في الناس أنّ ربّه أنزل فيها وفي بعلها كلاماً يقول:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَسَدٍ﴾[٢].

---

١ . أخرجه مسلم ٣: ١٤١٨ ب ٣٩ من أبواب الجهاد ح ١٧٩٤ وما بعده، والإمام أحمد ١: ٤١٧ كلاهما عن ابن مسعود. ويذكر أنّ في مسلم: «الوليد بن عقبة» وقد اتفق العلماء على أنّه غلط.

٢ . المسد: ١ ـ ٥.

ورأت في من رأت بالمجلس أبا بكر، فأقبلت تقول له وكلماتها تقطر ضغينة: أين صاحبك؟

فدهش الرجل، كيف لا ترى الرسول وإنّه لفي جواره؟ وهل ترى الضياء مقلةٌ[١] حشوها ظلام؟

وأردفت المرأة تقول وفي كفّيها فِهْرَي[٢] حجارة ثقيلين تلوّح بهما: ما شأنه ينشد فيَّ الشعر؟ لقد بلغني أنّه هجاني، ووالله لو أنّي وجدته لضربت فمه بهذين الفهرين!

فلم يزد أبو بكر على أن قال: والله، ما صاحبي بشاعر.

قالت: والثواقب إنّه لشاعر، وإنّي لشاعرة، ولأهجونّه، وأنشأت تهجو:

مُذَمّماً عَصَيْنا   وأمَرَهُ أَبَيْنا

ودينَهُ قَلَيْنا

فما أن برحت المكان وظلّها يدنّس الأرض أينما سارت، حتّى التفت أبو بكر إلى النبي يسأله: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟

قال: «ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عنّي»[٣].

وانكفأت حمّالة الحطب إلى حيث لقيت أخاها أبا سفيان بن حرب، تثور في وجهه، وتهيّج حفيظته، وتؤرّث نيران عداوته وبغضائه، قالت له ونظراتها شرر: ويحك! أما تغضب أن هجاني محمد؟ وقصّت الخبر.

قال لها كبير بني أُمية بلهجة المستعزّ المستكبر: سأكفيكه، وحمل سيفه واشتدّ يسعىٰ إلى غريمه.

فإن هي إلّا سُوَيْعة قطع فيها المسافة بين بيته وبين المسجد ذهاباً وعودةً حتّى ارتدّ إلى أخته مرعوباً يلهث، كأنّما كان يفرّ من جانّ.

---

١ . المُقلة: العين، وقيل: شحمة العين.

٢ . الفِهْر والفِهْرة: حجر صلب رقيق يستخدم عادةً في سحق الأدوية ونحوها.

٣ . تفسير القرطبي ٢٠: ٢٣٤ ـ ٢٣٥ في تفسير سورة تبّت.

وسألته وقد حسبته قد أنجز وعده: أقتلته؟

فردّ كمن يحشرج، وأنفاسه المبهورة تمزّق عبارته: أيسرّك يا أُخيّة أنّ رأس أخيك في فم ثعبان؟

قالت وهي في عجبٍ منه: لا، والله.

قال: كاد ذلك يكون الساعة، وقصّ عليها أنّه وهو يتسلّل بسيفه راعه أنّ أُفعوُاناً ضخماً، فاغراً فاه، يهمّ أن يلتقم رأسه لو أنّه دنا من الرسول.

* * *

لكن ما قاله لم يفلّ من حقد المرأة، وكأنّما سمعته بأُذن مخروقة! في كلّ لحظةٍ من حياتها كان غلوّها في حقدها علىٰ محمد لا يفارقها، ولا تستطيع النزوع عنه، كأنّه لها طعام وشراب وهواء.

فما استبدّت بها سخيمتها[1] تولول بين جوانحها وتزأر، إلّا شهقت وزفرت بغضها على الملأ، فجأرت بسبّ الرسول وعيب دينه والهزؤ به، ثم مضت تلقي التراب والشوك والحَسَك[2] عليه، وتحت قدميه، حتّىٰ تكون فاطمة ـ أغلب الأحايين ـ هي التي تخفّ إلى أبيها الكريم، فتزيل عنه ما ألقت المرأة، وترفعه من طريقه.

وما أطاق صدرها كتمان غلّها أن يظهر علانيةً لأهل مكة، إلّا مشت بالدسيسة سرّاً، في جنح الليل ووراء الجدران، بين محمد وقومه توسوس لهم، وتغريهم به، وتضيف في نفوسهم المريضة إلى ذخر حقدهم عليه.

كذلك ائتمرت بالرسول في ابنتيه رُقيّة وأُم كلثوم ـ وهما تحت ولديها عتيبة وعتبة ـ ائتمار قريش به، إذ راح بعضهم لبعض يقول: إنّكم قد فرغتم محمد من همّه، فردّوا عليه بناته فأشغلوه بهنّ.

ومضت تلوي عنان زوجها، وتسوقه أمامها مسلوب الحول والإرادة حتّى

---

١ . السخيمة: الضغينة.

٢ . الحَسَك: نوع من النبات الشائك، وقيل: العظم الدقيق من السمك.

استجاب، قال لابنيه: رأسي من رأسيكما حرام إن لم تفارقا ابنتي محمد. ووقع الولدان في الشرك الذي نسجته الأُم الحاقدة، ونصبه الأب الضالّ.

بل إنّ مغالاة المرأة في السفه والضغن والعداء قد طبعت بطابعها عتيبة، فإذا هو يمعن في الخسّة إلى أبعد الحدود حتّىٰ لأخذه الصلف، فقال: والله لآتينّ محمداً فلأوذينّه.

وعاج عن طريقه، وهو ماضٍ إلى الشام، فقابل الرسول، وسبّه سبّاً قبيحاً، ثم بصق عليه!

ولم يردّ له النبي الصاع بالصاع، وإنّما دعا الله: «اللّهم سلّط عليه كلباً من كلابك» ووجم الذين سمعوه، فاللعنة لابدّ ستطارد الغلام، وخشي أبو لهب هذه الدعوة علىٰ فتاه، فلمّا أن رحلوا إلى دار الغربة، وآن لهم أن يستريحوا ببعض الطريق، نادىٰ في أهل قافلته: أعينونا يا معشر قريش، فإنّي أخاف على ابني دعوة محمد.

فأعانوه، فرشوا لعتيبة، ثم بسطوا حوله فرشهم، ثم أناخوا إبلهم حلقةً تحيط به وبهم كالسور.

لكنّ الفتىٰ لم يغنِ عنه ما فعلوه، لم يصبح عليه الصباح، من دون الجميع عمد إليه في جُنّته تلك سبع فلاة، وضربه ضربةً فضخت رأسه، وألقت به في الجحيم[١].

❊ ❊ ❊

لكن حمّالة الحطب لم تعتبر، ظلّت وما هي عليه من حقد وبغضاء وسفاهة.

ولم يعتبر أيضاً سواها من أعداء الله، الأُلىٰ تمادوا في ملاحقة النبي بطغواهم، وإن أثبتت الأيام ألّا عقبىٰ لسلوكهم المتحيّف[٢] الجهول إلّا الوبال، لم يفيدوا من تجاربهم.

قالت ابنة للحكم بن أبي العاص لأبيها تلومه: ما رأيت قوماً كانوا أسوأ رأياً

---

١ . تفسير القرطبي ١٧: ٨٣ في تفسير أول سورة النجم. وفيها يقول حسان:

من يرجع العام إلى أهله　　فما أكيل السبع بالراجع

٢ . الحائف والمتحيّف: الظالم، الجائر.

وأعجز في أمر محمد منكم يا بني أُمية!

قال الرجل: مهلاً يا بُنيّة، لا تلومينا، وإنّي لا أُحدّثك إلّا ما رأيت، وروىٰ لها: أجمعنا ليلةً على اغتياله، فلمّا رأيناه يصلّي جئناه من خلفه لنقتله، فإذا صوت يطوف بأسماعنا ولا نعرف مأتاه ينذر: لتتفتتن وتقعن علينا جبل تهامة، فأخذتنا مثل غشية، فما عقلنا حتّىٰ كان محمد قد قضىٰ صلاته ورجع إلى أهله.

واستطرد: وتواعدنا ليلةً ثانيةً، فلمّا جاء نهضنا إليه، فرأينا الصفا والمروة قد التصقت إحداهما بالأخرىٰ بيننا وبينه.

واستبدّ ذات يوم بأبي جهل اغتراره، فأقسم لبعض أصحابه: لله عليَّ إن رأيتُ محمداً ساجداً أن أطأ عنقه!

وجاء محمد فدخل المسجد وهو يتلو: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ..﴾[1] وختم السورة.

واقتحم على عدوّ الله مجلسه، وقام يصلّي، فأسرع بعضهم إليه يبلغه: يا أبا الحكم، هذا محمد قد سجد.

فأسرع يسير نحوه، لكنّه ما لبث أن ارتدّ ممتقع اللون إلى أصحابه، يرتجف، فسألوه وهم في حيرةٍ من أمره: ما خطبك؟

قال ورعدته لا تفارقه، مشيراً إلى حيث يسجد الرسول: ألا ترون ما أرىٰ؟

قالوا: ما نرىٰ شيئاً.

قال: فأنا رأيت بيني وبينه خندقاً من نار.

فهل ارعوىٰ؟

ما أرعوىٰ، ولا ارعوىٰ أشباهه من أئمة الشرك، وقد طالعتهم المرّة بعد المرّة تلكم المرائي والمسموعات ظاهرةً محسوسةً تخرق أناس الأعين، وتثقب طبول الآذان.

* * *

---

١. العلق: ١ ـ ٢.

لا غرابة في أن تعمىٰ حمّالة الحطب عن الرسول وهو منها تحت العين فلا تراه، ولا أن يسمع الحكم بن أبي العاص ذلك الصوت المنذر الآتي من المجهول، ولا أن يرىٰ أبو جهل خندق النار.

لا غرابة، فهذه كلّها ظاهرات عادية صادقة، سواء أُرسمت بأحرفٍ من أبجدية الماديات أم من أبجدية المعنويات، وسواء أعُدّ حدوثها في المألوفات أم عُدّ في الأعاجيب، فإن تكن الأولىٰ فذاك، وإن تكن الثانية فالمعجزات بعض عدّة الأنبياء، ومع ذلك نراها طبيعيةً مألوفةً لم تكسر النواميس البشرية المعروفة.

لكنّ طائفةً استأسرهم التفكير «المادي» فافتتنوا بالتمسّح بالعلم، يزعمون أنّها ليست سوىٰ ضرب من تزيّد الرواة، وهرف[١] الخُرافة، وخمار[٢] الخيال، من ثَمَّ فإنّهم باسم النظرة العلمية يدخلونها في مجال المحال.

لأولئك لابدّ أن يقال: إنّ حقائق العلم الثابتة تدحض ما يزعمون، فالأمور علىٰ إطلاقها لا ينبغي أن تُترجم إلى أرقام وأعداد، ولا أن تُقاس بالشبر والفتر، أو توزن بالدرهم والمثقال.

والنفس الإنسانية أفسح رحاباً من أن تضيق إلّا بالقدرات الحسّية الخمس: العين والأُذن والجلد والأنف واللسان.

فوراء الشعور لا شعور، ووراء المنظور مستور، والقوى الظاهرة المادية ليست وحدها ما يشكّل سلوك الأشخاص، ويطوّر حركة الأحداث، إنّما القوى الخفية المعنوية تساندها، وتمكّن لها في البروز والظهور، بل الحقّ القول بأنّ المعنويات هي خاصة الدور الأول والأصيل في التشكيل وفي التطوير.

فلقد تحارب فيفوتك النصر وتبوء بالخذلان، وربّما تستسلم قبل أن يلتقي

---

١ . الهَرف: المدح بلا خبرة، ومنه يقال: لا تهرف بما لا تعرف.

٢ . الخُمار والخَمار: كثرة الشيء وزحمته، يقال: توارى الصيد عني في خمار الوادي، أي في شجره الكثير المزدحم.

السلاح بالسلاح، وربّما تفرّ من الميدان، ذلك لأنّك لا تملك غير المظهر الخارجي للمحارب، وإنّه لغثاء[١]: تفتقر إلى القدرة الداخلية المعنوية التي تلهمك الثبات، وتساند عتادك لتضرب وتصول وتجول، يعوزك الإيمان الوثيق بما تحارب من أجله وتناضل عليه.

وهل أوهىٰ روحاً، وأضعف عزماً، وأوهن شكيمةً[٢] من مقاتل لا يؤمن بهدفه؟

كذلك كان حال قريش وهي تحاول الكيد لمحمد والنيل منه. بحسّها الظاهر كانت تخدع نفسها وتوهمها أنّها عليه قادرة، بينما كانت بحسّها الداخلي موقنة أنّها تخوض معركةً خاسرةً.

وليس شيء أشدّ وبالاً علىٰ صاحبه من التزوّد في مواطن الجدّ والصراع المصيري بالأوهام، فحشودها مفتريات، وعتادها ادّعاءات.

يقولون: كاهن، وإنّهم ليعلمون أنّه ليس علىٰ شيءٍ من زمزمة[٣] الكهّان، ويقولون: مجنون، وهم يدركون أن ليس يضارعه رشيد بين أرشد الراشدين، ويقولون: شاعر، وما نظم وشعر، بل أتاهم بقرآن مجيد من عزيز حميد، يعجزهم الإتيان بآيةٍ من مثله وإن شرعوا لهذا أقلام الإنس والجنّ مجتمعين، ويقولون: كاذب، وهم الذين لقّبوه الصادق الأمين، بل يؤمنون أنّه علىٰ خُلُق عظيم، وأنّه جاءهم بما يشفي الصدور، وينير القلوب، وينزّه العقول أن تمتهنها عبودية حمقاء لأصنام يعرفون أنّها عمياء صمّاء خرساء، لا تملك لنفسها ولا لهم نفعاً ولا شفعاً، فلا هي تمنع ضرّاء ولا هي تنعم بجزاء.

فكيف يغني عنهم ما زيّفوا من أوهام؟ وهل يجدي عليهم سلاحهم المفلول[٤]؟

---

١ . الغثاء: الاضطراب.

٢ . الشكيمة: الأَنَفة، يقال: فلان شديد الشكيمة، أي أَنُوف أبيّ لا ينقاد. والشكيمة: الطبع.

٣ . الزَمْزَمة: الصوت الصادر عن الخياشيم والحلوق، من غير استعمال اللسان والشفة، وقيل: هو الصوت الصادر من بعيد وله دويّ.

٤ . المفلول: المنثلم.

وماذا عساهم يصيبون من محمد بما أعدّوا، وهو لا يطلب دنيا، ولا يسعىٰ إلى جاه أو سلطة أو مال؟

إنّه اذاً الغني وهم الفقراء، وإنّه القويّ وهم الضعفاء. كانوا يستضعفونه ولكنّهم كانوا يهابونه، إذا مشوا إليه العداء غدت أفئدتهم هواء، وإذا هاجموه رهبوه، وفرّ طريقهم من تحت الأقدام، كانوا كمن يقابل السيوف والسهام بأعواد من الحطب والهشيم، كمن يقاتل الأطياف.

* * *

فهم يناوئونه[١] وفي أخلادهم ـ بكلّ مقاييس القيم العقلية والخُلُقية والقبلية التي لا يختلف عليها منهم اثنان ـ يعلمون أنّ الجدير بهم أن يَدَعُوه وما هو فيه إن لم يكن الأجدر أن يساندوه، وهم يحسّون في دخائلهم إذ يناوئونه أنّهم يخونون هذه القيم ويظلمونه وإن كانوا ـ حرصاً على ظهورهم بالتفوّق عليه، وأنّه لفرد وهم أُمة، ومخافةً علىٰ كبريائهم أن يعيّروا بالتخاذل ـ قد جهدوا لكبت هذا الإحساس أن يفتضح للناس.

فما حيلتهم في وضعهم هذا الشاذّ، الذي يشدّهم فيه إلى جانبين متعارضين: اعترافهم بتلكم القيم وتنكّرهم لها في نفس الآن، هذا يشدّهم إلى جانب وذاك يشدّهم إلى الجانب المضادّ؟

لاحيلة.

إنّهم إذاً ليتمزّقون، وإنّ نفوسهم لتنشطر وتنشقّ كلّما التقوا معه علىٰ خلاف، ولا معدى لها عن الانشقاق، وما اختزنوه في أعماقهم وكبتوه مآله الظهور، فبعد الضغط الانفجار، وكلّ ما استقرّ في قاع اللاوعي واللاشعور لا محالة سيطفو علىٰ سطح الوعي والشعور.

---

١ . يناوئ: يعادي.

هنا لابدّ أن تعتريهم ـ لا إرادياً ـ حالات من القلق النفسي والتوتّر تؤثّر على مراكز الأعصاب فيهم، فتضطرب وظيفتها، وتفقد التوازن، وتختلّ قدرتها على إحكام التعبير عن أحاسيسها، سواء حين الإرسال وحين الاستقبال، ومن ثَمَّ فإنّهم يرون ولا مرئيات. ويسمعون ولا مسموعات، أو هم لا يرون ولا يسمعون وإن امتلأت عيونهم بالمشاهد وخرقت مسامعهم الأصوات.

وكذلك لله في عوالم النفس البشرية جنود، ينصر بهم من يريد، ويقهر بهم من يريد ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[1].

---

١ . المدّثّر: ٣١.

اللوحة السادسة

الموحّدون

أن يختلف الأسوياء من الناس على المعقولات فإنّه أمر نسبي، مبرّر ومقبول، لا يضير العقول، ذلك لأنّه اختلاف طبيعي، يجيء نتيجة لمدىٰ إحاطتهم بالأمور، أو لتباينهم في الإدراك، أو لتفاوتهم في درجات التقدير.

لكنّهم لا يختلفون على المحسوسات وإن لم يكونوا من حدّة حواسهم علىٰ درجةٍ سواء، ذلك لأنّ الحواس بعضها لبعضٍ ظهير، بل بعضها عن بعضها عوض وبديل.

فالذي لا يسمع لا يصعب عليه معرفة ما يقال، بأن يطالع بنظره ما ينطبع من انفعالات علىٰ ملامح الوجوه، وبأن يتابع الكلمات والمعاني في حركة الشفاه ... والذي لا يبصر يستطيع أن يشهد بالسمع ما تعجز عن مشاهدته عيناه، فليست العين هي التي ترىٰ، وليست الأُذن هي التي تسمع، ولكنّهما أداتان لنقل المرائي والمسموعات إلى الأعصاب البصرية والسمعية في المخّ، حيث تترجم إلى مشاهد وأصوات.

وليس من العجائب في شيء أنّ أفراداً مصابين بالعمىٰ والبكم والصمم قد استطاعوا عن طريق التدرّب على استقراء الأعصاب أن يعيشوا حياتهم العادية كغيرهم ممّن لم يفقدوا ما فقدوه من حواس.

أمّا أن تكتمل لامرئ حواسه حادّةً مشحوذةً، ثم نراه لا يلمّ بما يقع في نطاقها من محسوسات، فذاك هو التعطيل الإرادي لقدراته الحسّية، أو المحال الذي لا يكون إلّا أن يشاء صاحب الحاسة ـ تظاهراً أو طواعية ـ أن يلزم نفسه إنكار الواقعي الحقيقي، ويأخذها بتصديق الوهمي المحال.

وكذلك كان موقف أهل مكة من الرسول، فلماذا هذا الإنكار؟

* * *

لقد[1] يكون للقوم عذر إذ ينكرون ما جاءهم علىٰ ألسنة بعض الرهبان والأحبار من أخبارٍ أعلنت عن نبوة محمد قبل أن يبعثه الله، لأنّها أخبار إنّما أتتهم من أطواء عقائد وأديان لا يؤمنون بها، فهي إذاً حريّة منهم بالإغفال دون الاهتمام، وبالإنكار دون الإقرار.

وهم قد يعذرون أيضاً حين تنبو بهم تكهّنات الكهّان التي تحدّثت متنبّئةً بظهور الدين الجديد وصفات نبيّه، إذ لعلّها ـ في رأيهم ـ ضروب من ضغث[2] القول تنفّس عن هزّات نفسية، أو مجرّد رجم بالغيب تحكمه الصدفة ولا تحكمه طبيعة الأُمور، ومن ثَمَّ فتلكم التكهّنات خليقة بإخراجها من إطار الحقائق، وإدخالها في نطاق المدّعيات، وهي هكذا أولىٰ بأن يفترض أنّها تخيب لا أن تصيب.

ثم لا تثريب لو أنّهم وضعوا في الحسبان أنّ هذه الأحاديث وتلك قد تناثرت آحاداً علىٰ منبسطٍ من المكانية فسيح، ومدىً من الزمانية غير قصير، فنقصتها القدرة على التماسك والالتحام، كمثل قطر الرذاذ الخفيف ما أن تسقط القطرة منه حتّىٰ تتبدّد في الهواء قبل أن تبلغ الأرض أو تتحوّل إلى بخار.

ثم هي لم تقابل إلّا فرادىٰ من الناس قليلين جدّ قليلين، واحداً هنا وواحداً هناك، فلم تقرّ ـ إن هي قرّت ـ إلّا في أخلاد أفراد متفرّقين، فعدمت قوة التجمّع

---

١ . كذا في النسخة المطبوعة.

٢ . ضَغَثَ الحديث: خلطه.

والتكتّل التي تلفت إليها الأذهان، ومن ثم عدمت عمومية الذيوع والانتشار، وأصبحت علىٰ مرّ السنين نسياً منسياً، أو هذياً ليس حقيقاً بالانتباه.

فإذا رؤي الأخذ بهذه التعلّات والأعذار، فما القول إذاً في أحاديث نفر آخرين ـ ليسوا على شيء من الرهبنة والكهانة ـ قد تناقلتها الألسن، وطارت بها الروايات، وسجّلتها الأثبات، وجرت في الناس مجرى الأمثال؟

ما القول فيما ذكره عن الرسالة السماوية قبل تنزّلها فريق من أصحاب العلم والرأي، بعضهم أظلّهم زمان النبي حتّىٰ أوشكوا أن يشهدوه، وبعضهم سبقوه بسنين وسنين؟

الثابت الذي تؤكّده الأسناد: أنّ أولئك ـ علىٰ قلّة عددهم ـ كانوا في قومهم ذوي مكانة ومقام، وكانوا يؤمنون بما يقولون، ولا يتوانون عن المجاهرة بالرأي الذي يرون وإن هو أغضب السادة والقادة، وخالف عقائد العامة والجمهور.

وأثر عنهم شعر نظموه، يبسط نظرتهم، ويظهر دعوتهم، تناشده الناس، وسارت به الركبان من مكانٍ لمكان حتّىٰ لأوشك أن يغطّي وجه الجزيرة، ولم يخف مبناه ولا معناه عن كثيرين ولا قليلين.

والعرب إذ ذلك أُمة ليست بقارئة، لكنّها أُمة حافظة راوية، وهي للشعر أحفظ، وبه أحفل، يتلقّاه الأبناء من الآباء بالرواية والتلقين، فلا يزال يتنقّل في الأجيال، جيلاً وراء جيل، عبر السنين والقرون.

والشعر مرآة صدقٍ لعصره، علىٰ صقالها ينعكس ما فيه، بكلّ حقائق أحواله وألوان آماله، ووقائع أخباره وخطرات أفكاره.

وما بقي إلى اليوم من شعر عصرٍ لم يبق قطّ مثله نثر، فهو ميسّر للاستظهار، وهو أحلى الكلام، أقوىٰ في النفس وقعاً وأثبت في الذهن موقعاً، وأسلس عبارةً، وأجمل صورةً، وأعذب كلمةً، وأندى نغمةً.

فلا عجب أن نراه يمثّل وسيلة الإعلام الأُولى التي لا تبزّها في الوسائل وسيلة، تبثّ الآراء وتزجي الأخبار، ولا أن نرى الشاعر ورواته، وأنّهم لموجّهو هذه

الوسيلة إلى حيث تغزو العقول وتلفح الأفكار.

فكيف إذن لا يقرّ في الأخلاد أنّ ما جاء من نظيم يُحدّث عن الرسالة، ويذكر الرسول، هو صدىً صادق لعصره، منيع على المراء، عصيّ على الإنكار؟

* * *

بل هو صدق لا ريب فيه، صورة حيّة بلاغية التعبير، قطعة من التاريخ، حقّ بمعناه إن لم يكن بمبناه.

وما أكثر المشاهد التي أمدّنا بها في هذا المقام التراث المنظوم، وها هو ذا، من قبيل التمثيل، مشهد لم تغفله الأثبات، ها هو خبر أُمية بن أبي الصَلت[١]، الشاعر الأشهر، عابد ثقيف، كما صوّرته الروايات.

قيل: نبا بجاهلية قومه، فشكّ في الأوثان، ورفض الشرك، واتّجه إلى غير ما يعبدون من أرباب.

وقيل: هجر الخمر، وحرّم الفواحش، وزهد الدنيا، ولبس المسوح.

وقيل: نظر في الكتب، وذكر إبراهيم وإسماعيل، وقرأ الحنيفية التي توحّد الله.

وقيل: كان محقّقاً يتحسّس معارف الراسخين في شؤون العقائد، والعالمين بالملل والأديان، وكان يرتاد لذلك البيع والأديرة، دنت أو شطّ[٢] بها مزار، ويجالس الأحبار، ويدارس الرهبان.

أمّا شعره الذي ألهمه وجدانه، فمعروف بالصفاء الروحي، ونقاوة النفس والضمير، إنّه ليشفّ شفيفاً عن إيمانه بوحدانية خالق الوجود، ويتحدّث بتصديقه بما بعد الموت من نشور وحياة، ويعلن عن حاجة العالم لدين جديد، ويؤكّد شوق البشر إلىٰ نبيٍّ يصلح ما أفسدوه.

وكان أُمية لا يكتم ما يعرف، بل يجأر به، نثراً وشعراً، في المحافل علىٰ رؤوس

---

١ . تقدّمت ترجمته.

٢ . شطَّ: بَعُد.

الأشهاد، وتناشد الناس ما كان يقول في كلّ مكان، ففيه سلاسة تيسّره للألسنة وتحبّبه إلى الأسماع.

منه في هذا المجال:

الحمدُ للهِ مُمسانا ومُصبِحنا بالخيرِ صَبَّحَنا ربّي ومَسَّانا
ربّ الحنيفة لم تَنفَدْ خَزائنها مَملُوءة طبق الآفاق سُلطانا
ألا نبيّ لنا منّا فيُخبّرنا ما بُعدُ غايتنا من رأسِ محيانا
بسينا يربينا آباؤنا هلكوا وبسينما نَقْتَني الأولاد أفنَانا
وقد علمنا لو أنّ العلم ينفعنا أن سوف يلحق أُخرانا بأولانا[1]

وكان يؤمن أنّ الحنيفية ملّة إبراهيم حقّ، فاتّبعها، وأخذ نفسه بما أدرك منها من بقايا وشذور، وراح يحثّ عليها الناس، قال: كلّ دينٍ يوم القيامة عند الله ـ إلَّا الحنيفة ـ زور.

* * *

إنّ قراءاته ومدارساته، وشيئاً في نفسه، كانت تلقي في روعه أنّ نبيّاً يظهر في العرب، مبشّراً بدينٍ هو خاتم الرسالات، فطمع أن يكون هو المبعوث بهذا الدين.

وعلىٰ بلوغه ما لم يكد يبلغه من المعرفة بالله أحد غيره من معاصريه، فإنّه ظلّ علىٰ نفس دأبه، يطوف بأصحاب البيع والصوامع، مجالساً مدارساً، لعلّه أن يزيد علماً، أو يقع عندهم علىٰ جديد.

ورحل آخر رحلات نشدانه الحقيقة، هذه المرّة كان في جماعةٍ من قريش بينهم أبو سفيان بن حرب إلى الشام، فلمّا مرّوا بربوة على جانب طريق سلكوه استمهل أصحابه أن ينتظروه، ومضىٰ عنهم إلى حيث لا يعرفون وجهته.

بخطيً حثيثة واسعة انطلق إلى التلّ فاعتلاه، ويمّم كنيسةً صغيرةً فوق القمّة، عند

---

١ ـ الأبيات من البسيط. راجع تاريخ دمشق ٩: ٢٨٥ ترجمة أُمية بن أبي الصلت.

بابها رقد شيخ أبيض اللحية والرأس من الشيب، فتناجيا مليّاً، ثم فارقه أُمية راجعاً إلىٰ رفاقه وهو كاسف البال[١] مهموم ... وواصل وإيّاهم السير.

وكما فعل في ذهابه فعل في إيّابه، ارتقى الربوة ثانيةً، وتحدّث والديراني العجوز، لكنّه عندما آبَ[٢] كان أسوأ حالاً، وعلىٰ هيئةٍ من الوجوم والهموم لم يروه عليها من قبل، كان باهت اللون، كالح الأسارير[٣]، فمه المفغور[٤] قد ماتت علىٰ شفتيه الكلمات، نظراته الجوفاء تنبعث من فراغ لتتّجه إلى فراغ، محيّاه كصفحة بيضاء لم يخطّ فيها يراع، وكان جامد الحركة، خطواته ثقيلة، مشيته خرساء، لكأنّه كان يسير في النوم، كأنّه غرس قدميه في الرمال.

وعجب لأمره، وأشفق عليه أبو سفيان، فأحبّ أن يخفّف عنه، أو يغريه ببثّه ما يعانيه، همس له: قد شققت علىٰ نفسك وعلىٰ رفقائك يا أُمية، فما بالك؟

وتلبّث به برهةً لا يسمع منه إلّا لهثات، ثم جاءه أخيراً ردّه، وقد ثاب إلى نفسه بعض ثوب، يجيبه في مرارة وضيق: خلّوني، فإنّي أرتاد علىٰ نفسي لمعادي.

فلم يفهم صاحبه منه، لكنّ أُمية ما لبث أن أسفر له عمّا في دخيلته، كأنّ قد أُكره علىٰ الإسفار، ينتزع من حلقه الكلام انتزاعاً، فيفضي بما أهمّه بصوتٍ خافت الجرس، مهتزّ النبرات: إنّ ها هنا راهباً عالماً أخبرني أن تكون بعد عيسىٰ ستّ رجعات، وقد مضت خمس وبقيت واحدة

ولقف نغبة[٥] من أنفاسه ثم أضاف: وكنت أطمع في النبوة، فلمّا رجعت أتيته قال: قد كانت الرجعة، وقد بُعث نبي من العرب، فيئست من النبوة، وأصابني ما رأيت.

---

١ . كاسف البال: سيّء الحال.

٢ . آب: رجع.

٣ . كالح الأسارير: عابس الوجه مكفهرّ.

٤ . فَغَر فمه: فتحه.

٥ . النُغْبة: الجرعة.

وانتهت الرحلة، وأغلق علىٰ أمل أُمية غلاف الكتاب[١].

* * *

عاد العابد الثقفي ومن معه إلى مكة، فإذا محمد قد بُعث، وإذا قلّة معه وكثرة عليه، وإذا الآراء في رسالته تتأرجح بقومه من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، بين متابعته وبين منازعته، إلّا ذلك النفير القليل الذين اهتدوا وأسلموا وجوهم لله.

عندئذٍ حدّث أبو سفيان صاحبه: هذا محمد قد بُعث!

قال أُمية: أما والله إنّه لحقّ فاتّبعه.

قال أبو سفيان: وأنت، ما يمنعك أن تتّبعه؟

فأخرج ما بقلبه، وأجاب: الحياء من نساء ثقيف، إنّي كنت أُخبرهنّ أنّي هو، فكيف الآن أتّبع فتىً من بني عبد مناف[٢]؟

بل الحسد ما قد منعه وليس الحياء، ولم يسلم، لم ينفعه علمه.

كان كمن نزل فيه قول الله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[٣].

ورحل ... انصرف عن متنزّل الرسالة السماوية، بعيداً إلى اليمن في أقصى جنوب الجزيرة، كأنّما فراراً بنفسه من الإيمان.

لكن ندمه علىٰ هذا الذي فرط منه راح يطارده بقية العمر، أينما ولّىٰ ورحل، أو حلّ ونزل، مطاردة ظلٍّ لظليل، لم يفارقه في يقظةٍ ولا منام.

فلمّا أن حضرته الوفاة، تحسّر وتلوّم، كما لم يتحسّر قطّ وأسباب الحياة مبسوطة حواليه، انتبه مرّةً وهو يعاني سكرات الموت، من غشيةٍ أخذته، فزجر نفسه ـ ولات حين زجر ـ أن استكبرت، فإذا هو بغير زادٍ ولا حميلٍ علىٰ طريق هذا الرحيل.

---

١. راجع تاريخ دمشق ٩: ٢٥٦ وما بعده، والبداية والنهاية ٢: ٢٠٦ وما بعده.

٢. راجع تاريخ دمشق ٩: ٢٥٩.

٣. الأعراف: ١٧٥.

وتقطّع قلبه حسرات، وترنّح لسانه يقول: لا مال يفديني، ولا عشيرة تنجيني.

ثم صحا مرّةً ثانيةً، فإذا هو في اللهفة غريق، وفي درك من يأسه بعيد سحيق، وهل لمثله مفزع من غضب الله إلّا رضا الله؟

وأقرّ بوزره وإصره، عسىٰ أن ينفعه الاقرار بالذنب والهوان: لا بريء فاعتذر، ولا قويّ فانتصر.

ثم أفاق مرّةً ثالثةً وإنّ بصيصاً من الأمل في رحمة الرحمن الرحيم يغريه بالضراعة والابتهال، فرفع بصره وكفّيه للسماء ضارعاً بالدعاء:

إنْ تَغفرِ اللّهم تَغفرْ جمّا وأيّ عبدٍ لك لا ألمّا[1]

ومضى إلى حيث لا يؤوب.

إن أمّا المغفرة فليست على الله بكثير، بل قد قيل: إنّ رسول الله قال فيه: «كاد أُميّة ليسلم»[2].

فلعلّها ـ وهي شهادة الشفيع ـ أن تهوّن هوانه، أو تُثقل ميزانه يوم الدين.

زيد بن نُفَيل[3]

وها هو أيضاً زيد بن عمرا بن نفيل، إنّه أحد النفر «الموحّدين» القلائل، الذين تلاوموا ـ قبيل البعثة النبوية ـ في عبادة الأحجار والأوثان، وأنكروا علىٰ قومهم ما

---

١. راجع تاريخ دمشق ٩: ٢٨٠، ٢٨٢ ـ ٢٨٣، والبداية والنهاية ٢: ٢٠٩.

٢. أخرجه ابن ماجة ٢: ١٢٣٦ ب٤١ من أبواب الأدب ح٣٧٥٧ و٣٧٥٨ عن أبي هريرة.

٣. زيد بن عمرو بن نفيل بن عبدالعزّىٰ القرشي العدوي، ابن عم عمر بن الخطاب، لم يدرك الاسلام، وكان يكره عبادة الأوثان،ولا يأكل ممّا ذبح عليها، وعُرف عنه أنّه كان يرفض وأد البنات، جاهر بعداء الأوثان بعدما استقرّ على دين إبراهيم وإسماعيل، ولم تستمله اليهودية ولا النصرانية، فتألّب عليه جمع من قريش فآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم، وقد وكل به عمّه الخطاب شباباً سفهاءً من قريش يطردونه خارج مكة. قال الواقدي: حدثني علي بن عيسىٰ عن أبيه عن عامر بن ربيعة قال: سمعت زيد بن عمرو يقول: أنا انتظر نبياً من ولد اسماعيل ثم من بني عبدالمطلب، ولا أراني أدركه، وأنا أؤمن به وأصدّقه، مات سنة ١٧ قبل الهجرة. راجع البداية والنهاية ٢: ٢٢١، والاعلام ٣: ٦٠.

يعبدون، وتواصوا بالنَفْر في البلدان التماساً للحنيفية: ملّة إبراهيم، وهدوا إلى التوحيد.

كان في قريش ذا مكانةٍ وقدرٍ معلوم، وكان ينشد الحقيقة الواحدة أيّ نشدان، بشفيف روحه، وصفاء نفسه، علم ما لم يكونوا يعلمون، أو ما قد أنساهم إيّاه الشيطان، فداس الشرك، ونبذ الأصنام، وحرّم الميتة والدم، ونهىٰ عن قتل الموؤدة.

في كلّ منحىً ومتّجه كان يرهف حسّه، ويصمد إلى خالق الوجود يناجيه: اللّهم لو أنّي أعلم أيّ وجهٍ أحبّ إليك لعبدتك به.

فإذا دخل الحرم انتحىٰ بعيداً عن أرباب القوم، وسجد علىٰ راحتيه، مستقبلاً الكعبة وقال: لبّيك حقّاً، تعبّداً وصدقاً[1].

وقد التمس زيد هداه فيما أدرك من الحنيفية، لكنّه ظلّ يرتاد مناهلها أينما كانت، عسىٰ أن يقع منها علىٰ نسيّ منسيّ فيزداد علماً، ويصدر وهو ريّان.

ولم يكن يخفي هذا الذي أدركه عن قومه، بل كان ينشره علىٰ رؤوس الأشهاد، كان يزري عليهم أن يعبدوا ما لا يضرّ ولا ينفع، ولا تقرّه العقول، وكان يسوءهم في آلهتهم، فيعيبها ويرميهم بالأفن[2] والسفاه، وكثيراً ما باهاهم متحدّياً، فقال: ما أصبح منكم أحد علىٰ دين إبراهيم غيري.

فكأنّما كان يردّد حينذاك بلسان حاله، وبمنطق الفطرة النقية ما أوحىٰ به الله من بعد، في محكم التنزيل إلى الرسول: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3].

وهل الحنيفية إلّا الإسلام؟

* * *

---

١ . راجع البداية والنهاية ٢: ٢٢١.

٢ . أفِنَ وأُفِنَ: ضعف رأيه.

٣ . الأنعام: ١٦١.

وضاق به القوم، ومقتوه.

ذات يوم، قبيل الرسالة، لقيه محمد وسأله: يا عم، ما لي أرىٰ قومك قد أبغضوك؟ فأجاب: أما والله لغير ثائرة منّي، ولكنّني أراهم علىٰ ضلالة.

* * *

وَرَقَة بن نَوْفَل[1]

وكان وَرَقة بن نوفل، وهو رفيق رأيه، يناصره ويعمل ما وسعه علىٰ تثبيته، كتثبيته ـ من بعد سنين ـ بلال بن رباح حينما راح المشركون يفتنون في تعذيبه ليحملوه على الشرك بالله.

أُثر عنه أنّه أنشد شعراً في زيد:

رَشَدتَ وأنعمتَ ابن عمرو وإنّما	تجنّبت تنّوراً من النارِ حاميا
بدينكَ ربّاً ليسَ ربٌّ كمَثِلِهِ	وتركِكَ جنّان الجبال كَمَا هيا
أقولُ إذا ما زرتُ أرضاً مخُوفةً	حنانيك لا تُظهر عَليَّ الأعاديا
حنانيك أنّ الجنّ كانت رجاءَهُم	وأنت إلهي ربّنا ورجائيا
أَدينُ لربٍّ يستجيبُ، ولا أرىٰ	أَدينُ لمن لا يسمعُ الدهرَ واعيا[2]

وليس هذا بما ينكر من ورَقة، إذ كان صاحب رأيٍ في دين قريش، لم يكن يخفيه وإن كان ليسوقه في ترفّق النصح، لا في عنف الإزراء.

ذكر أيضاً أنّه قال:

لَقَد نَصحتُ لأقوامٍ وقلتُ لهم:	أَنَا النذير فلا يَغرُركم أحد
لا تعبدوه إلهاً غير خالقكم	فإن دعوكم، فقولوا: بيننا حدد

---

١ . وَرَقَة بن نَوفل بن أسد بن عبدالعزّىٰ، حكيم جاهلي، اعتزل الأوثان قبل الإسلام وتنصّر، وقرأ كتب الأديان. وقد تقدّمت ترجمته.

٢ . الأبيات ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية ٢: ٢٢٦ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

سُبحان ذي العَرشِ سبُحاناً نـعوذُ بـه وقَـبلُ قَـد سَبَّحَ الجُـودي والجَـمد
مسـخّر كـلّ مـاتحتَ السـماءِ له لا يَـنبغي أن يـنادي مُـلكَهُ أحـد
لا شـيء مـمّا نـرىٰ تـبقىٰ بشـاشته يَـبقى الإله ويُـودَى المـال والولد

* * *

زيد بن عمرو

لم تطق مكة الصبر على زيد، تنمّر سادتها له، أغروا به عمّه الخطّاب، وكما خافهم الرجل على ابن أخيه أن يبلغوا منه ما يكره، خافه أيضاً على الناس أن يستفحل أمره بينهم، فيفتنهم عن الوثنية التي هم عليها، فمنعه من مخالطتهم، وحصره بين أسوار الصمت.

عندئذٍ نبا زيد مقامه.

وهل كان إلَّا ليبرم بهذه العزلة الفكرية التي تحرمه حقّ التعبير؟ أم يخون رأيه؟ أم يخذل ربّه؟

كلا، لن يرتضي أن يكون شيطاناً أخرس، وهجر البلدة الحرام، راح يضرب في الأرض حتّى انتهى إلى الموصل، ثم انثنىٰ منها إلى الشام، ثم انطلق فيها يجوب الأرجاء، ما يسمع بعليم بالدين في مكانٍ إلَّا سعىٰ إليه، لعلّه يجد عنده ما يشبع نهمه من غذاء الروح.

وفي مختتم طوافه، وصل إلى راهبٍ اجتمع له علم النصرانية، فيمّم رحابه، يدارسه ويصغي إليه عسى أن يعلّمه ممّا آتاه ربّه رشداً.

وسأله زيد عن أصحاب الأديرة والبيع والصوامع أيّهم أعرف بالحقّ، وأوعىٰ لدين إبراهيم؟ فالحنيفية توحيد، وما عرفه منها لا يوفي على التمام، وهو في حاجةٍ إلى المزيد.

غير أنّ الراهب صارحه: أنّ كلّ الذين رأيت من الأحبار والرهبان في ضلال،

وإنّك لتسأل عن دينٍ ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، لكن ... قد أظلّك زمان نبي، يخرج من بلادك، يُبعث بدين الحنيفية، فالحق به.

فأسرع زيد يغادر أرض الغربة، فلولا أن عاجله أجله علىٰ طريق العودة لالتحق بالرسول.

* * *

قُسّ بن ساعِدَة[١]

وها هو أيضاً: قُسّ بن ساعدة الإيادي، الشاعر الذي علت به السنّ، وزحفت به في المعمّرين إلى أقصى الأشواط.

الفتيان الأُولىٰ عاصروا شباب محمد بمكة قد عاصروا هذا الكهل، وربّما شهدوه، والأُلىٰ شارفت بهم فتوتهم مطلع النبوة لابدّ قد سمعوا عنه، ومن وراء أولئك وهؤلاء حشود وحشود أحاطوا بسيرته، ورووا من شعره ما ترامت به الأحاديث.

قيل: وفد الجارود بن عبدالله ـ وكان سيد قومه ـ علىٰ رسول الله، فسأله النبي الكريم إن كان معه من عبدالقيس من يعرف قساً، فأجاب: كلّنا نعرفه ... وأنا كنت أقفو أثره.

واستعاد ذكرىٰ حضرته، ثم أضاف: كأنّي أنظر أُمية يقسم بالربّ الذي هو له، ويخاطب الناس: ليبلغنّ الكتاب أجله، وليوفينّ كلّ عامل عمله.

ثم أنشأ يقول:

هَاجَ للقلبِ من هَواه ادّكارُ   وليالٍ خَلا لهنّ نهارُ

---

١ . قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي، من بني إياد، أحد حكماء العرب ومن كبار خطبائهم في الجاهلية، يعدّ من المعمّرين، طالت حياته، وأدركه النبي ﷺ قبل أن يُبعث، ورآه في عكاظ. يقال: هو أول من خطب متوكئاً على سيفٍ أو عصىً من العرب، وأول من قال في كلامه «أمّا بعد» مات علىٰ نحو ٢٣ قبل الهجرة. راجع البداية والنهاية ٢: ٢١٤ وما بعده، الاعلام ٥: ١٩٦.

وجـبالٌ شـوامـخٌ راسيات ... وعـيونٌ مـياهُهُنّ غِـزارُ
ونجومٌ تَلوحُ فـي ظُـلم الليل ... نَـراهـا فـي كـلّ يـومٍ تُـدارُ[1]

والذي قد ذكرت دلّ على الله نفوساً لها هدىً واعتبار.

وقد روى الرواة عنه أنّه رُئي مرّةً في ظلّ شجرة، وبيده قضيب من أراك ينكت به في الأرض، قرب قبر، ويقول:

يا ناعِيَ الموتِ والملحودِ في جَدَثٍ ... عَـليهم مـن بَـقَايا بـزِّهِم خِـرَقُ
دَعهم فـإنَّ لَـهُم يَـوماً يُـصاحُ بـهم ... فَـهُم إذا انـتبَهوا مـن نَـومِهِم فَـرِقُوا
حـتّىٰ يـعُودوا لحـالٍ غَـيرِ حـالِهم ... خَلقاً جديداً كما مِن قـبلِهِ خُـلقُوا[2]

كان قُس هاجراً للأوثان، يعرف الله، ويوحّد ذاته، ويؤمن بالبعث والحساب.

وما أكثر ما كانت له في هذا المجال أقوال جرت على الألسنة مجرى الأمثال!

ولم يكن يكتم ما يعرف، بل كان ينشره على المـلأ فـي المـحافل والنـدوات والأسواق حتّىٰ لأوشك أن يبدو وكأنّه موكول بنشر الايمان.

أُثر أنَّ رسول الله سأل عنه إذ افتقده في جماعةٍ من عبدالقيس أقبلت عليه، فقيل له: هلك.

فقال عليه الصلاة والسلام: «ما أنساه بعكاظ[3] علىٰ جملٍ أحمر، وهو يقول..»[4].

واستعان صحبه استعادة ما تحدّث به شاعر إياد آنذاك، فإذا أكثرهم لحديثه هذا حافظون واعون.

---

١. راجع البداية والنهاية ٢: ٢١٦ ـ ٢١٧.

٢. الأبيات يرويها ابن كثير في البداية والنهاية ٢: ٢١٩.

٣. عُكاظ: اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية، كانت القبائل تجتمع فيها كلّ سنة، ويتفاخرون فيها، ويحضرها شعراؤهم ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرّقون. قال الأصمعي: عُكاظ نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال، وبه كانت تقام سوق العرب. قالوا: كانت العرب تقيم بسوق عُكاظ شهر شوال ثم تنتقل إلى سوق مجنّة فتقيم فيه عشرين من ذي القعدة، ثم تـنتقل إلى سـوق ذي المجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج. راجع معجم البلدان ٤: ١٤٢.

٤. ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٢: ٢١٧.

ذكر أحدهم أنّ قس بن ساعدة خطب من شهدوا عكاظ يومئذٍ خطاباً عجباً، قال فيه:

أيها الناس، اسمعوا وعوا، فإذا وعيتم فانتفعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكلّ ما هو آتٍ آت، إنّ في السماء لخبرا، وإنّ في الأرض لعبرا، مهاد موضوع، وسقف مرفوع ونجوم تمور وبحار لا تفور، أقسم قس قسماً حاتماً، لا حانثاً فيه ولا آثماً: إنّ لله ديناً هو أحبّ إليه من دينكم الذي أنتم عليه، ونبيّاً قد حان حينه، وأظلّكم زمانه ـ قيل: وأشار بيده إلى نحو مكة ـ فطوبى لمن آمن به فهداه، وويل لمن خالفه وعصاه.

ومضىٰ في خطابه، فكان ممّا قاله: ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون، أرَضُوا بالمقام فأقاموا، أم تُركوا هناك فناموا؟

ثم سألهم الرسول: «فأيّكم يروي قوله؟».

فأنشدوه:

في الذاهبينَ الأوّلينَ ... من القُرون لنا بصَائِرْ
لمّا رأيتُ مواردًا ... للموت ليسَ لَها مَصَادرْ
ورأيتُ قَومي نحوها ... تَسعَى الأَصاغر والأكابرْ
لا يرجِعُ الماضي إليَّ ... ولا من الباقينَ غَابِرْ
أيقنتُ أنّي لا محالةَ ... حَيثُ صارَ القومُ صائرْ[1]

---

١ . روي الأبيات ابن كثير ٢: ٢١٨ وفيه: «يمضي الأصاغر..».

الفصل الثالث

- كانت تحمل همّ الجميع
- لن يصلوا إليك
- سنوات عجاف
- الخروج
- لا تبكي يا بنيّة

اللوحة الأُولىٰ

كانت تحمل همّ الجميع

الأيـام التـي مـرّت أخـيراً عـلىٰ رقـيّة وأم كـلثوم بـالدار، وجـدت فـيها الزهـراء بـعض العـزاء، أحسّت خـلالها شـعوراً بـالراحـة، يـهدهد عـواطـفها، ويربت علىٰ قـلقها بـالطمأنينة، ويـبدّد عـنها بـعض ضـيقها الذي تـعانيه، بـدت لها كطَيْف ابـتسامة، شـاحب الفـرحـة، يـلوّن جـانباً مـن ثـغر زمـانها المـمرور الحزين.

فالألم النفسي الذي تحمله وقر ثقيل ثقيل، وأن تتقاسم حمولها ثلاثتهم لأهون عليها، وأخفّ وطئاً من انفراد كاهلها بعبء كلّ الأثقال.

والمقرور[1] يكاد يهرأ لحمه ويخرق عظمه لذعُ البرد إن لم يكن له جار سـوى الزمهرير[2]، غير أنّه يكاد يتحرّر من لذع قرّة، أو يتخفّف من نخس صـرّة[3] لو أنّـه أفسح في جواره لرفيق، مقروراً أو غير مقرور.

فالجوار دثار، والدثار ينشط حركة الدم في العروق، والحركة دفء، واختلاط الأنفاس بالأنفاس مبعثة للحرارة، كاحتكاك الغيمة بالغيمة ـ وإن كانتا مثلوجتين ـ

---

١ . القرّ: البرد.

٢ . الزمهرير: شدّة البرد.

٣ . الصرّة: البرد الشديد. والنخس: الإصابة من البرد.

يولد شرارةً، كما ينبثق منها نور تتفتّق أيضاً عن نار.

* * *

أمّا خديجة، السيدة الفضلىٰ، فقد كان عبئها ممّا تنوء به الجبال.

كان قلبها الكبير يتّسع لكلّ الآلام، وكلّ الآمال. كانت تحمل همّ الجميع: همّ الدار، وهمّ الدنيا، وهمّ الدين.

همّ فاطمة الصغيرة التي لم تنعم بحلاوة مذاق تلك المرحلة الغضّة من عمرها الطريّ لعباً ومرحاً وضحكات، كما تنعم مثيلاتها الصغيرات، بل قد شاءت ـ برّاً بأبيها، وخشيةً عليه ـ أن تطفر من خفّة الطفولة إلى حدّ الكهولة، لتتبّع خطواته وهو يمضي علىٰ جمر الغَضَا[1] وشوك القتاد[2] في طريق دعوته إلى الله.

وهمّ ابنتيها الأُخريين: رقيّة وأم كلثوم، اللتين سرحتا من بيت الزوجية سراحاً غير جميل ولمّا تمسّ جسميهما ثياب الزفاف.

وهمّ كبرى الفتيات: زينب التي تراها كالمعلّقة بين السماء والأرض، لا تدري أيكون نصيبها كنصيب أُختيها أم سوف يعصمها من مثل ذلك المصير خُلُق زوجها، ابن خالتها: العاص بن الربيع؟

وهمّ ذلك الزوج العظيم، الذي هو همّ الدعوة وهمّ الإسلام، وإنّها لتكاد تموت قلقاً عليه في اليوم مرّة، ما بين كلّ غدوة وروحة، من فلق الصبح إلى غسق الليل، وهو يجهد لإبلاغ رسالة الهدىٰ إلى قلوبٍ غلفٍ، وعقول كمه، جهد من ينحت الصخر بأظفاره، أو يعبر بحراً أواذيه من جمر النار.

* * *

---

١ ـ الغَضَا: شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقىٰ زمناً طويلاً لا ينطفئ.

٢ ـ القتّاد: شجر صلب له شوك كالإبر.

ولم تأس الزهراء لفجيعة أُختيها في الزواج، ولا أسيت الفتاتان، ولا أسيت الأم أيضاً، وإنّها لتعلم أنّ سراحهما نعمة محسودة، تحسب في المسرّات والأفراح، وليس نقمةً معدودةً في المآسي والنكبات.

فبحسب هذه وتلك وهاتين أن خلصت الصبيّتان من محنةٍ أوشكت أن تحيق، فنجتا نجاة هاربٍ من أرضٍ سبخةٍ أوبأها الطاعون.

أم كيف عساهما كانتا تعيشان في وجار[1] الضباع؟ وهل هي حياة أن تظلّا تحت بعلين كعتبة وعتيبة، لا يوردان ولا يصدران إلّا عن سفه رأي لأبيهما أبي لهب، يلقمه إيّاه حقد زوجه حمّالة الحطب كما تلقم أم مصدورة وليدها ثدياً، يدرّ السقام والوبال؟

لقد كان الرجل وامرأته نوعاً من الأفاعي البشرية الثرية بسمّها الزعاف، لولا أنّهما لا يزحفان على البطون بل يدبّان على الأقدام، وكان لهما في كلّ محنةٍ أصابت محمداً باع، حتّىٰ عندما تعاهد بنو عبدالمطلب وبنو هاشم علىٰ حماية محمد من عسف قريش، وقف ذلك العمّ الخاسر وصاحبته الحاقدة في الجانب الآخر.

لكنّ الليل يتبعه دائماً نهار.

في جانب الأُفق المعتم الذي تراكمت عليه سحائب القنوط، طبقات طبقات، انفتحت كوىً من الرجاء، وها هو بعض الهدوء النفسي يخامر خواطر روّاد الإيمان وهم يرون يد التغيير بدأت تلمس بريشتها الزاهية بعض جوانب الحياة.

ظهرت قطرات ضوءٍ تلمح من بعيد كلمح البياض من أعين سود، تمخّض[2] الظلام عن بشائر فجر جديد.

ولا عبرة هنا بالعذاب البدني الذي اشتدّ أذاه، بل العبرة، ـ كلّ العبرة ـ في القضايا الإنسانية ودعوات الدُعاة، بالقدرة على التجلّد، والصبر على المكاره، والشعور

---

١ . وجار الضباع: جحرها.

٢ . تمخّض الظلام: أي انكشف.

المتجدّد بأنّ الخُطىٰ تزداد ثباتاً مع الأيام في انطلاقها إلى الغاية علىٰ طريقٍ غير مسدود.

فالعذاب وقود الكفاح.

وبلوغ الهدف لم يعد إحساساً مسطّحاً يعيش في المعنويات، ويداعب الأخيلة، ويخايل عيون الأخلاد ... لم يعد أملاً يُرتجىٰ، وحلماً من الأحلام، تجسّد وأصبح حقيقةً لها عمق وعرض وطول، تمثّلت في هذا وذاك، وأولئك وهؤلاء من الذين أقبلوا يبيعون حياتهم رخيصة، ويشترون الآخرة بالنصب والدم والمال.

فإن لم تكن بعد قوة مادية ذات أيدٍ فهي ذخر من التفاؤل والطمأنينة، وإن لم تكن وفرة ذات عددٍ فهي رصيد من الثقة والاعتداد، والتفاؤل والثقة زاد وعتاد.

وشعرت الفئة المستضعفة ـ وهي بحساب الأعداء لم تزد على أفراد ـ أنّ القافلة تسير نحو الإنجاز، إنّها الآن أقوىٰ من الآمال، فوق الآلام، أقدر على الثبات أمام جحافل[١] الشيطان في مضامير[٢] النضال، أشدّ استعصاءً على العنف والخوف، أكثر استهانةً بالسيوف والحتوف، أصلب عدداً من أن تذلّ وتنال.

قليلاً قليلاً تتّسع رقعتها، وتمتدّ على الأيام، إنّها كقوس الهلال الوليد، تنمو باطّراد، وما دام نموّ فلابدّ من تمام.

* * *

وغدت الدموع قطرات شموع، والضياء أخذ يزداد.

في دنيا البيت النبوي عادت الفرحة تظلّل الأبوين والبنات أن أخلف الله علىٰ رقيّة بزوجٍ كريم، وهل أكرم حسباً، وأرفع نسباً، وأسمح خلقاً، وأسخىٰ كفّاً من عثمان بن عفّان؟

وكان ابتهاج الزهراء قمةً وشأواً، فلا أدعىٰ لطرب مثلها من ذوات العمر النديّ

---

١ . الجحافل: مفرده جحفل، وهو الجيش الكبير.

٢ . المضامير: مفرده مضمار، وهو الميدان.

من زفاف عروس لعروس، فضلاً علىٰ أنّ أُختها الحبيبة هي العروس.

وفي ساحة الأحقاد القرشية، كانت الدعوة قد مضت تزيح الغشاوة عن بعض الأعين لترى النور، وتستلّ الغلّ من بعض الأنفس، وتمهّد تربتها ليحرثها الإسلام.

ولم يفد جبابرة الشرك شيئاً تشبّثهم بالتجبّر والعنت والعناد، ولا وطّد ركن وثنيّتهم عدوانهم الدائب على الذين شرح الله صدورهم للدين الجديد، ولا أجدىٰ عليهم إسرافهم الفاجر في تعذيب عبيدهم وإمائهم ومواليهم، الذين آثروا الموت على الحياة، وباعوا الدنيا واشتروا الآخرة، وأسلموا وجوههم لله، ولا نفعتهم محاولاتهم في النيل من صلابة الرسول.

بل إنّ سلوكهم هذا الذي يحارب الكلمة بالسلاح، وحرّية الفكر بالقهر، كان له ردّ فعل مضادّ، فهاهنا أسلم فرد وهناك آخر، من عُتاة أهل العدوان، أو من الأُلىٰ لم يكن خروجهم على الإجماع الوثني ليجول في بال.

فلعلّ أحداً منهم لم ينثلج صدر فاطمة لإسلامه كانثلاجه لدخول عمّها، عمّ أبيها وخَدين طفولته وصباه وشبابه: حمزة بن عبدالمطلب، المعروف بين الفرسان بشجاعة الرأي واليد والجنان واللسان، ولعلّ الله لم يقمأ[١] مَرَدَة الكفر كما أقمأهم بدخوله في زمرة الايمان.

وهل نسيت الصغيرة، أو نسي القوم، مؤمنهم وكافرهم، كيف لقي أبو الحكم بن هشام[٢] سيد بني مخزوم تحت بصر قريش وسمعها هواناً علىٰ يد ابن عبدالمطلب هذا، لم يلق مثله قطّ علىٰ يد غيره من الناس؟

---

١ . قمأ الله الشيء: قمعه.

٢ . عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي، أحد سادات قريش وأساطينها في الجاهلية، أشدّ الناس عداوةً للنبي ﷺ في صدر الإسلام، لذا سمّاه المسلمون أبا جهل بعدما كان يقال له أبا الحكم، واستمرّ في عناده للرسالة وصاحبها ﷺ حتّى كانت وقعة بدر الكبرىٰ، فشهدها مع المشركين، فكان من قتلاها سنة ٢ هـ. راجع الاعلام ٥: ٨٧.

فلقد مرغ أنف كبير المخزوميّين في التراب، ولم يبق بيت في مكة إلّا دخلته قصة ذاك الإذلال.

قيل: عاد حمزة يوماً من قنصه وفي عمامته ـ علىٰ مألوف عادته ـ ريشات تعلمه، كأنّها تاج يومئ إلى شدّة بأسه، واعتزازه بنفسه، فما انطلق إلى بيت الله ليطوف ـ كما اعتاد ـ قبل أن يذهب إلى داره بعد إيّابه من رحلاته، حتّىٰ سمع دبيب أقدام امرأتين تمشيان خلفه، تقول إحداهما لصاحبتها: لو علم ماذا صنع أبو جهل بابن أخيه فأقصر عن مشيته، ثم التفت إليهما، يسأل: وما ذاك؟

فعلم منهما، ومن غيرهما ما ساءه، قيل: صبّ أبو جهل علىٰ رأس محمد التراب ... ألقىٰ عليه فرثاً، وقيل: وطئ برجله علىٰ عاتقه.

فملكه الغضب، ومضىٰ متوشّحاً بسيفه إلى أبي جهل بنادي قريش، في المسجد حيث يسمر وأئمة الكفر من رفاقه، حتّىٰ إذا وقف عند رأسه، رفع قوسه وضربه به فشجّه شجّةً منكرةً، وصاح به: أتفعل ذلك بابن أخي؟

فبهت العقل الزنيم، وقال بلهجة تنضح بذلّه وصغاره قبل أن تفصح عن أسفه واعتذاره: يا أبا عمارة، لقد سفّه عقولنا، وسبّ آلهتنا.

فعصف حمزة وصريف أسنانه يترجم عن غيظه: ومن أسفه منكم؟ إنّي علىٰ دينه، أقول ما يقول، فردّ عليّ ذلك إن استطعت.

عندئذٍ قام رجال من بني مخزوم يحاولون مناصرة سيّدهم، كأنّما ليعيدوا إليه بعض ما أُريق من كبريائه تحت الأقدام، قال قائلهم: ما نراك إلّا صبأت يا أبا عمارة

فلم يبال كثرتهم، بل تحدّاهم: وما يمنعني وقد استبان لي منه؟ أنا أشهد أنّه رسول الله، وأنّ الذي يقوله حقّ، فامنعوني إن كنتم صادقين.

فاستخزىٰ أبو جهل، وأحسّ التخاذل، فآثر الانسحاب، قال لأصحابه المناصرين: دعوا أبا عمارة، فإنّي والله قد أسمعت ابن أخيه شيئاً قبيحاً، فكفّوا[1].

---

١. راجع سيرة ابن هشام ١: ٢٩١ ـ ٢٩٢.

وكان مَثَل حمزة ومَثَل أبي جهل حينئذٍ من الهداية والعماية كمثل من قال فيهما القرآن: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ فِي ٱلظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١] وصدق الله.

* * *

أمّا الرقعة البشرية للإسلام فقد بدأ ينحسر عنها الجمود، علىٰ غير ما حسب أصحاب الأوثان، كان عدوانهم الطاغي على المسلمين أشبه شيء بحجرٍ تلقيه في بركة آسنة، فيتحرّك ماؤها حلقات حلقات، نافضاً عن سطحه وغوره موات الركود.

رويداً رويداً، وعلى هون، توالت تيارات الدخول في دين الله، بقدر نشاط حركات النكال كان نشاط حركات الإقبال.

وكان محمد ـ في هذه الفترة المتقدّمة من مراحل الكفاح ـ حريّاً بأن يوفّر لتلكم البراعم المؤمنة من راحة النفس، وقرار البال، ما يهيء لهم القدرة على التفتّح والازدهار والإثمار، وأن يجنّبهم شرّ الاستئصال، وأن يحفظ عليهم الحياة، إذ هم النواة التي لن تلبث أن تصبح شجرةً فارعة الطول، ضاربةً بجذورها في الأعماق، غليظة الساق، فينانة[٢] الغصون، كثيفة الأوراق، تؤتي أُكلها بعد حين، وتنشر ظلّها على العالمين.

أفلا ينأىٰ بهم إذاً عن محنٍ خليقة بأن توردهم موارد التلف، وتوقعهم في فتنةٍ تهزّ خطاهم علىٰ مدرجة الإيمان؟

بلىٰ قد فعل، وما كان له إلّا أن يفعل، وإنّهم لبشر، فالضعف طبيعة إنسانية.

وليس الناس جميعاً في صلابة العزم، وقوة الإصرار، والصبر على اللّأواء[٣] بمرتبة سواء.

---

١ . الأنعام: ١٢٢.

٢ . الفَينانة: الشيء الطويل الحسن، كالشعر والغصن ونحوهما.

٣ . اللّأواء: الشدّة والمحنة العسيرة.

فلقد يجاوز العذاب بامرئٍ حدود القدرة على الاحتمال، فيصرعه الهلاك، ولقد يرى أحدهم ـ ليؤمن نفسه ـ أن يأخذ بالتقيّة فيخفي إسلامه، ويبدي ـ وهو كاره ـ ما يرضي السفهاء، فيفهم فعله علىٰ أنّه ارتداد... ولقد يفدح آخر ممّا يعانيه من قسوة القهر وعنف الضرّ ما يشفي به علىٰ حافّة الانهيار... ولقد يجد راغب في الإسلام في سلوك أولئك ما يفتر همّته، ويوهن رغبته، فإذا هو عندئذٍ مثل لغيره من الراغبين غير حميد، يدفعهم إلى التردّد إن لم يدفعهم إلى أن يظنّوا الظنون بالدين الجديد.

أفليس محمد بقادر ـ وهذه هي الحال ـ أن يبادر، حمايةً لمجتمعه المؤمن الناشئ، إلى علاجٍ سريعٍ يكسر به حدّة الأذى الشركي عن أصحابه، ويحسر عن عقولهم مدّ الغواية ليجنّبهم البوار؟.

بلىٰ إنّه لقدير على البدار، والسياسة التي رسمها ذهنه العبقري كفيلة، بلا أدنىٰ ريب، بحسم فوري يكفّ أذاية المعتدين إلى حين، ثم يحقّق للدعوة الانتشار المأمول على المدى الطويل.

وها هو يبدأ فيأمر طائفةً من المسلمين بالخروج من القرية الظالم أهلها، مهاجرين إلى ملاذٍ مأمون، قال لهم: «تفرّقوا في الأرض».

قالوا: إلى أين؟

قال: «ها هنا» وأشار بيده إلى الجانب الآخر من بحر القلزم الذي يساحل بلاد الحبشان.

وقال: «إنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، حتّىٰ يجعل الله لكم فرجاً ممّا أنتم فيه».

وكان ما اختار، فالحبشة أُمة كتابية، تدين بشريعة «الناصري» ابن مريم، رسول الله، كتابها الإنجيل ... والمسيحية سماحة وسلام.

* * *

إلى الحبشة

ومضوا إلى حيث أشار، سراعاً هاجروا بدينهم، إلى ذلك الملاذ المنشود للأمان والإيمان، أسرّوا مسيرتهم عن الأنظار والآذان.

ولقد أوشك أمرهم أن يفتضح للمشركين فيقطعوا عليهم الطريق لولا أن استضاءت بالحقّ في تلك اللحظات الحرجة بصيرة ابن الخطاب بعد ما كان من عداوته للإسلام، وعنفه بالمسلمين، تقول ليلى امرأة عامر بن ربيعة، أحد أولئك النفر المهاجرين: وكان عمر الخطاب من أشدّ الناس علينا في إسلامنا، فلمّا ركبت بعيري أريد أن أتوجّه إلى أرض الحبشة، إذا أنا بعمر بلقاني فيقول لي: إلى أين يا أم عبدالله؟

فقلت له: قد آذيتمونا في ديننا، نذهب في أرض الله حيث لا نُؤذىٰ.

فلعلّها أحسّت ندماً ما أن زلّ لسانها فباح بما كان ينبغي أن يُكتم، ضماناً لسلامة فَوْجها المهاجر، لكنّها رأت في وجه عمر رقّةً لم تعهدها من قبل في ملامحه الصلبة القاسية، ثم سمعته يقول: صحبكم الله.

فودّت لو طابق المظهر المخبر، إذن لأمنت وأمن المسافرون.

وعندما عاد زوجها ليبدأ رحلة الهجرة حدّثته بما كان، قال الرجل: ترجين أن يسلم عمر؟!

ـ نعم والله.

قال والشكّ يغلب علىٰ تفكيره وتقديره: والله لا يسلم حتّىٰ يسلم حمار الخطاب![1]

غير أنّ ليلىٰ كانت أصدق من عامر فراسةً، فانطلقا صوب اليمّ حتّىٰ كان عمر قد أكرمه ربّه، فذهب إلى النبي وشهد بين يديه بشهادة الإسلام.

ومع ذلك فما أسرع ما نما إلى قريش خبر السفر، فإذا رجالها من غيظهم ينقلبون

---

١ . راجع سيرة ابن هشام ١: ٣٤٢.

كلاب طراد مسعورة، نشطت تتعقّب المرتحلين، وتحاول أن تستبق دونهم جانب البحر قبل أن يبلغوه.

فأيّ كلاب!

إنّها لترهف عرانين أنوفها، وترفعها علىٰ رؤوسها، تتشمّم الهواء، وتنشر أهداب جفونها شبكاً تقتنص آثار الخُطى المطبوعة علىٰ صفحة الرمال، وتبسط آذانها كآذان الفيلة لتلتقط كلّ حسيس، طوت من الأرض ما طوت، ونشرت ما نشرت، وساحلت حتّىٰ أوشكت أن تمشي على الماء.

* * *

ومن وراء سجوف[١] هذه المطاردة، وقفت فاطمة برفقة القلق، ترنو بعيون تصوّراتها إلى أُختها رقيّة وهي تدبّ وعثمان والطليعة المؤمنة، بالظهر والقدم، بين الفجاج والمفاوز، على الحصا والصخور، وفوق كثبان الرمل وجبال الأمواج، صوب جنّتهم الحصينة التي اختارها الرسول.

فيا ترىٰ، ماذا أصاب أولئك المهاجرين في الله؟

أَسَوف تضلّ عنهم الكلاب؟ أسوف يكتب لهم بلوغ شاطئ الأمان؟

طويلاً انتظرت، وطويلاً راحت تتنسّم الأخبار، فإن يكن همّ ينوشها مخافةً عليهم، فثمة أسىً يفري قلبها من أجل أُختها الحبيبة التي تتهيّأ كلاب الطرد المسعورة لتنهش جسد زوجها، فتأيم وتلبس الثكل وهي بَعدُ عروس، لم تنعم بثوب زفافها إلّا وقتاً لا يكاد يحسب بغير الأيام.

فأين منها الآن صحبتها الحلوة؟ ومن لها بحديثها العذب الشهيّ الذي طالما نضّر صباها، وردّها إلى ذكريات الطفولة الوديعة؟

لولا حظّها الموفور من التجلّد والاصطبار لمّا جفّت على وجنتيها الدموع، لولا

---

١. سُجُوف وأسجاف: مفرده السَجْف، وهو الستر، أو الستران بينهما فُرجة يوضعان عادة على الباب.

إحساسها العميق بقرب بزوغ الفجر الموعود لكانت نهرها كلّها موجات من ليل يسبقه ليل، ويتبعه ليل، تمشي الهوينا علىٰ دربٍ من حلك الظلمة لا تُرىٰ له نهاية.

وحدّثتها نفسها: إن هو إلّا نأي موقوت، فراق إلى لقاء، بعاد فمعاد.

ثمّ تكشّفت لبصيرتها هذه الرحلة، وإنّها لسياسة بارعة، إن يكن هدفها الظاهر نجاة وفرار، فهدفها الخفيّ فتح الطريق واسعاً تيار الدعوة الإسلامية للتدفّق والانتشار، أوَليست الحبشة حينذاك كسفينة نوح؟

بلى! انّها لكذاك، فهي عصمة لأتباع الله من طوفان العدوان، وهي عيبة تحتويهم بذوراً صالحة لاستنبات الإيمان.

وصدق الشعور، وأيّدت صدقه الأحداث، كما أكّدته الأخبار.

في بدء الأمر، كان أولئك النازحون عن ديارهم أحد عشر[١]، بعد وقت قصير، أصبحوا فوق الثمانين.

ومن حيث أراد المشركون اقتناص هذا السرب الصغير من الطيور المهاجرة علىٰ حين غفلة منها، وهي في عشّها الحبشي الجديد، كفأ الله عليهم ميزان التقدير، فإذا السرب يلقون الأمن، وإذا الصيّادون ينقلبون بالخيبة.

الأفراخ الغريبة الضعيفة، الخفيفة الريش، الرقيقة الأجنحة، الطريّة المناسر[٢]، أمدّها ربّها بما لم يجل لأعدائها في حسبان، فصارت ـ في كَنَف النجاشي ـ وإنّها لعُقبان وشواهين، وصقور ونسور.

---

١ . كذا رواية الواقدي وقال: «إنّ خروجهم إليها في رجب سنة خمس من البعثة، وأنّهم انتهوا إلى البحر ما بين ماشٍ وراكبٍ، فاستأجروا سفينةً بنصف دينار ألى الحبشة». راجع البداية والنهاية ٣: ٦٤. ويذكر أنّ الأحد عشر مهاجراً ـ وفي رواية: اثنا عشر ـ إنّما هم من الرجال، اذ قد هاجر أربع نسوة معهم، وهنّ رقية ابنة رسول الله ﷺ وزوج عثمان، وسُهيلة زوج أبي حذيفة، وأم سلمة أم المؤمنين مع زوجها أبو سلمة، وليلىٰ زوج عامر بن ربيعة العبشمي. وروي عن أنس أنّ القوم قد حملوا ابنة النبي ﷺ علىٰ حمار. راجع سمط النجوم العوالي ١: ٢٢٠، والمعرفة والتاريخ ٣: ٢٥٥.

٢ . المَنْسَر والمِنْسِر: هو للطير الجارح مثل المنقار لغير الجارح.

ذلك أنّ سادة قريش غرّهم من صاحب الحبشة أنّه كان وإيّاهم علىٰ مودّة، فأطلقوا في أثر الفئة المسلمة النازلة ببلاده رجلين من أشدّ كلاب طرادهم، وأحدّها أنياباً وقواطع، لينهشا سمعة المهاجرين، ويوغرا عليهم صدر النجاشي، عسىٰ أن يسلّمهم لفتك الشرك، أو يوردهم موارد الهلاك.

بعثا بداهيتهم عمرو بن العاص، وصاحبه عبدالله بن أبي ربيعة، يوسوسان في أُذني العاهل الحبشي، فيدسّان ما شاءت الدسيسة، ويبهتان ما شاء البهتان.

وقدم رفيقا السوء بين يدي إفكهما هدايا كثيرة لربّ الدولة وبطارقته وأساقفته، ومن إليهم من قساوسة ورهبان، لكنّ سعايتهما هذه لم تثمر إلّا أثراً عكسياً في نفس سيد الحبشان، فالعاهل العادل الذي يعرف الله ما لبث أن تبيّن وجه الحقّ فيما حدّثه به عن الإسلام النفر المهاجرون، وأسمعوه من آي القرآن.

وعندئذٍ غضب أيّما غضب علىٰ عمرو وصاحبه، وقال لرجاله: ردّوا عليهما هداياهما، وثار بوافدي الشرك فطردهما من بلاده: انطلقا، فلا والله لا أسلّمهم إليكم.

وقال لطليعةالمؤمنين: ما أحبّ أن يكون لي جبل من ذهب وأن أؤذي رجلاً منكم، فانزلوا حيث شئتم بأرضي ألَا مَن سبّكم غَرِمَ! من سبّكم غَرِمَ!![1]

وأفاء عليهم ما وسعه أن يفيء من حمايةٍ ورعايةٍ وتكريم.

---

١ . راجع سيرة ابن هشام ١: ٣٣٣ ـ ٣٣٨. ويذكر أنّ أبا طالب قد بعث بأبيات إلى النجاشي يحضّه علىٰ حسن جوارهم والدفع عنهم، منها:

تعلَّمْ، أبيت اللعن، أنّك ماجدٌ ... كريمٌ فلا يشقىٰ لديك المجانبُ
تعلّمْ بأنّ الله زادك بسطةً ... وأسباب خيرٍ كلّها بك لازبُ
وأنّك فيضٌ ذو سجالٍ غزيرةٍ ... ينال الأعادي نفعها والأقاربُ

اللوحة الثانية

لن يصلوا إليك

ما نحسب أنّ أحاسيس فاطمة إلّا كانت تسبح بها هوناً هوناً على الطمأنينة، كأنّما يتهادىٰ بها قارب فوق بحيرةٍ من زئبق.

إنّه زورق من الشعور بالأمان، يمضي الهدوء، يهدهده الرفق، الشراع من شعاع، والسكان السكينة، والربّان الإيمان.

فلعلّ أفكارها كانت تنساب في خاطرها إذ ذاك نغمات منظومة، إنّ ليلها نهار، ورؤاها في المنام بسمات.

فهل كان ما خالجها من المشاعر صدىً لنجاة أُختها الحبيبة؟ أم وليد استظلال الرفاق المهاجرين برعاية النجاشي الكريم؟ أم هو تفاؤل بما سوف يكون، وتطلّع متيمّن إلى الغد المأمول؟

كيفما كان ما تحسّ، فالشواهد الماثلة تشير إلى نصر قريب، وإلى عقبىٰ مهما تأخّر بها الزمن فإنّها المرغوب المطلوب.

فكل مسعىً له غاية، وكلّ طريق إلى نهاية ... لكلّ حدثٍ شارة، ولكلّ خبرٍ بشارة.

وها قد عاد أخيراً مبعوثا الإفك والدسيسة من سفارتهما بالحبشة، وهما يمضغان العلقم، فشلا فيما أُوفدا فيه، آبا يجرّان الخيبة، يمشيان الخزي، يتخبّطان

في الهوان، نظراتهما تتساقط من ندامة وحسرة تحت الأقدام، بين يديهما إلى البلدة الحرام أنباء خذلانهما الذليل تعمّ الأرجاء، تشيع في الجوّ كغبار ريح السموم، تقرع الأسماع كدويّ طبول أكلة لحوم البشر في الغابات، تتبلبل بها الألسنة وتختبل الأفكار.

فإن يكن شيء في تلكم الآونة يؤذن بنصرٍ للمؤمنين قريب، فإنّه هذه الهجرة المباركة التي كانت بدء خسء المشركين، وعزّة المسلمين.

فلقد هزّت المجتمع المكّي هزّةً عنيفةً من الأساس، غزت نفوس أهل الأصنام بالقلق والتوجّس، جذبت إلى الرسالة السماوية الاهتمام من جديد، بعثت في محيطها الصغير الحركة، فأخذ يتماوج كلجج تنداح علىٰ ما حوله من شطآن، وتغسل منها الحواف والأطراف.

ألم تتح للدعوة ألسنة صدق خرجت بها إلى ما وراء الحدود؟

بلىٰ قد كان ... فليست الحبشة وحدها هي التي تسامعت بالإسلام، بل بلغ ذكره بقعاً أُخريات تناثرت علىٰ أديم الجزيرة، بين غرب وشرق، وبين جنوب وشمال، بعضها لاصق اليمن، وبعضها تاخم الشام.

* * *

إنَّ موقف النجاشي من الوفادة القرشية أشبه بقنبلة انفجرت بقلب مكة، وتناثرت شظايا لم ينج منها مكان، هو كرؤيا عاتكة بنت عبدالمطلب[1] التي طالعتها في منامها

---

١ . عاتكة بنت عبدالمطلب بن هاشم القرشية، عمة رسول الله ﷺ، عاشت في كنف والدها عبدالمطلب، فكانت تتمتّع بحسٍّ مرهفٍ، ولسانٍ فصيح، ومجدٍ وسؤدد، مثلها مثل شقيقتيها: صفية وأوروىٰ، تزوّجها في الجاهلية أبو أُمية بن المغيرة، والد أم سلمة أم المؤمنين، فأنجبت له عبدالله وزهير، والأول أعرض عن الإسلام، وأمّا الثاني فقد أسلم وكان أحد الساعين لنقض صحيفة المقاطعة التي فرضتها قريش على النبي ﷺ وبني هاشم وعبدالمطلب. وقد كانت بمكة حين وقوع معركة بدر مع مشركي قريش، قال ابن سعد: أسلمت بمكة وهاجرت إلى المدينة وأقامت بها حتّى وفاتها. راجع طبقات ابن سعد ٨: ٤٣، ونساء حول الرسول لمحمود طعمة الحلبي: ١٩٣ وما بعده.

بعد بضع سنين، وكانت نذيراً بما ادّخره الله للمشركين من وبال وسوء مآل.

قيل: أقبلت عاتكة يوماً علىٰ أخيها العباس تقصّ عليه: رأيت والله الليلة رؤيا أفظعتني، وتخوّفت أن يدخل علىٰ قومك منها شرّ ومصيبة.

فسألها: وما رأيت؟

قالت: رأيت راكباً أقبل علىٰ بعيرٍ له حتّىٰ وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلىٰ صوته: ألا انفروا يا لغدر لمصارعكم! ثم مثل به بعيره علىٰ رأس أبي قبيس، ثم أخذ صخرةً فأرسلها، فأقبلت تهوي، حتّىٰ إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت، فما بقي بيت من بيوت مكة إلّا دخلته منها فلقة[1].

وكذلك كان موقف عاهل الحبشة، دخلت قصته بمكة في كلّ دار، فإذا هي نذير نقمة وشرّ لأهل الوثنية، وبشير نعمة وخير لجماعة الله.

كانت لكلّ من الفريقين أشبه بسطحي القمر: سطح خبيء مظلم، وسطح ظاهر منير، أو كمثل درهم أو دينار، فأيّ عملة ـ كما تنطق هيئتها، ويجري مجرى الأمثال ـ لها وجهان، وبحسب اتّجاه النظرة إلى هذه الناحية أو تلك منها، تظنّ صفة المنظور.

البيت المسلم رأىٰ عاقبة سفارة الأفّاكين، وإنّها لعزّة تدعم جانب المؤمنين، وترويج للدعوة الإسلامية، يغري نفراً من الناس بالإقبال على الدين الجديد، أو ـ في أقل القليل ـ يشدّهم إلى الإرواد في تفهّمه بالتدبّر والرويّة، لا إلى مجابهته بالصدّ والنفور.

والبيت المشرك رآها، وإنّها لمذلّة لأهله وأشباههم من أصحاب عصبية الجاهلية الذين ضلّ سعيهم عند حليفهم سيد أرض الحبشان، بعد أن كانوا موقنين أثبت يقين أنّه لا محالة ناصرهم، فلا هو آزرهم وأيّدهم، ولا هو حاسنهم وداجاهم، بل عنّف بهم، وردّهم عن بلاده ردّاً قاسياً غير جميل، تطاردهم معرّة الهوان.

---

١ . راجع طبقات ابن سعد ٨: ٤٣.

فهل لهم عن الخزي من محيص؟

هل كان أحد في العرب يحسب أنَّ النجاشي خاذل قريشاً حليفته، وبائع ودّها بالثمن البخس ـ بل بلا ثمن ـ من أجل نفير غير ذوي أيدٍ، فارقوا عقيدتها، وسفّهوا حلومها، وعابوا آلهتها، وفسّقوا آباءها... ثم نفض سفيريها عن دولته نفض القذر عن طيلسانه الطاهر النظيف؟

هل ثمة ما هو أصدق من موقف ذلك العاهل العادل دلالة علىٰ شول[1] كفّة المشركين، وخطل[2] رأيهم، وفساد ملّتهم أن ينبو بهم وبمبعوثيهم ـ قولاً ومسلكاً ومقاماً ـ فينتصر منهم للجماعة المهاجرة كأنّه لها ولي حميم، وكأنّه لهم عدوّ غريم؟

* * *

وكيفما كان ما وقع من بعدُ بمكة، من جبابرة الكفر والغواية، فإنّ تلك الهجرة إلى الحبشة كانت من طوق الاضطهاد الحديدي ـ الذي حبسوا المسلمين في نطاقه طوال ما فات من سنين ـ بمثابة مادة حمضية حارقة، راحت تجري عليه بالتآكل والتفتيت حتّىٰ أوشك على الذوبان.

فلقد فتحت عيون روّاد الإيمان من طلائع المسلمين علىٰ مراغم لهم كثيرة، وسعةٍ بأرض الله فيما يلي حدود البلدة الحرام، وكانت في ذاتها حرباً صامتة على الكفر، لا تسمع فيها صلصلة أسنّة، ولا قعقعة سلاح، كانت كفاحاً هادئاً مستأنياً، لا يقابل العنف بالعنف، ولكنّه لا يقابله أيضاً بالاستسلام، كانت مقاومة سلبية، هي بسلبها في هذه الأيام الحازبة أفعل من الإيجاب، وأقدر على اتّقاء الأخطاء، ثم على الإثمار والإخصاب.

وأهل مكة الذين رأوا كيف زلزل موقف النجاشي عنجهية[3] أشراف قريش، تبيّن

---

١ . الشول: الخفّة في الميزان، القليل من الشيء.

٢ . الخطل: الحمق، الخفّة في الرأي، الخطأ.

٣ . العُنجهية: الكبر والعظمة والجفاء.

لهم أنّ أصحاب محمد ـ مقيمهم ومرتحلهم ـ قد تبدّلوا بخوفهم أمناً، وبقلقهم طمأنينة، وأنّ الثقة التي أودعتها نفوس المسلمين هجرتهم تلك، قابلها بنفوس أهل الوثنية شكّ في عقيدة الآباء يخامر خواطرهم وإن هم كتموه ولم يسفروا عنه استكباراً وصلفاً وضغينة.

وأنّ ديناً يؤثره أبناؤه على الوطن والولد والمال لهو دين حقيق بالنظر والتفكّر إن لم يكن حقيقاً بالمؤازرة والاتبّاع.

وأنّ ثمّة علائم توحي بوشك تضعضع الشرك والانفضاض عنه، بعد أن انقلبت عليه المسيحية ـ الدين الغالب علىٰ دنيا تلك الأيام ـ متمثّلة في النجاشي الذي ظنّ المكّيون أنّه وقومه حلفاؤهم الطبيعيون علىٰ مقاومة الإسلام.

فهل كان هذا الذي حدث يعني ـ علىٰ أيّ وجهٍ من الوجوه ـ انتصار دعوة التوحيد، أو ميل أعدائها إلى رفع الراية البيضاء؛ إيذاناً منهم بنبذ أسباب الشقاق والخصام، والفيء إلى الوفاق والسلام؟

كلّا، فما وقع لم يكن ليعني هذا أو يعني ذاك، ولا خدع المسلمين عن حقائق الأوضاع السائدة ففارقوا الدعة، في وقتٍ كان فيه الركون للدعة كمقارفة كبائر الفواحش والآثام، ولا جال ببالهم أنّه أمر وشيك الحلول وإن هو ظلّ دائماً أُمنيةً عذبةً، تراود أخيلتهم حين اليقظة، وتعيش في أحلامهم آونات المنام.

فدونه سور شاهق من الغيّ والجهالة يحاجز بين قريش وبين النور، دونه استغراقها في ضلالة الآباء، دونه ذخر في وفاضها[1] مذخور من الحمق والعناد، ومن المواجد والأحقاد.

بل قد كانت تلك الفترة لكلا الحزبين: حزب الله وحزب الشيطان، أدنىٰ إلى مهلةٍ للاستراوح أو لالتقاط الأنفاس، كانت تهيّؤاً للسباق.

---

١ . الوفاض: الجلدة التي توضع تحت الرحى يُجمع فيها ما يُطحن، وهو أيضاً المكان الذي يمسك الماء فيجتمع فيه.

فإن هي إلَّا أيام حتَّىٰ نشط الفريقان، كالأنابيب المستطرقة التي يرتفع الماء في إحداها بقدر ما يرتفع في الأُنبوبة المقابلة، احتدمت المنافسة بين كلا المتناجزين علىٰ درجةٍ سواء، تشتدّ هنا كما تشتدّ هناك، وكلٌّ بتدبيرٍ غير التدبير، كلٌّ بسلاحٍ يخالف السلاح.

فأمّا محمد فانّ أمنه على المهاجرين قد أضاف إلى قدرته على الحركة قدرةً، وإلىٰ سرعته في التصرّف سرعةً، وكشف له عن جدوىٰ سياسة المقاومة السلبية التي استنّها، فَوَقّته شرّ الاندفاع علىٰ غير رويّة، والانزلاق إلى معركةٍ يودّ أعداؤه استدراجه إليها، حين يشاؤون وحيث يشاؤون.

وأمّا أصحابه الذين لم يخرجوا من ديارهم ولازموه، فقد وعوا من رفاقهم النازلين في جوار النجاشي درساً في الثبات على المبدأ، زادهم تمسّكاً بالحقّ، والبذل في سبيله، والصبر علىٰ ما يطيقون وما لا يطيقون وإن هم جهلوا ما قد تطالعهم به الأحداث من مخوّف مرهوب أو مرجوّ مرغوب.

وأمّا قريش فإنّ الصدمة الحبشية أخذتها ببغتةٍ أصابتها بما يشبه الدوار، فلمّا استعادت صوابها المذهوب، غلا في صدورها غضبها لكرامتها غليان المرجل، وتفجّر غيظاً ونقمةً وسخطاً تساقطت ويلاً وثبوراً على المسلمين تساقط الصواعق وحمم البراكين.

* * *

لكنّ الغضب حين يحمىٰ يفقد صاحبه الاتّزان، يوهن قدرته على استواء التفكير وسلامة التقدير، يضعه بين فَكّي الحماقة، فإذا هو يضطرب اضطراب فريسة بين فكّي تمساح، إن هي سلمت من هويّها في بلعومه فلن تسلم من تمزّقها تحت قواطعه وأنيابه مزقاً مزقاً، وأشلاءً أشلاءً.

وكذلك كانت حالة رؤوس الشرك العاتية آنذاك.

تغالوا في عنفهم بمحمد وأصحابه إلى أقصى الغُلواء[١]، فإذا شدّتهم هذه ـ وإن أبردت بعض غليلهم ـ لم تكن لترضي كثيرين بين رجالات قريش النافرين من الإسلام.

ولا مَراء، فلوشيجة[٢] القُربىٰ حقوق، ولصلة الأرحام حقوق، وللنسب والصهر حقوق، وهم إن آذوا، فالأذىٰ إذاً لاحقٌ ببضعةٍ منهم، ومردودة عقباه عليهم غداً، أو بعده، أو في نهاية المطاف.

لكنّهم كانوا قوماً لايفقهون، فعدوا كما أغراهم السفه، وساقتهم خفّة العقول، حنق طائش، وغيظ جموح[٣]، وحمق حرون[٤] ملكت عليهم أعنّتهم[٥]، فانطلقوا في سلوكهم مع الهوج إلى أبعد الآمال، بغير تبصّرٍ ولا اشتشفاف لعقبى الأُمور، ولا انتهاج لحنكة السياسة، أو التسلّح بإحكام الإعداد.

فهل ترىٰ حسبوا عدوانهم الطاغي مستأصلاً غريمهم من الجذور؟ أم ظنّوا عنفهم تجارة رائجة في سوق الكفاح لن تبور؟ أم غرّهم أنّهم الأكثرون؟ بل عداهم الصواب، فلا محمد تمهّلت به خطواته على الطريق، ولا أصحابه أوهنهم الويل والعذاب.

وتلك سنّة الفطرة، طبيعة الحياة، ناموس «الدفع» الذي يحفظ على المجتمع الإنساني حركته من أجل صيانة المثل السامية وكرامة الإنسان أن يغمرها الجمود والركون ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيراً﴾[٦].

---

١ . الغُلواء: الغلوّ، وهو المبالغة في الشيء.

٢ . الوشيجة: العلاقة المتّصلة المتشابكة.

٣ . الجَمُوح: المسرع الطائش الذي لا ينثني.

٤ . الحَرون: الملازم بالمكان لم يفارقه، يقال: بغل حَرُون، إذا وقف ولم ينقد.

٥ . الأعنّة: جمع عِنان، وهو سير اللجام الذي يربط بالفرس، سمّي بذلك لأنّه يعترض الفم فلا يلجمه، يقال: ذلّ عنانه، أي انقاد، ورجلٌ أبيّ العنان، أي ممتنعاً.

٦ . الحج: ٤٠.

فلكلّ فعلٍ ردّ فعلٍ يساويه، الهجوم من طرفٍ يقابله من طرفٍ آخر دفاع، الشدّة تحفّز على الاشتداد، والعناد يثير العناد.

ولقد كان من سفه العادين وسوء رأيهم أن استجاشوا براعتهم في شؤون التجارة، فخالوا الرسول سلعةً في سوق البيع والشراء، يسهل عليهم اقتناؤها لو أثمنوا لها ثمناً يجزل الجزاء للبائع وتسخو به يد المبتاع، تصوّروا المقايضة عليه أمراً لا يردّه ذووه.

وكانت هذه ثاني مرّة رأوه فيها كمتاع.

في الأُولى ذهبوا إلى عمّه يقولون: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتىً في قريش وأجمله فخذه، فلك عقله ونصره، واتّخذه ولداً فهو لك خير، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين أبائك، وفرّق جماعة قومك، وسفّه أحلامهم، فنقتله! فإنّما هو رجل برجل.

فعجب الشيخ لهذا الأفن[1] منهم، وإنّهم لأُناس تراهم العرب سادة الرأي بين ذوي الآراء، وعلى قمّة الحكمة بين الحكماء، وقال بامتعاض: لبئس ما تسومونني! أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟[2]

وفي الثانية مضوا أيضاً إلى أبي طالب، ومعه ذووه من بني عبدالمطلب وبني هاشم، ليشتروا منهم الرسول، قالوا لهم: خذوا منّا ديةً مضاعفةً ويقتله رجل من قريش، فتريحونا وتريحون أنفسكم!!

فكان عجباً من العجب أن تحملهم الحماقة على المعادلة في كفّتي ميزان، بين محمد وبين حفنة من المال.

وباءوا[3] ـ كما باءوا من قبل ـ بالهزء والسخرية حتّى لتحسبهم ودّوا لو خلت

---

١. الأَفَن: ضعف الرأي ونقص العقل.

٢. راجع سمط النجوم العوالي ١: ٣٩١ عن الذهبي في تاريخه، وتذكرة الخواص: ١٨.

٣. باء بالشيء: رجع به.

صحيفة حياتهم من هذه اللحظات الثقيلة التي أضافت إلى رصيدهم الضخم من الحمق والسفه ذخراً أضخم من الخسّة والنذالة.

* * *

وأعيتهم الذرائع، وضاقت بهم الأسباب.

فهل من حلّ؟ هل من وسيلةٍ أو حيلة؟

وأنّىٰ لهم وهذا الرجل: أبو طالب، يسدّ عليهم أُفق خلاصهم من ابن أخيه كمارد مريد؟ كصخرةٍ هائلةٍ علىٰ فم مجازٍ إلى واد؟ كعَظْمةٍ نشبت في حلوقهم، فلا هي تُبلع ولا هي تُدفع، وإنّما تمنع الشهيق والزفير، وتشلّ الهواء أن يمدّ بالحياة النُحور والسُحور[1]؟

إنّه لهم لبالمرصاد، يحامي عن محمد كما يحامي عن عرينه[2] ليث غاب، هو في أرساغهم[3] أصفاد[4]، وأغلال في الرقاب، وقيود في العراقيب[5].

ما من يوم شام فيه منهم نيّة العدوان على النبي، أو أحسّ تبييتهم الغدر به، حتّىٰ حاجز بينه وبينهم كالطود، لم يخش منهم ما طالما ساقوه من وعيد وتهديد، ولا عزّة نفر، ولا شدّة أيد.

كان شعاره الذي أُثر عنه: لا أخذل النبي، ولا يخذله من بنيّ ذو حسب.

* * *

ولقد سبق لهم أن حاسنوه لعلّه أن يكفّ عنهم ما مرّغ فيه محمد عقولهم وأربابهم من مهانة، فأمّوه يقولون: يا أبا طالب، إنّ لك سنّاً وشرفاً ومنزلةً، وإنّا قد استنهيناك

---

١ . السُحُور: الصدور.

٢ . العرين: بيت الأسد.

٣ . الأرساغ: جمع رسغ، وهو المفصل بين الساعد والكفّ.

٤ . الأصفاد: جمع صفد، وهو القيد والغلّ.

٥ . العراقيب: جمع عُرقُوب، وهو المفصل بين الساق والقدم، وقيل: هو الكعب.

من ابن أخيك فلم تنهه عنّا، وإنّا لا نصبر علىٰ هذا: من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا حتّىٰ تكفّه عنّا أو ننازله وإيّاك حتّىٰ يهلك أحد الفريقين[١].

فما فعل الشيخ؟

لم يزد علىٰ أن قال للنبي بعد حديثٍ معه قصير: اذهب يابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أُسلّمك لشيء أبداً.

وبلغهم أنّه صوّر عزمه في شعرٍ قال فيه:

والله لَنْ يَصلُوا إليك بجَمْعِهِم حتّىٰ أُوَسَّدَ في الترابِ دَفينَا[٢]

وبرموا به ... ثم رأوا ألّا مناص لهم، ليحفظوا هيبتهم في العرب، من أخذ محمد أخذةً باطشةً من وراء ظهر أبي طالب، فيصبح الشيخ على ابن أخيه وهو صريع قد لقي حتفه غيلةً، وثأره مفرّق بين قبائل قريش، لايدري أحد أيّها الواتر[٣] الذي يقع علىٰ رأسه دم القتيل.

لكن العم اليقظ الأريب شمّ الريح، فأسرع من فوره فجمع فتيةً أجلاداً من الهاشميّين، دفع بهم خلسةً إلى مجمع القوم، ووكل إلى كلّ فتىً منهم رقبة زعيم، يقطّها عندما يئين الأوان، ومضىٰ يبحث عن النبي حيثما ظنّ أن يلقاه.

تثاقلت بسادة الشرك خطى الساعات، انتابهم قلق لا يكادون يعرفون مأتاه، تنفّسوا مع الهواء الوجوم، توجّسوا شرّاً مجهولاً وقد أحسّوا كأنّهم في حصار، وعلى الأثر وأدوا في طواياهم تآمرهم، كما يقبض السبع مخالبه في براثنه بعد نشرها تهيّؤاً للانقضاض.

فإن هي إلّا هنيهة حتّىٰ أشرف عليهم أبو طالب، متلهّب العينين من غضب ـ وإلىٰ جواره النبي ـ وصاح: يا معشر قريش!

---

١. راجع سيرة ابن هشام ١: ٢٦٥، الروض الأنف ٢: ٤ عن ابن إسحاق.

٢. ذكر الأبيات الزمخشري في الكشاف ٢: ١٤ تفسير سورة الأنعام: ٢٦، وابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤: ٥٥، وابن البطريق في العمدة: ٤١١ وفيه: «حتىٰ أُغَيَّب..»وفي ص ٤١٥ ذكر القصة كاملة.

٣. الواتر: القاتل الظالم. والموتور: المقتول الذي لم يُدرك بدمه.

فراعتهم صرخته، وأضاف: أتدرون ما هممت به؟ سألوه مبغوتين: وماذا هممت أن تفعل؟ قال وهو يشير إلى من حولهم من فتيته الأجلاد: والله لو قتلتم محمداً لما أبقيت منكم أحداً أو نتفانى نحن وأنتم، وأمر الفتية فكشفوا ثيابهم، فإذا حشوها سلاح.

* * *

بل اجتذب إليه الشيخ بني هاشم وبني عبدالمطلب، يظاهرونه على حماية الرسول، حتّىٰ أبو لهب هزّته يوماً النخوة، فآزر أخاه.

شهد من قريش دأبهم على العنف بأبي طالب عنفاً مقيتاً مرذولاً أن كان يجير الرسول، لعلّ شدّتهم أن تؤوده، فيخفر عهده، ويبيحهم جواره، مخلّياً بينهم وبين ابن أخيه.

عندئذٍ حمي أنفه، غلا دم الأصل في عروقه حتّىٰ أوشكت على الانفجار، وثار: يا معشر قريش، والله لقد أكثرتم علىٰ هذا الشيخ، ما تزالون تتوثّبون عليه في جواره من بين قومه، والله لتنتهنّ عنه أو لنقومنّ معه في كلّ ما قام فيه حتّىٰ يبلغ ما أراد

وخفضوا له جناح الطاعة وهم كارهون.

وما لهم لا يفعلون والخفض في هذا المقام أحجىٰ، ألا يخشون أن تأخذه العصبية فينضمّ إلى أخيه، فيغلظ أمر محمد، وتشتدّ دعوة الإسلام؟

قالوا له: بل ننصرف عمّا تكره، يا أبا عتبة.

وظنّوا أنّهم خدعوه، فلو أنّهم فقهوا لأدركوا أنّه ما كان ولا كانوا بحاجة إلى خدعةٍ مثل خدعتهم هذه، هي كغثاء السيل.

فمن وراء أبي لهب امرأته، تسوقه إلى معاداة محمد سوق الدابّة، ومن أمامه كلمة الله القاطعة المانعة التي حقّت عليه، وشاعت في الناس أن سيصلى الجحيم.

وإذا كانت الحميّة دفعته لتوعّد قومه بالوقوف إلى جانب أخيه لمنع ابن أخيه، فتلك حميّة لم تنضح بها رغبة، ولم تصدر عن نيّة، بل هي حركة لا إرادية أشبه

بانتفاضة بنانة وخزها ـ علىٰ حين غفلة من صاحبها ـ سنّ خياط.

* * *

ولم يفتر عزم أبي طالب، علىٰ كثرة ما داورته قريش وحاورته، آونة بالوعد وآونات بالوعيد، ظلّ الشيخ علىٰ عهده، لا يتزعزع ولا يتضعضع، يُكفئ جهودها العدوانية، فيفسد عليها كلّ حيلة، وينقض كل وسيلة، ويحمي ابن أخيه أن ينصرف إليه منها مكروه.

وقوفه في صفّ النبي مكّن له في بثّ الدعوة أينما وجد سميع، ثباته كان تحدّياً سافراً لقريش أن هلمّي البأس إن شاقك صراع، سلوكه كان أقرب إلى حرب نفسية أوهنت معنوياتها، ونقصت هيبتها، ونزلت بأقدارها في أعين الناس وفي أعين أنفسها، فإذا رجالها حيارىٰ مضيَّعون، لايدرون كيف درء عوادي الخطر التي يثيرها عليهم محمد ـ وإنّه لفرد ـ في حربٍ مصير: سلاحه فيها كلمة ونصيره قلّة، ونفرهم أمة وسلاحهم كيد ووفرة عتاد وأجناد.

فلقد أثمر إصرار أبي طالب، ومن ورائه صلابة المؤمنين، ماكان المشركون يخشون.

أخذ الإسلام يفشو رويداً رويداً رويداً على الأرض العربية، حتّىٰ بدا كلمحات أنجمٍ تناثرت كالثقوب في صفحة الغمام، راحت ديباجة الشرك تسمل وتتهرّأ علىٰ مرّ الأيام، انقسمت الوحدة القرشية بعد تماسك وتضامّ، فانشطرت شطرين: أحدهما معهم عن جهالة وعنجهية، والآخر مع الشيخ عن ولاءٍ للدم، وانحيازٍ إلى العصبية.

هنا أدرك القوم ألّا مناص من ضربةٍ قاصمةٍ تحسم ما بينهم وبين خصمهم، يكون بعدها الخلاص.

* * *

واجتهدوا الرأي.

إن يكن أبو طالب ورعيله هم الخطر الذي يهدّد كيانهم، ويودي بسطوتهم،

ويجعلهم بين القبائل أُحدوثة هوان، فليطوّحوا بـهم إذاً في متاهةٍ كمتاهة بني إسرائيل، فليخرجوهم من ديارهم وأرضهم إلى المفاوز والفجاج، فليبنوا بينهم وبينهم سدّاً كمثل سياج ذي القرنين الذي ضربه حول يأجوج ومأجوج، فليقدّموهم وليمةً شهيّةً لسباع العزلة والحصار، وضباع العري والجوع.

وفعلوا، اتّفقوا بقضّهم وقضيضهم[1] علىٰ مقاطعة بني هاشم وبني عبدالمطلب، لايكلّمون منهم أحداً ولا يجالسونهم، ولايزاوجونهم، ولا يبيعون لهم أو يشترون منهم، حتّىٰ يخترمهم الموت أو يكفوا محمداً عنهم أو يسلموه، وكتبوا بذلك صحيفةً علّقوها بالكعبة.

فعلىٰ أيّ نحوٍ مضت الأحوال في المجتمع المكّي آنذاك؟

أمّا قريش فقد أجمعت الرأي علىٰ إنفاذ عهدها الضاري، كما لم تجمع قطّ قبل يومها هذا علىٰ إنفاذ الرأي، تواصت بالخسّة عشائر وقبائل، أفخاذاً وفصائل، بطوناً وعمائر[2]، أسياداً وعبيداً، جموعاً وفرادىٰ جدّت في مطاردة خصومها بالقطيعة.

وأمّا بنو هاشم وبنو المطلب فقد استقبلوا التحدّي بمثله، كالبنيان المرصوص وقف كافرهم ومؤمنهم مع النبي، في صفٍّ واحدٍ هو العزم والإصرار، تقدّموا إلى المحنة المحيقة بهم غير هيّابين[3]، وكانت أرواحهم في أيديهم، وما يضيرهم لو سخوا بها ما داموا علىٰ إباء وكبرياء؟

وأمّا أبو لهب فقد شذّ عنهم، ظاهر وحده حزب الطغيان على الطغيان علىٰ آله، خرج علىٰ بني أبيه، تبع امرأته كأنّه دابّة ذلول، كان لها كالظلّ، إذا وقفت وقف وإذا سارت سار، وكان قوله، حرفاً بحرف، وكلمةً بكلمة، صدىً للغو حمّالة الحطب،

---

١ . القَضّ: صغار الحصىٰ. يقال جاء القوم قَضُّهم وقَضيضهم، أي جميعهم.

٢ . العمائر: جمع عمارة ـ بالفتح والكسر ـ وهي فوق البطن من القبائل، أولها الشَعْب، ثم القبيلة، ثم العشيرة، ثم العمارة، ثم البَطْن، ثم الفَخِذ، ثم الفصيلة. راجع لسان العرب ١: ٥٠٠ مادة «شعب» و٤: ٦٠٦ مادة «عمر».

٣ . الهيّاب: كثير الخوف.

كتردّد نعيب غراب في بناء خراب، أو نعيق بومة بين أنقاض أطلال[١].

* * *

وشهدت مكة محمداً والذين معه ـ وما مضت علىٰ بعثته غير سبعة أعوام ـ وهم يُجلَون أو يجليهم الطُغاة عن البلدة الحرام إلى شُعَب أبي طالب، حيث الجدب والفقر، ليقضوا من أعمارهم ثلاث سنوات حسوماً[٢]، دارهم فيها العزلة، وحارسهم الحصار.

لسوف يعيشون الحرمان، سِماطُهم طَوى[٣]، مائدتهم سَغَب[٤]، خبزهم لبّ الشجر والورق والجذور، أدمهم الأدم وإهاب الحيوان ينقع في الماء حتّىٰ يلين.

وكم سيعانون!

لكنّ الصبر كان دائماً معهم، كان نِعْم الرفيق والعشير.

وما فعلته بهم قريش ما كان ليوهن عزائمهم الصلاب، لم يصب نفوسهم بخدوش وإن أثخن أبدانهم بجروح، لم يذقهم الندم ولا جرّعهم التخاذل، فعصيٌّ عصيٌّ أن تسلّمهم العزلة للذلّة، وعسيرٌ عسيرٌ أن يحملهم الجوع على الخنوع[٥]، ومحالٌ محالٌ أن يدفعهم الحرمان إلى الهوان.

---

١ . الأطلال: بقايا الآثار، الخرائب.

٢ . الحُسُوم: الشؤم، يقال: أيام حسوم، أي حاسمة عن أهلها الخير.

٣ . السِماط: ما يُبسط ليوضع عليه الطعام، والطَوىٰ: الجوع.

٤ . السَغَاب والسَغَب: الجوع.

٥ . خَنَع له وإليه: خضع وذلّ.

اللوحة الثالثة

سنوات عجاف

عاشوا وليمةً للتضوّر[1]. والسنوات العجاف[2] بالشعب أكلت منهم اللحم، وبرّت[3] العظم، وشقّقت الأبشار[4].

كثيرون أشرفوا على الهلكة، أكثرون عصرتهم الأدواء، كلّهم أضوتهم[5] المساغب، وظلّوا يعانون آثارها أشطراً من عمرهم أو على امتداده بعد أن تقشّعت[6] عنهم محنة الحصار.

الذين منهم علت بهم الأسنان، غذت أرواحهم ذماء، وأنفاسهم حشرجة[7]، وجسومهم خواء، حتّىٰ لشفت جلودهم من بلى ورقة، عن فقار الظهور، وأضلع الصدور، وحشا البطون. والذين كانوا في بواكير السنّ، ولم يقطعوا من شوط حياتهم

---

١ . التضوّر: شدة الجوع.

٢ . عَجَف وعَجُف: ضعف وذهب سمنه، والعجيف: المهزول.

٣ . برّت الشيء: أيبسته، أو بَرَتِ الشيء: إذا قطعته.

٤ . الأبشار: جمع البشر والبَشَرة.

٥ . أضوىٰ الشيء: إذا ضعف وأشرف على الهلاك.

٦ . تقشّع: زال.

٧ . الحشرجة: الغرغرة عند الموت وتردّد النَفَس.

سوىٰ خطوات، بدوا كبراعم علىٰ أسوق[١] تكاد من وهيٍّ[٢] تنقض، كأنّما انقطع عنها الماء فلا ريّ، وامتنع الطلّ[٣] فلا علّ[٤]... جفّت الأوراق وضمرت الأعواد.

ولم يكن أصدق مثلاً لأولئك من أبي طالب شيخ بني هاشم، الذي كان قد اقتحم إذ ذاك حدود القرن الثاني من سنيّه وأوغل فيه.

لقد أدمىٰ قدميه السعي علىٰ مدرجة العمر، السنوات الأخيرة العجاف من أجله، بمنفاه ذاك، اعتصرت بدنه إلّا ثمالة[٥]، تركته كفنن مهصور[٦]، أقوته كطلل درست آثاره، لم تدع منه سوىٰ بقايا خفقات ذبالة[٧].

لكنّه ثبت علىٰ ما نذر نفسه له، ظلّ على الطريق، ايمانه لم يعرف الخور، صبره أعيى الصبر.

فإن يكن ما حمله من كفاحه، فوق عبء السنين، قد أحنىٰ ظهره، فكأنّما ليجعله كالقوس حين يهمّ الرامي بتهيئة سهمه للانطلاق!

* * *

وعلىٰ نحو نسقه، أو أعتىٰ همّةً، كانت خديجة.

كانت الأُم الرؤوم التي ـ برّاً بزوجها الأمين وبأبنائها الأُباة المجالدين ـ راحت بكلّ السخاء والأريحية[٨] تبذل من ذات يدها الذهب والنشب[٩]، وبكلّ السماحة

---

١ . الأسوق والسيقان والسُوق: جمع ساق، ما بين الكعب والركبة.

٢ . الوهي: الضعف.

٣ . الطلّ: المطر الضعيف، الندىٰ.

٤ . العلّ: التتابع في السقي، المرّة بعد الأخرىٰ.

٥ . الثمالة: البقيّة.

٦ . الفنن المهصور: الغصن المكسور من غير بينونة.

٧ . الذبالة: الفتيلة.

٨ . الأريحيّة: خصلة في الإنسان تجعله يرتاح إلى أفعال الخير وبذل العطايا.

٩ . النَشب: المال، العقار.

والودّ تفيض من ذات قلبها الحنان والرعاية.

كما كانت تقاسمهم اللقمة قاسمتهم الغمّة، كفكفت عنهم ندى المدامع، نهنهت[١] دوافع المواجع، في نفوسهم نفثت الجَلَد[٢] والاصطبار، من إيمانها أفاءت الأمن والقرار، حملت من همومهم ما ينوء بالعصبة أولي العزم من الرجال.

ومع كلّ وقبة[٣] ليل، وطلعة نهار، نزفت قواها البدنية قطرات قطرات، هاجمها من الوهن في ثلاث سنين ما يملأ ثلاثين، طحنتها رحى الشدائد فإذا هي نفاية أدواء، وكهولة عياء، وهي التي لم تكن قطّ قبل البعثة النبوية في كَبَدٍ، بل عاشت بالرغد في قوّةٍ وأيدٍ، وبالرفاهية في صحّةٍ وعافية، لكنّ الحياة عبست، وكشفت عن نابٍ كاشرٍ تضطرب علىٰ سنّه المنون.

فلولا أَجَل مسمّى عند الله وبقية أنفاس، لأوغلت بها أوقارها، تلكم الثقيلة الوبيلة، بعيداً بعيداً عن دنيا الناس إلى النهاية المحتومة، وإنّها لعلىٰ غير فراشها، وبغير دارها القائمة عند بيت ربّها الحرام.

أمّا الزهور الصغيرة فكانت أقلّ امتناعاً علىٰ لأواء الحصار، إنّها في باكورة مراحل النماء، والنماء بناء، والبناء عصبة الغذاء.

فإذا أعوز الجسد الهشيش ما يغذوه، أصبح كنثيرٍ[٤] هشيم، عدم القوة، فلا استمسك ولا استقام، فتي بلا فتوّة، وشبّ بلا شباب.

وعندما يضيع من النفس طريق الأمان، ويحاصرها الحرمان، فإنّها تعيش الكآبة، وتحيى الوجوم.

ومن وراء الآلام النفسية، والضعف البدني، برزت لنا الزهراء في مستهلّ مسيرتها إلىٰ صباها المبكّر، بعُودٍ عادلٍ ولكنّه أقرب إلى ذابل، وبوجهٍ قسيمٍ ولكنّه أدنىٰ إلى

---

١ . نَهنَهه عن الشيء: كفّه عنه.

٢ . الجَلَد: الصلابة والصمود.

٣ . وقب الليل: انتشر.

٤ . النثير: المنثور، المتساقط متفرقاً.

هضيم، وبنفسٍ نديّةٍ ولكنّها أميل إلى الرزانة منها إلى خفّة النفوس الفتية، وإلى الجدّ منها إلى المرح والدعابة.

بالحساب الزمني كانت صبية في بداية سنيّها العشرية، وبالحساب الموضوعي لاحت كسيّدةٍ أطلّت على الأربعين.

وهل كان لها مهرب من قدرها المقدور؟

إن قلبها ما أن تفتّح وردةً غضّةً حتّى استقبلتها دنياها بزمجرة العواصف وهوج الأعاصير، الحياة لم تعد مبسوطة الأسارير[١]، الضياء كالضباب، الألوان كالحة[٢] غُبر[٣] كقِطَعٍ من غبش الليل أو عبوس الغروب، ولّت الحسنىٰ، دُكَّت القيم، قُطعت الرحم.

علىٰ نضارة عمرها ولينه ظلّت تعايش أباها همومه وآلامه، قاسمته أذىٰ قومه وعنفهم به، لقمةً بلقمة، وكسرةً بكسرة، طوال كفاحه المضني شاربته عصارة العلقم، كلّ خلاصة أحزانه امتصّتها، حتّى امتلأ بها قلبها إلى الحافّة، ولم يعد فيه موضع لفرحة.

وعندما لاح لأصحاب الشعب أنّ محنتهم أخذ تتقشّع، ما نظنّها حسبت غدها سيكون مجلوّاً كعروس، فالماضي ينبئ بالمستقبل، والمحنة قد تلد المحنة ... لكنّها صابرت الأيام، وما لها لا تفعل والعسر يخلفه يسر، والليل يتلوه نهار، ما لها تتعجّل الدموع وإنّ في مآقيها[٤] لبقية.

وتمهّلت تنتظر.

من خلال ما خفّ إليها من حديث الناس عن صحيفة المقاطعة، هنا بالشعب وهناك بمكة، وعلمت ما لم يكن ليجول قطّ للمشركين في بال، سمعت ما كأنّه، في رأي القوم، رؤيا منام أو وهم خيال:

---

١ . مبسوطة الأسارير: أي سوية كما كانت.

٢ . ألوان كالحة: غامقة.

٣ . الغُبر: المتلطّخة بالغبار فاكتسبت لونه.

٤ . المآقي: مجرى الدمع من العين، مفرده: مَأْق.

هنا، أقبل محمد ذات يوم علىٰ أبي طالب يقول:

«يا عم، إنّ الله قد سلّط الأرضة[١] على الصحيفة، فلم تدع فيها اسماً هو الله إلّا ثبّتته فيها، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان».

قال أبو طالب والفرحة في وجهه تغلب على الدهشة: أربّك أخبرك بهذا؟

ـ «نعم»[٢].

وهناك، مشىٰ هشام بن ربيعة إلى زهير بن أُمية بن المغيرة، يكلّمه في أمر القطيعة والمقطوعين.

بعد سنوات ثلاث من الاستبداد والضيم أَلِمَتْ ضمائر نفرٍ من أساطين مشركي قريش، ووجبت قلوبهم ندماً أن أخرجوا الطالبيّين والهاشميّين إلى فجاج الجبال، عطفتهم أخيراً الرحم، تارت بحقّ المودّة في القربى الدماء في العروق، وراحوا يتلاومون.

قال هشام: يا زهير، أقد رضيت أنّا نأكل الطعام، ونلبس الثياب، وننكح النساء وأخوالك حيث علمت؟ أما إنّي أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحَكَم بن هشام، ثم دعوتهم إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبداً.

أجاب زهير وقد مسّ كلام صاحبه مكمن المروءة فيه: وما أصنع؟ إنّما أنا رجل واحد، ووالله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقض الصحيفة حتّىٰ أنقضها.

قال هشام: قد وجدت رجلاً.

ـ من هو؟

ـ أنا.

فتهلّل وجهه، وقال: أبغنا رجلاً ثالثاً.

فغدوا ثلاثة ثم أربعة ثم خمسة.

---

١ . الأرضة: دويبة من فصيلة الأرضيّات، تقرض الأخشاب والأوراق، وتعيش في المناطق الحارة.

٢ . سيرة ابن هشام ٢: ٣٧٧.

وانطلق زهير ومعه ثلّته تلك إلى أندية القوم، حتّى إذا طاف بالبيت وفرغ من طوافه، نادىٰ في الناس: يا أهل مكة! فألقوا إليه بالسمع والبصر والفؤاد.

قال: يا أهل مكة، أنأ كل الطعام، ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكىٰ لا يُباع لهم ولا يبتاع منهم؟! والله لا أقعد حتّىٰ تشقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

وعلى الأثر انتفش أبو جهل غضباً وصرخ: كذبت، والله لا تُشَقّ.

قال له أحدهم: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حيث كتبت.

وآزره أصحابه ومن ورائهم جمع ممّن شهد هذا الموقف، حتّىٰ تعالى الصياح، وهدر هديراً غرق فيه صوت أبي جهل: طاغية بني مخزوم.

وخسئ الجَهُول الغَشُوم.

عيي لساناً وحركةً إلّا أن أخذ يضرب كفّاً بكفّ، ويقلّب فيهم عينيه كأنّه مأخوذ ممسوس، وهو يردّد وقد خنقه حنقه: هذا أمر قُضي بليل، هذا أمر قُضي بليل، وتشوور فيه بغير هذا المكان!

* * *

وماجت الجموع[1]، واختلطت الأصوات، واختلفت الآراء، افترق الناس فرقين عظيمين كما انشقّ بحر فرعون عندما ضربه موسىٰ بعصاه، وعربدت[2] الألسنة من أولئك وهؤلاء عربدةً عشواء، تفصح كإبهام، وتبهم كإفصاح، حتّىٰ لا يُدرىٰ أصياحها الكلام أم كلامها هو الصياح.

ثم كان لابدّ من نهايةٍ للرواية، كان لابدّ من طيّ السجلّ، ورفع الأقلام.

وعندئذٍ ظهر أبو طالب إذ قُدّر له أن يكون هو من يجهز علىٰ ذلك الجدال، ويضع حدّاً لحيرة الجمهور، من شعبه حيث قطعه استبداد قريش، سعىٰ إلى مكة لينقل إلى سادة قريش قول ابن أخيه عسىٰ أن يكفّوا عن البغي الذي سدروا فيه.

---

١ . ماجت الجموع: إذا اختلفت أمورهم واضطربت، ودخل بعضهم في بعض.

٢ . العربدة: الشدّة من كلّ شيء

واخترق عليهم نديهم، ثابت الخطىٰ، صلب الأسارير، فلمّا وقف علىٰ رؤوس أشرافهم أدار فيهم نظرةً صارمةً، ثم رماهم بالخبر اليقين الذي لا يحسب أحد أنّ غيره كان أحرىٰ بأن يخرم منهم المسامع ويرجّ الأفهام، ويدمّر إنكار كلّ منكر وريبة كلّ مستريب.

قال لهم بنبرات قاطعة كالسيوف: يا قوم، إنَّ ابن أخي أخبرني أنَّ الله سلّط علىٰ صحيفتكم الأرضة، فلحست ما كان فيها من جور وظلم وقطيعة رحم، وبقي فيها ما ذكر به اسم الله.

فهل أحالتهم كلماته أصناماً منصوبة؟

بغتتهم الدهشة، علىٰ معاطسهم[1] جمدت الأنفاس، بشفتيه لصقت أعينهم، لا يتحرّك فيها إنسان، ولا يطرف لها هدب، ولا يهتزّ حملاق[2] كأنّما شلّت منهم الجفون.

من وجوههم غاض اللون، فانساخت بها الملامح، وتداخلت معالمها، وقد كساها شحوب بدت به كصُحُف بيضاء لم يخطّ فيها يراع.

وأكمل الشيخ يقول: فإن كان ابن أخي صادقاً نزعتم عن سوء رأيكم، وإن كان كاذباً دفعته إليكم فقتلتموه أو استحييتموه.

فهل من تحدٍّ كهذا التحدّي يغلق باب المكابرة والعناد؟

هل من نَصَفَةٍ كدعوته أحقّ بالنظر والقبول؟

وظلّوا هنيهة واجمين[3]، ماذا عساهم يقولون؟ أم كيف يحارون؟

لكنّ صوت أحد الخمسة نطق بالرضا أو أعلن التسليم، قال يجيب: قد أنصفتنا.

وتابعه علىٰ رأيه الأكثرون.

* * *

---

١ . المَعْطَس والمَعطِس: الأنف.

٢ . الحُملاق والحِملاق والحُملُوق: باطن الجفن.

٣ . الواجم: الساكت، العاجز عن التكلّم من الغيظ أو الافحام.

فيا ترى أكان خبر الأرضة قد تسرّب إلى هشام بن المغيرة ورفاقه ولمّا يفد علىٰ مجلسهم أبو طالب، فحرصوا على المبادرة إلى الدعوة لرفع الحصار؟

ربّما.

أو لعلّهم شاءوا أن يسبقوا غيرهم من أساطين قومهم إلى فضلٍ تكون لهم به منّة لدى الهاشميّين والمطلبيّين تُسجَّل بالفخر وتُذكَر على الدهر، أو لعلّهم ارتأوا أن يحفظوا علىٰ قريش ماء وجهها، فلا يتسامع العرب بأن ربّ محمد قد أكرهها على العدول عن القطيعة وهي صاغرة، وإنّما يقال: إنّها ـ تكرّماً وتفضّلاً ـ هي وحدها التي عفت، ففكّت الحصار عن رغبةٍ واختيار.

فإن لم يكن هذا ومثله، فإنّ وفود أبي طالب عليهم في ذلك الوقت، هو إذاً الصدفة التي لا يعادلها إعداد، ولا يفوقها اتّفاق.

* * *

ونشطت إلى الكعبة الجموع كسيل هدّار، استبقوا إلى حيث الصحيفة المعلّقة بسترها، ليستوضحوا حديث شيخ بني هاشم عنها، وما في أخلادهم إلّا أنّه حديث خرافة، ومحض هراء[١] أو ادّعاء.

وما يضيرهم لو شقّوها؟ لسوف يجدونها علىٰ نفس هيئتها من بضع سنين، لسوف تكون الدليل الذي لا يستطيع أن يدحضه أو يماري فيه أحد من المحصورين أو غير المحصورين، لسوف تسفر عن تسليم محمد، فيقتلوه وينفضوا أيديهم من نزاعٍ مشىٰ بينهم بالفرقة، فبعضهم لبعض عدوّ، وبعضهم لبعض ظهير.

وكان الخمسة في مقدّمة السيل.

وانبرىٰ من بينهم المطعم بن عدي فاقتطف الصحيفة كما يقتطف ثمرةً من غصن شجرة، ثم رفعها للأشهاد ثم بسطها بين يديه.

---

١ ـ الهُراء: الكلام الكثير الفاسد، الذي لا نظام له ولا أصل.

وتدافع نحوه الناس بالمناكب، لتلتقط عيونهم ما عسىٰ أن تحكيه هذه الديباجة المنشورة، فإن هي إلَّا لمحة بالبصر حتَّى رأوا الصحيفة فارغة ـ وما هي بفارغة ـ قد امّحت كتابتها، وبلي جلدها وتخرّق، إلَّا موضعاً هنا أو موضعاً هناك ثبت فيه اسم الله[١].

وفغروا[٢] الأفواه، وبهت الذي كفر ... بهت أبو جهل، تحجّر، من وقع البغتة بدا وهو بين حزبه صنماً جسداً له خوار، كعجل السامري الذي عبده بنو إسرائيل.

ثم نظر ... ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، ثم قال والذين هم من حطب جهنّم: سحرا سحرا سحر يؤثر!

فإن يكن سحراً كلّ الذي يشهدونه من محمد ويسمعونه، فبماذا يعيبونه؟ وكيف لا يقبلونه وهم قوم يصدّقون السحر، ويخضعون لأُسسه ونواميسه ويعيشونه؟

أم السحر في اعتبارهم سحران: إذا جاءهم به النفّاثات في العقد والسواحر فإنّه السحر الصادق المقرّر، وإذا جاءهم به محمد فهو السحر المأفوك المنكر؟!

بل هم وسيّدهم نفوس فواجر غوادر، يقولون غير ما يعلمون، ينكرون الحقّ والحقّ ظاهر ... قُتِل الخرّاصون[٣]، قُتلوا كيف قدّروا! وقُتل كيف قدّر!!

* * *

لكنّهم لم يصدّوا السيل، بل انهتكت مشيئتهم، علىٰ سمعهم وبصرهم وطأت صيحة الفريق الآخر: عَلامَ يُحبس القوم ويُحصرون وقد بانَ الأمر؟

فلم ينبس أخو الجهالة.

ومضوا هم خفافاً، خلف المطعم بن عدي ورفاقه في السلاح إلى الشعب،

---

١. راجع البداية والنهاية ٣: ٩٣ ـ ٩٤.

٢. فغر فاهه: فتحه.

٣. الخرّاص: الكذّاب، المفتري.

فأخرجوا المقطوعين فيه من حصارهم إلى ديارهم، وقد أمّنوا لهم طريق العودة إلى البلدة.

* * *

وتحوّل اتّجاه التيار، تبدّلت الأمور غير الأمور، كلّ فريقٍ من الناس ظهر وما هيّئ له، وعلىٰ ما أخذ ذلك الموقف منه أو أعطاه، فكأنّ صحيفة القطيعة إذ انشقّت، تفتّق سرّها عن جندلٍ[1] اعترض ماء جدولٍ فغيّر مجراه.

فأصحاب الشعب أجمعين استقبلوا الحرّية رافعي الرؤوس، مشدودي القامات، علىٰ ثقةٍ وطيدةٍ بالذات، وبجدوى الإصرار والثبات.

والحرّية انتصار ... وليس شيء يضاهيها قيمة في قاموس كرامة الإنسان.

الذين دخلوه منهم وهم مسلمون غادروه وإنّهم أكثر قوة شكيمة، وأعظم متانة أسر منهم في بدء الحصر، خرجوا وهم أصلب صلابةً من الصلب، أنقىٰ نقاوةً من الذهب، أشدّ شدّةً من العذاب.

صهرتهم بنارها الويلات، فخلصت نفوسهم ممّا كان عالقاً بجواهرها الفطرية من بقية خبث الجاهلية ونفاية عبث الشيطان، صقلهم الصبر، ازدادوا إيماناً علىٰ إيمان.

والذين ـ عن غير هدىٰ ـ رافقوا المؤمنين في رحلة القطيعة، استجابةً لنداء الدم، وصَغْواً[2] لصلات الرحم، وجنوحاً[3] مع العصبية، ما أن خلفوا وراءهم في الشعب المعيشة الضنك حتّىٰ خامرهم الشعور بأنّهم يتقلّبون على الشكّ تقلّب أرِقٍ[4] علىٰ فراشٍ نصف حشوه شوك ونصفه الآخر حرير.

والشك ـ عادةً ـ طريق المعرفة، وأحياناً خطوة إلى اليقين.

---

١ . الجندل: الصخر العظيم.

٢ . الصَغْو: الميل إلى الشيء.

٣ . جنح إليه: مال إليه.

٤ . أرِقَ أرقاً: ذهب عنه النوم في الليل، فهو أرِقٌ وآرقٌ.

والذين عاضدوا[١] محمداً علىٰ حرف، كان من الطبيعي أن يدركوا ـ أو كثرتهم ـ أنّهم غدوا منه أقرب، ربّه أعرف، وله أطوع منهم قبل بدء الحصار.

ربّما لأنّهم عايشوه، أو خايلتهم منه أقباس نور، أو شاموا في الغد المقبل الرجاء، أو استوعبوا عبرة التجربة التي فرقت الحقّ من الباطل، ومازت[٢] الطيّب من الخبيث.

لا جرم ولا جدال، فحياتهم قبل صحبتهم له بمنفاه كانت تيهاً هائلاً من الفراغ، أرواحهم كانت جوعىٰ، وأفئدتهم ظماء[٣]، كانوا كمثل التربة البكر، تتوق للقطر، وتنتظر المحراث، ليخرج زرعها شطأه، وينشر النضرة والخير.

ولابدّ قد تأثّروا به، لابدّ قد طوفوا مع دعوته إلى الإسلام ببعض جوانب الحكمة الربانية تطوافهم خُشّعاً بالمسجد الحرام، لابدّ قد استهواهم ترتيله القرآن، وتفصيله آياته، وتحليله معانيه استهواء الرحيق النحل، والضياء الفراشات، والخضرة العصافير.

كانت نفوسهم ترفرف مع أفكاره حول الذكر، تحويم الطير حول مواطن الحبّ والماء، انتجاعاً[٤] لما يسدّ الرمق، ويطفئ الأوام[٥]، فتغدو وهي صَديا خِماص[٦]، وتوشك أن تروح وهي ريا بطان[٧].

ولم لا؟ فلعلّ الله أن يفتح لهم باب الطاعة، لعلّه أن يرزقهم الهداية ﴿وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾[٨].

أو كأنّهم النحل إذ أوحىٰ ربّك إليها: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ ٱلشَّجَرِ

---

١ . عاضد: أعان.

٢ . ماز الشيء عن غيره: إذا انفصل وانعزل عنه.

٣ . ظماء: عطشىٰ.

٤ . المنتجع: الموضع يقصده الناس في طلب الكلأ، يقال: استنجع القوم فانتجعوا.

٥ . الأوام: العطش.

٦ . الصَدْيان: الجوعة، والخِماص: جمع خمص، وهو النحيف الضامر البطن.

٧ . الريان: ضد الصَدْيان، والبطان: جمع بطن، وهو ضدّ الخمص.

٨ . العنكبوت: ٦٠.

وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾[1].

ورحمة الله قريب.

* * *

والمستضعفون في الأرض كانت لهم يوم الأرضة فرجة لم تُخْفَ على راءٍ، تخالسوا فيها البسمات، وطابت نفوسهم أن أقمأ[2] الله البُغاة العُتاة.

أمّا رؤوس الشرك فقد أعمتهم جهالتهم عن رؤية النور، باتوا وأصبحوا، ثم أصبحوا وباتوا وهم وهم من غيظهم في ضلال وسعر، لاهدتهم آيات ربّك، ولا كفّتهم عن غيّهم نذر، كانوا كقوم نوح الذين أعضلوه، فشكاهم إلى الله: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَاراً﴾[3].

فلمّا أسرفوا في زيغهم عن الحقّ دعا عليهم: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾[4].

---

١. النحل: ٦٨ ـ ٦٩.

٢. أقمأ: أذلّ، وقمأ: قمع.

٣. نوح: ٥ ـ ٧.

٤. نوح: ٢٦.

اللوحة الرابعة

الخروج

عندما تريد المشيئة الإلهية يتحقّق المستحيل، تتقلّب الأوضاع، تتغيّر المعايير، تبطل النواميس البشرية، وتعمل أخرىٰ ربانية تدحض ما يوقن العقل الإنساني أنّه الحتمي اللازم، والمنطقي المقبول، لتأتي دونه بما هو معجز غير معقول، ومـخالف لطبيعة الأمور.

ويوم الأرضة من هذا القبيل.

فلقد كان فاصلاً بين نوعين مختلفين من السلوك: السابق منهما طفق[1] المسلمون فيه يلجأون ـ ما وسعهم ـ إلى الامتناع من أذى قومهم بجوار هذا وذاك من سادة قريش وأشرافها ذوي النفوذ، واللاحق منهما كان دأبهم علىٰ توجيه مسيرة الرسالة وجهةً جديدةً، بجهدهم الخاصّ، دون تكلّف سعيٍ لتلمّس عونٍ من لدن أحدٍ مـن عليّة قومهم، ولا تطلّع نحوه للدخول في حماية مجير.

ما من فردٍ بين جماعتهم التي انشقّ عنها الحصار، إلّا أحسّ بعد خروجه مـن الشعب أنّه أخذ بقواه الذاتية: المعنوية والمادية، ينطلق قُدُماً بالدعوة إلى دين الله، إن لم يكن عَدْواً فهرولة فوق أرضٍ من كفاحه جديدة.

---

١ . طفق: جعل.

إن تكن مفروشة بالعوسج[١] فهي أيضاً ممهودة، أو يكتنفها الخطر فهي ألين مواطئ وأكثر تعبيداً، أو تحفّها المصارع فهي أوسع مدارج، وأرحب فجاجاً، وأفسح حدوداً.

وبقدر ما كانت الأرضة تعبث في صحيفة القطيعة، طوال سنين ثلاث على ونىً وهون، لتميط[٢] للعالم اللثام عن سرّها الذي خالف المنتظر وحيّر الأفهام، بقدر ما راحت الوقائع بعد انكشاف السرّ تعبث بتعاقب الليل والنهار عبث إعصار أخرق[٣]، يطيح بكلّ ما يعترض سبيله من معالم الحياة.

فكما تذرو الأعاصير[٤] القشّ، تقتلع الإنسان من قدميه اقتلاعها الشجر والنخيل من الجذور، وكما تطير بالهشيم، وأعواد الحطب، وكثبان الرمل، تطير بالدور والرجام[٥] الثقال، بل هي تحِتّ[٦] تربة الأرض وصخر الجبال.

إنّها لا تدع قائماً إلّا مال، ولا مائلاً إلّا رقد، ولا راقداً إلّا تبدّد لولا علائم دارسة كبقايا الوشم[٧] على ظاهر اليد، أو كأثر القدم فوق صفوان[٨] صلد عليه قسمة من غبار.

هكذا كانت الأحداث تهطع[٩] على رقعة الوقت؛ كالعاديات[١٠]، نبضها[١١] سريع،

---

١ . العَوْسَج: نوع من الشجيرات شائكة الأغصان، مفرده: عَوْسَجَة.

٢ . تميط: تكشف، تزيل.

٣ . الخَرَق: ضدّ الرفق.

٤ . تذرو الريح التراب: إذا سفته ونثرته. والأعاصير: جمع إعصار، وهو ريح شديدة تثير الغبار فيرتفع إلى السماء كأنّه عمود.

٥ . الرجام: الحجارة الكبيرة.

٦ . الحتّ: الفرك والحكّ والتقشير.

٧ . الوَشم: ما ينقش على الجسم من نقوش، وذلك إذا غرزها بإبرة ثم ذرّ عليها النؤور أو النيلج، وجمعه: وشام.

٨ . الصفوان: الصخرة الملساء.

٩ . تهطع: تسرع.

١٠ . العاديات: الخيل المغيرة.

١١ . النبض: حركة دقّات القلب الظاهرة في العروق.

حركتها ثورة، خطاها وثّبات، مشيها كلمح بالبصر، تترىٰ دراكاً كلهفان[1] مبهور، تطفر فوق الأيام.

من فرط وفرتها وتزاحمها ضاقت بها جعبتها الزمنية، حتّىٰ لكادت تنفجر، فتتناثر دقائق ولحظات!

* * *

إنّه ليوم يذكّر بيوم خروج بني إسرائيل، يعيد إلى الذهن قصة انتصار موسى الكليم علىٰ فرعون ذي الأوتاد، فهذه القصة[2] تحكي فتقول: «...وأمّا موسىٰ فكان يرعىٰ غنم «يثرون» حَمِية، كاهن مديان[3]، فساق الغنم إلى وراء البرية، وجاء إلى جبل الله حوريب، وظهر له ملاك الربّ بلهيب نارٍ من وسط عليقة[4]، فنظره وإذا العليقة تتوقّد بالنار، والعليقة لم تكن تحترق...».

﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى * فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾[5].

تقول التوراة[6]: «... ثم قال: أنا إله أبيك، إله إبراهيم، وإله إسحق، وإله يعقوب، فغطّىٰ موسىٰ وجهه لأنّه خاف أن ينظر إلى الله، فقال الربّ: إي قد رأيت مذلّة شعبي الذي في مصر، وسمعت صراخهم من أجل مسخّريهم، إنّي علمت أوجاعهم، فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين، وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرضٍ جيدةٍ وواسعةٍ،

---

١ . اللهفان: المتحيّر المضطرب لأجل شيء ما.

٢ . سفر الخروج: الإصحاح الثالث/ ١ و٢ (المؤلّف).

٣ . يريد «مدين» (المؤلّف).

٤ . العليقة: الكومة من النبات والشجر يقدَّم علفاً للحيوان أو لاشعالها.

٥ . طه: ١٠ ـ ١٣.

٦ . سفر الخروج: الإصحاح الثالث/٦ ـ ٨ (المؤلف).

إلىٰ أرضٍ تفيض لبناً وعسلاً...».

وبدأ موسىٰ وقومه يتأهبّون للنزوح من مستقرّهم ذاك الذي كان لهم منزل هوان ومذلّة، تقول التوراة[1]: «وكلّم الربّ موسىٰ وهارون في أرض مصر، قائلاً: هذا الشهر يكون لكم رأس الشهور، هو أول شهور السنة...».

وتقول: «... ويكون لكم هذا اليوم تذكاراً، فتعيّدونه عيداًللربّ، في أجيالكم تعيدونه فريضةً أبديةً...».

وأخلىٰ ناموس البشر طريقه لناموس السماء، توالت الآيات، بطل سحر فرعون، تعاقبت على الطاغية النكبات كما لم يطف بحقيقة ولا خيال.

ثم انفلق البحر فرقتين عظيمين، فمشىٰ علىٰ قاعه الهاربون من الطغيان، ثم التأم الفرقان، فإذا فرعون وجنوده من المغرقين، ثم بلغت الفئة المستضعفة أرضاً أخرىٰ، لهم فيها رغد وأمن وحرّية ... إلى حين!

* * *

لو فطن أهل الإسلام من بَعدُ، وهم يراجعون مراحل جهادهم في الله، إذن لأجمعوا علىٰ أن يكون يوم خروجهم من شعب أبي طالب يوم عيد، تماماً كما فعل بنو إسرائيل بيوم الخروج من مصر إلى أرض كنعان، تماماً كما فعل رسول الله عندما رأى اليهود بالمدينة تصوم يوم عاشوراء، فقال: «نحن أولىٰ بموسىٰ منهم»[2]، وصام.

* * *

ومع ذلك، فلم تكن الأشهر التاليات لانحسار الحصار خاليةً من المعاناة، لا هي رخاء، ولا أتت بنصر، ولا تلوّنت بأملٍ يملي لهم في الطمأنينة ... بل قد كانت أحفل

---

١ . سفر الخروج: الإصحاح الثاني عشر/١ و٢ و١٤ (المؤلّف).

٢ . أخرجه البخاري ٤: ١٧٦٤ كتاب التفسير ب٢٢٩ تفسير طه ح٤٤٦٠، وفي ٢: ٧٠٤ كتاب الصوم ب٦٨ صيام عاشوراء ح١٩٠٠.

بالآلام، أثقل بالهموم، أفدح حملاً من أبي قبيس وثبير[١]، أدعىٰ لاستفاضة الأشجان، لتجدنّها، إذ استروحت منها نسمة، مخضّلة[٢] بالدموع.

وهل من مراء؟

فالأشياء ـ كالأناسي ـ لها بسمات ولها شؤون، تفرح وتحزن، تضحك وتبكي وإن لم نُحَط بما علّمها ربّها من لغتي الضحك والبكاء.

فكم أطاع قوم الله، فتهلّل فرحاً لطاعتهم الوجود! وكم عصىٰ غيرهم وكفروا بأنعم الله، فأعجلهم بعذاب مهين ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾[٣].

موت خديجة وأبي طالب

ولقد قاست الزهراء في تلك الآونة أشدّ مقاساة، فلم تخطف علىٰ محيّاها عندئذٍ شعاعة ابتسام، ولا رأت عيناها شيئاً قطّ إلّا شاركهما الرؤية البكاءُ، ولا مرّ بسمعها سوىٰ أنين المعذّبين.

وأنّىٰ لها البسمة المضيئة، والنظرة المجلوّة، والنبرة[٤] الحلوة، وإنّها لفي شجن لبّس بأكدار وغموم، وليس كمثله بين الأشجان.

فلقد مضت خديجة، أكلت منها محنة الشّعب كلّ ما أبقته الأيام، ذهبت إلى ربّها راضية مرضية، تركت الدنيا إلى غير مآب[٥].

أفتمهّل بها الأَجَل قليلاً حتّىٰ تخرج من ضيق الحصر والقطيعة، ومفازة الأسر والعذاب؟ أفقُضي لها ألّا تموت في مرابض الجوع، ومسارح الفقر واليباب؟ أفشيء أن تطبق جفنيها، وهي علىٰ فراشها في بليّتها بجوار الحرم، فتملأ عينيها بالأحبّة

١ . أبو قبيس وثبير: جبلان قرب مكة.

٢ . مخضّلة: مبتلّة.

٣ . الدخان: ٢٩.

٤ . النبرة: الصوت.

٥ . المآب: الرجعة، العودة.

العزاز، وبمنزل الذكريات الذي عاشت فيه وزوجها الكريم أحلىٰ أيام العمر، وخاضت وإيّاه أعظم معارك الكفاح؟

فها هي فاطمة، ما كادت تتنسّم بعض عبير الحرّية، حتّىٰ فقدت أجلّ ما لأيّ إنسان في هذه الحياة، فقدت الأم التي ليس كمثلها أُمّ في الأمّهات، على اختلاف الأصول وتغاير الأرومات، غدت الدار التي كانت منبع أفياض الحبّ، ومرتع المنى العذبة، ومصدر إشعاع دفء الحنان، وهي توشك أن تضيق عليها ضيق القبر الذي ضمّ في ترابه جثمان الحبيبة.

ها هي فاطمة توشك أن تتبدّىٰ لرائيها شمعة أوقدت من طرفيها، فسرحت عليها نيران الأسى اللاهبة من هنا ومن هناك، كأنّما لتعجل بها إلى الذوبان.

إنّها هنا في البيت، تحنكها[1] لوعة الفراق علىٰ أُمها الغالية، حاضنة الإسلام، وإنّها هناك من البلدة، على الدروب، وفي الأندية، وحول الحرم وبين الأحلام تهبّ نسمات حارّة، إن يكن رطبها رذاذ دموعها فهي تحسّها ـ من فرط الحرقة ـ كأنّما تكاد تشوي الوجوه.

وحقّ لها هذا الشعور.

فلقد رحل أيضاً عن دنيا الأرض شيخ بني هاشم: أبو طالب، حامي الإسلام، والمناضل عن الرسول، ولم تكن بين خروجه من الشعب وبين موته مهلة تكفي لتمام دورة الضلال، ولا بين رحيله ورحيل خديجة إلّا ثلاثة أيام.

ولم يكن وَجْد[2] أشدّ وقعاً علىٰ كلّ نفسٍ زكيّةٍ، وقلبٍ سليمٍ، من ذينك الخطبين الفادحين... حتّىٰ لقد عُرف العام، طوال الزمن، على الشفاه وفي الأخلاد، بأنّه «عام الحزن».

وحتّىٰ لقد ذكر أنّ رسول الله قال: إنّه اجتمعت عليه بهما مصيبتان، لا يدري

---

١ . تحنكها: تستولي عليها.

٢ . الوَجْد: الحزن الشديد.

بأيّتهما هو أشدّ شجناً وألماً، وأيّتهما هي عليه أثقل وأفدح.

لا غرو، بل لا يعسر أن يقال: ربّما أحسّت الزهراء أنّ ثمّة أيضاً في وسط الشمعة ذبالة[1] ثالثة أخرىٰ، تزيدها احتراقاً على احتراق، وتضيف إلى قدرتها على الانصهار قدرةً تعدو بها، وتقفز قفزاً إلى مشارف النهاية.

أوَ ما كانت تدرك أنّ أباها قد أصبح ـ من همّيه هذين ـ كمن لا يطعم غير الحنظل، ولا يشرب غير الصاب، ولا يتنفّس ملء رئتيه غير لفح اللهيب؟

أوَ ما كانت ترىٰ كيف تضاعفت عليه آلامه، وتحالفت عوادي أيامه، بعد أن غاض[2] من واحة حياته ينبوع الحبّ والحنان، وتقلّصت الأفياء[3] والظلال؟

بل إنّ هذا لمحتوم، وليس بموهوم، فالثرىٰ غيَّب عنه قرينة نفسه، رفيقة أُنسه، شريكة فرحه وشجنه، ملاذ سرّه وعلنه، المملية له ـ حين اليأس ـ في الرجاء أحلى الرجاء، الفادية له ـ حين اليأس ـ بالفداء أغلى الفداء.

أو ما كانت الزهراء تدري كيف هان أبوها علىٰ رؤوس الشرك من سادة قومه، بعد أن مات أبو طالب، وعدم موته الظهير والنصير، فإذا قريش كلّها عليه إلْب[4]، تكيد له كيد حسد، وتغري به إغراء حقد، حتّىٰ صار مطمعاً سهلاً لسفاهة الحمقى الأرذال، ومرتعاً مستباحاً لسفالة الطُغّام الجُهّال، كأنّه مُتنفس سهامٍ يتبارىٰ في التسديد إليه وإصابته رمي الرُماة؟

بلىٰ! قد كانت.

بلطف الحسّ كانت تدرك، وبرفّ العين كانت ترىٰ، وبرهف السمع كانت تدري هذا وغيره ألمّ بأبيها، ثم لا تكاد تحاجز دونه إلّا بصمت المحسور.

* * *

---

١ . الذبالة: الفتيلة.

٢ . غاض: قلّ ونقص.

٣ . الأفياء: جمع فيء.

٤ . الإلب: العداوة.

غير أنّها بين اللحظة واللحظة، كانت لا تملك إلّا الدوران ببصرها مع الجدران، عسىٰ أن تحدّثها بحصيلة السنين.

ولم يكن ما تهفو إليه حديث شفاه، إنّما حديث ذكريات، والذكريات خيالات.

لا هي عبارات ولا كلمات تنتقل علىٰ أوتار الصوت إلى الأعصاب السمعية، سواء أأفصحت وأبانت، أم أبهمت وغمضت، أم اضطربت في سياقها مواقع المقاطع من المقاطع، واختلطت صلات الحروف بالحروف، بل هي صور كأنّما رسمت بريشة الضباب مشاهد لشخوص وأشياء، تؤوب من أمس الزمن قبل أن تلتقمها كهوف النسيان، تنبعث مثل انبعاث الموتىٰ من القبور يوم النشور وهم في الأكفان، تترىٰ علىٰ لوحةٍ لا مرئية، فلا يراها الرائي بلمح البصر، وإنّما يلقفها بأعينٍ لا مرئية

وكانت فاطمة دائماً تحرص علىٰ أن تلتقط من هذه المرائي ما تحبّ، حرصها على التقاط درر من مرعىً كثيف الأعشاب، فلها إليها شوق وحنين، ولها فيها سلوىً وتسرية، وإذا كان حزنها يتجدّد مع كلّ مشهد، فلاستعادة الحزن متعة لا يعرفها إلّا من فجع في حبيب.

ألا تختلس من عمرها لحظات، تعيش فيها مع الغالية الحبيبة، العائدة إليها علىٰ ومض الذكرىٰ من مقرّها البعيد؟

* * *

وهيّأت نفسها للحظة الإيّاب.

إنّ كيانها ليتفتّت حسرات، الدم في عروقها دموع، خلجات الخاطر أنين، قلبها ينتفض كطائر جريح، بين سحرها ونحرها أنفاسها تتردّد كحشرجة ذبيح.

وعندما خالت أنّ الموت بدأ يحلّق في جوّ الغرفة، وقعت عينها اللامرئية علىٰ أُمها في فراشها مسجاة[1]، وهي من فرط ما دقّ جسدها ورقّ كطيف، ومن فرط ما

١ . مسجاة: ممدّدة.

ترهّف وشفّ كأنّها شعاع.

وبصرت بنفسها وبأختيها: زينب وأم كلثوم، قد التفَفْنَ بالمضجع حلقةً، كأنّما ليكنّ وفاءً وفداءً لهذه الراقدة العزيزة فيدرأْنَ عنها سطوة المنون[١]، ورأت أباها يلزم جوار زوجه الفُضلىٰ لزوم ولهٍ[٢] ومودّة، فيهمهم[٣] بين اللحظة واللحظة بكلامٍ لم تكن تدري إبّانه ـ لانشغالها بكربها العظيم ـ أهو مسارّة ومناجاة أم هو هينمة[٤] ودعاء إلى الله ربّ الموت والحياة.

ثلاث ليالٍ وثلاثة أيامٍ مضت ومحمد حينئذٍ لا يبرح الدار، ثم لا يميل عن ذلك الجوار.

فإن تكن الزهراء التقطت خلال تلك الآونة، مرأىً أو صوتاً، من لدن الأُم، فإنّه القلق الذي يترقرق في عينيها كالدموع، أن أزف[٥] أوان رحيلها عن زوجها الحبيب، وهو أشدّ ما يكون حاجة إلى وقوفها معه، تسند ظهره، وتثبت خطاه في وجه أبالسة الشرك، حصب الجحيم.

وإنّه اللهفة التي تغشىٰ محيّاها وهي تنقّل بصرها علىٰ وجوه فتياتها الثلاث مراراً مراراً، كأنّما تتفحّصهنّ، وتبحث بينهنّ عن تلك الرابعة، الغائبة عنها من بضع سنين وراء البحر بأرض الحبشة، فيرتدّ إليها بصرها وهو حسير... وإنّه اضطراب شفتيها ممّا هو أدنىٰ إلى الأنين، إذ ترتعشان بكلامٍ ما هو بمسموع، ولا له في العالمين سميع، تعبيراً صامتاً عن لواعج[٦] بينها عن الأحبّة، وانقطاع لقائها بهم إلّا في علّيين.

أو تكن الزهراء التقطت من لدن أبيها، مرأىً أو صوتاً، فإنّه الدموع علىٰ وجنتيه

---

١ . السطوة: البطش بالقهر، والمنون: جمع منيّة، وهي الموت.

٢ . الولَه: الحبّ الشديد.

٣ . الهمهمة: ترديد الصوت.

٤ . الهينمة: الصوت الخفيّ.

٥ . أزف: دنا.

٦ . اللواعج: خلج الصدر المحرق.

إذ تجري أسفاً أن قد حانت ساعة الوداع، وأوشك أن تنفصل عنه هذه القطعة الجليلة من حياته، الأثيرة عليه، والأحبّ إليه من كلّ ما في العالم من خلائق وموجودات.

وإنّه القول إذ ينطلق به قلبه قبل أن ينطلق به لسانه، فتحسّه دعاءً إلى الله لها بالرضوان، أو تلاوةً من آيات القرآن، تثبيتاً لها وإن كان قلبها من إيمانها لفي قرارٍ مكين.

وإنّه النجوىٰ يخافتها بها تسريةً ودعابةً، فإذا وجهها يشرق، وإذا البسمة علىٰ ثغرها ترفّ كومضة نور.

وربّما شاء مرةً أن يرقّه عنها، فنأىٰ بذهنها عمّا يشغله من قلق البال، وبنفسها عمّا تكابد من استغراق في هموم الفراق، فمازحها بأن قال: «يا خديجة، أتكرهين ما أرىٰ منك وقد يجعل الله في الكره خيراً؟... أشعرت أنّ الله أعلمني أنّه سيزوجني؟»[١].

فهل طاف بوجهها أثرٌ للغيرة التي تعصف ـ في مثل هذا المقام ـ بقلوب غيرها من النساء؟

لا! بل قالت بكلّ الرضا والمودّة والإيثار: بالرفاء والبنين.

ولقد وقفت عائشة من بعد، موقفاً كهذا الموقف، فكيف كان سلوكها إذ يقارن بهذا السلوك؟ وهل تباين أم تطابق السلوكان؟

كان ذلك والرسول في مرضه الأخير إذا أحسّت عائشة صداعاً، فشكت: وارأساه!

فلمّا كرّرت الشكاة قال لها الرسول يداعبها: «وما ضرّك لو متّ قبلي فقمت عليك، وكفّنتك، وصلّيت عليك، ودفنتك؟»[٢].

---

١ . أخرجه الحاكم في المستدرك ٣: ١٨٦ كتاب معرفة الصحابة.

٢ . أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ ٣: ٣٩٦ كتاب الجنائز باب: الرجل يغسل امرأته إذا ماتت.

فهاجت بها الغيرة، وقالت: ليكن ذلك حظّ غيري! والله لكأنّي بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك!

* * *

كلا، لم يعرف العالم امرأةً قطّ أحبّت زوجها كحبّ خديجة لرسول الله، ولا تفانت مثل تفانيها فيه، ولا آثرته علىٰ نفسها، وعلىٰ كلّ غالٍ لديها وعزيز، كما وضعته هي فوق الإيثار.

ولم يعرف العالم أيضاً رجلاً كمحمد كان أحنىٰ قلباً على امرأته هذه وأبرّ بها منه، ولا أعظم حبّاً، ولا أصدق عاطفةً، ولا أحفظ لذكرها في حياتها وفي مماتها على السواء ... بل قد ظلّ يعايشها بكلّ أحاسيسه الطاهرة والنقية، بعد أن رحلت بعيداً عن هذا الوجود.

كانت له كالشمس، يخلب مرآها العين عند بدء الشروق، كما يسحرها لحظة الغروب، ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام، والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر، والكون صحيفة، لما وسعها كلّها أن تحيط بمشاعر محمد نحو خديجة.

إذ هي نتاج عاطفة سخيّة بلا حدود، سماوية المعاني، قدسية الصفات، فيها دفء الحبّ، ورفق الحنان، ورحمة التوادّ، وجلال الإكبار، وعزّة الإيمان، وصدق التقدير، وكلّ ما يبلغ بها ذروة الصفاء والتنزّه، وأوج الكمال والجمال.

فعلىٰ تعدّد من بنىٰ عليهنّ بعدها من زوجات، ظلّت هي أبد عمره الماثلة دائماً في القلب والبال، وعلىٰ فرط حسن هذه أو تلك منهنّ حسن الأنثىٰ، كانت دائماً ـ برأي فؤاده، ونظر عقله ـ وإنّها للأحلى الأبهىٰ وإن جرت بها السنّ شوطاً إلى ما وراء نضرة الشباب.

وعلى الرغم من غيابها عنه في عالمها البعيد، فلقد كانت موصولةً به، وكان بها موصولاً، لا يفتر له حنين، كان يصفو إليها صفو توّاق، وكان يصبو صبو مشتاق.

فما فتئ يذكرها، صباح مساء، مع أيّ خاطر، وعفو الخاطر، كالقلب يخفق ولا يكفّ عن خفوقه في يقظة ولا منام.

إنّه يذكرها في كلّ الأحوال، تشابهت الظروف أو تقلّبت من نقيض إلى نقيض، يذكرها في الشدّة وفي الرخاء، عند الخطر وعند الأمان، مع اليأس ومع الرجاء، حين الضيق وحين الانفراج، أوان الحزن ولحظة السرور.

كلّ ما حوله كان يستنبتها في حقل حياته، حتّىٰ ليبدو للذين لا يستطيعون مطاولة حقيقة عاطفته، كأنّه يتلمّس ـ لاستحضارها في باله ـ شتّى الذرائع، ومختلف الأسباب.

فربّما تبرز كلمة فيها نبرة تشبه رنّة صوتها فيذكرها، وربّما يتفكّر في أمرٍ عند مقبل فيذكرها ... بل تذكّره بها هذه وتلك من بناتهما وهنّ دائماً قيد ناظريه.

والبلدة المقدّسة ... والمسجد الحرام ... والدار ... والسماء والأرض أيضاً، فتلك الأُولىٰ أظلّتها، وفوق هذه الأُخرىٰ درجت حتّى انطوت في حشاها الدفين.

* * *

وبدا من عائشة أنّها لا تطيق من زوجها هذا الذكر الموصول الذي يتدفّق كنهر سويّ المجرىٰ، شجيّ الأفياض.

أفتزاحمها علىٰ حبّ محمد هذه التي واراها التراب؟ أوَ كلّما رفّ لها ذكر، ولمحت له من سيرتها ومضة، عادت في كيانه ووجدانه إلى الحياة؟

أتراه دفنها في قلبه أم دفنها بالحجون؟

إنّ عائشة، الزوج الجميلة الصغيرة، لتضيق من زوجها بهذا الذكر، وتأكلها الغيرة:

مرّة قالت: ما حسدت امرأةً كما حسدت خديجة![1]

---

١ . أخرجه الحاكم في المستدرك ٣: ١٨٦ كتاب معرفة الصحابة، والترمذي ٥: ٧٠٢ كتاب المناقب ب٦٢ فضل خديجة ح٣٨٧٦.

ومرّة قالت: ما غرت من امرأةٍ لرسول الله ما غرت من خديجة، لما كنت أسمع ذكرها![١]

ومرّة قالت: كأن لم يكن في الدنيا سوىٰ خديجة![٢]

فلعلّ بهاء حسنها، وفورة صباها، وسبقها في قلب محمد علىٰ بقية نسائه، كانت تدفعها إلى ذلك الشعور الجامح الذي أملت لها فيه العزيزة.

فشتّان بين الشباب الريّق المستفزّ والكهولة الجافّة المهيضة[٣].

ومن ثم فلم تكن تستطيع إلّا أن تزهىٰ بما تلك من مزايا أُنثوية علىٰ تلك الراقدة في ثرى الحَجُون[٤]، ولا تملك عندئذٍ أشباهاً وقرائن، ولا أن تروّض فكرها علىٰ نسيان أنّها ضرّة، ولا أن تغفر لها أن شاركتها الزوج، ولا أن تقنع نفسها بأنّها لم تعش قطّ مع السيدة الأُولىٰ هذه المشاركة ـ وما كانت لتحياها ـ وهي بعد طفلة في سنيّ الرضاع، أو وهي حمل مكنون في بطن «أُم رومان».

لكنّها الغيرة!

ولكنّها غريزة الأُنثىٰ تجمح بها، مغمضة اللبّ والذهن والعين ... حتّىٰ تلهب بلسانها خديجة، وتخوض فيها، بغير تحرّز، وإنّها لبقايا رمام[٥]، وفتات عظام!

سمعت ذات يومٍ رسول الله يذكر أُم الزهراء ـ كمألوف عهده ـ فأثارها منه هذا الذكر، تغيّر لونها، وتقبّضت أساريرها، حتّى انقلب محيّاها المنبسط إلى عقدة من العبوس، وغامت عيناها بجهام غضبٍ شديدٍ، ثم انطلق صوتها حادّاً جارحاً، كسنّ قناة.

قالت بجفاء: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشَدْقَين، هلكت في

---

١. أخرجه مسلم ٤: ١٨٨٨ ـ ١٨٨٩ كتاب فضائل الصحابة ب١٢ فضائل خديجة أم المؤمنين ح ٧٤ ـ ٧٦.

٢. أخرجه الحاكم في المستدرك ٣: ١٨٦ كتاب معرفة الصحابة.

٣. المهيضة: المكسورة بعد الجبر.

٤. الحَجون: مقبرة على جبل بمكة.

٥. الرمام: العظام البالية.

الدهر، فأبدلك الله خيراً منها!![1]

فليتها راضت هواها، فصبرت علىٰ ما تكره إن كان في ذلك الذكر مكره! ليتها حبست في حلقها ألفاظها هذه الشوارد الحرون![2] إذاً لكان خيراً لها السكوت.

أم تنكر عليه كلمة طيّبة يرطب بها مرقد سيدة النساء؟ أم تنقم منه الوفاء؟

ما نحسب إلّا أنّها أوجعته، بل آذته أقسىٰ إيذاء، بل شقّت قلبه بجرحٍ عميقٍ، هو الذي كان يحرص دائماً علىٰ أن يتلقّاها بالترفّق، ويمحّضها التدليل.

ولولا حلم أُوتيه، لا يبخل بالصفح، ويتّسع لإساءات البشر أجمعين، لبادرها بغضبٍ حميزٍ[3]، كغضب ليثٍ جريح، لكنّه زجرها زجراً، إن تكن فيه مرارة اللوم والعتاب ففيه حسن التأديب والتهذيب.

أجاب: «والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي حين كفر الناس، وصدّقتني اذ كذّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الله الولد، دون غيرها من الناس».

ما كان أغنىٰ عائشة عن هذا الموقف!

أصابها الحسر، بهتت ... ندمت، ولات حين ندامة!

وهل من سبيل تستعيد به إلى الحلقوم ما فرط منها من كلام؟

وكان أشدّ ما حزّ فيها وآلمها من حديث الهول، هو ما أبطنته الجملة الأخيرة ... لَكَم وخزتها! كم أدمت كبرياءها الانثوية إذ شبّهتها ـ إيماءً وتكنيةً ـ بشجرةٍ من الأشجار الزينة، تنمو وتغصن وتفرع وتورق وتروق العين، ولكنّها عقيم لا تطلع ثمراً، بينما شبّهت ضرّتها بشجرةٍ طيّبة الجنى والثمار!

لكنّه لم يقل إلّا حقّاً.

---

١ . أخرجه مسلم ٤: ١٨٨٩ كتاب فضائل الصحابة ب١٢ فضائل خديجة أم المؤمنين ح٧٨، وحمراء الشدقين: تريد عجوز كبيرة جداً بحيث سقطت كل اسنانها ولم تبق سوى اللثّة الحمراء.

٢ . الشوارد: جمع شاردة، وهي البعير الذي ينفر. والحرون: الذي لا ينقاد.

٣ . الحميز: الشديد.

وعاهدت نفسها أن تملك هوىٰ غريزتها، ولا تعود مرةً أُخرى إلى زلّتها تلك التي ألقمتها مثل خرط القتاد[1].

* * *

أمّا محمد فظلّ عمره علىٰ نفس ما كانه من الراحلة العزيزة، فإن تكن صورة مشرّفة للحبّ الخالد الذي لا يهن ولا يحول، فإنّها تلك التي قدّمها لنا الزمن، من بَعدْ، مرسومة بريشة الوفاء.

حدث ذلك في يوم فتح مكة، في يوم النصر الأكبر الذي أعزّ الإسلام إلى أبد الآباد، عندئذٍ انسابت جحافل المسلمين، تزحف، وتحثّ الزحف علىٰ أُم القرىٰ، يقودها الهول.

وانتشر الجيش، وأطبقت كتائبه وسراياه على البلدة الحرام.

ورأىٰ محمد أن تُضرب له قبّة، يشرف منها علىٰ أرض المعركة، ويدير حركة القتال ... فأين اختار؟

أشار: «هنا!».

فضربوها له كأمره، إلى جانب قبر خديجة بالحَجُون، أفشاء أن يشركها معه في انتصارٍ كان لها في تحقيقه نصيب موفور؟

بلىٰ قد شاء!

وفاء!

وفاء، أيّ وفاء!

---

١ ـ القتاد: شجر له شوك كثير.

اللوحة الخامسة

لا تبكي يا بنيّة

كما لم ينفتح من قبل أمام قريش الطريق واسعاً، بغير حواجز ولا حوائل، لإيذاء أهل الإسلام بمكة، انفتح أمامها بعد ذهاب خديجة زوج الرسول، ومضيّ أبي طالب شيخ بني هاشم، في رحلتهما الدنيوية الأخيرة بعيداً عن هذا العالم.

فلقد بغت قريش وطغت أشدّ بغيّ وطغيان، غلت في النكال إلى أقصى الغلواء، سلكت بإيذاء حزب الله سلوكاً إنْ لم يكن هو الجنون فهو أعتىٰ شططاً من الجنون، فإذا هي تنقلب عليهم بكلّ ألوان الشرور والاضرار، متراوحة بهم بين ضروبٍ من العذاب، لا تعرف معنى الرحمة، ولا تنعطف إلى صلات الأرحام.

فهي تشاء، فتلهب جلود طائفةٍ بالسياط، أو تحرق بعضاً بالنار، أو تـلقي نـفراً على الرمضاء، في لظى الهجير[1]، وفوقهم من الصخور الصلاب أحمال وأثـقال، أو تشدّ الوثاق بالسلاسل، وتكبّل الأعناق بالأغلال.

وتلك أساليب في التعذيب انتهجتها من بدء الدعوة، همُّها أن تنال بها من عدوّها عسىٰ أن تعيدهم في ملّتها، وتفتنهم عن دين الله، كما ودّ حكّام الروم من بضع مئاتٍ من السنين أن يعيدوا في ملّتهم أُولئك الفتية أصحاب الكهف والرقيم.

---

١ . اللظى: اللهيب، والهجير: وقت أشدّ الحرّ.

فهل نسيت قريش ـ علىٰ كثرة ما أسلفت إليهم من الأذى ـ أنّهم صبروا، وكانوا خير مختبرٍ لليقين؟ أم غاب عنها أنّهم ظلّوا أوتاد إيمان؟

لكنّها الآن لا تكفّ تعاود التهجّم عليهم بمثل شراهة صدٍ[1] منهوم، مخبول الظمأ، وحشيّ الجوع، قد سلخت عنه رهف الضمير، وسلامة التفكير، وإنسانية الشعور، شهوة مجنونة للشراب والطعام.

فإذا القسوة وحدها هي الخمر التي تروي غليله، ثم تدير رأسه بسورة النشوة، وإذا النكال هو وحده المأكل الذي يمسك عليه رمقه، ثم يتخم فيه ما أفرغت سورة الخبال!

* * *

غير أنّ هذا الذي أتته من إدٍّ[2] لم يكن ليقضي له وَطَرها[3] الذي تريد.

فدونها ودون أولئك القلّة المسلمين، الخارجين علىٰ نظام شريعتها الوثنية، محمد بن عبدالله الذي عجمته[4] سنين عدداً، فوجدته لا ينكص ولا يهادن، ولا يلين له عود، فهو ثابت ثبوت طود، وهو صلب في الحقّ كالماس يقطع الحديد ولا يخدشه الحديد، وهو محاجز بينها وبين أتباعه كالسدّ.

وما دام ثابتاً أمامها هكذا ثباته في صلاته، قائماً قيامه في شموخ، فما لها إلى نقض دعوته، وفضّ أصحابه عنه من سبيل.

ونفضت قريش جعبة عدوانها، فإذا هي تقع فيها علىٰ سلاح آخر خبيث، إن تكن قد استخدمته من قبل بعض استخدام، فإنّها لم تحسن الصول به كما ينبغي أن يكون الصيال، ولم تمل له في القطّ والقدّ ليفعل فعله، ويثمر أثره الباتّ إذ كانت تراه إلى

---

١ . الصدىٰ: العطش، فهو صدٍ وصادٍ وصَديان.

٢ . الإدّ والإدّة: الأمر الفظيع.

٣ . الوَطَر: الحاجة.

٤ . أعجم الشيء: إذا امتحنه واختبره.

يومها هذا كأنّه النافلة بين عدّة القتال.

فليست القوة المادّية وحدها بكافية للخلاص منه ومن الذين اتّبعوه، وليس التهجّم بالعنف هو القادر دون غيره من الوسائل علىٰ حسم الأمر.

ذلك لأنّ القوة دفع خليق بأن تقابله مقاومة أو دفع مضارّ، ولأنّ العنف الذي تحمل به عليه، حقيق بأن يغريه بالتصلّب، ويدفعه إلى الأمعان في العناد.

فالبطش قد يؤذي البدن، ولكنّه لا يقضي على الرأي، بل لعلّه ينميه ... والقهر لا يدحر الفكر، بل الأفكار هي التي تدحر الأفكار.

فدفع قريش إذاً مردود، وعنفها أيضاً مردود.

ولئن قيل في المثل: لا يفلّ الحديد إلّا الحديد، فهناك في جانب قريش حديد، وهنا في جانب أصحاب محمد حديد ليس من جوهر ذلك المعدن الأرضي، بل من صهير نفوس أذهبت خبثها حرارة الإيمان، ثم قسّتها[1] كما يُقسّى الفولاذ!

ومهما استطال الوقت بالفريقين، فالجلاد بينهما لا محالة باقٍ زمناً أحرىٰ بأن يمتدّ إلى أمدٍ غير معلوم، قد تتغيّر خلاله الظروف فينقلب الميزان.

فأيّ مضمارٍ حتم علىٰ قريش ـ لتحرز نصرها الحاسم ـ منازلة محمد فيه؟

* * *

بل أنّها لمضامير!

فعقول من حول أُم القرىٰ من القبائل مضمار، وعيون المكّيين مضمار، وقلوب أصحاب النبي مضمار.

ومن سبر غور نفوس سادة قريش، وعرف لها ولعها بالتعالي علىٰ غيرها من أقوام، وإلىٰ أيّ حدٍّ يشغفها التيه، وتستخفّه الخيلاء، تيسّر له أن يدرك أنّ سلاحها الذي شحذته لمعركتها القادمة، هو تهوين شأن من يناوئها، وتحطيم عزّته، وإذلال

---

١ . قسّىٰ وأقسىٰ الشيء: إذا صيّره قاسياً.

كبريائه بين الناس، لتمدّ لنفسها في المفاخرة والمباهاة، وتكون لها وحدها الكبرياء من دون الناس.

ولم يكن عسيراً علىٰ قريش تنفيذ هذه السياسة في تلكم المضامير.

فأهل مكّة أمرهم عليها هيّن، وقيادهم سهل كالمطايا الذلول، لأنّهم له تبع وأشياع، تورد فيوردون، وتصدر فيصدرون، بل هم لها سهام القسيّ، ونصال الرماح.

والضاربون حول البلدة المقدّسة، في الحضر والبوادي، ما لها من حاجة لانتجاعهم حيث يقيمون لإثارتهم وتأليبهم، لأنّهم لا يكفّون عن ارتياد مقامها لزيارة البيت المعمور في المواسم، أو لقاءٔ علي البيع والشراء.

أمّا الفئة المسلمة فهم المضمار الأوعر[١] وإن كان لا مناص لها من اقتحامه، لأنّه الأولىٰ بالصيال فيه.

ولقد حانت الساعة الآن.

فليس وقتٌ أنسب من هذا الوقت للنفوذ إلى محمد من خلالهم، وإطفاء نور مهابته في قلوبهم، بضربة بالهانة والتصفير، إذ أصابه ما أصابه بعد أن رحلت عنه زوجه: شادَّةُ أزره في البأساء والضراء، وعمّه: حاميه الذي لم يكن له في الحمىٰ نظير.

فضياع المهابة هبوط، والهبوط مهوىً وتدهور.

وعندما تنزلق القدم علىٰ شفرة حفرة، فلا ممسك لها من التدهور سوى القاع! وإذا المرء هان علىٰ مناصريه ومريديه، فهو إذاً أهون علىٰ مناوئيه ومبغضيه.

ولقد رأىٰ أعداء محمد، بعد فجيعته في عزيزَيْه، وشماتة قريش به، أنّه في حالةٍ معنويةٍ رثيثةٍ، كثَوْبٍ نهشه البلىٰ، وغالته الخروق إلّا القليل، فهو كاسف البال حتّى الجمود، بيّن الحزن حتّى الجزع، موصول الألم حتّى الانهيار.

كذلك خالوه!

---

١. الأوعر: أي الأكثر وعورة.

وليس هدفٌ يُرام أيسر على التسديد والإصابة من فكرٍ مشغولٍ تداولته الظنون، وقلبٍ شجٍ أثقلته الهموم.

فالجوّ النفسي العكير له أبلغ الأثر في توهين طاقة الإنسان، واستنزاف قدرته على الثبات.

ومن ثمَّ خفّ أبالسة الكفر إليه، وهو في إبّان محنته النفسية هذه، ناشطين إلى المكر به، والإطباق عليه بما أعدّوا من صنوف الإذلال، إطباق الظلمة على النور، عقب الأصيل بعد انقضاء وقت الزوال.

قرّ في أخلادهم أنّهم لابدّ سيوهنون أمنه، وينحرون ثقته، ويهتكون عنه ما اكتساه من قلوب صحبه ورفاق دربه من جلال، فإذا هو أمام رأي الأفكار ورمق الأعين مفضوح السوأة عريان إلَّا من معرة الهوان.

بل ضلّ ما يمكرون! بل هم في وهم ممّا يخالون!

فليس مكرهم السيّء إلَّا كجُفاء السيل، كخفقة سراج ترتجف لتهمد إذ جفّ الزيت، كمثل خسوف القمر، أو كسوف الشمس، لن يمحو أيّهما آية النور، ولا يغشاها إلَّا طرفاً من ليل، أو ساعةً من نهار.

أمّا لو كفّوا عنه، لكان أولىٰ لهم، وكفوه!

ولقد أسلف إليهم عتبة بن ربيعة يوماً النصح، فلم يرضوا منه، وعابوه:

بعثت قريش الشيخ إلى محمد يعرض عليه المال، والسيادة، والملك، ويردّ نفسه ودعوته عنهم.

فلمّا انتهىٰ حديثه، عقّب الرسول: «لقد فرغت يا أبا الوليد؟».

ـ نعم.

ـ «فاسمع منّي».

وتلا عليه من القرآن، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك!».

فقام عتبة عنه إلى قومه، وقد أخذه كلام الله. فلمّا سألوه: ما وراءك، يا أبا الوليد؟

قال: يا معشر قريش، أطيعوني، خلّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله

ليكوننّ لقوله الذي سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به[١].

لكنّهم أبوا الرأي، ولجوّا في الغيّ... فإنّها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

* * *

وكذلك هم الآن.

بكلّ ما جبلوا عليه من خبث السلائق، وخسّة الطباع، وفساد الأخلاق، قادهم عماهم إلى الكيد لرسول الله، والنيل منه، والتهجّم عليه.

لاحقوه بالإهانة، تعقّبوه مع الليل والنهار، حيثما حلّ وأقام، أو مضىٰ وسار، عند الكعبة، وبالأندية، وفي الأسواق، وعلى الدروب.

لم يدعوا لوناً من سفهٍ إلّا لطّخوه به، ولا حمقاً إلّا ارتكبوه، ولا فحشاً من فعلٍ أو قولٍ إلّا أصابوه به، لا يرعوون ولا ينتهون، كأنّما الفحش لهم فريضةٌ ونافلةٌ يؤدّونها عن التزام دين، أو قرابين يقدّمونها زلفىٰ إلى الطاغوت[٢].

ولقد نعلم ويعلمون أنّ الناس منذ أقدم العصور تواضعوا علىٰ آداب عامة للسلوك لا تفتك بها ضراوة عداوة، ولا يهدرها عتوّ شحناء[٣].

فللخصومة حدود تنتهي حيث تبدأ إنسانية الإنسان وللحروب أعراف لا تُستباح، وإن رخصت في الوغى الدماء، وهانت الأرواح، فليس من شرف القتال ـ علىٰ سبيل التمثيل ـ التمثيل بقتيل، أو قتل أسير، أو الإجهاز على جريح، أو القضاء على الأطفال والصغار، أو انتهاك حرمة النساء، أو إهلاك سائمة، أو استئصال الشجر وإتلاف الثمار.

---

١ . راجع البداية والنهاية ٣: ٦١ ـ ٦٢ باب مجادلة المشركين رسول الله ﷺ.

٢ . الطاغوت: يريد الشيطان.

٣ . الشحناء: العداوة.

وإذا كانت هذه هي بعض مبادئ الأخلاق الواجبة الاتّباع في ميادين النزاع المسلّح، تكريماً للبشرية، وارتفاعاً بها عن التدنّي إلى غرائز الحيوان، فإنّ النزاع السلمي في ساحات النقاش والجدال أحرىٰ بأن تكون له آداب تحقّق هذا التكريم.

وهي آداب لا تُعضل أحداً يعرف لآدميّته حقّها، سواء أكان من الخاصّة والأشراف أم من العامة وعرض[1] الناس، فيها حسن الإصغاء، وعفّة الأُسلوب، ومقابلة الرأي بالرأي، وصون اللسان عن الهمز واللمز، وعن العيب والسبّ، والكفّ عن القهر الفكري، واجتناب التنابز بالألقاب.

لكنّ قريش ـ على ما قيل من اشتهارها بالمروءة، وامتثالها كرائم الشِيَم ـ نسيت هذا كلّه، وأعجلت إليه بنقائض هذه الآداب، تهجّمت عليه بالزراية والتحقير، داهمته بكلّ دنيء وخسيس.

ولو أنّها وكّلت أمره إلى حفنةٍ من غلمتها الذين لم يبلغوا الحُلُم، يسوّسهم النزق[2]، ويسوقهم الطيش، ما طوّعت لها الخفّة أن تنال منه ما هو شرّ وأخبث ممّا نالت منه هذه الجماعة المسوّدة[3] من الشيب والأشياخ التي تُسلَك في صفوة ذوي الرأي والسداد، ونخبة الأشراف الأمجاد!

وإذا كانت نفوس تلكم الزمرة قد راودتها مراراً على اغتياله، ثم كفّت أيديها عنه إلى الأبد، فأنّما أمسا كها مرجأ[4] إلى حين تستكمل خطّتها في الزراية به، وتهوين قدره علىٰ أصحابه، واقتلاع ما له من مهابة في قلوبهم وإجلال، حتّىٰ يصغر شأنه، وينبو به الناس، فذهب دمه عندئذٍ كقطرة طلٍّ حفّفتها الحَرور، فلا واتر إذاً ولا موتورا

فما أشدّ ما فضعت به، وشنّعت عليه! وما أكثر مابشّعته في الحلوق والعيون!

---

١ . عُرض الناس: عامّتهم.

٢ . النّزَق: الخفّة والطيش.

٣ . المسوّدة: الذين لهم السيادة.

٤ . أرجأ الشيء: أخّره إلى حين.

غير أنّ كلّ ما أصابته به من صغار، ما كان إلّا درناً[١] لها، لاصقاً بها، ومحسوباً عليها، وليس لاحقاً أثر منه يذيل برده ولا محسوباً عليه.

فالخبائث من الخُبثاء، والدنايا من الأدنياء، وكلّ إناء ينضح بما فيه!

أم حسبت تلكم العصبة من الطَّغام[٢] أن يزعم أحد في العالمين ـ له مسكة من عقل ـ أنّها ملكت الصواب، وأُوتيت الحكمة وفصل الخطاب، وهي التي ـ وإن لم تلزم رويّة التفكير ـ لم ترع في نفسها على الأقل وقار المشيب، بل نزعت إلى ما لا يحمد عليه طفل[٣] لا يفقهون، عبثهم المحبَّب تحثاء[٤] التراب، وقذف الطوب؟

لكنّهم فعلوا، وكان جدّاً ـ لا لعباً ـ ما فعلوه!

* * *

فانظرهم، وهم غرر[٥] العرب، كيف لا يعف بهم شيبهم، وارتفاع السنّ، وعلوّ الأقدار، عن التهالك علىٰ إتيان ما يُعيَّر به الصغار الأغرار!

دخل محمد داره يوماً، وهو كاسف أسيف، فخفّت إليه الزهراء ومعها زينب وأم كلثوم، لترئن ما أهمّه وأذهب عنه بسمته الحانية التي لم يكن يبخل بها عنهنّ في لقاء، لا في صباح ولا في مساء.

وهالهنّ أن شهدن ما كان عليه من حزنٍ غاضبٍ، وقد نفر عِرفه في جبينه متحدّثاً بغيظه المكظوم.

أفهكذا قد نالوا منه؟

فهل هان على الناس هذا الهوان حتّىٰ ليمضي طريقه الطويل إلى بيته، تقتحمه

---

١ . الدّرَن: الوسخ.

٢ . الطغام: الأوغاد.

٣ . الطفل: يكون واحداً وجمعاً؛ لأنّه اسم جنس، وهو الصغير من كلّ شيء.

٤ . التحث: الرمي بالكفّين.

٥ . الغرر: السادة.

نظراتهم الساخرة، وهو معفّر مغبرّ، التراب علىٰ رأسه محثوّ، يتساقط فوق محيّاه ولحيته، وما من امرئٍ واحدٍ في قومه حاول ـ ولو بكلمةٍ ـ أن يردّ عنه هذا العبث المرذول؟

أما لديهم وازعٌ من أَنَفَةٍ وتحرّجٍ، أو رادعٌ من غيرةٍ واستحياء؟

وعصرت اللوعة قلوب الفتيات، بكَيْنَ..نشجن فما لبكائهنّ حسيس، وكان القهر هو الذي يدرّ الدموع.

ثم تقدّمن إليه ينفضن عنه التراب، والشؤون كالديم سواجم[١] تغسل الوجوه.

أمّا هو فقد استمسك، فأشرقت علىٰ شفتيه بسمة عارضة كخطفة برق من وراء سحائب أساه، وراح يخفّف عنهنّ برحاء ما أحسَسْنَ من همٍّ موجعٍ، فيمسح بيده عن وجناتهنّ قطر العبرات، وهو يقول بصوتٍ مترفّق رقيق، لهذه فتلك فهاتيك: «لا تبكي يا بنّية، فإنّ الله مانع أباك»[٢].

فكأنّي به لم يذكر عمّه أبا طالب كما ذكره في هذه الآونة، وفي مثيلاتها من آونات، وكأنّي به يقول: ما نالت قريش منّي شيئاً أكرهه حتّىٰ مات أبو طالب.

ويقول: يا عم! ما أسرع ما وجدتُ فَقدك!

لكنّ الله ما قلاه، لسوف يمنعه وإن منعه لدانٍ قريب.

وعلى الرغم من أنّ الرسول ضاق من قريش بصلف الشقاق، ولُدد[٣] الخصومة، واستدار عنها ميمّماً شطر أبناء القبائل الأُخر، الوافدين علىٰ مكة من هنا وهناك، فلقد أبىٰ أُولئك «العِلية» الأوغاد من قومه، الموغلون تجبّراً واستكباراً في الفساد والعناد، إلّا مطاردته بهجر القول وسوء الفعال أنّى اتّجه، وأيّان حاول الاتّجاه.

فحمقهم حينذاك يشيع كالهباء في الهواء، فلا يعرف فاصلاً بين آن وآن، ولا

---

١. الدّيَم: المطر النازل من دون رعد ولا برق، وسَجَم: سال.

٢. راجع البداية والنهاية ٣: ١٧٦ في سبب هجر رسول الله ﷺ.

٣. لدد الخصومة: أشدّها.

مكان ومكان، سلوكهم مفلوت العنان، لا يُكبح له جماح، خلقهم لا يفرّق بين المقبول والمرذول.

فلا قيم ولا مثل، لا تأثمّ عن إثم، لا رعاية لإلّ[1].

كلّ حرام حلّ، وكلّ متاع مباح.

ولم يكن شيء أوجع لفاطمة، وأقطع في قلبها، من رؤية سادة قومها يرمون أباها بكلّ دنيّة ونقيصة وعاب[2] يعلمون أنّه منها نقيّ بُراء، وإن هي إلّا ولائد عقول مأفوكة تخلّفت من سفاحٍ بين الضغينة والبهتان.

ولم يكن شيءٌ أقدر علىٰ إثارة عجبها وغضبها من تنافس ذويّ قرابته الأدنين في النيل منه، والاجتراء عليه كما لم ينل ولا اجترأ الغرباء البُعَداء.

فبقدر ما قربوا بقدر ما شنأوا، وبقدر ما شنأوا بقدر ما أسرفوا في الإيذاء.

ولا دهش أكثر من دهشها لابن عمّه: أبي سفيان بن الحارث، تربه ورفيق أيام صباه، الذي كان أشبه به خلقةً، وآنس صحبةً، وأصدق مودّةً، حتّىٰ لحسب أنّه توأمه فإذا هو بعد تنزّل الرسالة كأنّه غيره جيء به من عالم مجهول!

لقد انقلب عليه أيّ منقلب! تنكّر لصلة القرابة، جحد حقّه، أهدر إلف الرُفقة، مضىٰ في جوار إبليس يعينه على ابن عمه، فيقذع له[3]، ويقدح فيه وإن كان ليعلم في قرارة ضميره أنّ كلّ الذي يرميه به من عيبٍ كذب ومن طعن افتراء.

* * *

ودع الرجل وما هو فيه من خسران يؤمّ المحافل، ويرود الأندية، ويجول في الأسواق، يهجو محمداً بشعرٍ كريهٍ، منكر الجرس كعواء مسعور، خبيث الريح كقيء مخمور.

---

١ . الإلّ: القرابة والعهد.

٢ . العاب: أي العيب.

٣ . يقذع له: أساء القول فيه، شتمه وسبّه بأفحش القول.

ثم انظر إلى أبي لهب: عبدالعزّىٰ بن عبدالمطلب، عمّ الرسول كيف يشتدّ على ابن أخيه، فيمعن في إيذائه، ويسدر في بغضائه، وهو الأولى بأن يكفّ عنه قوله وفعله إن فاته، أو أُعضل به أن يحميه ويرعاه.

أفكان موكلاً بلسان امرأته حمّالة الحطب: أُم جميل، ينفث به سمّها الزعاف؟ أم كان حَولُ عينيه يضلّه فلا يرىٰ سواء السبيل؟

إنّه ليترصّد النبي كلّ مرصد، ويقعد له كلّ مقعد، فلا يكاد يسمع أنّه يجالس نفراً من رجال القبائل الوافدين، يبثّ فيهم كلمات الله، حتّىٰ ينقضّ على المجلس انقضاض باشقٍ على عصفور، ويفضّ السامعين، يقول لهم: إنّه صابئ كاذب فلا تتّبعوه!

بل كان محمد يودّ لو استخفىٰ، فيقصد إلى الوافدين حيث نزلوا، ليبلّغهم رسالة ربّه، فما أن يفعل حتّىٰ يكون الأحول في أعقابه، قد لحق به، كأنّما شمّ مواقع قدميه بحاسّة كلب عقور!

يروي شاهد عيان: إنّي غلام شاب مع أبي بمنىٰ، ورسول الله يقف في منازل القبائل من العرب، فيقول: «يا بني (فلان) إنّي رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وأن تصدّقوني وتمنعوني حتّىٰ أُنبئ عن الله ما بعثني به».

وتمضي الرواية: وخلفه رجل أحول له عذيرتان، عليه حلّة عدنية، فإذا فرغ رسول الله من قوله، قال ذلك الرجل: إنّ هذا إنّما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللّات والعزّىٰ من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه، ولا تسمعوا منه!!

يقول الغلام: فقلت لأبي من هذا الرجل الذي يتبعه، ويردّ عليه القول؟

قال: هذا عمّه عبدالعزّىٰ بن عبدالمطلب[1].

---

١ . راجع سمط النجوم العوالي ١: ٤١٠.

وأغرىٰ هذا الموقف البغيض ـ الذي ثبت عليه أبو لهب ودأب ـ القبائل بابن أخيه، فينال منه رجال ما نال منه ذلك العمّ الغويّ الحقود، ويسومونه ما سام، فيستقبله أولئك وهؤلاء بوخز الهزء، ويقصونه عن مجالسهم بأقبح ردّ، وأفحش مقال!

وكان أهون فعلهم به، وقولهم له أن يصمّوا دون دعوته الآذان ويديروا له الظهور، ويقولوا وهم يتغامزون: أُسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك.

بل قد أمعن فحل حمّالة الحطب في الإساءة إلى محمد حتّىٰ برّ ـ في مجال السفه ـ السَفَلَة الأنذال.

قال قائل: رأيت رسول الله بسوق ذي المجاز يعرض نفسه على القبائل من العرب، يقول: «يا أيّها الناس، قولوا: لا إله إلّا الله، تفلحوا».

وخلفه رجل له عذيرتان يرجمه بالحجارة حتّىٰ أدمىٰ كعبه، يقول: يا أيّها الناس، لا تسمعوا منه، إنّه كذّاب!

فلمّا سأل: من المرجوم؟ قيل: غلام عبدالمطلب!!

ـ ومن الراجم؟ قيل: عمّه عبدالعزّىٰ[1].

* * *

ثم انظر إلى النضر بن الحارث: ابن خالة محمد، كيف تجاوز به عداوه مداه، فلم يكتف بسبّه وعيبه، وإنّما ازداد عتوّاً وغلوّاً، فاستهزأ بالقرآن، وسخر من الله!

فلمّا أن لجّ به أفنه ذات مرّة، وتشرّع ليغتاله، مُلئ رعباً، جمّد في كفّه سلاحه، وبدّد قواه، وأسقط عن جبروته النقاب، فاندفع يفرّ بنفسه وعمره فرار أرنب مذعور أمام ظلّ سيّد الغاب!

* * *

---

١ . رواه أحمد ٣: ٤٩٢ و٤: ٣٤١ و٥: ٣٧١، ٣٧٦ عن ربيعة بن عباد الديلي، وكان جاهلياً فأسلم.

ثم انظر إلى الحارث بن كلدة طبيب العرب: زوج خالته، كيف وقف منه يوم ثقيف وقفة لئيمٍ خسيس.

فلا آواه وقراه وهو يعرف أنّه ضيف غريب الدار، ولا أجاره إذ تلمّس المجير، وإنّ أمنه لرهين بكلمةٍ واحدةٍ من شفتي الطبيب فيتحقّق الجوار.

ولا منعه من أذى الأوغاد والعبيد من قومه، الذين غالوا في السفه حتّى اتّخذوا النازح الغريب المستجير كمثل كرةٍ تتلعّب بها الصوالج، أو تتقاذفها الأقدام.

* * *

ثم انظر إلى الأسود بن عبد يغوث: ابن خاله.

وإلىٰ حكيم بن حزام: ابن أخي زوجته خديجة.

وإلى عبدالله بن أُمية المخزومي: ابن عمّته عاتكة.

وقبل أولئك جميعاً وهؤلاء، انظر إلى عقبة بن أبي معيط: زوج أروَى ابنة أُم حيكم البيضاء عمّته، وتوأم أبيه عبدالله.

فهذا العتلّ الغليظ كان أقسىٰ ذوي القرابة والصهر والنسب، وأثقلهم وطأةً عليه، إنّه أسرعهم بالفعل والقول والإشارة إلى إيذاء الرسول، وأجهرهم له بالإساءة، غير مقصدٍ ولا متلوّم.

فربّما لقيه في طريق فرماه بزورٍ من الكلام وسقطٍ قد يعفّ عنه اللئام! أو رضخه بالحجارة كفعل غلمة أدنياء أغرار، أو بصق صوبه أو عليه، مغالاةً في إظهار استهانته به، وتحقيره إيّاه!

وهو أحدُّ المشركين وأطولهم لساناً في الإغراء به، والكيد له، حتّىٰ لقد ناصر أبا جهل فقلّبا أبا لهبٍ عليه بعد أن رقّ له وعاهده المنعة، وكفّ أذىٰ عدوّه عنه.

ولقد علمت فاطمة أنّه نطق يوماً بكلمة الإسلام عن حميّةٍ ونخوةٍ، فلمّا ظنّ بعض صحبه أنّه ارتدّ عن دين آبائه، وعيّروه الصبوء، عتا بمحمدٍ عتوّاً كبيراً، فداس عنقه وهو ساجد بين يدي ربّه، وبصق في وجهه، لينفي عن نفسه هذه الظنّة، ويؤكّد

لرفاق كفره أنّه ما زال حليف الطاغوت!

وعلمت أيضاً كيف فار مرّةً في صدره حقده علىٰ أبيها فور التنوّر، فأخذ بمجمع ردائه يلويه حول رقبته ليّاً شديداً، ويعصرها عصراً، ومن حوله زبانية الشرك يجرّون الرسول جرّاً من رأسه ولحيته، وليس فيهم رجل رشيد به أثارة من إنسانية تحول بينهم وبين محمد أن يقتلوه!

وكم من هذا كثير!

* * *

ولو ضاهىٰ[١] امرؤ بينه وبين خَدين[٢] شقوته أبي جهل، إذن لسلكهما في رَسَن[٣]، كما تُسلك بهيمتان في عنانٍ لجرّ عربةٍ أثقلتها الأقذار، ليس يقوىٰ علىٰ جرّها قطيع كبير من البغال والحمير!

فليس أشدّ في أذى الرسول من أبي الحكم بن هشام إلّا عقبة بن أبي معيط ... وليس أشدّ من عقبة بن أبي معيط من أبي الحكم بن هشام.

وإذا كان السفه والخرق والعتوّ هي بعض ما تخلّقا به، وبزّا الأقران من السفلة الأوغاد، فلقد أبت الخسّة علىٰ أبي جهل إلّا أن يكون فرس الرهان المجلّي بين الأدنياء السفهاء.

فلقد كسر كلّ الأعراف التي يرعاها بنو مجتمعه، سواء منهم الأحرار والعبيد، الأخيار والأشرار، أصحاب الشمم والعلوّ وأصحاب الحضيض والسفَال[٤].

انسلخ من آدميته، نضا[٥] عن نفسه رجولة الرجال.

---

١ . ضاهىٰ الشيء: شاكله وشابهه.

٢ . الخَدين: الصديق.

٣ . الرّسَن: الحبل.

٤ . السفال: السفالة والحضيض.

٥ . نضا عن الشيء: خلعه عنه.

وهل أدلّ علىٰ نذالته من عدوانه بالضرب على الزهراء، وإنّها عندئذٍ طفلة لمن تشبّ عن الطوق، رأسها لا تكاد تبلغ ركبته!

كأنّما رأىٰ أخذها بجريرة أبيها إن كانت الهداية إلى النور يحقّ أن تُحسب في الجرائر والأوزار.

كانت الصغيرة تمرّ به ذات يوم، فإذا هو يبادر بالإساءة إلى محمد فيها، فيرمقها رمقة ضغن، ثم يخفّ إليها بلطمةٍ قويةٍ كادت أن ترمي بها علـى الأرض، وتسـفّ التراب.

وبكت من ألمٍ، كمن شعور بالضيم، وكما يفعل غيرها من الصغار في مثل هـذا الموقف، مضت من فورها إلى الكفيل بردّ المظالم، ليأخذ حقّها من العادي الظالم.

قيل: وكان أبو سفيان ه صاحب الحكم في قريش، وشكت إليه ... وأحسّ الشيخ غضباً نحو رفيقه العتلّ الجهول، الذي خرق بفعلته الشنعاء كلّ نواميس المـروءة، وأخذ بيد الطفلة الباكية إلى حيث جلس أبو جهل، فدفعها نحوه وقال: الطميه، قبّحه الله!

فلطمته وهو واجم خزيان.

قيل: وذكرت لأبيها ما حدث، فقال: «اللّهم لا تنسها لأبي سفيان».

ولعلّ الله استجاب لدعوة نبيّه الكريم، فأسلم أخيراً سيّد الأمويّين وإن ظلّ علىٰ كفره بضع سنين.

الفصل الرابع

- هل الصخر يخضرّ؟
- عقد مع الله
- ربح البيع
- بعيداً عن مكة
- فرسان جناح

اللوحة الأُولىٰ

هل الصخر يخضرّ

ودّت فاطمة لو اهتدى القوم إلى الحقّ بعد أن تبيّنت لهم آياته مضيئة مسفرة أمام لمح الأعين، فضلاً عن رأي العقول وحسّ الألباب.

ولقد كان أكثر توقها إلى إيمان آل أبيها وآل أُمها الأدنين، لا عن انعطاف منها للقربىٰ، بل عن ثقةٍ بأنّهم ذوو إدراكٍ وقدرةٍ على التبصّر ووزن الأمور.

ففيهم أصحاب المكانات والأقدار، وفيهم قادة الرأي، وفيهم الشعراء وأصحاب التفوّق في ضروب البيان والبلاغة، الجديرون بأن تهديهم معارفهم إلى الغوص في حِكَم القرآن، وإلىٰ تذوّق حلاوته، فلا يفوتهم ـ وما ينبغي ـ حسن التقدير.

وما كانت رغبتها هذه ناجمة فقط عن حبٍّ لأبيها، أو برّاً به، وخشيةً عليه أن يصيبه منهم أذىً يضيف إلى ما أصابه وما يعانيه، بل كانت أيضاً وليدة لهفةٍ عليهم ومن اتّبعوهم أن يثيبهم الله جزاء الجحود والكفران.

فلم تعد الآن تُصدر عن عاطفةٍ في حكمها على الناس والأُمور بقدر ما تصدر عن رويّة وتفكير.

الطفلة الصغيرة في إهابها نمت وأصبحت فتاةً. خطت خطوات طويلة في العشرة الثانية من عمرها النضير، بلغت النضج الفكري، وزادها ربّها فيه بسطةً بما اختصّها به من إشراقٍ شعوريّ يشارف الإلهام.

لكنّ هذا الذي ودّته لأُولئك وهؤلاء كان منىً عذبةً، كأنّها سحاب جهام[١]، يخايل الأرض الصديانة[٢] من بعيد، ويمرّ فإذا هو لا يلقي عليها سوىٰ ظلاله، ويقلع فإذا الصدىٰ صدىً والأدام أدام، أو هو سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء وما هو بماء، أو هو ستارة ضباب، ما إن تلمسها أول شعاعة للشروق حتّىٰ تنجاب أو تذوب.

إنّهم قوم بور، وهل يستوي الظلّ والعود أعوج؟ أم الصخر يخضرّ؟ أم يسمع الرميم في القبور؟

ومع ذلك فقد ظلّت الزهراء تأمل أن تحقّق فيهم المستحيل.

وكيف لا تأمل، وهي ترى العرب الأبعدين يخفّ بعضهم إلى الإسلام، أحياناً فرادىٰ، وأحياناً زُرافات[٣]، وقد اهتدوا النجدين[٤]،ففرّقوا بين الحقّ والباطل، والطيّب والخبيث؟

الجزر تحوّل إلى مدّ، بالغيّ تبدّلوا اليقين.

أفليس أولىٰ بذوي القربىٰ أن يروا النور؟

* * *

غير أن قريشاً بدت وقد أبدت إلّا أن تنصّب نفسها قوّامة علىٰ أهل شبه الجزيرة، تحرّكهم كيف تشاء، وتجمّدهم متىٰ تشاء.

فليتها ارعوت[٥] عن أبيها وتركته للناس، ليتها سكتت عنه، لها دينها وله دينه ـ كما نصح لها شيخها عتبة بن ربيعة ـ فيكفاها وتكفاه، فإن انتصر فلها النصر والفخر، وإن خذلته القبائل الأُخر فعليه وحده الخذلان والخسران.

---

١ . السحاب الجهام: الذي لا ماء فيه.

٢ . صديانة: عطشانة.

٣ . زُرافات: جماعات.

٤ . النَجدين: الطريقين: طريق الخير، وطريق الشرّ.

٥ . ارعوت: كفّت.

ليتها اعتزلت الخلاف على الدعوة، فقبعت ساكنة في داخل جلد هذه العزلة لا تنسلخ منه انسلاخ الثعابين، ثم لا تدبّ الخفاء أو العلانية، ولا تحرّك رأسها القتّال إلى يمين أو إلى شمال، فإنّما السمّ في الناب ليس في الإهاب[١]!

لو أنّها فعلت، إذاً لكان للرأي سلطان، ولقارع العرب محمداً حجّةً بحجّة، وبرهاناً ببرهان ... ولعدلوا ـ أو الأكثرون ـ عن دربهم، إذ تبيّن لهم أنّهم على ضلال ولساروا في ضياء اليقين على الجادّة السواء.

لكنّ قريشاً، عزّةً بالإثم آثرت الاستبداد، سلكت القهر الفكري سبيلاً إلى بلوغها من النبي ما تريد.

وكان لها من وضعها الاجتماعي بين القبائل، ووزنها السياسي، ومنزلها عند بيت الله، أقوى أسناد.

إنّها لتأخذ بعنان سكّان شبه الجزيرة بين أصابعها، فتقبضه أو ترخيه، وترسله أو تلويه ... تريد فتضرب على الأسماع، وتحجّر على العقول، وتذر رماد الشكوك في العيون ... وتبغي فترسم لأذهانهم أسلوب التفكير، وتهوى فتشدّ على أفئدتهم أن تفقه، وتضع على أطراف ألسنتهم الكلام، ثم ترى رأيها في هذه الألسنة، حبيسة اللجم، أسيرة الأعنّة، فتطلقها بحساب أو تجذبها بحساب.

وكانت دعاواها التي أذاعت بها هنا وهناك، في كلّ نادٍ ومحفلٍ، وزمرةٍ وجمهورٍ، هي أنّها إنّما تجنّب العرب سوء المنقلب، وتحميهم وبال المآل، وتباعد بينهم ـ بحكمتها البالغة وحسن تبصّرها بالأمورا ـ وبين تدمير نظام الجماعة، وتضييع تراث الغابر، والصبوء[٢] ـ جهالةً وضلالةً! ـ عن دين الآباء.

أمّا نواياها التي أضمرتها في صدورها المقروحة حقداً وضغينةً، فتسويرهم بسور من الصمم، يمنع الآذان أن تُصغي للرسول، وتعلم ما الإسلام.

١ . الإهاب: الجلد ما لم يُدبغ.

٢ . الصُبوء: الخروج من دين إلى دين آخر.

وكم أكنَّت من قيح! وكم غلقت أبواب شغافها على بغضاء!

ومع كثرة ما تعلّلت به قريش من علل، وتذرّعت به من ذرائع، هي في حقيقتها قول مأفوك، وزيف محبوك، فإنّ موقفها الختّال[١] ما كان ليبدو في مرآة وقائع الحقّ إلّا كمثل نسيج عنكبوت ـ كثف أو خفّ، امتدّ وانسدل كسجاف[٢] أو تخرّق وتمزّق كأسمال[٣] ـ ينمّ شفيفه عمّا وراءه ولا يخفيه.

وهل كان يستر أصل المعدن الخسيس وجوهره، أو يرفع قدره وقيمته أن يموّه بطلاء برّاق؟

ما كان!

بل قد شهدوا أن تنفيرهم الناس عن محمد إنّما كان يزيدهم دنوّاً منه، إقبالاً عليه، بل كانوا يشعرون في قرارة نفوسهم أنّهم يأفكون، وأنّ كلّ الذي يروّجونه إن هو إلّا افتراء رخيص، إن هو إلّا خدعة الصبي عن اللبن، إن هو إلّا باب، ظاهره الرحمة وباطنه العذاب! ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾[٤].

* * *

علىٰ قدر إصرار رؤوس الشرك الاستكبار، وعلى التمادي في الغيّ، وعلى العمل الدائب الجهيد لوأد الدعوة الإسلامية، كانت كلمات الله تتسرّب إلى القلوب، كانت تنتشر ولا تنحسر.

القهر الفكري الذي جهدوا الجهد كلّه لفرضه على الوافدين عليهم من رجال القبائل، بدا وكأنّه غِربال[٥] واسع الخروق! أو كشبكة صيادٍ انقطع من خيوطها خيط.

---

١. الختّال: الخدّاع.

٢. السِجاف والسَّجيف: الستر والحجاب.

٣. الأسمال: جمع سَمِل، وهو الثوب الخَلِق البالي.

٤. البروج: ٢٠.

٥. الغِربال: ما يُغربل به الحبوب ونحوها.

فلم تعد تحبس كلّ السمك وإن هي حبست منه بعضه ممّا أُوتي غلظ الأحجام وبسطة الأجسام!

وما حاجة محمد إلى هؤلاء الكبار وإنّهم لأشدّ ضلالاً، وأخفّ عقولاً، وأفحش قالاً، وألصق بجهالة أسلافهم الغاوين؟

ذهب الله بنورهم وتركهم في ظُلُماتٍ لا يبصرون ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[١].

وها هي الأيام تشهد نفراً من سادة العرب، وذوي العلم، قد عرفوا الطريق إلى الله، وخاب دون ليّهم[٢] عن المحجّة البيضاء كلّ ما فرط إليهم من وسوسة أبالسة قريش وهمزات الشياطين.

وفد الطُفَيل بن عمرو الأوسي علىٰ مكة من اليمن، فأسرع إليه أشياخ الشرك ـ كدأبهم ـ يحولون بينه وبين الرسول، ويزيّفون له ما يثنيه عن لقائه، ويزهّده فيه.

فالرجل شاعر لبيب، وهو في قومه شريف مطاع، وسماعه من محمد قد يفسد أمرهم عليهم، ويؤدّي إلى ما يكرهون.

قالوا له: يا طفيل، إنّك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وفرّق جماعتنا، وشتّت أمرنا، وإنّما قوله كالسحر، يفرّق بين الرجل وأبيه، والرجل وأخيه، والرجل وزوجه.

ثم نصحوه: وإنّا نخشىٰ عليك وعلىٰ قومك ما قد دخل علينا به، فلا تكلّمنّه، ولا تسمعنّ منه.

وظلّوا ينفثون في روعه من دعاواهم، حتّىٰ صغا إليهم، ووعدهم أن يكون كما يشاؤون.

لكنّه ما لبث أن راجع نفسه ... أفيهدر فطنته؟ أم يتنكّر لأدب الأديب فيه؟ أم يُقاد كالمطية الذلُول إلى حيث يُراد له أن يُقاد، لا إلى حيث يريد؟

---

١ . البقرة: ١٨.

٢ . الليّ: الإعراض والصدّ عن الشيء.

وأبىٰ أن يطمس عقله، ويهوّن علىٰ نفسه هذا الهوان، فإن هو إلّا أن حانت فرصة حتّى انطلق إلى محمد بداره، يسمع منه، فيعلم أأوهموه أم صدقوه.

قال له: يا محمد، إنّ قومك ما برحوا يخوّفونني أمرك حتّىٰ سددتُ أُذنيَّ بكُرسُفٍ[١] لئلّا أسمع قولك، ثم أبى الله إلّا أن يسمعني، فسمعت قولاً حسناً، فاعرض عليَّ أمركَ[٢].

ذلك أنّ المصادفة ساقته مرّة إلى المسجد ومحمد يصلّي ويتلو بعض آيات القرآن، فتذوّق فيها ـ بحسّه الشاعري ـ حلاوةً لم يذق مثلها في غيره من كلامٍ تردّد علىٰ ألسنة عمالقة الشعراء وأعلام البلاغة والبيان، وأقبل على الرسول يصغي بكلّ سمعه إلى سرّ ما وقع بينه وبين قريش من خلاف، ثم أقبل بكلّ عقله يتفهّم معنى الإسلام، ثم أقبل بكلّ كيانه يتحسّس ما يتلىٰ عليه من قرآن.

فما أن سكت محمد، حتّىٰ أحسّ الطُفَيل أنّه لا يكاد يجد لجسمه ثقلاً، كأنّما تحوّل إلي نور، وأشرفت عيناه، وفاض دمعه وهو ينطق كلمة الإيمان، ثم قال: يا نبي الله، إنّي امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم فداعيهم إلى الإسلام.

ولم يفلح كيد الكفّار.

* * *

وبمثل ما استقبل المشركون الطُفَيل، درجوا على استقبال كلّ وافدٍ إلى البلدة الحرام.

نزل مكة من أزدشنوءة «ضمّاد» الأزدي، فأسرع إليه سفهاء قريش يقدّمون بين يديه العيب في محمد، والإزراء عليه، ما اتّسعت لهم لغة القدح والهجاء، لعلّهم ينفّرونه منه، ويباعدون بينه وبين الدعوة الإسلامية أن تروقه، فيبلّغها قومه، وتكون الطامّة.

---

١ . الكُرسُف: القطن.

٢ . راجع أُسد الغابة في معرفة الصحابة ٣: ٥٤، سيرة ابن هشام ١: ٣٨٢ وفيهما: «الدوسي» بدل «الأوسي».

وكان «ضمّاد» في الأزد ذا مكانةٍ روحيةٍ، تعلو به في عين الكبير والصغير.

فقد اشتهر عنه أنّه علىٰ جليّةٍ من بعض المعارف الغيبية التي يعدها الناس في الخوارق، إذ هي سحر أو كالسحر تدقّ على الأفهام والعقول، وتشرف بشاهدها وحاضرها علىٰ حيرةٍ تسلّم إلى الانبهار والذهول، وهو صاحب علم بدُنىٰ الجان، وهو قادر على اصطناع الرقىٰ التي تُشفي اللَّمَم[1]، وتُذهب بمسّ الشياطين.

وقالت قريش فيما قالت لضمّاد: إنّ محمداً مجنون!

فلم يدفعه قولها عنه، بل زاده رغبةً في لقائه، فخاطب نفسه: لو أنّي رأيت هذا الرجل لعلّ الله أن يشفيه على يدي!

يروي ضمّاد: فأتيته، فقلت: يا محمد، إنّي أُرقي من الريح[2]، فإنّ الله يشفي علىٰ يديّ من يشاء، فهل لك؟

فقال رسول الله: «إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهد الله فلا مضلٍّ له، ومن يضلل فلا هادي له...».

ومضى النبي يحدّثه، والرجل مأخوذ بالحديث، كلّما كفّ محمد عنه استعاده: أعد عليَّ كلماتك هؤلاء.

حتّىٰ إذا بلغ من حديث محدّثه مشتهاه، اطمأنّ قلبه بالإيمان، وقال: لقد سمعت قول الكَهَنَة، وقول السَحَرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، هات يداك أبايعك على الإسلام.

فبايعه، وقال: «وعلى قومك؟».

قال ضمّاد: وعلىٰ قومي يا رسول الله... وعاد إلى قبيله يدعو إلى الدين الجديد[3].

* * *

---

١ . اللَّمَم: جمع لمّة، وهو الجنون.

٢ . الريح: مسّ الجنّ.

٣ . راجع أُسد الغابة ٣: ٤٢.

وكذلك كان مسلك قريش مع وفد أهل نجران[١].

تسامع النجرانيون بذلك المبعوث بمكة للبشر كافّة برسالة الله، فشدّ إليه نفر منهم الرحال، عسىٰ إن اجتمعوا به أن يعلموا من أمره ما لم يوفّه لهم نَقَلة الأخبار، ولا يميّز بين صحيحه وزيفه الرحّل الظاعنون بين الجنوب والشمال، من التجّار وعُرض الناس[٢].

كانوا جماعة من اللاهوتيّين، فيهم قساوسة، وفيهم نُسّاك، وفيهم رُهبان، وكانوا من الدارسين للنصرانية، المؤمنين بالإنجيل المنزل على المسيح.

ونشطوا إلى بلدة محمد، ليقفوا منه علىٰ حقيقة رسالته التي قال أُناس: إنّها من السماء.

ونشطت قريش إليهم قبل أن يبلغوه، تسوق إليهم من الفري والأكاذيب مثلما يؤزّها[٣] إبليس أزّاً بسوق القرابين للأصنام، رسمته لهم في أبشع هيئة، ووضعته في أقبح إطار، وخوّفتهم أن يقابلوه، وحذّرتهم حديثه ... أليس سحراً يؤثر، يفرّق الناس من الناس، ويبدّلهم نفوساً بنفوس؟

وكان علىٰ رأس الفئة المختلقة الظالمة أبو جهل بن هشام.

لكنّ الوفد صمد لما جاء فيه، ذهب رجاله فاجتمعوا بالرسول، وألقوا إليه الأسماع شغوفين، لا ملالة ولا سأم.

فيا ويح السفهاء ما لهم يأفكون!

ليس هذا بقول بَشَر، ولا هو نفث ساحر، ولا نظم شاعر، ولا هَدر[٤] سجّاع ولا هذيان مجنون.

---

١ . نَجران: اسم موضع يطلق في عدّة مواضع ذكرها ياقوت، منها: في مخاليف اليمن من ناحية مكة، ومنها: في البحرين على ما قيل، ومنها: موضع بحوران من نواحي دمشق، ومنها قرية أصحاب الأخدود باليمن وغير ذلك (معجم البلدان ٥: ٢٦٦ ـ ٢٧٠).

٢ . عُرض الناس: عامّتهم.

٣ . يؤزّ أزّاً: يغري إغراءً.

٤ . الهدر: السّجع.

كان يتلو عليهم آيات بيّنات، فيها شفاء للصدور، وريّ[١] للأرواح، تصدر وما جاء به السيد المسيح من نفس المنبع، وفيها جلاء للبصائر، ونور للقلوب، يفيض والإنجيل من نفس المشكاة.

فصدّقوه ... آمنوا بما أنزل عليه من ربّه.

وهل كانوا إلّا فاعلين؟ وما جاءهم محمد إلّا بما جاءهم به من قبله نوح وابراهيم وموسى الكليم وعيسى بن مريم، وسائر الأنبياء والمرسلين الذين أسلموا وجوههم وعنوا للحيّ القيوم؟

وانصرفوا عنه مسلمين.

* * *

وهال قريشاً الأمر، احترقت غيظاً وغضباً وموجدة[٢].

فلقد وصلت جهودها إلى طريقٍ مسدودٍ، وهاجها الخزي والشعور بالخذلان عندئذ حثّ أبو جهل وبعض أخدان شركه السير، يعترضون على الراحلين طريق رجوعهم إلى نجران، معاودين الكرّة، آناً مرغّبين، وآناً مرهّبين، عسىٰ أن يردّوهم عمّا هداهم إليه الله!

فلمّا أن نفد ما في جعبتهم من مكرٍ سيّءٍ وأضاليل، أفحشوا لهم في الخطاب، قال لهم منهم فريق: خيّبكم الله من ركب!

وقالت طائفة: بعثكم مَن وراؤكم ترتادون لهم، لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئنّ مجالسكم عنده حتّىٰ فارقتم دينكم، وصدّقتموه بما قال!

وقال آخرون: ما نعلم ركباً أحمق منكم!

وظلّوا يسلقونهم بألسنة حِدَاد، شيّعوهم أبشع وداع، ولعلّهم كادوا يعملون فيهم السلاح.

---

١ . الريّ: السقي.

٢ . الموجدة: الغضب.

لكن الوعد والسفه والوعيد لم تقلقل للوغد عزيمة، ولم تسلب أحداً فيهم مثقال حبّة من خردل ممّا دخله من إيمان.

وصبر النجرانيّون هؤلاء علىٰ سَفال الطغام الأرذال، ولم يزد جوابهم علىٰ كلمة طيّبة، تلفّظوا بها وحسبهم الله، قالوا: سلام عليكم ... لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه[1].

وآبت إلى الجهالة الشرذمة الضالّة.

ومضى خلفاء حواري ابن مريم أولاء، علىٰ دربهم إلى نجران، وأعينهم تفيض من الدمع ممّا عرفوا من الحقّ، وأصابوا من الهداية، فكان مثلهم ومثلهم كمن قال فيهم القرآن:

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾[2].

* * *

مشاهد وصور أعداد، كهذا المشهد وذاك، وهذه الصورة وتلك، كانت تتبدىٰ بين اليوم والآخر، للزهراء، وهي أغلب الأحايين في حجرتها الصغيرة، ووراء الجدران.

فأذنها تلتقط الأحاديث، وبصرها يجسّدها في أحداث.

فالأخبار لا تني[3] تطرق عليها الباب، فتدخل بإذنٍ أو بغير استئذان، والوقائع أثير ينفذ من المادّة الصمّاء.

ما من أمر كان يدور بالبلدة الحرام غاب عنها سرّه، وهي التي كانت تعيش الكفاح النبوي بكلّ ما لامرئٍ سويّ الخلقة من حواسّ.

---

١. انظر دلائل النبوة: ٣٨٢باب : وفد نجران.

٢. الإسراء: ٩٧.

٣. تني: تنقطع، تكفّ.

وما غاب من المرائي والمسموعات عن أدوات حسّها الظاهرة، لم يكن ليغيب عن ملكات نفسها الباطنة، أو يدقّ علىٰ ما جبلت عليه من رهف الشعور، وصفاء الوجدان.

ولولا أنّها كانت وما هي عليه من طبيعتها الأنثوية الرؤوم، التي ثبّتت أباها، ومحضته الرعاية، وآثرته بما يزدخر قلبها به من الحبّ، إذن لخرجت صباح كلّ يوم من الدار، تسعىٰ معه في الأسواق، داعيةً بدعوته، دافعةً عنه بالكلمة والناب والمخلب ما يناله به عدوّه اللئيم من سطو الألسن وبطش الأكفّ، دفع إناث الأُسود الضواري عن أشبالها الصغار.

لكنّها ظلّت وما هيّئت له.

بكلّ الرجاء، وكلّ الخوف، وكلّ الاهتمام، كانت تتابع الوقائع وهي تترىٰ سراعاً فوق رقعة النضال، مع كرّ الأيام، فلا تكاد ترىٰ منها إلّا حصيلة الإسلام في قوائم الربح والخسارة، وتوالي موجاته المتلاحقة وهي تسجّل مدّه وانحساره.

وكان بيّناً لها أنّه لم يعد ثمّة خسار، بل بدت الدعوة أصلب عوداً، وأشدّ ثباتاً، وأقدر علىٰ مواجهة هبات الريح بل عصفات[١] الأعاصير.

وإذا كانت الأحداث دلّت علىٰ أنّ الرسول ـ بالصبر والصلابة والجهد الذي يفدح العصبة أُولي العزائم، وتخرّ له الجبال دكّاً ـ قد استطاع، يوماً يوماً، وساعةً ساعةً، أن يقتلع من تربة الشرك القشفاء[٢] رجلاً من هنا كان غائصاً في حمأة[٣] الضلالة حتىٰ أُذنيه، ورجلاً آخر مثله من هناك، فإنّ الزهراء لاحت أدنىٰ إلى أن تكون أكثر تفتّحاً للأمل منها للقنوط، وأعظم تفاؤلاً بالغد المقبل منها بالأمس المدبر، وأرسخ ثقةً اليوم بقرب انتصار الإسلام منها فيما مضىٰ من أيام.

---

١ . عصفات: اشتداد.

٢ . التربة القشفاء: المتغيّرة اللون لسببٍ ما.

٣ . الحَمأة: الطين الأسود.

وما نحسب نظرتها هذه إلّا كانت قائمة علىٰ أساس استقرائها الدقيق للـوقائع المجرّدة، واستشراقها حقائق الأُمور، وليس استناداً إلى التمنّي وحدس الشعور.

وأصابت ... فالدعوة عندئذٍ كانت قد جاوزت مرحلة الخفية والتبشيرالمســتور، ثم تعدّت حدود مرحلة المقاومة السلبية، التي فرضت على الكثيرين مـن أبـنائها الانتشار في أرض الله، نأياً[1] بأنفسهم عن مراكز الاضطهاد، وفراراً بدينهم إلى ملاذٍ آمن، كبلاد الأحباش.

ثم شرعت الآن في دخول مرحلة أخرىٰ هي المقاومة الإيجابية، والعمل الفعّال، الذي يتهيّأ للردّ ضربة بضربة، والكيل صاعاً بصاع وإن لم تكن قد أُمرت بعد بإشهار السلاح.

حدث هذا عندما نزل مكة ستة نفر من الخزرج عند العقبة، وأقبل محمد عليهم يدعوهم إلى الدين ... وجلس يحدّثهم، ويبيّن لهم، وجلسوا يصغون ... وعرفوه.

ومال بعضهم علىٰ بعض يتسارّون: إنّه النبي الذي توعّدكم به يهود، فلا تسبقنّكم إليه.

وأقبلوا عليه: قد عرفناك، وآمنّا بك، وصدّقناك ... فمرنا بأمرك.

وأسلموا علىٰ يديه، ثم دعوه للارتحال معهم إلى بلدتهم، لعلّ الله أن يمحو به ما بين قومهم بعضهم وبعضٍ من العداوة، فيكون لهم به اجتماع الكلمة، وتكون له بهم المنعة.

لكنّه قال: «حتّىٰ يأذن لي ربّي».

وودّعوه علىٰ موعد في الموسم المقبل، ووعدوه بثّ دعوة الحقّ حتّى اللقاء ... فلم يبق بيثرب بيت إلّا كان به ذكر الرسول.

---

١ . نأىٰ نأياً: ابتعد ابتعاداً.

اللوحة الثانية

عقد مع الله

أصابوا الطريق، تلألأ الغد عند حدّ الأُفق تلألؤ الشروق

ما من فردٍ من المسلمين إلّا بدت له من وراء غلالة الأيام بشائر النصر القريب؛ كأعلام.

فلم يكن وجهٌ أبهىٰ ضياءً ولا أزهر تألّقاً من محيّا الزهراء.

فالأمل يفيض في القلب، والرضا يلمع على الثغر، وهدوء الطمأنينة يغمر كيانها كأنّما كانت تستحمّ في نور ... بل إنّها لنور في نور!

وكيف لا تطيب بالاً ونفساً وجارحةً وهي تشهد الآن دعوة الإسلام قد بدأت تجتاز الباب إلى رحلة الإيجاب، فتتخطّىٰ أسوار الحصار الشركي بمكة، دارجة حبوةً حبوة[1]، وخطوةً خطوة، فوق أرضٍ جديدةٍ، مكتسبة سواعد جديدة؟

بحساب الأرقام، علمت أنّ موازين الكفر أخذت تخفّ بينما تثقل موازين الدين، وبنظرة اليقين رأت العقبىٰ للمؤمنين، وبقوة الاستشعار شهدت أُناساً بالقرب من سفح أُحد ـ وعلىٰ مسيرة قصيرة من ماء بدر ـ يعدّهم الله، فكانوا له من بعدُ حزباً، ولنبيّه أنصاراً، ولدينه حماةً خير حماة.

---

١ ـ الحَبوة: زحف الصبي خطوةً على يديه ورجليه.

وأحياناً ما يسبق رهف الإحساس مواقيت الأحداث، فلعلّها ـ بنفحة قدسية ربّانية ـ اطّلعت على ظهر الغيب، فأدركت أنّ شعورها هذا لم ينطلق من هباء؟

ثم لمحتهم ـ ببصيرتها المجلوّة ـ كيف شاءوا لها ولزوجها النصرة بعد رحيل الرسول، ثم رأتهم ـ على لوحة روحها الشفيف ـ وهم على نفس درب الولاء للبيت النبوي ولمن نسلت من أولاد، وإن قد آبت إلى أبيها في علّيين.

لعلّ هذا قد كان.

فالنفر المؤمنون من الخزرج الآن قد عادوا إلى بلدتهم، وكان لخُطاهم على طريق الدعوة وقع عالٍ، له صدىً ملأ سمع الوجود، وكان لهذا الصدى في البلد الحرام صوتان:

طَرْق مزعج، باكي الصرخات، قلق الصيحات، على أبواب حزب الشيطان، كضربات معول حفّار القبور في صخورٍ صمّاء ... ودقّ ناعم، حلو الرنين، عذب اللحون، على أبواب حزب الله تطرب له الآذان.

فلا بيت بمكة للشرك إلّا كان فيه غمّ مقيم أن تسرّب الإسلام من قبضة سادتها، وتحت سمعهم وبصرهم، إلى القرى المتآخمة[1]، تسرّب الماء في الرمال ... ولا بيت بيثرب إلّا أصبح وفيه مسلم بعد التقاء أُولئك النفر القليل بالنبي الكريم، ثم لا مسلم هناك إلّا ودّ، بكلّ روحه، لو أنّه عبّ الإسلام عبّاً، في حسوةٍ واحدةٍ لو استطاع.

فالعمر قصير، والدنيا إلى الآخرة مجاز، ورضوان الله الذي يرجون يخايلهم من وراء الغيوب.

ولقد أكرمهم الله فتقبّل واستجاب.

* * *

---

١ ـ المتآخمة: المجاورة المتّصلة.

عندئذٍ هجس بصدر الزهراء أنّ مكثها بمكة موقوت.

فما جرىٰ بين النبي وبين تلكم الطائفة من وافدي يثرب، ليس يعني شيئاً سوىٰ خَتم الرحيل إلى ذلك البلد الذي فتح له أصحابه بابه علىٰ مصراعيه، وما بدا من نقاء سلائق أُولئك الوافدين يؤكّد أنّهم خير أهلٍ لاحتضان الدين.

فهل قُضي أن تهجر مستقرّ الكعبة، وتبرح منزل الذكريات؟ وتبعد عن الثرى الطيّب الذي ثوت إليه الغالية خديجة؟

لسوف إذن تألم، وتعيش في تيهٍ من الحنين بلا آخر.

ولكنّها أيضاً ـ وإن شقيت بالبُعد ـ ستسعد إذ يلجأ أبوها الحبيب بيثرب إلى جُنّةٍ حصينةٍ، وقلعة أمان.

فالسعادة والشقاء في هذه الحياة جاران، الشقاء في طرفه سعادة، والسعادة في طرفها شقاء..تماماً كالظُلمة والنور، كالليل والنهار.

ولقد أوشك الرسول أن يبلغ بكفاحه أقصىٰ أطراف طريق العُسرىٰ والضيق، أفما أنىٰ أن يبلغ اليسرىٰ والانفراج؟

بلىٰ قد آن!

فهناك تتحرّر حركته من حصار الاضطهاد، فلا يؤوده أن يشرّق بالدعوة ويغرّب كيف يشاء، ولا يستعصي عليه اجتذاب النصير والظهير، ولا يعضله ابتعاث الفطرة في قلوب الناس، نقيّةً من أدران[1] الغيّ، صافيةً من أوشاب[2] الخرافة، سليمةً كما برأها الله.

فالإيمان بالخالق بذرة نورانية، أودعها سبحانه في نفوس البشر كافّة من قبل أن يكتسوا ثياب الأجساد، ويتخلّقوا آدميّين أسوياء، لولا أنّ فريقاً منهم رانوا عليها بصدأ الأهواء.

---

١ . الأدران: جمع درن، وهو الوسخ.

٢ . الأوشاب: جمع شائبة، وهي القذر والدنس.

هذه حقيقة، كفلق الصبح، ليست بمثار خلاف.

يؤكّدها من الوجهة العلمية كلّ الدراسات الإنسانية التي أسفرت عن ظاهرة اجتماعية ثابتة، تقرّر أنّ أبناء المجتمعات البدائية المنعزلة عن المدينة، ينزعون ـ تلقائياً ـ إلى التديّن.

ويؤكّدها من الناحية الروحية: أنّ أولئك البدائيّين يؤمنون ـ فطرياً ـ بقوّةٍ عُليا خالقية، تتبدىٰ لهم في الآيات الكونية، وفي أنفسهم ... ولها وحدها السيطرة عليهم وعلىٰ جميع القوى الطبيعية، سواء منها ما يهب الخير وما يقذف بالضرّ وإن هم اختلفوا فيما بينهم في وسائل تعبيرهم عن هذا الإيمان.

فكلّ مولودٍ ـ كما يقول الرسول ـ يُولد على الفطرة[1]، والفطرة هي معرفة الإنسان أنّ الله هو خالقه، فله وحده عليه حقّ المالك على المملوك، والواجد على الموجود.

تم يؤكّد هذه الحقيقة ـ دينياً ـ تلك الآيات التي ترسم لنا صورةً حيّةً للعلاقة بين الربّ والمربوبين، يقول تعالىٰ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾[2].

وكذلك يثبت أنّ معرفة القوة الخالقية الربانية ـ وإنّها لحقيقة بديهية ـ مستقرّة في النفس البشرية، تعلو بوجودها فوق براعة المجادلة، وسفسطة[3] الخوار، واجتهاد التأويل، فضلاً عن جحود الإنكار.

بل هي أيضاً ـ بحكم الأعراف والشرائع والقوانين الوضعية ـ ذات سلطانٍ ملزمٍ،

---

١. ولفظ الحديث «ما من مولود إلّا يولد على الفطر، فأبواه يهوّدانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه» أخرجه البخاري ١: ٤٥٦ كتاب الجنائز ب٧٨ ح١٢٩٢ و١٢٩٣.

٢. الأعراف: ١٧٢.

٣. السَفْسَطة: هو مصطلح يُراد به الاستدلال والقياس الباطل، يُقصد منه التمويه وتضليل الحقائق ومنه السفسطائية، وهم فرقة ينكرون الحسّيات والبديهيات معاً، ويتوسّلون بجملة وسائل استدلالية لغرض قلب الحقائق والتمويه عنها.

لأنّها قامت بمحض الاختيار، وبلا إكراه ولا إجبار، علىٰ أساس تعاقد سليم، توافرت فيه شرائط صحّة العقود، من عرضٍ وقبولٍ وشهادة شهود.

فالله قد عرض، والبشر قد قبلوا العرض، ثم شهدوا علىٰ أنفسهم بقبول المعروض.

وسُجّلت عليهم شهادتهم هذه حجّةً وثيقةً: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾[1].

أو ليسوا بمبطلين؟

* * *

لا ريب قد فسق رؤوس الكفر من قريش عن أمر ربّك، وباتوا في الغاوين ... نفضوا الميثاق، مزّقوا العقد الذي أبرموه، اختاروا لأنفسهم النكث، ثم أبوا إلّا أن يفرضوه علىٰ غيرهم، أو حاولوا أن يفرضوه.

لكنّ الدعوة نشطت وأُنوفهم في الرَغَام[2]، قفزت من فوق أسوار الشرك لتنزل منازل مكينة بقلوب أُناس اهتدوا من أهل القرىٰ والأطراف، ما قرب منها أو نأىٰ عن البلدة الحرام، وضعت قدميها علىٰ بداية طريق الانتشار.

خطوة خطوة انطلقت في السير، رنوة رنوة[3] راحت تتطلّع إلى يثرب كملاذ آمن، وتتّخذها في يومٍ آتٍ نقطة للأُثوب[4].

لحظة لحظة، كانت فاطمة تتابع تقدّمها نحو غدها المظفّر الموعود، وكلّها رجاء.

دلّها قلبها علىٰ وشك تقلّص ظلال الهموم ... فالفرج قريب، والنصر قدر محتوم، والعقبىٰ للمؤمنين.

---

١. الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٣.

٢. الرَغَام: التراب، الوحل.

٣. الرنوة: النظرة.

٤. الأُثوب: الانطلاق.

كان ذلك والدعوة توغل في الخمس الأخير من أعوامها بمكة، قبل أن يأذن الله لنبيّه بالهجرة منها في اليوم المحسوب.

ومع ما لاح لها عندئذٍ من بشائر النجاح، فما أحسب أنّ شعورها كلّه كان سكينة، لكأنّي بها وفي دخيلتها قلق مترنّح[1]، لا يفتأ يخز قلبها بمثل إبرة محمّاة.

فما أصابوه إلى يومهم هذا من مغنمٍ يقوّي جانب الدعوة، كان كخطفة من وراء العيون، قطفة ليس فيها الغناء، إن هو، من ثمر النصر، إلّا طلع كالبُسر[2].

فالشوط حتّىٰ غايتهم ما زال طويلاً دونه عقبات وعراقيل، والجوّ مهما صفا فلابدّ أن يغيم، وفي غصون الورود تنبت الأشواك.

وكذلك الكفاح!

إنّه لم يكن عيش دائماً علىٰ أرضٍ سهلةٍ، مفروشةً بالزهور والرياحين، كان أحياناً يدرج علىٰ عوسج[3]، أحياناً ينحت بأظفاره مسالك في الصخر، أحياناً يخوض اللهيب..بل أتى عليه حين تعثّرت خلاله خطاه، بل كاد يتوقّف عن السير، بل لاح قدّامه وهو الخلف، ووراؤه وهو الأمام!

* * *

وعلىٰ غير ما هو مأمول احتدمت[4] الأمور، انتكست مسيرة الأحداث، تجهّمت الأيام فإذا هي أحرىٰ بأن تعدّ في الحُسُوم[5].

فلقد فطن الشرك للخطر الموشك أن يجتاحه لو ترك الدعوة تتسلّل تحت سمعه وبصره، فصنع النكسة، ثم استغلّ الظروف المحيطة أحسن استغلال.

---

١ . مترنّح: متمايل.

٢ . البُسر: التمر قبل أن ينضج.

٣ . العَوسَج: نبات له شوك.

٤ . احتدم: اشتدّ.

٥ . الحُسُوم: الشؤم.

شدّ ظهره، حشّد شرّه، دفع بكلّ طغواه إلى معركةٍ فاصلةٍ يشنّها علىٰ حزب الله، فإمّا موت وإمّا حياة!

وحاقت بالهداة المهتدين الأهوال.

فما اشتطّت قريش في غلواء النكال كشططها إذ ذاك، وما زُلزلت الأرض بالعذاب تحت أقدام أهل الإيمان كما زُلزلت في ذلك الأوان، حتّىٰ لأوشكت رجتّها أن تطرح بعضهم بعيداً بعيداً عن ثبات اليقين، قريباً قريباً من الافتتان عن الدين.

وما أشفقت الزهراء علىٰ أبيها من ضغط المحن كإشفاقها عليه في تلك الآونة، وإنّها لتراه ـ ممّا يصيبه به قومه ـ في كربٍ واصبٍ[1]، وهمٍّ حازبٍ[2]، وهوانٍ ليس بعده هوان.

آذاها أشدّ الأذىٰ أن أسرفوا في عدوانهم عليه إلى أبعد آماد الإسراف، هالها ظلمهم إيّاه ظلماً يجاوز حدود الخيال، ويكاد يضاهي المحال.

فهو ظلم متخبّط الخطىٰ كهرولة عشواء، وهو مجنون الحركة كزُباني[3] عقربٍ عمياء، تطوّح[4] بهما علىٰ غير هدىً أينما تدبّ، فتضرب في زحمة أو فراغ، في أجساد حيّة أو في جماد، فليس يعنيها ما الذي تصيب، إنّما همّها أن تصيب، فتلسع لتشبع نهمها بالإيذاء!

أفكان الذين ظلموا ـ من حقدهم ـ في سكرةٍ لا يفيقون؟

إنّ غيّهم لبغيٌ ضلّيل! وإنّ بغيهن لبغيٌّ مخبول!

في شرعة الخصام يبلغ جورهم أضعاف أضعاف ما قد يصطنعه أعتىٰ خصيم، وبمعايير الأحجام والأثقال، تضيق عنه طاقة الظالم، كما يفدح احتمال المظلوم

---

١ . الواصب: الدائم.

٢ . الحازب: الشديد المتكثّر.

٣ . زُباني العقرب: ما تضرب به من طرف ذَنَبها، وقيل: قرناها.

٤ . طوّح بالشيء: يلوّح به.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِنَ ٱللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[١].

وأنّىٰ لهؤلاء العزاء!

* * *

وهَصَرت[٢] فاطمة الآلام ... من غمّها لاحت كزورق محطّم الشراع، غدا نهباً لاجتياح الرياح، تتقاذفه عوادي الأذىٰ في بحرٍ لجّي، فوّار الغضب، صارخ الهدير.

وتقطّعت حسرات ... لفرط ما التقطت حواسّها من مشاهد العذاب والأذاية[٣]، وما تنازعها من مشاعر التوجّس والخوف، بدت وكأنّ كيانها قد تمزّق إرباً إرباً، فلا شِلواً[٤] فيه يجتمع إلى شِلوٍ، ولا عضواً إلى عضوٍ، ولا جارحةً إلى جارحة.

والذين قرأوا صحيفة وجهها آنذاك حسبوا السماء توشك أن تنطبق على الأرض، فيبدو الكون كالهباء.

فأنت حين تكون في عزّة الفرح، وأوج التيمّن، ثم يدهمك عندئذٍ كربٌ قاصمٌ لم يكن بالحسبان، إنّك إذاً لكَمَن يهوي من حالق!

ولأدنىٰ أن تشيطك بُرَحاء الألم[٥] منك لو دَهَمك كربٌ وأنت محزون.

لكنّ الزهراء عالجت الأمر بالصبر، فوسعها الطفو فوق المحن والأرزاء ... ثم مضت ترقب الأحداث المدلهمّة بعين الثقة في عون الله.

وكان أشدّ ما طغىٰ عليها بالهموم حادثان: أمّا الأول فيوم ثقيف ... وأمّا الثاني فيوم الإسراء.

---

١ . الزمر: ٤٧.

٢ . هصرته الآلام: إذا كسرته كسراً.

٣ . الأذىٰ والأذاية والأذيّة والأذاة واحد، أي الضرر اليسير.

٤ . الشِلو: جمعه أشلاء، وهو العضو من أعضاء اللحم.

٥ . بُرَحاء الألم: شديده.

فعندما بدأ ساعد الدعوة يشتدّ بأنصارها الجدد «الغرباء» بعض اشتداد، ومضت قريش تضاعف مساءتها للمسلمين حتّى الغلو، رأى الرسول أن يخرج إلى الطائف داعياً، لعلّ ربّه أن يجعل له فرجاً من هذا الخروج.

فالطائف أرض ثقيف، وفي ثقيف رجال ذوو مكانات، وجُهَاء الأحساب، كُرَماء الأنساب، وفيها رجال لهم عقل ومعرفة وحسن تبصّر بالأُمور، وفيها رجال أُعلموا بالبيان.

وما أرىٰ أصحاب محمد ـ عندما علموا بخروجه ـ إلّا حسبوه عائداً مـن لدن القوم هؤلاء بصفقةٍ تعزّ الإسلام ... وما أرىٰ فاطمة إلّا كانت في الحاسبين.

فهناك الحارث بن كِلدَة[1] زوج خالة أبيها، وطبيب العرب الحكيم، وإنّه لحـريّ ـ إن لم تعطفه حكمته إلى الهدىٰ ـ أن تعطفه إلى تأييد الدعوة أو الوقوف بـجواره صلة قُرباه.

وهناك أُميّة بن أبي الصلت[2]، الشاعر الذي تجاوبت أصداء شعره في الآفـاق، وعُرف بأنّه موحّد حنيف، من أوائل المنكرين علىٰ قومهم شركهم، فهجر الأوثان، وقرأ الأديان، ولزم ملّة ابراهيم، وإنّها لأدنىٰ إلى الإسلام أو هي بذرة الإسلام.

وهناك، غير هذين، سادة نُجُب من قادة الفكر الأمجاد ... فلو أنّ النبي وجد في أحد الرجلين ـ أو كليهما ـ أُذناً سميعة، لكان له ممّن وراءه سند وظهير.

* * *

لكن ما وقع من ثقيف جميعاً خالف المتوقّع المأمول، والطبيعي المعقول!!

فلقد خذله الاثنان، وتنكّر له العامة كما تنكّر الأشراف.

---

١ . الحارث بن كلدَة الثقفي، طبيب العرب في عصره، وأحد الحكماء المشهورين، من أهل الطـائف، أخـذ الطب عن أهل فارس، كما تعلّم الضرب على العود بفارس واليمن، عاش حتّىٰ أيام معاوية سـنة ٥٠ هـ (الأعلام ٢: ١٥٧).

٢ . أُمية بن عبدالله أبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي، قد تقدّم ذكره .

لقي بعض سادتهم، فعرض عليهم الدين الحقّ، فإذا هم يلقونه أسوأ لقاء، وإذا هم منه يسخرون! قال أحدهم بامتهان: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟!

ونأىٰ آخر بجانبه، وهو يرميه بالبهتان، بكلمات غمّازة يجري سمّها مع اللعاب: والله لا أكلّمك أبداً! لئن كنت رسولاً من عند الله لأنت أعظم خطراً من أن أردّ عليك! وإن كنت كاذباً فما ينبغي لي أن أكلّمك!

أمّا ثالثهم ـ وكأنّه ثالثة الأثافي[١] التي تكمل للقدر ثباتها على النار لتسوية ما بها من طعام ـ فقد أكّد أن تصديقه مأكل فجّ نيء لا يسوغه مذاق، وإنّما تكذيبه هو الطعام الأثير الذي بلغ غاية نضجه، وطاب له ولقومه أجمعين!

قال ذلك الثالث باستهزاء: إني أمرط[٢] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك!

فقرن امتناناً بامتناع! فكما أنّه ما كان ليمرط كسوة الكعبة، كذلك لم يكن ليصدّق أبداً رسالة الرسول.

وعلىٰ مثل هذا النحو الأحمق من التكذيب جرىٰ سادة ثقيف، وبخلاف ما تقضي به الأعراف من قري الغريب، أبوا أن يضيّفوه فضلاً عن أن يساندوه!

أغلقوا دونه الأبواب، جفوه كجفو السيل ما به من قذى ونفايات، طردوه! قالوا له: أُخرج من بلدنا وٱلحق بأرضك!

حتّىٰ أُميّة بن أبي الصلت شاعرهم المتبتّل[٣]، سار علىٰ نفس الدرب، غير مبقٍ علىٰ إشراقة المعرفة التي ومضت أعواماً في أحناء قلبه كشررة، حقداً وضغينةً رمىٰ بعلمه وراء ظهره ... كان طموحه أكبر من ملكاته، وكان نكوصه يومئذٍ حسداً وغيرةً أن تقلّصت أمانيه التي عاش لها عمره الطويل، وتبدّد حلمه أن يكون هو النبي المبعوث!!

---

١ . الأثافي: جمع أُثفية: وهي ما يوضع عليها القِدْر.

٢ . مَرَط الشيء: نتفه.

٣ . المتبتّل: المتعبّد.

فأمّا وقد تنزّلت الرسالة علىٰ محمد من دونه، فلن يؤمن له، استحياءً ـ كقوله ـ من نساءْ ثقيف أن يقلن: ادّعىٰ أنّه الرسول الموعود فلم تصدق دعواه، واصطفى الله خيراً منه: رسولاً سواه! أو يقلن، ويقول الناس: اتّبع فتىً من بني عبد مناف!

ولم يردّه استكباره عن التصريح: ما كنت لأتّبع نبياً من غير ثقيف[1]!!

هل حسب الشاعر أنّه وكّل برسالة السماء يضعها حيث يشاء؟

* * *

ومشت الأنباء إلى الزهراء تعلن أنّ أباها الداعي إلى الله، لم يجد بالطائف أُذناً واحدةً تصغي إليه، ولا حامياً يدرأ عنه ... بل لقي كلّ مضرّةٍ وعذاب.

أفكان هذا الذي أنزلوه به امتداداً لما أنزلت به قريش؟

لكأنّي بالفريقين يرميان عن يدٍ واحدةٍ، فالطينة من الطينة! والعجينة من العجينة!

وما أحسب فاطمة إذ سمعت بعض خبر ما أصابه من ثقيف إلّا ذكرت ما أصابه من قومه، وما هو بقليل.

قيل[2]: خرج الرسول إلى المسجد يوماً يصلّي بفناء الكعبة، وثمّة نفرٍ من زبانية الكفر أعداء الله، فما رأوه حتّىٰ ملكهم الحنق، وفاضت بهم عزّتهم بالإثم والاستكبار، حتّىٰ غدوا وصدورهم تغلي غليً فيكاد يُسمع لها؛ كالنار شهيق وزفيرا!

وقال بعضهم لبعض: ما صبرنا لأحدٍ كصبرنا لهذا الرجل!

ثم انطلقوا إليه يتحدّونه: أنت الذي جعل الآلهة إلهاً واحداً؟

قال: «نعم».

فتواثبوا عليه جميعهم، ملتفّين به كالسوار، نالوه بشرٍّ ممّا يندىٰ له جبين الشرّ، وتخزى أخسّ النفوس ... اعتوروه بينهم يتقاذفونه تقاذف الكرة بالصوالج، تجاذبوا رأسه ولحيته حتّىٰ سقط أكثر شعره، كادوا يقتلونه! وسمع أبو بكر هرجهم، فخفّ

---

١ . راجع البداية والنهاية ٢: ٢٠٥ وما بعده في أخبار أُمية بن أبي الصلت.

٢ . راجع البداية والنهاية ٣: ٤٤ ـ ٤٥.

إليهم يصرخ فيهم: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾[١] فكان له من عدوانهم نصيب.

فهل حسب القوم أنّ هذا الذي فعلوه رادّه عن طريقه؟ أو منتقص عشر معشار عزمه؟

بل إنّه ليزيدنّه تصميماً إلى تصميم، ويرفعنّ قدره إلى أعلىٰ مراتب التشريف، فيما يخسّ الذهب إذ تضعه في النار، وما من نبيٍّ قبله إلّا أُوذي في الله.

ولقد صدق من قال:

لا تـخل جـانب النـبي مـضاما ... حـينَ مسَّـتهُ مـنهم الأسـواءُ

كـلُّ أمـرٍ نـابَ النـبيّينَ ... فالشدّةُ فيهِ مـحمودةٌ والرَخـاءُ

لو يمسُّ النظارَ هـونٌ مـن النـ ... ـارِ اخـتيرَ للـنضار الصـلاءُ[٢]!

* * *

أياماً عدداً، غير قليلة، قضاها الرسول بين ثقيف، يطرق عليهم أبواب العقول والألباب، فلا يُفتح له منها باب!

امتداداً لاضطهاد قريش، وبأفظع ممّا تلقّته به، لاقاه أبناء الطائف بالاستخفاف والتهكّم، والمهانة والتحقير ... كلّهم أقذعوا[٣] له في الخطاب، وكلّهم أعزقوه[٤] بالضرّ، بطشاً باليد تهجّماً وعدواناً، وسوءاً في القال زرايةً وتجريحاً، وليس بينهم رجل رشيد يكفه خلقه، أو ينهاهم عن التمادي في الجور والشرّ، ويدعوهم إلى الترفّع عن الصغار.

وكلّهم كانوا كأن في مباراةٍ، يتنافسون فيها علىٰ مقام الصدارة، إيّهم أسبق إليه بالمكروه، وأقدر على الإيذاء، وأقبح في بذاء الهجاء ... لا فرق فيهم بين سيّد

---

١ . غافر: ٢٨.

٢ . الصِلاء: الإلقاء في النار.

٣ . قذعة واقذعه: رماه بالفحش وسبّه.

٤ . أعزقوه: تعدّوا عليه.

ومسود، أو قريب وغريب.

وعندما أيس منهم، بعد طول المقام، وهمّ بالرحيل، نشدهم أن يكتموا عليه ما أصابوا منه ولا يذيعوه، فلو أنّهم استجابوا له، فلربّما خفي مسلكهم معه عن قريش فلا تشمت فيه، ولا تحتذيهم فتفرط في التهجّم عليه كما لم يفرط قبلهم كفّار أثيم، ولربّما كانت له بكتمانهم يد عنده، جديرة بعرفانه وإن هم تجرّدوا ـ في حقيقة الواقع الأليم ـ من كلّ منّة ومكرمة، وكانوا قوم سوء.

لكنّهم أبوا عليه هذا المطلب اليسير، وطفقوا يطاردونه كالذئاب.

كانوا يتصايحون به في الدروب والأحياء، أنّىٰ غدا أو راح: الصابئ! الصابئ! وهم يصفقون متضاحكين، وقد طاب لهم أن يجعلوه ودينه مادة تندّر وعبث لئيم.

وعندما أيقنوا منه عزمه علىٰ مبارحة أرضهم، أغروا به السفهاء من غلمانهم وعبدانهم وسفلتهم، يلاحقونه بعربدتهم، لكزاً وضرباً، وسبّاً وعيباً، ويتحلّقون حلقةً ليمنعوه الانطلاق.

ثم تواقف العادون إلى جانبيه صفّين، إلى يمينٍ وشمالٍ، علىٰ طريق العودة الطويل، يرضخونه بالحجارة، فإن أسرع ليتّقي الرجم ردّوه، وإن وقف عيّاً وكلالةً دفعوه!

ولم يكن معه أحد غير زيد بن حارثة مولاه، يحاول أن يترس دونه بجسده، فلا يكون قصارىٰ درئه عنه إلّا أن يتقاسما الأذىٰ أحياناً قسمةً ضيزىٰ، وأحياناً قسمة قسطاس!

لكنّ حظّ الرسول من عذابهم ذاك كان أوفر نصيب ... إنّهم ليرشقونه بالحجارة فلا يخطئونه التصويب، وإنّهم ليخصّونه من قسوتهم بما يزري بقسوة وحوش الفلاة.

فإذا أضناه الألم، وبهظ[1] احتماله فناء، وهوىٰ إلى الأرض هوياً، أو تماسك فاستند إلى جدارٍ من فرط الإعياء، خفّ إليه منهم رجال أشدّاء فرفعوه من عضديه

---

١ . بهظه: أثقله الشيء فعجز عن حمله.

يقيمون صلبه ثم يقهرونه على المشي وإن تخاذلت قواه، والتوت تحته رجلاه!!

كان كلّ همّهم أن يضعوه دائماً في مرمى الأحجار، أن يذيقوه الإذلال، أن يتلذّذوا بما يعانيه.

وأثخنته الجروح، واحمرّت الأرض، واختضبت نعلاه ... فما كان يسير إلّا علىٰ دمه المهراق[1].

وعندما قيّض[2] الله له أن يبلغ نهاية طريق العذاب، وفترت عنه حدّة المحنة، وقف مليّاً يلتقط أنفاسه، ثم رفع يديه إلى السماء، وهو غارق من قمة رأسه إلى أخْمَصَيه في الدم والعرق والتراب، متّجهاً إلى الله يستصرخه ويستعينه علىٰ بلواه.

وكان نشيد المناجاة الذي انطلق به قلبه من طرف لسانه داعياً ضارعاً، في خشوع واسترحام: «اللّهم إليك أشكو ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين! أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربّي، إلى من تكلني؟ إلى بعيدٍ يتجهّمني، أم إلى عدوٍّ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أُبالي، لكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحلّ عليّ سخطك، لك العتبىٰ حتىٰ ترضىٰ، ولا حول ولا قوّة إلّا بك».

فأيّ نشيد! إنّه لغناء في الله! ديباجة[3] نُسِجت من ذوب القلب وصفاء الروح، اللحمة من غزل الألم العبقري، ومن خيوط أشعّة الإيمان السداة.

وأكثر ما يكون الإنسان قريباً من ربّه ساعة المحنة والبلاء، فإن تكن غمّة تنزل بامرئٍ وتطبق عليه، فليس ثمّة عندئذٍ من مفزعٍ له إلى لطف الرحمن، هو أهدىٰ سبيلاً وأقوم من هذا النشيد النبوي العذب، الذي صيغت كلماته وحروفه من ضياء اليقين.

---

١ . المهراق: المصبوب، المُراق.

٢ . قيّضه له: هيّأه له، وأتاحه له.

٣ . الديباجة: الثوب الذي سداه ولحمته حرير.

وإن يكن دعاء أكرم على الله، وأدرّ لفضله ورحمته، وأولىٰ بمحو غبن المغبون، ومسح عبرة المحزون، فإنّه هو هذا الدعاء، الذي خالط دماء الرسول ودموعه، إذ انبثق من قلبه الخالص الطهور إبّان أقسىٰ محنة أناخت بها عليه صروف الأيام.

* * *

وخوطب النبي، من ظهر الغيب، في تلك اللحظة الحرجة ـ وما فترت علىٰ شفتيه حرارة الدعاء ـ أن لو شئت لأطبقت على الظالمين الجبال، فذهبوا كما ذهبت عاد وثمود.

فبماذا أجاب؟

أبىٰ عليه حمله، وأبت سماحته أن يعجّل ربّه إلى القوم بالهلاك.

جاشت بنفسه الرحمة، فقال: «أستأني بهم، لعلّ الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله تعالىٰ، لا يشرك به شيئاً».

وتركهم معافين موفورين! وهل أُرسل إلّا رحمةً للعالمين؟

ثم اتّجه، ثقيل القلب، محرور النفس، صوب البلدة الحرام.

اللوحة الثالثة

ربح البيع

الذي وقع للرسول في ثقيف كان اختباراً عسيراً للمسلمين في شخص نـبيّهم، ليبلو ثباتهم على الإيمان، ويعجم[1] عودهم في الحقّ أن يلين.

وهو إيماءة قدسية من الله سبحانه، ومثل يضربه للناس أنّ محمداً إن هو إلّا بشر، العمل الصالح في يده وديعة، له عليه حقّ الأداء، ولها حقّ الوفاء ... مثله في هـذا كمثل أيّ قائمٍ بأمر، موكل بدعوةٍ، داعٍ لفكرةٍ، لا معدىً له عن أن يخلص بـجهده وكدّه لسعيه بعزيمةٍ وتصميم، وقد يصيبه الفشل مرّة، ويـصيب النـجاح مـرّة، ثـم لا تكون ثمرة دأبه علىٰ عمله إلّا بقدر جدّه وبذله.

ولقد شاعت قصة الطائف في مكّة، بعد أن آب إليها رسول الله، فإذا هي أُحدوثة لأهل الشرك يتندّرون بها في محافلهم هزؤاً وشماتة.

بل لقد سبقته وما همّ بأن يضع قدماً علىٰ ثرى البلدة الحرام، فكانت للمشركين مجازاً جديداً إلى الاشتداد في التنكّر له والتهجّم عليه، شدّة مفلوتة العيار.

فكأنّما الذي هجس بخاطر زيد بن حارثة قد تجسّد حقيقةً ظاهرةً، جليّة الهيئة والجرس للعيون والآذان.

---

١ . يعجم: يمتحن، يختبر.

ذلك أنّه حين رأى النبي يوجّه راحلته، أخذته الخشية عليه أن تغلو له قريش في مكرها الخبيث، فقال: إلى أين يا رسول الله؟

فلمّا أن رآه يشير إلى حيث أراد، هاله الأمر، وصاح: وكيف تدخل عليهم وهم أخرجوك؟

فأجابه الرسول بنبرة الواثق، يطمئنّه: «يا زيد، إنّ الله جاعل لما ترىٰ فرجاً ومخرجاً، وإنّ الله ناصر دينه، ومُظهر نبيّه»[١].

وأراد أئمة الكفر من أهله وسادة قومه أن يزيدوه هواناً، فأبوا أن يجيروه عندما نزل بحِراء، وبعث إلى رؤوس أشرافهم الواحد بعد الآخر يطلب الجوار.

وهل أهول محنة على نفس الأبيّ الكريم من إحساسه بالهوان؟

* * *

لكنّ ربّه قيّض له المطعم بن عديّ، كما قيّضه يوم نَقْض الصحيفة، فخرج وأهله فأحاطوه به حتّىٰ دخل المسجد يطوف وهم حوله في السلاح!

وأقبل أبو سفيان يسرع وقد دهش كيف تأتّىٰ لمحمد أن يقتحم هكذا بلدتهم تحت السمع والبصر لا يناله من أحد شرّ!! فلمّا رأى المطعم سأله: أتابع أم مجير؟

قال المطعم: بل مجير.

ـ إذن لا تخفر!

وخرس الزارون!

فأيّ شيءٍ أخلق بأن يبهر العقول ويحيّر الألباب من تصريف ربّك الأُمور علىٰ غير ما يقضي به منطق الأحداث، وبلا بشائر ولا مقدّمات تنبئ عن الخواتيم؟

وأيّ مسلكٍ أعجب من موقف المطعم هذا، يخرج علىٰ إجماع قومه، ويحمي الرسول بنفسه وأهله، فيسلّ دونه مشرعات السيوف ـ لو دعت الحال لقتال ـ

---

١ . راجع الطبقات الكبرىٰ لابن سعد ١: ٢١٠ وما بعده، ذكر سبب خروج رسول الله ﷺ إلى الطائف.

وما آمن، ولا خالط قلبه الإسلام؟

إنّها قدرة الله تسخّر لدينه حماةً وجنوداً يدافعون عنه، ويحاربون معركته، وهم لهم عدوّ... تماماً كما تسخّر من الأولياء.

حكمة من لدن حكيم عليم.

وموقف كريم من رجل كريم.

فعلى الرغم من أنّ المطعم مات وهو على الشرك، فإنّ النبي لم ينس له حسن صنيعه ذاك، وظلّ يذكره بالتقدير.

قيل: وفد جبير بن مطعم بعد بضع سنين على رسول الله، فحدّثه في بعض أُسارى المشركين، يرجون أن يعفو عنهم، ويردّهم أحراراً طُلقاء، فما أن سمع الرسول هذا الحديث حتّى استعاد ذهنه ما أسداه إليه الراحل من منّة طيّبة، ما بسطه له من جواره العزيز الحريز، وأخذته الرقّة للذكر، فقال لراجيه: «لو كان الشيخ أبوك حيّاً فأتانا فيهم، لشفّعناه فيهم»[1].

وفاء! خلق عظيم!

* * *

الإسراء

وانجلت عن أهل الإسلام الغمّة انجلاء الغيم عن صفحة السماء الزرقاء، إذ عاد إليهم نبيّهم سالماً من محنة ثقيف، لقد كان ما قاساه رسول الله علىٰ أيدي أهل الطائف هو العذاب البئيس الذي يشقّ علىٰ أي امرئ سواه في الناس.

لكنّ سلوكه إبّان هذه المعاناة ـ التي امتدّ عمرها أربعين يوماً متّصلة، كلّ يومٍ من

١ . راجع أُسد الغابة في معرفة الصحابة ١: ٢٧١، والإصابة في تمييز الصحابة ١: ٢٢٥ برقم (١٠٩١) وجُبَير هذا: هو جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي، كان من أكابر قريش وعلماء النسب، وكان قد قدم على النبي ﷺ في فداء أُسارى بدر.

أيامها هو ليل بلا نهار ـ إنّما كان في عيون المسلمين وأخلادهم صورةً مضيئةً للصبر والجلد والإصرار، تضيف ذخراً ثـرياً إلى رصـيدهم مـن الثبات أمـام قـواصـف الخطوب، وقواصم الأرزاء.

وازدادوا يقيناً إلى يقين، وردّت إليهم الروح.

أمّا الزهراء فقد أترع[1] قلبها سلام، ولئن كانت مشاعرها سالت عبرات، فالدمع لغة الأفراح، كما هو لغة الأشجان ... وما أحسب شؤونها اندفقت حينئذٍ من حزن، ولا انطلقت من حبور، بقدر ما فاضت عن إحساسٍ بألمٍ مبرّحٍ، لا يكاد ينضب له معين.

وهل كانت لتأسىٰ علىٰ ما فات، أو تفرح بما هو آت، وإنّها لتعلم أنّ الذي وقع بالطائف إن هو إلّا قدر مقدور؟ أو هو شطر من مُكُوس[2] التكليف السماوي بالنبوة، يؤدّيه أبوها وهو راضٍ مختار؟ أو هو بلاء لأتباعه واختبار؟

وهل كان طريق الدعوات دائماً إلّا دولة بـين المـدّ والجـزر، وبـين الانـتشار والانحسار، حتّىٰ يقضي الله أمره ويؤتي نصره؟

إنّما إحساس فاطمة كان أدنىٰ إلى الألم والوجيعة، حتّىٰ لكأنّها هي التي وقعت في مرمى الرضخ[3]، تنهال عليها حجارة أُولئكم السفهاء، فتصيب منها قلبها قبل أن تدمي جسدها، وتثخن جوارحها الجراح.

ومع هذا، فليس ما وقع بالطائف بآخر بلاء، بل كان باباً إلى بلاءٍ جديدٍ شديدٍ، إن لم يكن فدح الأبدان فقد فدح الأرواح ... ذلك حدث الإسراء.

تقول الآثار: لمّا أراد الله لنبيّه الفضيلة، وشاء أن يمسح عنه بلطف رحمته الربانية ما لقيه علىٰ أيدي عتاة المشركين من هوان، ليزيده أُنساً بعزّته، وثقةً فـي نـصره، وليبدله بألمه متعة، وبقلقه سكينة، ارتضىٰ له سبحانه شرف رفعه مكاناً علياً، قريباً

---

١ . أترع: ملأ.

٢ . المكُوس: جمع المكس، وهو الدراهم التي تؤخذ من البائع في السـوق، وهـو مـا يـطلق عـليه اليـوم بالضرائب.

٣ . الرضخ: الرمي.

من السدّة الربانية قرباً وعلوّاً ما هما كمثل أبعاد الزمان والمكان؛ لأنّه تعالىٰ منزّه عن أحياز الزمان والمكان.

إنّما أدناه جلّ شأنه روحاً وبدناً من إشراقة أنواره، وأسرار غيبه، علىٰ نحوٍ لا تدركه العقول، ولاتلمحه الأبصار، لم يتح قبله لأيٍّ من الرسل والأنبياء، ولن يتاح بعده لأيّ إنسان.

ذلك ليزيده كرمةً وطمأنينةً، وليمحّص[1] المؤمنين، وليكبت[2] الكفّار.

فلقد أسرىٰ به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصىٰ، وعرج به في ملكوت السماوات العلىٰ، وأراه من آياته الكبرىٰ آيته الكبرىٰ.

في ذلك اليوم المشهود افتقده أهله، فإذا هو غائب عنهم لا يدرون إلى أين مضىٰ، وبأيّ مكانٍ ببلدتهم نزل وأقام، ومضوا يجدّون في البحث عنه، وهم في قلقٍ عليه أن يكون قد أصابه من عدوّه مكروه.

ثم التقىٰ به أخيراً عمّه العباس، فما أن شهده حتّىٰ تفرّج الهمّ عنه، وأقبل عليه منبسط الأسارير، قال له يستفسره: يابن أخي، عنّيت[3] قومك، فأين كنت؟

فكان جوابه أن ردّ بهدوء: «ذهبت إلى بيت المقدس».

فعجب العباس: من ليلتك؟

ـ «نعم».

عندئذٍ ملكت الرجل الحيرة، فتفرّس فيه كأنّما بحثاً عن شيءٍ في محيّاه قد يدلّه علىٰ أمر يخفيه، ثم سأله بنبرات يهزّها خوفه عليه: يابن أخي، هل أصابك إلّا خير؟

قال الرسول مؤكّداً له: «ما أصابني إلّا خير».

* * *

---

١ . يمحّص: يختبر.

٢ . يكبت: يذلّ.

٣ . عنّيت: وضعت فيه العناء.

وعلى الرغم من مخالفة حدث الإسراء لكلّ معقول، فقد أبى النبي ـ تحدّثاً بنعمة ربّه ـ إلَّا أن ينقل نبأه بلسانه إلى قريش وإن كرهت، لتعلم قدرة الله كيف تجلّت في آيةٍ من آياته لم يؤت مثلها نبيّ سواه.

ولقد علمت منه بنت عمّه أم هانئ عزمه هذا، فرأت أن تثنيه عنه مخافة أن يهزأوا به، وينالوه بما هو أولىٰ باحتمائه منه، فتشبّثت بثوبه وهي تنشده أن يعدل عن الخروج:

أذكرك الله أنّك تأتي قوماً يكذّبونك، وينكرون مقالتك، وأخاف أن يسطوا بك.

لكنّه مضىٰ لغايته، حتّىٰ انتهى إلى رجال من المشركين بالمسجد، بين الركن والمقام، فأنبأهم الخبر ... وقرأ في وجوههم التكذيب.

وكان ثمة أبو الحكم بن هشام، ما إن رآه حتّىٰ أقبل فسأله، ونبراته تقطر سخريةً: هل كان من شيء؟

قال بثبات: «نعم، أُسري بي الليلة».

ـ إلى أين؟

ـ «إلى بيت المقدس».

ـ ثم أصبحت بين ظهرانينا؟

ـ «نعم».

قال عدوّ الله ليتثبّت ويشهد الناس: أفرأيت إن دعوت قومك، أتحدّثهم ما حدّثتني؟

ـ «نعم».

فدعاهم، فانفضت إليه مجالس قريش حتّىٰ جاءوا فجلسوا إلى الرسول.

قال عدوّ الله: حدّثهم بما حدّثتني به.

ففعل النبي: «إنّي أُسري بي الليلة...».

ولم يترك من الحدث شيئاً إلَّا أخبرهم به، عندئذٍ هرجوا ومرجوا[1]، تصايحوا

---

١ . هرجوا ومرجوا: أي اختلطوا.

بالسخرية، تباروا في هجر القول.

وكان أكثر لغطهم ـ كصلاتهم الضالّة المضلّة ـ مكاءً وتصديةً[1]!

حتّى المطعم بن عدي، الرجل الكريم المتعقّل، نزع عن هدوئه واتّـزان وعـيه، وصاح وقد بدّله عجبه بحلمه حماقة: يا محمدا إنّ أمرك قبل اليوم كان أمماً[2] غير قولك اليوم، وأنا أشهد أنّك كاذب! نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس، مَصعد شهر أو منحدر شهر، ثم تزعم أنّك أتيته في ليلةٍ واحدةٍ! واللّات والعزّى لا أُصدّقك، وما كان هذا الذي تقول قطّ!

ولقد حسب أولئك المرجفون النُكر أنّهم أوقعوا الرسول من قوله هذا في كمين، فأشاعوا في الملأ نبأ الإسراء، وهم يبرقشونه ويرقشونه[3] كما شاءت لهم الأهواء، ويقرنونه من لدنهم بتعليقات وتأويلات يمدّهم بها ما انطوت عليه الجوانح والأذهان من عوادي الضغينة واختبال الخيال.

وكان أكثر همّهم أن يروّجوا بضاعتهم تلك بين أهل الإسلام ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾[4].

راود الشكّ بعض النفوس الضعاف، ودنا بعض من حافّة الفتنة، وارتدّ بعض أو كاد.

ثم سعت من أهل الشرك طائفة إلى أبي بكر بخبر صاحبه، وفـي يـقينها أنّـها ستلفته عن طريقه، فلو أنّه اهتزّ إذاً لهاضت نفوس، واهتزّت أقدام، وربّما ذهبت ريح الإسلام.

قالوا له: هل لك إلى صاحبك؟

ـ «ما له؟».

---

١ . المكاء والتصدية: الصفير والتصفيق حول الكعبة، حيث كان هذا صفة الحجّ في الجاهلية.

٢. أمماً: أي يسيراً.

٣ . بَرَقش الشيء: زيّنه بألوان مختلفة، ورقشه: زخرفه.

٤ . الأحزاب: ١١.

قالوا: يزعم أنّه أُسري به الليلة إلى بيت المقدس.

فأخذته الدهشة، لكنّه لم يعجل بالردّ، بل استأنىٰ وسأل: أقد قال هذا؟

ـ نعم.

وعلى الفور طفر إيمانه علىٰ لسانه! أجاب: لئن قال ذلك لقد صدق! فبهت محدّثوه.

وسألوه منكرين: تصدّقه أنّه ذهب إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح!

قال: نعم، إنّي لأُصدّقه فيما هو أبعد من ذلك، أُصدّقه في خبر السماء في غدوة وروحة[1].

حجّة بالغة!

بل انثنىٰ يلوم المطعم بن عدي علىٰ ما أسلف في حقّ الرسول: يا مطعم، بئس ما قلت لابن أخيك! جبهته بالمكروه وكذّبته، وأنا أشهد أنّه صادق.

وتركه يراجع نفسه علىٰ ما فرط منه بغير رويّة وإعمال فكر، لعلّه أن يرجع ويثوب.

* * *

هكذا أخنت[2] قريش بشططها علىٰ مشاعر النبي ورجاله، لتزيدهم همّاً إلى همّ، وغمّاً إلى غمّ، أن شاء الله أن يُطلع نبيّه علىٰ بعض آيات قدرته، وأسرار ملكوته

فما كان الإسراء إلّا تكريماً له وتشريفاً، ولا كان إلّا تسريةً عنه وتخفيفاً.

أم حسب الذين كفروا أن يتركوا مستطيلين كبراً في الأرض، فلا يقمأهم[3] ربّك ولا هم يخسأون؟ أم حسبوا أنّهم الأعلون؟

لو أنّهم تدبّروا هذه الرحلة الربانية التي اختصّ بها الله رسوله من دون الخلق

---

١ . رواه ابن الجزري في أُسد الغابة ٣: ٢٠٦ بسنده عن عروة عن عائشة ابنته.

٢ . أخنىٰ على الشيء: إذا أتى عليه وأهلكه.

٣ . قمأ: قمع، أذلّ.

أجمعين، لأدركوا أنّهم ومن يدبّون دبيبهم علىٰ هذا الكوكب ليسوا بشيءٍ يذكر في الملكوت ... فلخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، وما خلقهم ولا بعثهم إلّا كنفسٍ واحدة.

فكأنّي بما أحسّه القوم من ضعفهم وجهالتهم وفقرهم الروحي ـ عندما تكشّفت له بعض حقائق الوجود من خلال معجزة الإسراء ـ هو الذي أغراهم بـالتكذيب، ليدرأوا عن أنفسهم الشعور بالضعة والهوان.

فالنفس البشرية عدوّ لما ينتقصها، ويمسّ كبرياءها الموهومة وإن دمغتها بـه وقائع الحال، وهي حريصة علىٰ إخفاء معرّتها، تفرّ منها إلى التغافل والمكابرة والادّعاء، وقد زيّن لها سوء عملها فرأته الحقّ والصلاح ... وهي وفية ـ بحكم العادة والصلف والعناد ـ لما شبّت عليه، وقضت عمرها فيه.

وقليل من يتقبّلون الخضوع لسنن التغيير ... ألم تر إلى العبد المرقوق، حين يعتق، كيف تؤوده الحرّية وتثقل عليه، فيضطرب ويحار حتّىٰ ليؤثر ـ أو يكاد ـ لو أنّه ظلّ في الاستعباد؟

وكذلك المشركون.

* * *

لقد عاش المسلمون عدوان ثقيف علىٰ نبيّهم حديثاً يروىٰ، وعاشته معهم فاطمة كلاماً وعبارات، تنتقل من أُذنيها إلى عينيها فإذا هي مشاهد ومرئيات، وعـاشته بإحساسها كسفاً[١] من العذاب.

لكنّها عاشت ـ بكلّ مكوّناتها الإنسانية ـ ما جرىٰ بمكة حول الإسراء حـقيقةً ملموسة الأبعاد، عاشته بالفكر والشعور، والسمع والبصر والفؤاد، وعاشته في تشيم المجهول، القريب منه والبعيد.

---

١. كِسَفاً: قطعاً.

ولكم عانت عندئذٍ من تباريح الألم النفسي، وهي متوتّرة الأعصاب، كأنّما تقف علىٰ أصابع قدميها لتعجل إلى استقبال العقابيل.

فراشها من جمرٍ أحمر! أنفاسها تلسعها كأنّها لفحات ريح السموم! حركتها قلق، نهارها موصول بالليل، وليلها موصول بالنهار.

في سطعة الشفق ترىٰ عتمة الغسق، أهدابها يشدّها الأرق أن تنطبق.

فالنوم حلم، والرقاد سهاد. ومع ذلك فالحياة مداولة بين الشدّة والرخاء، والأحداث لا تسير دائماً في طريق مسدود.

فللضيق والفرج مسلكان متوازيان ... كما تتساقط الظلمة يتقاطر النور، ومهما تعصف الشدّة فلابدّ من رُخاء[1].

* * *

وآنست[2] الزهراء ضياءً في جانب الأُفق المعتم، كما آنس موسى النار بالوادي المقدّس عند البقعة المباركة، دعوة إلى الله، وبشرى تقدّم بين يديها النصر والخلاص.

وكان الضياء أُولئك الفئة القليلة من أهل «يثرب» الذين هداهم ربّهم إلى صراطه المستقيم ... فعلى الأيام، ومن تحت سمع جبروت الشرك ومن وراء بصره، قويت بهم شوكة الإسلام.

في أول لقاءٍ لهم بالنبيّ كانوا نواةً، ثم أصبحوا فسيلة[3]، ثم نموا شجيرة، ثم غدوا كروماً معروشات.

فما أن جاء العام القابل حتّىٰ خفّ من بلدتهم إلى مكة اثنا عشر رجلاً من الخزرج والأوس جميعاً، قد آلّفت بيهم رسالة الهدىٰ، فبايعوا الرسول، وبعث معهم من يقرئهم القرآن، ويعلّمهم الدين.

---

١ . الرُخاء: الريح الطيّبة.

٢ . آنس الشيء: بَصَره.

٣ . الفسيلة: أول النبتة، عود يُغرس فينبت.

وما أن حلّ الموسم حتّىٰ بلغ وفدهم إليه بالعقبة، حيث واعدوه، ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، يمشون الخفاء، متستّرين بسجاف الليل[1]؛ خشية أن تفطن قريش لهم، فتفسد عليهم سعيهم إلى اللقاء، وتمنعهم الاعتصام بكلمة الله.

ولم يكن خبرٌ قطّ هو أحلى لفاطمة من خبرهم إذ أقبلوا علىٰ أبيها، يبايعونه على الإسلام والنصرة والوفاء ... فيومئذٍ بدأت خطوات الإعداد للجهاد بالكلمة والسلام.

قالوا له: يا رسول الله، خذ لنفسك منّا ما شئت، واشترط لربّك علينا ما شئت.

قال الرسول: «أشترط لربّي عزَّ وجلَّ أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، ولنفسي أن تمنعوني ممّا تمنعون منه أنفسكم وأبناءكم ونساءكم».

قال قائلهم: فاذا فعلنا، فما لنا؟

قال رسول الله: «لكم الجنّة..»[2].

فتسارعوا يجيبونه بالرضا والقبول: ربح البيع!

وبايعوه علىٰ شَرطَيه! وكيف لا يفعلون وما بخسهم ولا أخسرهم، وإنّما مكّن لهم في تجارةٍ لن تبور!

ثم نقب منهم نقباء: اثني عشر نقيباً، كلّ نقيبٍ بمن وراءه رهين، بل في واقع الأمر كتّبهم كتائب علىٰ أهبّةٍ لخوض غمرة الوغىٰ[3]، وللعمل في ساحة السلام.

وقال للنقباء أُولئك يعدهم للغد القريب: «أنتم كفلاء علىٰ قومكم ككفالة الحواريّين لعيسىٰ بن مريم، وأنا كفيل على قومي»[4].

وكانت لحظة للبشرية هي أعظم يُمناً وخيراً وبركةً من ألف شهر.

* * *

---

١ . سجاف الليل: ستره.

٢ . راجع تفسير الطبري ٧: ٤٩، والدرّ المنثور ٣: ٢٨٠ في تفسير الآية: ١١١ من سورة التوبة.

٣ . الوغىٰ: الحرب.

٤ . راجع الطبقات الكبرىٰ لابن سعد ١: ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

يومئذٍ شهد العالم ميلاد أول تنظيم سياسي وعسكري في دولة الهدى البازغة، التي ما لبث ناموسها الربّاني أن سرح على منبسط الأرض وفي دخائل النفوس سروح النور وهو يكسح الظلام.

وطفر الكفاح النبوي أوسع طفراته نحو مرحلته الإيجابية التي طال بها المخاض! أشفت[١] الأمور على حافّة الحسم والتقرير.

جاء التغيير.

ففي خلال الأشهر القلائل التاليات دبّت حركة غير عادية في جماعة المسلمين كدبيبها عند خروجهم إلى أرض الأحباش.

إنّ قريشاً لتحدسٍ وتتوجّس، وتحسّ كأنّما القوم يتهامسون، ثم تنظرهم خلسةً، فتراهم يقدمون ويتراجعون، ثم تجدهم يوماً يوماً يتناقصون عدداً في بلدتهم الحرام.

فهل هي انطواءة مقهور مغلوب، أم أنّها تشرّع للهروب، أم أختفاء عن أعينها وأيديها موقوت؛ جماماً[٢] من البطش والعذاب؟

بل هجرةٌ في الله.

وما الهجرة بفرار، إن هي إلّا أذان بالجهاد.

فدع قريشاً وما هي فيه! ذرها وما تصوّره لها الأوهام!

فلقد حقّ على «يثرب» اليوم أن تنادي المؤمنين: هلمّوا إليّ، فلبّوا ... وأخذوا يدخلونها آمنين، واحداً واحداً، وزمرةً زمرةً، حيث يلقون الصفاء والمنعة والأرض الطيّبة التي كتب الله أن يتحرّر أهلها ـ إلّا أقلّهم ـ من خبائث الشيطان.

---

١. أشفى على الشيء: أشرف عليه.

٢. الجِمام: الراحة.

اللوحة الرابعة

بعيداً عن مكة

عندما يريد الله بقوم خسراً تضلّ بهم عن مواقعها الأقدام، تشتبه عليهم الأُمور، تختلّ في مداركهم معايير التقدير، يرون الصواب في الخطأ، ويرون الخطأ في الصواب.

كذلك فعل بقريش، والمسلمون ينزحون عنها إلى «يثرب» فُرادىٰ وجماعات، وقد أذن لهم ربّهم في الخروج؛ احتساباً له سبحانه ومرضاةً، وما خرجوا جميعهم خفيةً، ولا من وراء الظهور.

فلربّما انطلق بعضهم على الطريق، مشرّقاً بشمال، إلى مهاجرهم بمدينة العزّة والنصر التي تتصوّب إليها عيون الماء، وتحفّ بها خضرة الزروع، وينتظرهم الردء والأمن والمتاع، فلا يكاد رجل واحد من أساطين الشرك يتقدّم ليحول بينهم وبين الانطلاق.

أفلا يسُرّ الشرذمة الضالّة أن ينزح خصومها هؤلاء بعيداً عنها، ومعهم صبوءهم، فيتّقي قومها الوقوع في فتنة دعوتهم السحرية التي شتّتت جماعتها، وحطّمت وحدتها، وفرّقت بين الزوج وزوجه، والولد وأمه، والأخ وأُخيه، والابن وأبيه، ثم مرغت في الوحل دين الأسلاف؟

ولربّما علمت بمخرج بعضٍ آخر، فخفّ أُناس منها إليهم، يقتلعونهم عنوةً من

مواطئهم، ويعيدونهم إلى ديارهم كارهين، مخافة اشتداد سواعدهم في منتجعهم الجديد، ثم كرّهم عليهم بالثأر والوبال، عندما تسنح سانحة، ويئين أوان.

أفتخلّي بينهم وبين المنعة والأيد، وفي ذلكم بلا ريب شرٌّ داهم، وخطرٌ عارم، وبلاءٌ عظيم؟

اختلفت إذاً نظرة قريش إلى المهاجرين، بين جماعة لجماعة، وبين يومٍ ويوم، من نقيض لنقيض.

ووسعت المسلمين الهجرة في الله، إلّا الذين حبسهم أهل الشرك، وصدّوهم عن الرحيل، لكنّه صدّ إلى حين، إلى أجلٍ معلومٍ، يحسبه الكافرون بعيداً وما هو ببعيد

وتتابعت على الطريق إلى «يثرب» الرجال والنساء من حزب الله، بعضهم على القدم، يمضون مواكب وصفوفاً، من بعد مواكب وصفوف ... وبعضهم على الظهر، تدبّ بهم مطاياهم، حوافر في إثر حوافر[1]، أخفافاً وراء أخفاف، وأظلافاً تليها أظلاف.

كانوا جميعهم يتلعون[2] الأجياد إلى المقام الموعود، كانوا في شوقٍ إلى تلبية دعوة الله ... فهناك، سبحانه هو المضيّف وهم الأضياف.

وهل يُضام ضيفٌ ينزل في قِرىٰ مالك الوجود؟

ولقد حنّ أبو بكر إلى اللحاق بأترابه حنيناً أخذ عليه كلّ مشاعره وتفكيره، كعصفورٍ بلّله القطر، وعصفت به الريح، وناشه الزمهرير، ثم استطاع أخيراً أن ينفض عن نفسه تلكم الأوقار، فنشر جناحيه، ومضىٰ يطير إلى عشٍّ له فيه دفء وراحة وقرار.

وأعدّ عدّته، وهمّ بالرحيل، لكنّ رسول الله قال له: «لا تعجل، لعلّ الله أن يجعل لك صباحاً»[3] فأطاع.

* * *

---

١ . ذوات الحافر: الفرس ونحوه، وغيره ذات الخفّ أو الظلف كالجمال والنوق.

٢ . يتلع الجواد: يحفّزه على الجري.

٣ . راجع أُسد الغابة ٣: ٢٠٩.

ولم يعد حينئذٍ شكٌ في أنّ الهجرة وجبت على المؤمنين.

ما وقع بنفس الزهراء من بضعة أشهر لم يعد اليوم حَدْسَ ظنٍّ، أو هَجس تصوّر واهم، بل أصبح وإنّه ليقين من اليقين ... وتهيّأت للأمر وأهل الدار وتلبّثت تنتظر علىٰ رغبةٍ وأهبّةٍ إشارة الرسول، فكلّ حركةٍ بموعد، وكلّ خطوةٍ بميقات.

وإذا كان قد عزّ عليها أن تفارق مكة، فلا حرج عليها لو أخذها هذا الشعور، وقد علمت أنّ أباها ليلة مخرجه وقف علىٰ مرتفعٍ رنا منه إلى البيت العتيق، وإلى البلدة التي تحتضنه، ثم قال وكلماته تكاد تتقاطر عبرات: «والله، إنّك لأحبّ أرض الله إليّ، وإنّك لأحبّ أرض الله إلى الله، ولولا أنّ أهلك أخرجوني منك ما خرجت»[1] لكنّ أمراً آخر كان يشغل قلبها في هذه الآونة الأخيرة من عهدها بمهبط الوحي، ويملأه إلىٰ حافّتيه، حتّىٰ لتحسّه وكأنّه يفيض كما يفيض الإناء المترع بالماء ... إنّه لأمر الأثيرة «خديجة» جوهر الوفاء وزينة النساء.

فما ماتت في فكر الابنة هذه الأم التي ليس كمثلها امرأة في الأُمهات، ما غابت قطّ عن شردة خاطر، ولا خلجة بال، ما غربت شمس حياتها عن وجودها وإن كان جثمانها ليثوي في ثرىٰ الحجون.

وإذ آن الآن وقت الرحيل، فَلاتَ[2] لهذه الغالية حين رحيل!

فلعلّ الفتاة الحزينة قد أُشربت ـ نفساً وبدناً ـ أسىً موجعاً، نفذ في وجدانها حتّىٰ أعماق الأعماق، وتخلّل مسامّ بشرتها حتّىٰ خالط الدماء في العروق، وهي ترىٰ بعين المسافة إلى أيّ مدىً ستكون بعيدة عن المثوى[3] الحبيب.

ثم لعلّها تلفتت فيما حولها، وما حوت الدار التي شهدتها وليدةً فصبيةً فيافعةً، فرأتها ـ بعين غدها ـ مهجورةً، قد أُقفرت[4] من الأهل، فلا حركة قدم، ولا رفّة ثوب،

---

١ . راجع البداية والنهاية ٣: ١٧٥ باب هجرة رسول الله ﷺ بنفسه، والمستدرك على الصحيحين ٣: ٧.

٢ . لات: ليس، ويذكر أنّها لا تأتي إلّا مع «حين».

٣ . المثوىٰ: المنزل.

٤ . أقفرت: خلت.

ولا نأمة[١] نبرة، ولا حسيس أنفاس ... كأنّما غدت أثراً من طللٍ في وادي الرمـل علىٰ مدرجة التيه، حتّىٰ لقد لفّت الصبية وحشة مروّعة أوشكت أن تثبت في خلدها أن سوف تفارقها إلى آخر الحياة.

ثم لعلّها رنّت ـ بعين العاطفة ـ إلى حَشيَّةٍ أو مهادٍ ألفت في بواكير سنيّها تأوي فوقه إلى حضن خديجة، فإذا هو خالٍ من الأم العطوف الرؤوم ... وإذا هي بـامرأةٍ أخرىٰ قد استوت عليه، أو رقدت فيه، ليس لها من صفات سيدته الأُولىٰ نصيب إلَّا عمر تقدّم بها إلى ما وراء الكهولة، وطيبة تعدّ في كرام المناقب وإن كانت أدنىٰ إلى سذاجة الطفولة.

فما سَودَة بنت زَمعة كخديجة.

لا هي بذات جمالٍ، ولا هي بذات فطانةٍ، ولا هي بذات «شخصية» قويةٍ آسرةٍ، تجتذب الانتباه، وتمتلك العقول، وتتفرّىٰ علىٰ حدّ بديهتها اللماحة وذكائها الألمعيّ خيادع الآراء وزيوف الأفكار.

كانت ـ كأُنثىٰ ـ لا تكاد تتوسّط بنات جنسها، بقدر ما كانت تداني مؤخّرة الصفوف.

وعندما خطبها رسول الله، إنّما فعل برأيها، وعطفاً عليها، إذ كانت من أُوليـات المهاجرات بالحبشة، ومات عنها زوجها السكران بن عمرو بعد أوبتهما من المهجر بقليل ... وكرّمها النبي، فمحا عنها وحشة الترمّل، بعد أن امّحت عنها وحشة الغربة عن الديار.

ودخلت بيته زوجةً، وأُمّاً للمؤمنين ... ولم تكن ـ في الحقّ ـ تـحلم أن تـظفر بشيءٍ خير من هذه الفضيلة التي رفعتها مقاماً عليّاً بين نساء العالمين.

وكانت تتحدّث بنعمة الله، فتقول: «والله ما بي على الزواج من حرص، ولكنّني أُحبّ أن يبعثني الله يوم القيامة زوجاً للرسول».

* * *

---

١ ـ النأمة: النغمة، الصوت.

ولقد عاشت هذه السيدة الطيّبة في بيت النبوة مع الزهراء على مودّةٍ ووفاق، لكنّ الذي كانت الفتاة تلقاه منها من الرقّة واللطف والاهتمام لم يكن يغنيها شيئاً عن حنان الحبيبة الراقدة في ثرى الحجون، بل كان دائماً يذكّرها بذلك الحنان، بل كان يهيج من لواعج حزنها على أُمها كلّ صبح ومساء، ما كان يلوح كأنّما سيطويه سجلّ النسيان.

ومع ذلك، فما أمر «سَوْدَة» بعقدة، ولا هو بحمل يؤود.

فهي ـ على عطلها من الحسن ـ سمحة الخلق، حلوة الحديث، صيغت من براءة الطفولة، لطبعها نعومة الحرير، شفّافة النفس كماء ينبوع انبثق من الصخر، كفاها من دنياها الجديدة التي نقلها إليها النبي بيت تأوي إليه، وعمل تبذله لتسعد كلّ من فيه، ورجل ـ دونه الخلق كلّهم ـ تتفيّأ في جواره الأمان.

فإذا كانت خلائق سَوْدَة بدت ـ من فرط سذاجتها، وسهولة تركيبها النفسي ـ صفحة واضحة الأسطر في كتابٍ مفتوحٍ، فما الظنّ بتلك الثانية الأخرىٰ التي لن تلبث إلّا قليلاً ثم تصبح السيدة الأولىٰ في الدار؟

عرفت فاطمة أنّ خَوْلَة بنت حكيم كانت قد أقبلت ذات يومٍ تقول للرسول: ألا تتزوّج؟

فسألها: «من؟».

قالت: إن شئت بكراً، وإن شئت ثيّباً.

ـ «فمن البكر؟».

ـ بنت أبي بكر.

ـ «ومن الثيّب؟».

ـ سَوْدَة بنت زمعة.

قال الرسول: «فاذهبي فاذكريهما عليّ»[1].

---

١. راجع المعجم الكبير للطبراني ٢٤: ٢٤ ـ ٢٥ برقم (٨٠)، وقد أخرجه أحمد ٦: ٢١٠ ـ ٢١١ من حديث طويل.

وفعلت.

فأمّا «سَوْدَة» فدخلت بيت النبوّة، وأمّا الأُخرىٰ: ابنة صاحبه الصبيّة الصغيرة، فخطبها واستأنىٰ[1] بها حتّىٰ تبلغ مبلغ النساء.

فماذا تخفي الأيام؟

أيبعد أن يتساءل إذ ذاك الألىٰ حول الرسول من خاصّة أهله، إن كانت الفتاة الصغيرة الطريرة[2] بعد أن تمسي تحت جناح نبيّهم سوف تسلك نفس ملك سَوْدَة العجوز؟ أم عسىٰ سيكون لها من فتوتها الغضّة وحسنها النضير[3] ما قد يدفعها إلى اختيار نهجٍ آخر تسير فيه؟

يعلم الله!

فالإنسان إنسان ... والعواطف البشرية بحر مترامي المساحة، تائه الحدود، كأنّه بلا ساحل، سحيق الغور، بعيد المهوىٰ، كأنّه بلا قاع! فيه لؤلؤ ومرجان، وفيه أيضاً حصىً وأعشاب.

وعواطف ابنة حوّاء تقع من هذا اليمّ في قرار مجهول.

ولنضارة السنّ أحكام، ولعزة الجمال أحكام، ولنبالة النسب أحكام.

وهل ثمّة ممّن يعرفون «عائشة» من لا يعرف لها هذه المميزات، إلى جوار بديهة حاضرة، وذكاء متوقّد، وأُذُن واعية، ولسان طلق، وعين لمّاحة؟

وكانت الزهراء بغير شكّ في العارفين!

فمن تحت جلد هذه الصغيرة ـ التي لم تكن قد ارتدت ثوب العروس ـ سوف تبرز امرأة عملاقة، تسدّ علىٰ غيرها من نساء النبي الآفاق، وتكون ذات قدر ومكانة وما أشرفت على العشرين، وثم تصبح من قوّة الأثر والخطر بحيث تصنع الأحداث،

---

١ . استأنىٰ بالشيء: صبر عليه، انتظره.

٢ . الفتاة الطريرة: التي علىٰ وشك البلوغ.

٣ . النضير: الجميل.

وتحرّك التاريخ، وتقتحم معامع[1] الرأي والسلاح ولما تنتصف بـها أعـوام عـمرها الطويل.

* * *

الهجرة

وشغلت فاطمة عن همّها وذكرياتها وتأمّلاتها حركة الهجرة التي أعدّت لها العدّة قريش الأصنام، لتواجه ما أعدّ رسول الإسلام.

فلم يغب عن أحدٍ كيف تربّص المشركون بالنبي، وقد صـار له نـصير وشـيعة بيثرب، ممّن هاجر وممّن أوىٰ، اشتدّ بهم أمره، وغدت قريش منهم في خوفٍ أن يميلوا عليها بالحرب، كُرّاراً غير فُرّار، فيقضوا عليها، ويستأصلوا دين أسلافها من الجذور.

واجتمع أشراف الكفر في دار الندوة يتشاورون، تحدّث أحدهم يستنهضهم: إنّ هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، وإنّا والله لا نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتّبعه، فأجمعوا فيه رأياً.

عندئذٍ انبثق رأي يقول: احبسوه في الحديد! وأغلقوا عليه باباً، ثم تربّصوا مـا أصاب شباهه من الشعراء حتّىٰ يصيبه ما أصابهم من هذا الموت!

فهل يضمنون لو فعلوا ألّا يثب أصحاب محمد فينتزعوه عنوةً من حيث وضعوه؟

ورأي راءٍ آخر: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنّا فوالله ما نبالي أين يذهب.

إنّه إذاً لأولىٰ بأن يغلب بحسن حديثه وسلامة منطقه عـلىٰ قـلوب مـن يُـنفىٰ بأرضهم وعلىٰ عقولهم، فإذا هم له تبع وأشياع!

---

١ . المعامع: جمع معمعة: وهي الحرب والفتنة، ومعامع الرأي: شائكه وعويصه.

وحاروا فيه! هو معضل بهم، على الحالين: رحل أو حلّ، خرج أو أقام.

لكنّ أبا جهل جاءهم من لدنه بالرأي الذي ظنّه وظنّوه يحسم الأمر، ويدرأ الخطر الذي يخافون، قال لهم عدوّ الله: الرأي أن تأخذوا من كلّ قبيلةٍ شاباً جلداً، حسيباً في قومه، نسيباً وسطاً، ثم يعطىٰ كلّ فتىً منهم سيفاً صارماً، ثم يفدون إليه، فيضربونه ضربة رجلٍ واحدٍ فيقتلونه، فيتفرّق دمه في القبائل، فلم تقدر بنو عبد مناف علىٰ حرب قومهم جميعاً[١]!

فارتضوا ما ارتآه، وراحوا يدبّرون لتنفيذ الائتمار.

ولقي رسول الله أبا بكر، فقال له: «أُذن لي في الهجرة»[٢].

قال ابن أبي قحافة وهو مشوّق: الصحبة يا رسول الله؟

ـ «الصحبة!».

وامّحت آية النهار ... وظهرت آية المساء.

ثم أقبل الليل من قبّة الأُفق، يتحدّر كالسيل علىٰ جبال مكة، ويدهن الدور والدروب بلونه الحالك السواد.

حينئذٍ تسلّل الفتية الأجلاد من قريش، يؤمّهم الأشراف، تسلّل الأفاعي، وفي أيديهم الأسياف، يطبقون علىٰ بيت النبي من كلّ جانب، وينتشرون حولها بغير حسيس ولا هسهسة[٣] إلّا أن يكون للظلال وقع أقدام!

لكنّ محمداً كان عالماً بما يفعلون، أفكان بصره يخترق إليهم الجدران؟ أو كانت له علىٰ كلّ امرئٍ منهم عينان لا تغفلان؟

* * *

---

١ . راجع البداية والنهاية ٣: ١٧٣ ـ ١٧٤ وقال: ذكر القصة ابن اسحاق الواقدي بأسانيد عن علي وابن عباس وعائشة وسراقة بن مالك.

٢ . راجع المصدر السابق: ١٧٦.

٣ . الهسهسة: الصوت الخفيّ.

علىٰ غير مألوف العادة، رأت فاطمة أباها لا يبيت في فراشه، بل يعزف عنه، ويأمر عليّاً فيبيت فيه.

وأطاع الشاب.

وهكذا الفداء!

فهل شاء الله لنبيّه النجاة فكشف له عن مكر أُولئك المؤتمرين؟ أم شاء أن يمكّن لدينه في الانتشار؟

كليهما شاء، وكلاهما مترابطان.

فثمّة دائماً علّة ومعلول، وسبب ومسبَّب، لتمضي الأُمور والأحداث على تساوق وتتابع مع النظرة البشرية المنطقية التي لا تخالف المألوف المقبول، ولا تعضل الأفهام والعقول.

ولقد جرىٰ في مشيئة الله أن يسخّر عليّاً ليكون هو المقدّمة، ويكون خلاص الرسول من أعدائه هو النتيجة ليعزّ شأن الإسلام.

وخرج الرسول على القوم المتربّصين، فاجتاز ذلك النطاق الذي ضربوه حول الدار، فربّما قرّ في أرواعهم أنّه بفراشه، فأمنوا أن يبرح بيته في تلك الآونة، وأنّ براحه عندئذٍ هو المحال، ما دامت همهمة الكلام، ووقع الأقدام، وصليل السلاح[1] تنبعث إليه من لدنهم عبر بابه، متفحّصة عمّا يبيتون!

وقديماً قيل: من مأمنه يؤتى الحذر!

أو ربّما دلف[2] إليهم وهم في غمرة هرجهم، متستّراً منهم بظلّ هذا، ومتسلّلاً من وراء ظلّ ذاك، وقد استغرقهم إعدادهم للوثوب عليه كلّ الاستغراق! والظلال عشاً يعمي الأبصار.

أو ربّما شُبّه له، فخالوه أحدهم ولم يتبيّنوه، تماماً كما شبّه عيسىٰ بن مريم لجند

---

١ . صليل السلاح: صوته لمّا يصدم غيره.

٢ . دلف: دخل.

الرومان الذين تجمّعوا ليقتادوه للصليب!

كيفما كان ما وقع لهم أو حاق بهم، فقد مضى النبي من بينهم إلى حيث صاحب هجرته، وهم أمثال خُشُبٍ مُسنَّدة، أو كأصنامهم الصمّ العمي، لا يسمعون ولا يبصرون ولا يشعرون.

وقبعت[١] فاطمة قلقة تسامر النهار! فماذا لو اقتحم عليها المشركون المكان؟ وماذا لو مزّقوا الشاب الراقد، ملتحفاً ببردة الرسول، قبل أن يفطنوا أنّه ليس الطريدة المبتغاة، التي تربّصوا لها بالسيوف الحداد؟

لقد خرج أبوها في الله.

ولقد رقد علي في الله.

وكما أنّ الهلاك يقف شاهراً منجله دون خطوة واحدة على طريق الارتحال، فهو يشهره أيضاً علىٰ مهاد الرقاد.

فلا عجب إذاً لو اعترىٰ قلب الفتاة حينئذٍ وجيف ووجيب[٢]، حتّىٰ لكأنّما في صدرها تنّور يفور، ويوشك أن يقذف ما بجوفه الملتهب كما يقذف حممه المنصهرة بركان.

وهل من حيلةٍ لها إلّا أن تضطرب وتوجل وتنزعج، وقد سبقت إلى بالها خشية ما عسىٰ أن تنجاب عنه أستار الليل، ويطلع عليه ضوء النهار؟

لا حيلة! لا مناص وإن هي علمت ـ يقيناً ـ أنّ ربّها مانع كليهما، ومسلّمهما إلى منجاة. فالخوف غريزة، وديدن الغرائز الجموح، ورهبة المجهول المحجوب وراء قضاء الله من طبيعة الناس، لكنّه ليس يعني دائماً انتفاء اليقين، بل إنّه ليؤكّده ولا ينفيه.

والفكر الإنساني في حياتنا الدنيوية محدود لا يعرف الإطلاق، والنظرة ـ بقدراتنا ومقاييسنا البشرية ـ إلى الأشياء والأُمور نسبية، تختلف من إنسانٍ لإنسان

---

١ . قبع: جلس.

٢ . وَجَب القلب ووَجَف: اضطرب.

فلقد تكون ثمّة سلامة، ولكنّها مفتقرة إلى حظٍّ من الاكتمال، يتراوح به اختلاف الآراء ـ صعوداً ونزولاً ـ بين حدّ الكفاية وحضيض النقصان.

ولقد تكون نجاة، ولكنّها مشوبة ـ قليلاً أو كثيراً ـ بشدائد وأهوال.

هنا يصبح الخوف نوعاً من النزوع التوّاق إلى الاستزادة من اليقين، أو يكون رغبةً عارمةً إلى الاقتراب من الطمأنينة، أو يكون شوقاً إلى جرعة من الإيمان.

وهو في جميع الحالات إفراز نفسي، يتفاعل مع ما وقع في السليقة، وثبت في الجنان، وقرّ في الضمير، وعرض للعقل من محسوسات، وألهمته الروح من غيبيّات، ينتج من عناصره هذه روح وأمان.

وليس يخفىٰ علينا أنّ إبراهيم سأل الله قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَّكَ سَعْياً﴾[1].

فهل كان أبو الأنبياء يوم أبدىٰ رغبته تلك إلّا علىٰ قمة اليقين والإيمان؟

* * *

ودع الزهراء تتبع ـ بفكرها ومشاعرها ـ الرسول حيث سار، دعها تتأثّر خطاه، وهي تلهج بالدعاء، وتُهَيْنِم[2] بذكر الله.

وما خشيتها الآن وقد أخسأ[3] الله زبانية[4] قريش المسلّحين، وردّهم بكيدهم فرائس للخيبة والحيرة والضياع؟

وترامت إليها أصواتهم من خارج الباب، تفضح بوأهم[5] بالخسران، سمعت آتياً

---

١ . البقرة: ٢٦٠.

٢ . الهَينمة: الصوت الخفيّ.

٣ . أخسأ: أذلّ.

٤ . الزبانية: الأشدّاء، وعند العرب: الشُرَط.

٥ . بوؤه: رجوعه.

أتاهم، فقال: ما تنتظرون ها هنا؟

قالوا: محمداً.

فسخر، وقال: خيّبكم الله! والله لقد خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلّا وضع علىٰ رأسه تراباً، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟

لكادت فاطمة عندئذٍ تسمع البهتة تتحدّث في وجوههم، وهم يلمسون بأصابعهم رؤوساً انتشر عليها التراب!

ولكادت أُذنها تلقط أيضاً دويّ غيظهم في قلوبهم وهو يغلي غليان المرجل، وقد تبيّنوا أنّ علياً هو الساجي[١] على الفراش، ملتفّاً ببرد الرسول!

وملكتهم رهبة، ثم غمرهم ذهول، ثم انساقت بهم أرجلهم، يدبّون ويخبطون، على اضطراب وهرج، كأنّهم قطيع مذعور!

أمّا هي فقد استعادت صوت أبيها لحظة انسيابه من خلل صفّهم المرصوص، وهو يذرّ عليهم تلك الحفنة التي قبضها من ثرى رطبته أنداء الليل، ويتلو من التنزيل: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[٢].

وازدادت نفسها ثباتاً، وازداد قلبها طمأنينةً.

كيف لا، وربّها قد ضرب علىٰ حواسّهم فعطّلها عن تعقّب الرسول، فلا سميع بينهم ولا بصير؟

وأنّىٰ لهم أن ينالوه!

إنّها لعلىٰ يقينٍ أنّ الأرض تهيّأت له مناكب[٣] ذللاً، يسلك منها ما يشاء إلى دار هجرته وهو في أمان ... كان أمام متعقّبيه مثل سراب! إنّ حوله لأسيجة تخفيه عن

---

١ . الساجي: الممدّد.

٢ . يس: ٩.

٣ . المناكب: المناصي.

عيونهم إن أراح أو سار ... فالليل ستار، والظلّ ستار، والوعر ستار، وتيه الرمال المترامي إلى آخر أبعاد الرؤية ستار، وهوام[١] الفيافي ستار، والطير[٢] ستار.

وقبل هذا كلّه، كانت الخطّة، وكانت الحيطة.

فلم يترك الرسول رحلة هجرته هملاً في متاهة الظروف كترك الراعي الغفلان إبله متسيّبة، ترعىٰ وتسوم بغير رقيب، فتشرد أو تتخطّفها الذئاب، إنّم أعدّ لكلّ شيءٍ عدّةً... فلكلّ خطوةٍ حساب، ولكلّ حركةٍ تقدير، ولكلّ تصرّفٍ قد يفجأه به أعداؤه سلوك مضادّ من لونه، خليق بأن يقيه الأخطار ويجنّبه المحاذير.

ومن هنا فإنّه أخفىٰ خبر رحيله عن الناس، وعمّىٰ عليهم مساره.

ويوم ذهب إلى أبي بكر بداره ليخبره بالتجهّز للسفر، حرص علىٰ أن يكون النبأ سرّاً بينهما، فقال: «أخرج من عندك!»[٣].

وساعة برحا الدار، خرجا من خوخةٍ[٤] في ظهر البيت، علىٰ خلاف المعهود؛ ضماناً للاستخفاء ... وعندما غادرا مكة، لم يكن بها من يعلم شيئاً عن هذه المغادرة إلّا نُفَير مؤتمن، لا يكادون يجاوزون عدد أصابع الكفّ الواحدة، منهم: فاطمة وعلي وأسماء بنت أبي بكر وأخوها عبدالله.

فالزهراء كنفسه وعليٌّ مناط سرّه.

وأسماء كانت الساعية إليه ثلاث ليالٍ بالطعام في الغار، حتّىٰ حانت لحظة انطلاقه وصاحبه إلى المهجر ... وعبدالله كان يتحسّس له في أندية قريش أخبار مطارديه.

فلمّا فارق غار ثور بعد تلك الليالي، لم يتّجه إلى «يثرب» مشاملاً بغربٍ على الدرب الساحلي المطروق، كما هو المألوف والمنتظر، بل أمعن السير في الجنوب، ثم انثنىٰ إلى غايته علىٰ طريق مهجور.

لكن هذا التحرّز الذي يمثل قلعةً حصينةً تتحطّم علىٰ أسوارها احتمالات

---

١ . و(٣) إشارة إلى العنكبوت والحمام.

٣ . راجع البداية والنهاية ٣: ١٧٦ وفيه: «اخرج عني من عندك».

٤ . الخوخة: الكوّة يدخل منها النور.

الخطر، لم تخفّف شيئاً من خشية أبي بكر على الرسول أن يناله مكروه.

فهو من خوفه عليه، منذ غادرا الدار، في خوفٍ متّصل الحلقات، وهو مذعور القدم، واجف الحركة، قلق الثبات، مهزوز الخطوات، في صدره جبل، أنفاسه لهثات، بصوته صَحَل[١]، كالذي جفّ ريقه، فراحت الكلمات تتّخذ سبيلها إلى حنجرته متعسّرة، كأنّما تشقّها بسكين، نظراته تترجرج حائرة على امتداد المسافات في كلّ ناحية، فلا يكاد حملاقها يثبت على اتّجاه، إن رأيته حسبته يترنّح من فزعٍ، كمن يسير في وادي «عبقر»[٢]، والأرض من حوله طلعها جِنّة وأشباح.

فما قصاريٰ أمل هذا الصاحب الوفي النبيل؟ الفداء قصاراه!

أنّه ليجهد ليكون لنبيّه درعاً تحميه، فهو تارةً يمشي خلفه، ومرّةً أمامه، وآناً إلى يمينه، وساعةً إلى يساره، وكان يقول لرسول الله: إن قُتلتُ فإنّما أنا رجل واحد، وإن قُتلتَ أنت هلكت الأُمة.

وحتّىٰ عندما أويا إلى غار ثور، وكان لهما فيه مأمن، ثم سمع أبو بكر دبيب بعض المطاردين تدنو من الفوهة، جزع الصاحب أشدّ الجزع، وهمس يقول: لو أنّ أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا!

فهدّأ النبي جأشه: «ما ظنّك باثنين الله ثالثهما؟»[٣]

وكانت كلماته بلسم[٤] سلام.

❋ ❋ ❋

---

١ . صَحَل: الخشونة والبحّة في الصوت.

٢ . وادي عبقر: موضع تزعم العرب أنّه من أرض الجنّ، ثم نسبوا إليه كلّ شيء تعجّبوا منه أو من جودة صنعته أو قوته، فقالوا: عبقري.

٣ . راجع البداية والنهاية ٣: ١٧٨. وذكر الحديث مسنداً الخطيب في تاريخ بغداد ٥: ٤٣٥ ضمن ترجمة محمد بن عبدالله السرّاج برقم ٢٩٥٥ و١١: ٤٣٤ ضمن ترجمة علي بن سيما الجندي برقم ٦٣٢٨، وفيهما عن أنس قال: حدثني أبو بكر.

٤ . البَلسم: كلّ ما يضمد الجراحات.

علىٰ مدى الرحلة النبوية الشاقّة إلى «يثرب» عاشت الزهراء كمن تراوحت بها الأيام بين اليقظة وبين المنام، في نهارها كانت في حلمٍ أزهر، وضيء الرؤىٰ، مستنير الصدر، تشرق ملامح اليُمن والخير علىٰ صحائف مراياه، وفي ليلها كانت في صحوة، توشك بوعيها الحالم، وحسّها الشفّاف، أن تسمع في إبّانها، وتشهد ما لا تستطيع لقطه آذان، ولا رَمْقه عيون.

غير أنّ الأيام كانت بطيئة، تتهادىٰ في السير والأماسي[1] كانت أبطأ، تكاد لا تسير.

والوقت طويل كالدهر ... وهي تمضي بقلبها، تتابع انطلاق أبيها علىٰ طريقه المفروش بالخطر، خطوةً خطوةً، بل شبراً شبراً، وفتراً وراء فتر.

وكانت مكة كلّها في هرجٍ محموم ... اللغط[2] يضطرب فيها بسادتها بين القطع والحدس، وبين صدق الحقائق وشطح الأوهام، بل كانت ثرثرتهم أصدق تعبيراً عن أمانيهم منها عن الواقع الذي كانت تشهده حينئذٍ المفاوز والمغارات والجبال والرمال بل كانوا كثيراً ما ينحرفون!

ثم انتقلت العدوىٰ منهم، فإذا هذا الذي يخالون أويعلمون ينتشر منهم في البلدة الحرام ظنوناً ومشاعر وخيالات، تصكّ كلّ أُذن، وتملأ كلّ خاطر، وتتواثب على الألسنة والشفاه كلمات وعبارات.

فليس للقوم مَعجَبة تذهل سوىٰ تسرّب محمد من بين شفرات سيوفهم المشرعات تسرّب النسمة الرُخاء[3]، وليس لهم دون ظفرهم به شاغل أو رجاء.

وكما تعقّبه أصحاب نقمتهم وثأرهم في الفلوات، راح أشرافهم وسادتهم يتعقّبونه في الأخبار ... فلكلّ مرحلةٍ من رحلته المعمّاة هذه لديهم نبأ، ولكلّ خطوةٍ حديث،

---

١ . الأماسي: جمع أُمسية، وخلافه: الأُصبوحة.

٢ . اللَغَط: الجَلَبة، الصوت الذي لا يفهم.

٣ . الريح الرُخاء: الليّنة.

ولكلّ حزرٍ[1] تبرير، ولكلّ ظنٍّ مساق.

أمّا الزهراء فكانت تتطلّع إلى لقاء أبيها بمأمنه بفؤاد شوق، لعلّ شوقه يفوق ما قد اعتلج بفؤاد أُم موسىٰ بعد أن وضعت وليدها فيْ التابوت وألقت به في النيل، خوفاً عليه من فرعون الذي كان يذبح الأبناء ويستحيي النساء ... فلقد أوحى إليها ربّك ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾[2].

لكن شوق السيدة شوق لهيف، فهي وإن أمنت علىٰ ولدها الوبال، لا تعرف أيرفق به أم يقسو التيار، ولا أيّان مرساه، ولا كيف ستلقاه.

وهو شوق واحد: شوق أُمٍّ تعرف أنّها حرمت ابنها حتّىٰ حين، لعلّه يقصر ولعلّه يطول.

أمّا شوق فاطمة فشوقان: إنّه شوق ابنة إلى أب، وشوق أُمّ إلى ابن، في نفس الآن!

ألم تر أنّها ما فتئت ـ منذ انتبهت على الدنيا ـ ترعاه رعاية والدةٍ لوليد، بكلّ ما يزخر بقلبها من عواطف الأُمومة المبكّرة، وما لم يطف مثله بقلوب غيرها من الأُمهات؟

* * *

وفرغت من شأنها الفتاة، وفرغ من شأنهم من معها بالدار، وردّ علي لأصحاب الأمانات ما كانوا قد استودعوا رسول الله وهو بينهم مقيم.

فالعجب لقومٍ ائتمنوه ـ دون غيره من كبارهم وسادتهم ومشيخة ملّتهم ـ على الثمين والنفيس من عروضهم، إذ عرفوه أمين اليد، أمين العهد، أمين الرأي، ثم إذا هم يزورّون[3] عنه استكباراً حين يبلّغهم كلمات الله!

---

١ . الحَزر: التقدير والخَرص.

٢ . القصص: ٧.

٣ . ازورّ عن الشيء: انحرف وعدل عنه.

ولزمت فاطمة الدار، تغالب حنينها إلى أبيها أن يستبق بها إلى الطريق ... وما لها لا تغالبه، ولا تتذرّع ببقية صبر، وإن هي إلَّا بضعة أيام ثم يفد إليها من لدن الرسول وافد يبلغها أنّه أذن لها بالرحيل؟

ربّما لم يبق سوىٰ يوم ثم تتبعه على الطريق ... ربّما ساعات.

فإن يكن شوقها إلى الأب الودود الرحيم جناح، فلشوقه هو إليها ألف جناح وجناح! بل لعلّها توشك في هذه الآونة أن ترىٰ بعين الشعور لا برأي العين ذلك الوافد المنتظر، وهو ينطلق من ناحية «يثرب» إلى البلدة الحرام، ليعلن فيها للعدوّ والحبيب، وللبعيد والقريب، نبأ بلوغ محمد ملاذه الأمين.

بل كأنّي بها سبقت، بوجدانها الصافي، الخبر السارّ، فشهدت الأنصار يخفّون كلّ صباح إلى مشارف مدينتهم الطيّبة لاستقبال شرق النور، بل قد كادت هتافاتهم عندما طلع عليهم محيّاه، تسري إليها علىٰ نسمة الشمال النديّة، وهم يرحّبون به هازجين مترنّمين:

طلع البدر علينا   من ثنيّات الوداع

وردّد الكون الترنيم.

اللوحة الخامسة

فرسان جناح

الوقت مشلول! الأحداث مقطوعة الألسن!

الأنباء التي تتوالىٰ عليهم من كلّ ناحيةٍ كانت كرذاذ مطر وقطرات طلّ، لا تنقع الصدىٰ، ولا تروي الغليل .

أينما بعثوا في إثر طريدهم بالعيون والقُيّاف، كانت الأرض جرداء، والمهارب خلاء! ليس من أثرٍ وعته الرمال لهذا الذي غادر داره، وتسرّب من بين جفونهم إلى حيث لا يعلمون .

ليس من خبر ... أفذاب في الهواء؟ أم عُرج[1] به مرّة أخرىٰ في السماء؟

ولم يكن شيء أثقل علىٰ نفوسهم من الأيام الثلاثة التي قضاها عليٌّ بين ظهرانيهم بعد خدعة الفراش، فهو يغدو ويروح أمامهم بالبلدة كيفما شاء، هم في حسرةٍ وضيقٍ، وهو في طمأنينةٍ واعتزاز .

كان مشهده قذىً[2] في العيون، العمىٰ أخفّ منه! كان عذاباً نفسياً، أقسىٰ إيلاماً لهم من نخس أسنّة حديدةٍ محماةٍ، تخزّ جسداً تقرّح حتّىٰ تقيّح، وتقيّح حتّىٰ تهرّأ،

---

١ . عرج: ارتقىٰ، صعد.

٢ . القذىٰ: ما يسقط في العين، فتعجز عن البصر.

فلا يكاد يطيق لمسةً رقيقةً من بنان رخص[١]، أو طرف أصبعٍ ليّنٍ كأوراق الوردة .

بل كان أنكىٰ وأشدّ... كان أكثر فرياً من صوارم الهند ورماح الحبشان .

فأين إذاً طواغيتهم التي أغرتهم بالاستكبار؟ أين العزّىٰ واللّات؟ أين مناة الثالثة الأخرىٰ وغيرها من أربابهم المصنوعة التي ظلّوا لها عمرهم عاكفين؟

وماذا أجدىٰ عليهم ما استعانوا من نفث السَحَرة وزمزمة الكُهّان؟ وفيم ما قدّموا لأصنامهم تلك من قرابين؟

وكيف، هكذا، خذلتهم آلهتهم كأن لم يجأروا[٢] لها بالدعاء، ولم يزاولوا في محاريبها طقوس تعبّدهم التي ألهبت أكفّهم بالتصدية، وأحرقت حناجرهم بالمكاء؟

ولم يكن حقدهم على الشاب وليد مقتهم إيّاه إذ هو ابن عمّ عدوّهم الذي أذاقهم مرارة الخذلان، ولا لأنّه حبيبه وربيبه، ولا لأنّه أول امرئٍ في العالمين أسلم، وآزر الرسول يوم لم يكن له في عشيرته الأقربين نصير، ولا لأنّه هو الذي جازف بحياته، وقدّمها فداءً لرسول الله عندما نام دونه في سريره، ملتحفاً ببرده، والشواهد كلّها تدلّ علىٰ أنّه لا محالة مقتول .

فلعلّ من القوم من يقرن فتى أبي طالب بفتىٰ إبراهيم، فما تردّد كلاهما لحظةً عن تلبية دعوة ربّه إلى التضحية بالروح إبراهيم أبو الأنبياء، قال لولده عن أمر الله: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ...﴾ .

فلم يتردّد الابن لحظةً واحدةً، بل أجاب: ﴿يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّابِرِينَ﴾[٣] وأسلم علىٰ ثرى «ثبير» رقبته للسكّين .

ومحمد أمر ابن عمّه ـ بأمر ربّه ـ أن يبيت عنه في فراشه ليردّ عنه عادية الاغتيال ... فأسرع يلبّيه، وكلمات النبي ما زالت عالقة بجوّ المكان، ورقد حيث أمر، مسلّماً جسده كلّه لأسياف المشركين .

---

١ . البنان: أطراف الأصابع، والرّخص: الناعم.

٢ . الجؤار: الصياح.

٣ . الصافات: ١٠٢.

وتكرّر ما حدث للغلام الجدّ فيما حدث للغلام الحفيد.

* * *

استشعرت قريش وهي راغمة الهوان كلّ الهوان في بقاء عليٍّ بمكة، وهو يخايلهم ذهاباً وجيئةً، بقامته المربوعة، وجسده القويّ، وملامح وجهه المضيئة التي تلوّنت بالاستهزاء.

نظراته التي كانت تتطاير عليهم شزراً[1] من جانبيّ عينيه، تبدّت لهم كبقايا من حفنة التراب الذي ذرّه علىٰ رؤوسهم رسول الله، وعلقت بشعرهم لا تبرح، فلا يذروها عصف الرياح والأعاصير، ولا تغسلها مياه البحار والأمطار.

كانوا يحسّونه جرحاً غائراً[2] في جبين كرامتهم لا يفتأ ينزّ[3] بالدماء، أو طعنةً نافذةً إلى السويداء، أو وشَم ذلهٍ نقشته إبر القدر علىٰ بواطن الجفون!

وكيف لا وهو يذكّرهم هزيمتهم النكراء أمام محمد وهو فرد أعزل، وهم أُمة ذات أعداد وعتاد؟

إنّه التحدّي الحيّ الذي خلّفه النبي تحت أبصارهم وأنفهم بالبلدة الحرام، ليكون المرآة التي يرون علىٰ صفحتها أنفسهم أخلاطاً شوهاء من الخسر والقلق والضياع.

فكذلك كان!

ولو أنّهم وسّعوا أُفق مرائيهم الذهنية، لتبيّنوا طريقاً جديداً يقودهم إلى المستقبل القريب ... لو دقّقوا نظرة الفكر في أمر هذا الصغير، وتعمّقوا مخايلة، إذن لتبيّنوا من حقيقته ما غفلوا عنه أو جهلوه.

لو اطّلعوا علىٰ ظهر الغيب، لشهدوه بعد عامٍ ـ وإنّه عندئذٍ لغلام ـ يستقبل حشود صناديدهم، شاهراً سيفاً، وأحياناً سيفين، بيُمناه ويُسراه، كأنّهما ثعبانان يتلوّيان، ما

---

١ . الشّزْر: الغضب.

٢ . الغائر: العميق.

٣ . ينزّ: يسيل.

أن يلدغ أحدهما أو الآخر هذا من عدوّه أو ذاك حتّى تحمرّ الأرض، وتتهاوى الأجساد كأنّها جذوع نخلٍ منقعر[١]، أصابها حاصبٌ[٢] فاقتلعها من الجذور.

وكم قطّ[٣] يومئذٍ من أعناق!

وكم قطع من أوصال!

أمّا قوتهم فتبدّدت في الفضاء، وأمّا كبرياؤهم فديست تحت الأقدام، وأمّا مثواهم فكان القليب.

ونعقت في ديارهم بمكة الغُربان، ونعب بمجالس سحرهم وأندية لهوهم البومُ.

فلقد أملهم الله، فلم يزدهم الإمهال إلّا لجاجاً في الضلال، سلّط عليهم غرورهم، فأغواهم الاستكبار، أعماهم عن مزالق القضاء، طمس علىٰ عقولهم فإذا هي خواء، وعلىٰ أفئدتهم فإذا هي هواء فما أغنى عنهم أن كانوا ذوي مالٍ وجاهٍ وبنين، وما رحمتهم رحى الوغى الساحقة، وما بكت عليهم السماء ... فلئن غمّ عليهم مصيرهم هذا، فلقد غمّ إلى حين، ولسوف يعلمون!

* * *

وخرج عليٌّ من بينهم علىٰ غير استخفاء، وكانوا نا كسي الهام، منطفئي النظرات.

فالخزي أسلمهم إلى ما يشبه السبات، والغلّ[٤] في قلوبهم يفور، ولكنّه لا يجد متنفّساً فإذا هو حبيس وراء ملامحهم الباسمة، كالبخار يمكن أن ينبجس[٥] من المرجل صمّام ثابت شديد الإحكام.

ولحظة أن هزّهم القلق كما تهزّ الحصاة صفحة بركةٍ آسنة[٦]، تلاوموا برمق

---

١ . منقعر: منقلع من الأصل.

٢ . الحاصب: الريح الشديد.

٣ . قطّ: قطع.

٤ . الغلّ: الحقد والضغينة.

٥ . ينبجس: يفجر ويخرج.

٦ . آسنة: ساكنة.

العيون، ثم انتفضوا غاضبين، ثم تلوّنت ملامحهم بالسواد والشحوب: السواد من حقدٍ، والشحوب من شعورٍ بالذلّة والهوان.

كلّا، لن يدعوه ... هذا الفتى الذي وطأت رؤوسهم قدماه لا ينبغي أن يسلم من عقاب إن لم يكن من عذاب.

فليقطعوا إذاً عليه الطريق! وليردّوه صاغراً[١] مطأطأ الجبين، وليكن عبرةً لكلّ من تحدّثه نفسه بخرق الأعراف التي جعلتهم في الأرض سادةً جبّارين، لا تسبق أيديهم أيد، ولا تسمع مع أصواتهم همسات، ولا تعلو فوق هامهم هام.

وصرخ فيهم أبو جهل بن هشام: عليَّ بجناح!

فجيء له على الفور بهذا المولى المرقوق، الذي كان يُحسب لديه في أئمة الصناديد الشجعان، وأمره عدوّ الله ... فانصاع.

خرج علىٰ رأس كوكبةٍ من الفرسان، ومعهم الحويرث بن نقيذ، ملثّمين، يطاردون ركب عليٍّ والهاشميات.

فلمّا أن ضربوا قليلاً في طريق الشمال، وتبيّن لهم رَهَج[٢] أُولئك الرَكب المهاجرين في الله، أركض «جناح» نحوهم فرسه كأنّما يطير بجناح، حتّىٰ دخل وفرقته الباغية في غلالة الغبار.

ثم دنا وتدلّىٰ... ثم صار قاب قوسين أو أدنىٰ، ثم صاح: يابن أبي طالب، أظننتَ أنّك ناجٍ بالنسوة، لا أبا لك! ارجع بهنّ.

فلم يزد الفتىٰ علىٰ أن رمقه بنظرةٍ شزراء[٣]، وقال بهدوء: «فإن لم أفعل؟».

ـ لترجعن صاغراً!

وتلفّت علي فإذا هو من كوكبة عدوّه في حلقة حصار، وإذا القائد العاتي يهمّ أن

---

١ . الصاغر: الذليل.

٢ . الرَهَج: الغبار.

٣ . نظرة شزراء: الغاضبة.

ينزو عليه وسيفه في يمينه مرهف السنّ صقيل.

ولمعت في وهج الشمس شفرتان ... سبقت برقة، ولحقت برقة.

أفكان ثمة، في دنيا واقعهما، سابقة ولاحقة؟

بل خُبيا وانتهيا في نفس الآن، حدّ البدء وحدّ الانتهاء لكليهما جميعاً تطابقاً علىٰ ساحة ذرّةٍ من لحظة لو كان للذرّة اللحظية حدود تُقاس بمقياس الرؤية أو بحساب الأرقام.

فما أدركهما بصر، ولا أحسّهما شعور ... الفاصل الزمني بينهما كان بلا عمر، طرفة الهدب حياله تبدو كالدهر.

البرقة الأُولىٰ ومضة سيف المولي المغرور إذ يطير من يمينه ليرقد على الرمال ... والبرقة الثانية لسيف عليٍّ وقد أهوىٰ به علىٰ «جناح» بضربةٍ ماحقةٍ شقّت بدنه نصفين، إلى يمين وشمال، من أعلىٰ عاتقه إلى أسفل زمّكه، فإذا هو عندئذٍ «جناحان»!

وسقط الزنيم[1]، أم الزنيمان! وسقط أيضاً جواده الذي يحمله، إذ نفذ إليه الحُسام المنقضّ من خلال جسم الراكب، وأوشك أن يذيقه الحِمام.

أمّا أفراد الكتيبة الأُخر، فقد سلبتهم البغتة القدرة على الحراك، فرّغهم من الإحساس، صعقتهم فبدوا كأصنام.

ولولا أنّ غريزة حبّ الحياة دبّت في سنابك خيلهم، فدفعتها إلى الفرار، إذن لغدوا كقائدهم الصريع طعاماً شهيّاً للشواهين والعقبان.

* * *

نذل واحد من أُولئكم الفَجَرة اللئام ملكه من حقده ما أعماه عن آداب الفروسية، وتقاليد الفرسان، وأعراف بيئته التي قيل: إنّها كانت تعفّ عن إيذاء النساء، في موطن حربٍ أو في موطن سلام، إن كنّ سبايا أسيرات أو كنّ حرائر أو كنّ إماء، فاندفع ـ

---

١ . الزنيم: المستلحق بالقوم، وقيل: اللئيم.

وهو يركن إلى الهرب ـ ينخس أدنى الأباعر إليه نخسةً عشوائية، ثم يطير لائذاً بالنجاء[١]... وتلك شيمة جبان إنّه الحويرث بن نقيذ، كان مفتوناً بادّعاء البطولة، مولعاً بالإيذاء، كلّ ما كان يعنيه أن يُظهر الغَلَبة علىٰ شيءٍ ما ... علىٰ إنسانٍ أو على حيوان.

ولو أعوزه أن ينال بقدرته «البطوليةا» هذه ذات روح تضطرب فيها الحياة، فربّما ـ كتيس[٢] أحمق ـ نطح الجبل فأوهىٰ قرنَيه، لا لغايةٍ إلّا أن ينفّس عن بعض مخزون الشرّ الذي يملأ جوفه، وتكاد تنفجر بضغطة رئتاه ... أو ربّما ضرب بسيفه الهواء متخناً في مرئيات موهومة، وأشباح بلا وجود ولا كيان إلّا في خياله المخبول، ليؤكّد لنفسه أنّه قادر على الطعن أو علىٰ مقارفة الإضرار.

بلى قد لا يضيره أن يدّعي نهكةً ألمّت به، أو يفتعل خدشاً أصابه، ليبدو كمن أبلىٰ بلاء الأبطال في معمعته تلك، بغية احتلاب الانتصار!

تماماً كما نقلت إلينا ـ من بعدُ ـ أحاديث التراث: خبر «الحُطَيئة» الهجّاء، الذي كان يستشعر متعة الظفر في ذمّ أصحاب الشرف والمكانات، فلمّا لم يجد مرّةً عظيماً يهجوه، نظر إلى صورته في الماء، ثم أطلق فيها لسانه السليط:

أرى لي وجهاً قبّح الله خلقه ... فقبّح من وجهٍ وقبّح حاملُه![٣]

فضرب بقوله هذا عصفورين بحجرٍ... وضع نفسه ومهجويه الأماجد علىٰ مرتبةٍ سواء، وأشبع نهمه بالهجاء!

أو تماماً كما رسم لنا «سر فانتس» في الأدب الغربي بعد قرون، بطله: «دون كيشوت» فارساً تأخذ عليه أوهام بطولته المدّعاة كلّ منافذ تفكيره، فيمضي منتفخ الأوداج، ليحارب طواحين الهواء وإنّه ليراها بعين تصوّره الحولاء مقاتلين أشدّاء!

---

١ . النجاء: النجاة، يقال: نجا ينجو نجاةً ونجاءً.

٢ . التيس: المعز.

٣ . البيت من الطويل، وقبله:

أبت شفتاي اليوم إلّا تكلّما ... بسوءٍ فما أدري لمن أنا قائله

راجع ديوان الحطيئة: ٢٥٧، الشعر والشعراء: ٢٤٠ وفيهما «شوّه الله وجهه».

وانتصر الحويرث بن نقيذ على الدابّة العجماء ... وجفل[١] البعير، وألقىٰ عن ظهره راكبتيه: فاطمة وأُم كلثوم.

فإن يكن الجبان قد نفّس آنئذٍ عن بعض شرّه، وانقلب إلى قومه وهو بفعلته الخسيسة قريرٌ تيّاه، ففخره جفاء، كرغوة ماءٍ أو فقاعة هواء ... ذلك أنّه وإن طال المدىٰ، لن يلبث أن يجني ثمر الشرّ، ويلقىٰ جزاء ما سوّلت نفسه، وقدّمت يداه.

والأيام ممدودة ... والأيام قدور، والعمر أمامه فسيح.

ولحظة أن يحين حينه، سوف تخترمه[٢] المنون علىٰ ظُبة[٣] سيف ظنّ أنّه قد أفلت من ضرباته الماحقة[٤]، فيلقىٰ مصرعه بيد عليٍّ يوم الفتح الأكبر، بعد ثمانية أعوام.

* * *

ويبلغ الركب «يثرب»، ويلتئم الشمل إذ يلتقون بالرسول.

فالوجوه مشرقة، والعيون أنجم زهر، وخفق القلوب أغاريد، ولم يكن في الضياء الذي شعّ منهم إلّا خطوط ظلالٍ تمسّ محيّا عليٍّ مسّاً خفيفاً، وتلقي عليه لوناً باهتاً من وجوم كأنّه بعض وعثاء[٥] الطريق الطويل.

ليس هذا وليد غضبه من تطاول «جناح»، ولا صدىً لبقيّة ألم تعتوره؛ نتيجةً لما أصاب فاطمة وأُختها من جفلة البعير ... ولا أثارة أسفٍ تخامر نفسه إذ فاته شهود الحفاوة البالغة التي استقبلت بها المدينة محمداً، واحتوته في أحضانها احتواء أُمٍّ رؤوم بوليدٍ أهلّ علىٰ دنياها بعد عقم وطول انتظار.

وأحسّ الرسول بما يكتمه ابن عمه عنه من لاعجة[٦] ضيق، يتحرّج أن تنفرج

---

١ . جَفَل: فرّ مسرعاً.

٢ . اخترم: اقتطع، استأصل.

٣ . ظُبة السيف: حدّه.

٤ . الماحقة: الهالكة.

٥ . الوعثاء: المشقّة، التعب.

٦ . اللاعج: كلّ ما يحرق الجلد، من الضرب أو الهمّ ونحوهما.

عنها شفتاه، فابتسم له بسمةً رقيقةً كأنّها شرارة كهربية ما أن انطلقت حتّىٰ كـانت كقطبٍ موجبٍ زاوج السالب فانبعث التيّار!

علىٰ الأثر انفكت عقدة لسان ذلك الوافد من مكة عبر الصحراء، فقال باستحياء: «يا رسول الله، آخيت بين الناس وتركتني».

كلمة عتاب؟

حاشاه!

بل هي تعبير عفوي عن الولاء، صاغه قلبه بغير أحرف لفظة الولاء ... أو هـي طموح إلى سماع جديدٍ من كلام نبي الله، يؤكّد ما يعلم من رضائه عنه، وعلوّ منزلته لديه، ويزيد عليه ... أو هي نوع من مناجاة حبيبٍ لحبيب، إن شاق كليهما اللـقاء فشقوقهما أشدّ لدوام هذا اللقاء.

وقال له الرسول، وكلماته خفق قلب حنون: «إنّما تركتك لنفسي... أنت أخـي وأنا أخوك»[1].

مكانة، أيّة مكانة!

ومقام، أيّ مقام!

ولو كان لأحدٍ في الناس فخر يتيه به على الأقران، فليس فيهم ـ عـلىٰ مـدى الدهر ـ كابن أبي طالب، من له قرين يباهي به أهل الأرض والسماوات.

فمجد هذه الأخوّة مجد الأمجاد.

ولسوف تفصح الأيام للفتى الطالبي، بلسان النبوّة الصادق الأمين، عـن مـزايـا وأوصافٍ ترتفع به فوق أقدار كلّ الأخيار من الأولين والآخرين، فيتسنّم ذرى الهام، ويبزّ صفوة الأنام.

ودع الزمن يتهيّأ لملء المحابر، ونشر الصحائف، وامتشاق[2] الأقلام!

---

١ . رواه في الكنز ١١: ٦٠٨ برقم (٣٢٩٣٩) فضائل علي عليه السلام، وفي إعلام الورىٰ: ١٩٣ ف ١ ب ٤ ذكر بعض مناقب وفضائل علي عليه السلام، وفي المعجم الكبير ١١: ٦٣ برقم (١١٠٩٢) نحوه عن ابن عباس.

٢ . امتشق سيفه وقلمه: إذا شهره.

الفصل الخامس

- في واحة السلام
- هي والكمال
- ترضى فيرضى الله، تغضب فيغضب
- وترامت إليها القلوب

اللوحة الأُولىٰ

في واحة السلام

هنا ليس كهناك.

ليس المكان كالمكان، وليست الحياة كالحياة.

الفارق بين اليوم والأمس، كالفارق بين تربة مكة الجرداء وتربة هذا البلد المضياف الذي يتبدّىٰ بين الرمال والجبال واحةً معطاء خضراء.

منذ اللحظة الأُولىٰ التي لمست فيها الزهراء بقدميها الأرض الجديدة، لاح لها أنّها علىٰ رقعة زمنية تفصل بين ماضٍ قاسٍ قسوة الصخر، يمتدّ وراءً إلى دُنيً من الباطل والظُلم والظلام، وبين قابلٍ ليّنٍ لين الماء، ينساب أماماً إلى عوالم من الحقّ والعدل والضياء.

فعلىٰ نقيض ما كان الوضع ببلدتها المهجورة التي أخرجت محمداً بغير جريرة إلّا أن يقول: ربّي الله، رأت «يثرب» الكريمة التي فتحت ذراعيها لتحتضن جند الله.

فها هنا الاستقرار ... والاستقرار طمأنينة، والطمأنينة مناخ الروية، والروية سبيل إلىٰ سلامة التقدير، والتقدير السليم للأمور مدخل إلى حسن التدبير، والتدبير المحيط الواعي هو أوسع أبواب النصر.

* * *

وامتلأت فاطمة عندئذٍ بشعورٍ غامرٍ من التفاؤل وراحة البال.

فما أن هدأ بها المستقرّ حتّىٰ شهدت المسلمين ـ وإنّهم لحركة دائبة ـ يسعون بكلّ الثقة والاعتداد إلى الانتشار فوق وجه الجزيرة، منساحين[١] علىٰ الحزون[٢] والهضاب، في السهول والوديان، بين الفجاج والشعاب، انسياح الشعاع من قرص الشمس ساعة الشروق.

كمثل أرضٍ طيّبةٍ ـ تلكم الأرجاء ـ غرست يد القدر فيها أعواد زنابق تعهّدتها غيوث العزائم بالسقيا، فإذا هي زهرات بيضاء، نقيّة نقاء الإيمان ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾[٣] أينع الجنى، وطابت الثمار.

أجل، تبدّلوا بعد هجرتهم حالاً بحال.

بيئتهم الآن سلام، أهلها وحّدوا الله فوحّدهم الله، لا تمزّق بينهم ولا تفرّق ... لا شقاق، بل وفاق ... لا أوس لا خزرج، بل أنصار.

علىٰ قلوبهم مسح الإيمان بكفّه العطوف، ونزع ما في صدورهم من غلٍّ، فنسوا سخائم[٤] الأجيال. من لغتهم محا الحدّ الفاصل بين الغربة والقربة، فتقاسموا أسباب حياتهم مع الضيفان.

لا قبلية ... فلا تنابز بالأسماء والألقاب.

لا طبقية... فلا تطاول بالوجوه والأحساب.

لا عصبية ... فلا تفاخر بالأُصول والأنساب.

فيهم الروميّ، وفيهم الحبشيّ، وفيهم العربيّ، وفيهم الزنجيّ... ومنهم من امتدّت بهم جذورهم الأُولى إلى الوراء حتّىٰ يعقوب.

---

١ . منساحون: منتشرون كما ينتشر التراب لمّا يُذرىٰ.

٢ . الحَزون: الأمكنة الوعرة المرتفعة، والحُزنة: الجبل الغليظ.

٣ . البقرة: ٢٦٥.

٤ . السخائم: جمع سخم، وهو السواد.

لكنّهم جميعهم سواء، في مجتمعهم الناشيء هذا لا اعتبار للعناصر والأبشار ... الأصفر كالأحمر، الأبيض كالأسود، العبد كالسيد.

وكلّما قطعت الشمس بهم ـ في رحلتها اليومية ـ شوطاً علىٰ مدرجة الأُفق، نهض من بينهم رجل منهم، ليس سواه، مؤذّناً للصلاة.

خمس مرّات، من انبثاق خيوط الفجر إلى انسدال ستارة الظلام، كانت حنجرته الذهبية تترنّم بنداء التوحيد، داعية القريب والبعيد أن يخفّوا ـ قياماً وركوعاً وسجوداً ـ إلى الالتقاء بالله.

أحياناً كان يدعوهم تارة أُخرىٰ أو تارات، علىٰ غير ميقات، إن جدّ أمر، أو حزب حازب[1]، أو تنزّل بيان من ربّهم ورأى النبي أن يدعوهم من أجله للاجتماع.

وكانت فاطمة تعرف داعي السماء، تعرف أنّه بلال بن «رباح»، وأنّه بلال بن «حمامة» إن شِيءَ أن يُنسب الناس إلى الأُمهات دون الآباء، وتعرف أنّه كان صخرة إيمان أوهت قرون ثيران الشرك، فلم يستطيعوا بجبروت التعذيب أن ينالوا من صلابته أيّ منال.

لم تردّه عن طريقه لسعات السياط تشقّ في بدنه العاري شقوقاً غائرة تكاد تصل إلى العظام، ولم تصبه[2] نار الرمضاء، ولم تفتنه قسوة السلاسل والقيود والأغلال، تشدّ علىٰ يديه وقدميه وعنقه حتىٰ لتوشك أن تمزّقه أشلاء.

كان عنيداً كذُبابة، ثابتاً كالجبل، صلباً كالماس ... فإلى الله ربّ العالمين مماته ومحياه.

وكانت تعرف أنّه ـ بنظرة القوم العادين ـ أنقاض عبد مملوك، وحشي العنصر والمظهر، لا يُحسب شيئاً في الأُصول والجذور.

---

١. حَزَب حازب: أصابه أمر شديد.

٢. تصبه: تفتنه.

كان حبشيّ السمرة كغمامة ظلّ، قاتم اللون كغسق[١] الليل.

فهل أخّرته مثل سَمْك[٢] شعرة غواشي[٣] الرقّ والجلد والجنس عن مقامه ذاك في مقدّمة أهل الإسلام؟

بل كان صوته النديّ العذب يلعلع[٤] بنداء السماء، فيخفّ جمع المسلمين ملبّين، يلتئمون صفوفاً، كلّ صفٍّ كأنّه بنيان مرصوص، اتّحد فيه الحجر باللبن بالحصباء بالرمال بالمِلاط[٥] بغيرها من مواد التشييد، فتوطّد أساساً، واشتدّ مراساً، وثَبُت دعائم، ورَسُخ قوائم، وتماسكت جدرانه، وصَلُبت أركانه، وشمخ شموخ صَرْحٍ ممرّد[٦]، رفيع الذرىٰ والعماد.

أو كأنّهم كانوا وكلّ صفٍّ من صفوفهم عقد منظوم، ممدود غير معقود، من زَبَرْجَد[٧] ولازُوَرد[٨]، ومن يَشْبٍ[٩] وياقوت، ومن يُسْر[١٠] ودُرّ، ومن لؤلؤ ومرجان إن تكن حبّاته التي يجملها سلكه قد تعدّدت جوهراً وأصلاً، وتفاوتت مظهراً وشكلاً، فإنّها قد تناسقت أحجاماً، وتساوقت نظاماً، وتواترت أنواعاً، وتآلفت شعاعاً كماء ينبوعٍ صافٍ، يتنضّد حبابه، ويتوحّد انسيابه، حتّىٰ يكون كوجه مرآة جلواء، أو يكون كمثل ألوان الطَيف، تتداخل وتتذاءب، فإذا هي غلالة ضياء.

* * *

---

١. غسق الليل: ظلمته.

٢. السَمْك: قامة كل شيء ثخين صاعد.

٣. الغواشي: جمع غشاء، وهو الغطاء.

٤. يلعلع: يصوّت.

٥. المِلاط: جمع المُلُط، وهو الطين الذي يُطلىٰ به الحائط.

٦. ممرّد: صافٍ، مصقول.

٧. الزَبَرْجَد: حجر كريم يشبه الزُمرّد أشهره الأخضر.

٨. اللازُوَرد: معدن نفيس يتّخذ للحُلي، وأجوده الشّفاف الأزرق.

٩. اليَشب: حجر كريم يشبه الزبرجد، لكنّه أصفىٰ منه.

١٠. اليُسر: ضرب من الأحجار الكريمة.

حتّىٰ هذا المهجر الكريم المضياف الذي فتح ذراعيه محتضناً رسالة السماء، آوياً محمداً والذين معه، ومانعهم ممّا يمنع منه أهله نساءهم وأبناءهم بحدّ السلاح، وقوة المال، وقطر الدماء ... حتّىٰ هذا المهجر تغيّر أيضاً كياناً وظلالاً، وأصلاً وخيالاً، فإذا الله الواحد في القلوب، وإذا الشريعة السمحة في العقول، وإذا الشيطان الرجيم تحت الأقدام.

غمره نور الإيمان.

كما آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار، ربط بين أُولئك وهؤلاء وبين جيرانهم من بني إسرائيل، برباطٍ من حلفٍ لبّه: حرية الاعتقاد، والودّ، والتآزر، والمساواة... حين الحرب وحين السلام.

وكتب بذلك عهداً أبرمه، وأبرمه معه الفريقان المتجاوران، جاء فيه: «لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم: مواليهم وأنفسهم إلّا من ظلم».

وجاء: «من تبعنا من يهود فإنّ له النصر والأُسوة، غير مظلومين، ولا متناصر عليهم».

وجاء: «على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإنّ بينهم النصح والنصيحة البرّ...».

وجاء: «اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين».

واستوثقت عندئذٍ فاطمة، وتبيّن الناس: أنّ الإسلام ليس كغيره ممّا سبقه من الملل مجرّد شعائر تؤدّىٰ، وعبادات تُقام ابتغاء الفَلْج[1] يوم النشور كما يظنّ ظانّون، بل هو أُخرىٰ ودنيا، دين ودولة، بؤرتهما هذه البلدة التي لن تلبث أن تشعّ علىٰ كوكبنا الأرضي، في مختلف أرجائه، من الهدى والمعرفة والعمل الصالح ما ينفع البشر في داريْ الفناء والبقاء.

❋ ❋ ❋

---

١ . الفَلْج: الظفر.

وتبدّل أيضاً المهجر الطيّب اسماً آخر باسمه القديم الذي أعلمه بين القرى والمدائن، طوال القرون الغوابر التي عاشتها أجياله في أسفار التاريخ ... الآن أصبح «المدينة» وليس «يثرب» كما كان.

فقد مَدَن[1] فيه الرسول وأقام، ودِينَ لشريعة الله، وملكه الإسلام.

فلا «تثريب» اليوم، لا ملامة ولا عتاب، وقد أخذ يحثّ خطاه على المحجّة البيضاء.

أمّا الدار بالمدينة التي أصبحت ـ بعد وقت قصير من الهجرة ـ منزلاً لآل الرسول، فلم تكن كمقام الأُسرة النبوية الصغيرة عند المسجد الحرام.

كان ثمّة بمكة بيتان متقاربا الطراز، إن تكن الزهراء لم تعش إلّا بأحدهما، فقد رأت صنوه بلا ريب، وحدّثتها الروايات بما جرىٰ فيه.

فالذي عرفته عن مشاهدة وحديث، كان ذلك الذي أعرس فيه جدّها المفتدىٰ «عبدالله» بجدّتها «آمنة بنت وهب» وشهد لقاءً لم يكد يتكرّر بين العروس والعروس، لأنّ حياتهما الزوجية لم تدم إلّا كمثل ومضة شهاب.

ثم شهد ميلاد سيّد الناس والخلائق جمعاء، ثم شهد شطراً من حياته المباركة قبل البعثة بسنين ... وكان بيتاً رحباً، ليس أقلّ سعة من بيوت كثيرين من القرشيّين المنتشرة معه حول الكعبة الغرّاء.

حين تُقدم عليه، وأنت قبالته، ترىٰ درجاً حجرياً في صدر المبنىٰ، يفضي بك إلى باب يُفتح إلى الشمال، إن ولجته صرت في فناء طويل عريض، له بجداره الأيمن مدخل إلى قبّة تتوسّطها[2] ـ بميل قليل نحو الحائط الغربي ـ مقصورة من خشب، كانت مخدعاً لذينك العروسين اللذين رحلا عن الدنيا وهما بعدُ في عُمْر الزهر.

تلك دار ... وأُخرىٰ بمكة أيضاً، أدعىٰ إلى لفت الأنظار، عليها طابع الثراء

---

١ . مَدَن: أقام.

٢ . «آل النبي ﷺ» لبنت الشاطئ (المؤلف).

واليسار، إنّها دار خديجة بنت خُوَيْلد، التي عاش محمد فيها منذ الزواج.

وهي منخفضة الأرض، يرتفع عنها الطريق ببضع درجات[١]، يصعد فيها قاصدها إلىٰ ممرّ، علىٰ يساره مصطبة طولها عشرة أمتار، وعرضها أربعة، وارتفاعها قدم واحدة، فإذا اتّجه فيها يميناً فثَمَّ درجتان تؤدّيان إلى طرقة ضيقة، ذات ثلاثة أبواب.

أول هذه الأبواب يقع في الناحية اليسرىٰ، ويقود إلى غرفة صغيرة كانت محراباً لرسول الله، يقضي فيه ساعات من الليل، وأحياناً من النهار، في تعبّدٍ وتأمّلٍ وخشوع، والثاني الأمامي منها يصل إلى بهوٍ متّسعٍ، هو مخدع الزوجين، والثالث ـ بالجانب الأيمن ـ لغرفة مستطيلة فسيحة كانت لبنات الرسول.

وعلىٰ طول امتداد المسكن، منْ الجهة الشمالية، فضاء فسيح، مرتفع عن الأرض بعض ارتفاع، كان لاستقبال الضيفان.

وليس مسكن النبي ها هنا بدار هجرته كهذا ولا كذاك، إنّه نوع من المسا كن، ما نرىٰ سوىٰ أنّ طبيعة الرسالة الإلهية ـ قبل ظروف البيئة ـ هي التي دعت إلى اقتطاعه من مسجد المدينة، أو إلحاقه به، علىٰ نفسه طراز المعمار.

بخلاف ما يومئ إليه اللفظان، لم يكن كلاهما مطابقين لمعنييهما اللذين ترسمهما الحروف ... فلا دور[٢] البيت كان مقتصراً على المبيت، ولا دور المسجد على السجود، بل كانت الدار بؤرة إشعاع النور، غالباً كانت مهبطاً للوحي، منفذاً لتسامي الأرض نحو السماء، كثيراً كانت تعقد به أهمّ اللقاءات بين محمد وصحبه أو مشيريه، أحياناً كانت تُبرم فيه أخطر الأُمور، مراراً عديدة كان يستقبل به وفود الباحثين عن الله ولم يكن المسجد مجرّد مكانٍ لإقامة شعائر الصلاة، فالأرض كلّها مسجد، وأينما التقت جبهة خاشعة بمهاد طاهر من قماش أو إهاب أو حصير أو حجر أو حصباء، فثمّة وجه ربّك ما دام الله في القلوب.

---

١ . المصدر السابق. (المؤلّف).

٢ . الدَوْر: كلّ فسحة تحيط بها الجدران.

إنّما كان مسجد الرسول بالمدينة، وكما ينبغي أن تكون المساجد، متّسعاً لكلّ صنوف النشاط البشري الذي ينفع الناس.

فهو مسجد «جامع» يضمّ مختلف أنواع السلوك التي توافق طبيعة الإسلام، إنّه متعبَّد ومتهجَّد، ومكانٌ لبثّ الدعوة، ومدرسةٌ للتفقيه، وملتقىً للوافدين لاعتناق الدين، ومأوىً وملاذٌ لمن ليس لهم من المؤمنين مأوىً ولا ملاذ، ومجمعٌ للمسلمين حين الاستنفار لدفع الأعداء، وموقعٌ لعلاج الجرحىٰ والمصابين، ودارٌ للندوة، ومقرٌّ للحكم.

وعندما وصل محمد إلى «يثرب» بعد هجرته، واستخفّت الفرحة قدمها للقائه، وتخاطف كثيرون منهم مقود ناقته، كلّ فريقٍ يحاول أن ينيخها بمنازلهم، ليكون لهم شرف حلوله بين ظهرانيهم ... ردّهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك، وقال لهم: «خلّوا سبيل ناقتي» وقال: «دعوها فإنّها مأمورة»[١].

ثم ألقىٰ بخِطام[٢] الناقة علىٰ غاربها، وتركها تمضي إلى حيث أراد لها الله أن تمضي، وأن تبرك علىٰ حيثما أراد لها البروك.

وبركت الدابّة علىٰ مربد سهل وسهيل ابني عمرو، فابتاعه النبي، وخطّ عليه مسجده علىٰ هيئة فناء فسيح، رفعت جدرانه الأربعة من آجر وتراب، وسُقِّف جانبٌ منه بسعف النخيل، وتُرك جانبٌ آخر مكشوفاً ... فكان بعضه مأوىً ومرقداً لفقراء المسلمين ممّن لا منازل لهم ولاديار .... ثم بنى الرسول بيته حافّاً بالمسجد كقطعةٍ منه، وعلىٰ نفس طرازه، كأنّما عنىٰ أن تكون داره مدد ذلك النشاط البشري المتعدّد الشعب والجوانب، وأن يتلاءم البناءان، طرازاً وهيئةً، حتّىٰ ليبدو كلٌّ منهما وإنّه لمتمّم للآخر.

كانت الدار لصيقة بالمسجد، ومطلّة علىٰ فنائه .... وكانت بضع حُجرات بسيطة بغير زخرف، بعضها من جريدٍ يمسكه الطين، بعضها من حجارةٍ مرصوصةٍ .... بابها بغير حلقةٍ يطرقها الطارق، اكتفاءً بقرعه بالأظافر عند الاستئذان للدخول[٣].

---

١ . راجع البداية والنهاية ٣: ٢٠٠.

٢ . الخِطام: كلّ ما يوضع في أنف البعير ليُقاد به.

٣ . «آل النبي ﷺ» لبنت الشاطئ (المؤلّف).

وكانت السقوف من جريدٍ، دانية، لا تكاد ترتفع إلّا قليلاً عن قامة الرجل الطوال، يقول الحسن بن علي: « كنت أدخل بيوت النبي، وأنا غلام مُراهق، فأنال السقف بيدي!».

أمّا الأدوات المنزلية فأقلّ وأهون ما كانت تتطلّبه الحياة البيتية في ذلك الزمان من ضروريات تفي ببعض الوفاء بأغراض الشرب والغسل وإعداد الطعام؛ كالسُقاء والرحىٰ وبضعة من آنية الفخار.

وأمّا الفُرُش فخشنة، أدنىٰ إلى أن تقضّ المضاجع منها إلى أن ترتاح فوقها الجُنوب! فهي وسائد مشدودة بليفٍ أو بشريطٍ من خوص، بعضها حشوه إذخر وهو نبات طيّب الريح، وبعضها حشوه صوف عذري، لم تكد تتناوله يد بالتهذيب.

وأمّا الأثاث فمتواضع رخيص، إنّه بسط من جلد جافّ، وسُتُر من خَيْشٍ[1] مضطرب النسيج، وسِجْف[2] من قماش متنافر السدىٰ واللُحم، غليظ الخيوط.

لا هيئة ثراء.

لا مظهر اكتفاء.

لا أثر لزخرفٍ أو ترف.

بل معالم تتحدّث بالجشوبة والشظف، ونقص متاعٍ إلى حدّ الإدقاع[3].

ولا غرو.

فما هذه الدنيا في نظرة الرسول إلّا هباء، ولو أنّه شاء لأوتي كنوز الأرض والسماء، ولكنّه ليس يرضىٰ من الحياة إلّا بما يقيم أوده، ليؤدّي رسالة الله.

كفاه شبعة واحدة وجوعتان، كفاه أن يشتري أُخراه بأُولاه، أليس هو القائل: «ما يسرّني أنّ لي مثل أُحد (ذهباً) أنفقه في سبيل الله، أموت وأترك منه قيراطين».

فلمّا روجع في ذلك، وسُئل: أو قنطارين، يا رسول الله؟

---

١ . الخَيْش: واحده خَيْشة، وهي نسيج خشن من الكتّان.

٢ . السِجْف: قماش يُجعل ستراً عند الأبواب والشبابيك.

٣ . حدّ الإدقاع: أي أقلّ حدٍّ متصورّ، والإدقاع يعني الالصاق بالأرض.

قال: «بل قيراطين»[١].

وصدق إذ قال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ﴾[٢].

* * *

إلىٰ هذا البيت «الجديد» الذي يوشك ألّا يُعَد في البيوت، تحوّل رسول الله عليه الصلاة والسلام من دار أبي أيّوب: خالد بن زيد الأنصاري الذي ودّ بروحه لو زاده محمد كرامةً فظلّ بداره تلك إلى ما شاء الله.

وإنّ لساعة فناء عالمنا الإنساني، وانقضاء عمر البشرية إذ تنفجر الأرض وتنطبق عليها السماوات.

وبه نزلت معه الأُسرة النبوية المباركة، زوجه أُم المؤمنين: سَوْدَة بنت زمعة، وربيبة علي بن أبي طالب، وابنتاه أُم كلثوم والزهراء.

ولم يطل ها هنا، في هذه الدار، بفاطمة الحبيبة مقام ... ولم تطل أيضاً، بين جدرانها، بالصغيرة البتول[٣] كينونتها كفتاة ... فكما انتقلت من دارٍ إلى دار، كان الأوان قد آن لتنتقل من مرحلةٍ من الحياة إلى مرحلةٍ أُخرىٰ من الحياة.

وهل سنّة الحياة إلّا التغيير؟ هل العيشة سوىٰ نقلات متوالية في المكان والزمان؟

إنّ الإنسان مادة وروح. فأمّا الروح فمن أمر الله، لغز تُحار في معرفة كنهه العقول،

---

١ . أخرجه أحمد ٥: ١٤٩ مسند أبي ذرّ، ومسلم ٢: ٦٨٩ كتاب الزكاة ب ١٠ في الكنازين ذح ٣٤ كلاهما عن أبي ذرّ. وفي البيهقي ٤: ٧ كتاب الجنائز باب ما يستدلّ به على أنّ كفن الميّت من رأس المال: «عشرة أواق».

٢ . آل عمران: ١٨٥.

٣ . البتول: المنقطعة عن الدنيا إلى الله، وقيل: العذراء. ويذكر أنّ «البتول» أحد أسماء السيدة فاطمة عليها السلام، وقد روي عن حفيدها الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لفاطمة عليها السلام تسعة أسماء عند الله عزَّ وجلَّ: فاطمة، والصدّيقة، والمباركة، والطاهرة، والزكيّة، والراضية، والمرضية، والمحدّثة، والزاهرة». وفي مسند الرضا عليه السلام: أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «إنّما سمّيت ابنتي فاطمة لأنّ الله سبحانه فطمها وفطم من أحبّها من النار». وسمّاها النبي صلى الله عليه وآله البتول أيضاً. وقال لعائشة يوماً: « ... إنّ فاطمة ليست كنساء الآدميّين، ولا تعتلّ كما تعتلّون» يريد أنّها لم تر دماً من حيض.

سرّ تتحطّم دون اقتحامه عبقريات الأفكار ... وأمّا المادة فجسد من تـراب ومـاء، صلاصل كالفخار، هيكل من طينٍ لازبٍ[١]، متراكب بعضه فوق بعض: سِلْخاً سِلْخاً، وقشوراً علىٰ قشور.

ثم هو امتداد من الماضي في الحاضر، ومن الحاضر في الغد المجهول، منبسط مشعّ الجوهر، معتمّ المظهر، متناقض التكوين، فيه يجتمع النور إلى الظلمة، والوجود إلى العدم، والحركة إلى الجمود.

قطرة سابحة في بحر الكون الذي لا يكاد يُعرف له برّ، ولا يحدّه حصر، قطعة من ثرى الأرض ذات مساحيق من مسافةٍ أو مدىً، ومن وقتٍ أو مدّةٍ، أولهما شكـل جليّ منظور، هو المقدار، يُـقاس طـولاً وعـرضاً بـالمقاييس البُـعدية؛ كـالأفتار والأشبار ... وثانيهما أجلّ خفيّ مقدور، هو العمر، يُقاس خفقاً ونبضاً بـالمقاييس الحِينية؛ كالأيام والشهور.

فإذا انطلقت بالمرء النُّهُر والليالي، تراكمت أعدادها عليه أطباقاً: قشـرة فـوق قشرة، حتّىٰ يستوفي دوره في هذه الدنيا، ويختفي بدنه في التراب.

تلك عاجلته، وإنّها لإلىٰ زوال.

ثم إنّها مراحل: من طفولة وغلومة، ومن فتوّة وشباب، ومن كهولة وشيخوخة. قد ينقصف عود بعضها وهو في ريعانه، وقد يرد صاحبها إلى أرذل العمر حتّىٰ ليظنّ أنّه يباري الخلود.

وما ها هنا على الأرض من خلود، فكلٌّ محدود بنهاية، كلّ مرحلةٍ بـحساب، ولكلّ أجلٍ كتاب.

وعندما نزلت فاطمة تلك الدار الجديدة، لصق المسجد النبوي بـالمدينة، كـان الزمن يمضي بها علىٰ تمهّل، فوق طريق هذه الحياة.

* * *

---

١ . الطين اللازب: اللاصق الصلب، المتداخل بعضه بعضاً.

اللوحة الثانية

هي والكمال

إنّها الآن قد جاوزت منتصف العشرة الثانية من سنّي عمرها الدنيوي الميمون، جاوزته بقليل، ربّما بعام ... ربّما بعامين أو ثلاثة أعوام فقد شبّت ونمت، ازدهرت نضرةً، أينعت فتوّةً، تكاملت صباً وحسناً حتّىٰ لم يعد في طوق التكامل مزيد.

وأولئك الذين شهدوها تترعرع كزهرة هيفاء[1] الفرع، بهيّة الهيئة، زكيّة العبير، لابدّ قد تردّد في خواطرهم تساؤل حائر: ترىٰ أقرّ قرار هذه الحوراء الإنسية على انتهاج جادّة التبتّل، فعدلت إلى العذرية عن الزواج؟

ولا غرابة في تساؤلهم ذاك، فهي قدسية المنبت، قدسية التنشئة، قدسية الميول.

وطبيعة الأرض العربية أيضاً، تبكّر بالبنت إلى استواء الأُنوثة، كأنّما شعاع شمسها الحارّ ينضجها على نارا

ثم تقاليد البيئة تدفع بها إلى بيت الزوجية، وهي علىٰ مُختتم العشرة الأولىٰ من سنيّها، أو علىٰ مشارف العشرة الثانية إن لم يكن قبلها أو بعدها بشهور، أحياناً تقصر فإذا هي أيام، وأحياناً تطول حتّىٰ تحول[2]!

والأفكار والمشاعر الجاهلية ظلّت لها رواسب دفينة في العقول والنفوس، تحمل

---

١ . الهيفاء: الرشيقة، الضامرة البطن.

٢ . تحول: أي تصير حولاً.

الأب على التعجيل بتزويج ابنته وهي لمّا تكد تخلع إهاب[١] الطفولة، اتّقاء تلك المخطورات التي ادّعاها قومه، وادّعاها آباؤهم الأولون؛ تعلّلاً بها لوأد البنات

فكراهية إنجاب الأُنثىٰ في ذلك المجتمع العربي أمر معلوم، وخلاص الآباء من بناتهم بقتلهنّ؛ مخافة العار، لم يكن منكراً يعاب! بل كان منحىً مطروقاً من مناحي السلوك العام، وكان أحياناً يعدّ في المكرمات!

وقديماً قال شاعرهم:

لكلّ أَبٍ بنتٌ يُرجّىٰ بَقَاؤُها ثلاثةُ أصهارٍ إذا ذُكِرَ الصهرُ
فَبيتٌ يغطيّها، وبَعْلٌ يصُونها وقَبرٌ يواريها، وخيرهم القبر!

ومن مأثوراتهم: أحبّ أصهاري إليَّ القبر[٢]!!

وقد سجّل الله عليهم سلوكهم البغيض هذا في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[٣].

❊ ❊ ❊

لا غرابة إذاً في أنّ أُناساً قريبي عهدٍ بسنين الجاهلية، قد نظروا إلى تأخّر زواج فاطمة من خلال العوامل البيئية والتقليدية، ومن ثم رأوه منافراً للقاعدة الاجتماعية العامة، ومخالفاً للعرف المألوف.

ولم يصيبوا التوفيق، ولا أحسنوا استقراء الأوضاع.

ذلك أنّ نظرتهم لم تكن محيطة، بل سطحية، مشدودة إلى ماضيّهم المظلم، فتعذّر عليهم التحرّر من ربقة الفكر الجاهلي القديم.

إنّما الغرابة الحقّة تأتينا في كتابات كثيرٍ من جماعات «الاستشراق» الذين

---

١. الإهاب: الجلد ما لم يدبغ.
٢. «آل النبي ﷺ» لبنت الشاطئ (المؤلّف).
٣. النحل: ٥٨ و٥٩.

تناولوا بأقلامهم ذلك العهد المبكّر من عهود الدولة الإسلامية، فراحوا ـ عن تعصّب وتحزّب ـ يلغون في سيرة الزهراء ولوغ الكلاب، متكلّفين ذرائع موهومة ودّوا أن تنال من قدرها الرفيع، وتشوّه صورتها النفسية والبدنية أمام العقول والعيان.

فإن لم يكن سوء النيّة هو دافعهم إلى هذا التكلّف، فأي شيءٍ غيره يكون؟

لقد كانت لهم مندوحة[١] عن جنوحهم إلى الافتراء، بعد أن توفّرت لهم وسائل البحث والتحقيق، وبعد ما تيسّرت لهم دقّة الاستنباط، بانفساح آفاق مراجعة الرأي علىٰ أُسس علمية وموضوعية، كما تستند إلى النصّ تستند أيضاً علىٰ ما وراءه من عوامل ـ حدثية ونفسية ـ الإحاطة بها، ولمّ شتاتها يفسح المجال لإحكام التقدير.

لكن الهوىٰ غلّاب[٢]، والمتحيّز لا يميّز، فانظرهم كيف يعتسفون[٣] الأسباب!

إنّ الزهراء ـ في رأيهم ـ إنّما عزف[٤] عنها الخُطّاب سنين عدداً، لأنّها كانت تفتقر إلىٰ ما يجعل الرجل العربي ـ أيّ رجلٍ ـ يقبل على اختيارها شريكة حياة!!

فهي ضامرة هزيلة، والأزواج حينذاك يفضّلون المرأة ممتلئة الجسم، ريّانة القوام، وهي موسومة بالحزن، مكتئبة المزاج، وما من بيتٍ يرفرف عليه التشاؤم كبيت قعيدته لا يعرف وجهها الابتسام، وهي ليست علىٰ ذكاءٍ ملحوظ، وبُعد نظرٍ، وسعة حيلة!! ثم هي فوق هذا لم تكن ذات نصيبٍ من الوسامة يمكن أن توصف معه بالجمال!!

فإذا اجتمع كلّ ذلك إلى المعيشة الضنك التي كانت تحياها، فما الذي يبقىٰ منها ليجذب إليها الخُطّاب؟

ويستند[٥] أُولئك الذين كادوا يجرّدونها ممّا يزيّن الفتاة، إلى ندرة ما ورد عنها

---

١ . مندوحة: بعيدة.

٢ . الغلّاب: صفة مبالغة للغالب.

٣ . اعتسف الشيء: إذا مال به بعيداً عن الصواب.

٤ . عزف عن الشي: مال عنه.

٥ . عمر أبو النصر في كتابه «فاطمة بنت محمد» (المؤلّف).

بكتب السيرة القديمة من صفات ذهنية وحسيّة تنطق بالفطنة، وتشير إلى الحُسن، فتُعلّي الشأن وترفع المقدار.

ثم يخرجون من هذا إلى تزويجها بعليٍّ لأنّه أشبه بها فاقةً، وأدنىٰ إليها دمامةً، وأحرىٰ بأن يقبلها زوجةً، ربّما بتأثير أبيها كافله ومربّيه، وربّما لأنّه لم يكن ليجد من ترتضيه بين غيرها من النساء!!

وما أكثر ما تكلّفوا من تعلّات!

ولو أنّهم ردعوا هواهم، وأخذوا بالنصف، لكان حسبهم ذلك القليل الذي جاءتهم به الأسناد دلالة على انتفاء ماتوهّموه، ولهدتهم قوانين الوراثة إلى الرأي الذي يجنّبهم الادّعاء، ولأغنتهم مظاهر السلوك الاجتماعي عن تقوّل الأقاويل ولكفّوا عن تأوّل تفسيرٍ يجانب صدق التقدير.

فما كانت المرأة المكتنزة اللحم والشحم مطلوبة لمجرّد هذا الاكتناز، بل لأنّ امتلاء عودها كان معلماً من معالم شرف المحتد، وعراقة الأصل، وكرم النحيزة، وكلّها يتّصل عادةً بلين العيش ورفهنية[1] المال.

وليس منبت الزهراء بالذي يُجارىٰ حين يقارن بمنابت سواها من اللدّات والأتراب[2].

فأبوها هو من هو في الناس، شريفٌ من أشراف، وماجدٌ من أمجاد على امتداد الجدود حتّىٰ «إسماعيل»، وما يزيد في قدره مدح مادحٍ، ولا ينقص منه قدح قادحٍ، لأنّنا لا نظنّ أحداً في العالمين يماري في مكارمه التي بلَغ بها شأو الفضل، سواء في ذلك أعداؤه وأولياؤه، من أنكر نبوّته ومن آمن به واتّبعه علىٰ رسالته.

وأُمّها هي من هي عراقةً ونبلاً وثراءً، يقرّ لها بالحسب والنسب الكبير والصغير، فإذا ذُكرت في مجالات المآثر الخُلقية والمحاسن الخلقية «فقد كانت ذات فطانةٍ

---

١ . الرفهنية: السعة.

٢ . اللدّات والأتراب: من كان في سنّها.

ورجاحة: غنيّة النفس بأكرام العواطف الأنثوية ...».

كانت تسمّىٰ في[1] الجاهلية بالطاهرة، وسيّدة نساء قريش؛ لأنّها جمعت إلى مكانة النسب العريق مكانة الخلائق الموقرة، والثروة الوافرة، حتّىٰ لقد كانت قافلتها إلى الشام تعدل قوافل قريش أجمعين في كثيرٍ من الأعوام.

وأهلها جميعاً لم يحفظ التاريخ سيرة أحدٍ منهم إلّا كان علماً في الحكمة والدراية، أو الشجاعة والشمم.

وكانت مفطورة على التديّن، فأبوها «خُوَيْلد»[2] هو الذي نازع تبّعاً الآخر حين أراد أن يحتمل الركن الأسود معه إلى اليمن، فتصدّىٰ له ولم يرهب بأسه؛ غيرةً علىٰ هذا المنسك من مناسك دينه.

قيل: إنّ «تبّعاً» روّع في منامه ترويعاً شديداً حتّىٰ ترك ذلك وانصرف عنه.

فلا يبعد أنّ روعة «خويلد» ومرآه وهو ينذر العاهل بالغضب الإلهي إذا أقدم علىٰ فعلته، قد شغل قلب «تبّع» فتراءىٰ له من المخلوقات في منامه ما أرهبه وثنّاه عن عزمه.

* * *

وعاشت الزهراء بين أبويها في سعةٍ، بل اتّسع أيضاً العيش في دار الزوجين لوافدٍ آخر، هو عليّ، ربيبهما الأثير.

قيل: أكلت الناس أيام عجفاء، ثقلت بها وطأة الحياة علىٰ أبي طالب، وكان ذا فقرٍ وعيالٍ، وتشاور محمد وحمزة والعباس: ألا نحمل كَلّ أبي طالب؟

---

١ . «فاطمة الزهراء والفاطميون» لعباس محمد العقّاد (المؤلف).

٢ . خويلد بن أسد بن عبدالعزّىٰ بن قصي بن كلاب والد خديجة، من أشراف قريش، ومن كبار رجالها ووجهائها المعروفين، وكان من الفرسان، يلقّب بابي الخَسف، وكان من الوفد الذي أرسلته قريش إلى اليمن لتهنئة ملكها سيف بن ذي يزن عند طرد الأحباش من بلاده وانتصر عليهم، وكان ذلك بعد عام الفيل بعامين، وقد تكوّن وفد قريش من عبدالمطلب بن هاشم، وأُميّة بن عبد شمس وخويلد بن أسد، فأتوه بصنعاء في قصر يقال له «غمدان» وقد مات يوم الفجار. (أخبار مكة ١: ١٤٩).

ومضوا إليه يسألونه أن يسلّم إليهم أولاده لينفقوا هم عليهم، ويكفوه أمرهم، قال الشيخ: دعوا لي ابني عقيلاً، وخذوا من شئتم.

قال محمد: «لقد اخترت من اختاره الله لي عليكم».

وأخذ علياً أصغر الأولاد، وكان جعفر نصيب حمزة، وكان طالب نصيب العباس[1].

وحتّىٰ بعد أن بُعث محمد رسولاً، وانشغل عن مطالبه الدنيوية والسعي الجاهد في طلب الرزق بنشر دعوة السماء، واستنفد جهاده علىٰ كرّ السنين ـ أو كاد ـ ثروة خديجة، ظلّت الفتاة تحيا حياةً «مستورة» إن لم تكن ميسورة.

* * *

ثم دعنا نتساءل: هل الحزن منقصة؟

بل هو دليل رقّة الحسّ، ورهف الشعور.

وما القول في صغيرةٍ درجت في دار أبويها، والدار يومئذٍ مقبلة علىٰ أمرٍ جللٍ، لا يرقىٰ فقط فوق تفكير الصغار، بل عن مدارك الكبار.

فلقد أوشكت نشأة الزهراء أن تكون انطواءً وعزلةً.

إذ قاربت نشأة الطفل الوحيد في رحاب حنانٍ صابرٍ حزينٍ يشملها به الأب الذي مات أبناؤه، ولا عزاء له من بعدهم غير عبء النبوّة الذي تأهّب له زمناً، ولا يزال يعاني من حمله ما تنوء به الجبال ... وتشملها به الأُم التي جاوزت الأربعين[2]، وبقيت لها في خدرها هذه البنية الدارجة: صغرىٰ ذرّيتها. والحنان على الصغرىٰ من ذرّيتها بعد فراق الذرّية كلّها، بالموت أو بالرحلة، حنان لعَمْر الحقّ صابر حزين.

ولقد نعمت الزهراء بهذا الحنان من قلبين كبيرين: حنان أحرىٰ بأن يعلّم الوقار،

---

١ . راجع البداية والنهاية ٣: ٢٤، سيرة ابن هشام ١: ٢٦٢، تاريخ الطبري ٢: ٥٧ ـ ٥٨، تاريخ الإسلام للذهبي ١: ١٣٦.

٢ . «فاطمة الزهراء والفاطميون» للعقّاد (المؤلّف).

ولا يعلّم الخفّة والمرح والانطلاق.

ما القول في فتاةٍ لم تكد تستكمل مرحلة طفولتها حتّىٰ تفقد حضن الأُمومة الدافئ الحنون؟

ثم تحمل علىٰ كاهلها الواهن تبعة بيتٍ، ليس كغيره من البيوت، تسير الحياة فيه بين جزرٍ ومدٍّ، كلاهما يذهبان إلى الأقاصي: افتقاراً إلى العون، ورزوحاً[1] تحت أكداس من المشكلات.

ثم تنهض بأُمور أبٍ أيّمٍ[2]، اختطف الموت منه شريكةً كانت تحبوه الحبّ والرعاية، وتقوم معه في نشر رسالته ـ بكلّ ما أوتيت من قوّة روح، وقدرة بذل ـ كما لم يقم رجال أجلاد ذوو عزائم، حتّىٰ لوجب أن يدعوها الناس: حاضنة الإسلام.

ثم تعايش أباها محن المهانة والتكذيب والتعذيب التي أخذ يصبّها عليه قومه صباح مساء، فلا يكون قصارىٰ جهدها لدرء شرّهم عنه إلّا دمعةً تذرفها بين يديه، ودعوةً خاشعة إلى الله، وشعورها عندئذٍ شعور ابنةٍ وفيّةٍ، وشعور أُمّ رؤوم.

ثم تمرّ بها الليالي والأيام، فلا يكاد يتّصل منها الحول بما يليه حتّىٰ يكون في أحبّ أهلها إليها فقيد تبكيه، أو شهيد ترثيه.

رحلت أُمّها عنها وهي بعد برعم غضّ لم يتفتّح، ولا استوىٰ له عود، وذهب إلى ربّه عمّه الكبير أبو طالب الذي كان الصخرة التي يحتمي بها ابن أخيه محمد من نصال الأحداث، وغربت من سماء دنياها شموس أخواتها الحبيبات: رقيّة وزينب وأُم كلثوم، واعتصر الموت غصن أخيها إبراهيم الذي كان قرّة عين أبيها الشيخ الذي جاوز الستين، وقلبه النابض خارج صدره أمام العيون.

ومن قبل أُولئك جميعاً سبق الردىٰ إلى أخويها: القاسم وعبدالله، فمضيا وهي عندئذٍ حمل في بطن الغيب لم يحن موعد خروجه إلى النور.

---

١. رَزح الرجل رزوحاً: سقط على الأرض ولم يستطع النهوض هزالاً أو تعباً.

٢. الأيّم: الرجل الذي فقد زوجته أو المرأة فقدت زوجها. وتأيّم: مكث زماناً لا يتزوّج.

مات بعضهم وهي في الوجود، ومات بعض قبل أن تكون، فإذا هي تُقاسي من فقد أُولئك مقاساة عيان واكبت بها الأحداث، ومن فقد هؤلاء مقاساة أحاديث ردّدتها علىٰ سمعها شفاه ... وقد يكون حديث الذكريات أحياناً أوجع للقلب من حديث الحدثان.

فإن لم تكن فاطمة بعد هذا كلّه حزينةً، فمتىٰ إذاً تكون؟

بل الطبيعي أن ينتهبها ألم الحزن، فتوشك ألّا تُرى إلّا وهي أليفة همٍّ، خدينة[1] أسىً، كاسفة البال[2].

وما هي إذاً بسوية النفس لو افتقدت القدرة على الإحساس بما تعانيه.

❊ ❊ ❊

وينكر ذلك النفر من رجال الاستشراق على الزهراء حصافة الرأي[3] وألمعيّة الذكاء، حتّىٰ لرأوها عاجزةً عن مقاومة دهاء عائشة، وحسن تبصّرها بالأُمور وإن كانت زوجة الرسول الأثيرة تصغرها حينذاك بخمس سنوات.

فبأيّ ميزانٍ عادلٍ وزنوا الاثنين، فشالت كفّة فاطمة ورجّحت كفّة أُم المؤمنين؟

إنّهم يدّعون أنّ الرسول قال: «زينب أفضل بناتي».

ويستخلصون من هذا القول تأخّرها في مجالات الذهن المتوقّد والنظر اللمّاح.

فكأنّي بهم قد أغفلوا أنّ عائشة وصفتها، فكان ممّا ذكرته فيها: ما رأيت أفضل من فاطمة إلّا أباها[4].

والفضل هو الفضيلة.

---

١ . الخدينة: الرفيقة.

٢ . كاسفة البال: سيّئة الحال.

٣ . حصافة الرأي: جيّده ومحكمه.

٤ . رواه الطبراني في المعجم الأوسط ٣: ٣٤٩ برقم (٢٧٤٢) عن عمرو بن دينار عن عائشة، ونحوه روىٰ الحاكم ٤: ٢٧٢ عن عائشة بنت طلحة عن عائشة زوج النبي ﷺ.

والفضيلة خيرٌ مطلقٌ، يتّسع لجلائل الملكات والخلال، ولولا أنّها كريمة النقيبة، نقيّة الشيم، لما كانت خليقة بأن تكون من الله موضع ثناءٍ لم تكنّه امرأةٌ غيرها في النساء.

يقول لها الرسول: «إنّ الله يغضب لغضبك، ويرضىٰ لرضاك»[١].

أفتكون جديرة من ربّها بمكانةٍ كهذه، إلّا وقد بلغت أعلىٰ مراتب الكمال؟

أم يغضب لها الله وهي تفتقر من الفطنة إلى ما تفرّق به بين دواعي الرضا ودواعي السخط، وتفوتها دقّة التبصّر فيضطرب عليها التقدير؟!

بل النظرة العلمية الحديثة تقف إلى جانبها، وثمة أبوها قد بزّ البشر أجمعين فطنةً وحكمةً ورجاحة رأي، لابدّ ـ بفعل الوراثة ـ قد أُشربت منها الكثير، ثم زادها منها نصيباً فوق نصيبها الموروث عوامل العِشرة والتلقّي والائتساء[٢].

والعجيب أنّ أصحابنا المستشرقين هؤلاء، وهم يحتكمون في استنباطاتهم المتحيّفة[٣] إلى البحث العلمي، قد تناسوا أُصول قانون الوراثة، فأقحموا[٤] على الفتاة الدمامة، أو بأهون تعبير جحدوا عليها الجمال.

فمن أين لهم هذا الجحود؟!

وكيف تعلّلوا إلى نتيجتهم المفتراة بغير ما تقودهم إليه المقدّمات وتكشف لهم عنه الأسناد؟

يقولون[٥]: إنّ رقيّة أُختها كانت أمتع منها وجهاً، وأجمل قواماً.

---

١ . أُسد الغابة ٥: ٥٢٢، الإصابة في تمييز الصحابة ٨: ١٥٩ كتاب النساء حرف الفاء، تهذيب التهذيب ١٢: ٤٤١ برقم (٢٨٦١)، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٥٣ كتاب معرفة الصحابة، ذكر مناقب فاطمة ﷺ، ذخائر العقبىٰ: ٣٩، كنز العمال ٧: ١١١ فضائل أهل البيت، فصل في فضل فاطمة ﷺ ح ٣٧٧٢٥.

٢ . الائتساء: الاقتداء.

٣ . المتحيّفة إلى الشيء: المتحيّزة، المائلة إليه.

٤ . أقحم عليه كذا: رماه به.

٥ . «فاطمة بنت محمد» لعمر أبو النصر (المؤلّف).

وليس هذا بمقام تفضيل، ولكنّه كلامٌ، إن يكن ظاهره مدح رقيّة فباطنه إنكار حسن الزهراء!

وهو إنكار لا يتّفق مع دقّة الاستقراء العلمي، كما أنّه لا يثبت أمام شهادة النصوص.

ينقل إلينا التاريخ: كانت فاطمة أحبّ بنات رسول الله إليه[١]، وأشبههنّ به في خُلُقٍ وخَلقٍ.

ويصف محمداً، فيكون ممّا يقوله فيه[٢]: كان وسيم الطلعة[٣]... ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردّد ... ذا شعرٍ جعدٍ، شديد السواد، مبسوط الجبين، فوق حاجبين سابغين[٤] منوّنين متّصلين، واسع العينين أدعجهما[٥]... تزيد في قوة جاذبيتهما وذكاء نظراتهما أهداب حوالك طوال، مستوي الأنف، مفلج[٦] الأسنان، طويل العنق جميله، أزهر اللون ... على ملامحه سيما التفكير والتأمّل، نظرته سلطان الآمر الذي يخضع له الناس[٧].

ثم يقول التاريخ في خديجة: ورغبت السيدة في محمد، وقد عرفت من رقّة شمائله وجمال نفسه بعد أن عاد بتجارتها من الشام، فودّت لو تزوّجته ... وتحدّثت برغبتها هذه إلى صديقتها نفيسة بنت منية، فبعثت بها إليه، تستطلع رأيه.

تقول نفيسة له: ما يمنعك يا محمد أن تتزوّج؟

قال: «ما بيدي ما أتزوّج به».

قالت: فإن كُفيت ذلك، ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟

---

١ . روى الترمذي ٥: ٦٧٨ كتاب المناقب ب٤١ مناقب أُسامة بن زيد ح٣٨١٩، والحاكم ٢: ٤١٧ و٣: ٢٩٦ عن أُسامة بن زيد عن النبي ﷺ قوله: «أحبّ أهلي إليّ فاطمة».

٢ . «حياة محمد» للدكتور محمد حسنين هيكل (المؤلّف).

٣ . الطلعة: الرؤية.

٤ . السابغ: الكامل، الوافي.

٥ . عين دَعجاء: شديدة السواد مع سعتها.

٦ . الفلج في الأسنان، التباعد ما بين الثنايا والرباعيات.

٧ . راجع الطبقات الكبرى لابن سعد ١: ٤١٠ وما بعده.

ـ «فمن هي؟».

ـ خديجة!

ـ« كيف لي؟».

ـ عليّ ذلك[١].

فالوسامة، والشرف، وحلو الشمائل، وإشراقة الملامح الذهنية والبدنية ... كلّها ينابيع أصيلة في كيان الأب والأُم، كليهما أرتوت منها الزهراء نفساً وجارحةً حتّىٰ استوت خُلقاً وخَلقاً، وطاولت ذرى الجمال والكمال.

فكيف تُعاب؟

وهل عن مثلها يرغب الطلّاب؟

بل الحقّ أن يقال: إنّ صفاتها هذه الدرّية النورانية كانت كـالهالة التـي تـجعل الخاطب يتهيّبها، ويدنو منها علىٰ حذرٍ وهو يفكّر مرّة ومرّات قبل أن يتقدّم ليطلبها؛ مخافة ألّا تعدّه في النظائر والأكفاء.

فإذا تأخّرت أعواماً عن دخول بيت الزوجية، فذلك لأنّها تـجمع مـن أشـراط الإقبال عليها مالا يجتمع بعضه في غيرها من الفتيات المرغوبات، ولأنّ مـزايـاها الكريمة أحرىٰ بأن تمدّها بثقةٍ تحملها على التريّث في انتقاء القرين، وهي آمنة أنّ الزمن معها وليس عليها، فلا حاجة إذاً بها للتعجّل في الاختيار.

ولأنّها، قبل هذا، ضنينة بأبيها أن تدعه لتلوذ بزوج، وهي تعلم أنّه عليه الصلاة والسلام بحاجةٍ إليها في محنة كفاحه، لتدبّر أمره وترعاه، وتملأ في بيته فراغ أُمّها الراحلة، وتكون له الابنة الوفيّة، والأُم الحانية الرؤوم.

ثم ما الرأي لو أنّ رسول الله إنّما استأخر بها تلك الأعوام تـلبيةً لأمـر ربّـه إذ ادّخرها لرجل هو سيّد الناس؟

أليست الخيرة في من اختاره الله؟

---

١ . المصدر السابق : ١٣١ ذكر تزويج رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد.

اللوحة الثالثة

ترضىٰ فيرضى الله، تغضب فيغضب

توطّأت[1] الأرض للإسلام.

أينما مدّ المسلمون أعين الفكر استقبلتهم الطمأنينة، لا يخافون أذىً، لا تنوشهم فتنة.

الآن أخذت الدعوة تمضي إلى الأمام ... بالكلمة الطيّبة تغزو القلوب، بالموعظة الحسنة تسود.

أمن الرسول عليهم شرّ قريش وطغواها، إذ فصلت بينهم وبين القرية الظالم أهلها أميال وأميال من الجبال والرمال، كانت لهم جُنّة من عدوّهم ودريئة[2].

ثمّة دروع واقية تحميهم، وأسلحة حادّة تذود عنهم، تتمثّل في وحدتهم الوثيقة التي أقامها محمد في مجتمعهم الجديد هذا علىٰ قوّةٍ معنويةٍ، لا تعرف الوهن، ولا يخامرها التراخي والتردّد؛ لأنّها مستمدّة من روح الله.

فلا تقوىٰ إلّا تقواه، ولا سلطان إلّا له.

ولا خضوع لشهوةٍ برغبةٍ وهوى إغراءٍ، مهما تكالبت[3] عليهم أسباب الجذب

---

١ . توطّأت: خضعت.

٢ . الجُنّة: الساتر والمانع عن الشيء، ودرأ عنه: دفع عنه ومنعه.

٣ . تكالبوا على الشيء: تواثبوا عليه.

والغواية، كانت الدنيا تناديهم: هلمّوا وهيت! لا يحرّفهم شيء من ذلك عن الصراط، وإنّما يزيدهم ثباتاً وصلابةً، فيصمّون عنها الآذان، ويطوون دونها الكشوح[١]، ويديرون نحوها الظهور.

كانوا صادقي العقيدة، عميقي الإيمان، كلّ حركةٍ يأتونها من سلوكٍ هي تطبيق لكلّ حرفٍ من حروف التنزيل.

فليست العقيدة مجرّد فرائض تُؤدّىٰ، وشعائر تُقام، وليس الإيمان بتسليمٍ أخرس بما جاءتهم به دعوة السماء ... ليس حِكَماً مزجاة، ليس أحاديث تُروىٰ لتتلقّفها الأسماع.

لقد انتهت مرحلة النظرية، ومرحلة الاستيعاب، وأوغلوا في مرحلة الإنجاز والإيجاب، والأعوام التي قضوها، قبل يومهم هذا، كانت تجربةً مُرّةً من العمل الدائب والجهد الشاقّ.

فكم طوّعوا قلوبهم وجوارحهم للصبر والثبات والكفاح! وكم قطعوا من أشواط من التضحية والبذل والفداء!

كانوا مثلاً يعزّ في الأمثال علىٰ مدىٰ تاريخ الإنسان، لكأنّي بهم قد اتّخذوا من أنفسهم «وسائل إيضاح» تحسن البيان للذين اتّبعوهم عن الجهاد في سبيل عقيدتهم كيف يكون، ولقد أحسنوا البيان.

* * *

وكانت الزهراء طرفاً بين هذه الوسائل التي ترسم القدوة للناس، فما زالت أُذُناها ممتلئتين بكلمات أبيها لها يوم «البلاغ»: «يا فاطمة بنت محمد، لا أُغني عنك من الله شيئاً»[٢].

---

١ . الكَشْح: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف، وطوىٰ فلان عنّي كَشْحه أي قطعني.

٢ . أخرجه ابن حجر في فتح الباري ٢: ٥٣١، وابن سعد ٢: ٤٦، ورواه مسلم ١: ١٩٢ كتاب الإيمان ب٨٩ ح٣٥٠ بلفظ «لا أملك» بدل «لا أُغني».

وكان الرسول خير أُسوةٍ تحتذيها[١]، ويحتذيها معها كلّ منافحٍ[٢] يعمل علىٰ توطيد[٣] حرّية الكلمة، النابعة من اليقين.

فلقد علّمهم أنّ الدين سلوك، علم يُبتغىٰ فيه وجه الله، وخير البشرية جمعاء، لا خير جماعةٍ دون جماعة، أو جنسٍ دون جنس، أو فرد يتطلّع إلى صالحه الخاصّ أو يعمل رئاء الناس.

إنّه إسلام القلب والمشاعر لربّ هذا الوجود ... تجرُّد من الأنانية، إخاء في الإنسانية، رحمة وتوادّ، هجرة إلى الله.

فما كان عَبَثاً دَأب[٤] محمد طوال ما مضىٰ من أعوام علىٰ غرس أشرف الفضائل، وأرفع القيم، وأسمى المثل في الصدور، لا بالكلام الرائع والعبارة البليغة، إنّما بترجمة محكم التنزيل إلى أفعال.

بل كان عليه الصلاة والسلام كالماء الرائق النقيّ الذي ينضح عنه إيمانهم الصافي الشفّاف.

أم من ذا أحقّ منه بأن يكون الأُسوة المثلىٰ للبشرية، يحتذيه أبناؤها في كلّ زمانٍ ومكانٍ، في كلّ قولٍ وفعلٍ وتقرير؟

أم لِمَ اختاره الله ـ حين بعثه رسولاً ـ من بين خير خلقه خيرهم أجمعين؟

أطيبهم خلقاً ... أطهرهم نفساً ... أعظمهم فطنةً... أصلبهم عزماً ... أكملهم شخصيةً يعزّ نظيرها في البشرية، ولا يطاولها أسمىٰ إنسان في جنس الإنسان.

وحين تشهد له الزهراء بقدره الرفيع هذا الذي يضرب في السموّ إلى أعلىٰ سماء، فإنّها لا تشهد له فقط لأنّه أبوها الذي اقتطعت من صلبه كما اقتطع من آدم وجود حوّاء، ولا لأنّ بنوّتها تعطفها عليه، ولا لأنّها خَبَرته خبرة عشرة ومعايشة بالعقل

---

١ . احتذىٰ بالشيء: اقتدىٰ به.

٢ . المنافح: المكافح.

٣ . توطيد: تثبيت.

٤ . الدّأب: الجهد.

والقلب والوجدان ... بل تشهد له بشهادة كينونتها الحيّة، وسلوكها الفطري الصادق، إذ هي بضعة من كيانه المادي والمعنوي كما خلقه الله.

فحين تصف كتاب الله بأنّه «قرآن كريم» فإنّما يجري الوصف علىٰ كلّ سورةٍ، وكلّ آيةٍ، وكلّ كلمةٍ فيه: إنّك لتصفه جملةً وتفصيلاً، فروعاً وأُصولاً، ولا تستطيع أن تختصّ بالوصف جانباً منه، وتحجبه عن آخر: قليل أو كثير، فصفة الفرع من صفة الأصل، وصفة الجزء من صفة الكلّ.

وفاطمة بضعة من محمد ...يؤذيه ما آذاها، ويسرّه ما سرّها.

وتغضب فيغضب لغضبها الله، وترضىٰ فيرضى الله ... وهل يغضب سبحانه إلّا لمن آثره واجتباه إذ اتّقاه فأحسن تقواه؟

إنّها كانت لسجايا أبيها مرآة.

فلا تفاوت بينهما في الصفات الكمالية إلّا بمقدار التفاوت بين نبيٍّ رسولٍ وبين قدّيسة بتول، هذا للبلاغ والإرسال وتلك للتلقّي والاستقبال.

* * *

ثم كانت تشهد له أيضاً بشهادة الله، وبشهادة الوقائع والأحداث ... بل بشهادة الأعداء الألدّاء قبل شهادة الأحبّة الأولياء.

فربّه يقول للعباد: ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللهِ أُسْوَةٌ﴾[١].

ويصفه وصف عليم لا تخفىٰ عليه خافية ممّا تُكنّ السرائر وتكتم الصدور: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢].

وينطقه الله، فيقول عليه الصلاة والسلام: «إنّما بُعثت لأتمّم مكارم الأخلاق»[٣].

---

١ . الأحزاب: ٢١.

٢ . القلم: ٤.

٣ . أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ ١٠: ١٩٢ كتاب الشهادات باب: بيان مكارم الأخلاق عن أبي هريرة، وأخرجه الامام أحمد ٢: ٣٨١ مسند أبي هريرة بلفظ «صالح الأخلاق».

وتعلم بما جرىٰ يوماً بين امبراطور بيزنطة وأبي سفيان بن حرب من حديثٍ يكاد يضع الإيمان على اللسان ثم يأبى القلب المتحجّر إلَّا النكران.

قيل: ذهب أبو سفيان ـ وهو في قاع كفره ـ إلى بلاد الروم للاتّجار، وأحبَّ الامبراطور أن يعلم شيئاً عن محمد وحقيقة رسالته التي بعثه بها الله، فدعا الشيخ الأموي إليه، فلمّا سمع منه ما كان بين النبي وقريش من تنافر وخلاف، طلب إليه أن يصدقه الخبر.

قال الامبراطور الروماني: هل كنتم تتّهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

فلم يملك الشيخ إلَّا أن يجيب: لا.

قال الإمبراطور: هل كان يغدر؟

ـ لا.

فعجب كبير الروم كيف تماري قريش ـ وعلىٰ رأسها هذا الشيخ الأموي ـ مبعوث السماء وهو علىٰ ما وصفه وخبروه، وقال: إذا كان لا يكذب على الناس، فهل يكذب على الله؟!

فبهت الجَحُود[1]!

* * *

وكما عاشت الزهراء ـ والذين آمنوا ـ مع سيّد المرسلين صدقه وأمانته، عاشت برّه ورحمته.

كان العطفَ والرفقَ والحنانَ... يرحم الضعيف، يواسي المريض، يرعى اليتيم، يعطي المحروم، يمسح دمعة المحزون، يحمل الكَلّ[2] عن الفقير المحتاج.

وكان الشعار الذي أخذه عنه المؤمنون شرعةً ومنهاجاً، قوله لهم بعد أن نزل المدينة بوقت قصير: «تحابّوا بروح الله».

---

١ . البداية والنهاية ٤: ٢٦٢ ـ ٢٦٧.

٢ . الكَلّ: الثقل.

فما أُرسل ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[١] وهو ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٢].

والحبّ في الله هو الحياة الحقّة، وهو محور وحدة الإنسانية.

وكانت رحمته ليست كغيرها من الرحمات؛ لأنّها من رحمة الله، يقول سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[٣].

فنفىٰ تعالىٰ عنه جلافة[٤] الطبع والخشونة، وأثبت له السماحة واللين ورقّة القلب التي تجذب إليه أفئدة الناس.

* * *

بل امتدّت الرأفة فيه لتسع كلّ ذات ظلفٍ وخُفّ، وذات مِنْسرٍ[٥] وجناح، وذات جذرٍ و أفنان، لأنّهم جميعاً أحياء، ينبغي أن تيّسر لهم أسباب الحياة.

كان رفيقاً غاية الرفق بالحيوان، يوجب على البشر الرأفة بكلّ عجماء[٦] حتّىٰ لضَرَب مثلاً امرأةً «دخلت النار في هرّةٍ حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خِشاش الأرض»[٧].

ولم يشُقّ[٨] على مطيّةٍ قطّ، أو حمّلها فوق ما تطيق.

---

١ . الأنبياء: ١٠٧.

٢ . التوبة: ١٢٨.

٣ . آل عمران: ١٥٩.

٤ . جَلِفٌ: جافٌ في طبعه وسجيّته.

٥ . المِنْسَر: هو لسباع الطير بمنزلة المنقار لغيرها.

٦ . العَجماء: البهيمة، وسمّيت بذلك لأنّها لا تتكلّم.

٧ . أخرج الخبر الإمام أحمد ٢: ٢٦١ و٢٦٩، وابن ماجة ٢: ١٤٢١ كتاب الزهد ب٣٠ ذكر التوبة ح٤٢٥٦ كلاهما عن أبي هريرة.

٨ . «حياة محمد» لمحمد حسنين هيكل (المؤلّف).

رأىٰ عائشة مرّةً وقد أخذت ترود بعيراً صعباً وتشتدّ عليه، فنهاها وقال: «عليك بالرفق»[١].

وكان يتولّىٰ بنفسه مداواة ديكٍ مريضٍ[٢]... وينهض ليلاً ليفتح بـابه لقـطّةٍ كـان تلتمس في داره الملاذ[٣].

ومن خلال الرحمة الشاملة التي أترعت قلبه، ولجّ في الإخاء البارّ والتواضـع الكريم.

تقدّم منه يوماً رجلٌ علىٰ تردّد؛ مهابةً له، فابتسم يشجّعه ويقول: «أتخشاني وأنا ابن امرأةٍ من مكة كانت تأكل القديد!»[٤].

فمسحت كلماته وبسمته الروع.

وأُثر أنّه خرج في سفرٍ مع طائفةٍ من أصحابه، فـإذا هـو كأحـدهم، لا يـترفّع ولا يتعالىٰ علىٰ فردٍ منهم، بل أبىٰ إلّا أن يشاركهم القيام فيما يقومون به من أعمال علىٰ شريعةٍ سواء.

وجاءوا بشاةٍ ليعدّوها لطعامهم، فقال رجل منهم: عليَّ ذبحها.

وقال آخر: وعليَّ طبخها.

فقال عليه الصلاة والسلام: «وعليَّ جمع الحطب».

وآسفهم أن يقوم بأشقّ جانبٍ من العمل، فأبوا عليه، وفيهم من هو أحرىٰ بأن يتولّاه دونه، وعاجلوه: بل نكفيك يا رسول الله.

---

١ . أخرج الرواية البيهقي في السنن ١٠: ١٩٣ كتاب الشهادات باب بيان مكارم الأخلاق، وباقي الحديث: «فإنّه لم يكن في شيءٍ إلّا زانه، ولم ينزع من شيءٍ إلّا شانه» والرواية مسندة عن المقدام بن شريح عن أبيه.

٢ . راجع الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية: ٢٧٩.

٣ . المصدر السابق: ٢٨٣.

٤ . أخرج الحديث النووي في رياض الصالحين: ٢٨٣ ب٦٧ التواضع وخفض الجناح للمؤمنين.

لكنّه لم يرضَ أن يفضّلوه، وقال: «إنّ الله لا يحبّ أن يرىٰ عبده متميّزاً علىٰ إخوانه»[١].

ومضىٰ وما شاء.

وكان دائماً ينهى المسلمين أن يقوموا له إجلالاً وتعظيماً، إن أقبل عليهم أو أدبر عنهم، وما أحسبهم كانوا يفعلون هذا إلّا عن محبّةٍ تفوق كلّ تكريم.

ومع ذلك كان يردّهم عن فعلهم هذا، ويقول: «لا تقوموا لي كما تقوم الأعاجم، يعظّم بعضهم بعضاً»[٢].

ذلك لأنّ هذا الذي يأتونه ينافي السويّة بين الناس، ويخالف خُلُق الإسلام، وقد يمثّل مظهراً من مظاهر السلوك ينضح بالخضوع لغير ربّ الوجود.

وكان يمنعهم أيضاً أن يطروه، فربّما أَنِسُوا إلى الإطراء فقالوا فيه إلى حدّ التقديس، ثم أوغلوا في مساماته بالله كما فعلت طائفة من أتباع المسيح.

كان يقول لهم: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنّما أنا عبدالله، فقالوا: عبدالله ورسوله»[٣].

وهل من حاجةٍ به إلى إطراء عبد قد يجيء ثناؤه عليه بوحي موقفٍ عرضٍ، أو عن خشيةٍ وهيبةٍ، أو رياءٍ ومداجاة[٤]، وما هو بنافعه شيئاً لو قُدِّم له، ولا هو بضارّه شيئاً لو حُبس عنه؟

لا حاجة! فكفاه ثناء الله، وثناء الملائكة المقرّبين، وثناء صالح المؤمنين ... كفاه قول مالك الخلق والأمر فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَآئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

١ . المصدر السابق: ٦ ٤٠ ب ١٦٥ إيمانه الرفيق.

٢ . أخرجه أبو داود ٤: ٣٥٨ كتاب الأدب باب في قيام الرجل للرجل ح٥٢٣٠، والإمام أحمد ٥: ٢٥٣ كلاهما عن أبي أُمامة.

٣ . أخرجه أحمد ١: ٢٣ و٢٤ مسند عمر بن الخطاب، والدارمي ٢: ٣٢٠ كتاب الرقاق عن عمر أيضاً ولكن بلفظ «تطرىٰ».

٤ . المداجاة: المداراة.

آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[١].

فهذا هو الإطراء الحقّ، وكلّ ما عداه قبض الريح!

* * *

وكان جمّ التواضع، لا يترفّع علىٰ كبيرٍ أو صغيرٍ، ولا يستعلي علىٰ شريفٍ أو مشروف.

فهو[٢] يبدأ من يلقاه بالسلام، ويمازح أصحابه، ويداعب صبيانهم، ويخدم ضيفه، ويؤاكل خادمه.

وكان في بيته يعمل في مهنة أهله، يطحن بالرحىٰ، وينضح بالدلو، ويحلب الشاة، ويعقل البعير.

وكان يقوم بأمر نفسه، فيطهّر ملابسه، ويرقّع ثوبه، ويخصف نعله، ولا يتأبّىٰ علىٰ عملٍ، جلّ أو هان ... فالعمل عبادة.

وإلىٰ جوار هذا كان نديّ الكفّ، أريحي السخاء، يعطي فيفيض، ويؤثر غيره ويحرم نفسه وأهله.

فلا أَرَب[٣] له من الدنيا في زخرفٍ ونشب، ولا في متاعٍ وعروض، لا يُبقي شيئاً لغده ... وكيف يُبقي وهو أوثق بما في يد الله منه بما تملك يداه!

وكان الناس يقولون: إنّ محمداً ليعطي عطاء من لا يخشىٰ فاقة.

تقول عائشة: ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتالين حتّىٰ قُبض رسول الله[٤].

---

١ . الأحزاب: ٥٦.

٢ . «حياة محمد» لمحمد حسنين هيكل (المؤلّف).

٣ . الأَرَب: الحاجة.

٤ . أخرجه ابن ماجة ٢: ١١١٠ كتاب الأطعمة ب٤٨ و٤٩ ح٣٣٤٤ و٣٣٤٦، وعبدالرزاق الصنعاني في المصنَّف ١١: ٣٠٨ باب زهد الأشياء عن عائشة لكن بلفظ: «ما شبع آل محمد من غداءٍ وعشاءٍ حتّىٰ مضىٰ».

وقالت مرّة لعروة بن الزبير ابن أختها أسماء: والله يابن أختي، إن كنّا ننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلّة في شهرين، وما أُوقدت نارٌ في أبيات رسول الله.

فسألها عروة: فعلامَ كنتم تعيشون؟

قالت: كان معظم عيشنا على الأسودين: التمر والماء[1].

فإن يكن هذا بعض خلائق محمد، فمن ذا أولىٰ بأن يكون علىٰ شاكلته من بضعته الزهراء؟

---

١. رواه ابن سعد في الطبقات ١: ٤٠٢، ٤٠٣، ويرويه أيضاً عن ابن عباس وأبي هريرة وعبدالرحمان بن الأسود عن أبيه.

اللوحة الرابعة

وترامت إليها القلوب

السلام في المدينة ... والسكينة في القلوب.

والمسلمون الآن في حالٍ تسمح بأن يأخذوا بنصيبٍ من حياتهم هذه الجديدة، يوازن بين مطالب دنياهم الحاضرة وبين حقّ أُخراهم الموعودة، إلّا أن يكون فيما يمارسون من أساليب العيش شبهة حيف على عقيدتهم تركسهم[1] في فتنةٍ أو تقترب بهم من شفا الغواية.

المهاجرون منهم كانوا يَضْبون شوقاً إلى بلدتهم الحرام، وبيت الله المعمور، وأهل هناك ومتاعٍ هم اليوم كأسارىٰ في قبضة طغيان قريش، ونهب تستبيحه منذ أخرجتهم من ديارهم وأموالهم فراراً إلى الله.

والأنصار منهم كانوا علىٰ عهدهم لرسول الله، يوم العقبة الكبرىٰ، إذ بايعوه لئن لحق بهم في بلدتهم ليمنعنّه ممّا يمنعون منه ذويهم من النساء والأبناء.

وكِلَا شطري المجتمع الإسلامي هؤلاء كانوا يحاولون تناول الأمر بينهم وبين قريش بهوادة ولين، حتّىٰ حين، آملين في وفاقٍ قد يدفع العقلُ فيه المكبّين العادين، فتنام السيوف في الأغماد، وتفتر حدّة العداوات، وتُتاح حرّية الدعوة إلى دين

---

١ . الرَكْس: ردّ الشيء مقلوباً.

الفطرة، ويتحقّق حسن الجوار.

فما يرومون استكراه أحدٍ علىٰ عقيدتهم ... فالعقائد أحاسيس روحانية، لا تتخلّق بالإرهاب وضغط القوى المادية، ولا تقايض كالسلع درهماً بفلس، أو قنطاراً بدينار ... ومنهج الله يقول: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[١].

ثم ربّهم لم يوجب عليهم القتال إلّا لاتّقاء فتنةٍ أو لردّ عدوان: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[٢].

لكنّ الأُمور جرت علىٰ غير هذه الهوادة المرتجاة، فإن هو أن دخل شهر رمضان من السنة الثانية حتّىٰ نزلت قريش ـ وفيها صفوة سادتها ـ من المدينة منازل الحرب، غير سامعة ولا مطيعة ما كان من نداء صاحبها عتبة بن ربيعة إذ شاء أن يردّها عن هذا اللقاء المسلّح الذي لو ظفرت فيه لقتلت أبناءً لها وإخوةً، ولو ظفر محمد لخسرت خير من فيها من الوجوه والأشراف.

ناشدها عتبة: يا معشر قريش! إنّكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ... والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته ... فارجعوا، وخلّوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك لم نتعرّض منه لما تكرهون، فاتّهموه بالجبن، وعابوه ... ورجح ميزان رأيهم، وشال ما رآه.

وعندئذٍ ذاعت رائحة الوغىٰ، وشاط جوّ السلام المأمول.

وكان المسلمون قلّة في الميدان، في العتاد والرجال وكان جند قريش كثرة: ثلاثة أضعاف.

وابتلى الله حزبه أشدّ بلاء،، وتوجّه محمد بكلّ قلبه، وكلّ جوارحه، وكلّ إيمانه وسط المعركة يناجي ربّه، وينشده النصر الموعود: «اللّهم هذه قريش قد أتت

---

١. البقرة: ٢٥٦.

٢. البقرة: ١٩٠.

بخيلائها تحاول أن تكذّب رسولك، اللّهم فنصرك الذي وعدتني، اللّهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد»[١].

ثم راح يحّرض المؤمنين: «والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلَّا أدخله الله الجنة»[٢].

ونشب القتال.

فإذا هو منجل حصاد، وإذا هو رحىً تدور ... المنجل يحشّ، والرحىٰ تطحن، حتّىٰ تساقط المشركون أشلاء ونثائر، إلَّا من استسلم خاسئاً للأسر، أو لاذ ذليلاً بأذيال الهروب.

* * *

وسبقت أنباء النصر في بدر إلى المدينة قبل أن يقفل رسول الله راجعاً إليها بيوم، حمل البشرىٰ زيد بن ثابت وعبدالله بن رواحة، أولهما على ظهر راحلته، والثاني علىٰ ظهر «القصواء» ناقة رسول الله وتعالت الأصوات بالهتاف والتكبير، القلوب ترقص نشاوى ...العيون تتألّق بالابتسام ... الوجوه تتهلّل بالفرحة.

لكن ثمّة قلباً كان ينتفض انتفاضة طائر ذبيح ... ذاك قلب الزهراء.

إنّه ليحاول كتمان أساه، فيرجُّهُ الأسىٰ رجّاً عنيفاً كأنّما انفجر فيه بركان، ويشرق بدمه الفوّار كما يشرق الحلق بالدموع، ويجتر مع حزنه الداهم الآن ذكريات مواجد السنين المواضي التي أفعمته إلى حافّته بالأوجاع.

فلقد ماتت اليوم أُختها «رقيّة» الحبيبة، قضت في يوم الفرقان ... مع بشرى النصر في بدر نعق ناعق المنون ليضيف همّاً جديداً إلى قلبها الملتاع.

وعندما آبَ[٣] الأب كانت الابنة الراحلة تتّخذ طريقها الأخير للتراب، وما كاد

---

١ . راجع البداية والنهاية ٣: ٢٦٨ وما بعدها، وتاريخ الطبري ٢: ١٣١ ذكر وقعة بدر من حوادث سنة ٢هـ.

٢ . راجع المصدرين السابقين.

٣ . آب: رجع، عاد.

يتزوّد منها بنظرة وداع، واعتصر الألم صدره، ودمعت عيناه، وبكت من حوله الهاشميات، ونساء الأنصار اللّاتي اجتمعن آسيات.

وكان عمر في الحاضرين ... فلعلّه حينذاك خشي أن يزيد ندب النسوة في تفطّر قلب نبي الله، فصرخ فيهنّ يزجرهنّ زجراً عنيفاً ليقلعن عن التفجّع والنشيج.

لكنّ الرسول ردّه عنهنّ برفق، وهو يقول: «مهما يكن من العين والقلب فمن الله والرحمة، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان»[1].

فكفّ عمر وفاضت الأدمع عسىٰ أن تطفئ حرف الشجن ولواعج الفراق.

* * *

وظلّت الشمس تغيب لتبزغ، وتبزغ لتغيب، وظلّ كوكب الأرض يدور في فلكه ويدور، وظلّ موكب الزمن يسير ... فلا حركة الحياة تبطئ أو تتوقّف لموت إنسان، ولا هي تنشط ويستخفّها السير لمولد إنسان.

ويوم فقد النبي ولده «إبراهيم» بعد يوم الفرقان ببضع سنين، وانطفأت بموته البسمة الحلوة التي كانت ترفّ علىٰ ثغر الزمان، وغيّب الثرى[2] وجه الصغير الذي كان أُنساً وسلوىً لأبيه، كما غيّب قبله وجوه إخوته وأخواته أجمعين إلّا الزهراء، يومذاك تبدّت آية من آيات الله كاد يفتن بها الناس.

فلقد وافق موت «إبراهيم» كسوف الشمس واختناق ضوئها عن الوجود، فإذا فريق من المسلمين يحسبون كسوفها صورة لحزن نبيّهم علىٰ فقيده الحبيب انعكس علىٰ صفحة السماء، وإذا هم يردّدون عندئذٍ: انكسفت الشمس لموت «إبراهيم»!

ورقأ[3] محمد بعض دمعه، وغالب شجوه علىٰ فتاه، ثم وقف في أصحابه يقول: «إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا تُخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته، فإذا

---

١ . أخرجه أحمد ١: ٣٣٥ مسند عبدالله بن عباس.

٢ . الثرىٰ: التراب.

٣ . رقأ الدمع: كفكفه حتّىٰ سكن.

رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة»[١].

ثم وجم وذرفت عيناه، وألقى نظرةً من خلال ضباب عبراته علىٰ جثمان عزيزه المرتحل عن هذه الدنيا إلى جوار ربّه الكريم، وناجاه: «يا إبراهيم، لولا أنّه أمر حقّ، ووعد صدق، وأنّ آخرنا سيلحق بأولنا، لحزنّا عليك أشدّ من هذا».

ووجم هنيهة ثم قال: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلّا ما يرضي الربّ، وإنّا يا إبراهيم عليك لمحزونون»[٢].

* * *

كلّا، لم يتجهّم لموت «رقيّة» وجه الوجود، ولا غيّر الرسول منهاجه اليومي أيّ تغيير.

فهو يتلقّى الوحي، وهو ينشر الدعوة، وهو يهذّب النفوس، وهو يشارك في الحياة العامة، فيفرح لرفاق طريقه في السرّاء، كما يأسىٰ لهم في الضرّاء.

كان يعيش معيشته كغيره من الناس، فإن يكن رسولاً فإنّه بشرٌ... إنسان.

ولماذا يدع أشواك آلامه النفسية حرماً مباحاً يسيمون فيه حتّىٰ تغصّ به الحلوق وتُدمي الأجواف؟

بل قضت رأفته أن يشغلهم عن همومه الخاصّة، ويطويها في فؤاده طيّاً؛ لأنّه أولىٰ منهم بما يشجيه ... إنّه يستقبل الحياة معهم بوجهٍ جديدٍ، وبكلمةٍ حلوةٍ، وبضحكةٍ مرنةٍ، وبتفاؤلٍ يرفع عن كواهلهم بعض ما يكابدون من معاناة.

أم تراه يقنط من روح الله؟

حاشاه!

---

١ . أخرجه البخاري ١: ٣٥٢ كتاب الكسوف ب١ الصلاة في كسوف الشمس ح٩٩٣ عن أبي بكرة و٣٥٦ ب٦ الصدقة في الكسوف ح٩٩٧ عن عائشة و٣٦١ ب١٧ الصلاة في كسوف القمر ح١٠١٤ عن أبي بكرة.

٢ . أخرجه مسلم ٤: ١٨٠٧ ـ ١٨٠٨ كتاب الفضائل ب١٥ رحمته ﷺ وتواضعه ح٦٢، والبيهقي في السنن الكبرىٰ ٤: ٦٩ كتاب الجنائز باب الرخصة في البكاء.

بل إنّه ليبني بعائشة في شوال من نفس السنة[١]، بعد «بدر» بشهر، وكانت قد خطبها بمكة، قبل الهجرة إلى المدينة بنحو عامين أو ثلاثة أعوام.

ولعلّه شاء بهذا أن يضرب الأُسوة للناس، ويؤكّد لهم وجوب استدامة حركة الحياة، تقول عائشة: جاء رسول الله بيتنا، فاجتمع له رجال من الأنصار ونساء، فجاءتني أُمي وأنا في أُرجوحةٍ بين عذقين، فأنزلتني، وسوّت شعري، ثم أدخلتني علىٰ رسول الله وقالت: هؤلاء أهلك، فبارك الله لك فيهنّ، وبارك لهنّ فيك، وخرج القوم.

تقول عائشة: وبنىٰ رسول الله بيّ في بيتي، ما نُحرت عليَّ جزور، ولا ذُبحت شاة[٢]!

وانتقلت العروس الصغيرة إلى بيتها، بإحدى الحجرات التي شيّدت حول المسجد من اللبن وسعف النخيل.

* * *

وكذلك تتعاقب الأفراح والأحزان ... فالفلك دوّار، والزمن سيّار، والأيام دول ... تصبح وتمسي، وتصحو وتنام!

إنّها إن تجمّ وتعبس يوماً، فلابدّ لها في غدٍ ـ دانٍ أو قاصٍ ـ تطلّق وإشراق.

إنّ الغَسَق لفي طرف، وفي الطرف الآخر فجر، وإنّ الليل لساكن، ولكنّه ليس بهامدٍ بلا حراك وإنّما يتزحزح ليأتي علىٰ أثره نهار.

وها هي ذي الأُسرة النبوية الشريفة، التي طاف بها طائف الهموم والحمام، وتبعها من مكة أرض النشأة ومهبط الوحي، إلى المدينة أرض المهجر ومهبط النصر حيث

---

١ . ذكره مسلم ٢: ١٠٣٩ كتاب النكاح ب١١ التزوج في شوال ح٧٣ مسنداً عن عروة عن عائشة.

٢ . رواه البخاري ٣: ١٤١٤ كتاب فضائل الصحابة ب٧٣ تزويج النبي ﷺ عائشة ح٣٦٨١، و٥: ١٩٧٩ كتاب النكاح ب٥٧ الدعاء للنساء ح٤٨٦١، ومسلم ٢: ١٠٣٨ كتاب النكاح ب١٠ تزويج الأب البكر الصغيرة ح٦٩.

أصبحت تقيم ... فذاقت بمستقرّها القديم مرارة المساءات من أهل الشرك، وعانت لواعج الشجن إذ فقدت «القاسم» و«عبدالله» و«خديجة»، ثم «رقيّة» الآن في بضعة أعوام ... بدا كأنّما قد ترفّق بها زمنها أخيراً، وأقبل عليها يدقّ بابها وهو يلوّح بغصن زيتون.

سالمتها الأيام، حملت إليها بشرىً ليس مثلها في البشارات، أقبلت في موكب زفاف.

فحين تينع البنت صباً، وتزدهر فتوةً، وتبلغ مبلغ النضج لبنات حوّاء، وتشاركها في حبّ الأب الغالي زوجة غيداء[1]... عندئذ يـلوح لمـن يـنظرون إلى الصـلات البشرية بعيون الواقع اللاحظات أنّ الأوان قد آن لتستقلّ الابنة ببيت جديد.

هذه هي سنّة الحياة.

فها قد دخلت عائشة بيت محمد، لتشغل فيه مكانة ربّة الدار ... وها قد نضجت الزهراء شابةً حسناء، ريّانة الصبا، حوراء قمراء.

الجمال كساء، والشرف أصل، والكمال خُلُق، والفضل طبيعة، والعزّة تراث.

فمن ذا إذاً في الرجال لا يطمح إلى مثلها حليلة وإن كاد الطامح يشبه من يشبّ على أصابع قدميه ليلمس بأطراف أنامله أنجم السماء؟

بل ذاك أمل كأنّه سراب!

ولكن تهافتت عليها آمال، وتطلّعت نحوها عيون، وترامت إليها ألباب!

* * *

لكنّ الأثر لم يقدّم لنا سوى القليل.

قيل: ذهب عبدالرحمان بن عوف إلى الرسول يخطبها منه، ومن ورائه ذخر من المناقب والمكارم يسدّده خطاه، فيه سبقه إلى الإسلام، ومقام في قومه رفيع، وثروة

---

١ . الغيداء: الناعمة.

ضخمة ككنوز قارون تتخم أعاظم الحريق!

قال الصحابي الكبير: يا رسول الله، تزوّجني فاطمة ابنتك؟

ثم تريّث وأردف يضيف: وقد بذلت لها من الصداق مائة ناقة سوداء زرق الأعين، محمّلة قباطي مصر!

ثم زاد: وعشرة آلاف دينار!

وبمثل قوله تكلّم ابن عفّان، إلّا أنّ له الفضيلة علىٰ رفيقه بالسبق إلى الإسلام ... لكأنّهما في تلك اللحظات فرسا رهان! بل ربّما لاحا لمن لعلّهم علموا نبأهما هذا، وإنّهما لذانك التاجران اللّذان يحسنان التحدّث بلغة الأسواق!

فما المال؟

وما الدنيا كلّها وما تضمّ من زخرف وزبرّج وأُبّهة وجاه عريض؟

إنّ النبي ليملك أن يأخذ في كفّه حفنةً من الحصىٰ والحصباء، فلا يكاد يلمسها حتّىٰ تتحوّل حبّاتها درراً وجواهر، الواحدة منها تعدل كنوز ثروة عبدالرحمان وعثمان!

وطوىٰ محمد كشحاً عن العرضين السخيّين بمعيار الدنيا؛ لأنّ له عليه الصلاة والسلام ميزاناً غير الميزان ... ولم يقبل ما عرضه هذا أو ذاك.

فإن يكن ابن عوف استشعر في نفسه الأسف وقد ردّه الرسول عندئذٍ عن شرف الإصهار، فعثمان كان بلا ريب أشدّ منه شعوراً بالأسف والغضاضةٌ إذ حيل بينه وبين غايته المرتجاة.

فلقد كان ختناً لنبي الله على ابنته الراحلة «رقيّة» قبل ذلك بشهور، و«فاطمة» أُخت «رقيّة» ... فهو إذاً أولىٰ بأن يُؤثر بالزهراء.

بل لعلّ منّا من إذا أسرع بالزمن قليلاً إلى الأمام، وقاس ما وقع بما كان يرجو عثمان أن يكون، فلربّما تبيّن له أنّ طموح هذا الصاحب الجليل لم يكن قائماً علىٰ فراغ، وإنّما علىٰ أساس ممّا ستتكشّف عنه الأيام.

جاء في الأسناد: لمّا توفي خُنَيْس بن حُذَافَة عن زوجه «حفصة»، تألّم عمر أن

رأى الترمّل يغتال صبا ابنته وما بلغت بعد إلّا مطلع الشباب، وتفكّر الأب المحزون، واهتدىٰ إلى عرض فتاته علىٰ صديقه اللصيق أبي بكر الصديق، فهو نِعْم الصاحب، وهي نِعْم رفيقة الحياة، لكنّ أبا بكر أمسك عن «نعم» و«لا»، جعل ردّه السكوت، وفُجع عمر في رأيه الذي ارتآه، وضمّ جوانحه علىٰ أساه، غير أنّه ظنّ في عثمان معيناً له علىٰ بلواه، فمضىٰ إليه يعرض عليه الأرملة الشابة زوجةً تندر مثيلاتها في الزوجات ... فما كان الجواب؟

قال عثمان: ما أُريد أن أتزوّج الآن!

فأيّة صدمة هذه التي تلقّها ابن الخطاب! إنّها لتفطر القلب، وتمزّق الكبرياء، وتهوي بالأب الملتاع إلى قاعٍ من الحيرة والإحساس بالضياع، حتّىٰ لنراه لا يجد منجاةً من هذا الذي يعانيه إلّا أن ينفض دخلية نفسه بين يدي رسول الله.

ويبتسم الرسول ثم يقول مطمئناً صاحبه الأسيان: «يتزوّج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوّج عثمان من هي خير من حفصة»[1].

وحقّت نبوءة النبي، أم هي فراسة؟ أم عبّر عمّا عساه كان يدور في خلده، ويزمع أن ينقله من تصوّر الخيال إلى واقع الحال؟

ثم انقضت شهور، فإذا ربّك يقضي قضاءه المكتوب: يتزوّج حفصة الرسول، وتتزوّج عثمان أُم كلثوم.

تمّ هذا بعد أن كشف الغيب عمّن آثرته السماء بالزهراء.

---

١ . راجع الطبقات الكبرىٰ لابن سعد ٨: ٨١ ـ ٨٣ من طريق الواقدي، ورواه البخاري ٥: ١٩٦٨ كتاب النكاح ب ٣٤ عرض الإنسان ابنته على أهل الخير ح ٤٨٣٠ عن ابن عمر.

الفصل السادس

- جبرائيلقال ...
- خطبة الزهراء لعلي
- زينب تفارق زيداً
- أبناء لا أدعياء
- اللّهم إنّهما منّي وأنا منهما

اللوحة الأُولىٰ

جبرائيل قال ...

من قال: إنّهما صنوان، لم يخطئ البيان، كانا كنخلتين ذاتي أكمام[1]، الجذر واحد، والجذع اثنان.

البيئة هي البيئة، المنبت نفس المنبت، الأصل كالأصل، الثمار أمثال ... وفي مجالهما البشري التراث الفكري هو التراث.

فلمّا أن قضى الله بإعزاز أصغرهما بالإسلام، على فترة قصيرة من اهتداء الأكبر إلى الرشد، تماثلا، أوكادا يتماثلان إلّا من فارقٍ ضئيلٍ هنا أو فارق ضئيل هناك، في السنّ أو البنية أوالهيئة أو المزاج، كما تتفاوت ـ طولاً وعرضاً ـ سعفة وسعفة، وعرجون[2] وعرجون، الأول أبو بكر، والثاني ابن الخطّاب.

وأصبحا على نفس الطريق أخوين في الدين، عالمين على الدعوة إلى الله، رفيقين في الكفاح والسلاح، لصيقين بالرسول حتّىٰ لرُؤي أنّهما أدنىٰ إلى أن يكونا له وزيرين لو أنّه شاء الاستيزار.

ثم سبق الأول صاحبه إلى شرف النسب النبوي عندما كرمت عائشة ابنته فدخلت بيت النبي العظيم زوجةً له، وأمّاً من أُمهات المؤمنين، ثم استوى اللاحق

---

١ . الأكمام: جمع كِمّ، وهو الغلاف الذي يحيط بالثمر والحبّ قبل أن يظهر.

٢ . العُرجُون: العود الأصفر الذي فيه شماريخ العِذْق.

بالسابق إذ ارتبط ـ من خلال بنته حفصة ـ بنفس الرباط الشريف، فكأنّ الرجلين فرسا رهان! يوشك أحدهما ألّا يتقدّم خطوةً إلى الأمام حتّى يتلوه بمثل قياسها أخوه، أوكأنّهما توأمان.

ولقد يطابق التوأم توأمه خُلقاً، كما يطابقه خلقةً، ثم لا يخلو تطابق النتائج والغايات من تغاير نسبي، بين مظاهر الانفعال النفسي والسلوك العملي، دقيق دقّة الشعرة، رقيق رقّة القطرة من ندى الفجر علىٰ زهرة الياسمين.

أجل قد يتمايزان في رفيف المشاعر، أو في أساليب التفكير، أو في وسائل التعبير، أو في طرائق العمل والآراء، أو في فنون الإنجاز والوفاء ... فإذا هذا كلّه قشور، تمايز خارجي ظاهر، إن تكن تطفو معالمه على سطوح السمات والملامح، كاشفة عن جانبٍ من أحاسيس أُناس، فإنّها قد تغوص منطمرة[1] في دخيلة نفوس آخرين.

أمّا العبرة فبالجوهر ... فالجوهران لا يختلفان، يتوافقان، فإن لم فيتكاملان، ولقد تواءم في كلا الصاحبين الشعور، ثم تواءم التفكير، ثم حان بعد قليل أن يتواءم أسلوب التعبير.

فماذا لو أضاف أبو بكر إلى ما بينه وبين رائده العظيم صلة جديدة هي أجلّ الصلات؟ ماذا لو أنّه تقدّم فخطب الزهراء؟

لو أنّه فعل لجمع الشرفَيْن: الصهر والنسب في آن لحظي بخير النساء، ولكان له خير الأحماء ولربّما أثمر لدوحة النبوة ما يعزّ به اسمه علىٰ مرّ الأجيال.

وحزم الرأي، وأسرع ذات يومٍ خايله فيه الأمل، وعطرت جوّه ريح الطمأنينة، إلى الرسول يكاشفه بما يكاد يراوده في رؤى الليل والنهار.

قال، وهو موزع بين الرجاء والحياء: يا رسول الله.

ولعلّه تردّد هنيهة قبل أن يبوح: خطبت فاطمة يا رسول الله.

---

١. منطمرة: مدفونة، مخبّأة.

وتمهّل ينتظر ... وكان يمني النفس بكلمة رضا حسب أنّها معلّقة بشفتي الرسول، أوبنظرة قبول.

لكنّ الجواب الذي تلقّاه: «يا أبا بكر! أنتظر بها القضاء»[1].

فماذا عسىٰ قد حدا بمحمد إلى اتّخاذ هذا الموقف من صاحب الغار؟

* * *

ثم تمّ التطابق بين التوأم وتوأمه، في العزم، وفي السعي، وفي الألفاظ ... ربّما بعد وقتٍ غير مذكور، ربّما بعد أيام، غير أنّ المظنون أنّ أحدهما لم يكاشف أخاه حين السعي بالذي انتواه.

مضىٰ عمر أيضاً برغبته المرجوّة إلى الرسول، وبنفس الكلمات قال: خطبت إليك فاطمة يا رسول الله.

فاذا الجواب نفس الجواب: «أنتظر بها القضاء»[2].

ردّ مترفّق، لايخدش الشعور، ولايجرح الكبرياء ... لكنّه علىٰ أيّة حال إباء!

* * *

أربعة من بين أكابر المسلمين، أوثقهم بنبيّهم صحبةً، وأدناهم إليه قربةً، وأقواهم إيماناً، وأعلاهم شرفاً، وأعزّهم مكاناً، قد حجب عنهم الأب ابنته الزهراء.

ألِقصورٍ في الفضل؟ ليوشك الواحد منهم أن يفضُلَ العصبةَ من الرفاق والصحاب، أم لشبهةٍ في الولاء؟ إنّهم ليتبارون في نصرة رسالته، وإخلاصهم له، بسطاً بالبذل، وسخاءً في العطاء لا يضنون[3] بشيءٍ من دمٍ أو جهدٍ أو مال.

أم لأنّه شاء فاختار لها آخر هو عنده خير من كلّ أُولاء؟

---

١ . الطبقات الكبرىٰ ٨: ١١، كنز العمال ١٢: ١١٢ ح٣٤٢٤٥ عن علباء بن أحمر اليشكري.

٢ . المصدران السابقان.

٣ . ضنّ: بخل.

الله سبحانه هو الذي شاء!

قيل[١]: إنّ رسول الله قال: «إنّ الله تبارك وتعالى أمرني أن أزوّج فاطمة من علي...»[٢].

وقيل[٣]: روي عن الرسول أنّه قال: «إنّ جبرئيل جاءه فقال له: إنّ الله يأمرك أن تزوّج فاطمة من علي...»[٤].

بل قيل[٥]: خرج رسول الله ذات يومٍ علىٰ أصحابه ووجهه مشرق كدائرة القمر، فلمّا استفسره سائل منهم سرّ فرحته، أجاب: «بشارة أتتني من ربّي في أخي وابن عمي، وابنتي، بأنّ الله زوّج فاطمة من علي...»[٦].

فهل هذا الذي ورد عن النبي ظلّ علماً مكنوناً في بطن الغيب لم يطلع الله عليه أحداً من خلقه، ولم يبح به الرسول إلّا بعد أن تمّت الخطوبة بين رفيقي الصغر، أو يوم انعقاد عقدة الزواج؟

ما من أحدٍ في الناس عندئذٍ ـ ولا من قبل ـ كان حريّاً بأن يشكّ في أنّ أولى امرئ بهذا الصهر المبارك هو علي بن أبي طالب الذي تربّىٰ في حجر محمد، وعايش فاطمة مذ كان وإيّاها طفلين، وهفت روحه إليها وهما يسيران معاً يوماً يوماً علىٰ مدارج الصبا والشباب، حتّى الصاحبان الكبيران: أبو بكر وعمر، وهما يتقدّمان أحدهما بعد الآخر إلى الرسول في أمر فتاته، كانا يحسّان ـ فيما أحسب ـ

---

١ . القائل: فاضل الحسيني الميلاني في كتابه «فاطمة الزهراء أُم أبيها» ط مؤسسة تراث أهل البيت عليهم السلام، مشهد: ٥١ ـ ٥٣.

٢ . أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٠: ٥٦ ح١٠٣٠٥ مسنداً عن ابن مسعود، وابن حجر في الصواعق: ١٠٧، والهيثمي في مجمع الزوائد ٩: ٢٠٤.

٣ . القائل هو السيد فاضل الحسيني الميلاني في كتابه. مرجع سابق.

٤ . ينابيع المودة للقندوزي ٢: ٢٠، مناقب الخوارزمي: ٣٣٦ ح٣٥٧.

٥ . القائل هو السيد الميلاني في كتابه المذكور.

٦ . أخرجه الخوارزمي الموفّق بن أحمد في المناقب: ٣٤١ ح٣٦١ مسنداً إلى بلال بن حمامة، وابن حجر الهيتمي في الصواعق: ١٠٧.

أنّ الفتاة أدنىٰ إلى أن تكون مدخرة للفتىٰ، وأنّ الفتىٰ منذور للفتاة.

هذه حقيقة ما نراها كانت مغلّفة في تلكم الآونة بغشاءٍ كثيفٍ من الخفاء، فكأنّي برفيق الغار حين امتدّ أمامه الزمن والبضعة النبوية ما تزال بعد في مرحلة العذرية، قد خالجه الأمل في أن يكون هو صاحب النصيب! ثم كأنّي بصاحبه ابن الخطّاب قد اقتفىٰ أثره عسىٰ أن يظفر بما لم يظفر به غيره من الخُطّاب!

والأمل عادةً ملحاح، أو هو مطيّة عنيدة حرون[1]، من يمتطيها يعديه منها عنادها، فيسرف في التشبّث بها لعلّه أن يروّضها وإن هي نبت عنه ونفرت به وشردت كلّ مُشرّد، وإن هو علم كم جمحت قبله بفرسان مقاديم[2]، ونفضتهم واحداً بعد آخر عن ظهرها لقىً علىٰ أرض المضمار!

أما وقد جاءهما البيان علىٰ لسان من لا يمين، فقد فاءا إلى تلك الحقيقة المغلّفة، وأدركا أنّ فاطمة ـ بأمر السماء ـ نصيب مقسوم لمن هو خير منهما، وممّن عداهما من المسلمين.

ومن ذا خيرٌ من علي في صفوف الإيمان؟

الآن أشرق النهار، تلألأ النور، تبلّجت[3] الحقيقة سافرة بلا حجاب!

فكأنّي بالألسن قد لاكت تلك الأحاديث، وكأنّي بخبرها قد ذاع، وملأ الأسماع، وكأنّي بالرجلين قد بلغهما ـ فيمن بلغ من الناس، وقبل سواهما من النـاس ـ ذلك الأمر القدسي الذي ذُكر وروده عن الرسول فوعياه.

عندئذٍ أدركا أنّ الزهراء جلّت وعلت عن كلّ مجالات التنافس بين الأكفّاء، أيقنا أنّ الأمر أمانة واجبة الأداء، وهل من شيءٍ أحقّ بالأداء من كلمة السماء؟

واجتمعا إلى نفرٍ من خاصّة صحاب الرسول، وتحدّثت الآراء، ثم انتهوا إلى قرار. فما أن توثّقت عزيمتهم حتّى انطلقوا إلى الشاب الموعود ... والنسوة هنا وهناك،

---

١ . دابة حرون: عنيدة، غير منقادة.

٢ . المقاديم: جمع مقدام، الكثير الإقدام، المبالغة في الشجاعة.

٣ . تبلّج الشيء: إذا وضح وظهر.

ووجدوه أخيراً يسقي نخلاً لأحد الأنصار، كان في مرقعةٍ[١] مقطوعة الأكمام، قصيرة الذيل، لا تكاد تنسدل علىٰ ركبتيه، قد شدّها حول وسطه بحبلٍ من ليف.

وكان مكدود الملامح، بادي الإعياء، يتصبّب عرقاً من فرط الجهد وشدّة الحرّ الذي نشرته الشمس من خلال شعاعٍ يتلهّب كأنّه أسلاك محماة.

ودعوه، فلبّى النداء، وكاشفوه بما جاءوا فيه[٢]: يا علي، إنّ أهل الشرف والقدم في الإسلام قد قدموا علىٰ رسول الله ليخطبوا بضعته فاطمة، ولكنّه ردّهم، فلو عرضت نفسك!

ومدّوا إليه الأسماع.

وردّد نظراته علىٰ وجوههم هنيهة وقد استغرقه التفكير، إنّهم يتحدّثون إليه بسرّه، يترجمون عن وطره[٣]، يمسّون الوتر الذي طالما ترنّم في قلبه بأحلامه، وتراءت له خيالاته حين يقظته ومنامه.

ففي عالمه النفسي ـ كما في عالمه الحسّي ـ كانت فاطمة دائماً معه، كان يشعر أنّ ما يربطهما ليس مجرّد قرابة وأُرومة، وأصل أثيل، ليس كما بين فرعين من دوحةٍ[٤] كريمة، زكيّة الثمر، فينانة[٥] الظلال.

كلّا، ليست الصلة بينهما «إنسية»، بل هي «فوق إنسية»[٦]! قدسية!

---

١ . المرقعة: الثوب المرقوع.

٢ . انظر ينابيع المودّة ٢: ٢١ و٢٢.

٣ . الوطر: الحاجة، الرغبة.

٤ . الدوحة: الشجرة العظيمة المتّسعة.

٥ . فينانة الظلال: ممتدّة الظلال.

٦ . فقد روى القندوزي في ينابيع المودّة ٢: ٢٠ ـ ٢١ عن أنس قال: بينما رسول الله ﷺ في المسجد إذ قال لعلي: «هذا جبرئيل يخبرني أنّ الله تبارك وتعالى زوّج فاطمة ابنتي منك، وأشهد على تزويجكما أربعين ألف ملك من ملائكته المقرّبين، وأوحىٰ إلى شجرة طوبىٰ أن انثري على الحور العين الدرر واليواقيت، فنثرت عليهنّ فابتدر الحور العين يلتقطنها، فهنّ يتهادين بينهنّ إلى يوم القيامة». وقال أخرجه الملّا في سيرته.

ائتلاف روح بروح.

وكان يشعر أنّها ـ بحسّها الرقيق ونفسها الشفّافة ـ تعلم عنه هذا الذي يخالجه من شعور، ففي عينيه صور أحاسيسه، ووراء شفتيه حروف عذراء خفرة[١]، يودّ لو أنّها انتظمت كلمات ينبض جرسها بخفقات فؤاده المتواتر الوجيب[٢].

وأثناء حومه المستمرّ حول أبيها كانت ثمّة عاطفة أُخرىٰ ـ إلى جوار حبّه المطلق لرسول الله ـ تحرّك أيضاً حركاته.

إنّها لتراه، ظاهراً وباطناً تراه!

أليست قريبة منه كوتينه؟ عارفة ـ كذاته ـ بمكنون ذاته؟ امتداداً لكيانه؟ قارّة في ضميره قرار إيمانه؟

ولم يكن هؤلاء الصحب أول ولا آخر الذين كاشفوه بأمر الزهراء، غيرهم كثير، نفر من أهله حثّوه على البدور[٣]، لكنّه كان يحجم مهابةً أن يتحدّث في شأنها وشأنه إلىٰ أبيها، فدون ذلك العيّ واحتباس اللسان.

وكيف يقدم؟

وما السبيل، وبينه وبينها سوران شاهقان، اجتيازهما عسير عسير: سور من الحياء، وسور من الفاقة؟

فمع ملازمته رسول الله ملازمة الظلّ في كلّ وقت إلّا ساعات يقضيها في سعي وعمل أو في تعبّد واعتكاف، ومع فرط حبّ أحدهما الآخر، وإلْفه إيّاه إلْف أب لولده، وولد لأبيه.

مع هذا كلّه، فقد كان حياؤه من الرسول يغلبه علىٰ ثبات جنانه، فيرتدّ بصره عنه كما يرتدّ عن وهج الشمس المتألّق ولمع البرق الخطّاف بصرك وهو حسير.

---

١ . الخَفِرة: الشديدة الحياء.

٢ . القلب الوجيب: الشديد الخفقان.

٣ . البُدور إلى الشيء: الإسراع إليه.

كان الخفر دائماً، من أدانيه إلى أقاصيه، ممدوداً حوله كقوس الأُفق كلّما التقىٰ برسول الله وإن لم نكن ثمّة لديه حاجة يريد أن يبسطها بين يديه، حتّىٰ ليؤثر أنّه كان ـ وهو في مشهدٍ منه عليه الصلاة والسلام ـ يوشك ألّا يراه؛ مهابةً وإجلالاً، لم تمتلئ قطّ عيناه من محيّاه!

فكيف لو همّ بأن يفاتحه في أمر الزهراء؟

ذاك الحياء!

فأمّا الفقر فإنّه له رفيق وخَدين[١] وقرين ... أحبّ رفيق، أخلص خَدين، ألصق قرين ... كانا لا يفترقان.

وكانت الفاقة هي كنزه الثمين الذي يحرص عليه، وتغنى به نفسه، كأنّما له فيها الغناء كلّ الغناء.

وما الذهب؟ ما النشب؟ ما المال؟

إنّه ليزهد في الحياة، نفس الحياة، فهل تراه يحفل كثيراً أو قليلاً بالعروض والمتاع؟

إنّما الثراء ـ فيما يرىٰ ـ كالثرىٰ، قيمته كقيمة التراب!

وكلٌّ هباء.

وإنّه لراضٍ بأن يعمل لغيره بالدانق والدرهم حتّىٰ تمجل[٢] وتتقرّح يداه، وإنّه ليتصدّق أحياناً بما يؤجر به، ثم يبيت على الطوىٰ إلّا شربة ماء، وإنّه ليأكل اليابس الصلب من الخبز بغير إدام، أو مغموساً بخلّ أو ملح، فإذا نصيبه من طعامه هذا طوال يومه شبعة وجوعتان، وإنّه ليلبس الغليظ الخشن من الثياب مرقوعاً، تتجافىٰ عنه الجوارح ولا تطمئنّ الجنوب.

فما الذي إذاً في يمينه ليُقدّم كما يُقدّم الخُطّاب؟

* * *

---

١ . الخدين: الصاحب، الرفيق.

٢ . مجلت يداه: تورّمت ونفطت من العمل.

حتّى التبع والأولياء كانوا يلمّحون برمْق[١] شعورهم، أنّ عليّاً أولىٰ بفاطمة، وأنّها أولىٰ به وإن تكاثرت عليها الرغبات.

علىٰ ما يلوح، كانوا ضنينين[٢] بها أن تصبح سكناً لغيره من خيرة الناس، لا يرتضون لها بديلاً عنه مهما استطال الجاه، وعلا المقدار بالبدائل والأغيار، كانت أُمنية أمانيهم أن ينتهي بهما المطاف إلى عشّ الزوجية السعيد.

فهل أغراهم بامتثال ضنّهم ذاك أن ألفوهما عبر السنين متلازمين في كنف النبوّة الكريم تلازماً بلا انفصام؟

هل عطفهم إليهما أن جمعهما رونق الصبا، وميعة الشباب كما يجتمع في الوردة الرواء والعبير؟

إنّ للشباب لسحراً تتداعىٰ له وتستجيب القلوب!

أم الذي خالج نفوسهم في تلكم الآونة هو ذلك الإحساس الإشراقي المُلْهَم الذي يتخطّىٰ بالمرء ـ أحياناً ـ مرائي الظروف القائمة، وصور الواقع الماثل، إلى الخفيّ المجهول الذي لن يلبث أن يحدث بعد حين وإن كان عندئذٍ غيباً مستوراً، ليس يدركه حزر الأحداس، ولا جري الأفكار فضلاً عن عيان الأبصار؟

وإذا كان بعض الأهل ونفر من خاصّة الصحاب قد تحدّثوا إلى عليٍّ برغبته، وتدافعوا إلى إماطة حيائه عنه، ليقدم علىٰ مفاتحه رسول الله، فمن المظنون أنّ أولياءه كانوا الأسبق إلى حثّه علىٰ وضع قدمه علىٰ أول الطريق، ليظفر بتحقيق حلم حياته الذي لا مطمع له سواه.

يروي علي: قالت مولاه لي: هل علمت أنّ فاطمة خُطبت إلى رسول الله؟

قلت: لا.

قالت: قد خُطبت!

---

١ ـ الرمقة: النظرة.

٢ ـ ضنّ بالشيء: إذا أمسكه ولم يبرحه.

فيا تُرىٰ ألم يكن قد سمع ذلك النبأ عن سعي صاحبيه إلى النبي يطلبان الزهراء؟ أم قد سمع ثم علم بردّ محمد لكليهما، فلا أثر إذاً للسعي، ولا خشية عليه منه، كأنّما لا خطوبد هناك؟ أم قد قرّ في وجدانه أنّ فاطمة له وإن سعىٰ إليها الساعون، وتزاحم عليها الخُطّاب؟

وتستمرّ الرواية.

قالت المرأة: فما يمنعك أن تأتي رسول الله؟

قلت: أوَ عندي شيء أتزوّج به؟

قالت: إنّك إن جئت رسول الله زوّجك.

يقول علي: «فما زالت ترجيني حتّىٰ دخلت علىٰ رسول الله ... وكانت لرسول الله جلالة وهيبة، فلمّا قعدت بين يديه أُفحمتُ... فوالله ما أستطيع أن تكلّم!»[1].

---

١ . أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ ٧: ٢٣٤ ـ ٢٣٥ مسنداً عن مجاهد، والخوارزمي في المناقب: ٢٣٥ ف٢٠ ح٣٥٦، وراجع مسند احمد ١: ١٧٤ ح٦٠٣.

اللوحة الثانية

خطبة الزهراء لعلي

ذلك الموقف الذي أذاب في خجله ثباته، كان دائماً مرسوماً في باله، عـايشه علىٰ قدر ساعات أيامه، وخطوات أقدامه التي مشاها ساعياً إلى الرسول، مـعقود النيّة علىٰ أن يخطب الزهراء.

مراراً نوىٰ، ومراراً سعىٰ، ثم استسلمت للتردّد قوّة جنانه ... ثم تجسّد المـوقف ـ هذه المرّة الأخيرة ـ أمامه قطعةً حيّةً من خذر الخفر، عندما استجاش[1] عزمه للقاءٍ حاسم.

فلمّا التقىٰ رأى الحقيقة أفدح عليه وقراً، وأثقل إصراً من كلّ ما اختلج بباله من تهاويل خياله.

كان الواقع يجاوز شَطَحات أحداسه، أعتىٰ من تصوّراته، أفـحم لبـيانه، أعـيىٰ لسانه.

ما أن رنا[2] إلى النبي الكريم حتّىٰ بهته جلاله، أخذته هيبته، بهره سناه وسناؤه كما يبهر النور المتوهّج البصر فيتّقيه بجفنٍ منسدلٍ وهدبٍ ساتر.

---

١ . استجاش: استجمع وتحرّك نحو الشيء.

٢ . رنا: أدام نظره.

لم يعد كما كان حين بدأ السعي، وزوّىٰ[١] في نفسه حديثاً جاء لينفضه أملاً غالياً حلواً، ورغبةً مضطرمةً مشوّقة.

سرعان ما تغيّرا ثبتت ملامح محيّاه، هجعت[٢] رموشه، خشعت عيناه، وجبت جوارحه وأعضاؤه.

بدا كأنّه كيان من السكون الأجوف، فلا يكاد يُسمع منه غير صوت الصمت الذي يوشك أن يظهر علىٰ شفتيه جَمْدُ أنفاسه!

فلا نَبْسه[٣] ولا همسة، لا جرس ولا حسّ، لا خلجة ولا حركة ... كلّ ما بقي منه آنئذٍ هو أعصابه، مكنون أحاسيسه، هدوء مهلهل يغطّي وجومه، وبسمة باهتة لا تداري عبوسه.

فلمّا أحسّ النبي منه ما يحاول إخفاءه من قلقه واضطرابه، رأىٰ أن يصل إلى حقيقة هذا الذي يعانيه بمسبار[٤] نظرةٍ كاشفةٍ غاص بها إلى غيهَب[٥] أعماقه.

عندئذٍ تفتّحت له مغاليق ضميره، تحدّثت خفايا أفكاره، تجلّىٰ سرّ أسراره.

وتبسّم الرسول.

ولماذا الحيرة؟ لماذا كتمانه؟

ثم شاء عليه الصلاة والسلام أن يهوّن على الفتىٰ بعض ضغط الحيرة الذي يؤوده، فمسح علىٰ وجهه الواجم بنظرة ترفّقٍ رحيمة، عسىٰ أن تعيد إليه جنانه الذي تبدّد شعاعاً في أطواء حيائه.

فسأله: «ما جاء بك؟ ألك حاجة؟».

فاختلج فمه لحظة، ما لبث بعدها أن انطبق ليحتبس فيه ما عساه ينمّ عن خَبء

---

١ . زوّىٰ الشيء: نحّاه وصرفه.

٢ . هجع: سكن وهدأ.

٣ . النَبْس: الكلام المسموع.

٤ . المسبار: ما يُسْبَر به الشيء ليُعرف عمقه ومقداره.

٥ . الغَيْهب: الظُلمة.

شعوره، لم يفه بحرف، خذلته بلاغة تعبيره، الصمت وحده كان جوابه، حتّى همساته تجمعّت علىٰ أطراف شفتيه.

ومع ذلك فقد عاود الرسول خطابه، هذه المرة كان قلبه الكبير هو الذي يحدّثه، وكانت كلماته مصوغة من حنانه.

كانت أعذب رنّةً، أنعم نبرةً، أحلىٰ نغمة.

وكانت أفسح ودّاً، وأرحب وعداً، وأفسح للرجاء ساحةً.

إنّها لأحرىٰ بأن تثير في عليٍّ مكنون مشاعره الخفرة، وأدعىٰ إلى منحه القدرة علىٰ أن يوقظ نفسه التي خدرها خجلة، ويلمّ شتاتها بعد تبدّد وانتثار.

قال له النبي: «لعلّك جئت تخطب فاطمة!»[1].

فما أن انطلقت هذه العبارة، حتّى اندفع الدم من عروق الشاب، تتسابق قطراته إلى وجهه حتّىٰ لأوشكت أن تنبجس من مسامه!

تضرّجت وجنتاه، برقت عيناه، وجف[2] قلبه يطفر بين جنبيه كما يرفرف جناحا طائر، وكانت خفقاته سريعة الإيقاع، لاتخفىٰ حركاتها عن البصر وإن سترها عنه صدره، كما لا تخفىٰ رنّاتها على السماع.

حتّىٰ إذا فاء قليلاً إلى هدوئه، وسكن جأشه بعض سكون، ترنّمت دقّات فؤاده شاديةً بلحنٍ ساحرٍ حلوٍ، كأنّه نفث داود في الناي، لم تزد كُسوته اللفظية عن أحرف ثلاثة، لكنّها أحرف كانت تضمّ أغلىٰ مرامي أحلامه.

همس بصوت غضيض[3]، الحسيس، خفيض النبرات: «نعم».

فصبّ الرسول ابتسامةً حلوةً في ناظريه، وأجاب:

«مرحباً وأهلاً!»[4].

---

١ . السنن الكبرىٰ ٧: ٢٣٤ ـ ٢٣٥، المناقب للخوارزمي: ٣٣٥ ف ٢٠ ح٣٥٦، البداية والنهاية ٣: ٣٤٦.

٢ . وجف قلبه: أي اضطرب.

٣ . الخضيض: المنخفض.

٤ . كشف الغمة ١: ٣٦٤، وراجع الأخبار الموفّقيات ٣٧٥ ح ٢٣٠، والطبقات الكبرىٰ ٨: ٢٠.

وسكت لا يزيد ... وبقي علي هنيهة وهو ناكس الرأس، رخيّ الجفنَين، كأنّما يصغي للصمت الذي أطبق على المكان.

فلمّا أحسّ أنّ مكثه طال ـ وما كان طال! خرج والحيرة دليله، واستقبله لدى الباب بضعة من أهله وأصحابه، سألوه: أقلت؟

ـ «نعم».

ـ فماذا كان؟

فبدا كأنّما كلماته تسبح إليهم علىٰ لجّة[1] قلقة، وأجاب: «ما أدري والله شيئاً! تحدّثت إلى رسول الله بالأمر، فما زاد علىٰ قوله لي: مرحباً وأهلاً».

فتضاحكوا وبشّروه: يكفيك من رسول الله إحداهما[2]!

* * *

إذن تحقّقت بشارة السماء! صدقته الأحلام، بلغ ما رام.

أُمنية أمانيه الغالية هذه ظلّت تتلألأ كالزهرة[3] في أُفق وجوده من فجر صباه، فيتسامىٰ إليها شوقه، ثم تنحسر عن مداها يداه، سنين عدداً وسنين كان يملك شوقه ذلك إليها أن يطاق لسانه، ويكشف وجدانه، فيعالج حنينه بجرعات من الاصطبار! ورغبته هذه الخضراء أبداً راحت تتجدّد في دخيلته ينوعاً[4] ونضرة، فلا تذبل ولا تصفرّ علىٰ كرّ الأيام.

سنين عدداً وسنين أخذ يحبوها ذوب روحه، ويكنّ من قلبه حريز كما تُكنُّ نفائس الدرر وذخائر الكنوز بعيداً عن جمحات الخواطر وشطحات الظنون فضلاً عن متناول الأيدي ومرامي الأبصار.

---

١ . لُجّة الشيء: معظمه.

٢ . البداية والنهاية ٣: ٣٤٦.

٣ . الزُهرة: كوكب شديد اللمعان.

٤ . اليُنُوع: النضرة.

ثم كان فصل الخطاب، شاء له ربّه، فإذا الزهرة غدت زهرة ندية علىٰ عود، دانية الجنىٰ والقطاف.

فأيّ شرفٍ أصاب! أيّ مقامٍ عليٍّ رقِيَ فيه إن كان فوق مقامه لأحدٍ غيره في العلّيّين مقام!

واستطاءت له دياجي دنياه، وامتلأت نفسه بفرحةٍ ملكت عليه لبّه وقلبه، أحسّ بها تسري مع الدم في أوردته وشرايينه مسرى البرء في جسد سقيم، فلا تدع منه مثل ذرّة إلّا غمرتها بدفء الحياة.

ألم يرحّب به رسول الله؟

ألم يؤثره علىٰ كلّ من عداه؟

ومع ذلك فإنّ ثمّة أثارة من قلق تعربد[1] في نفسه عربدة مخمور خالطت وعيه حميا الكأس، ثم ما زالت تطغىٰ عليه حتّىٰ ملكته سورة الشراب، فليس يميّز بين الألوان ولا الأصوات، ولا غيرها من المُحَسّات فضلاً عن المعقولات والمعنويات.

واستغرقه التفكير ... ترىٰ أترضاه فاطمة؟

إنّه موقن تمام اليقين أنّها تألفه، فالسنون الطوال التي قضياها معاً في كنف محمد، قد ربطتها به، وربطته بها برباط وثيق.

فهل الأُلفة وحدها تكفي لتنتظم اثنين في زواج، أم هناك عاطفة أخرىٰ لابدّ منها للاقتران؟

ذلك أمر مرجعة إلى القلب، وسبحان العليم بسرّ القلوب.

وإذا كان الرسول قد بارك سعيه، ورحّب به أكرم ترحيب، فليس الترحيب هو القبول وإن كان يبدو خطوةً واسعةً نحو القبول.

إنّ محمداً لابدّ سائل ابنته رأيها فيه: أترفضه أم ترتضيه ... وهل تراه يكرهها علىٰ غير ما تريد؟

---

١ . عربد: اضطرب بشدّة وأحدث جلبة.

فإن تكره الفتاة ـ أيّة فتاة ـ على الزواج ممّن يضيق قلبها عنه، فذاك ادعىٰ لأن تكره ... وأن تَكْره فإنّ بيت الزوجة إذاً أوهىٰ من بيت العنكبوت، وأخلق بأن ينهار، إذ يقوم أساسه ـ لو قام ـ علىٰ مثل رمالٍ تنهال، أو علىٰ شفا جرفٍ هار.

فكيف يتأتّىٰ أن يُكره النبي فاطمة وإنّها لأحبّ بناته إليه، وأحقّهنّ عنده بتوقّي ما يغضبها، وتلمّس الوسائل والأسباب التي تحقّق لها القناعة في القلب، والراحة في البال، والبسمة على الشفاه، وتضمن المستقبل السعيد؟

بل لا إكراه!

وهل أكره قبلها زينب؟ أو أكره رُقيّة؟ أو أكره أُم كلثوم؟

الرسول أبعد نظراً من أن يحمل الزهراء علىٰ ما لا تشاء، أقوم نهجاً، أرفع حكمةً، أندىٰ خُلقاً، أوسع سماحةً أوريحيةً.

فإن نسمع أنّ بنات الرسول هؤلاء لم تتمنّعن عندما عرض عليهنّ الخُطّاب، فليس ذلك لأنّه عليه الصلاة والسلام أملىٰ وفرض، بل لأنّه ـ برهف حسّه، وصدق حدسه ـ قد استشفّ رضا كلّ واحدةٍ منهنّ، وعلم مسبقاً بمطابقة رأيها لما يراه.

وهل كان ليسأل إلّا وقد قرّ في روعه قرار يقين أنّ الجواب إيجاب؟

* * *

بل الله سبحانه يأبى الإكراه بمختلف ألوانه، يأباه وإن اتُّخذ وسيلةً لنشر عقيدة الإسلام، لأنّه إهدار لحريّة الفكر، فضلاً عن أنّ الإيمان موضعه القلب وليس طرف اللسان، يقول تعالىٰ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[1].

ويأباه وإن وقع في ملكية خاصّة علىٰ أَمَةٍ مرقوقةٍ لسيّدها حقّ التصرّف فيها تصرّفه في كلّ ما ملكت يمينه من متاع بالبيع والابتياع؛ لأنّه عندئذٍ يخرج من حدود المباح إلى امتهان كرامة الإنسان، يقول سبحانه: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى

---

١ . البقرة: ٢٥٦.

ٱلْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾[١].

ومع ذلك فإنّه تعالىٰ يغفره إن نزل بمؤمن وعنقه تحت سيف الإرهاب، فأظهر الكفر اتّقاء البوار، يقول جلّ من قائل: ﴿مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ ٱللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

ولو أنّ الأيام استأخرت قليلاً بسعي عليٍّ إلى الرسول بطلب الزهراء، فلربّما زامن سعيه ذاك حادثاً تفتق عن قاعدة اجتماعية هامة، تكفل حقّ المرأة في مفارقة عشيرها لو تقطّعت بينهما أسباب الوفاق، فما بالك إذاً بحقّها في الاختيار قبل الزواج؟

ذلك حادث زينب بنت جحش[٣] ابنة عمة الرسول وزيد بن حارثة[٤] عتيق الرسول.

قيل[٥]: وقع زيد قبيل الإسلام في يد خيلٍ على قومه، فأخذ فبيع، فأشترته خديجة، ووهبته لزوجها الكريم، وعاش الفتىٰ في كنف محمد ما عاش.

ثم علم أبوه حارثة نبأه، فشدّ رحاله إلى مكّة ليفكّ أسره ويعيده إلى الحريّة،

---

١ . النور: ٣٣.

٢ . النحل: ١٠٦.

٣ . زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية، من أسد خزيمة، أم المؤمنين وابنة عمة النبي ﷺ، ولدت سنة ٣٣ قبل الهجرة، وكانت إحدىٰ شهيرات النساء في صدر الإسلام، واسمها «برّة»، وبعد طلاقها من زيد تزوّج بها النبي الاكرم ﷺ فسمّاها زينب، وبسببها نزلت آية الحجاب، لها من الروايات (١١) حديثاً عن النبي ﷺ، توفّيت سنة ٢٠هـ. (طبقات ابن سعد ٨: ٧١ وما بعده، الأعلام ٣: ٦٦).

٤ . زيد حارثة بن شراحيل (شراحبيل) الكلبي، صحابي معروف، اختُطف في الجاهلية صغيراً، واشترته خديجة أم المؤمنين فوهبته إلى النبي ﷺ حين تزوّجها، فتبنّاه النبي قبل الإسلام، ثم اعتقه وزوّجه بنت عمته زينب، وكانوا يسمّونه زيد بن محمد حتّىٰ نزلت آية ﴿ٱدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ ...﴾، استشهد في غزوة مؤتة سنة ٨ هـ. (الإصابة ١: ٥٦٣، الأعلام ٣: ٥٧).

٥ . البداية والنهاية لابن كثير ٤: ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

حتّىٰ إذا انتهىٰ به السير والسرىٰ، وعرض علىٰ محمد ما جاء فيه، أبى الغلام إلّا البقاء في يمين سيّده، مؤثراً إيّاه على البلد والآل.

وعجب الرجل لفتاه: يا زيد! أتختار العبودية علىٰ أبيك وأُمك وبلدك وقومك؟

قال الفتىٰ: نعم! إنّي قد رأيت من هذا الرجل شيئاً، وما أنا بالذي يفارقه أبداً.

عندئذٍ كرمه محمد، اتّخذه ولداً ... سمّاه «زيد بن محمد»، وأعلن في الملأ أنّ لغلامه هذا عليه ـ كعرف العرب في ذلك الحين ـ نفس حقوق الابن الصريح البنوّة علىٰ أبيه.

ثم جاء الإسلام، فكان زيد أحد فتيين سبقاً إلى اعتناقه ... هو الثاني، والأول عليّ.

ومضت به حياة الجهاد في الله، وهو في غمارها، مع قادة المجاهدين في الصدارة.

* * *

وكبر الغلام ... امتلأ فتوّة ... استوىٰ شباباً وكما يحدث لمن هم أمثاله الراقون في سلّم الرجولة، حنّ حنينه إلى زوجةٍ يأنس بها، ويسكن إليها، وتقوم بينه وبينها مودّة ورحمة.

وعندئذٍ خطب له رسول الله زينب بنت عمّته، وما اختار، بل الله اختار ... قضىٰ سبحانه وتعالىٰ بهذه الخيرة لحكمةٍ في مكنون علمه.

ونزلت الخطبة كالخطب علىٰ زينب!

تمنّعت ... وساندها في التمنّع أخوها عبدالله.

وكيف تقبل وهي القرشية، زينة الهاشميّات، وحفيدة عبدالمطّلب، أن يبني بها ذلك الذي ما زال موسوماً بالرقّ وإن حرّره العتق؟

أيّ عار!

لكنّ النبي ما زال بها يحثّها على الأخذ بما اختار، حتّىٰ مالت إلى رأيه بعض

الميل وهي تحسّ ألّا مندوحة لها عن الامتثال أو يغضب، وما غضبه بهيّنٍ ضئيل، بل عبء فادحٍ وهمّ ثقيل ... ثم أنـزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[1].

عندئذٍ لاذت بالطاعة، وأسلمت نفسها للابتلاء الذي فرضته عليها دعوة السماء.

* * *

وأُعلنت الخطبة، وأُبرم العقد، وزُفّ العروسان.

لقد تحقّقت إذاً رغبة الرسول، كان يريد بهذا الزواج أن يطبّق تطبيقاً عملياً مبدأ المساواة بين الناس وقد خلقهم ربّهم متساوين، ويحطّم الحوائل النفسية التي أقامتها جهالتهم بين أبناء المجتمع الإنساني، وباعدت بها بين الأفراد والطبقات والفئات والأُرومات: فرداً عن فرد، وطبقةً عن طبقة، وفئةً عن فئة، وأُرومة عن أُرومة.

فمن ذا كان أولىٰ بأن يعينه علىٰ هدم حواجز هذا التفريق من تطبيقٍ يأتلف به طرفان متنافران هما نقيض ونقيض؟

أمّا الأول فامرؤ لم يكن يُحسَب ـ بنظرة القوم آنذاك ـ في ذوي الأقدار والمكانات، إذ هو رقيق عتيق ... وأمّا الثاني فامرأة من أعظم البيوتات العربية، هي من محمد بمقام أُخت، أو بمثابة ابنة، شرفها عالٍ، وأصلها أثيل[2]، وحسبها عريق، وشأوها قمّة القمم التي لا تكاد تستشرق علياءها العيون أوتشرئبّ[3] إليها الأعناق.

كان الرسول يرجو لزينب أن تكون أُسوةً، فلا يستعصي بعدها علىٰ غيرها ائتساء.

لكنّ الأيام لم تجئ بما ترجاه ... لم تستطع السيدة ـ وإن أطاعت ـ مغالبة ما انطوت عليه جوانحها من مرارة وضيق بهذا الزواج الذي قضىٰ عليها، عن غير رغبةٍ

---

١ . الأحزاب: ٣٦.

٢ . أثيل: شريف، كريم.

٣ . اشرأبّ للشيء: مدّ عنقه إليه.

منها، ملبيّة بأن تعيش تحت رجل هو ـ فضلاً عن انحدار قدره الاجتماعي في عرف القوم ـ ليس له في رحاب عاطفتها الأُنثوية مكان، بينما هي من هي طيب منبت، وعراقة محتد[١]، وبهاء نضرة، وفتنة حسن تبزّ بها اللدّات والأتراب.

ومن يدري! فلعلّها يوم مشىٰ إليها الرسول ليخطبها لزيد، إنّما كانت تظنّ أنّه جاءها يخطبها لنفسه زوجةً تضمّها وإيّاه دار ... لعلّها في دخيلتها كانت تطمح إليه من تشوّق ورجاء، وعن إكبار وإعجاب، بإحساسٍ غامرٍ بأنّها أدنىٰ إليه قرباً، وأوثق صلةً، وأحقّ به بمن عداها من النساء.

وماذا عليها من هذا الطموح؟ لماذا لا تملي لأملها فيه، والأمل حياة؟

إنّ أيّة امرأةٍ في العالمين لحرَيّة بأن تصبوا إلى محمد صُبُوّ الضليل في تيه فلاة، يحترق هواؤها من وقر الحرّ، إلى واحة شجيرة يـفيء منها إلى الماء والخضرة ورطابة الهواء.

فهو بمقياس الكمال البشري أعظم البشر منذ استنسل آدم زوجة حواء ذرّيتهما من بنين وبنات، وحتّىٰ تندكّ الأرض وتنفطر السماوات ... وهو بمقياس الكمال الخلقي المثل الأعلىٰ لكرائم الخلال والخصال ... وهو بمقياس الكمال الروحي أدنى الخلق إلى الله، وسيّد من جاء برسالةٍ، وبشّر بكتابٍ، ونطق بوحي السماء من الرسل والأنبياء.

فما بالك وقد اجتمعت له كلّ الكمالات؟

ما بالك وإنّه بكلّ المقاييس الرفيعة لمنفرد بلا قرين؟

لئن رجته إذاً لنفسها راجية، فهو بلا شكّ، شأو الرجاء الذي يلتمع في خاطرها التماع السراب في البرية لمن شفّها الظمأ، فتقفو بنظرها وفكرها وقلبها شعاعه، ثم لا تزال تلاحقه لا شعورياً وإن ظلّ يمعن عنها نأياً في دنى الوهم والتصوّر، لأنّها إنّما تندفع نحوه بكلّ ذاتها وهي في ملاك سيلٍ جارفٍ من حبّين عظيمين يأخذانها

---

١ ـ المحْتِد: الأصل، يقال: فلان كريم المحتد، أي الأصل.

أخذاً، ويستأسر آنها استئساراً: حبّ له إذ هو نبيّ، وحبّ إذ هو إنسان.

ولئن رجته لنفسها زينب، فذلك ـ بحكم روابط القرابة والأصل، وبمنطق تماثل الأوضاع ـ هو الرجاء الصادق المشوّق، الحريّ بألّا يقع في مجال خيالٍ خدّاع ... بل ربّما كانت ترىٰ ـ ولا ملامة ـ أنّها أولىٰ ببيت محمد ممّن يضمّ من زوجات!

* * *

ولِمَ لا؟ فما هنّ أولاء؟

ما حفصة ... ما سودة ... وما غيرهنّ من المثيلات؟

لكأنّي بزينب حدّثتها نفسها أنّ الأُولىٰ: عائشة بنت أبي بكر وإن تفرّدت دون رفيقاتها بمكانةٍ خاصّةٍ ما هي إلّا جويرية لن تنضج بعد، تكاد تمطّ قامتها، وتشبّ علىٰ قدَمَي طفولتها، لتلمس بطرف بنانها عتبة الأُنوثة!

والحقائق دليل!

فالصغيرة المدلّلة كانت في نحو السادسة عندما خطبها الرسول، ويوم بنىٰ بها كانت حول العاشرة، دونها أو فوقها بقليل، وكِلَا حدّي هذين العمرين يبيّن أنّها كانت تدرج بخُطىً قصار علىٰ طريق الاكتمال.

* * *

وكأنّي بزينب أيضاً حدّثتها نفسها ثانيةً أنّ الثانية: حفصة بنت عمر[1]، أرملة شابة، إن كان نصيبها من الفتوّة ظاهر فنصيبها من الجمال مقتور[2].

والحقائق دليل!

---

١ . حفصة بنت عمر الخطّاب الخليفة الثاني، ولدت سنة ١٨ قبل الهجرة بمكة، وتزوّجها الخُنَيس بن حذافة السهمي، وبقيت عنده حتّىٰ ظهر الإسلام، فأسلما معاً، وهاجرت معه إلى المدينة فمات عنها، ثم تزوّجها النبي الأكرم ﷺ سنة ٢ أو ٣ للهجرة، وظلّت بالمدينة حتّىٰ توفّيت بها سنة ٤٥هـ. روىٰ لها الشيخان (٦٠) حديثاً. (طبقات ابن سعد ٨: ٥٦).

٢ . القتر: الضيق والقلّة من الشيء.

الأب نفسه يشهد بهذا على ابنته، كما تنقل إلينا الأخبار، وهل ينبئك مثلُ خبير؟

قيل: علم ابن الخطّاب مرّةً من امرأته أنّ حفصة ـ في مسايرتها لعائشة، وتشبّهها بها ـ تراجع زوجها العظيم حتّىٰ ليظل يومه غضبان، فأسرع إلى فتاته يزجرها علىٰ سلوكها هذا أعنف الزجر، ويشتدّ عليها في التثريب[1]، وخوّفها غضب الله لغضب رسوله إن لم تقلع وعاودت ما أتت من فعال، ثم قال: يا بنيّة! لا يغرّنّك هذه التي أعجبها حسنها، وحبّ رسول الله لها، والله لقد علمت أنّ الرسول لا يحبّك، ولولا أنا لطلّقك[2]!

ولقّنها درساً لعلّها تعيه.

* * *

ثم كأنّي بزينب حدّثتها نفسها ثالثةً أنّ الثالثة: سَوْدَة بنت زمعة ليست سوىٰ عجوز، عالية السنّ، ثقيلة الجسم، مضطربة المشية، عاطلة من الجمال، قد أسرع بها العمر نحو الشيخوخة وإنّها حينئذٍ لفي ثياب العروس!

والحقائق دليل!

«سَوْدَة» لا تنكر ما يعوزها، وما هي عليه، وتدرك ألّا أرب لرجلٍ فيها، ولا أرب لها في أيّ رجلٍ من الرجال، فهي تعلم افتقارها للرواء، وإيغالها في الكهولة إلى أبعد مدىً أو أعمق غور، وبرودها العاطفي، وقصور غريزتها النسوية عن التلبية.

ومن ثم فإنّها آثرت أن تنزل عن ليلتها مع النبي لعائشة ضرّتها الحسناء.

ولكم أحزن الزوج الكريم أن يرىٰ هذه السيّدة الطيّبة تعيش مع صويحباتها من زوجاته بكبرياءٍ جريحةٍ، وأن ترضىٰ هكذا لأُنوثتها أن تُهدَر، فتتألّم وتصبر، وأن تشتري بهوانها علىٰ نفسها وعليهنّ جواره.

فلولا الرحمة، لولا قلبه الكبير الذي يتّسع لآلام كلّ الناس، إذن لدفعته الشفقة

---

١ . التثريب: الملامة.

٢ . أُسد الغابة ٥: ٤٢٦ ترجمة حفصة.

عليها فسرّحها سراحاً جميلاً، ليجنّبها ما تحسّه ـ وهي بينهنّ ـ من غضاضة.

لكنّه وجدها تتشبّث[١] به، تكبت شقوتها النفسية، ترقىٰ بعلاقتها الزوجية به إلى ما فوق الصلة الجسدية.

فما الجسد؟ ما الرغبة؟ ما حاجتها إلى كبرياء الأُنوثة؟

وقالت له: أمسكني يا رسول الله! فوالله ما بيّ على الأزواج من حرص، ولكنّي أُحبّ أن يبعثني الله يوم القيامة زوجاً لك.

فأمسكها ... وعاشت في رحاب عطفه السابغ، وأريحيته العطوف، راضية النفس، طيّبة الخاطر، قد قنعت بقسمها منه، فلا تتطلّع إليه تطلّع الأُخريات، ولا تحاول أن تقسر نفسها علىٰ ما لا تسعفها طبيعتها به.

فحسبها أن تكون في فضل جواره! وحسبها أن ترعاه رعاية أُمّ لوليدٍ وحيد!

---

١ ـ تشبّث بالشيء: تمسّك به.

اللوحة الثالثة

زينب تفارق زيداً

لو أنّ «زينب» كانت ترىٰ أنّها تتجرّع غصص[1] الحسرة أن فاتها من محمد ابن خالها، مثل ما كان حظّ أُلئك النسوة من زوجاته الأُخريات فيه، لما جاوز مدىٰ رؤيتها عندئذٍ حدود المعقول المقبول.

ذلك لأنّها بمقاييس الإحساس، ثم بمقاييس الواقع، كانت حَرِيّة[2] ككلّ من عداها من النساء في مجتمعها ـ أن تتطلّع فيه إلى الزوج الأمثل الذي يتسنّم ذروة الكمال، ولا ضالّة بعده لا مرأةٍ في رجلٍ غيره من الرجال.

ولو أنّها كانت تتقلّب من آلامها النفسية علىٰ مثل شوك القَتاد أو جمر النار أن كان نصيبها زيد بن حارثة، لما جاوزت عندئذٍ أيضاً المقبول المعقول.

ذلك لأنّها بمقاييس الإحساس، ثم بمقاييس الواقع، كانت ترىٰ نفسها نابيةً به، كارهةً له، زاهدةً فيه وإن خلت الدنيا من الرجال إلّا منه، أو فرش تحت قدميها الأرض بالنجوم، أو جاءها ـ كما يقال في الخرافات والأساطير ـ بلبن العصفور!

---

١ . الغصص: جمع غصّة، وهي ما تعترض تَفَس الإنسان فتمنعه، ويقال كثيراً في الحزن والهمّ.

٢ . حريّة: جديرة.

فأمّا وقد أعجل بها لسانها إلى قبوله، فما كان إعجالها هذا إلّا فلتة لسان، بل هرف[١] لسان!

وما كان حينئذٍ قبولها إيّاه إلّا أدنىٰ إلى استسلام مقهورٍ منه إلى رضاء مختار .

وليس هذا الذي يقرنها به ـ فيما تدرك وتستشعر ـ بزواج، يعيش به قلبان في جسدٍ واحدٍ، أو يعيش بقلبٍ واحدٍ جسدان! لكنّه شيء أشبه بعنانٍ شُدَّ إليه جوادان، ثم ضُرب أحدهما ليركض في اتّجاه، وضُرب الآخر ليركض في الاتّجاه المضادّ!

أم كيف تحمل مشاعرها المخالطة لكلّ ذاتها، من خلجةٍ جارحةٍ، أوخطرة فكرٍ، أو رنوة خيالٍ، أن تأنس به، وتميل إليه؟

كيف تقهر قلبها علىٰ أن تحبّه، وما قلبها إلّا في ملاك الله وحده مصرّف القلوب؟

وعندما انطلقت بفاطمة الأيام، وأشرفت من ورائها علىٰ هذا الذي تعانيه زينب، لم يكن عسيراً عليها أن تتفهّم ـ بغريزة الأُنثى ـ حقيقة كرب المحنة الذي تحياه هذه السيدة المبتلاة ... كرب فادح، ومحنة قاصمة، وبلاء عظيم.

وهل أقدر من امرأةٍ علىٰ فهم امرأة، وقد تضاهأت فيهما الجبلة، وتماثلت الصفات التشريحية، وتشاكلت مقدّمات المزاج، وتشابهت نوازع الشعور؟

* * *

الحقّ الذي يتنزّه عن المراء أنّ الزهراء كان محالاً عليها أن تعيش ـ بفكرها، أو بشعورها، أو بوضعها الأُسري ـ في منأىً عن مسيرة زينب وزيد علىٰ رقعة حياتهما الزوجية التي حامت حول فشلها الأحاديث، وتعلّق بها انتباه الجمهور بضعة شهور.

وإذا كانت الروايات لم تصوّر لها موقفاً حياله، ولا نقلت لنا عنها رأياً فيه، فذلك لأنّ الرواة حينذاك لم يكونوا يُعنون بتناول أيّ حدثٍ إلّا من حيث هو مجرّد خبر

---

١ . الهَرَف: المدح بلا خبرة، يقال: لا تهرف بما لا تعرف.

متولّد فقط من سلوكات أبطاله، ثم منعكسة عليهم وحدهم نتائجه، دون أن تعرض مروياتهم في كثيرٍ أو قليلٍ للخلجات النفسية التي تصاحبه، وللمشاركات العاطفية التي تفرزها وجدانات غيرهم من الأُلىٰ عاشوا خارج الحدث، فعايشوه ولم يكونوا طرفاً فيه.

«فاطمة» لم تكن لها إذاً مندوحة عن متابعة ما فرضت الظروف على «زينب»، بل عن الانغماس في ثناياه.

هذا هو المنطق الطبيعي للأُمور، وإغفاله قصور عفوي فاضح من مسجّلي التاريخ، يجعل الحقيقة صورةً حائلة الألوان، مطموسة المعالم، أو مادةً جامدةً، وجسداً بغير روح.

فما كانت قصة زينب وزيد بحبيسة بين أربعة جدران صمّاء، فلا تتطرّق إلى الأسماع، ولا ترى النور، ولا كانت «بضعة النبي» بمعزولة قطّ عن حركة المجتمع وحياة الناس.

أم قد كانت قصيّة أيضاً عن محيط أُسرتها الخاصّ لو سُلّم جدلاً بأنّها شاءت نأياً عن محيط أُمتها العام؟

إنّ القوى الثلاث الممثّلة لأطراف هذه القضية كانت تسير في فلكٍ واحدٍ، حَرِيّ بفكر فاطمة أن يرصد كواكبه، وباهتمامها أن ينجذب إليه، وبإحساسها أن يدور فيه.

محمد «الأب» كان أولىٰ بابتعاث قلق الزهراء عليه إذ تراه محيّراً بين تناقض رغبتي ذينك الزوجين المتباغضين، كأنّما يشدّه قطبان متنافران لا يلتقيان.

وزيد «الأخ» كان خليقاً بعطفها عليه أن كانت امرأته تضرّسه[1] الحصرم، وتقيته العلقم!

وزينب «الأُخت أو ابنه العمّة الكبيرة» كانت جديرة منها بالرثاء، إذ تراها تضيق

---

١ . ضرّسه الشيء: عجمه وشدّ عليه شدةً لاقباله له فيها.

بعيشٍ لا تملك له دفعاً، وتبقىٰ كرهاً تحت زوجٍ بغيضٍ إلى قلبها بقاءً يوشك أن يكون هو الموت أو يكون الجنون!

* * *

والحقّ أيضاً أنّ أيّما امرأةٍ عاشت ظروف زينب، وضاهأتها[١] إحساساً بإحساس، كانت حَرِيّة بأن ترىٰ زوجها على خلاف ما يراه غيرها من الناس ... لكأنّه في السمع صمم، وفي العين عمى، وفي الحلق شجا[٢]، وفي السويداء[٣] داء.

ومع ذلك فليته كان كُرْهاً فقط شعورها نحوه، اذن لرُجِيَ من مرور الأيام أن يخفّف منه هوناً، فيفلّ غربه، ويثْلم شفرته، ويُكْسر شرّته، نتيجة لاستمرار العِشْرة.

فالعِشْرة تكرار، والتكرار انتظام الدأْب علىٰ ممارسة أُسلوبٍ معيّنٍ من الحياة، والممارسة سبيل إلى الاعتياد، والاعتياد حدوث مواءمة بين بعض نزعات النفس واتّجاهات المزاج، وبين مظاهر التصرّف والسلوك.

أمّا العواطف، من حبٍّ وشناءةٍ[٤]، وإقبالٍ ونفورٍ، فإنّها من «اللاإراديات» التي لا تلتزم نفس ذلك الطريق المعتاد، فليس في يد القدرة الإنسانية تقليب القلوب، بل في يد القدرة الإلهية، يستوي في هذا برّ وفاجر، ومؤمن وكافر، وإن كان نبيّاً منزّهاً أو كان من أحلاف الشيطان.

وانطلاقات الأحاسيس والانفعالات القسرية لا تخضع لأُصول المنطق، ولا للجمع والطرح وغيرهما من قواعد الحساب!

ويوم تنزّل أمر ربّك، قاضياً بالعدل بين النساء، كان الرسول يُقسم لياليه بين زوجاته بالسويّة، ثم لا يستطيع أن يُقسم بينهنّ حبّه علىٰ نفس المنوال، ذلك

---

١ . ضاهى: شابه.

٢ . الشجا: ما يعترض الحلق فيغصّ الإنسان منه.

٣ . السويداء: القلب.

٤ . الشناءة: خلاف الحبّ، الكره.

لأنّ قلبه كان يميل إلى إحداهنّ بالايثار العاطفي، ولا حرج عليه من هذا الايثار.

وهل كان يملك أن يكبح عنها جمحات عاطفته، أويردّ مثل هذه الجمحات الأُخريات فيوزّعها بينهنّ جميعاً بالقسطاس، قدراً كقدر، ونصيباً كنصيب؟

لا ! فهذا هو المحال.

وما كان أصدقه عليه الصلاة والسلام لفطرته البشرية إذ قال: «اللّهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك!»[1].

فأنّىٰ إذاً لزينب أن تصرف قلبها إلى ما يرتجيه زوجها منها ويشتهيه! إنّما كانت علاقتها بزيدٍ نابعة من داخلها، كانت وليدة شعور ليس لها بتغييره يدان، وعندما يتحدّث الشعور تخرس العقول!

* * *

نعم كان محالاً عليها أن تشعر إلّا بما تشعر، أو تغيّر ما لا يتغيّر.

كانت تكره ... ثم أصبحت تبغض ... ثم غدت تمقت ... ثم أمست وليس له عندها ـ مع إدلالها عليه بشرف المنبت، وتباهيها بكرم الأصل ـ سوى الازدراء.

وعندما يسقط عن المرأة احترامها لرجلها، فذاك هو الداء العضال العياء، الذي يمتنع عن أيّ دواء، ولا يُرجىٰ له شفاء.

وكما كانت من خلال نظرتها العاطفية المعتمة تعيش في كنفه العذاب، فلقد كانت أيضاً من خلال نظرتها الاجتماعية المستعلية تعيش جريحة الكبرياء.

كانت تتقلّب على العار! فهي ذات شرفٍ باذخٍ، ومجدٍ أصيلٍ، وعزٍّ أثيلٍ[2]... كريمة من كرام.

---

١ . رواه الترمذي في الجامع الصحيح ٣: ٤٤٦ ب٤٢ ح١١٤٠ عن عائشة، وفي سنن النسائي ٧: ٦٤ كتاب عِشْرة النساء باب: حبّ النساء بلفظ «هذا فعلي».

٢ . عزّ أثيل: شريف نبيل.

وليس أعتى امتهاناً لكرامتها من بقائها تحت رقيق عتيق! وهل أقسىٰ على الكريم من إحساسه وأنّه يستذلّ ويُضام؟ بأنّه قد هوي به من سماء عليائه إلى حضيض الحضيض؟ وأنّ تقاليد قومه تطارده بالنظر الشزر والمعابة والاستنكار؟

ولا عبرة هنا بأن يصيب المرء بهذا الشعور أو يخطئ، بل العبرة بأنّ شعوره ذاك يعشش في داخل نفسه، ويفرخ، ويتكاثر فيملأ منها كلّ نبضة قلب، وخلجة وجدان، ومسرىٰ دم ... تماماً كما تفعل سورة الحمّىٰ بجسدٍ محموم.

أمّا زيد فإنّه ـ في رأيها ـ دعيّ لصيق، ما هو ـ وإن تحرّر ـ إلّا مولىً من الموالي، قد وسمته عبوديته على الخرطوم! إنّه علىٰ هامش الناس! في خارج إطارهم العام، أقرب إلى الأشياء منه إلى الأحياء.

ولو أنّها عايرته بمعيار حسّها العاطفي، إذن لخفّ وزناً، وخسّ قيمةً، وكان أدعىٰ إلى يُلفظ ويُمجّ، أو ـ بأرفق تقدير ـ أن يُباع سلعةً بائرةً، غرارةً بدانق لا بدرهم، وقنطاراً بدرهم لا بدينار!

* * *

لَكَم ودّ زيد لو أنّه تحرّر من أذاية زينب له باستعلائها المهين، ففارقها ... هو في طريقٍ وهي في طريق، لكن الرسول كان لا يفتأ يهوّن عليه الأمر، وينصحه الإبقاء علىٰ حياتهما الزوجية أن تتحوّل إلى أطلال[1]، كان يردّه دائماً عن رأيه ويقول: «أمسك عليك زوجك، واتّق الله»[2].

ومع ذلك فلم تنزع السيدة عمّا هي فيه، بل أوغلت في التعظّم عليه إلى أقصى الأبعاد، لم يشفع له عندها أن كان «ابن محمد»، فتلك ـ فيما تعلم ـ صلة مجازية، ما

---

١ . الأطلال: بقايا الآثار الخربة.

٢ . رواه أحمد ٣: ١٥٠ (مسند أنس)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ ٧: ١٣٨ بسنده عن أنس.

هي إلَّا من ولائد عُرْفٍ أَخرق[١]، اختلقه العرب منذ قديم، وما زالوا حتّىٰ يومهم ذاك برثيثه[٢] مستمسكين.

وما كان ابتداعهم إيّاه إلَّا ابتغاء التعزّي[٣]، أو الاعتزاء[٤]، التعزّي لمن حرم الولد، والاعتزاء لمن أراد دعم العصبية بالاستكثار ـ عن طريق التبنّي ـ من أدعياء حوله، ما هو له بوالد، وما هم له بأبناء.

فهل يخلق التبنّي بنوّةً؟

وهل كان محمد حقّاً أبا زيد أو غيره من رجال مجتمع ذلك الحين؟

ولم يشفع لزيد أيضاً أن كان الرسول يسعىٰ بينه وبين الزوجة الكارهة بالإصلاح، عسىٰ أن تغالب ازورارها[٥]، وتخفّف من غلواء[٦] زهوها الجموح، غير أنّ سعيه الكريم كان ينزل علىٰ قلبها نزول الوابل الثرّ[٧] علىٰ صخر، إن يكن يقع عليه الماء فإنّه يدفعه ولا يبلعه، ثم يظلّ بعد هذا صلداً جامداً، لا يخرج شطئاً، ولا يطلع نبتاً، ولا يخضرّ أو يلين.

فسبحان الله!

سبحان من إذا شاء ألان الصخر الجلمود ... وإذا شاء حجّر القلب، وإنّه للحم طريّ غريض[٨] فإذا هو أعتىٰ قسوةً من الحجارة، وأشدّ صلابةً من الحديد!

* * *

---

١. الأخرق: المخالف للعادة.

٢. رثيث الشيء: البالي منه.

٣. التعزّي: الصبر.

٤. الاعتزاء: الادّعاء.

٥. الازورار: الميل عن الشيء.

٦. الغلواء: الهيجان، قمة النشاط.

٧. الثرّ: الغزير، الكثير.

٨. الغريض: الطريّ.

لكنّ مشيئات ربّك لابدّ أن تكون، لابدّ أن يُماط عنها اللثام، فإذا هي عندئذٍ وقائع جليّة، وأحداث حيّة، تقع في مجالات الحواسّ، ولا تُعمّي عليها شُبَه الالتباس والظنون.

فكما أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم، وأشهدهم علىٰ أنفسهم، فأقرّوا بمربويّتهم له سبحانه، فكذلك أودع في قراراتهم مشيئاته ليحقّ عليهم القضاء.

ذلك أنّ تلكم المشيئات حتم ما منه مناص، ولا عنه نكوص[1].

غيب مستور مقدور ... فإذا دار الزمن خرجت مشيئاته من عالم السرّ والخفاء إلى عالم العلنِ والظهور، تتوالىٰ عليهم دراكاً، كلّ حكمٍ منها بسبب، وكلّ قضاءٍ بميقات.

تماماً كما تنزّل قرآن ربّك مُنجّماً نجوماً، نجماً نجماً[2]، وقسطاً قسطاً ... كلّ آيةٍ لحكمه، وكلّ حكمةٍ بأوان.

أفحسب الناس أنّ الله الذي حجب عنهم غيبيّاته لا يكشف منها ـ إن شاء ـ ما شاء لنبيّه الكريم؟

بل له وحده الأمر والقرار ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[3].

وقد أراد فأظهر ... أذن لمشيئته التي قضىٰ علىٰ محمد، وعلىٰ زينب، وعلىٰ زيد، أن تخرج من عالم الغيب المستور إلى عالم العلن المنظور.

أفيتلبّث[4] النبي بأمر السماء، هذا الذي تجلّىٰ علىٰ صقال بصيرته الصافية فيرود[5] به بعض إرواد، أم تراه يسارع من توّه فيعلنه على الأشهاد؟

لئن هو تريّث، فاستأخر بالخبر، فمن وراء التريّث والاستئخار ساعة لابدّ آتية،

---

١ . النكوص: الرجوع عن الشيء.

٢ . نجماً نجماً: أي قسطاً قسطاً.

٣ . الجنّ: ٢٦ و٢٧.

٤ . التلبّث: التوقّف.

٥ . يرود: يتماهل.

لا مناص في إبانها من الإظهار ... ولئن هو بادر فأظهر، فمن وراء البدار بالإظهار مثل زباني عقرب تهمّ أن تلسع بهما الإسلام وتفرغ فيه سمّها الزعاف[١].

تجربة مُرَّة يجتازها الرسول ... حرج شديد ... حيرة طاغية تكاد تفلق الفكـر، وتشقّ الرأي بين الإقدام والإحجام.

ولم تغب عن خلد فاطمة هذه المعاناة النفسية الثقيلة التي كـان أبـوها يـعالج سكراتها[٢]، ليس فقط إذ هو رسول، بل إذ هو أيضاً إنسـان.

مشاركة شعورية ولا شعورية، لا عجب أن تكون بين أب وابنته! فما بالك وهما محمد والزهراء!

الأصل والبِضْعة! الدوحة العظيمة وفرعها الكريم!

وكم من مرّةٍ وقفت معه في معمعات[٣] أزمات نفسية، هو يتحدّث إليها بهمسات ضميره، وهي تجاوبه بشجو شجيّةٍ، كلماتها الآسية[٤] قطرات دموع.

* * *

الإفك

لكنّها ـ فيما نرىٰ، وفيما هو بها أَلْيق ـ لم تقاسمه أحاسيسه المـريرة، فـتحزن كحزنه، وتُحار لحيرته، وتكابد آلامه النفسية، مثلما قاسمته يوم «الإفك» «الخبيث» بعد فاجعة زينب هذه بنحو عام.

قيل: كعادة النبي في كلّ غزاة، أقرع بين نسائه وهو منطلق إلى بني المصطلق، فخرج سهم عائشة، فكانت هي صاحبته في السفر.

---

١ . سمّ زعاف: سريع القتل.

٢ . سكراتها: شدائدها.

٣ . المعمعات: الحرّ الشديد أو البرد الشديد، ويقال في كلّ شديد.

٤ . الآسية: الحزينة.

وفرغ ممّا قدم فيه ... وتوجّه عائداً بمن معه، فنزل بهم منزلاً قريباً من المدينة باتوا فيه طرفاً من ليل.

تقول عائشة[١]: وخرجت لبعض حاجتي، وفي عنقي عقد انسلّ منه ولا أدري... فرجعت إلى المكان الذي ذهبت إليه، فوجدته.

لكنّها لحظة عادت إلى العسكر، كان القوم قد أخذوا هودجها وهم يظنّونها فيه، وانطلقوا في رحلة الإيّاب.

وعندئذٍ تلفّفت بجلبابها وقبعت حيث هي، وقد علمت أنّهم سيفتقدونها، فيعود منهم عائد يردّها إليهم.

فإن هي إلّا ساعة أو نحوها حتّىٰ مرّ بها صفوان بن المعطل فعرفها، فتنحّىٰ لها عن بعيره، ومضىٰ بها مسرعاً لعلّه أن يلحق الناس ... فإذا هم قد فاتوه، وإذا هو لا يبلغهم إلّا والنهار قد أسفر.

وعندئذٍ أدلع الشيطان لسانه، يبثّ خبثه، فقال الأفّاكون: ما لعائشة تأخّرت عن العسكر!

* * *

وكثرت القالة ... ولم يطرق سمع عائشة شيء ممّا كان يتناثر حول اسمها من شائعات السوء، فلقد سقطت، منذ دخلت المدينة، فريسة مرضٍ شديدٍ ألزمها فراشها أياماً طويلةً: بضعة وعشرين.

لكنّها كانت تنكر من زوجها جفاءً لم تعرفه قطّ من قبل، بل قد كان يعودها في علّتها، فلا يكاد يخاطبها بكلمةٍ، أو ينطق باسمها، أو يضع عليها عينه، وإنّما يستفسر الذين حولها باقتضاب شديد: «كيف تيكم؟» ثم ينصرف لا يزيد.

وتتلقّىٰ هي سلوكه الخشن هذا بانزعاجٍ واجمٍ، وقلقٍ عميق.

---

١ . روى الحديث البخاري ٢: ٩٤٢ ب ١٥ كتاب الشهادات ح ٢٥١٨، وأحمد ٦: ١٩٤ (مسند عائشة).

فلماذا الجفوة؟ ما الذي غيّره هذا التغيير؟

كبرياؤها تأبىٰ عليها أن تستنبئه سرّه.

ثم علمت ما خفي عنها كلّ تلكم الأيام الطوال، زلّ بـه أمـامها لسـان إحـدى المهاجرات.

وعندئذٍ هالها ما سمعت ... فأيّ هول! صعقها الخبر، أحسّت بقلبها في جـوفها ينفجر، وتدفّق غضبها مع دموعها يلوم أُمها على الكتمان: يـغفر الله لك يـا أُمـاه! تحدّث الناس بما تحدّثوا ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً؟!

فلم تمهلها الأُم أن تسترسل، بل عاجلتها مهوّنة: أي بُنيّة! خفّفي عليك الشأن، فوالله لقلّما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبّها لها ضرائر إلّا كثّرن وكـثّر النـاس عليها.

أمّا محمد، فقد كان في همٍّ واصبٍ، وألمٍ مقيمٍ من هذا الذي هتر[١] به الأفّاكون، ثم هتنت[٢] ألسن المنافقين أينما مضت به قدم؛ حقداً عليه ونكايةً فيه كـانت الحـيرة تمزّقه، وكانت الغيرة تنهشه بأنياب أراقم[٣].

ولو أنّ فاطمة عجمت[٤] المحن التي أصابته، لما وقعت بينها علىٰ محنة هي أفضع من هذه فظاعةً، أو أبشع بشاعةً ... ولو أنّها راجعت ذكرياتها معه، لما علمت قلبها قد تفطّر مرّةً؛ رحمةً وحسرةً، كما تفطّر هذه المرّة.

أمّا الرحمة فلعائشة الطعينة في شرفها ـ افتراءً ـ وليست تدري بأيّ سلاح تردّ الفرية، ولا كيف بُرْؤُها من الطعنة ... وأمّا الحسرة فعلى الأب الذي يـفترسه الشكّ الضاري، ثم لا يكاد يجد منه لنفسه خلاصاً ولا مثابةً.

لكأنّي بحسّ الزهراء المرهف هو الذي يتكلّم الآن ثم يحكم، أو كأنّي بصفائها

---

١ . هَتَر وهاتر: إذا سبّ بالقول القبيح.

٢ . هتن: تتابع.

٣ . الأراقم: أخبث الحيّات.

٤ . عجم الشيء: أدركه فبان له.

النفسي هو الذي يقدّر فيقرّر ... ورهف الحسّ وصفاء النفس لدنها خليق بهما أن يشفا عن الحقيقة.

ثم ما كان أقساه عليها من موقفٍ أنّ الحيرة قد بلغت بأبيها إلى استشارة بعضهم في أخصّ خصوصياته، فيسألهم عن أمر امرأته، هو الذي كان دائماً لقومه ـ قبل الرسالة وبعد الرسالة ـ صاحب الرأي والمشورة.

سأل فتاه أُسامة بن زيد رأيه فيما أرجف[1] به أهل الإفك، فكان الذي ارتآه: يا رسول الله، أهلك ... ولا نعلم عليهنّ إلّا خيراً، وهذا الكذب والباطل.

وسأل أخاه علي بن أبي طالب، فكان جوابه: «يا رسول الله، النساء كثير، وإنّك لقادر علىٰ أن تستخلف، وسل جاريتها بريرة تصدقك».

فجيء بالجارية، وقام علي ليضربها، ويحذّرها أن تكذب: «اصدقي رسول الله».

وشهدت بريرة: والله ما أعلم إلّا خيراً، وما كنت أعيب علىٰ عائشة إلّا أنّي كنت أعجن عجيني فآمرها أن تحفظه، فتنام عنه، فيأتي الداجن فيأ كله!

فإن يكن أُسامة قال ما قال فتلك مقالة امرئ «شهد» فأنصف فيما كان يعلم، لكنّه «تحدّث» فتلطّف فيما لم يكن يعلم.

وإن يكن ذلك قول علي فإنّه الصدق مع النفس، والصدق مع الغير، والصدق مع واقع الحال، دون محاولة منه لاقتحام غير المشهود وغير المعلوم.

وهل كان ليقطع بالرأي الفيصل في مجهول، أويخضع شرف السيدة لجهد التأويل؟

لا لهذا عليّ ولا لذاك!

فإنّما الشهادة علم يقين، ورؤية عيان ... وإذا كان حبّه رسول الله حَرِيّاً بأن يدفعه إلى تهوين وقع المحنة عليه بكلمة تلطيف، فكلمة الحقّ الصرف هي الأحرىٰ عنده بأن تُقال.

---

١ . أرجف: إذا خاض في الأخبار السيّئة قاصداً تهييج الناس.

والخير إذاً كلّ الخير أن يدع للنبي ـ إذ هو وحده صاحب القرار ـ أن يستوحي شعوره الملهم، فيختار لنفسه ما يختار.

هذا هو الرأي الذي ارتآه ... بل عدالة العدالات أملاها عليه ضميرٌ مقسِط نزيه، كما يتوقّى المجاملات يتوقّى الشبهات.

فما كان به على السيدة سخط ولا موجدة، وهي منه «أُم» بزواجها برسول الله، لها عليه حقّ الإجلال والتوقير.

كان يكنّ لها الإعزاز لمكانتها الأثيرة في قلب الرسول، وكانت تكنّ له التقدير لمقامه المجتبىٰ لدى الرسول ... بهذا نضح[1] سلوكه وسلوكها على السواء.

سُئلت مرّةً عن أَحبّ الناس إلى زوجها العظيم، فقرّرت أنّ أحبّهم في الرجال: عليّ، وفي النساء: الزهراء[2].

وحتّىٰ عندما خرجت علىٰ سلطانه الشرعي، ومشت إليه مع أعدائه بالجنود في السلاح والعتاد، لاجتثاث إمرته، ثم أظفره الله، منع عنها أيّة مساءةٍ تلحق في موطن الحرب بعدوٍّ مهزومٍ، وشيّعها إلى بيتها بكلّ مظاهر التجلّة والاحترام[3].

فهل كان موقعها ذاك مظهراً لبغضاءٍ أوغرت صدرها عليه؟

قيل: لا بغضاء!

ولئن كانت أسرفت علىٰ نفسها في خلافه، فلقد أسفت علىٰ ما فرط منها، وأكّدت بعد سنين أنّ ما كان بينها وبينه لم يزد قطّ علىٰ ما يقع ـ عادةً ـ بين المرأة وأحمائها، أو بين الأنسباء والأنسباء.

أمّا هو فلم تشب شعوره نحوها شائبة ضغينة.

---

١ . نضح بالشيء: فاض به.

٢ . ينابيع المودّة ٢: ٢٩.

٣ . انظر جميع كتب التاريخ التي تتحدّث عن معركة الجمل بكلّ تفصيلاتها، مثل: تاريخ الطبري، وابن الأثير، وأنساب الأشراف، وتاريخ اليعقوبي وغيرها.

وساعة قال لرسول الله: «النساء كثير»، فذلك لأنّه كان يراه عليه الصلاة والسلام في شكٍّ من أمر عائشة مريب، وفي حيرةٍ من مصيرها موئسة: أيمسكها أم يتركها، وإنّه في كلتا حاليه هاتين لَمُعانٍ من شقائه النفسي معاناةً تفدح الجبال.

أفغفلت فاطمة عن هذا الشقاء المضني، أم انفعلت به وعاشت فيه؟

بل غفلت عن تصوير إحساسها الحقيقي روايات الرواة!

فما نحسبها إلّا شاركت أباها آلامه الشعورية مشاركةً كاملةً، وقاسمته كأس تجربته المُرّة، جرعةً جرعةً، وحسوةً حسوةً، وقطرةً قطرة.

بعذابه النفسي تعذّبت مرّتين: مرّة إذ هي أُمه، ومرّة إذ هي ابنته.

وليس كقلب أُمٍّ حنون قلبٍ، يتفطّر أسىً لمحنة ابنٍ هو بسمة الحبّ على ثغر العمر، هو مشرق النور، ونبع الصبر علىٰ نوب الدهر، ومنهل العزاء حين الأرزاء.

وليس كقلب ابنةٍ وفيه قلبٍ، يتمزّق لوعةً لبلوىٰ أبٍ هو خير أب، والفرد العلم في الآباء.

إنّه لها الرجاء في الحياة ... كلّ الرجاء، لا رجاء سواه، ولا حياة لولاه، إذ هو نفسه هذه الحياة، بل ما وراءها من حياة.

* * *

ثم كان الخلاص ... أتت مشيئة ربّك بالبرء من علل الريب وأدواء الحيرة، انقشعت[1] الغُمّة عن الزهراء بانقشاع المحنة عن رسول الله، نزل شؤبوب[2] طاهر من السماء غسل عن السيدة المظلومة ما علق بثوبها من درن الإفك ودنس الافتراء.

بالحقّ نزل ... وبالحكمة نزل ... وبالرحمة نزل.

تغشىٰ محمداً من الوحي ما كان يتغشّاه، فلمّا فصل عنه ـ والعرق ينحدر علىٰ

---

١ . انقشع: زال.

٢ . الشؤبوب: الدفعة من المطر.

وجهه مثل الجمان ـ التفت إلى الزوجة الحزينة يقول: «أبشري يا عائشة! قد أنزل الله براءتك»[١].

فيا لفرحتها، ويا لفرحة المؤمنين!

لكأنّي بفاطمة في إهاب الإنسانة، لم تسعد قطّ في يوم سعادتها يومذاك، إذ بلغها النبأ السارّ، ثم رأت زوجة أبيها الأثيرة مشرقة الطلعة، راقصة القلب، مغرّدة الأنفاس أن برّأها ربها، وهنّأها بالعودة إلى عرس عزّتها الباذخ في بيت الرسول.

وخرج النبي إلى المسجد فتلا بيان السماء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَاءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

وانتهت قصّة الإفك ...وطوى السجلّ الكتاب!

---

١ . رواه أحمد ٦: ١٠٣، ١٩٧ (مسند عائشة)، ومسلم ٤: ٢١٢٩ ب١٠ كتاب التوبة ح٥٦ (٢٧٧٠).

٢ . النور: ١١.

اللوحة الرابعة

أبناء لا أدعياء

أشبه بالإحساس الذي نحسبه خالج فاطمة إبّان كرب أم المؤمنين الصغيرة، ما نراه لابدّ خالجها، قبل قرابة عام، إبّان مأساة زينب، تلك الزوجة التي كانت تعيش حينذاك علىٰ هامش الحياة الزوجية، بل علىٰ هامش الحياة.

من منطلق الرحمة، وفي خلال سنتين متتابعتين، سبحت مشاعرها الإنسانية الرقيقة علىٰ شعاع كشّاف ثاقب إلى أعمق أعماق السيدتين، تتدافع ـ باطناً وظاهراً ـ يزدخران بعواطف شتّى، مؤتلفات ومختلفات، لتراهما وتتصارع، وتتزاحم وتتلاحم، متراوحة من حلوكة[1] الحسرة إلى وضاءة الفأل، ومن وَهْدة[2] اليأس إلى قمّة الأمل، ثم تكرّ راجعةً عوداً علىٰ بدء ككرّ النهار يعقب الليل، وكرّ الليل يعقب النهار.

ومن منطلق الحبّ المؤثر الذي جلا نفسها فإذا هي صفاء من صفاء، وأغنىٰ قلبها فإذا هو ولاء ووفاء، فغنيت كياناً وروحاً، وذابت هيئةً ومهجةً في ذات رسول الله، حتّىٰ غدت وهو هي، وهي هو، كانت دقّات فؤادها بين جنبيها تتردّد خفضاً وعلوّاً، وخفّةً وشدّةً، صدىً لفؤاد الأب كلّما رأته وإنّه لمن البتّ في قضيّتي عائشة وزينب ـ

---

١ . الحلوكة: الظلمة الشديدة، خلاف الوضاءة.

٢ . الوَهْدة: الأرض المنخفضة، وكل ما هو منخفض.

المقهورتين بقوى البهتان والكراهية ـ لفي حيرةٍ جائرةٍ، لا يكاد معها يدري أيبادر فيقرّر ويحسم الأمر، أم يصبر فينظر ثم للأيام بعد ذلك كلام!

نهجان متباعدان.

كلاهما يبدأ بالحيرة، وربّما انتهى أيضاً بالحيرة.

وها هو الآن، بحيال مصير زينب، يقف أمام حجاب حاجز وراءه قلق قالع[١] وزعج باخع[٢] مخافة قالة سوءٍ يرىٰ بعين بصيرته أنّها تهمّ بنشر خباثة ريحها في الهواء!

ليكاد بحسّه المستنير يقدم فيحسم، يطلق إرادة الزوجين اللذين أضناهما النزاع، يدعهما كُلّاً وما يشاء ... فما بقي إلّا أن تحل عقدة النكاح.

ولو خُيّرا لكانت الخيرة عندهما انفصالهما شرعاً بعد أن انفصلا فعلاً، قلباً عن قلب، وبدناً عن بدن، وتهاجرا في الفراش.

ولا نحسبنا نأتي بمحال، أو بما يشبه المحال، لو استشففنا من خلال كثافة القرون أنّ هاجساً راح يهمس في ضمير فاطمة أنّ محنة زينب وزيد لا محالة إلى زوال، في شعورها كان كربهما يزحف إلى حافّة النهاية، يشارف ختام المطاف.

وكانت هي ترجوا هذا وتتمنّاه، بلا جدال، من واقع حبّ الخير والسلامة لكليهما، ليخلص زيد من معيشةٍ هي الهوان والمذلّة، وتخلص زينب من ضغط نفسي يكاد يقذف بملكتها العقلية في هاوية الخبال.

فذلك أدنىٰ إلى طبيعة الزهراء المجبولة من الرفق والرقّة، المفطورة على الحنان والشفقة، الميّالة إلى الفأل الحسن وتوقّع السلامة أميل منها إلى التشاؤم والطيرة.

والرجاء في رحمة الله دائماً ممدود أمام ذوي النفوس النقيّة والقلوب المصوغة من الطهر والنور.

---

١ . قالع: مزعج.

٢ . الزعج: القلق والانزعاج، والباخع: القاتل.

وذلك أيضاً أليق بخُلق أبيها الكريم، إذ هو سماحة ورحمة.

لكنّ الحرج كان يشدّ الرسول إلى الوراء، فألسنّة الناس مولعة أبداً بالخوض في سِيَر الناس، وبتسقّط الهنّات، وبتقصّي العورات ... بالباطل تخوض، وبالحقّ تخوض.

أَفَئِن فرّق بين الزوجين، مرّ الأمر بغير غضاضة[١] يستشعرها القوم، وبلا حروف كلمة جائرة تتجمّع فتُقال هنا، أو دهشة ضيزىٰ[٢] تنعقد فتظهر هناك؟

لا! بل لقد تقولنّ طائفة منهم: ما بال محمد يهدم بيتاً هو الذي وضع أساسه، وأحكم بنيانه، وعلّىٰ ذراه؟! أوتقولنّ أُخرىٰ: كيف يخذل «ولده» الذي تبنّاه؟! أو تقولنّ ثالثة: لأمرٍ ما نصر في زينب عاطفتها الحرون! أو تقولنّ سواهنّ غير هذه وتلك من مدّعيات!

ومن وراء هذا كلّه فريق المنافقين، هم أحرياء بأن يشعلوها فتنةً مدمّرةً، لا تصيبنّ الذين ظلموا خاصّةً، ويخشى الرسول أن تحيق بالأُلىٰ إسلامهم علىٰ حرف، لمّا يترسّخ بعد في قراراتهم جوهر الإيمان.

تماماً كما حدث يوم الإسراء من بضع سنين.

فلقد استرابت عندئذٍ في حقيقة تلك الرحلة الربانية المعجزة كثرة كاثرة من الناس، وأصمت خبرها جماعة تجمّدت فيهم ملكات التفكير. فلا هم إلى النفي ولا هم إلى التصديق، كمن تثخنهم الجراح فتثبتهم علىٰ مواقع الأقدام! وظنّت فئة بالنبي الظنون.

وفي عجب ضالّ، وعنجهية جاهلية، قال قائلون: هذا والله الأمر البيّن! والله إنّ البعير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة، وشهراً مقبلة. أفيذهب محمد ذلك في ليلةٍ واحدةٍ ويرجع إلى مكة!

---

١ . الغضاضة: الذلّة، المنقصة.

٢ . دهشة ضيزىٰ: أي غير عادلة، جائرة.

وأخذت الردّة عن الدين القيّم بخناق أفئدة الغاوين ... أوَ لَم يروا في أنفسهم، وفي الآفاق، من آيات الله ما يعجز العقول ويروّض المستحيل فإذا هو ذلول!

تلبّد[١] الجوّ في المدينة بدخانٍ كثيفٍ من الشائعات، وقد أخذ ذوو الجهالة والعيّابون يحرقون سيرة زينب في محاريب هرفهم[٢] كما يُحرق البخور!

باللمز تحرّكت نفوس! بالهمز تحدّثت شفاه! بالغمز ترامزت[٣] عيون!

بين زيف الفِرَىٰ[٤] وشطح[٥] التهاويل، تأوّلوا التآويل، تقوّلوا التقاويل، تبادلوا الأباطيل ... فما لهم يفترون؟

سرّ هذا عند غشاشة قلوب، أو هذر مهاذير، أو اندفاعات فضول، أو تظاهر من لا يعلمون بأنّهم يعلمون ما لا يعلمون!

فدعهم وما هم فيه ... فلقد أذن ربّك لمشيئاته، فخرجت من عالم السرّ إلى عالم الحركة والعمل والظهور، وقضىٰ في أمر زينب وزيد ومحمد بما شاء.

* * *

يشاء الله أن تتزوّج زينب وزيد، ويبرم مشيئة، فيكون ما أراد، فما للنطق الإلهي من رادّ... ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[٦].

ويتمّ الزواج ... فإذا زواجهما هو التطبيق العملي الذي يحقّق هدر الفوارق الطبقية بين الزوجين، هبط بأحدهما المنزل وسما بالثاني المقدار، جَبٌّ للممايزة بين البشر

---

١ . تلبّد الشيء: إذا تجمّعت أجزاؤه ولصقت بعضها ببعض.

٢ . الهرف: القول السيء.

٣ . ترامزت العيون: تغامزت، أشارت إلى غيرها.

٤ . الفرىٰ: جمع فرية، وهي الكذبة.

٥ . شطح: أخطأ، زيّف.

٦ . الأحزاب: ٣٦.

من أشراف ومشروفين، أحرار وأرقّاء، شدخ[١] غائر في جدار نظام الاجتماع الذي أقامه أقوام ذلك الزمان.

مثلٌ حيٌّ يُضرب للأُسوة والاقتداء ... مساواة.

وتكون زينب هي الرائدة علىٰ طريق التغيير.

* * *

ثم يشاء الله أن ينفصل الزوجان، ويبرم مشيئته، فإذا انفصالهما هو التطبيق العملي الذي يعطي المرأة الحقّ في التحرّر من قيد الزوجية بالطلاق ما استعصى التوفيق.

فلا إكراه ... لا ضرار ... لا وذر يدعها معلّقة، لا هي متزوّجة ولا هي مطلَّقة ... بل إمساك بمعروف أو تسريح بمعروف.

ويكون زيد رائداً علىٰ طريق التغيير.

* * *

ويشاء الله للعلاقات النسبية أن تعتدل، وتسير في الأُسرة الإسلامية علىٰ سننها المستقيم، ويبرم مشيئته، فإذا قضاؤه العدل يمنع من التبنّي أو «الادّعاء».

ذلك لأنّ «الادّعاء» نبتة وحشية لعُرفٍ أخرق من ابتداع الأسلاف[٢]. ما أنزل الله به من سلطان، صلة وهمية تسوّي في الحقوق الأُسَرية بين أُصلاء وأدعياء، تزييف للأُبوة وللبنوّة، آصرة منتحلة تجافي عدالة الواقع فضلاً عن عدالة السماء.

أم كيف لامرئ أن يكون ابناً لأبيه بحكم الطبيعة البشرية، وابناً لمدّعيه بحكم التبنّي والادّعاء؟!

إنّما الأُبوة أصلاب، وإنّما البنوّة فرز هذه الأصلاب، يقول سبحانه في نبيّه ومتبنّاه: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾[٣].

---

١. الشدخ: الثقب.

٢. الأسلاف: جمع سَلَف، وهم المتقدّمون من الآباء وذوي القرابات.

٣. الأحزاب: ٤٠.

ويقول للناس: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ﴾[١].

ويقول في الأدعياء: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾[٢].

ونفذ قضاؤه ... وكان محمد هو الرائد علىٰ طريق التغيير.

* * *

زواج الرسول بزينب

بيان من عند ربّك جليّ، لا تخفىٰ منه خافية إلّا علىٰ عمي القلوب والبصائر قبل عمي النواظر والأبصار، نطق إلهي محكم، من لدن حكيم، تتجاوب فيه النتائج والمقدّمات كتجاوب الأصداء للأصوات، معالم كالأعلام تقود النفوس علىٰ جادّة الحقّ، وتهدي إلى سواء الصواب.

فما من خطوة إلّا بطريق، ولا من نظرية إلّا بتطبيق، ولا من قضاء إلّا بأداء.

وها قد انتفت العلل، فلزم انتفاء المعلولات، وامّحقت الأسباب فوجب امّحاق المسبّبات.

وهل يقوم علىٰ عدم إلّا معدوم؟ أوينبي علىٰ هباءٍ إلّا هباء؟

أمّا إذ أبرم الله حكمه ببطلان «الادّعاء»، فليس ثمّة مجال لبقاء آباءٍ مدّعين وأبناء أدعياء، لا حقَّ اليوم لمدَّعٍ في دعيّة، ولا لدعيٍّ في مدّعيه، لا حقّ أُبوّة علىٰ زيد لرسول الله، ولا حقّ بنوّة لزيد لدىٰ رسول الله ... بل أخ وأخوه في الدين، أو وليّ ومولاه.

* * *

---

١ . الأحزاب: ٤.

٢ . الأحزاب: ٥.

وأمّا إذ أبرم تعالىٰ حكمه في زينب، فانقطع ما كان بينها وبين زيد من رباط، وانحلت بالطلاق عقدة النكاح ... فلقد تحرّرت السيدة، وغدا من حقّها كأيّما امرأةٍ خالية الدخول في عصمة أيّما رجلٍ من المسلمين شاءت وشاء.

أفترىٰ أن ارتضت النبي زوجاً، وارتضاها زوجةً، لِيمَتْ ولِيمَ؟ ولماذا ملامة اللوّام؟ ماذا عليهما والحلال حلال؟

وهل هي إلّا امرأة كغيرها من النساء؟ وهل النبي، بالمقياس البشري، إلاّ كسواه من الرجال؟

أم حسب الناس أنّ ربّه يحرّم عليه ما يحلّ لعباده أجمعين؟

بل الله أعدل حكماً، أقوم شرعةً، أقسط نَصَفةً، لا يكيل لأحدٍ من خلقه بمكيال، ويكيل لآخر بغير هذا المكيال.

ويشتدّ الحرج علىٰ رسول الله، ومن وراء هذا الحرج عُرف أُشربته القلوب والعقول، وجماعات ألصق بماضيهم الحالك منهم بالحاضر المستنير، إنّهم ما زالوا يعيشون يومهم مع الأمس المقبور، يجمّدون الزمن في أحاسيسهم فلا يسير، ينفرون من النور نفور الخفافيش، يتعبّدون في محاريب آلهة الظلمة التي أقامتها لهم تقاليد الجدود.

❋ ❋ ❋

لكنّ الله يحسر[١] عن نبيّه ما هو فيه من ضيق ضاغط يكاد يكتم الأنفاس، ومن خشية ألسنةٍ تلفظ بِهَجْر القول، زارية على الرسول أن تزوّج بامرأة «ابنه» متبنّاه، ومن خوف قلوب سقيمة قد يجرّها تعصّبها الأعمىٰ لعرفها المنسوخ إلى انشطارٍ نفسي يودي بها إلى الازورار[٢] عن الدين.

ويحسم ربّك الأمر، في بيانه الرّباني يجمل ما كان بين زيد وزينب، وما كان من

---

١ . حسر عنه الشيء: كشفه عنه.

٢ . الازورار: الانحراف والميل.

موقف نبيّه منهما، ثم يُلقي عليه أمره المبرم، يقول تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ ويعتب عليه: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ ثم يقضي بقضائه الذي جعله به مثلاً وأُسوة، وجعله شرعةً للمؤمنين: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾[١].

ورُفع الحرج ... وطاب الرسول فكراً وعاطفةً.

وأفسح الله لزينب في رحاب كرمه، فآتاها من لدنه فضلاً عظيماً، بعيد المنال، عزيز المثال، رُقي بها إلى ما فوق الآمال، قضىٰ بقضائه أن تكون للرسول ... وزُفّت إليه، وأصبحت وأمست وهي إحدىٰ أُمّهات المؤمنين.

قيل: بينا رسول الله يتحدّث مع عائشة أخذته غشية، فلمّا سُرّي عنه ابتسم وقال: «من يذهب إلى زينب يبشّرها، ويقول: إنّ الله زوّجنيها؟»[٢].

وتلا أمر الله، وبعث بسلمىٰ خادمه، تحمل لزينب أحلى الأخبار.

تقول عائشة: فأخذني ما قرب وما بعد؛ لما يبلغنا من جمالها ... وأُخرىٰ هي أعظم الأُمور وأشرفها، ما صنع لها الله: زوّجها، تفخر علينا بهذا![٣].

أفغارت منها عائشة؟

وكيف لا تغار؟ إنّ الغيرة فيها خاصّة من خواصها النفسية مشحوذة، حديدة الشفرة قاطعة السنان.

وإنّ زينب لمن أثاله[٤] الشرف، وعزّة الشباب، وصولة الجمال، لفي علياء تندقّ دونها أعناق الغيارىٰ والحاسدات!

---

١. الأحزاب: ٣٧.

٢. رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٤: ٢٤.

٣. الدر المنثور ٥: ٢٠٢ ضمن تفسير الآية: ٣٧ من سورة الأحزاب.

٤. الأثالة: الأصالة.

فما بالك وقد أضاف لها ربّها مزيّةً رفيعة الشأن، إذ زوّجها رسوله بكلمةٍ قدسيةٍ نزل بها علىٰ قلبه الروح الأمين؟!

رأت العروس الجديدة ذات يومٍ في وجوه أترابها نساء النبي ملامح غيرة منها، وضيق بها، فقابلت ذلك منهنّ ـ جزاءً وفاقاً ـ بالمباهاة التي يتوقّينها، ولا يحمدنها، وربّما يحسبنها في الغرور!

ثارت بهنّ تثأر: أنا أكرمكنّ ولياً، وأكرمكنّ سفيراً: زوّجكنّ أهلكنّ، وزوّجني الله من فوق سبع سماوات!

وكانت زينب تعتزّ بزواجها هذا كلّ الاعتزاز، ولا تني تفخر أيّما فخار، كانت تقول لزوجها العظيم، وكأنّما تترنّم بأنشودة: يا رسول الله! ما أنا كإحدىٰ نسائك، ليست امرأة منهنّ إلّا زوّجها أبوها أوأخوها أو أهلها، غيري... زوّجنيك الله من السماء![1].

كذلك حقّت كلمات ربّك، جفّ المداد، ورُفع القلم، وكان مسك الختام!

---

١. طبقات ابن سعد ٨: ١٠٣، ويروي صاحب موسوعة الصحابيات: ٤٠٩ عن الطبري قوله: كانت تفخر على نساء النبي ﷺ وتقول:: «أنا أكرمكنّ ولياً، وأكرمكنّ سفيراً». فهي ابنة عمة النبي ﷺ دونهنّ، وقد زوّجها الله من السماء وكان جبرئيل ﷺ السفير في أمرها.

اللوحة الخامسة

اللّهم إنّهما منّي وأنا منهما

لا إكراه!

تلك صورة من صور الحريّة التي أباحها الله عباده من قبل أن تكون زينب، ويكون زيد، ويكون أيّما امرئٍ في هذا الوجود جرت في عروقه حرارة الوجود.

ففي قبالة المقدّرات القسرية التي لا حيلة في دفعها أو تعديلها لمخلوق ـ كالحياة، والنشأة، والموت ـ ثمة مقدّرات إرادية أُتيحت للبشر، لكلٍّ أن يمارسها بوحي ضميره، وهدىٰ تفكيره، ثم يمضي بها ـ عن رضىً وطواعيةً ـ متىٰ أراد، كيفما أراد، إلى حيثما أراد.

فإن أحسن فله، وإن أساء فعليه ... طلاقة مشيئات، حرية اختيار بين البدائل والأغيار منذ بدء البشرية كانت هذه الحريّة، إنّها مغروسة في طبائع بني آدم من خلال طبيعة أبيهم الكبير، في نفوسهم وضع ربّك بذرتها، كما في قلوبهم وضع معرفتهم لذاته، وإقرارهم بربوبيّته وهم في عالم الغيوب المحجوب لم يتمثّلوا بعد نطفاً من قطر ماءٍ مهينٍ تفرزه الأصلاب لتجنّه الأرحام في قرارٍ مكين.

قال ربّك لآدم بعد أن سوّاه بشراً، وخلق منه حواء: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ

وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾[١].

فأوشكت الإباحة أن تكون بلا حدود ... أمّا الخطر فمحدود.

الأصل الإطلاق، والفرع التقييد.

وهكذا امتدّت على «حيثية» المكان «وحيثية» الزمان مشيئة الإنسان، هكذا تراوح عيشه بين درجات الرغد، انفساحاً وضيقاً، على مقتضى غيّاته[٢]، واستجابة لمشتهياته، في نطاق حركة مسعاه، وسعة خُطاه.

* * *

نعم ... لا إكراه!

جرى هذا في وجدان «علي» مجرى اليقين، جال[٣] بخاطره وهو أمام محمد ينتظر منه كلمة الحسم والقرار.

أتراه سيقضي بأمره من وراء إذن الزهراء؟ أيكون ردّ بالرفض أم يكون بالقبول؟ بالنفي أم بالإيجاب؟

بل الرأي للفتاة ... ومسلك النبي عندئذٍ أولى بأن يكون الاستشعار وليس الإجبار ويدخل الرسول على ابنته خدرها، ليفضي إليها بما جاءها فيه: «إنّ عليّ بن أبي طالب ممّن قد عرفت قرابته وفضله وإسلامه، وقد ذكر من أمرك شيئاً، فماترين؟»[٤].

ويتلبّث هنيهة ... ثم يزفّ إليها الخبر الذي يعلم أن قد تهلّلت له الملائكة عند عرش الله كانت ألفاظه رقّةً وسماحةً، وكانت ملامحه رفقاً وسكينةً، وكانت نظراته بشراً وبسمات.

---

١ . البقرة: ٣٥.

٢ . الغيات: الفوائد والمنافع.

٣ . جال: دار.

٤ . أمالي الطوسي: ٣٩ المجلس (٢) ح ٤٤، بشارة المصطفى: ٢٦١ كلاهما عن الضحّاك بن مزاحم.

أمّا هي فقد غمرتها الطمأنينة، شاع في وجهها شفق الأصيل أغضت العينان، استراحت علىٰ وجنتيها الأهداب، وراء شفتيها استراح اللسان، خشعت الأطراف، ذاب كيانها كلّه في الحياء ... بمثل صفاء الندى العذري المتلألئ في أحداق السحر، لمع ناظرها بقطرتين كالدرّ: درّة هنا، ودرّة هناك.

قيل: سكتت من خجل، وكانت درّتاها المتألّقتان من رضا وبشر.

وقال متقوّلون: إنّما سكتت من دهشة وعجب، لأنّها لم تكن تصدّق أنّ أحداً يخطبها بعد أن قاربت العشرين!!

وإنّما دمعت عيناها من حزن وأسف أن سيسلّمها أبوها بهذا الزواج إلى من سيحييها معيشةً ضنكا[١]، هي الشظف[٢] والإملاق[٣] علىٰ غير ما تأمل فتاة تتطلّع في حياتها المقبلة إلى عشٍّ زوجيٍّ هو جنّة طيّبة الجنىٰ، شهيّة الثمار، ظلالها رغد ورفاهة وعيش رخي كريم!!

فهل أصاب أصحاب التقوال؟

العجب لهم كيف يقلبون المعاني، ويقلبون الأوضاع!

إنّهم يحبّون أن يروا ما يعيب، ولا يحبّون أن يروا ما لا عيب فيه[٤]، بل إنّهم ليرون ما يعاب فيما لا يعاب.

وإذا كان زواج فاطمة قد تأخّر إلى ما بعد الهجرة، فذاك لأنّ حياتها وحياة المسلمين بمكة لم تكن حياة أمن واستقرار، ولأنّ الدعوة الإسلامية كانت عندئذٍ في إبّانها، والرسول مشغول بنشرها عن كلّ ما عداها من الأُمور، ولأنّ الحال بمكة قد تبدّلت، فأصبحت خطبة المسلمات مقصورة على المسلمين وهم قلّة قليلة، إن دخلت في نطاق الآحاد فهي لا تتوغّل في نطاق العشرات!

---

١ . الضَنْك: الضيّق من كلّ شيء، يقال: مكان ضَنْكٌ، وعيشة ضَنْك.

٢ . الشَظَف والشَظاف: الضيق والشدة.

٣ . الإملاق: الفقر والفاقة.

٤ . فاطمة الزهراء والفاطميون، للعقاد (المؤلّف).

وإذا كانت الزهراء لم تملك دمعها عندئذٍ أن ينساب، فلا عن نفرةٍ من عليٍّ كان الانسياب، ولا من خشية إملاق في ظلّ زوجٍ مملق، وهي التي شبّت في حجر من أدار ظهره للدنيا، فأبى الذهب كما أبى الملكَ، فكانت أولىٰ بأن تسير سيرته، فلا ترنوا إلى يسار.

إنّما أخذتها الوحشة أن تفارق بهذا الزواج الأب الحبيب الذي لا تطيق فراقه.

ويهوّن عليها رسول الله ما تخشاه، فيقول: «ما أَلَيتُ أن زوّجتك خير أهلي»[1].

بل خير الناس! ويقول أيضاً: « ...أكثرهم علماً، وأفضلهم حلماً، وأوّلهم سلماً»[2].

فكأنّي به يرى القبول في عينيها، ويسمع قلبها يشدو بنبضات مرنة غناء، فينطلق عائداً إلى فتاه: «فهل معك شيء أزوّجك به؟».

إنه إذاً رضاء!

* * *

وقلّب «علي» في ذهنه الأُمور.

لو شاء ربّه لآتاه مثل أُحد ذهباً، فيثري دنياه، ويمهر فيغلي في مهر عروسٍ ليس كمثلها في العرائس، بمهرٍ ليس كمثله في الكنوز ... لكنّه سبحانه قدر عليه رزقه، أعطاه قطرات، ضربه للعاني والفقير ومن كادت تجفّ كفّاه مثلاً حيّاً ... يرسم للناس كيف يعيش من يطمح إلى نعيم الآخرة، مبتغياً وجه الله، وكيف يجب أن يحيا الإنسان قامعاً شهوة المال، قانعاً بأقلّ القليل، ليتجنّب مزالق البذخ، ومهاوي الترف التي تتردّىٰ فيها النفوس، وكيف يجدر بالمرء أن يقيم دعائم بيته الزوجي علىٰ

---

١ . خصائص أمير المؤمنين للنسائي: ٢٣٣ ح١٢٥ عن ابن عباس، الطبقات الكبرىٰ ٨: ٢٤ عن أُمّ أيمن، وراجع كنز العمال ١١: ٦٠٥ ح٣٢٩٢٦. وفي مصنّف عبدالرزاق ١١: ٢٢٨ ح٢٠٣٩٦ عن عكرمة بلفظ «أُنكحك» بدل «زوّجتك». وألَىٰ الرجلُ وألّىٰ: قصّر وترك الجهد.

٢ . مصنّف ابن أبي شيبة ٧: ٥٠٥ ب١٨ كتاب الفضائل ح٦٨، مصنّف عبدالرزاق ٥: ٤٩٠ ح٩٧٨٣. وسلماً: يعني إسلاماً.

أساسٍ من الحبّ والودّ والتراحم، وليس علىٰ قواعد من الفضّة والعسجد[١] وفاخر الأثاث والرياش.

لكأنّما شاءت قدرة ربّك لعبده الأولىٰ ظلال فضله، الراجي مرجآت نعمه، أن يسهم ـ وهو معسر ـ بنزرٍ[٢] من نصيبه المقدور المقتور، ليفسح في حياةٍ كحياته، وربما أعتىٰ ضنكاً[٣] وأبلغ شدّةً لغيره من إخوانه العانين والمحرومين.

فخير الإحسان ـ كقول الرسول ـ إحسان معسر إلى معسر ... فلكلٍّ من نصيب كلّ نصيب؛ لتصلح الأحوال.

حركة الحياة لابدّ أن تنطلق قُدماً إلى الأمام، نمو البشرية قضاء نافذ إلى أن تنشقّ الأرض، وتنسف الجبال، وتطمس النجوم، وتنفطر السماوات.

وتفكّر الفتىٰ مليّاً فيما سأله الرسول مراراً مراراً، خال السؤال يتردّد في مسمعيه أصواتاً مدوّيةً ورجع أصداء: «هل معك شيء أزوّجك به؟».

«هل معك شيء ...؟».

«هل ...؟».

فماذا عنده هو لو أنّه أحصىٰ «العنديات»؟

إنّ حظه منها معروف مكشوف، كمسافر في البرية كان يحمل كلّ متاعه في سفطين، علىٰ بعير، يمضي قاطعاً المسافات والمراحل في الزمهرير والحرور[٤]، يجتاز قرّة الليل كما يقتحم وَقْدة الهجير[٥]. فكلّ همّه بلوغ بقعة خضراء، ذات جنيّ وظلٍّ ظليل، تلوح له من بعيد عند حافّة اللامرئي المجهول.

وكان السفطان يتدلّيان، إلي يمينٍ وشمال، ككفّتي ميزان، لكنّهما يتباينان

---

١ . العَسْجد: الذهب.

٢ . النّزر: القليل من الشيء.

٣ . الضَنَك: الضيق والشدّة.

٤ . الزمهرير: البرد، والحرور: الحرّ.

٥ . وَقْدة الهجير: شدة الحرّ.

ولا يتكافآن: وسق سقط منهما قيم ومعنويات، ووسق الآخر نشب[١] من الماديّات.

أمّا الأول فكنوز إيمان: نصاعة[٢] ضمير ... فطانة ذهن ... فصاحة لسان قوامها سطوة بيان ... جسارة قلب تهابها الأهوال.

وأمّا الثاني: فمرقعة كالأسمال[٣]، تنكشف عند ذيلها المهلهل ركبتاه ... وجهد بدني يهدّ الجبال ... وسيف ما أكثر ما أثخن في جسد الشيطان ... ودرع يتّخذها دريئة[٤] حين تحتدم الوغىٰ[٥]، ويتسعّر[٦] القتال، لعلّها أن تحميه شرّ عادٍ لئيمٍ، أو طعنة نصلٍ طائشٍ وإن هو علم ـ يقيناً ـ ألّا منجاة من أمر الله إذا حمت لحظة القضاء.

لكنّها مهربة المكتوب من قدر الله إلى قدر الله!

بل كان لا يَني يدعو ربّه أن يفسح له في الأجل ليترّس بنفسه، قبل ترسه، عن دينه القويم، حتّىٰ ترتفع راياته، وتكتمل آياته، ويصبح وقد كسا وجه الدنيا بنضرة الخير والسلام.

فما زال الإسلام إلى اليوم كنقطةٍ لامعةٍ بين قتام[٧] الضباب، كخيطٍ رفيع من النور يتراءىٰ من وراء ركام الغمام وغياهب الظلام، كقوس الهلال الوليد!

بل كم دعا ربّه أن يرزقه الشهادة ... فالشهادة مبتغاه.

* * *

---

١ . نشب: نشأ.

٢ . النصاعة: شدة اللمعان، وهي كناية على الطهارة والقدسية.

٣ . الأسمال: جمع سَمِل، وهو الثوب الخلق البالي.

٤ . الدريئة: الجُنّة والمنعة.

٥ . تحتدم الوغىٰ: إذا اشتعلت نيران الحرب وارتفع لسانها.

٦ . يتسعّر: يلتهب، يشتعل.

٧ . القتام: الغبار الأسود.

وانتبه عليٌّ بعد لحظات من استغراقته تلك، على صوت حاضنه ومربّيه: «أين درعك الحُطَمِيّة[١]؟».

فأجاب: «هي عندي يا رسول الله».

قال الرسول: «فأعطها إياها»[٢].

وأمره فباعها بثمنٍ زهيدٍ... فما أرخصها، وما أغلاها أيضاً من صداق!

ما أرخصها في ساحة البيع والشراء! وما أغلاها في ساحة الجهاد والفداء!

وهل ثمّة شيء أثمن على امرئ ممّا يقيه الحتوف؟ أم ليست درعه ترمز إلى ما يحمي النفس من عدوة الهلاك؟

لكنّه هو لم يكن يبالي قطّ التقية في مواقع الصيال[٣]، فما درع تحميه، وما ترس[٤] تدرأ عنه، وما درقة[٥] تقية ضربات الأعداء ... هو الذي كان في ساحة الطعان يقي نفسه بنفسه، ليس فقط غائلة الموت بل غائلة العدوان، فصدره الترس، وكفّه الدرع، وذراعاه درقتاه ... تماماً كما يذود الليث عن عرينه وكيانه بالبرثن[٦] والمخلب والناب.

وفي خيبر[٧] ـ بعد سنين ـ عندما بعثه رسول الله ليفتح حصونها التي استعصى

١ . درع حُطَمِية: هي دروع منسوبة إلى بطن من عبدالقيس، يقال لهم: حُطَمة بن محارب، كانوا يعملون الدروع (النهاية ١: ٤٠٢).

٢ . السنن الكبرى ٧: ١٣٨، المناقب للخوارزمي: ٣٣٥ ف ٢٠ ح ٣٥٦.

٣ . جمع صَوْلة، وهي الوثبة في القتال، الجولة والحملة في الحروب.

٤ . الترس: الدرع وكل ما يتوقّىٰ به المحارب.

٥ . الدّرَقَة: الترس من جلود، ليس فيه خشب ولا عقَب.

٦ . البُرثُن: من السباع والطير: بمنزلة الإصبع من الإنسان.

٧ . خَيْبَر: موضع ورد ذكره في غزاة النبي الأكرم ﷺ، ويقع على مسافة ثمانية بُرُد من المدينة لمن يريد الشام. ويشتمل على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير، سكنها اليهود، وخيبر بلسانهم يعني الحصن، وقد فتحها الرسول ﷺ كلّها في سنة سبع للهجرة، وقيل: سنة ثمان، نازلهم رسول الله ﷺ قريباً من شهر، حتّى بعث علي بن أبي طالب ؑ فكسر باب حصنها الأول وتسمّى حصن ناعم، وقتل مرحب ضمن قصة مشهورة نقلها المؤرخون، ومن ثم تداعت باقي الحصن، فصالحوه على حقن دمائهم (انظر معجم البلدان ٢ : ٤١٠).

فتحها علىٰ غيره من صناديد أهل الإسلام، لم تكد درعه تغني عنه بعد أن تحطّمت تحت ضربات سلاح اليهود.

عندئذٍ ألقىٰ بها تحت قدميه، واستقبل أعداءه حاسراً[١] غير دارع، ثم راح يجول فيهم ويصول حتّىٰ قيّض[٢] له أن يخلع باب حصن «ناعم»، ويتّخذه درعاً تحمله يسراه ... ثم معبراً علىٰ خندق القلعة ينطلق فوقه ورجاله إلى مجنّة أعداء الله!

* * *

دفع الفتىٰ درعه مهراً ... ومضت «أُم سلمة» فاشترت بالدراهم جهاز العروس.

فأيّ جهاز؟!

لا رياش! لا زخرف! لا اكتفاء ... بل متاع قليل رخيص، لا يكاد يفي بما يقي الزوجين حرّ صيفٍ ولا برد شتاء.

فراش محشوّ بصوفٍ خام، وسادة من أدم بُطنت بليف، حصير ...، بضع أدوات للسقاء والغسل وطهو الطعام، قربة ماء، رحى لطحن الحبوب، قدر من نحاس، آنية من فخار ... وقبل هذا كلّه شيء من الطيب[٣].

وعندما آن الوقت لعقد الزواج، أمر رسول الله بلالاً: داعي السماء، فأذّن في الناس.

فلمّا اجتمع المسلمون ملبّين الأذان، خطبهم محمد فقال: «الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المطاع بسلطانه، المرهوب من عذابه وسطوته، تبارك اسمه، وتعالت عظمته، جعل المصاهرة سبباً لاحقاً، وأمراً مفترضاً، وأنتج بها الأرحام، وانتظم بها الأنام، وقال عزّ من قائل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُۥ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾[٤] ...».

---

١ . حاسراً: أي من غير ترس أو درع، خلاف دارع.

٢ . قيّض له: قدّر له، سبّب له.

٣ . المناقب للخوارزمي: ٣٤٢ ف ٢٠ ح ٣٦٤ بطوله، وانظر سنن ابن ماجة ١: ٦١٦ ح ١٩١١.

٤ . الفرقان: ٥٤.

ثم أضاف عليه صلوات الله وسلامه يعلن إبرام العقد، ويُشهد الناس: «إنّ الله أمرني أن أزوّج فاطمة بعلي بن أبي طالب: ابن عمي... فاشهدوا أنّي قد زوّجته بها ...»[١].

فارتضىٰ علي... وارتضت فاطمة.

وباركهما الرسول: «اللّهم إنّهما منّي، وأنا منهما، اللّهم كما أذهبت عنّي الرجس وطهّرني، فأَذْهِب عنهما الرجس وطهّرهما، وطهّر نسلهما»[٢].

فهل أحد من خلق الله أحبّ إلى الله من رسول الله؟

وهل دعاء أحقّ بالاستجابة من هذا الدعاء الذي ينساب ضراعةً[٣] هي ذوب قلب، وترتيله وجدان، تزدلف[٤] إلى لطف الرحمة، وعظمة الجلال، في لحظةٍ من لحظات التجلّي الإلهي على النبي في مرائيه وفي رؤاه؟

---

١ . المناقب للخوارزمي: ٣٤٨ ف ٢٠ ح ٣٦٤، مصنَّف عبدالرزاق ٥: ٤٨٨ ح ٩٧٨٢.

٢ . مصنَّف عبدالرزاق ٥: ٤٨٩ ضمن ح ٩٧٨٢.

٣ . ضراعة: سلاسة، انسياب.

٤ . ازدلف: اقترب ودنا.

الفصل السابع

- زفاف
- قلادة خديجة
- على عتبة الأُمومة
- كأنّه محمد
- على سفح أُحد
- سيوف في الأيدي الناعمة
- الحسن والحسين: نجمان نيّران

اللوحة الأُولىٰ

زفاف

أقبلت الحوادث رخاءً كنسمة ربيع على ثغر «المدينة»، ارتسمت بسمة عـذبة، تشعشعت لها الوجوه بالفرح، وانتشت القلوب بحميا الانتصار.

فلقد قهر الله أعداء الله، ضرب جبروت الطغيان، علىٰ ثرىٰ «بدر» نثر عتاة قريش أشلاءً، في «مكة» أقمأ[1] أهل الأصنام، عند مشارف «طيبة» أخسأ اليـهود، ولوىٰ أعناق المنافقين المنساحين في المجتمع الإسلامي الناشيء انسياح جراثيم العـلل في جسد وليدٍ لا قبل له بتجنيب نفسه نوازل خطرٍ داهمٍ يهمّ أن يسلمه إلى الفناء.

والذين من «حزب الله» يعرفون ذلك اليوم علماً مرفوعاً علىٰ طريق الله، يعيشونه ـ حتّى اللحظة ـ في شهر «الفرقان»[2] كلّما حال على الدنيا حول، واسـتدار عـام، عبرةً وعظةً وابتهاجاً يستعبدونه في الخواطر، تحدّثاً بـنعمة ربّـهم، يـطالعونه فـي صفحة الذكريات صورةً حيّةً للقاءٍ حاسمٍ علىٰ «ماء بدر» بين فريقين متخالفين في النوع والعدد والسلاح.

---

١ . أقمأ: قمع.

٢ . إشارة إلى معركة بدر الكبرىٰ التي وقعت في السابع عشر من شهر رمضان حينما تقابل أهل الإيمان مع قلّة العدد والعدّة مع أهل الكفر وهم بكامل عدّتهم وكثرة عددهم على بئر ماء بدر، وانتصر رغم كلّ ذلك أهل الإيمان بقوة العزيمة والإيمان اللذين كانوا يحملونهما آنذاك، وشكّل انتصارهم منعطفاً عظيماً فـي حياة الرسالة الخالدة.

جماعة المسلمين في قلّة نفرٍ غير ذات قوةٍ إلّا الإيمان، يقودهم النبي وأمامه رايتان سوداوان ... وجماعة أهل الشرك في كثرة أعداد ووفرة عتاد، وكماة وفرسان، يقودهم من قريش صناديدها ذوو الأثالة[١] في الحَسَب، والأيد في الطعان.

ودارت الرحىٰ... وحمي الدروان.

فلمّا انجلى النقع[٢]، دخل المدينة صاحبا رسول الله: عبدالله بن رواحة[٣]، وزيد بن حارثة، علىٰ ظهر ناقة الرسول، وانكفأ[٤] لون الطغام[٥] الأوغاد من المنافقين واليهود، علىٰ غير ما منوا الأنفس خذلتهم النتيجة التي ظلّوا يشعلون لها الشموع ويوقدون القناديل!

لكنّهم ـ جرياً وراء الأوهام ـ أشاعوا في البلدة أنّ محمداً قد قُتل، وتساقط رجاله مجندلين[٦].

وسرت شائعتهم في الناس سريان اللهب في هشيم[٧]، وأُخذ من حسرةٍ أهل الإسلام.

وكيف لا يُؤخَذون وقد سرت تلكم الشائعة فملكتهم، وثبتت في أخلادهم ثبوت حقيقة متبلّجة[٨]، يوشك ألّا ينكرها منهم إنسان؟

---

١ . الأثالة: الشرف والأصالة.

٢ . النَّقْع: الماء المجتمع، السيل.

٣ . عبدالله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري، من الخزرج، صحابي معروف، يعدّ من الشعراء الأُمراء الراجزين، كان يكتب في الجاهلية، وممّن شهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وكان أحد النقباء الاثني عشر، شهد مشاهد النبي ﷺ إلّا بعضها حيث استخلفه النبي ﷺ على المدينة، استشهد في وقعة مؤتة سنة ٨ هـ. (تهذيب التهذيب ٥: ٢١٢، حلية الأولياء ١: ١١٨).

٤ . انكفأ لونه: إذا تغيّر.

٥ . الطَّغام: واحده طغامة، وهم أوغاد الناس، والعامة تقول: أوباش.

٦ . مجندل: ممدّد على الأرض قتيلاً.

٧ . الهشيم: النبت اليابس المتكسّر.

٨ . متبلّجة: مشرقة.

وأنّىٰ له الإنكار وقد عادت الناقة بغير صاحبها نذيراً بمصرعه أقرب منها إلى بشير بالانتصار؟

* * *

لكن دعوى المفترين ما لبثت أن ذهبت مع انحدار شمس النهار، فما انقضت الليلة إلّا وقد دخل محمد وصحبه المدينة مرفوعي الرايات.

ثم لم تمض على النصر في «بدر» إلّا كسفه[١] من وقت لم تجاوز الشهر وما فوقه بقليل حتّىٰ هيّئ لفاطمة أن تستقبل يوم «البناء».

جمع بين نساء بني هاشم وأُخريات من السيدات مجلس حول أحاديث ودٍّ وتسرية، فتذاكرن أمر الزهراء.

قالت واحدة: ما بال علي بن أبي طالب لا يطلب زوجه من نبي الله؟

قالت ثانية: لعلّه يمنعه من ذلك حياؤه من الرسول.

فانبرت من بينهنّ إلى رسول الله حاضنته «أُم أيمن»، تلك السيدة التي يبرّها محمد برّ ولدٍ بأُمه، ولا تكاد تجترئ عليه بالمصارحة والرأي والرأي المفتوح غيرها من النساء.

وضربت عليه بابه ... وهشّ[٢] لها.

فلمّا أنست إلى إقباله عليها، تقدّمت فانتقت باللباقة وحسن الصياغة خير الألفاظ التي تحرّك فيه عاطفته، وتحيل كيانه سمعاً مصغيّاً، وقلباً ملبّياً، نبضاته نغم حلوة كأُنشودةٍ من حنان.

قالت له: يا رسول الله!

ثم دخلت إلى وجدانه من أوسع الأبواب: يا رسول الله! لو أنّ خديجة باقية الآن لقرّت عينها بزفاف فاطمة.

---

١ . الكَسْفة: القطعة من الشيء، المقدار القليل منه.

٢ . هش للشيء: إذا أَنِس به وارتاح له.

فابتدرت على الأثر عيناه، تدحرجت على وجنتيه قطرات عبرات، وارتدّت نظراته المغشاة بمثل الضباب إلى ماضيه ... ثم تردّدت أنفاسه همسات: «خديجة! وأين مثل خديجة؟!»[١].

ذكرىً ليس شيء أثمن منها في كنوز حصائل العمر، ولا أغلىٰ قيمةً في نفائس ما تكنّه الذاكرات، إعزاز لا يطاول مواطئه إعزاز، حبّ يعايش خفق القلب، ما بقي في النفس ذماء[٢]، وفاء ثابت الجدّة، دائم الخضرة، سرمدي[٣] البقاء، لا تبليه الأيام، لا ينتهي بنهاية دهر الناس، لا يفتأ يمتدّ على منبسط الوجود ليبلغ النشور، ثم يأوي إلى الخلود في رحاب الله.

فثمة لخديجة في العلّيّين مقامٌ كأسمىٰ مقام، ثمة بيت في الجنّة من قصب، لا صخب ولا نصب، بل سلام سلام.

* * *

ويؤوب الرسول من رحلة الذكريات، فيلقي إلى «أم أيمن» بنظرة لا تزال بها بقية من حزنه القديم الجديد، ولكنّها تحمل قبوله لما جاءت فيه.

ثم يمضي مشيئته.

نعم، آن الزفاف ...فإذا برحت المرأة ومعها الابتهاج، دعا إليه علياً فأمره أن يولم للناس، إنّه ليودّ أن تشاركه الدنيا في فرحه بالغالية الحبيبة، وإنّه من فرط الغبطة ليحسّ خفّةً في جوارحه، حتّىٰ ليبدو كمن يمشي علىٰ ماء.

ويغصّ[٤] بالوافدين المكان، من كثرتهم الكاثرة يكاد يضيق عنهم الهواء.

فكيف تكفيهم المآكل يكاد يضيق عنهم الهواء.

---

١ . المناقب للخوارزمي: ٣٥٠ ف ٢٠ ضمن ح ٣٦٤.

٢ . الذماء: البقية من الشيء

٣ . السرمد: الخلود.

٤ . يغصّ بالشيء: يمتلأ به.

فكيف تكفيهم المآكل التي أُعدّت لهم وهي توشك ألّا تفي بحاجة النفر القليل فضلاً عن أولئكم العشرات والعشرات؟

ويبتسم عن رضا وطمأنينة، فثقته في كرم ربّه بلا حدود، ودعوة إليه سبحانه كفيلة بأن تستنزل بكراته، فإذا صحاف الطعام ما يكاد ينتقص منها شيء حتّىٰ تعود فتمتلئ، ولا يكاد ما بها من صنوفٍ يغيض حتّىٰ تعود فتفيض.

وينادي الرسول الهاشميات، ونساء المهاجرين والأنصار: أن هلُمّ فاطمة فازففنها إلى بيت الزوجية!

ويؤتىٰ له ببغلته الشهباء، فيفرش علىٰ ظهرها قطيفةً، ثم يطلب إلى فاطمة أن تعتلي الدابّة المطهَّمة[1].

ويمضي الرَكْب ... من أمام يتقدّم سلمان الفارسي فيمسك بعنان الدابّة، يقودها على الطريق، ومن وراء يمشي الرسول بين «حمزة» و«جعفر» و«عقيل»، وطائفة آخرون من بني هاشم، مشهري السيوف، ويتبعهم الناس أرسالاً تليها أرسال.

* * *

على هينة وهوادة انطلق موكب العروس.

في الصدور سرور، في القَسَمات بسمات، في الخُطىٰ نشوة تجعل الحركات الفرحة أشبه برقصات.

حتّى الأُفق قد اصطبغ بلونٍ ورديٍّ بهيج، إذ أخذ الوقت يزحف وئيداً نحو الغروب ... علىٰ جانبٍ من السماء سحائب رقيقة شفّافة، تتهاوىٰ في رفقٍ وسنانٍ، فكأنّها ديباجات أعلام تداعبها خطرات النسيم، أو كأنّها أجنحة حمامات بيضاء ترفرف آناً مصعدة، وآناً محومة حول الموكب الكبير.

---

١ . المُطهّم: التام البارع الجمال من كل شيء، ومنه: جواد مطهَّم، أي تام الحُسن.

الشفق الذهبي ينشر وَمَضاته العسجدية[1] على المكان، الأرض تحته كبحرٍ طام، شعاعاته أمواج.

رَكْب «فاطمة» سفين يمخر[2] عباباً من قلوب هي الصفاء.

وتشدو الشاديات ... فبما يشعر الفؤاد يترنّم اللسان، وعن المشاعر السعيدة تترجم الأغاريد.

لكلّ أُغنية وقع، ولكلّ وقعٍ ترديد.

وها هي «أُم سلمة» تقود الترنيم ... على أوتار تغزف أحلىٰ نشيد لأحلىٰ عروس أحب من أقلّت الأرض وأظلّت السماء إليها من أُثنيات.

ترانيمها بشرىً ورجاء ... ورجاؤها ذكرٌ ودعاء ... ودعاؤها لحونٌ وغناء ... ومن ورائها تردّد الأُخريات مقاطع من أُهزوجتها[3] العذبة الشجيّة كرواجع أصداء.

تنشد السيدة:

قمن بعون الله جاراتي   واشكرنه في كلّ حالات

فتردّد صويحباتها:

قمن بعون الله جاراتي   واشكرنه في كلّ حالات

وتستمرّ أُم سلمة:

لقد هدانا الله بعد كفرٍ وقد   أنعشنا ربّ السماوات
وسرن مع خير نساء الورىٰ   تُفدىٰ بعمات وخالات
بنت الذي فضّله ذو العلا   بالوحي منه والرسالات

والرفيقات يردّدن مع كلّ بيتٍ صدر الأُهزوجة.

---

١ . العَسجد: الذهب، الجواهر المتلألئة.

٢ . مخرت السفينة: إذا جرت تشقّ الماء مع صوت.

٣ . الأُهزوجة: أحد أوزان الشعر، يُستعمل لرقّته وسهولته في الأغاني الشعبية.

ثم تنبري «عائشة» من بعده تنشد، والأُخريات يتبعنها علىٰ نفس المنوال، تهزج عائشة:

يـــا نســـوة اســـتترن بـــالمعاجر اذكرن ما يحسن في المحاضر

فتردّد الأُخريات:

يـــا نســـوة اســـتترن بـــالمعاجر اذكرن ما يحسن في المحاضر

وتواصل عائشة:

الحــــمد لله عـــلىٰ أفـــضاله والشكـــر لله العـــزيز القـــادر
سرن بها فالله أعـلىٰ ذكـرها وخـــصّها مـنه بـطُهر طـاهر

وتردّد رفيقاتها بعد كلّ بيتٍ صدر الأُنشودة

وتترنّم «حفصة»:

فـاطمة خـير نسـاء البشـر ومَن لها وجه كوجه القـمر

فتقتفي السيّدات أثرها:

فـاطمة خـير نسـاء البشـر ومَن لها وجه كوجه القـمر

وتمضي حفصة في الإنشاد:

زوّجك الله فـــتىً فـــاضلا أعني علياً، خير من في الحضر
فـــسرن جـــاراتـــي بـها إنّـها كـــريمة بـــنت عـظيم الخـطر

والسيّدات يتبعنها بعد كلّ بيتٍ فيهزجن بأول بيت

ثم تتقدّم «معاذة» الأنصارية منشدة:

أقول قولاً فـيه مـا فـيه وأذكـــر الخـير وأبـديه

فتنشد النساء بعدها:

أقول قولاً فـيه مـا فـيه وأذكـــر الخـير وأبـديه

وتتابع معاذة ما بدأت:

مـــحمد خـــير بـــني آدم مـــا فـــيه مـن كـبر ولا تـيه
بـــفضله عـــرفنا رشـــدنا فـــالله بـــالخير يـــجازيه

ونحن مع بـنت نـبي الهـدىٰ ذي شـرف قـد مكـنت فـيه
فـــي ذروة شـــامخة أهـــلها فـــما أرىٰ شـــيئاً يـــدانـــيه

وتعاود السيّدات إنشاد البيت الأول بعد كلّ فقرة.

وانساب موكب الزفاف بين جمهور أهل المدينة، من رجال ونسـوة وصـبيان، انسياب قارب متمازج الألوان، منشور الشراع، يتهادىٰ عـلىٰ وقـار وهـينة نـحو مرساه.

وكان المرسىٰ غرفة صغيرة أُعدّت لاستقبال العروسين مسكناً شاملاً يفي ببعض الوفاء بحاجتهما الضرورية.

فرشها رمل، في ناحية بسط إهاب كبش، في أُخرىٰ حصير هجري، في ثـالثة فراشان من خيش مصر، حشو أحدهما ليف، وحشـو ثـانيهما صـوف ... وسـرير ملفوف بشريطٍ من خوص.

هنا وهناك قطع من الأثاث وأدوات المنزل، تناثرت في أنســاق لا تـخلو مـن لمسات ذوق سليم.

ودخل رسول الله، تسبقه إشراقة محيّاه، علىٰ فتاته وفتاه.

فلمّا استوىٰ به المقام، وقد ضمّ العروسين بين جناحيه، أمر فجيء له بإناءٍ فيه ماء توضّأ منه، ثم نثر بعضه علىٰ رأسي حبيبيه وهو يتلو بخشوع من آي القـرآن، ويدعو ربّه لهما بخير الدعوات.

أفكانت تلكم القطرات المائية رمزاً لنشوء الحياة، وكانت دعواته رجاءً إلى ربّه أن يجسّد الرمز خلفاً طهوراً، ينحدر منهما في الأجيال؟

لكأنّ الأمر كذاك؟ ولكأنّه كان يرتّل بلسان وجدانه قول الله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1].

فلم يكن شيء أحبّ إليه من ذريّةٍ صالحةٍ بعضها من بعض، تخرج من حبيبيه

---

١ . الأنبياء: ٣٠.

الأثيرين، وتستمرّ فيهما حياته الظاهرية إلى يوم تذهب الأرض، وتنفطر السماء، وتأفل النجوم والشموس، وتنتهي دنيا الناس.

فها هو الماء! وها هو الدعاء! وها هي القدرة المأمولة الحقيقة وحدها بتلبية أيّ نداء.

فهل ثمة من هو أعلم من محمد بما يفعل، وأصدق فيما يقول، وأدنىٰ إلى تحقيق ما يأمل، وأولىٰ بأن يدرك ـ بشفّافية نفسه ـ أنّ ربّه غير خاذله، بل قاضٍ بلطف قضائه بأن يتفتّق لقاء الزوجين عن تحقيق أُمنيته فيهبهما السلف الصالح الكريم؟

وتعال فاشهده عليه الصلاة والسلام وهو يخرج بضراعته الراجية، وابتهاله الآمل من التلميح المومئ إلى الدعاء الصريح، انظره يرفع وجهه إلى السماء، وكيانه كلّه خشوع وسكينة كأنّه في صلاة، واسمعه يتّجه بكلّ أحاسيسه الصافية، وجوارحه المطمئنّة، إلى البارئ المبدع ـ نافخ الحياة في موات الصلصال، ومودع الأرواح الأشباح، يناجيه فتستغرقه المناجاة:

«اللّهم إنّهما أحبّ الخلق إليّ، فأحبّهما، وبارك في ذرّيتهما، واجعل عليهما منك حافظاً، وإنّي أُعيذهما وذرّيتهما من الشيطان الرجيم»[١].

وسمع الله حقّ الابتهال، تجسّد بشراً سوياً مع انطلاقة الأيام فتعالى البارئ المصوّر، جلّت قدرة القدير، سبحان من له وحده الوفاء بالدعاء، ونعم بعد هذا خلف لسلف آثره ربّه على العالمين، وحباه وإيّاهم الرضوان.

---

١. أمالي الطوسي: ٤٠ المجلس (٢) ح ٤٤ عن الضحّاك بن مزاحم.

اللوحة الثانية

قلادة خديجة

ظلّ همّ رسول الله، كلّما غدا أو راح، أن يبدأ يومه ويختمه بزيارة «الزهراء».

فهو يعودها مع إقبال كلّ صباح، ويودّعها مع أُفول كلّ مساء، وقته لها بعد الله، وحرصه عليها بعد حرصه على البلاغ.

وكانت الشقّة بين بيتها وبيته قصيرة، تحسب بالخُطىٰ والأقدام، ومع ذلك فحنينه إليها لم يكن ليرويه لقاء، وحنينها إليه كان كخيطٍ موصولٍ، يربط بين العين والعين، وبين القلب والقلب وإن تواريٰ ترامق اللحاظ ودبيب الخفوق وراء امتداد الأبعاد.

فلمّا بلغ حنينه إليها ـ على القرب ـ شأوه، واستبدّ بها حنينها إليه، علىٰ رنو البصر وقصر المسافات، ساقت إليه رغبتها المشوقة التي تفترس صبرها علىٰ بعده المحدود، مهيبة به ألّا تفصلها عن داره دار، ولا عن جداره إلّا جدار.

أملها أمله ... وشوقها شوقه.

حتّى إذا طال عليها مدى الوقت بمقياس الحسّ والشعور لا بمقياس السنين والشهور، والتوت الأيام أقواس أهلّة، واستدارت الأقواس فإذا هي بدور.

ثقل عندئذٍ على الأب وقْر حنينه، فمضىٰ إلى الغالية يقول: «إنّي أُريد أن أُحوّلك إليّ»[1].

---

١. طبقات ابن سعد ٨: ١٤ و١١٩.

فانبرى إليه قلب الزهراء، يترنّم بالشوق كنفثات ناي!

استقبلته بصوتٍ هادئٍ رقيق، حلو الغُنَّة، عذب الرنّة، كتغريد طائر صغير نفض لتوّه عن زغبه[١] ندى البكور!

قالت له: «فكلّم حارثة بن النعمان أن يتحوّل عني».

ومع أنّ جرس الكلمات كان يزغرد[٢] علىٰ شفتيها ويغرّد، فقد سرت عبارتها تلك علىٰ تردّد وتحرّز إلى سمع الرسول.

فهي تعلم أنّ الدار التي ودّت لو انتقلت إليها يقطنها حارثة، ويرىٰ في لزومه إيّاها الخير والبركة وشرف الجوار لوقوعها لصق دار الرسول ... وهي تعلم أنّ ثمّة لحارثة بالمدينة دوراً كثيرة لا يعيبه أن يبرح داره تلك إلى إحداها لو أنّه أراد ... وهي تعلم أنّ ما طبع عليه حارثة من سماحة، وما أثر عنه من أريحية، أخلق بأن يسرع به إلى تلبية ما تروم، لو طالعه رسول الله برغبتها، بإشارة لفظ أو إيماءة بنان.

لكنّها تعلم أيضاً أنّ أباها حليف حياء ... فلَكَم أكثر على الرجل في التحوّل! ولَكَم تنقّل في دياره من دارٍ إلى دار!

ولقد تحقّق هذه اللحظة حدسها، عندما ترجم الرسول ما يتحرّك في خاطرها من لغة الظنّ الخفيّ المكنون إلى لغة الصوت الجاهر المسموع، سمعته يقول: «قد تحوّل حارثة عنّا حتّىٰ قد استحييت منه»[٣].

فآوت إلى كهف الصمت! وماذا عساها تفعل أو تقول؟

لكنّ الغد تكلّم فأحسن الخطاب ... ما أن انقضىٰ صباح أو صباحان، حتّىٰ أقبل حارثة علىٰ رسول الله يضع بين يديه أُمنية الزهراء مغلّفة بالواقع المستيقن بعد أن تجرّدت من الأمل المظنون.

قال وهو خافض النظرة، مطمئن الفؤاد، لا أثر في نبراته لمنٍّ ولا مباهاة:

---

١. الزَغَب: أول ما يبدو من الشعر أو الريش.

٢. زغرد: ترديد الهدير في الحلق، ومنه: زغردة النساء في الأفراح.

٣. طبقات ابن سعد ٨: ١٤ و١١٩.

يا رسول الله، إنّه قد بلغني أنّك تريد أن تحوّل فاطمة إليك ... فهذه منازلي! وهي أسقب[١] بيوت بني النجّار إلى دارك، وإنّما أنا ومالي لله ولرسوله.

فاستضاء لمكرمة حارثة محيّا الرسول.

وأكمل الرجل: والله، يا رسول الله، إنّ المال الذي تأخذ منّي لأحبّ إليَّ من المال الذي تدع.

وأنفذ عزمه، وأخلىٰ داره ... وتحوّلت الزهراء إليها كما اشتاقت، وكما اشتاق قلب النبي الكريم.

وانتفت المسافة ... وتلاصق الجداران!

* * *

بعد القرب القلبي، بلغت الحبيبة أدنى القرب «المسافي» من الأب الحبيب، وغدت وهي تسمعه وتراه، فتنعم بلقياه ما أرادت وأراد، في كلّ نهار ومساء، لا يكاد يغيب عنها هيئة، أو يسكن صوتاً ما بقي بالمدينة لا يخرج منها إلّا للقاء ناءٍ، أو إلى غزاة.

ثم لم تلبث إلّا قليلاً حتّىٰ نعمت بجوار أُختها «زينب» التي كانت قد تخلّفت بمكة لم تبرحها مع المهاجرين.

بعد فراقٍ موحشٍ التقتا، وقد شطّ[٢] بينهما بالهجرة المزار، ونأت[٣] الديار عن الديار بضعة من الزمن بدت كأنّها حؤول، أو حولاً بدأ كأنّه الدهر الدهير.

فأيّ لقاء!

إنّه اللقاء الفيّاض بالحبّ والحنين فيضان نهر عظيم، لا يتمهّل انحداره، ولا يهدأ تياره، وهو ينصبّ انصباب السيل الجارف من أعالي الجبال، وهو اللقاء الذي أثابها فرحاً غامراً بحزنها العبقري الذي ما فتئت نفسها إلى اليوم تعانيه، وتعيش فيه.

---

١ . أسقب: أقرب وأدنى.

٢ . شطّ: بَعُد.

٣ . نأىٰ عنه: ابتعد عنه.

كان حزنها نابغي الآلام، منذ الصبا المبكّر اكتسته شوكاً، مشته رمضاء، لا كته مرّاً، نشقته لفح لهيب.

وها هي الآن، وقد خايلها الزمن ببسمة خافتة، تعود فتسمعه عويلاً تشيّع به النائحات «رُقيّة» أُختها الحبيبة، في رحلتها إلى مرقدها الأخير، فإذا هو عندئذٍ ولولة تختلط بهتافات أهل المدينة، ونواح يمتزج بتهليلهم وهم يحتفون بنصر «بدر» الكبير.

ففي نفس وقت التغنّي بالفلج على الأعداء، كان قبر الفقيدة الغالية مفغور[1] الفم يتهيّأ لالتقام جثمانها الطاهر، مفتوح الذراعين يهمّ أن يستقبلها بالأحصان!

فيا لبدر!

يا له من يومٍ في حياتها، جبّار الحزن، وهّاج الابتهاج! إنّه يضمّ الضدّ إلى الضدّ، والنقيض للنقيض.

عاشته فرحة وحسرة ... بسمة وعبرة.

بحسّها الإيماني: كان تحوّلاً حاسماً في مسيرة الإسلام، لوىٰ عنق الأحداث، فيه انشدخ[2] جبروت الأصنام، تمرّغ أنف الشرك في الرغام[3]، ذلّت قوة العتاة، عزّ وهن المستضعفين، ارتفعت راية التوحيد حتّىٰ لتُرىٰ ـ عبر الفراسخ والأميال ـ من موقع المسجد الحرام.

وعلىٰ أرض المعركة اجتمع النصر والهزيمة، التقى نشيج النعي بفرحة البشير، تداخلت الأصوات والمرثيات، فإذا ما يُشهَد مسموع، وإذا ما يُسمَع مشهود.

في هذا الجانب المؤمن: بشاشة الوجوه، تهليل وتكبير ... في ذاك الخاسر، هدير العويل، أموات بغير أكفان!

---

١ . فغر فاهه: فتحه.

٢ . انشدخ: انكسر.

٣ . الرغام: الطين الأسود.

وبحسّها العاطفي: فإن بشرها عبوس، استضاءة محيّاها دموع، نظراتها جوفاء. أقد انطفأت الشمس، أم غرق القمر في المحاق، أم حشا ناظريها سواد؟

* * *

غير أنّها ـ إذ التقت بزينب ـ تبدّلت هيئة بهيئة، وإحساسها بإحساس، تغيّرت مظهراً ودخيلة، زايلتها الوحشة، عاودها الأنس.

اللقاء البهيج رجع بمشاعرها القهقرىٰ إلى حيث مراتع الذكريات ... حيث العشّ الهادئ بجوار الكعبة الغرّاء، حيث الدار التي أصبحت بعد أهلها خواء[1] وإن هم تركوا فيها بصمات ستتحدّث عنها الجدران، ويعيها الزمان ما بقي زمان!

إلى عهد الطفولة الحلو الذي عاشته إشراقة بسمات ورنين ضحكات، إلى البال الخلي، إلى الأمن والطمأنينة وإشراقة الآمال.

فما أحبّه إلى نفسها من لقاء!

إنّه ليس ردّه بعجلة الحياة للوراء، ليس وقفة علىٰ حافّة الجمود، ليس عيشاً في زمن رثيث[2] مهجور.

ها هي مرة أخرىٰ في خضرة العمر، في نضرة العيش، والدنيا فجر وندىً وزهر.

فإن يكن امرؤ يرىٰ ذلك كخطوة إلى أمس للوراء، أو يظنّ أنّ الحياة مزق وقطائع: الماضي مزقة، والحاضر مزقة، والمستقبل مزقة كلّها على انفصال لا على اتّصال، فإنّ رأيه إذاً قد خاب، لأنّ الحياة وحدة مكتملة تجمع ما غبر إلى ما حضر إلى ما سوف يكون ... إنّها سلسلة من حلقات موصولة، تفقد ذاتها بالانفصام، استمرار واستطراق.

واجتماع الأُختين عندئذٍ علىٰ ساحة الادكار، هو لقاء فوق أرض الحاضر، يضمّ أجمل ما انطوىٰ في أمس راحل، وأعظم ما سينجاب عنه غد مأمل.

---

١ . خواء: خالية.

٢ . الرثيث: المهجور، المجروح.

رنوة ثاقبة إلى الأمام، صحوة كانتفاضة الروح في جسد جنين يتهيّأ لساعة المخاض، بعث لفترةٍ خلت، في ملاكها مثل عصا موسىٰ بن عمران، وملكات السيد المسيح التي حقّقت جميعها الخوارق والمعجزات، إحياء لغابرٍ ذاهبٍ، يردّ الغائب، ويحيي الرميم، ويعيد العمار إلى الخراب، كما يهزّ ركود الخامد، ويقيم دوارس[1] الأطلال، ويرفع القواعد على الرسوم والآثار ... فإذا هذه وهاتيك أشباح يدبّ فيها نبض الحركة، فتلهم التغنّي بأُنشودة الوجود، وتؤتى القدرة على النموّ فترتفع قصوراً شامخة، وصروحاً شمّاء ذات عماد وأوتاد.

وكان من أمر زينب ما رأت فيه الزهراء، ورأى التاريخ، أروع مثلٍ للحبّ والوفاء، يعز عن الشبيه والنظير، ويسمو بكماله علىٰ كلّ مثالٍ افتتنت في نسجه أخيلة الأساطير.

فما الذي كان؟

قيل: وقعت الواقعة عند ماء بدر، بين حفنةٍ من المؤمنين وبين أضعافهم من الكفّار ... فلمّا هدأ صليل السلاح، وسكنت الجعجعة[2]، وانجاب النقع عن ميدان الموت ... كان الله قد كبت أعداءه، وأعزّ جنده، وحبا حزبه القليلين نصراً مؤزّراً في مضمار الوغىٰ وساحة النزال.

فلقد شاعت القتلة في طائفةٍ كبيرةٍ من أتباع الشيطان، وأثخنت آخرين الجراحات، وملك الهول زرافات منهم، فركنت إلى الفرار، تلتمس في متاهات الصحراء ومفاوزها مسارب للنجاة، ووقعت جماعات في الأسر حبيسي قيود وأغلال، يساقون إلى المدينة مساق الدوابّ.

وتجلّلت مكة الحداد ... ففي كلّ قلبٍ لوعة، وفي كلّ عينٍ دمعة، وفي كلّ بيتٍ قتيل، وفي كلّ أُسرة يتيم.

---

١ . الدوارس: البقايا من الآثار البالية.

٢ . الجعجعة: أصوات الجمال إذا اجتمعت، وتستعمل لكلّ صوت ضوضاء حادثة، وأكثرها في الحروب.

من عجب أنّ سادة قريش علموا بهذا الذي حدث قبل أن يحدث، ثم أبىٰ عليهم الغرور أن يجتنبوه.

اقتحموه! اندفعوا مع الصلف والحماقة فكان هذا المصير المحذور.

وتحقّقت عندئذٍ رؤيا عاتكة بنت عبدالمطلب التي شاء «أبو جهل» زعيم القوم أن يعيرها أُذناً صمّاء، ويلقاها بالسخرية والازدراء.

قيل: رأت عاتكة[1]، قبيل بدر، في منامها ما روّعها، ملأ نفسها فزعاً، وقلبها هلعاً أن يحيق بقريش مكروه لا تكاد تسلم من شرّه دار ... فانطلقت مذعورة مع الصباح بحلمها المروّع إلى أخيها العباس.

قالت له: يا أخي، رأيت الليلة رؤيا أفظعتني، وإنّي أتخوّف أن يدخل منها علىٰ قومك شرّ.

فأقبل عليها بكلّ وعيه يستنبئها الخبر: وما أفزعك؟

قالت: فاكتم عنّي أُحدّثك.

ـ أفعل.

ـ رأيت راكباً أقبل على بعيرٍ له حتّىٰ وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا آل غدر إلى مصارعكم! فأرى الناس اجتمعوا إليه.

واضطربت منها الأنفاس كأنّما من لُهاثٍ[2] ملأ رئتيها بلفح[3] السموم وهي تركض صديانة[4] وقت الهجير، عبر الصحراء، من سرابٍ إلى سراب!

واستطردت تقول: ثم أخذ صخرةً فأرسلها، فأقبلت تهوي، حتّىٰ إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت، فما بقي بيت من بيوت مكة، ولا دار إلّا دخلتها منها فلقة[5].

---

١ . عاتكة بنت عبدالمطلب بن هاشم، من عمّات النبي ﷺ، كانت تجيد الشعر، كانت يوم وقعة بدر بمكة، قال ابن سعد: أسلمت بمكة وهاجرت إلى المدينة. (طبقات ابن سعد ٨: ٢٩).

٢ . اللهاث: التوجّع والاستغاثة.

٣ . اللفح: الحرقة.

٤ . الصديان: العطشان عطشاً شديداً.

٥ . البداية والنهاية ٣: ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

وتجهّم العباس، داخله الشُؤْم، ملكته الحيرة، خنقه الضيق.

أفيكشف لقومه عن رؤيا عاتكة، أم يحبسها وراء شفتيه وإن عقله ليكاد يحدّثه: إن هي إلّا أضغاث أحلام؟

لكنّه بدا حليف قلق وبلبال، أحسّ كأنّه شواء في سفود[1] يقلّب علىٰ جمر الاضطراب! ولم يستطع صبراً على الكتمان، فانطلق يهمس بالرؤيا في ذهن هذا وذاك من رفاقه الأشراف ... وبلغ النبأ أبا جهل، فجاءه وهو في بعض أهله، يسعىٰ إليه سعي الحانق المغيظ، قد احمرّ أنفه، ونفر ودجه[2]، وبرزت حدقتاه ثم صاح فيه وفي من حوله بكبر واستهزاء: يا بني عبدالمطّلب! أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتّىٰ تتنبّأ نساؤكم! فليته وعىٰ! إذن لما ركب خيلاءه الحمقاء، لما مضىٰ إلى ماء بدر، لما تهاوت به والذين تابعوه الآجال فمزّقتهم السيوف، وغالتهم الحتوف، وتوطّأت لهم منازلهم هناك قبوراً غير ملحودة تحت مواقع الأقدام!

وعندما وقعت الواقعة، وبلغ مكة الخبر، جنّ جنون سادة قريش الذين أتخمهم الصلف[3]، بعد إذ هاض[4] الكبر، وذلّت الكبرياء، وأقبل بعضهم علىٰ بعضٍ يتلاومون.

لكنّهم سارعوا إلى فداء أسرارهم، وأمهروا حريّاتهم بكلّ ثمين، وانطلقت البعوث من لدنهم إلى المدينة، يبتاعون بالذهب ما أهدر الغرور.

* * *

وقيل[5]: ضاعفوا الفدىٰ أغلوا لحريّات أسراهم في المهور.

وكان من بين المبعوثين: عمرو بن الربيع، أوفدته زينب بنت محمد، ليفتدي زوجها

---

١ . السفود: الحديدة التي يُشوىٰ عليها اللحم.

٢ . الودج: عرق في العنق.

٣ . الصَلَف: التمدّح بما ليس فيه، والادّعاء فوق ذلك إعجاباً وتكبّراً.

٤ . هاض: انكسر بعد الجبر.

٥ . البداية والنهاية ٣: ٣١٢، الطبقات الكبرىٰ ٨: ٣١.

أبا العاص، وتقدم الوافد إلى رسول الله، قال: بعثتني زينب في فداء زوجها فهاك!

ووضع ثمن حريّة الأسير بين يدي الرسول.

أفهذه الفدية تناسب ما عليه أبو العاص من يسار؟! إنّها صُرَّة صغيرة، لا تكاد تثير الانتباه ... إن نُظرت تضاءلت مظهراً: وإن قُوِّمت خسّت ثمناً، وإن وُزنت خفّت ثقلاً.

وتأمّلها النبي لحظات، ثم حلّها ليرىٰ ما تحتويه.

أتراه حلّ عقدتها ليعقد جبينه؟!

علىٰ الأثر كسا الحزن محيّاه، غامت عيناه، بالألم نبضت قسماته، فوق الأناسي والأشياء، بعيداً بعيداً عن الموجودات، عرج به شعوره في سماء ماضيه.

فما لزفيره وشهيقه يستبقان؟

لكأنّما مشى شهراً، وجرى عشراً، وقطع المراحل والمسافات وما هدأت له قدم، ولا استراح جنب، ولا استقرّ به مقام.

وما لهاتين الدمعتين المتألّقتين علىٰ أهداب جفونه تثبتان، فلا تنحدران علىٰ وجنتيه ولا ترقآن.

في هذه اللحظة تجلّىٰ في محمد الرسول محمد الإنسان، المشاعر البشرية الرفيعة هي التي أخذت تصوّر خلجاته النفسية بكلّ الوضوح، وتتحدّث في فيه ببيان بليغ لم تنفرج عنه شفتاه هو بالصمت أبلغ منه بالكلام.

فلم تكن الفدية في الصُرَّة إلّا قلادة لخديجة كانت أهدتها إلى ابنتها زينب وهي عروس تُزفّ إلى أبي العاص.

كان فيها من ريح الغالية التي رقدت منذ سنين في ثرى الحجون طيب يعطّر الأجواء، وكان لخشخشة حبّاتها في يده، وهو يداعبها بأصابعه مثل رنّات ضحكات الشباب الذي غاب.

فأيّ فديةٍ ثمينةٍ هذه في الفدى التي جاءت من مكّة لفكّ أسر النخبة من قومه الذين أخرجوه؟ أيّ ثمنٍ لحريّة أبي العاص هو أغلىٰ قيمةً من هذه القلادة التي تُثمَّن فلا يكافئها مال؟

لو أنّها قورنت بكنوز قارون لخسّت كنوز قارون! ولو أنّها عويرت بمثل أُحد ذهباً لرجح بها الميزان!

كفىٰ أنّها هدية خديجة.

فقيمة الشيء المهدىٰ ليست بعنصره إنّما بقيمة مهديه، ليست في ذاته بل بقدر ما يبعث في النفس من حلاوة الذكريات.

وتأثر رسول‌الله ... فإن تفدي ابنته زوجها بهدية أُمها الحبيبة يوم العرس، لهو الفداء أغلى الفداء، وهو قمّة الوفاء للأسير، وهو سموّ بمقام زينب، وسموّ بقدر أبي العاص.

وحمل محمد معه تلك النفحة من ذكرياته، ومضىٰ يحدّث الناس من سويداء قلبه الكبير الكسير، فلعلّ حنانه سبق لسانه وهو يقول: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردّوا عليها مالها، فافعلوا ...»[١].

فأخذتهم رقّته إلى الاستعبار! وقالوا له: نعم يا رسول الله.

وعلى الأثر انتحى الرسول بأبي العاص ناحيةً، يسرّ إليه كلمات تلقّاها الفتىٰ بالقبول، وبوعدٍ قاطعٍ لا حنث فيه.

فإن هي إلّا سويعة حتّى انطلق الأخوان: الأسير والوافد، علىٰ طريق مكة، وثالثهما الحريّة.

فما أن بلغا غاية السعي حتّىٰ هيّأ أبو العاص زوجته للرحيل، ثم مضىٰ فشيّعها بعض الأشواط.

لقد ترجم الرجل السرّ إلى فعل، وفىٰ بوعده الذي قطعه للرسول ... وعمّا قليل تصل زينب إلى المدينة، لتلحق بأبيها وبالزهراء.

ثم كان اللقاء ... إنّه لقاء سبقت فيه الأشواك الأشواق، وتعالىٰ همس الأنين علىٰ ترنيم الألحان.

---

١. رواه أحمد ٦: ٢٧٦ (مسند عائشة)، سنن البيهقي ٦: ٣٢٢.

اللوحة الثالثة

علىٰ عتبة الأُمومة

التقت الأُختان ... التقتا فإذا هما قلبان يتعانقان من وراء غـلافيهما الجسـديَّين ليمتزجا عاطفةً بعاطفة، ووجداناً بوجدان.

لكن ... ليست هكذا كانت زينب مظهراً وهيئةً يوم وقع الفـراق مـن سنتين أو ثلاث سنوات، يكاد شعور الزهراء يوحي إليها أنّ في أختها الكبيرة شيئاً تغيّر وإن هي أبدت من حنينها المستبشر، ومن هدوئها المطمئنّ ما ينقّيها من كلّ إحسـاسٍ بالألم والقلق وشرود البال.

إنّ طلوع الوافدة الحبيبة عليها لأدنىٰ صورة من بشاشة الأُفق الرائق في نـهار ربيعي، نسيمه رقّة، وسماؤه صفاء، لولا غيمة عابرة كدرت جانبه بمسحةٍ من ظلالٍ تراكمت فإذا هي كعتمة الغسقّ المغير على النور.

إنّها كضحكة مغنّة عدا علىٰ رنينها أنين أو كإشراقة تغلّلت بسهوم الوجـوم، أو كشمعة تنشر الضياء وفي دخيلتها يقين بأنّها تذوب.

كانت كذاك!

فعلىٰ صفحة وجهها المتهلّل سطور أوجاع، وفوق جبينها المتألّق شيات قطوب، وتحت إهابها يترقرق الشحوب، وفي مشيتها إعياء.

أفكانت تحمل نفسها علىٰ أن تخفي عن أبيها وأُخـتها شـيئاً تـعانيه، فـتستره

بالكلمة الحلوة، والبسمة العذبة، وبالفرار منه إلى طريق بعيد، لا يعرج عليه، ولا يلمّ بذكره ولو بلمحة لحظ أوبمجاجة لسان؟

لا جدال.

فلم تكن تسترسل على السجيّة ... لا بالكلام ولا بالخلجات.

كانت تتحفّظ، كأنّما لكلّ كلمة عندها لجام، ولكلّ خلجة عنان.

فهي تتحدّث بحساب، وتضحك بمعيار، تصطنع البشر، تكتم الألم، تكبح الإحساس، تقسر عينيها على ابتلاع الدموع!

غير أنّ مشاعر الأُبوة الملهمة كان لا يعييها اكتناه الخفاء، وطبيعة الأُنثىٰ في فاطمة كانت تهمس لها، في قرارة النفس، بما حاولت زينب ستره عن العيون والآذان.

فلماذا الكتمان؟ وسألتها الزهراء ... ولعلّها ألحفت في السؤال.

فهل تجيب؟

لكأنّي بها تؤثر أن تظهر السعادة، فتضنّ[١] بجوابٍ تخشىٰ أن يخدش بالأسىٰ قلب الصغيرة العزيزة، ويضيف إليه هماً جديداً فوق ما يحمل من هموم وآلام.

غير أنّ أحاسيسها ما لبثت أن تفجّرت علىٰ شفتيها الباهتتين، وفي عينيها الحزينتين، شجواً من أنّات وعبرات.

وكان حديث.

* * *

ورأت الزهراء نفسها في ذلك الحديث.

كما طارد المشركون فاطمة عند خروجها من مكة مهاجرةً، طاردوا أُختها الكبرىٰ زينب عند خروجها ـ في رحلتها هذه ـ من البلدة الحرام إلى مدينة الرسول، منذ بضعة أيام.

---

١ . ضنّ بالشيء: بخل به، تمسّك به.

مرّة أُخرىٰ يعود إلى الحياة «ابن نقيذ» آخر في إهاب «هبار»، ويقف أبو سفيان نفس موقف أبي جهل، فيسلك مسلكاً أقلّ ما يوصف به أنّه مناقض للمروءة وحقوق الجوار، فضلاً عن رعاية صلات الأرحام فلقد بلغ أبو العاص بن الربيع مكة بعد تحرّره من الأسر، وهو موفور، وبادر ما وسعه البدار، فهيّأ امرأته للرحيل إلى المدينة؛ وفاءً لعهده الذي عاهد عليه حماه الكريم.

فما كان له إلّا أن يفعل بعد أن فرّق بينهما الإسلام بعد تحريم المسلمات على المشركين.

وانطلق الرجل معها فشيّعها مرحلةً، ثم عهد بركبها إلى أخيه « كنانة بن الربيع» ليبلغها مأمناً تلحق منه برسول الله.

فلمّا قطع الركب بعض الطريق، فوجئت زينب وكنانة عند «ذي طوىٰ» بكوكبةٍ من لئام قريش، في السلام، يقطعون عليهما السبيل.

قيل: وكما كان أبو جهل وراء مطاردي فاطمة، وعلىٰ رأسهم «جناح»، كان وراء أوغاد ذلك اليوم أبو سفيان.

وقيل: بل كان فيهم لينظم بنفسه حركتهم، ويرقب عن كثب انقضاضهم على «الفريسة»!

ولقد كان من سفه هذا السلوك من شيخ قريش أن تحرّك لسان زوجته «هند» بالقدح فيه.

قيل: أخذت عليه فعلته وفعلة رجاله هؤلاء، فعابته وإيّاهم، ورمتهم بشعرٍ يخزيهم، ويضعهم من الخسّة حيثما ينبغي أن يوضع أمثالهم في مراتب الجبن والصغار.

همجتهم تقول وهي تعيّرهم بهزيمة بدر:

أفي السِلْمِ أَعيار جَفاءً وغلظةً ... وفي الحربِ أمثال النساءِ العَوارك؟

وكيفما كان دافع المرأة إلى هذا الهجاء المستغرب منها في ذلك الوقت، فلقد تكرّر مع زينب عند ذي طوىٰ نفس المشهد الذي رسمته الأحداث من قبل، نهار هجرة الزهراء.

تقدّم «هبار» وفريقة يحاولون ليّ مسيرة الركب، والعودة به إلى مكة، لأنّ كرامة قريش ـ في شرعتهم الملتوية ـ قد خُرقت، إذ غادرت زينب بنت محمد بلدتهم، نهاراً جهاراً، علىٰ أعين الناس.

ففي خروجها هكذا خدش لكبرياء أهل الشرك المستعزين بجبروتهم الموهوم، وفي سكوتهم عنها هوان لهم بين العرب، لاتفتأ تتحدّث بـه الألسـنة العـيّابة فـي المجامع وأندية السمار، وفي تخليتهم بينها وبين وجهتها عار عليهم، وأيّ عار!

وتلك حجّة خاسرة في منطق المروءات ورجولة الرجال لدىٰ من لهم مسكة من إدراك، أولياءً كانوا أو أعداء.

لكنّنا، مع هذا، نسمع من ينقل إلينا[1] أنّ أبا سفيان يبرّر فعلته تلك، فيقول لكنانة بن الربيع: خرجت بالمرأة علىٰ رؤوس الناس علانيةً، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا يوم بدر من محمد، فيظنّ الناس أنّ ذلك عن ذلٍّ أصابنا، وعن ضعفٍ منّا ووهن ... إنّك إذاً لم تصب يابن الربيع!

فهل هو الذي أصاب؟ بل قد زاغ عن الصواب!

وفيما فعله وشرذمته تلك إهدار لكلّ قيمةٍ خلقيةٍ، ولكرامته هو قبل غيره مـن الناس.

ذلك لأنّ العزّة في ذلك الموطن هي بحفظ الحرمات، وبالتعفّف عن الإيـذاء لا بالإيذاء، ولأنّ ما وقع يومئذٍ تحت عينه أو علمه زلّة، لا يـحمد عـلىٰ مـثلها أهـل الصغار، فضلاً عن ذوي الأقدار.

* * *

تماماً أصاب زينب في ذلك اليوم ما أصاب قبلها الزهراء.

بنذالة «هبار» وطغمته، صُدّت كبرى الأخوات النـبويات عـن الانـطلاق، كـما

---

١ . بنات النبي ﷺ: ٩٩، موسوعة حياة الصحابيات: ٤١٩.

صُدّت صغراهنّ بنذالة «جناح».

نشط اللئام إلى ردّها القهقرىٰ على الطريق، ووقف «كنانة» دونهم بنبله، يتهيّأ لرشقهم بالسهام، لكنّ الخسّة أبت علىٰ «هبار» إلّا أن يقهر الركب المرتحل على العودة.

علىٰ حين غرّة نخس[1] الجبان بعير الراكبة، فجفل[2] يركض بها، خابطاً خبط عشواء، يلوذ بالجموح ... وفي لمحة خاطفة طوّحت[3] الجفلة المفاجئة بزينب عن الظهر لتتلقّاها صخرة بكلّ ما فيها من صلابة وقسوة، فإذا هي على الأرض غريقة في الدماء.

ولم تدمَ السيدة من جراحٍ في ظاهر البدن، إنّما دُميت من داخل جوفها المستور، فلقد أجهضتها السقطة العنيفة جنيناً، عاش من عمره الرحمي بضعة أشهر، وكان ينتفض بالحياة تحت عين الأُمومة الدامعة حتّىٰ نضبت منه معين الحياة علىٰ مهاد الرمال.

* * *

واختلطت العبرات بالعبرات وبكت الأُختان ما نزفت مآقيهما الحزن والألم والفجيعة قطرات.

في كلّ حرف من كلمات زينب، كانت فاطمة ترىٰ دمعةً تتألّق كمرآة يتراءىٰ علىٰ صفحتها المصقولة خيال الحسرة.

ومع كلّ نبرة من جرس ذلك الصوت الحزين، الذي يخنقه لهاث التفجّع وتأوّه الأنين، وبما كانت تحسّ في جسدها هي مثل أثر نخسة «هبار» يزاحم علىٰ جرحها القديم أثر نخسة سيف «ابن نقيذ».

---

١ . نَخَس الدابة: وخزها بعود ونحوها في جنبها أومؤخَّرها فهاجت.

٢ . جفل البعير: إذا نَفَر وشرد.

٣ . طوّح بالشيء: رمىٰ به أرضاً.

ربّما عابثتها الظنون.

فماذا لو وقع لها الآن نفس ما وقع لأُختها، فلفظت بطنها الجنين الذي يضطرب بالحياة، قبل أن يستكمل شهورة الباقيات؟

ذاك كابوس مروّع يغوص بوعيها الأُمومي أعماق الخوف ... لكـنّها اسـتعاذت بالله، كلا، لا رَوْع! ثقتها فـي لطـف ربّـها هـيّأتها للـطمأنينة، للاسـتسلام راضـية للمكتوب.

ففي يد الله وحده الموت والحياة، إذا أراد سبحانه فلن يكون غير ما يريد ... وهي أحرىٰ بأن تنتظر صابرةً كلمة القضاء.

* * *

رويداً رويداً أخذت الظنون السوداء تنقشع[1] عن سماء الزهراء، قوة غامضة لم تكن تعرفها من قبل، كانت تقتحم قلبها المتوجّس[2]، فلا تزال تتناوله بريشة التفاؤل والرجاء والسكينة فتطمس قلقه، وتضفي عليها اللون الوردي الذي تتمثّل في زهائه فرحة الاستبشار.

إلى جوار دقّات قلبها كانت تسري دقّات جديدة هامسة، تعلن عن حركة الحياة في قلب سا كن حشاها الجديد.

كلّا، ما هي بدقّاتٍ ككلّ الدقّات!

إنّها ترنيمة أمل. إنّها كشَذْو بلبلٍ[3] ترقص مشاعرها علىٰ موسيقاه! إنّها لأُنشودة من عذوبة ورقّة، نغماتها تعلو أحياناً فإذا هي تلاوة وترتيل، وتخفت أحياناً فإذا هي هينمة[4] دعاء، وتهدأ أحياناً فإذا هي إيماء هامس، أبلغ بياناً مـن الجـهر بـجرسها

---

١ . تنقشع: تنكشف، تزول.

٢ . المتوجّس: المضطرب خوفاً وهلعاً.

٣ . شدو البلبل: غناؤه.

٤ . الهَيْنَمة: الصوت الخفيّ.

المغرّد عن الطمأنينة والقرار.

كلّ اضطرابه لهذا الذي تكنّه في دخيلة جوفها كانت بشيراً بانحسار من الأشجان، وكلّ انتفاضة له ترفّ بين جنبيها كجناحي عصفور كانت تحوّل الساكن إلى مهموس، والمهموس إلى مسموع، والمسموع إلى مشهور يغمر محيّاها بالغبطة والسعادة، ويجري علىٰ شفتيها إشراقات بسّامة، فيها دفء حنان الأُم، وفيها خفر البتول العذراء.

وكلّ حركة تبدر من الجنين المكنون كانت وثبة يطفرها طفراً علىٰ طريق الرجاء، وسطراً معبّراً أنيقاً في صحيفة الوجود.

كأُنثىٰ راحت تجتاز من حياتها مرحلةً جديدةً، كان فكر الزهراء موزّعاً بين طمأنينة يومها الماثل وبين رقبة الغد القابل، بين الحلم المأمول وبين الخوف الآمل وكأُم عربية، أما ودّت لو تمخّضت عن غلام؟

فتلك رغبة حبيبة إلى جميع الأبكار، إلى كلّ مثيلاتها الواقفات علىٰ عتبة الأُمومة وإن تفاوتت بهنّ الأُصول ... فالعجب لهنّ وهنّ الإناث أن يؤثرن الذكران!

لكنّها طبيعة في النساء اطّرادها قانون!

علىٰ أنّ رغبة فاطمة في إنجاب وليد ذكر كانت تنبعث، أكثر انبعاثها، من حبّها لأبيها، وشوقها الظامئ إلى أن تقرّ عينه بغلامٍ هو الذي وهبت له البنات وحرم البنين .

أفيمنّ عليها الله؟ أيسعدها، ويسعد نبيّه فتنسل فتىً تتكرّر فيه سيرة رسول الله، وتتعاقب من خلاله صورته الطاهرة؟

لئن تحقّق حلمها هذا فمنّة من الكريم المنّان، ولئن رُزقت أُنثىً فحمداً له سبحانه: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ ٱلذُّكُورَ﴾[1].

* * *

---

١ . الشورىٰ: ٤٩.

وتتلكّأ بها ـ في ترقّبها الراجي ـ مسيرة الأيام، فالرُّقْبة[1] تؤود الصبر، والانتظار عبء تنوء به النفوس.

إنّه بطيء الحركة إلى درجة الجمود، ثقيل القدمين كمشلول! يحبو علىٰ أرض الواقع كطفلٍ ما يزال رخو العظام، لا يكاد يطوي من رقعة الزمن الممتدّة أمامه شيئاً ... فالزمن فراسخ، والخُطىٰ أشبار.

فيا لفاطمة من هذه الرُقْبة الثقيلة!

إنّ يومها شهر! وإنّ شهرها عام! وإنّ جنينها ـ من فرط حنينها إلى لقائه ـ ليوشك أن يبدو كالمتراخي عن مبارحة مكمنة الطهور، إيثاراً له علىٰ دنيا الناس!

غير أنّ كلّ أمرٍ بميقات، وكلّ ثمرةٍ بأوان.

وعندما أخذت الزهراء تهدأ جأشاً، وتطمئنّ بالاً، طلعت عليها وعلىٰ آل محمد أُم الفضل زوج العباس بن عبدالمطلب بما زلزل في نفسها السكينة، وهاج في قلبها الخوف على الوليد المنتظر أن يصيبه شرّ يفدح ويهول.

قيل: رأت أُم الفضل في نومها حلماً مفظعاً، فملكت نفسها أن تظهر عليه أحداً، وأخفته عن القريب والبعيد.

وما لها لا تخفيه وإنّ نبأه ـ فيما تخال ـ مشؤوم؟

نذير! شرّ مستطير!

فلو أنّها باحت به إذاً لكان خليقاً بأن يخنق في الأُم الصغيرة مناط أملها الذي انتظرته الشهور الطوال، وينزلها نفس منزلة أُختها الكبرى التي أنزلتها نخسة «هبار».

وعقلت أُم الفضل رؤياها وراء شفتيها أن تذيع، أخذت لسانها باللياذ[2] بخرس خرساء، وكما تلوك في شدقيها[3] قطعة الصبّار المرّ، راحت تلوك الكتمان.

---

١ . الرُقْبة: الانتظار، الترقّب.

٢ . لاذ بالشيء: لجأ إليه.

٣ . الشِدْق: زاوية الفم من باطن الخدّين.

لكنّها لم تعد تطيق، وأسرعت بسرّها إلى الرسول، قالت له: يا رسول الله، إنّي قد رأيت رؤيا.

وأمسكت هنيهة من إشفاق، وصدرها يكاد ينفجر، فلمّا رأت من الرسول إقباله عليها بكلّ سمعه، استأنفت تقول: رأيتُ عضواً من أعضائك وقع في بيتي!

فما كان أشدّ عجبها إذ شهدته قد تهلّلت أساريره، واستضاء بالبشر محيّاه، وسمعته يقول: «خيراً رأيت! تلد فاطمة غلاماً فترضعينه»[1].

أفكذاك؟ ألا ما أسعد الرؤيا، وما أسعد التأويل!

وتاهت المرأة في دنياً من الفرح شتيتة الحدود والأبعاد ... قد انفرج فمها عن ابتسام، وتعلّق على شفتيها كلام.

لكنّها لمن تنبس[2] ولم تهمس ... وماذا تقول وكلمات الدنيا كلّها لا تحسن الأداء عمّا يخامرها من شعور؟

وغمر عالمها النفسي سنا[3] وهّاج، لو أشرق على الناس جميعاً لا نبهرت به منهم أبصار، وتكسّرت جفون.

وتدحرجت من عينيها دمعتان خاشعتان، كأنّهما حبّتا مسبحة لؤلؤانية تسبّحان: شكراً لله!

---

١ . رواه ابن ماجة ٢: ١٢٩٣ ب ١٠ من كتاب تعبير الرؤيا ح٣٩٢٣، وأحمد ٦: ٣٣٩ (مسند أم الفضل).

٢ . لم ينبس: لم يحرّك شفتيه للكلام.

٣ . سنا الشيء: إذا ارتفع ضوؤه.

اللوحة الرابعة

كأنّه محمد

ولادة الحسن

صدق رسول الله ... فلقد أذن ربّك فانطوت المسافات الزمنية أمام شوق الزهراء المتسوفز للقاء ذلك الوافد الحبيب.

جاء «شهر القرآن» بالموعد المكتوب، فما أن انتصف «رمضان» المكرَّم، حتّىٰ مضىٰ «علي» علىٰ عجل، متدارك الخُطى، حثيث الانطلاق، كأنّما ينصبّ انصباباً من شاهقٍ، كسَيْلٍ يتحدّر من أعالي الجبال، سعياً على الطريق إلى مجلس النبي، تبارت قدماه حتّىٰ لبدت يمناه تسبق يسراه، ويسراه يمناه!

وقدّم للبشرىٰ بين يدي رسول الله: إنّ فاطمة في المخاض ... ومولودها وشيك الوفود.

وطرب «الجدّ» العظيم للنبأ العظيم كما لم يطرب قطّ لغيره من أخبارٍ غُرٍّ ميامين، ودعا إليه «أُم سلمة»، يأمرها أن تسرع بالعناية والعون إلى «الوالدة» الصغيرة فهرعت ومعها أُخريات.

فكيف لقين الزهراء؟

على الرغم ممّا علمنه من ضعف فاطمة، وما كان يعتور[1] جسدها النحيل الرقيق

---

١ . يعتور: يغشىٰ.

من وهنٍ وإرهاق، وعلىٰ شدّة ما يلابس الولادة دائماً من أوجاع، فلقد تبدّت لهنّ علىٰ خلاف غيرها من «الوالدات» ... بلا آلام مرّت بها ساعات المخاض بسلام[1]!

رعاها الله ... انسلخت منها الحياة الجديدة كانسلاخ قشرة عن رطبة ناضجة، أو كما يُخلع دثار عن شعار.

واستقبلت وليدها بفرحة ملء الأرض والسماوات، وضاعف فرحتها أن رأت في وجهه محيّا الرسول ... إنّه «محمد» صغير! ألا ما أدقّ التصوير!

فسبحان المبدع! سبحان البارئ الذي يقول فيكون ما يقول! ينشئ من عدم، يسوّي بغير يد، يصوّر بدون ريشة، يبدع بلا أداة ... «كن» هي وحدها التي تنشئ وتسوّي، وتصوّر وتبدع، وتنفخ في «الطين الإنساني» نسمة الحياة!

❊ ❊ ❊

واختلفت على الوليد الأسماء.

أفهو «حرب»؟ همّ أبوه أن يدعوه كذاك، تأنّساً بمعاني القوة، وبسطة الأيد، وشدّة البأس التي تنطوي عليها لقاءات الوغىٰ، كأنّما ودّ لو أنّه شبّ علىٰ شاكلته صوّالاً جوّالاً، يصارع الموت في ميادينه، لتعنوله جبهة الحياة.

أم هو «حيدرة»؟ إذن لعاش في إهاب اسم أبيه الذي أطلقه عليه «أبو طالب» منذ بضعة وعشرين عاماً، وكاد يصبح عليه علماً لولا أن اختار له محمد حينذاك اسم «علي» تنبّؤاً بعلوّ الشأن، والرفعة علىٰ مقادير الأقران.

---

١ . فقد تناقلت كتب التاريخ والمناقب حديث النبي الأكرم ﷺ في حقّ فاطمة ابنته ﷺ قوله: «ابنتي فاطمة حوراء آدمية، لم تحض ولم تطمث» رواه في تاريخ بغداد ١٣: ٣٣١، ذخائر العقبىٰ: ٢٦ وقال: أخرجه النسائي، مفتاح النجا: ١٠٠، رشفة الصادي: ٤٧، أرجح المطالب: ٢٤٠، شرح الجامع الصغير: ٣٢٨، وسيلة المآل: ٧٨، الشرف المؤبّد: ٥٤ وغيرها. وفي ينابيع المودّة ٢: ٨٤ عن النبي ﷺ: «وإنّما سمّيت فاطمة البتول لأنّها تبتّلت من الحيض والنفاس، لأنّ ذلك عيب في بنات الأنبياء، أو قال: نقصان». وفي المناقب المرتضوية: ١١٩ عن النبي ﷺ أيضاً: «وسُمّيت فاطمة بتولاً لأنّها تبتّلت وتقطّعت عمّا هو معتاد العورات في كل شهر» والحديث عن أم سلمة.

أم هو «أسد»؟ لو حقّ هذا عليه لكان سميّاً لأبي جـدّته «فـاطمة»، ولأصـبح ـ بمعنى اللفظة ـ مرجوّاً للهيبة والشجاعة وقوّة المراس التي تعهّد دائماً فـي مـلك الغاب.

أم يختارون له ما يشبه هذا وذاك من أعلام، تتبارىٰ صنعاتها في حلبات الإقدام؟

تعدّدت الأسماء ... وتفاوتت الآراء.

لكنّ علياً رأىٰ أن يستأخر بالاختيار حتّىٰ يحضر رسول الله فيكون هـو الذي يختار.

وكان ... فلم تكد تمضي هنيهة حتّىٰ أقبل عليهم الرسـول وشـوقه يسـبقه إلى الصغير، قال ووجهه يتألّق ككوكب درّي استضاءت له النفوس قبل أن يشرق بـه المكان: «أروني ابني».

وأخذه في أحضانه ... ثم يسأل: «ما سمّيتموه؟».

فيكاد كلٌّ يعلن عن اختياره، لولا أنّ الأب الشاب يعجل إلى الكلام: «ما كنت لأسبقك باسمه، يا رسول الله».

فيقول الرسول: «هو حسن»[1].

وتستقبل دنيا الفضل والمكارم وصفاء الروح أول حفيدٍ لخـير الجـدود الذيـن أنجبتهم الإنسانية علىٰ كوكبنا الدوّار:

ـ إنّه أحد ريحانتي رسول الله[2].

---

١ . رواه أحمد ١: ٩٨ و١١٨ (مسند علي عليه السلام)، البيهقي فـي السـنن الكـبرى ٦: ١٦٦ و٧: ٦٣، مسـتدرك الحاكم ٣: ١٦٥ و١٨٠.

٢ . لما روي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قوله في الحسن وأخيه الحسين عليهما السلام: «هما ريحانتاي من الدنيا». أخرجه البخاري ٣: ١٣٧١ ب٢٢ مناقب الحسن والحسين من كتاب فضائل الصحابة (٦٦) ح٣٥٤٣ عـن ابـن عمر، وأخرجه أيضاً في ٥: ٢٢٣٤ ب١٨ رحمة الولد وتقبيله من كتاب الأدب (٨١) ح٥٦٤٨ عنه أيضاً. وأخرجه الترمذي ٥: ٦٥٧ ب٣١ مناقب الحسن والحسين عليهما السلام من كتاب المناقب ح٣٧٧٠ وقال: هـذا حديث صحيح، وقد روي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله نحوه.

ـ أول اثنين كتب الله في لوحة المحفوظ أنّهما سيّدا شباب أهل الجنة[١].

ـ الفتى المقدام الذي شبّ تحت ظلال السيوف.

ـ التقي النقي الذي وهب قلبه لله.

ـ السمح الرقيق الذي يدرأ الغضب بالحلم، ويقدّم الصفح الجميل على القدرة الباطشة، ويولّي أريحيته عدوّه كما يولّيها وليّه، ويضع الكلمة الطيّبة موضع ضربة الحسام.

ـ وهو إلى جوار هذا كلّه، الفارس الكريم الذي ترجّل عن جواده، وأغمد سيفه، وأنكر ذاته ليؤلّف بين فرقتين من المسلمين كانت علىٰ خصومةٍ ضاريةٍ وفي حربٍ ضروس، وما كانتا لتأتلفا علىٰ وفاق وهدنة لولا ما جبله ربّه عليه من لين الطبع، وكرم الخلق، وسعة الأفق، وسخاء الإيثار.

* * *

سعد رسول الله بالحسن كأحلىٰ ما تكون السعادة، من فرط شغفة به لا يكاد يفارقه ما وسعه أن يلقاه، ومن شدّة خوفه عليه كان يوشك أن يردّ عنه خطرة النسيم أن تمسّه بما قد يؤذيه، وأن يقيه وِمض[٢] الشعاع أن يخايله، وأن يجنّبه لغط الأصوات أن يزعجه.

---

١ . لما روي عن النبي الأعظم ﷺ قوله في الحسن والحسين ﷺ: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة» أخرجه الترمذي ٥: ٦٥٦ ب٣١ مناقب الحسن والحسين ﷺ من كتاب المناقب ح٣٧٦٨ عن أبي سعيد الخدري، و: ٦٦٠ ح٣٧٨١ عن حذيفة، وأخرجه ابن ماجة ١: ٤٤ ب١١ فضائل أصحاب رسول الله ﷺ من المقدمة ح١١٨ عن ابن عمر ، وأخرجه أيضاً جمع كثير من المؤرخين والمحدّثين، على سبيل المثال: تاريخ بغداد ١١: ٩٠، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، مستدرك الحاكم ٣: ١٦٦، المعجم الكبير للطبراني ٣: ٣٥ ح٢٥٩٨ عن عمر بن الخطاب وح٢٥٩٩ عن علي ﷺ وح٢٦٠٠ عن الحارث وح٢٦٠٤ عن أبي هريرة ومواضع كثيرة منه في هذا الجلد، والجلد (١٩) أيضاً منه، وفي غيره من أمهات المصادر الحديثية لا يسع المجال لإحصائها.

٢ . الومض: البريق.

لكأنّما ودّ لو احتواه بين جانحيه، أو أن يوسّده بين عينيه.

وهل من أحدٍ في العالمين أحبّ إليه؟ ألصق بقلبه؟ أولىٰ بحنانه؟

أليس آثر إنسان بحبّ الأب: الحفيد؟

فما بالك بحبّ محمد وإنّه لأعظم حبّ؟! وبقلبه وإنّه لأكبر قلب؟! ثم ما بالك وقد تضاعفت الآن هذا الحبّ ضعفين؟!

أصبح حبّين ... ذلك لأنّ أُبوّته عليه الصلاة والسلام ازدوجت فإذا هي أُبوّتان أُبوّة لفاطمة الابنة الحبيبة، وأُبوّة من خلالها لوليدها الحبيب.

تلك غريزة حيوية، هي آية من آيات الله في الخلائق البشرية، أحرىٰ بأن ترقىٰ في محمد: الإنسان الأمثل، إلى ما فوق سماء أرفع المثاليات.

* * *

وطابت بغلامها نفس الزهراء، قرّت عيناً ولبّاً ومهجةً، نعمت بأروع عاطفة إنسانية: هذه الأُمومة التي انبثقت فيها، وغدت نبعاً قدسياً تفجّر عن العترة النبويِّين، سادة المكارم والشيم الخُلُقية الرفيعة، الذين استضاءت بنورهم القلوب والعقول على امتداد الزمان[1].

---

١ . فقد خلّف هؤلاء السادة من ثروة فكرية وثقافية إسلامية سامية، وميراث حضاري راقٍ للبشرية عامةً، وللمسلمين خاصّةً ما جعلهم يسبقون غيرهم في إطار بناء صرح الحضارة الاسلامية العظيم، ونشر ثقافة الإنسان الرسالي على مساحات واسعة من أطراف الدنيا، وغمرت أطياف عديدة من قطاعات أُمم الأرض المختلفة، حتّى كادت جميع الألسن ـ على اختلافها ـ تلهج باسم أوبأسماء هؤلاء السادة من أهل بيت الرسول ﷺ، وإن حالت دون اشعاعهم غيوم من الجهل والجمود، لكن سرعان ما تبدّدت وانحسرت هذه الغيوم بفضل ما امتازوا من مجدٍ وخُلقٍ عظيم.

إنّ العمق والأصالة والشرف والخُلق الكريم الذي تحلّىٰ به ائمة وعلماء أهل البيت ﷺ، هي التي دعت ائمة المذاهب الفقهية والفلسفية والعقائدية إلى احترامهم، وإبداء الاعجاب بهم وإطرائهم، بل وإلى تقديسهم إلى حدٍّ كبير.

فلا عجب إذاً أن نشاهد تهافت علماء المذاهب ومفكّريهم وأُدبائهم وتباريهم في الكتابة والتأليف في ←

سعدت بتفتّح أول برعمٍ من براعم النسل الطاهر الزكي، أحييٰ من ذوابل آمالها كلّ موات، وغسل من سوالف سنيّها كلّ وجيعة، وطوّح في جبّ النسيان ما نالت منها الأيام.

فما الحزن الآن وقد جاءها أخيراً من جعل حياتها زهوراً يانعة، طيّبة الشذى، بهيجة الألوان، خضر الأوراق، نديّة الأعواد؟

وما أشواك الذكريات ... ولا غضاة اليوم، ولا عوسج، ولا صبّار؟ وما الألم العلقمي الذي مضغته مرّاً، ولا كته عمراً، منذ بواكير صباها، وقد سدّ صغيرها في نفسها ينابيعه، فأصبح ماؤها غوراً، ثم أذاب في بقايا فيضها ضحكاته الحلوة؟

كلّ ما مرّ في أُفق حياتها من مآسٍ وفواجع انطوى الآن في شروق سنيٍّ غابت غياهبه، وتألّقت كواكبه، فأبصرت آية النور، وامّحت آية السواد، لكأنّما تحسّ أنّ الوجود قد فتح لها في سجلّه صفحةً جديدةً!

حتّىٰ ذلك الحدث الطارئ الذي تشكّل من بضعة أشهر إعصاراً كاد يدمّر سعادتها الزوجية، وما زالت له حتّىٰ اللحظة آثار تخايل بالها من بعيد قد انقشعت الآن عنها دكنة غيومه.

بقايا ظلاله ولّت فراراً كتولّي مرائي الكابوس أمام انتباهة العين، وصحوة الأحاسيس، ذابت كذوبان الضباب في أشعّة الضحوة.

ولم يكن في حقيقة الأمر حدثاً يحسب في الوقائع الثابتة، بقدر ما كان شبح

← مناقب سادات علم النبوة، وشمائل أجلاء الحكمة المحمدية، ورواية سيرتهم العطرة. فهناك كتاب الآل لابن خالويه امام النحو واللغة، والآيات النازلة في أهل البيت لابن الفحّام الفقيه المقرئ الشافعي، وإتحاف الزبيدي الحنفي، وإحياء السيوطي الشافعي العلّامة المعروف، وأخبار أهل البيت للمدائني، وإرشاد الهادي لابن فرحون المالكي، واستجلاب السخاوي، وتذكرة السبط ابن الجوزي، وجواهر السمهودي، وحديث الطير للطبري، وذخائر محبّ الدين، والذرّية الطاهرة للدولابي الحافظ. وذكر القلب الميت بفضائل أهل البيت للعقيلي الحنبلي، والصفوة للمناوي، وفتح المطالب في مناقب علي بن أبي طالب للذهبي، وفصول ابن الدبّاغ المالكي، ومناقب ابن حجر الهيتمي وغيرهم كثيرون.

حدثٍ، أو مجاجة شفاه ثرثرت بأمل معسول أحرىٰ أن يسلك في الأوهام أو أضغاث الأحلام.

فلقد قال نفر حينذاك: إنّ علياً انتوى اتّخاذ زوجةٍ جديدةٍ: ضرّةٍ لبنت رسول الله[١]!

---

١. لا يخفىٰ على الباحث أنّ قضية خطبة أمير المؤمنين عليه السلام ابنة أبي جهل من المفتريات، والروايات التي وردت في هذا السياق لا تخلو من نظر وتأمّل.

أولاً: أنّ هذه القضية من القضايا التي اختلف الحفّاظ بها، وقد رويت بطرقٍ مختلفة، بعضها يناقض بعضاً. فبعضها يشير إلى أنّ علياً عليه السلام هو الذي أخبر النبي صلى الله عليه وآله بنفسه بأمر الخطبة ممّا دعا النبي الاكرم صلى الله عليه وآله أن قال: «إنّ فاطمة بضعة منّي...»، وبعضها تروي أنّ فاطمة عليها السلام هي التي أتت وأخبرت أباها صلى الله عليه وآله بذلك، كما يرويها المؤلّف هنا، وأخرىٰ: أنّ علياً عليه السلام جاء قبل كل شيء واستأذن النبي صلى الله عليه وآله في نكاح ابنة أبي جهل، وأخرىٰ غيرها: أنّ بني هشام بن المغيرة استأذنوا النبي صلى الله عليه وآله وليس علي عليه السلام في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب!!

كما واختلفوا أيضاً في جواب النبي الاكرم صلى الله عليه وآله له، فمنهم من روىٰ أنّه صلى الله عليه وآله قد خيّر علياً عليه السلام في نكاحه ابنة أبي جهل، ومنهم من روى منع النبي صلى الله عليه وآله له ذلك، حتّىٰ ذكروا قوله صلى الله عليه وآله له «لا آذن» ثلاث مرّات!! ومنهم من زاد على قوله ذلك: «إلّا أن يطلّق ابنتي وينكح ابنتهم»!!!

وهذا المنع القاطع يثير ـ حسب المروي عنه صلى الله عليه وآله ـ في نفس الباحث سؤالاً، وهو أنّ ما صنعه علي عليه السلام لا يخلو إمّا أن يكون حلالاً أو حراماً، فإن كان حلالاً، فهل كان النبي صلى الله عليه وآله يحرّم حلالاً على هواه؟! أو يحلّل حراماً كما يشتهي؟! وإن كان حراماً، فلماذا صنعه علي وهو الإمام الكبير، أحد الخلفاء الراشدين؟؟ وهل يعقل أن مثله يقدم علىٰ عملٍ حرامٍ امام نبي هذه الأُمة وقائدها؟!

ثم هناك تناقض أيضاً في الروايات الواردة في هذه القضية في اسم المزعومة للخطبة (ابنة أبي جهل) فذكر الطبري أنّ اسمها «الحنفاء»، بينما ذكر السهيلي أنّ اسمها «جرهمة»! (انظر فتح الباري ٧: ١٠٨ كتاب الفضائل باب: أصهار النبي صلى الله عليه وآله)، وذكر في إرشاد الساري ١١: ٥٩٦ ب ١١٠ أنّ اسمها «جميلة».

بل إنّ الروايات ما بلغت في التناقض أوجه حينما اختلفت في اسم القوم الذين خطب منهم ابنتهم، واختلفت الحادثة أيضاً، فمنها أنّه عليه السلام خطب جويرية وليست ابنة أبي جهل، ومنها ذكرت اسم «العوراء»، ورابعة ذكرت أنّه عليه السلام خطب اسماء بنت عميس!!

وفي الوقت الذي ذكرت بعض الروايات رفض النبي القاطع للخطبة، أفادت أخرىٰ بأنّ قومها هم الذين رفضوا علياً وقالوا: «لا نزوّجك على ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله»!! رواه الحاكم في المستدرك ٣: ١٥٩ مناقب فاطمة عليها السلام.

ومن الطبيعي أنّ هذا التخبط والاضطراب يثير فينا التحفّظ والنظر في هذه الروايات، ويميل بنا إلى ترجيح

←

ولغطت بالخبر أفواه، وتلقّفته أسماع، وردّدته ألسن مولعة بالتقوال ... ولم يكن الخبر تعبيراً صادقاً كلّ الصدق، كما لم يكن أيضاً مفترىً كلّ الافتراء.

قيل: فلمّا ذاع النبأ وشاع في المحافل والأندية، وبلغ الزهراء، ذهبت إلى أبيها با كيةً تقول: «يزعمون أنّك لا تغضب لبناتك»[1].

وعرف الأب ما تعني فتاته؛ لأنّ بني هشام بن المغيرة قد استأذنوه في تزويج بنتهم من زوج فاطمة.

فانطلق الرسول، فصعد المنبر وهو غاضب، وقال علىٰ ملأ الحاضرين: «ألا إنّ بني هشام بن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنتهم علياً».

فاشرأبّت إليه الأعناق، وساد صمت، حلّق في جوّه الوجوم، وتعلّق حملاقهم بشفتيه كأنّما يسمعون بالعيون!

← الكفّة بكونها مفتراه عليه عليه السلام كما افتري علىٰ غيره من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله المنتجبين.

ثانياً: أنّ سند الرواية يقع فيه: المسوّر بن مخرمة، أو عبدالله بن الزبير، أو الكرابيسي، أو أبو هريرة.

أمّا الأول فقد ذكر ائمة الحديث أنّه كان يطعن علي الائمة، وكانت الخوارج تغشّاه وتنتحل رأيه انظر الاستيعاب ٣: ٤٠٢ ترجمة معاوية و٤١٧ ترجمة المسوّر. هذا وقد نفى ابن قتيبة في المعارف رؤية المسوّر للنبي صلى الله عليه وآله وبالتالي نفىٰ كونه من الصحابة (انظر المعارف: ١٨٨ فصل في التابعين).

وأمّا الثاني فقد عُرف عنه أنّه كان سبّاباً فحّاشاً يبغض بني هاشم، ويلعن ويسبّ علي. انظر فاطمة الزهراء والفاطميون للعقاد: ١٥٦ ـ ١٥٧.

وأمّا الكرابيسي فقد قال الازدي عنه: ساقط لا يرجع إلى قوله. وتكلّم فيه أحمد بن حنبل حتّىٰ قال لمحمد بن بديل: «إياك إياك أربعاً ... لا تكلّم الكرابيسي ولا تكلّم من يكلّمه» ولعنه ابن معين، وقيل بفساد عقله. انظر لسان الميزان ٢: ٢٧١ ترجمة الحسين بن علي الكرابيسي، ميزان الاعتدال ١: ٥٤٤ رقم ٢٠٣٢.

وأمّا باقي رواة الأحاديث الواردة في هذا القضية فقد ذكر الهيثمي طرقها وذكر ضعفهم جميعاً راجع مجمع الزوائد ٩: ٣٢٧ وما بعده.

وللاستاذ توفيق أبو علم كلام بارع في هذا الإطار، يقول: «ولم يكن من المعقول أن يستبدل الإمام علي بالنبي أبا جهل بن هشام صهراً ...» ثم أضاف: «ولكن كثيراً من المؤرّخين والكتّاب ينكرون هذا الحادث تماماً، ويذكرون أنّها رواية مزعومة» (فاطمة الزهراء: ١٥٠، ١٥٢).

١ . فاطمة الزهراء والفاطميون، للعقاد (المؤلّف) . وممّا يلفت الانتباه هنا هو اللهجة القاسية التي تخاطب الزهراء ـ بضعة المصطفىٰ ـ أباها!!! حاشاها!

وأضاف: «ألا وإنّي لا آذن».

وكرّر: «ثم لا آذن!».

وكرّر مرةً أُخرى: «ثم لا آذن!».

قول فصل! توكيد يقتل كلّ شبهة في نهائية القرار، وكان يضغط على الحروف كأنّما يمضغها ليسهل هضمها على الآذان!

وفتح باب الخيار: «اللّهم إلّا أن يحبّ ابن أبي طالب أن يطلّق ابنتي، وينكح ابنتهم، فإنّ ابنتي بضعة منّي، يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها».

لكنّه أضاف يبيّن ما قد يشكل على أفهام سامعيه: «إنّي لست أحرّم حلالاً، ولا أحلّ حراماً، ولكنّ الله لا يجمع بنت رسول الله وبنت عدوّ الله ببيتٍ أبداً!»[1].

وكان قوله الحقّ.

قيل: وكانت هذه الفتاة المغيرية أسلمت، وبايعت النبي، وحفظت عنه ...فلعلّها قد خيف عليها الفتنة أن تتزوّج بغير كفء من المسلمين، وأهلها هم من هم في المكانة والحسب، لا يرضيهم من هو دون ابن أبي طالب من ذوي قرابتها، أو لعلّها غضبة من غضبات عليّ وأنفه من أنفات فاطمة، أو لعلّها نازعة من نوازع النفس البشرية لم يكن في الدين ما يأباها وإن أباها العرف في حالة المودّة والصفاء[2].

ومع ذلك فلسنا نحسب حياة الزهراء وعلي تعرّضت لخلافٍ غير هذا الخلاف، بل نحسب أنّها لم تتعرّض لنفس هذا الخلاف إلّا من خلال كلمةٍ قيلت هنا وأخرى قيلت هناك، ثم لم يخرج الأمر من حدود المقولات إلى حدود المفعولات، لأنّ شواهد الحال وآراء المعاصرين لا تذكر أنّ علياً فكّر جدّياً وسعىٰ في اختيار فتاة

---

١ . روى الخبر البخاري ومسلم، وهو أيضاً محلّ نظر. إذ كيف يمكن أن تصدر عن نبي الرحمة الذي وصفه القرآن بأنّه لعلى خلق عظيم، إهانة كهذه لامرأةٍ مسلمة ـ كما قال الحافظ ـ لا لجريمة ارتكبتها سوىٰ أنّ أباها عدوّ الله؟! وهل يعقل أن يرميها بأنّها بنت عدوّ الله وهو نفسه ﷺ قد عنّف ذلك الرجل الذي قال لابنة أبي لهب: أبوك في النار؟ بل كيف يمكن ذلك وهو ﷺ الذي علّمنا بأنّه لا تزر وازرة وزر أخرىٰ؟!

٢ . فاطمة الزهراء والفاطميون، للعقّاد (المؤلّف).

بني المغيرة زوجةً له، بقدر ما تذكر أنّ بني المغيرة هم الذين فكّروا وسعوا في تزويج ابنتهم من علي وفاقاً لمألوف عادة القوم آنذاك في عرض فتياتهم على الأكفّاء دون شعور بالتحرّج أو الاستحياء.

فكأنّي ببني المغيرة إذ ارتأوا الخير والشرف ورفعة المكانة في الإصهار إلى «علي» قد آثروا أن يلتمسوا رضا الرسول عمّا يرتأون قبل أن يتقدّموا بعرضهم إلى ابن أبي طالب، وهم يعلمون أنّه أحرىٰ بأن يقبل منهم، ويجيب رغبتهم، لو وافقهم رسول الله.

ذلك لأنّ علياً هو الكفء الذي يرتضون، ولأنّ ابنتهم ـ فيما يخالون ـ كفء لفاطمة إذا ما نظر إلى الكفاءة من ناحية الأثالة وعراقة الأُصول، ولأنّ بيوت الزوجية في تلك الأيام كانت تتسّع لضرّةٍ وضرّتين، بغير غضاضةٍ علىٰ أولى الزوجات، ولأنّه لا جناح ـ في رأي الدين ومنطق العرف ـ علىٰ من يجمع بين أمرأتين أو أكثر في حدود شرع الله.

ولقد جمع رسول الله، فتساوت بهذا الجمع دنيا الزوجات مكانة بعلياهنّ مكانة فكان في نسائه الحرّة والمرقوقة، العربية والأعجمية، البكر والأرملة، فضلاً عن تفاوتهنّ في مدارج الأُرومة، والمعرفة، والعمر، والجمال.

* * *

نعم ... لم يحرّم محمد حلالاً عندما رفض عرض بني المغيرة، ولا خالف قاعدةً شرعيةً وإن هو خرج بهذا الرفض عن مألوف التقاليد والعادات، بل هو لزم تلكم القاعدة التي تبيح تعدّد الزوجات ثم توشك أن تمنع منه ابتغاء العدل بين النساء، وإنّه لعدل تعجز العواطف البشرية عن لزوم نهجه، ولا تكاد تستقيم عليه ـ إلّا بشقّ الأنفس ـ عصمة الأنبياء.

فما بالك بغير هؤلاء من الناس؟

فإذا حُسِب موقف الرسول عندئذٍ لفتةً أبوية كريمة نحو فتاته، فما من شيّةٍ علىٰ هذا الحسبان.

ذلك لأن بدائه العقول تراه الموقف الطبيعي الذي يقرّر رعاية البنات قبل رعاية الأبناء؛ لما جُبِلن عليه من ضعفٍ في الحول، وقلّةٍ في الحلية، وهيضةٍ[1] في الجناح، يفترقن معها إلى المساندة وشدّ الأزر ليسرن ثابتات الخُطىٰ علىٰ طريق الحياة.

ولأنّه الموقف الذي يوافق في الرسول خلائقه السامية التي تجري علىٰ سنن الإنسانية الرفيع جريان كمال ومثال، ولأنّه، قبل كلّ شيء، الموقف الذي لم ينبثق فقط من مجرّد هوىً عاطفي، أو انعطاف نفسي إلى صلة الدم، بل الموقف المستقىٰ من ذلك الحبّ الإلهي المقدّس الذي اختصّ به ربّك الزهراء من خلال نبيّه، فكان سخطها من سخطه، ورضاها من رضاه[2]!

---

١ . الهيضة: الكسر بعد الجبر.

٢ . والرواية أشهر من أن تعرّف، ووردت بألفاظ متقاربة. رواه في ذخائر العقبىٰ: ٣٩ وقال: خرّجه أبو سعد في شرف النبوة والإمام علي بن موسى الرضا في مسنده وابن المثنىٰ في معجمه. وفي تهذيب التهذيب ١٢: ٤٤٢، والإصابة ٨: ١٥٩، ومستدرك الحاكم ٣: ١٥٤، وغيرها.

اللوحة الخامسة

علىٰ سفح أُحد

الزمان قُلَّب ... والأيام غِيَر ... وكما يقبل الصباح أبيض الجبين، فمتوهّج الضحوة، فعسجدي الأصيل، لابدّ أن تقفوه عشية دامية الشفق، فقاتمة الغسق، فليلاء المساء.

فالحياة ليست كلّها بسمة شفاه، والدنيا ليست دائماً زاهية الألوان.

وهناك، عند سفح «أُحد»، غاضت أطياف النور، تبدّل الليل بالنهار، وقعت الواقعة التي شاء الله أن تكون محنة شديدة، واختباراً قاسياً لتمحيص أهل الإيمان.

استشهد في جيرة الجبل أبطال هم البطولة، وسالت دماء هي الفداء، تعطّرت الحصباء بدم زكي طهور، تدحرجت عليها قطراته التي نفثتها جروح الرسول وهو يدفع بنفسه، وبمن صبر معه من حزب الله، عدوان أولئك الطغام[1] الخُبُث الذين أنكروا دعوة السماء وناصبوها العداء.

يومئذٍ ذاب ـ من رحمةٍ ـ قلب الزهراء، ثم احترق لوعةً.

أمّا الرحمة فللضالّين الذين حادت بهم نفوسهم ـ غيّاً وجهالة ـ عن طريق الهدى المستقيم، فسدروا كالسوائم الشاردة، حيارىٰ تهيم خبطاً في جوف الظلمات، لا تعرف لأنفسها سبيلاً إلى منجاة.

---

١ . الطغام: الأوغاد.

فلقد عميت منهم الأبصار، ووقر السمع، وكثف الحسّ، وغلظت القلوب.

فلو نظروا فظلمة العيون، ولو سمعوا فوسوسة الشيطان، ولو شعروا فلا يفقهون.

ومع ذلك، أفلا يئين الأوان فيهتدون؟ لتودّ لهم فاطمة من أعمق أعماق قلبها الفيء للرشاد، إذن لغدوا ومن يعادون إخوة في الله، ولارتفعت رايات الإسلام ولعاش البشر على وفاق وسلام.

وما ذلك على الله بعسير ... فرحمته قريب.

* * *

حمزة وهند

وأمّا اللوعة فقد تجرّعتها الزهراء حينذاك إلى ثمالة الكأس حتّى القاع، أياماً عديدة لازمتها الدموع، لا ترقأ[1] ولا تغيض، كأنّما ينفثها ينبوع!

وأنّى لها أن تكفّ شجنها وما زالت على ثوبها قطرات من دم الأب الجريح، لاتني تحدّثها بخطب «أُحد» ما دجى ليل وما طلع نهار؟

كيف تغلق بالها دون صورة «عمّها» حمزة بن عبدالمطلب، أسد الله وأسد رسوله، وهو بجانب الجبل طريح، قد غاله الموت بضربة غادرة خوّانه من حربة الحبشي «وحشي»، فإذا جثمانه الطاهر لقي بين يدي «هند» ابنة عتبة، تتلعّب به، وتعبث فيه؟

لكم بدت المرأة في تلك اللحظات أشبه بطفلة معتوهة راحت تداعب دمية جميلة ثمينة، تتسلّى وتفرح كما يتسلّى الصغار، فلا يكون قصارى هم مرحها الغبي إلّا أن تحطّم التحفة الغالية تحطيماً، ثم تطوّح بآرابها[2] الهشيمة الممزّقة هنا وهناك، وهي تشيّع كلّ إربٍ منها بقهقهةٍ بلهاء!

---

١ . ترقأ الدمعة: تجفّ.

٢ . الآراب: جمع إربة، وهو القطعة من الشيء.

قيل: استجاشت[١] هند أحقاد الأجيال، عاثت في جثة «حمزة»، وولغت في دمائه الزكية، كما تعيث الذئاب في لحم حملٍ ذبيحٍ، وتلغ الكلاب في ماءٍ سلسبيلٍ، مثّلت به أشنع تمثيل، اقتلعت من جوفه كبده، ومضت تنهشها نهش دواهي الصلال الأراقم، وتلوكها لوك ضواري الضباع الجياع ... صلمت أُذُنيه ... جدعت أنفه ... قطعت مذاكيره.

ودون مبالاةٍ بحرمة الموت، وبلا رعاية لحقّ النسب، وبغير حريجةٍ من حياء، شهدها التاريخ وهي تضمّ المصلوم إلى المجدوع إلى المقطوع فتسلكها جميعاً في خيط: قلادة فريدة في القلائد تزيّن بها جيدها الذي أتلعته[٢] الخيلاء، وتتدلّىٰ علىٰ صدرها الذي نفحته غلواء الضغن، وأحماه سعير البغضاء!

قيل[٣]: وكانت هند هي التي أغرت وحشيّاً ـ العبد الحبشي ـ بقتل حمزة لقاء عتقه، انتقاماً لأبيها وأخيها وأهلها الذين صُرعوا في «بدر»، ساومت العبد علىٰ ثمن حرّيته: اقتل محمداً!

قال: لا قِبَل لي بذلك، فدونه من أصحابه سياج مانع.

قالت: فعلي بن أبي طالب!

قال: محال، فإنّه كثير التفلّت في الحرب.

قالت: فحمزة!

ـ نعم، فهو يستغرق في القتال، فلا يكاد يرىٰ إلّا فريسته!

وتربّص به، يستتر منه بشجرة أوبحجر، ثم باغته علىٰ حين غرّة، وهو مشغول عنه يهدّ الناس هدّاً بسيفه.

وقيل[٤]: بل الذي أغراه بقتله: جُبَيْر بن مطعم.

---

١ . استجاش الناس: جمعهم لأمرٍ ما.

٢ . أتلعته: عَلّته.

٣ . انظر البداية والنهاية ٤: ٣٨ ـ ٣٩.

٤ . تاريخ ابن الأثير ٢: ١٤٩ حوادث السنة الثالثة.

يروي وحشي: كنت[١] غلاماً لجُبَيْر بن مطعم، وكان عمّه طعيمة بن عدي قد أُصيب يوم بدر، فلمّا سارت قريش إلى أحد، قال لي جبير: إن قتلت حمزة عمّ محمد بعمّي فأنت عتيق.

يقول العبد: فخرجت مع الناس، وكنت رجلاً حبشياً، أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلّ ما أُخطئ ... فلمّا التقىٰ الناس، خرجت أنظر حمزة وأتبصّره، حتّى رأيته في عرض الناس كأنّه الجمل الأورق، يهدّ الناس بسيفه، ما يقوم له شي ... فوالله إنّي لأتهيّأ له أُريده، وأستتر منه بشجرة أوبحجر ليدنو منّي، إذ تقدّمني إليه سياع بن عبدالعزىٰ، فلمّا رآه حمزة قال: هلمّ إليّ يابن مقطّعه البظور! وضربه ضربةً كأنّما أخطأ رأسه.

يقول وحشي: وهززت حربتي حتّىٰ إذا رضيت منها دفعتها عليه، فوقعت في ثنّته حتّىٰ خرجت من بين رجليه ... وذهب حمزة لينوء نحوي، فغُلب، وتركته وإيّاها حتّىٰ مات ... ثم أتيته فأخذت حربتي، ورجعت إلى العسكر وقعدت فيه ... ولم يكن لي بغيره حاجة، إنّما قتلته لأُعتق.

* * *

ومن أين لفاطمة أيضاً ما يخنق في أُذنيها تلك الأصوات المشؤومة التي ما برحت أصداؤها المعربدة ـ وإن توارت مصادرها ـ تقرع طبول سمعها، وتملأ حولها الأجواء نعيقاً ونعيباً، مردّدة صياح النسوة القرشيات المشركات وهنّ يحرّضن رجالهنّ في ساحة الوقعة، ليغلوا في العدوان غلوّ تجبّر وطغيان.

بأنكر جرسٍ كان ينطلق هتاف «هند» الخبيث، ومن ورائها تردّد من حولها من النساء:

وَيْها بني عبد الدار   وَيْها حُماةَ الأديار
ضَرْباً بكلّ بتّار!

---

١ . السيرة النبوية، لأبي الفداء. (المؤلّف).

ثم تغيّر، فتصرخ بصوت آخر:

إن تُقبلوا نُعانق ونفْرش النمارق
أو تُدبروا نُفارق فِراقَ غير وامق[١]

ثم من لفاطمة بما يطمس في ذاكرتها مشهد زوجة أبي سفيان، إذ اعتلت صخرةً تشرف منها علىٰ أرض المعركة، بعد أن هدأت ثائرة القتال، لتتبدّىٰ لكلّ ذي بصيرةٍ وبصرٍ وإن علا ملامحها غبرة شماتة ترهقها قترة استعلاء، ثم تصيح بأرفع صوتٍ وأنكره، منتجة نادبة، وملء نبراتها تشفٍّ وبغضاء.

أفكانت تصرخ لتسمع المسلمين، أم لتسمع أهلها الذين تجندلوا من نحو عام علىٰ ثرى «بدر» واحتواهم القليب؟

كانت تزأر كلَبْوَة جريحة:

نحنُ جزيناكُم بيوم بدر والحربُ بعد الحربِ ذاتُ سُعْر
ما كان عن عُتبةٍ لي من صبر ولا أخي وعمّه وبكري
شَفيتُ نفسي وقَضيتُ نَذْري[٢]

ولم تكن هند هي وحدها التي تصخب وتندب، كانت في عدّةٍ من مثيلاتها الصالمات الجادعات، وكنّ جميعاً في زهو واعتزاز بما زيّنّ به أجيادهنّ من قلائد بشرية هي أغلىٰ ما عرف التاريخ من حلي النساء!

* * *

وتسترجع الزهراء، فلا أوب إلّا إلى الله.

وتنطلق بها نظرة شعورها الثاقب المُلْهَم، فتكاد ترىٰ دخيلة أبيها تفوز بثورة عارمة من حنق مكتوم وغيظ مكظوم، دونها زئير الليوث الغضاب[٣]،

---

١ . السيرة النبوية لابن هشام ٣: ٧٢.

٢ . البداية والنهاية ٤: ٣٩. وعجز البيت الأخير: شفيتَ وحشيّ غليلَ صدري!

٣ . غضب: وهو غاضب، وهم غضبىٰ وغِضاب وغضابىٰ وغُضابىٰ.

وزمجرة[١] كواسر الغاب.

لكأنّما الرسول يكاشفها بما يعانيه، لكأنّها ترىٰ مشاعره برأي العين لا بخلجات الأحاسيس.

ها هو ذا ينحني علىٰ بقايا جثمان عمّه الشهيد، ويهمس لنفسه كأنّه عن دنيا كلّ من حوله بعيد: «لن أصاب بمثلك أبداً!»[٢].

وترجّه لوعته عنيفةً، وإنّه للقوي المكين أمام نوائب الدهر، وأفدح الملمّات.

ويقول: «لولا أن تجزع صفية ونساؤنا، وتكون سنّةً من بعدي، لتركنا حمزة ولم ندفنه حتّىٰ يحشر من بطون الطير والسباع!»[٣].

ثم نفجر غضبه، ينفر وتينه[٤]، يرعد عرنينه، تندفع الكلمات ملتهبة من فيه، يحرق لظاها المتسعر قناع الدموع الذي أسدلته علىٰ وجهه الفجيعة ... ويوعد بأفظع انتقام: «ما وقفت موقفاً قطّ أغيظ إليّ من هذا، والله، لئن أظهرني الله عليهم يوماً في الدهر، لأُمثّلنّ بهم مثلةً لم يمثّلها أحد من العرب!».

أفيفعل؟

وكيف ... وهو السمح العفوّ الذي أرسله ربّه تعالىٰ رحمةً للعالمين؟

بل يأبى له الله ما اعتزم، فينفض عنه رغبة الانتقام، ويردّ عليه ما أذهب الجزع من صبره، فيفيء إلى حلمه المعهود ... ينزل عليه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾[٥].

---

١ . الزمجرة: الصوت الشديد.

٢ . البداية والنهاية ٤: ٤٠. ورواه في فتح الباري ١: ٣٧١.

٣ . رواه الحاكم في المستدرك ٢: ١٢٠ عن أنس بهذا اللفظ. ورواه الترمذي ٣: ٣٣٥ ب٣١ ما جاء في قتلى أحد وذكر حمزة من كتاب الجنائز ح١٠١٦ بلفظ «تجد» بدل «تجزع».

٤ . الوتين: عرق في العنق.

٥ . النحل: ١٢٦ و١٢٧.

وعندئذٍ يصلّي علىٰ حمزة ... ويودعه مقرّه الأخير.

* * *

وبقيت الزهراء في شغل شاغل بالنبي الجريح، فضلاً عن شغلها بالأب الحزين، كما كانت وهي بمكّة إبّان طفولتها صباها المبكّر، تمسح عنه ما يلقيه عليه أعداؤه من أوضار[١]، أخذت اليوم تمسح عنه نزوز[٢] الجروح.

لكنّ جروحه ظلّت تنفث قطرات حمراء، فما جفّ علىٰ جفون الجراحات دم، ولا غاض فيها دمعها العندمي الصبيب.

حتّىٰ إذا أقبل عليها زوجها من ساحة الموت، وعرقه يدفق من جبينه، ونقع القتال يغشيه، وحسامه «ذو الفقار» في يمينه قد ارتوىٰ من دماء أعدائه، أسرعت تهيب به أن يجيئها بماء لتغسل به عن وجه الرسول آثار قذائف الحجارة، وضربات السيوف، فانفلت عليّ مسرعاً يأتمر بما تقول.

فأيّ خشيةٍ تلك التي انتابتها علىٰ أبيها الحبيب وهو بين يديها مهيض[٣]، وقد نهكته سورة القتال، وراحت جروحه تبكي دماً تفتّحت مسابله[٤]، وتفجّر معينه كينبوع! أيّ حزنٍ وأسىً! وأيّ ألمٍ ووجيعةٍ كانت تقاسي في تلك اللحظات التي طالت عليها كالدهر! أيّ هلعٍ، وأيّ جزعٍ!

إنّها لتحسّ كأنّما قد سرت فيها رعدة زمهرير[٥] فصلت كيانها كلّه عن حرارة الحياة.

فهل كانت تخاف عندئذٍ على رسول الله الذي في إهاب الأب، أم كانت تخاف

---

١ . الأوضار: الأوساخ.

٢ . نزوز الجروح: سيلانها.

٣ . المهيض: الكسير.

٤ . المسابل: الطرق.

٥ . الزمهرير: البرد الشديد.

على الأب الذي في إهاب رسول الله؟

كلا خوفيها ذينك سواء ... فما محمد إلّا أبو المؤمنين، بل هو ـ بالمقياس الروحي ـ أبو البشر أجمعين.

إنّه «آدم» الأول والأخير!

بين أحضان رسالته القدسية ضمّ كلّ الورىٰ، لينعموا بالحياة الحقّة في رحاب الإيمان أطهاراً مطهّرين.

بدعوة السماء التي تنزّلت عليه، وبلّغها للبشرية، رُدُّوا إلى الفطرة النقية التي أودعها ربّهم في وجداناتهم وهم بعدُ «مشيئة» في علم الله، وهم بعدُ «كلمة» ربانية لم يئن لها الأوان لتتجسّد ـ بنطق البارئ المبدع ـ وتخرج من نطاق «التجريد»، وهم بعدُ «سر» مكنون، لم تكشف «كن» الإلهية عنه ستر الغيوب.

* * *

حتّىٰ أولئك الذين سبقوه في موكب الزمن، وعلىٰ فساحة المكان، من الرسل والأنبياء كانوا له «أبناء»، نبوّتهم ولدت في حجر الإسلام قبل أن يطلع به النبي الخاتم علىٰ هذه الدنيا بقرون وقرون.

فليس بغير دينه حياة، وليس سوىٰ دينه دين، يقول الله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللهِ ٱلْإِسْلَامُ﴾[١].

ويقول تعالىٰ في إبراهيم: ﴿إِذ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[٢].

ويقول سبحانه في الذين أعقبوا خليل الرحمن من نبيٍّ ورسول: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾[٣].

---

١. آل عمران: ١٩.

٢. البقرة: ١٣١.

٣. البقرة: ١٣٢.

ويقول عزّ وجلّ في المسيح بن مريم والذين كذّبوه والذين صدّقوه: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].

ويقول تقدّست ذاته في الذين أخلصوا الدين: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[2].

فكلّهم إذاً تابع، ومحمد هو المتبوع.

هو الأصل، وهم الفروع.

وليلة عُرِّج به عليه الصلاة والسلام اجتمعوا له، فصلّىٰ بهم ... هو الإمام، وهم المأمومون.

---

١ . آل عمران: ٥٢.

٢ . البقرة: ١٣٦.

اللوحة السادسة

سيوف في الأيدي الناعمة

وجاء «علي» بالماء، ومضت «فاطمة» تغسل عن أبيها الدم، ثم لا تبالي فتيلاً أن تشرق هي بدمعها الذي ينفرط علىٰ وجنتيها ويسيل.

لكن مواضع الإصابة في النبيّ تظلّ حمراء ... فالجروح تنفث وتنزف، والدماء تكِفُ[1] ولا تكفّ[2]، والشحوب يقطر من محيّاه.

فما السبيل؟

إنّ القلق ليطير بروعها فلا تكاد تمسكه، وإنّ نفسها لتتبدّد تبدّد الهباء في الهواء ... لكنّ الموقف لا يلبث أن يلهمها الصواب، علىٰ حين فجأةٍ تسرع إلى قطعةٍ من حصير فتحرقها، ثم تلصق رمادها بالجروح.

وتسمع أباها يردّد بصوتٍ واهنٍ، وهو يستشرف السماء: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيّهم وهو يدعوهم إلى الله؟!»[3].

فإذا شفتاها تهمسان نفس الترديد: «كيف يفلح ...؟».

---

١ . تَكِف: تقطر، تسيل.

٢ . تَكفّ: تنقطع.

٣ . رواه أحمد ٣: ٩٩ (مسند أنس)، ورواه أيضاً في: ٢٠٦ بلفظ «خضبوا وجه نبيّهم» عن أنس أيضاً، وفي: ٢٥٣، ٢٨٨ بلفظ «شجوا نبيّهم» عن أنس أيضاً.

نعم لا يفلحون! لا نجاة لهم من بطش الله، لا فلاح وإن استطالت بهم الأعمار.

لا فرار ... فنقمة ربّك قريب، وخسارهم مكتوب، ومكرهم السيّ بهم محيق ... فان يكن الله أمهلهم، فرويداً يمهل.

فإذا تعاقبت الأهلّة قافلة زمنية، واستدارت وجوه البدور، وسافر النور في النهار، بين الشروق والغروب، وانساحت الظلمة على الأُفق المعتمّ، من غسق الليل إلى عماية السحر، وترحّلت الشمس في بروجها، تدور دوران النول بخيوط غزل، وتنسج دقّات القلوب ساعات، والساعات أنهراً وأمسيات، والأيام والليالي شهوراً، والشهور حؤولاً... بضعة حؤول قليلات.

إذا حدث هذا حقّت في التوّ كلمة الله، وانتصر محمد، وارتفعت راية الإسلام، وخسِئَ الذين ظلموا، فإذا فريق منهم كبير يُكبُّون على الوجوه أذلّةً صاغرين، وإذا البقيّة يخرّون صرعىٰ ممزَّقين، يلوّث ريحهم العفن الهواء، ويتأذّىٰ من جسومهم النجسة الرمال والحصباء.

* * *

ثم أفلح أخيراً الرمادا

أغمضت الجروح عيونها الصاحية بعد طول حملاق، رقأت الأدمع الحمراء، جمدت علىٰ جفونها الدماء.

وفي الحال أحسّت «فاطمة» بقلبها يثوب إلى صدرها ويطمئنّ، كما يؤوب إلى عشّه الآمن طائر شريد بعد طول سرىً وتجوالٍ، وهو يضرب بجناحيه علىٰ غير هدىً في متاهة الفضاء.

انجلى الكرب إذاً عن الرسول، هجعت فيه سورة المواجع بعض هدوء، فاء هوناً إلى السكينة.

وعلى فداحة الضربة القاصمة التي نزلت برجاله، ذلك السبت الخامس عشر من شوال الدامي، وتركت جيشهم قطائع وشراذم، وعلىٰ شدّة معاناته النفسية بسبب

انفراط عقد أصحابه وتفرّقهم عنه، إلَّا قلّةً كأصابع اليد الواحدة ثبتت معه أمام طوفان أعدائه، وهو قائم لقتالهم علىٰ قدم، لا يتحرّف ولا يتقلقل، وعلىٰ قسوة ما كان في ميدان الوقعة، وشاهدا على الرغم من هذا كلّه، فلم يغب عن لحظ العيون والمشاعر، أنّه كان مشرق البال، يقظ الفكر، حاضر البديهة، كخير ما ينبغي أن يكون عليه قائد يعمل علىٰ أن يلملم شتات أجناده، وينفخ في روحهم المعنوي من روحه، ثم يعيد تنظيمهم علىٰ وجهٍ يلقي في أرواع أبي سفيان والذين معه أنّ الحرب لم تضعضع المسلمين، بل تركتهم وهم أعزّ حولاً، وأنكر حيلةً.

فما أن أصبح الأحد حتّىٰ لجأ النبي إلى أُسلوب من أساليب التمويه الحربي الذي يرهب أعداء الله، ويفتّ في أعضائهم، فإذا الذي ظنّوه نصراً يتبدّىٰ لهم وكأنّه لا يكاد يُذكر في النصر، إن لم يتبدّ وإنّه لأشبه بالهزيمة.

ويبدأ فيجمع المعلومات عن أُولئك الأعداء بعد أن غادروا ساحة الصدام، ويرصد حركاتهم وإن باتوا منه علىٰ مسيرة أميال.

قدم عليه رجل من أهل مكة، فسأله عن أبي سفيان وأصحابه ما خطبهم، وما يفعلون ويقولون، قال الرجل: نزلت عليهم، فسمعتهم يتلاومون ويقول بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً، أصبتم شوكة القوم وحدهم، ثم تركتموهم ولم تبتروهم، فقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم.

فأمر الرسول فأذّن مؤذّنه في الناس ـ وبهم أشدّ القرح ـ بطلب الأعداء، وقال: «لا ينطلقنّ معي إلَّا من شهد القتال»[1].

وذاك هو الرأي!

فليس أشدّ علىٰ أُولئك المشركين من امرئ عضّت سيوفهم عليه، ولا أعظم تحفّزاً إلى لقائهم من آخر وتروه في ابنه أو أبيه أو أخيه، ولا أحمىٰ للغضب في نفس ثالث من شعوره أنّهم علوه بالنصر، وهو الأولىٰ منهم بالغلبة لولا أن تزحزح

---

١ ـ السيرة النبوية لابن هشام ٣: ١٠٧، رواه ابن كثير في البداية والنهاية ٤: ٥٠.

عن مواقعهم عند الجبل ذلك النفر الذين أغرتهم الأسلاب، ولا أحفظ لهم من استبعاد أهل النفاق من صفوفهم لأنّهم قوم لا يُؤمَنون، ولا يؤمنون.

ونشط الناس للخروج ... حتّى الجرحىٰ والمصابون أسرعوا يلبّون.

وهل شيء أحقّ بالتلبية من دعوةٍ للجهاد؟

قيل[١]: إنّ رجلاً من بني عبد الأشهل شهد أُحداً هو وأخ له، ورجعا جريحين، فلمّا أذّن مؤذّن رسول الله بالخروج في طلب العدوّ، قال لأخيه: أتفوتنا غزوة مع رسول الله.

ولم تكن لهما من دابة، وما منهما إلّا جريح ثقيل ... لكنّهما خرجا.

يقول هذا الأشهلي: وكنت أيسر جرحاً من أخي، فكان إذا غُلِب على المشي حملته نوبةً، ومشىٰ نوبةً، حتّى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون.

فصدّق الفعل قول الله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِن بَعْدِمَا أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

* * *

ولم يكن هذا الذي ارتآه الرسول صدىٰ غضب، ولا نبتة برية غرستها الحماسة، ولا مغامرة فورية غير محسوبة المقدّمات والخواتيم ... بل قد كان وليد فكرٍ وتدبّرٍ وحسن إعداد.

وتعال فانظره كيف يستوثق لنفسه ولرجاله، ليبني خطّته علىٰ قوائم رواسخ، ودعائم صلاب لا منفذ فيها الوهن، ولا موضع لثغرة.

إنّه يدعوا إليه أمينه: علي بن أبي طالب، فيأمره: «اخرج في آثار القوم، وانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنّبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنّهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده، إن

---

١ . المصدران السابقان.

٢ . آل عمران: ١٧٢.

أرادوها لأسيرنّ إليهم ثم لأناجزنّهم!».

وقال كأنّما يتحدّث عن ظهر الغيب: «لا يصيب المشركون منّا مثلها حتّىٰ يفتح الله علينا»[١].

وصدق.

ويأتمر علي بأمر الرسول، يقول: «فخرجت في أثرهم أنظر ماذا يصنعون، فجنّبوا الخيل، وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة».

ومنذ تلك اللحظة بدأ التحوّل الكبير، وعت في أهل الشرك ألباب كانت لا تعي، ورأت أعين كانت لا تبصر، وفقهت قلوب كانت كالجلاميد ... وراحت الشمس تغرب عن أُفق الأصنام.

* * *

ولم تكن الصدفة وحدها هي التي ساقت أبا سفيان وجماعاته الضالّة هذا المساق، بل صدْقُ التوقّع وحسن التدبير، بل سخّر الله من أهل الشرك من يخدم أهل الإيمان!

قيل[٢]: وأقام الرسول وجنده بحَمْراء الأَسَد، علىٰ ثمانية أميال من المدينة ينتظرون انكفاء أعدائهم إليهم، فمرّ بهم معبد الخزاعي وهو يومئذٍ رجل مشرك، فقال لرسول الله: يا محمد، أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم!

وانطلق من لدنه حتّىٰ لقي أبا سفيان ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا الرجعة إلى المسلمين ليقضوا عليهم، تقول شياطينهم بعضها لبعض: أصبنا حدّ أصحاب محمد وقادتهم وأشرافهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم! لا والله! لنكرّنّ علىٰ بقيتهم، فلنفرغن منهم!

---

١. السيرة النبوية ٣: ١٠٦، البداية والنهاية ٤: ٤٨.

٢. السيرة النبوية لابن هشام ٣: ١٠٨.

فلمّا رأى أبو سفيان معبداً سأله: ما وراءك يا معبد؟

فأنطق الله الخزاعي: ورائي أنّ محمداً قد خرج في أصحابه يطلبكم، وهم يتحرّقون عليكم تحرّقاً، قد اجتمع معه من كان تخلّف عنه في يومكم، وندموا علىٰ ما صنعوا ... فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قطّ!

فرجّ قوله شيخ قريش فهتف: ويلك! لقد أجمعنا الكَرَّة عليهم لنستأصل شأفتهم.

قال معبد: فإنّي أنهاك عن ذلك، فوالله ما أراك ترتحل حتّىٰ ترىٰ نواصي الخيل.

فقذف الله الرعب في قلب أبي سفيان وجنوده فانثنوا إلى مكّة!

* * *

حتّى النسوة المهاجرات والأنصاريات ممّن حضرن القتال، أو شهدن أعقابه، كنّ كثيراً ما يغالبن طبائعهنّ الأنثوية الرقيقة، وهنّ يتابعن المقاتلة من المسلمين، بالسقيا والرعاية والتمريض، غير آبهاتٍ بما يلقين من لأُواء[1] وبلاء.

كنّ ينفضن الجزع، ويلذن بالصبر، وتأخذ بعضهنّ سورة الغيرة علىٰ دين الله، حتّىٰ ليقفن ـ أحياناً ـ في المعامع مواقف الرجال.

فلقد كانت للمرأة المسلمة في الجهاد أدوار ذكرت منها صحائف التاريخ جانباً، وغفل عن ذكر جوانب منها رواة الأخبار.

وها هي الزهراء، كمثال، تمحّض أباها رعايتها، وهي بعدُ في بواكير عمرها النضير، وتمسح عنه أذاية الأعداء.

ثم لا تكاد تغيب عن مشاهدة حتّىٰ لنراها تصحبه في الفتح الأكبر فتدخل معه مكة، وتحضر ساعات تطهيره المسجد الحرام من أرجاس الأصنام، يوم ردّه الذي

---

١ . اللأْواء: الشدّة.

فرض عليه القرآن إلى المعاد.

ويحسبها أن حنّت عليه في أُحد حنوّ أمٍّ علىٰ ولدها الوحيد، حتّىٰ لودّت لو عوّضته من قلبها ما نزفت جروحة من دماء.

جاءها وما زال نقع المعركة يثور، فناولها سيفه، وهو يقول: «اغسلي عن هذا دمه يا بُنيّة، فوالله لقد صدقني في هذا اليوم»[1].

وقدّم لها زوجها سيفه وقد انحنىٰ من شدّة الطعان: «وهذا فاغسلي عنه دمه».

ففعلت وإن لم يشغلها شيء عن مداواة الأب الجريح حتّىٰ رقأت جراحاته، ومسحت يدها الآسية عليه بالعافية والشفاء.

* * *

وها هي صفيّة بنت عبدالمطلب جاءت لتنظر إلى أخيها «حمزة» الذي اخترمته حربة وحشي... فما أن يعلم النبي حتّىٰ يبعث إليها بابنها «الزبير» يردّها رحمةً بها أن ترىٰ ما حلّ بالشهيد من مُثله: «ألقها فأرجعها، لا ترىٰ ما بأخيها»[2].

فلا يكاد ولدها يحدّثها، حتّىٰ تنفض عن نفسها إحساسها بالفجيعة، وتقول بثبات: ولِمَ وقد بلغني أنّه قد مُثّل بأخي، وذلك في الله؟ لأحتسبنّ ولأصبرنّ إن شاء الله.

ومضت، فنظرت إلى الشهيد العزيز، ثم صلّت عليه، واستغفرت له.

* * *

وشهدت عائشة أيضاً هذه المعركة بصحبة أُخريات.

قيل: خرجت من السحر مخرج رسول الله إلى أُحد، تستطلع الخبر، تقول أم

---

١ . البداية والنهاية ١: ٤٨.

٢ . المصدر السابق: ٤٣.

المؤمنين: ... حتّىٰ إذا طلع الفجر نظرنا، فإذا بعير قد أقبل عليه امرأة بين وسقين، فدنونا منها، فإذا هي امرأة عمرو بن الجموح[١]، فقلت لها: ما الخبر؟

فلم تكتم المرأة إحساساً بالطمأنينة، فاض بشراً علىٰ محيّاها، وقالت: دفع الله عن رسول الله.

وكان ذلك صباح الأحد، عقب يوم المعركة المرّة، ثم قالت امرأة عمرو لبعيرها: حل! ونزلت.

فسألتها عائشة، وهي تشير إلى الوسقين: ما هذا؟

فردّت المرأة وقد غرق حزنها علىٰ فقيديها في طوايا فرحتها بنجاة الرسول: هذا أخي... وهذا زوجي[٢]!

* * *

وقيل[٣]: روت أم سعد بنت سعد بن الربيع: دخلت علىٰ أُم عمارة: نسيبة بنت كعب المازنية، فقلت لها: يا خالة، أخبريني خبرك.

قالت نسيبة: خرجت أول النهار، يوم أُحد، أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله وهو في أصحابه، والدولة والريح للمسلمين، فلمّا انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ... فقمت أباشر القتال، وأذبّ عنه بالسيف، وأرمي عن القوس حتّىٰ خلصت الجراح إليّ.

تقول راوية الخبر: فرأيت علىٰ عاتقها جرحاً أجوف له غور، فقلت لها: من أصابك بهذا؟

قالت: ابن قمئة، أقمأه الله!

---

١ . وذكر المؤرخون أنّ عمرو بن الجموح هذا قد جُمع بينه وبين عبدالله بن عمرو بن حرام والد جابر في لحدٍ واحدٍ، لأنّهما كانا متصاحبين، لم يُغسلا بل تركا بدمائهما وجراحهما. (سيرة ابن هشام ٣: ١٣٢).

٢ . البداية والنهاية ٤: ٤٢ ـ ٤٣.

٣ . المصدر السابق: ٤٥.

لمّا ولّى الناس عن رسول الله، أقبل ابن قمئة يقول: دلّوني على محمد، لا نجوت إن نجا!

تقول نسيبة: فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأُناس ممّن ثبت مع رسول الله، فضربني هذه الضربة ... ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكنّ عدوّ الله كانت عليه درعان.

* * *

ثم انصرف رسول الله إلى المدينة، فمرّ بامرأةٍ من بني دينار، قد أُصيب زوجها وأخوها وأبوها مع النبي بأُحد. فلمّا نعوا لها، لم تذهب مصيبتها فيهم بوعيها جزعاً، ولا انخلع قلبها عليهم هلعاً كما تقلع الكوارث المدمّرة القلوب والعقول اقتلاع العواصف والأعاصير المجنونة الشجر والنخل من الجذور!

إنّما تماسكت صبراً، وملكت جأشها، وسألت الناس: وما فعل رسول الله؟

قالوا: خيراً ... هو بحمد الله كما تحبّين.

ومع هذا فقد أبت إلّا أن ترى رأي عين، وعندئذٍ تحرّك لسانها بما يشبه مقولة خليل الرحمن إبراهيم إذ قال لربّه: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

قال الله: ﴿أَوَ لَمْ تُؤْمِن﴾؟

قال أبو الأنبياء: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1].

وكذلك قالت المرأة الدينارية للناس، وكلّ مشاعرها مشوّقة متحفّزة لرؤية رسول الله، فأشاروا لها إليه، فأقبلت نحوه تهطع[2]، ثم قالت ومحيّاها ابتهاج: كلّ مصيبةٍ بعدك جلل[3]، يا رسول الله[4]!

* * *

---

١ . البقرة: ٢٦٠.

٢ . أهطع في السير: إذا أسرع وهو خائف.

٣ . جلل: هيّنة.

٤ . البداية والنهاية ٤: ٤٨.

وأُخرىٰ من النساء ذهبت إلى ساحة الوغىٰ تلتمس بعض أهلها في القتلىٰ، فتقف علىٰ قتلىً من فرط ما أُصيبوا به من جراحة وتشويه لا يكاد شيء فيهم ينمّ عن شخصية شهيد، وتحار المرأة بين نظراتها التي لا تكاد تميّز، وبين شعورها الذي يهمس لها: ها هم أولاء!

فتسأل الذين شهدوا القتال: من هذا؟

فيقول قائل: أخوكِ.

ـ وهذا؟

ـ ابنك.

ـ وهذا؟

ـ زوجك.

ـ وهذا؟

ـ أبوك.

فتسترجع وتحوقل، ثم تسأل وما فعل رسول الله؟

فيجيئها الجواب: أمامك!

فلا تكاد تسمع حتّىٰ تنفلت إلى رسول الله، وقد توارى عنها برح الحزن، وتقول: بأبي أنت يا رسول الله! والله ما أبالي ـ إذ سلمت ـ من عطب[1]!

فبحسبها أن نجا الرسول الكريم.

كذلك الإيمان! وكذلك الولاء!

* * *

ويقفل الرسول من حمراء الأسد بعد ثلاثة أيام عائداً إلى المدينة، فلعلّ البلدة الطيّبة لم تشهد مرّةً فرحاً أقرب إلى حزن، ولا حزناً أقرب إلى فرح، منها هذه المرّة

---

١ . محمد رسول الله والذين معه، لعبد الحميد جودة السحّار. (المؤلّف).

فلقد ارتدّت جحافل المشركين مهطعة[1] إلى مكة، وقد أوقع الله في قلوبهم الرعب، فإذا هم أدنىٰ إلى فلولٍ منهزمةٍ تلوذ بالهروب منهم إلى جيوش منتصرة أصابت الفلج على المسلمين.

ولقد سلم رسول الله ... ولقد فاء رجاله إلى الإحساس الوثيق بالأمان.

غير أنّ الاكتواء بسعير اليتم والترمّل، دفع الصدور إلى التنفيس بالندب والنوح عن همّها الثقيل.

فإذا الأعين دموع، وإذا الأنفاس أنين، وإذا الكلمات بكاء.

وعندما سمع الرسول تلك الأصوات الحزينة تندلع من بعض بيوت بني عبدالأشهل آسىً علىٰ قتلاهم، ترقرقت عيناه بالعبرات، وقال وهو أسيف: «لكن حمزة لا بواكي له!».

وعرف ذلك سعد بن معاذ وآخرون من الأنصار، فجمعوا[2] كلّ نائحة باكية كانت بالمدينة فقالوا لهنّ: والله لا تبكين قتلى الأنصار حتّىٰ تبكين عمّ رسول الله.

فلمّا سمع النبي النوائح، وعلم أمرهنّ، خرج إليهنّ وهنّ في باب المسجد يبكين، وقال: «ارجعن يرحمكن الله، فقد آسيتنّ بأنفسكنّ».

واستغفر للأنصار وقال: «ما هذا أردت، وما أحبّ البكاء»[3].

ونهىٰ عنه.

---

١ . مهطعة: مسرعة.

٢ . السيرة النبوية، لأبي الفداء. (المؤلّف).

٣ . البداية والنهاية ٤: ٤٩.

اللوحة السابعة

الحسن والحسين نجمان نيِّران

كانت رحمة ربك أرفق بالزهراء من لين الأيام.

فالأمن رحمة، والحكمة رحمة ... ولكن الصبر رحمة الرحمات.

ولقد أُوتيت فاطمة من رضا الله ما احتوى كلّ رحمة ربانية، تشحذ الفكر، وتضيء الوجدان، وتعلو بمقامها في العالين فوق كلّ مقام.

وإذا كانت ـ كما تبدّت في عين الدنيا ـ أليفة أسئ وشجنٍ، وحليفة همٍّ وألمٍ، فإنّها ـ باللطف الإلهي ـ لم تكن دائماً لقئ بين يدي محن الأكدار، يتنقّل من غيض البسمة، إلى سخونة العين، إلى شرود البال ... ثم يكرّ عوداً علىٰ بدء ليخطو من جديد علىٰ طريق شجنها الطويل.

فمن خلال سحائب الحزن المتراكم، وعتامة الرؤية: الحسّية أحياناً، النفسية أخرى، كانت رحمة الرحمن تبعث بشعاعةٍ بارقةٍ، تضيء من حولها جوانب من أُفق الحياة المتجهّم[1]، الذي سرحت ظلاله الداكنة على النور، وبدت شمسه كأنّما غاص نهارها كلّه في عتمة الكسوف.

وعلىٰ فترة من معاناتها المتّصلة على امتداد عمرها الدنيوي القصير، كانت تظهر لها لمحات مشرقة من الراحة والأمل والسكينة، تغسل نفسها بالبشر والفرح والابتهاج.

---

١ ـ المتجهّم: الكالح، العبوس.

لكنّها لم تقع قطّ في براثن يأسٍ طاغٍ، من ذلك النوع المعربد الأخرق، الذي يعيث في القلب عيثاً، ويعبث به عبثاً، ويجيل العيش في الأفواه ثمرةً حنظليةً مُرّة المذاق، ويجعل انبساطه العروق في الصدر تقلّصات وعقداً تكتم الأنفاس، ويملأ الأعين ظلمة من فوقها سواد، ومن تحتها سواد.

كانت نفسها بمثابةٍ آمنةٍ، وجنّةٍ حريزةٍ، ما كانت لتقنط من روح الله، ولا كان ربّها ليجزيها على صبرها المؤمن بالقنوط الكفور.

فحين اشتدّت المحنة بها، إذ تجمّعت على الرسول أحقاد قومه، وأحاط به سفهاؤهم يخنقون طريقه، وغدا حبيس سياجٍ من سيوفهم تشرّعت لا غتياله، يومئذٍ جاءها الخبر يزفّ إليها نجاته.

فلقد اخترق حلقة الحصار الأبكم بسلام، والمتربّصون به ليقتلوه ينظرون ولكنّهم لا يرون، ويرهفون سمعهم اللاقط لكلّ حركةٍ ثم لا يسمعون.

شاهت منهم الوجوه! انطمست البصائر! عُميت الأبصار!

* * *

ويوم خرجت من مكّة مهاجرةً، وطاردتها كوكبة فرسان «جناح»، عجزت خسّة السلائق[1]، وفشل صَلَف[2] الطغيان، وثلمت حدّة السلاح.

ولم يستطع الأمر الذي بيّتوه وأعدّوا له أن ينال منها وطراً، إلّا هجمة جبان، وترويعة يعير، واطّراحه على الثرى إن تكن آذتها بعض أذىً، فإنّها لم تحقّق غرض أهل السوء، ولا استنزفت بدنها النحيل ماء الحياة.

وفرّ عنها الهلاك خزيان!

* * *

---

١ . السلائق: جمع سليقة، وهي الطبع.

٢ . الصَلَف: التكبّر.

وعندما أطبقت إليها في «أُحد» الفواجع، فجرح الرسول، ومُثّل بعمّه «حـمزة» أفظع تمثيل[١]، وتهاوت طائفة من خيار المؤمنين صرعىٰ عند سفح الجبل ... كـان ربّها قد أسلف لها في علمه فرحةً سبقت الوقعة، لتصدّ عنها بعض هذا الغمّ النازل، فتخفّف من وقعة وإن لم تدفعه، وتلتوي به عن طريق شرّه المستطير وإن لم تطح به في الهواء كالهباء.

تلك فرحة أُمّ بأوّل مولود ... فرحة عادل الله بها بين تـجهّم العـبوس وبشـاشة الأسارير، وبين البسمات والدموع، بل ما لبثت المـحبّة الربـانية أن زادت الكـيل، فضاعفت للزهراء سرورها ضعفين.

فمرّة أُخرىٰ جاءتها علىٰ يدي رحمة الله نعمة مهداة!

بعد حول وأيام، جاءها أخ لصغيرها الذي كان، حينئذ يحاول أن يثبت قـائماً علىٰ قدميه، أو يحرّكهما حركةً هيّنةً: خطوة هنا، وخطوة هناك.

مع رجب الرابع، الذي طلع عليها وهي بالمدينة، جاءها ثاني سيديَّ شباب أهل الجنّة.

فإذا الوليد وليدان، وإذا الفرحة فرحتان، وإذا هي تمسي وتصبح وإلى جـانبيها نجمان نيّران!

أمّا رسول الله، فقد كان أسرع مـن شـوقه التـوّاق إلى الغـلام الجـديد، لحـظةً لحـظةً، كـان يـنتظر حـضوره بشـغفٍ لهـيفٍ، كأنّـما كـانا عـلىٰ مـوعدٍ للـقاءٍ محسوب.

وكما خفّ بأحلىٰ مشاعره إلى الأول، خفّ إلى هذا الثاني ليسبق إليه كلّ محبٍّ وحبيب، بعاطفته القدسية الفيّاضة، التي لا يتّسع لها غير قلبه الكبير.

وأين نظيره في خلق الله؟ أين حبّ كحبّه؟ أين قلب كقلبه؟ ثم أين فتى كـفتاه

---

١ . حيث جُدع أنفه، وقُطعت مذاكيره، وشقّ بطنه حتّى صدره، وقُلعت أحشاؤه، ودُلع كبده حتّىٰ لاكته هند بنت عتبة أُم معاوية بن أبي سفيان!!

وفتاه، فيمن دفعت الأرحام؟

وشبيهاً بما تلقّىٰ به عليه صلوات الله أخاه تلقّاه، فكبَّر في أُذُنيه وأقام ... ومثلما دعا الأكبر «حسناً»، دعا الأصغر «حُسَيناً».

ربّما تيّمناً باسم البكر، ربّما علىٰ سبيل الإتباع والمحاكاة، ربّما من قبيل التمليح والتدليل؛ وفاقاً لمنطق اللغة في مدلولات التصغير.

ثم احتفل به في اليوم السابع كاحتفاله بالحسن من قبل: عقّ عنه بكبش، نفح القابلة بدينار، حلق رأسه، وتصدّق بوزن شعره فضّة.

* * *

وسعد بولديهما الأبوان الصغيران سعادةً أول مباعثها أن ستتجدّد فيهما مخايل الإنسان الأمثل أو الرسول الإنسان.

أمّا الأب الكبير، فقد شغف بهما أيّ شغف، وولع أيّ ولوع، فحبّه طاقة من الحنان والإيثار، ليس بمثله تنبض قلوب الأناسي وغيرهم من الأحياء.

إنّه جماع أحاسيس يعجز عن استشعار بعضها أيّ حبٍّ سخيٍّ معطاء، مشاعر حلوة الموارد، عذبّة المناهل، تتدفّق وتسيل فتملأ آفاق الأرض، وتفيض وتفور فتغمر طباق السماء.

ولقد تراه وإنّه لا يطيق أن يبعد عنهما، أو يبعدا عنه ... فإن بَعُدا لأمرٍ ما، فبالمرأىٰ والصورة، وإن بَعُد فليس بالفكر ولا بالشعور.

ولقد نراهما وإنّهما ليسا كنان في قلبه خفوقه، ويعايشان في دمه دفوقه، في باله يخالطان خطرات أفكاره، وفي نفسه يسبحان علىٰ خلجات شعوره.

حزنهما حزنه، فرحهما فرحه ... غضبهما غضبه، رضاهما رضاه.

وحقّ أن يحظيا منه بهذه المكانة من حبّه العظيم الذي اختصّه ربّه بين العواطف الرفيعة بأسمىٰ مقام ... فهما من بضعته الشريفة الحبيبة: الزهراء، التي يقول فيها عليه الصلاة والسلام:

«إنّ الله يغضب لغضبك، ويرضىٰ لرضاك»[١].

* * *

ذلك حبٌ فريد كأنّه محال!

لا تبلغ أداني أدانيه تهاويل الأساطير، ولا تتّسع لحرفٍ واحدٍ من حروفه أخيلة الشعراء.

وها هي فاطمة يبهرها ما يتكشّف لها عنه لفتيبها قلب الرسول فلا تكاد ـ بكلّ ذخائر الأُمومة البارّة الحانية ـ أن تباريه.

فلو أنّ شوكةً وخزت بنان أحدهما، أوأدمعت سلامي أصبعٍ الآخر، لحدّثها قلب أبيها أنّه يحسّ لوقعها في نفسه مثل طعنةٍ نجلاء من سنّ رمح حديدةٍ محماة!

ولو سالت دمعة من عين هذا أو عين ذاك، لأوشكت أن ترىٰ أباها يجزع لانفراطها جزع بخيل علىٰ درّةٍ له ثمينة فقدها، ودون قيمتها كلّ كنوز قارون!

أفلا يحقّ لها إذاً أن تدرك أنّ حبّه العظيم هذا لصغيريه إن هو إلّا تعبير بليغ يطابق بكلّ حذافيره خوفه عليهما أن يصيبهما مكروه؟

بلي، ولا جدال!

فعلىٰ قدر حبّنا يكون خوفنا على المحبوب، وعلىٰ قدر خوفنا عليه يكون الحبّ.

فليس الحبّ عاطفةً أُحادية العنصر، منعزلة عن بقية العواطف التي تجيش في الصدور بأحاسيس عذبة أو مريرة، مفرحة أو حزينة، بل هو شعور طرفاه خشية وأمل، ونسيجه قلق وطمأنينة.

---

١ . تقدّم تخريجه: وغير خفيّ علىٰ أيّ إنسانٍ مهما أُوتي حظّاً من العلم أنّ غضب الخالق الجبّار لغضب أحد مخلوقاته، ورضاه لرضاه، ليدلّ ـ قبل كل شيء ـ دلالةً قاطعةً علىٰ علوّ منزلة هذا المخلوق، وسموّ مرتبته عنده عزَّ وجلَّ، أقلّها العصمة كما هو ظاهر.

فإذا ما أخذتنا صبوة الحبّ، والحياة مستبشرة، إذن لدحينا[١] هذا البشر ومددناه، لنغرق في ضيائه الوهّاج أيّة عتمة قد يباغتنا بها غدٌ خوّان باسر[٢]، وإذا ما أخذتنا، والحياة منكدرة، إذن لمحونا عبوسها بطموحنا إلى غدٍ مشرقٍ آمل.

وبين طرفي الأمن والخوف: الضياء والظلام، تستقرّ بنا أو تتقلقل مشاعر، وتهدأ أوتتبلبل خواطر.

ولَكَم شهدت فاطمة من هذه الصبوة الحُبّية ألواناً، كان النبي يطالع بها الدنيا في كلّ لحظةٍ من مساء ونهار! ولَكَم عجب الناس وهم يسمعون عمّا تشهد الأُم الصغيرة من صور حبّه لبنيها، أو وهم يشهدون فإذا عجبٌ بعضهم إكبار، وإذا عجب آخرين إنكار!

ولا غروأن تتراوح انفعالات النفوس البشرية بالعواطف، علوّاً وهبوطاً في مراقي التقدير.

في جميع أنماط سلوكه اليومي كانت تتبدّىٰ آيات ذلك الحبّ الكبير، في حركاته كما في سكناته، في أفعاله وفي أقواله، في ساعات جدّه الرصين، وأُويقات لهوه الوقور.

حتّىٰ وهو يبشّر برسالة السماء ... وحتّىٰ وهو بين يدي الله.

* * *

فلقد يشاهد وهو يدلّل أبناءه هؤلاء بالمداعبة الحلوة، واللفظ المؤنس، فلا يكون التدليل إلّا درساً ينبغي أن يعيه الكبار قبل أن يكون لهواً يتسلّىٰ به الصغار.

وهل قصارىٰ ما نرتجيه للطفل إلّا أن يشبّ علىٰ سوية واستقامة تتوافق فيه قدراته البدنية مع ملكاته العقلية، وتتوازن فيه نزعات النفس مع إشراقات الروح؟

لقد تراه عليه الصلاة والسلام يمسك بيدي الحسين، ثم لا يزال يرقّصه ويستدرجه حتّىٰ يبلغ بقدميه الصغيرتين صدر الجدّ المنتشي فرحاً وهو ينشد له:

---

١ . دحا: بسط.

٢ . الباسر: العبوس.

«حزقّة! حزقّة! ... ترقَّهْ! ترق عين بقَّة!»[1].

ويضحك الصغير ... ويحتضنه النبي، ويقبّله بكلّ الحنان.

فربّما قيل: غلوّ في التدليل، وربّما قيل: افتآت علىٰ قدسية النبوة، وخدش لهيبة الرسول.

لكنّ هذا الذي يقال، نقداً وتعليقاً، لا يعدو أن يكون قولاً جهولاً من قائل جهول!

ذلك لأنّ أجهزة الحسّ الخمسة، من سمع وبصر ولمس وشمّ وذوق، هي أول ما ينشأ ويتكوّن في الطفل، ويمارس وظائفه الطبيعية، لا شعورياً وشعورياً، حيناً أفعالاً منعكسة تلقائية وحيناً واعية إرادية، يصاحب كلّاً منها استجابة نفسية معيّنة، بل قد ثبت بالبحث العلمي والتجربة التطبيقية أنّ قدرات الحسّ تختلف نشأةً وظهوراً، في أغلبها، حتّىٰ يولد الطفل، بينما انفعالاته النفسية تعتمل فيه وإنّه بعد لجنين في بطن أُمه لمّا يكتمل وليداً سويّاً.

ومن المقطوع به أنَّ «الحنان» الذي تنبثق منه مداعبة الصغير وتدليله، هو في حقيقته مشاركة وجدانية تشعره برغبتنا فيه، وإقبالنا عليه، وحاجتنا إليه، وهو تعويض له عمّا ينتقصه منه قصور تكوينه، وهو إشباع لجوع قدراته الحسّية، يمكن القول بأنّه تدريب عملي لتنميتها لتبلغ غاية نضجها الحيوي الكامل.

ولقد ورد في الآثار: «لاعب ابنك سبعاً، وأدّبه سبعاً، وصاحبه سبعاً، ثم اترك له حبله على الغارب»[2].

---

١ . رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ٩: ١٧٦ عن أبي هريرة وقال: «أخرجه الطبراني».

٢ . وورد عن النبي الأكرم ﷺ: «الولد سيّد سبع سنين، وعبد سبع سنين، ووزير سبع سنين، فإن رضيت مكاتفته لإحدىٰ وعشرين وإلّا فاضرب على جنبه». أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٨: ١٥٩ عن أبي جبيرة، والعاملي في وسائل الشيعة ٢١: ٤٧٦ ب٨٣ من أبواب احكام الاولاد من كتاب النكاح ح٧ عن مكارم الاخلاق.

وفي الباب عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: «يُربّىٰ الصبي سبعاً، ويُؤدَّب سبعاً، ويُستخدم سبعاً، ومنتهىٰ طوله في ثلاث وعشرين سنة، وعقله في خمس وثلاثين، وما كان بعد ذلك فبالتجارب». انظر الوسائل : ٤٧٥ ح٥.

لم تنبت هذه المأثورة من فراغ، بل هي ثمرة التجربة الإنسانية الطويلة في مجال الطفولة.

وعندما كان رسول الله يلاعب حفيديه، فليس لأنّ اللعب لهو وتسلية وتسرية، بل لأنّه أُسلوب تربوي للطفل في الفترة المبكّرة من حياته، يلائم قدراته المحدودة، ويجعله ـ بالرضا والشوق، وبالرغبة الخالصة ـ يقبل على التلقّي، ويتفتّح للتلقين، كما يقبل أيّ صغير على ابتلاع الجرعة الدوائية المرّة إذا ما غلّفتها بطبقة سكّرية حلوة.

وفي حسباني أنّ النبي ـ وهو المربّي الأكبر ـ كان كمن يتّخذ من كلا ولديه وسيلة إيضاح تعليمية، أوحقلاً خصباً لاستنبات مبادئ التربية السليمة، ينقل الآباء من بذورها وعقلها ما يستزرع في التربة الإسلامية الخصبة.

وتعال فانظره علىٰ هذه الصورة:

يخرج يوماً في نفرٍ من أصحابه، فيرى الحسين يلعب مع غلمان من أترابه، فيسبق إليه، مشوّق القلب، فيّاض البشر، محاولاً أن يمسك به ... لكنّ الصغير، استجابةً لنزعات طفولته الغضّة البريئة، يفرّ منه هنا مرّةً، وهناك مرّةً، مغرقاً في الضحك كلّما فاته. فلا يزال النبي يتبعه ويلاحقه، مظهراً له أنّه السبّاق ليزيد في متعته وسروره ... ثم يتمكّن منه، فيرفعه ويقبّله بشغف يتلألأ له جبينه، ويقول للذين معه:

«حسين منّي وأنا من حسين».

ويدعو ربّه:

«أحبّ اللّهم من أحبّ حسيناً»[1].

---

١ . أخرجه كبار الحفّاظ والمحدّثين، منهم: الترمذي في السنن ٥: ٦٥٨ ب٣١ من أبواب المناقب ح ٣٧٧٥ عن يعلي بن مرّة، وابن ماجة في السنن ١: ٥١ ب ١١ من أبواب المقدمة ح ١٤٤ عن يعلي أيضاً، والطبراني في المعجم الكبير ٣: ٣٣ ح ٢٥٨٩ عنه أيضاً.

ويشهد بعضهم ويسمع ما كان من الرسول عندئذٍ، فيعجب له، ويقول كالمستهجن: أراه يصنع هذا بحفيده! والله، إنّ لي ولداً وما قبّلته قطّ!

فينكر النبي هذه الغلظة الجافية من الرجل، ويردّ عليه: «من لا يَرحم لا يُرحم!»[١].

ويضع بعبارته هذه حبّ الصغار موضعه، فمداعبة الطفل تعبير عملي عن الحنان، والحنان من الحبّ... والحبّ رحمة.

فإن يكن هذا الدرس الذي ألقاه محمد علىٰ أُولئكم النفر أولىٰ بأن يكون نهجاً لكلّ الكبار، فإنّه أيضاً أولىٰ بأن يكون قد نقش نقشاً في نفس الصغير الغضّة، فيشبّ وإنّه على الرحمة مطبوع، وعلى الحنان مطبوع، وعلى الحبّ مطبوع... بل أنّه لأحرىٰ بأن يتفتّق عن لونٍ من العرفان بالجميل، ينجب الولاء، ذلك لأنّ الحبّ عادةً عاطفة متبادلة بين قلبين، هي بذل وأخذ، منح ووفاء.

فأن يبدي الأب حبّه لولده فهذا عطاء، وأن يحبّ الولد أباه فهذا جزاء، وقد يجيء الجزاء عن رغبةٍ وصدق شعورٍ فإذا هو ولاء، وقد يجيء عن رهبةٍ واتقاء محاذير فإذا هو رياء.

فهل تستوي الحالتان؟

بل لا يستويان... أمّا الأُولىٰ فيشبّ صاحبها على التخلّق بالمكارم؛ لأنّه يأخذ باللطف النابض برحمة الله، ويمتثل الرفق المستقىٰ من حنان رسول الله... فإذا هو والناس علىٰ مودّة وأُلفة، صادق معهم كصدقه مع ذاته، في السرّ والعلن، شجاع رأيه، ثابت جنانه، سويّ السلوك والتفكير.

---

١ . أخرجه البخاري ٥: ٢٢٣٥ ب١٨ رحمة الولد وتقبيله من أبواب الأدب ح٥٦٥١ عن أبي هريرة أنّه قبّل النبي ﷺ الحسن بن علي عليه السلام وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إنّ لي عشرةً من الولد ما قبّلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله وقال له ما قال. وأخرجه أيضاً أحمد ٢: ٢٤١، ٥١٤ و٤: ٣٦٥، والبيهقي في السنن ٤: ٦٩.

ولا عجب، فقد نهل من منهل الرسول الأعظم الذي قال ربّه فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

وقال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[2].

وقال هو في نفسه:

«أدّبني ربّي فأحسن تأديبي»[3].

وأمّا الثانية فيشبّ صاحبها على التزام ما يكره؛ لأنّ شبح الغلظة الجافية التي نشّأه عليها أبوه لا يفتأ بطارده مهما امتدّ به عمره.

عندئذٍ يعيش حياته موزعاً بين الرغبة والرهبة، فإذا كيانه يهتزّ، ونفسه تنشطر، وإذا الرياء سننه، والجبن ديدنه، يقول بلسانه ما لا يعتمل بجنانه، ثم يقترف في الخفاء ما يشاء.

* * *

وطبيعي، أنّ رسول الله في رعايته لفتييه كان متأدّباً بأدب ربّه، مهتدياً بهديه الكريم.

ومن ثم فإنّ كلّ ما بدر منه نحوهما، في مجالات العناية والتوجيه، هو أولىٰ بأن يحسب في المُلهمات، ذلك لأنّ تلكم البادرات لم يكن ليقصد بها التخصيص دون التعميم.

والدلالات قائمة.

فلقد كان عليه الصلاة والسلام يحبّ أن يتجوّل في أسواق المدينة ومعه أحد حفيديه، حاملاً إيّاه علىٰ كفته، وربّما مصاحباً له، يماشيه علىٰ مهلٍ حسبما تسمح

---

١ . القلم: ٤.

٢ . آل عمران: ١٥٩.

٣ . رواه العجلوني في كشف الخفاء ١: ٧٢، والشوكاني في الفوائد المجموعة: ٣٢٧، وفي كنز العمّال ١١: ٤٠٦ ح٣١٨٩٥ عن ابن السمعاني في أدب الإملاء عن ابن مسعود.

للصغير خطواته القصار إذا طال التجوال.

فإذا بلغ المسجد وقام للصلاة، وضعه برفقٍ إلى جواره.

فربّما كان اصطحابه إيّاه هنا وهناك ليألف مخالطة الناس، وربّما لكي يعودّه الأُنس بفرائض الله.

والسوق ـ كما هو معلوم ـ مكان عام، والمسجد أيضاً مكان عام، والحديث الجاهر في كليهما أحقّ بأن يتلبّس بصفات العموميات.

قيل: وسجد النبي مرّةً فأطال حتّىٰ شقّ على المصلّين، فلمّا فرغ وسلّم، قال له بعضهم وهم يعجبون: يا رسول الله، إنّك سجدت سجدةً أطلتها، حتّىٰ ظنّنا أن قد حدث أمر، أوأنّه يوحىٰ إليك!

فأجاب: «كلّ ذلك لم يكن ... ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله»[1].

كلام موجز قصير، واضح الدلالة، بليغ التعبير، يمثّل لفتةً أبويةً نبويةً لتكريم حفيد كريم.

لا جدال!

ومع ذلك فهو يجمع العمومية إلى الخصوصية، لأنّ مناط الحكمة فيه أحقّ بأن يتعلّق بالحشد القائمين حينذاك بالمسجد، ثم من وراءهم من جماعة المسلمين منه بأن يتعلّق فقط بغلام لم يجاوز من عمره عامين أو ثلاثة أعوام!

إنّه لدرس في التيسير، حكيم من حكيم، لعلّه أن ينفع كلّ المتشدّدين والمتزّمتين من الذين يغضّون الفهم عن اللباب، ويتمسّكون بالقشور، ثم يذهبون إلى أبعد الأقاصي غلوّاً في الدين!

* * *

---

١ . رواه النسائي في السنن ٢: ٢٢٩ ـ ٢٣٠،والحاكم في المستدرك ٣: ١٦٦ عن عبدالله بن شداد عن أبيه.

وعلىٰ غرار هذا السلوك النبوي المستبصر الرشيد ـ الذي يضرب للناس مثلاً يبيّن لهم كيف ينبغي ألّا يشقّوا علىٰ أنفسهم ولا علىٰ صغارهم وإن في أقدس قدسيات الدين ـ كان سلوك الرسول الأعظم في موقفٍ مثيل:

شوهد النبي مرّةً علىٰ منبر مسجده يخطب جمهور المسلمين في أُمور دينهم ودنياهم، ويعلّمهم ممّا علّمه ربّه، فإذا هو يلمح الحسن والحسين يقبلان عليه، يمشيان ويعثران ... وعلى الفور قطع الخطبة، غلبه حنانه، فلم يطق إلّا أن ينزل إليهما، ويرفعهما إليه.

فلمّا صارا بين يديه على المنبر، وطابا نفساً بقربهما منه، وطاب نفساً بأمنهما بين جناحيه، قال للجموع: «صدق الله ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نظرت إلى هذين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتّىٰ قطعت حديثي ورفعتهما»[1].

ثم وصل ما انقطع من خطابه.

* * *

غير أنّ أبلغ الدروس التي شاء الرسول ـ امتثالاً لقول ربّه ـ أن يلقيه علىٰ الأسماع، ثم يثبته في الأرواع، فذلك الذي ظلّ طوال حياته، وإنّه له شعار مختار، لا يني يعيده ويكرّره علىٰ ملأ الناس، قبيل مشرق كلّ نهار، كأنّما كان يخشىٰ عليه منهم غائلة النسيان، فراح يحصّنهم من هذه الغائلة بموالاة التكرار!

فهل أفلحت الإعادة؟ وهل ثبت الادّكار؟

تذكر الأخبار[2]: كان عليه الصلاة والسلام يأتي باب فاطمة وعلي وحسن وحسين كلّ يومٍ، عند صلاة الصبح، حتّىٰ يأخذ بعُضادتي الباب، ويقول: «السلام عليكم، أهل البيت».

---

١ . رواه الترمذي في السنن ٥: ٦١٦ ـ ٦١٧ ح ٣٧٧٤ عن أبي بريدة.

٢ . فاطمة الزهراء والفاطميون، للعقّاد. (المؤلّف).

ثم يقول: «الصلاة ... الصلاة ... الصلاة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[١]»[٢].

أفكانت فاطمة وصحبتها تلك في غفوة، فهم في حاجة إلى من يذبّ عن أعينهم النعاس؟

بغير هذا يقول صدر الخبر، لأنّك لا تقرئ نائماً السلام.

أم كانوا لا ينتبهون للصلاة إلّا أن يدعوهم الرسول؟

أذان بلال كان يكفيه التنبيه.

إنّما أرىٰ أن النبي كان في مستهلّ كلّ يومٍ يردّد ويكرّر ما يردّد ويكرّر، لكي يحفر في القلوب والأذهان أنّ آل بيته هؤلاء هم أعلىٰ مقاماً وآثر على الله ورسوله، وأحقّ بالمودّة والرعاية والاتّباع من الخلق أجمعين.

فهم خالصون من الرجس.

منقّون من الأوزار.

مطهّرون أطهار.

بهذا جاء القرآن.

قيل: جمع النبي علياً وفاطمة والحسن والحسين، وجلّلهم بعباءةٍ خيبريةٍ، ثم دعا ربّه:

«اللّهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً»[٣].

---

١ . الأحزاب: ٣٣.

٢ . والروايات من طرق الجمهور كثيرة، مسندة إلى أبي الحمراء وابن عباس وغيرهما. راجع التفاسير، كتفسير ابن جرير الطبري، والدرّ المنثور للسيوطي، والتفسير العظيم لابن كثير، وغيرها عند تفسير الآية: ٣٣ من سورة الأحزاب المباركة، وهي آية التطهير كما اشتهرت.

٣ . تواتر حديث الكساء عند الجمهور ومن طرق عدّة، عن أم سلمة وابنتها زينب بنت أبي سلمة وواثلة بن الأسقع وعائشة وغيرهم، وبألفاظ متقاربة جداً. انظر علىٰ سبيل المثال: سنن الترمذي ٢: ٢٠٩، تفسير الطبري ٢٢: ٦، المستدرك على الصحيحين ٢: ٤٢٦، السنن الكبرىٰ ٢: ١٥٠، صحيح مسلم ٢ : ٣٣٢، ←

فنزلت الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ ...﴾[١].

ويهزّ الشوق أُم سلمة، وقد حضرت هذا المشهد، فتسأل رسول الله: هل أنا من أهل بيتك؟

فيكون جوابه: «لا، ولكنّك على خير»[٢].

* * *

وقيل[٣]: لمّا أنزل الله آية: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٤]. سُئل النبي: يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟

قال: «علي وفاطمة وولداهما»[٥].

* * *

← أُسد الغابة ٢: ١٦، مشكل الآثار ١: ٣٣٥، تاريخ دمشق ٤: ٢٠٤، تفسير الرازي ٦: ٧٨٣، الإصابة في معرفة الصحابة ٤: ٢٠٧، الصواعق المحرقة: ٨٥، الرياض النضرة ٢: ١٨٨، الشرف المؤبّد: ١٠، مصنّف ابن أبي شيبة ١٢: ٧٢، شواهد التنزيل ٢: ٦٤ ح٦٨٦ وما بعده، نور الأبصار: ١٢٣، مسند أبي يعلى الموصلي ١٣: ٤٧٠ ح٨٤٨٦ ... وغيرهم.

١. الأحزاب: ٣٣.

٢. مسند أحمد ٤: ١٠٧ و٦: ٢٩٢، ٢٩٦، ٣٠٦، تاريخ دمشق ٤: ٣١٨، تفسير الطبري ١٠: ٢٩٧، شواهد التنزيل ٢: ١٣٠ ح٧٦١ و: ١٢٨ ح٧٥٨، ٧٦٠، مستدرك الحاكم ٢: ٤١٦، كفاية الطالب: ٣٧١ ـ ٣٧٢، ذخائر العقبىٰ: ٢٢، أُسد الغابة ٤: ٢٩ ترجمة أمير المؤمنين علي عليه السلام، مجمع الزوائد ٩: ١٦٦، نور الأبصار: ١٢٣.

٣. الزهراء: فاطمة بنت محمد، لعبدالزهراء عثمان. (المؤلّف).

٤. الشورىٰ: ٢٣.

٥. المعجم الكبير للطبراني ٣: ٤٧ ح٢٦٤١، ينابيع المودّة للقندوزي الشافعي ١: ١٠٥ وعزاه إلى أحمد وابن أبي حاتم والحاكم في المناقب والواحدي في الوسيط وأبي نعيم في الحلية والثعلبي في تفسيره والحمويني في فرائد السمطين. ورواه أيضاً ابن كثير في تفسيره ٤: ١٦٩ ـ ١٧٠، والقرطبي في تفسيره ١٦: ٢٢، والزمخشري في الكشاف ٤: ٢٢٠.

ويقول رسول الله:

«إنّما مثل[١] أهل بيتي فيكم كسفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق»[٢].

وقيل في فاطمة وزوجها وولديها،وقيل ... وما أكثر ما قيل! وما أروع ما قيل! لو وعت أسماع، وفقهت قلوب، وأدركت عقول.

---

١ . الزهراء: فاطمة بنت محمد، لعبدالزهراء عثمان. (المؤلّف).

٢ . قد تواتر الحديث في كتب السيرة والحديث والتفسير وإن اختلفت بعض الألفاظ ممّا لاتضرّ بالمعنىٰ، حتّىٰ اشتهر بحديث السفينة. راجع على سبيل المثال لا الحصر: المعجم الأوسط للطبراني ٦: ٢٥١ ح٥٥٣٢، والمعجم الصغير ٢: ٢٢، وأمالي الشجري ١: ١٥٤، ومستدرك الحاكم ٢: ٣٤٣ و٣: ١٥٠، وحلية الأولياء ٤: ٣٠٦، وتاريخ بغداد ١٢: ١٩، والدر المنثور ١: ٧١ ـ ٧٢ عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ ... وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ البقرة: ٥٨، وكنز العمال ١٢: ٩٨ ح٣٤١٦٩ و٣٤١٧٠ ... وغيرها كثير.

الفصل الثامن

- قَتَلة الأنبياء
- حديث الشرر والصخر، الإسراء الثاني
- يا إخوان القردة
- وفاة الرسول

اللوحة الأُولىٰ

قتلة الأنبياء

تواتلت مواكب الشهداء ... فالطريق للجهاد مفتوح، معالمه جَمْد دماء، السيوف تعرشه، المنايا تفرشه، إلى اليمين جرحىٰ، وإلى اليسار أشلاء، أينما نـظرت رأيت المجاهدين يستبقون عليه كأنّهم أفراس رهان.

وما لهم لا يسرعون إلى آجالهم وإنّ الجنة لمنتهاه؟ وحياة الخلد؟ ولقاء الله؟

ومنذ تخلّفت قريش عن الكرّة التي توعّدت بها المسلمين ساعة ارتحالها عن أرض «أُحد»، وترك أبو سفيان صرخته: «أعل هبل!» تصطرع في فضاء الوقعة مع صرخة عمر: «الله أعلىٰ وأجلّ» ... منذئذٍ هدأت المعامع[1] بعض هـدوء، وسكـنت هوناً القعقعة[2]، وخفت صوت الصليل، وأقلع غيم النقع عن وجه السماء بـالمدينة، وأوشك الناس أن يسمعوا السلام يطرق الباب.

* * *

ولقد يحسب امرؤ عندئذٍ نفس فاطمة غير مهيّأة للشعور بالطمأنينة.

ليس هذا لأنّ سرايا حزب الله كانت تنطلق هنا وهناك في المـخاطر، ولا لأنّ

---

١ . المعامع: جمع معمعة، وهي الجلبة، وأصلها: صوت الحريق في القصب ونحوه.

٢ . القعقعة: صوت السلاح ونحوه.

السلاح كان يصطفق أحياناً بالسلاح، ولا لأنّ ثمة، بين وقت ووقت، مناوشات وغارات، إنّما كان قلقها ينبعث من خوفها على الرسول أن يناله مكروه.

فلقد أحسّته وإنّه الآن وحده، لَهُوَ هدف الأعداء، وهو المرمى الذي تسدّد نحوه، بكلّ الإحكام، نفثات الأقواس، وهو نقطة التقاء أسنّة الغدر المصوّبة من كلّ اتّجاه، وهو الرعب الضاري الذي يحاجز بينهم وبين الأمان.

فلو اختفىٰ عنه ظلّة فالعرب إذاً رجل واحد، رأيهم جميع، قلقهم إلى قرار، خوفهم إلى أمن، وفرقتهم إلى وحدة، وأصنامهم إلى عزّة لا يتطرّق إليها هوان.

فإن يكن يومٌ هم أحرىٰ فيه بأن يشنّوا علىٰ محمدٍ، فإنّه هذا اليوم.

وما تظنّهم فاطمة إلّا فاعلين الأفاعيل.

فربّما هو الآن أيسر لهم منالاً منه بالأمس، بعد أن قارب حدّ الستّين، إذ ثقل منه الجسم، وأبطأت به الحركة، وغدا أقلّ قدرة على المناورة والمداورة عند اللقاء في ساعة قتال.

وكلّما تطلّعت إليه، وشهدت آثار حلقتي المغفر[1] اللتين انغرستا في وجنتيه، ورأت مكان رباعيّته[2] وهو شاغر[3]، ولمحت ندبة الشجّة في جبينه ... كلّما أخذت عينها مواضع جروحه هذه، استيقظت في دخيلتها ذكرياتها الأليمة، وسرح بها خيالها علىٰ أرض المعركة، فإذا هي تشهده وقد وقع في حفرة.

ثم تراه يحاول القيام من سقطته تلك، فلا يسعفه ترهّله، ويخذله ثقله، وتضطرب بالمحاولة جوارحه بحركاتٍ أدنىٰ إلى أن تكون عشوائية، حتّىٰ يقبل عليه علي فيأخذ بيديه، ثم ينزل طلحة تحته فيرفعه ... وينجو وما كاد.

* * *

---

١ . المِغْفَر: زَرَد يُنسج علىٰ قدر الرأس، يُلبس تحت القلنسوة.

٢ . الرَباعيّة: السنّ التي بين الثنيّة والناب، والجمع رَباعيات.

٣ . شاغر: فارغ.

ويهيج قلق الزهراء عليه أن قد شامت الفتنة أخذت تتمطّىٰ وتنفض عن جفونها النعاس.

فهي تدرك حقيقة طبيعة «يهود»، وهي تعلم أنّهم ـ أينما كانوا ـ كان الوسواس الخنّاس.

وكان غدر يدبّ الخفاء، وكانت خيانة لا تأبه بعهود، ثم كانت كسف من المحن كقطع الليل في أُمسية عمياء.

ذلك لأنّهم قوم لا يرعون إلاّ ولا ذمّة، يؤمنون بالحنث والنكث، يكفرون بالوفاء.

ولو أنّهم لزموا ما عاهدوا عليه رسول الله، لما اندلعت النار، لأمنوا وأمن الناس، لتجنّبوا الوبال، لكنّهم لا يستطيعون فكاكاً من أسار حقدهم الأسود، ولا تحرّراً من غيرتهم الحسود، ولا نزوحاً من كهف عنصريّتهم الحمقاء ... بل لا نكال، ولا تحرّر ولا خروج.

وأنّىٰ لهم وقد أغواهم الضلال ألّا يغفروا قطّ لله! أو يتراجعوا قيد شعرة عن الثأر منه! تعالىٰ علاه.

ففي قراراتهم أنّه أغفلهم وهم الشعب المختار، وأرسل إلى البشرية رسولاً من «الأُميّين»، وليس من بني إسرائيل، ولا من بني هارون!

أَفَهُمْ في مساق حقدهم هذا لا ينقمون؟ أفلا يبادرون عُمي القلوب إلى إفساد فعل ربّ العباد؟

خسئوا، وحاشاه!

* * *

ولقد بيّتوا أمرهم أن يقضوا علىٰ هذا النبي «الأُمي» العربي، الذي يرونه قد «ابتزّهم!» حقّهم في النبوّة، وحرّمهم استدامة استعلائهم على العالمين.

وكيف لا ينشطون إلى قتله ولهم ولع بقتل الأنبياء معلوم؟

لينشطنّ جادّين، غير متردّدين، ولن يفوت غدرهم اقتناص فرصة، ولن يعيبهم

خبثهم عن اصطناع حيلة.

وها هم أولاء تسنح له سانحة، مشت إليهم علىٰ قدميها مهطعة[١]، تعرض نفسها وتقول:ها أنذا!

كان ذلك إذ انطلق رسول الله إلى منازل يهود «بني النضير»، يستسهمهم في دية قتيلين قُتلا خطأً، وقواعد العهد بينهم وبين قوم الصريعين ثم بينهم وبين النبي تقضي عليهم بالإسهام.

ولم ينكروا عليه حقّه، بل قالوا له: نعم يا أبا القاسم، نعينك علىٰ ما أحببت.

فلمّا خرج الرسول من لدنهم، وجلس في ظلّ جدارٍ من بيوتهم يستريح، تأهّباً للعودة إلى المدينة، نهزوا هذه السانحة الفريدة التي لا تتكرّر في الدهر، وخلا بعضهم إلى بعضهم يتحاورون: إنّكم لن تجدوا محمداً علىٰ مثل حاله هذه! فمن رجل يعلوا علىٰ هذا البيت، فيلقي عليه صخرةً، ويريحنا منه؟

قال أحدهم، عمرو بن جحاش بن كعب: أنا لذلك.

وصعد، وأعدّ الصخرة، فلمّا همّ ليلقيها، لم يكن النبي حيث رآه قد كان! أتاه عليه الصلاة والسلام خبرُ غدرهم من السماء، فغادر المكان[٢].

وكادوا يدفعون ثمن خيانتهم هذه دماءهم وذراريهم، لولا أن استرحموا الرسول فأجلاهم عن المدينة، بعد أن حاصرهم في حصونهم خمس عشرة ليلة لو طالت بضعة لافترسهم الحمام!

وتسرّب مصرع رسول الله من بين أصابعهم كما يتسرب الماء من خروق غربال[٣]!

* * *

---

١ . مهطعة: مسرعة.

٢ . ذكر الخبر ابن كثير في البداية والنهاية ٤: ٧٦ ـ ٧٧ فصل غزوة بني النضير.

٣ . الغِرْبال: المنخل.

هذه الغدرة الخبيثة من ذلك الرهط من «يهود» قد أثارت عليهم حفيظة كلّ مسلم، فضلاً عن سورة الغضب والإنكار التي لابدّ قد استشعرها أيّما امرئ في الناس يتمسّك ببعض القيم الخلقية، ويرى حقّاً عليه نحو نفسه أن يترفّع بها فوق أمثال هذه الخبائث والدنايا التي تنافي إنسانية الآدمي وتمرّغ كرامته في الرغام[1]

وكانت سورة فاطمة ـ بطبيعة الحال ـ تسبق كلّ السورات، علىٰ طريق غيظها، بفراسخ وأميال.

لكنّ القلق كان أشدّ من الغضب، وأقوىٰ شكيمة.

فهي أعرف بطبيعة اليهود، أدرىٰ بأنّهم يكنّون غير ما يُظهرون، أخشىٰ لما تغلّقت عليه نواياهم منها لما تشرّعت أكفّهم به من سيوف.

فأنت تواجه عدوّك في الحرب السافرة فلا تخافه، لأنّك عندئذٍ ستقارعه سلاحاً بسلاح، أمّا أن يفارقك بوجهٍ ويقاتلك بآخر، أو يقدّم لك الزهرة وهو يخفي عنك الخنجر، أو تطالعك بالبسمة الحلوة شفتاه ومن ورائهما نابُ ثعبان ... أمّا أن يفعل هذا، فإنّه إذاً الخطر الذي قد لا يجول بالبال، فيخدع اليقظة، ويباغت الانتباه

ولقد علمت الزهراء أنّ خبث اليهود أقرب إلى الرسول من حبل وتينه، وقد انتثرت جماعاتهم حوله بالمدينة، وعلى مشارفها، كما تنتشر الأفاعي في أرض معشبة ذات عوسج وأثل، من أمن شوكها الحادّ أن يثخنه جراحةً، فلن يأمن نهش الحيّات!

وناهيك بيهود من أراقم وصلال!

ناهيك بباعهم في التمويه والخداع!

ناهيك باقتدارهم علىٰ نسج الأحابيل!

ولئن فضحتهم «السماء» في بني النضير، ففاتتهم فرصة «الصخرة»، فلن تفوتهم من بعد فرصة جديدة، يصطنعونها اصطناعاً ويعدّون لها عدّتهم، ليأخذوا محمداً

---

١ . الرغام: التراب.

وظهره لهم، واطمئنانه إليهم يغنيه عن الحذر الذي يجنّبه الغوائل والأخطار.

وما ذلك علىٰ خُلقهم بغريب.

وهل يعييهم أن يعيدوا قصّة بغيّهم «سالومي» إلى الوجود؟

كلّا، لن يعدموا أن يجنّدوا لغدرهم امرأةً منهم تكيد كيدها النسوي للرسول، فتقضي عليه، وربما أتتهم برأسه في طبقٍ من ذهب، كما أتتهم منذ مئات عديدة من السنين «سالومي» تلك برأس نبيّهم: يحيىٰ بن زكريا، عميد المسيح[1]!

فسرعان ما انجاب الستار عن مسرح الحياة، ليقدّم حدثاً مأساوياً جديداً يهمّ أن يتلبّس بذلك الحدث القديم.

ما مرّت ثلاث سنوات أو أربع علىٰ غدرة «عمروبن جحاش بن كعب» في بني النضير، حتّىٰ أقبلت غدرة امرأة «سلام بن مِشْكم» لكي تحقّق ما رجت يهود.

كان الزمان سنة سبع ... وكان المكان خيبر.

قيل: فلمّا فتح الله علىٰ رسوله تلك الأرض، جاءته زينب بنت الحارث زوجة سلام بشاةٍ مصليةٍ[2]، فوضعتها بين يديه.

فسألها: «ما هذه؟».

قالت: هدية.

كانت تعلم أنّه يأكل الهدية،ولا يأكل الصدقة ... وكانت قد سمّت الشاة، ثم أرادت أن تستوثق لكيدها أن يؤتي ثمرته الخبيثة المهكلة، فسألت بعض أصحابه: أيّ عضوٍ من الشاة أحبّ إليه؟

قالوا: الذراع.

فأكثرت السمّ في الذراع.

وتقبّل النبي هديتها، وجلس مع نفرٍ من صحبه يأكلون ... أمّا هو فتناول الذراع

١ . راجع مروج الذهب ١: ٦٣، وكتب قصص الأنبياء حيث نجد تفصيل الواقعة.

٢ . مصلية: مشوية.

فلاكَ منها مضغةً، فلم يسغها، فلفظها ... وأمّا بعضهم فلاكَ وأساغ.

وعلى الأثر صاح بهم الرسول: «أمسكوا!».

فرفعوا أيديهم عن الطعام، وأمر عليه الصلاة والسلام فجيء له باليهودية: صاحبة الهدية.

قال لها: «هل سممت؟».

قالت، وقد حملتها البغتة والبجح والزهو الآثم علىٰ أن تجيب بغير مبالاة: من أخبرك هذا؟

قال ولا تزال في يده الساق: «هذا العظم!».

أجابت: نعم.

فسألها: «ما حملك علىٰ ذلك؟».

قالت: إنّك بلغت من قومي ما لم يَخْفَ عليك، فأردت لأقتلك! وقلت في نفسي إن كنت نبيّاً فستُخبَر، وإن لم تكن استرحنا منك!

قال: «ما كان الله ليسلّطك عليَّ»[١].

واحتجم اتّقاء مضرّة السمّ، واحتجم الذين شاركوه الطعام.

قيل: فلمّا سُئل في أمر المرأة: ألا تقتلها يا رسول الله؟

قال: «لا!».

عفا عنها ولم ينلها بسوء ... فأسلمها عفوه الكريم للإسلام.

* * *

وأكثرت يهود في كيدها للرسول.

فلا كانت صخرة «عمروبن جحاش» في بني النضير أولى الغدرات، ولا كانت شاة «زينب بنت الحارث» في خيبر آخر الغدرات، بل ظلّ إخوان القردة والخنازير،

---

١ . ذكر قصة الشاة المسمومة كتب السيرة النبوية، راجع سيرة ابن هشام ٣: ٣٥٢، البداية والنهاية ٤: ٢١٠ وزاد: فاحتجم رسول الله ﷺ عن الكاهل، وأمر أصحابه فاحتجموا.

قَتَلة الأنبياء، علىٰ نفس سننهم الخبيث.

إن عجزت أصابعهم عن لمس محمد بشرٌ، حرّكوا أصابع غيرهم لتلتقط لهم الشواء من التنور!

ونفضوا عن جمر البغضاء الرماد، وأرّثوا عليه النار.

ليس يمنعهم عن ذلك أن قد ارتضوا بعهدٍ معهود، أو جمعهم معه عقد معقود، أو سار فيهم بحسنىً تعطف الجماد.

ولعلّ أشدّ ما خشيت منهم فاطمة عليه التقاؤهم وأهل النفاق وأصحاب الأصنام في رباط، فذلك هو الإجماع العدواني الذي طمح إليه أعداء الله، وما زالوا يحيكون شركه حتّىٰ نسجوه.

* * *

وقع ذلك في شوّال الخامس من الهجرة إلى المدينة.

قبله بعامين، في شوّال الثالث، كانت «أُحد» المريرة، وكان وعيد أبي سفيان الذي توعّد به المسلمين، مُنْصَرَفة منها، أن يجتثّهم في بدر العام القابل، لكنّه إذ رأى النبي قد تأهّب له، وخرج للقائه ... ثم أحاق بقريش جدبٌ ابتلاهم به العزيز الجبّار، نكص الزعيم القرشي عن تنفيذ تهديده، وآثر القعود، ففي القعود السلامة.

وإذا ضاقت عن انتقامه سنة تولّي، فلن تضيق عنه سنة تجيء.

وكما كفاه ذلك الجدب اللقاء في أوانه المضروب، فقد كفته «يهود» الإعداد للقاء الجديد، بله هم الذين كتّلوا المواجد، وحشّدوا الأحقاد، وجيّشوا الحشود، وجمعوا الطوائف الناقمة علىٰ أهل الجهاد، حزباً واحداً لمحاربة الله.

ذهبت منهم جماعة علىٰ رأسها نفر من أكابر بني النضير، وبني قريظة، وغيرهم من حزمهم وشراذمهم، تحرّض قريشاً علىٰ «فرخها!» المهاجر، وتعدها أن تكون ومن حزّبت من القبائل عليه، حتّى تجتثّ باجتثاثه الإسلام من أُصوله.

قال لهم حيّ بن أخطب النضري عن قومه اليهود: سنكون معكم عليه حتّىٰ نستأصله.

أمّا عن بني النضير، الذين ترفّق بهم النبي بعد حادث صخرة ابن جحاش، ولم يوقع بهم وأجلاهم، فقد قال الزعيم المخاتل: تركتهم بين خيبر والمدينة، يتردّدون حتّى تأتوهم، فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه.

وأمّا عن بني قريظة فقال: أقاموا بالمدينة مكراً بمحمد حتّىٰ تأتوهم فيميلوا معكم.

وراقت المؤامرة لزعماء قريش، استهواهم أن يساندهم أصحاب التوراة، وإنّهم لعلىٰ دينٍ منزَّل من السماء!

وسأل سائل: يا معشر يهود، إنّكم أهل الكتاب الأول، وأهل العلم بما أصبحنا نختلف نحن ومحمد فيه، أفديننا خير أم دينه؟

فتنكّر إخوان القردة والخنازير للناموس، وقالوا كاذبين ومفتونين: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولىٰ بالحقّ منه!

فحقّت عليهم لعنة الله، أنزل فيهم سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ ٱلْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَٱلطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً * أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾[١].[٢]

وأخذت المؤامرة تثمر.

فلقد عرف أُولئك النفر من يهود كيف يستدرجون بعض القبائل، وكيف يجتذبون إلى جانبهم كثيراً من المنافقين، ويحتوونهم في غايتهم، وكيف يفتلون بمكرهم الخسيس أبناء التوراة الضاربين على مشارف المدينة ليمارسوا خيانتهم للرسول، ويغدروا به، وهم معه علىٰ حلفٍ ووفاق.

واشتدّ الأمر برسول الله إذ علم الخبر، فذهب ورجاله مذاهب شتّى في التفكير،

---

١. النساء: ٥١ و٥٢.

٢. والسائل هو أبو سفيان لجماعة من وجوه اليهود البارزين، أمثال حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف، فأجابه كعب: أنتم أهدىٰ سبيلاً!! راجع القصة في كتب التفاسير: ضمن تفسير الآية : ٥١، ٥٢ من سورة البقرة المباركة. وانظر البداية والنهاية ٤: ٩٦ فصل غزوة الأحزاب (الخندق).

يقلّبون الآراء، عسىٰ أن يهتدوا إلى وسيلةٍ تكفّ عنهم الخطر المقبل، وتجنّبهم وبلدتهم أن يقصفهم أعداء الله.

كان جند محمد عندئذٍ ثلاثة آلاف، وكانت الأحزاب ثلاثة أضعاف.

* * *

فلمّا جاء خبر الحشد العدواني، قال رجال من المسلمين للرسول: نبقى حيث نحن وننتظر، فإذا دخل علينا الغزاة قابلنا جموعهم بمقاومة شعبية يشترك فيها الرجال والنساء، الكبار والصغار، تترصّدهم في كلّ درب، وتتربّص بكلّ دار حتّىٰ تقلب عليهم المدينة شعلة هلاك.

وقال آخرون: بل نخرج إليهم، فلا ندع لهم فرصةً لاقتحام ملاذنا علينا، وإنّما نضربهم ونحن علىٰ جمام وراحة، وهم علىٰ تعب ونصب، لم ينفضوا بعد عن نفوسهم مشقّة زحفهم الطويل، ولا غبار السرى والتسيار.

وتصارع الرأيان.

فما أصابوا يوم «بدر» يؤكّد أنّ الخير في المبادرة والخروج، وما أصابهم يوم «أُحد» يحدوهم[١] إلى البقاء والانتظار.

فكيف وفي صفوف المغيرين كثرة وفيرة من الفرسان، تحتّم الحيطة والحذر، واتّقاء الاشتباك علىٰ ساحةٍ فسيحةٍ، تيسّر للعدوّ الكرّ والفرّ، وسرعة الحركة، واختراق صفوف المسلمين، ثم تمزيقها قطائع وشراذم تجعلها فرائس سهلة للتطويق.

لكنّ سلمان الفارسي جاءهم من أساليب القتال بأُسلوب جديد، قال: يا رسول الله، إنّا كنّا بأرض فارس، إذا تخوّفنا الخيل خندقنا على أنفسنا.

فأعجبت الفكرة الرسول، ونشط والذين معه يشقّون خندقاً حول المدينة، عملوا في شقّه ليل نهار، حتّىٰ اتمّوه في ستّة أيام.

---

١ . يحدوهم: يدفعهم.

أخذوا يضربون بمعاولهم في الأرض حتّىٰ تبلغ منها باطنها النديّ الرطيب، يُعمّقون القاع، يسوّون الجوانب، يرفعون علىٰ كواهلهم التراب والحجارة.

فما كان معهم عبيد يكفونهم بعض هذا المشقّات، وكانت الأُمسيات شتائية مقرورة[١]، فالهواء مثلوج، والقرة تنفذ في عظامهم إلى النخاع، والجهد والبرد يجمّدان الأوصال، والجوع والعطش ينهشان المعىٰ[٢] والأحشاء.

فربما مرّت الليلة والليلتان وما ذاق امرؤ منهم طعم كسرةٍ من خبز يابس، ولا بلّل شفتيه بقطرة ماء.

وكان الرسول قدوتهم علىٰ طريق الظمأ والسغب[٣] والنَصَب[٤] والمعاناة، فكلّ همه أن يؤمّن المدينة قبل أن يقاربها الأحزاب، فهو يقبل على العمل إقبال شوق وليس مجرّد إقبال أداء، يقوم بما يقوم به الاثنان والثلاثة والعشرة، وما ينوء بالعصبة أُولي العزم من الرجال، وكان يحفّز المؤمنين ويحمّسهم لينسوا في غمرة الحفر والحماس ما هم فيه من لأْواء[٥].

وكما يرفع الحادي[٦] عقيرته ليستهوي الأبل بالحداء فتحثُّ السير، وتتّخذ من أخفافها أجنحةً تطير بها علىٰ وجه الرمال، كان يرتجز لرفاقه بنشيد صاحبه: عبدالله بن رواحة، أحد الأنصار:

والله لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلّينا
فأنزلن سكينة علينا وثبّت الأقدام إن لاقينا
إنّ الذين قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنةً أبينا

---

١ . مقرورة: باردة، قارصة.

٢ . المعىٰ: واحده أمعاء.

٣ . السَغَب: الجوع.

٤ . النَصَب: التعب.

٥ . اللأْواء: المشقّة.

٦ . الحَذْو: سوق الإبل والغناء لها.

ويكرّر بصوت جهير:

أبينا!

أبينا!

فيردّد أصحابه وراءه:

أبينا! أبينا!

ثم يجيبون:

نحن الذيـن بـايعوا مـحمدا   على الجهاد مـا بـقينا أبـدا

* * *

وأصبح الناس بالمدينة ولا حديث لهم إلّا غارة المشركين التي أصبحت علىٰ مسيرة أميال.

إنّ أشباح عبدة الأصنام وأحلافهم تكاد تتراءىٰ لأخيلة أهل البلدة كأنّها تطبق عليهم من هنا ومن هناك، تحيط بهم كالسوار، تخترق عليهم الخندق.

لكن النساء والولدان كانوا الشغل الشاغل لرسول الله، فلأن يؤمّنهم الرسول فإنّ هذا الأمان نصف النصر، وهو طمأنينة لأصحابه المقاتلين أن يحاربوا وذووهم في ملاذ حصين.

ومن ثم فقد أمر فُرفعت النسوة والذراري في الآطام ...فأمّا أُم المؤمنين عائشة فقد نزلت في حصن بني حارثة، وأمّا صفيّة بنت عبدالمطلب فنزلت في «فارع»: حصن حسّان بن ثابت.

وأمّا الزهراء فلا نحسبها إلّا نزلت بـبنيها حـصناً يـحتمون بـه وإن فـاتنا فـي المرويّات أيّ تلك الحصون كان، فلعلّها نزلت مع عائشة أو صفيّة أو غيرهما مـن أُمهات المؤمنين ونسوة المهاجرين والأنصار، أولعلّ مكانها قد عُمّي على الناس؛ خيفةً وحذراً أن يعرفه الأعداء، فيعمد إليها مـنهم عـامدون يأخـذونها سـبيّة، أو يصيبونها بمكروه، توهيناً لعزم رسول الله وإصراره على القتال.

فإن يكن هذا أو ذاك فإنّها اليوم أحقّ بالرعاية والتأمين منها من قبل، وقد ازداد جسمها نحولاً وضموراً، وغلب على لونها الشحوب، وقد عانت ما تعاني أُنثىٰ مثلها ضعيفة هزيلة قامت عن الولاة منذ نحو شهرين، يزيدان أويقلّان بضعد أيام.

فلقد جاءها المخاض في رجب الخامس، فلمّا وضعت، وضعتها أُنثىٰ... سمّوها «زينب» تيمّناً باسم خالتها زوجة أبي العاص بن الربيع التي غدت لفاطمة أُمّاً ثانيةً، تعهّدتها طرفاً من حياتها بالرعاية والحبّ والحنان بعد أن غُيِّبت أُمّها «خديجة» في ثرى الحجون.

وليس الذكر كالأُنثىٰ، كما قيل في مريم البتول.

لكن أُنثى الزهراء هذه كانت ـ من قبل خروجها إلى دنيا الأحياء ـ منذورة لأُمور ذات خطر، ومدخرة ليوم هول عظيم وقفت خلاله مواقف من الشجاعة، والجلد وثبات الجنان، يتهاوىٰ أمام مثلها قلوب أصلب الشجعان فلولا أن قضىٰ ربّك، فخرجت هذه الصغيرة إلى الحياة، وعاشت عمرها، فلربّما تغيّر مسار التاريخ.

لربّما توقّف موكب الأئمة الأعلام، هُداة الأنام، بعد رحيل أبيهم الحسين: سيّد الشهداء، لربّما انقطع نسل الرسول العظيم.

لكن مشيئة الله كانت كيفما قضىٰ أن تكون وعندما تتعاقب حلقات الأعوام، ويبلغ الكتاب بالطفّ أجله في الإمام الحسين، وتساق بناته سبايا في موكب رأسه الشريف إلى قصر الإمارة بالكوفة حيث ابن زياد.

عندئذٍ يبصر الأمير الفاسق بالفتىٰ علي بن الحسين، زين العابدين، وهو عندئذٍ مريض مهيض، فتأخذه الدهشة كيف أفلت من مذبحة كربلاء بُنيّ كهذا من بني الشهيد بلغ نضرة الشباب، والعهد أنّ رجاله الغاوين قد أفنوا سلالة السبط الذكران؟!

فيسأل الغلام: أليس الله قد قتل علي بن الحسين؟

يقول الفتى يعارض الأمير: «كان لي أخ يسمّىٰ علياً قتله الناس».

فتسوء صيغة هذا الجواب ابن زياد فيقول وهو مغيظ: بل الله قتله!

فيفحمه الغلام بردٍّ جريء «الله يتوفّي الأنفس حين موتها».

عندئذٍ يستشيط الأمير غضباً: وبك جرأة لجوابي، وفيك بقية للردّ عليّ!

ثم يأمر زبانيته: اذهبوا به فاضربوا عنقه!

فلا تكاد زينب تسمع قول الظلوم الغشوم، حتّىٰ تصرخ فيه: «يا ابن زياد! حسبك من دمائنا!».

وتسرع إلى عليّ تعتنقه، ثم تتعلّق به، ثم تدفع عنه زبانية البطش أن يأخذوه إلى النطع والسيف.

وتتنمّر ملامحها وهي تصرخ في وجه الأمير، تتحدّاه: «والله لا أفارقه! فإن قتلته فاقتلني معه!».

ويذهل ابن زياد أن يراها قد جعلت نفسها درعاً تقي الغلام، لكنّه لا يلبث أن يركن إلى الهدوء.

وما عليه لو ترك الفتىٰ لدائه، وإنّه ليرىٰ في محيّاه الباهت الهضيم ما يكاد ينبئه أنّه إلى الهلاك المحقّق، إن لم يكن اليوم ففي غدٍ أو بعده بساعات.

ويقول الأمير لجنوده: دعوه لما به!

فلقد ظنّه في الهالكين، لكنّ الله يخلف ظنّ الخاسر، فيشفىٰ زين العابدين، ويعيش حتّىٰ يناهز الستين منقوصة ثلاثة أعوام، وينسل ذرّية الرسول: أئمة الهدى الأعلام.

اللوحة الثانية

حديث الشرر والصخر، الإسراء الثاني

ظلّوا يحفرون.

الأيام الستّة التي تنجز شقّ الخندق ما زالت فيها بقية، بين حدود المدينة ومكان الحفر كان ارتجاز الرسول وأصحابه يترنّم نشيداً عذباً يتوافق مع إيقاع ضربات المعاول في الصخر، عبر الفضاء راحت أصواتهم تتردّد كأنّها ترانيم الملائكة حول عرش الرحمن.

أول ما كان ما يبلغه ذلك التغنّي بذكر الله سمع أُولئكنّ اللائذات بالحصون والآطام، وأول كيان كان يهتزّ بالتيمّن والاستبشار كيان الزهراء.

فأُذنها دائماً على الإنشاد الناب من الإيمان، وعينها على الصحراء الحبلىٰ بأعداء دين الله وقد أوشك أن يجيئها المخاض! وقلبها علىٰ نصر الله الموشك فجره على الانبثاق.

فالبضعة النبوية الشريفة لم تشكّ في أنّ ربّها آخذ بأيدي الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقّ بنجبّر الطواغيت، فلسوف ينتشل تعالىٰ نبيّه من لجج الخطر الزاحف، ليتمّ الدين، لسوف يسلمه إلى شاطئ النجاة والأمان، وليُذهبنّ الأحزاب في الغابرين، وليجعلنّهم حديثاً يُروىٰ، يتندّر بخيبتهم السُمّار.

* * *

وكان الخندق عندئذٍ قد اكتملت سلسلته، حلقات متّصلة، إلّا من صخرةٍ هنا اعترضت مسيرته، وأُخرىٰ هناك استعصت علىٰ طَرَقات الفولاذ.

فبينا نفر يحفرون في ناحية، اشتدّت عليهم كدية[1]، فشكوها إلى رسول الله، فدعا عليه الصلاة والسلام بماءٍ نفح به تلك الكدية، يقول من حضر: فوالذي بعثه بالحقّ، لانهالت حتّىٰ عادت كالكثيب، ما تردّ فأساً ولا مسحاة.

وقيل: وكان سلمان وجماعة من المسلمين يعملون في ناحيةٍ من الخندق، حتّىٰ إذا بلغوا الندي ظهرت لهم صخرة بيضاء مروة[2]، فكسرت حديدهم، وشقّت عليهم، فأُخبر الرسول عنها، فجاء، فأخذ المعول، وضرب الصخرة ضربةً صدعت ثُلثها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتي المدينة، حتّىٰ كأنّها مصباح في جوف ليلٍ مظلمٍ... ثم ضرب الثانية فصدعت ثُلثاً آخر، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتي المدينة ثم ضرب الثالثة فصدع ثُلثها الثالث، وبرقت برقة أضاءت ما بين لابتي المدينة، فسأله الناس عن ذلك النور.

فقال: «لقد أضاءت لي الأُولىٰ قصور الحيرة ومدائن كسرى، ومن الثانية أضاءت القصور الحمر من أرض الروم، ومن الثالثة أضاءت قصور صنعاء»[3].

وكبّر الرسول تكبيرة الفتح، وكبّر المسلمون مستبشرين.

* * *

وكذلك شاء ربّك أن تتحوّل ـ تحت ضربات معول الرسول ـ تلك الطرقات المسموعة إلى مرئيات، أوتترحّل تلك البرقات الوامضة عبر المسافات لتكرّ عائدة، كرّ الطرف، فتجيء إلى النبي حيث كان، وعلىٰ أجنحتها قصور فارس والروم وصنعاء ... تماماً كما جيء لسليمان بعرش سبأ، وما قام من مقامه، ولا طرفت عيناه.

---

١ . كدية: صخرة لا يعمل فيها المعول.

٢ . المَرْو حجارة بيض برّاقة، تُقدح منها النار، واحدها مَرْوَة، وبها سمّيت المروة بمكّة.

٣ . البداية والنهاية ٤: ١٠١.

فليس هذا على الله بعزيز، ولا هو ممّا يخالف منطق العلم اليوم، وما دلّنا عليه من تحوّل المادة إلى طاقة، والطاقة إلى مادة، وانتقال المسموعات والمرئيات عبر الأثير فيما لا يكاد يذكر من وقت لو أنّنا قسنا الحركة بما درجنا عليه من مقاييس.

فهل هو محال أن يشهد الرسول المسموع، ويسمع المشهود، وكأنّما أُوتي العلم بلُغة الصخر ولسانه الطرق، وبلُغة الضوء ولسانه البرق، وقد أُوتي نبي الله سليمان قبله المعرفة بلُغة الطير والنمل، والقدرة علىٰ مخاطبة الجنّ ورؤيتهم وإنّهم لعالمٍ من الخلق لا مسموع ولا منظور؟

لا محال!

فعلىٰ غير ما تقضي به النواميس الكونية تحرّك الضوء والصوت، وبغير أجهزة الحسّ البشري استقبل المرائي والمحكيات وهي تأتي إليه من خلف المستقبل، ومن وراء المسافات.

بغير لمح الإبصار بغير لفظ الإصغاء، كان يشهد ويسمع بالاستيحاء، بروحه يرىٰ ما الله يرئيه، وبوجدانه يرهف لأداء السماء.

* * *

وكما كان برق الطرق يضيء موقع الخندق ومن حوله وفيه، ثم ينتشر ما بين لابثي المدينة ـ وهما حرتان من حجارة سود كأنّها حُرّقت بالنار تكتنفان البلدة المخندقة ـ فقد كان بطبيعة الحال يضيء الحصون والآطام حيث اعتصمت الذراري والنساء.

فالمرحلة غير طويلة، والأرض منبسطة المهاد، والفضاء ممدود، وليس ثمّة من حوائل تتكسّر عليها الأضواء، أو ترتدّ عنها الأصوات.

ومن الطبيعي أن تكون الزهراء قد عاينت تلكم البروق[١]، وصكّ أُذنيها دويّ

---

١ . البروق: اللمعان.

الطَّرَقات، وسمعت «الله أكبر» تلهج بها ألسن المجاهدين مردّدة عن رسول الله، ثم تأنّست بالنصر العابر إليها من المستقبل المجهول علىٰ بحر التكبير.

فإن تكن أنست ـ وما أخالها إلّا كذاك ـ فأيّ نصر شامت غير نصر كبير؟

أنكسة لأعداء الله؟ أردّة دون الخندق إلى الوراء؟ أدحرة وانقهار؟

بل أكثر من هذا بكثير.

فتهليل المجاهدين كان ينبئ عن شيءٍ أكبر من مجرّد الظفر بمعركة عادية مهما يقال فيها، لن تبلغ حدّ الفصل بين عهد أشرق وعهد غرب، لأنّها وقعة كعشرات مثلها توالت علىٰ طريق الكفاح الذي يؤدّي ـ عاجلاً أو آجلاً ـ إلى تغيير وجه التاريخ.

إن هي ـ هكذا ـ إلّا حلقة من حلقات الصراع الطويل، ينقشع[1] غبارها عن غالب ومغلوب، ثم تهدأ النائرة تحت الرماد لتندلع من جديد.

وليس علىٰ مثل هذا تدلّنا رؤية الرسول يوم تهشمت تحت معولة تلك الصخرة المروة البيضاء، ولا يدّلنا ارتفاع أصوات حُفّار الخندق بالتهليل والتكبير، حمداً لله وشكراً لنعمائه علىٰ ما أوحىٰ به إلى رسول الله، وأوحىٰ به حديثه يومئذٍ إلى أصحابه من نصر عظيم.

بل فتح عظيم!

بل غلبة كاملة للإسلام علىٰ ما حوله من مكامن الخطر التي كانت ـ إلى تلك اللحظة ـ لا تفتأ تصدّ تيّاره، وتردّ انتشاره، وتحول بينه وبين طيّة[2] الملل الرواكد، والعقائد البوائد التي ما زالت بقاياها تنال من وحدانية الله جلّ جلاله، وتشدّ الفكر الإنساني الصائب إلى الوراء.

وماذا ترىٰ كان يخدش قداسة الربوبية، ويطمس في العقول «التفرّد» الإلهي، غير تلكم «التعدّدية» المتمثّلة في الأصنام؟

---

١ . انقشع: انكشف، زال.

٢ . طوىٰ الشيء يطويه طيّاً: إذا ثنّاه.

ماذا كذلك غير «التثليثية» التي تدّعي أنّه ـ سبحانه ـ ثالث ثلاثة، كلّهم إله؟

ماذا أيضاً غير «الازدواجية» التي تُثنّي الله في إلّهين: ظلمة ونور؟

فإن يكن فتحاً فهو العودة إلى الفطرة السويّة، وتوحيد العالمين أجمعين علىٰ «وحدانية» الله ... ودون ذلك ملل ونحل ومذاهب تحميها نظم سياسية طاغية، تتسنّم عروشها «شاهنشاهية» الأكاسرة، وامبراطورية القياصرة، «ونجاشية» الأحباش.

نعم، ولا جدال.

فَحِزَمُ قريش، وشراذم يهود، وجماعة القبائل الذين تحزّبوا عند ذاك ضدّ الإسلام في رباط، هم أهون شأناً من أن تلعلع[1] بالفلج عليهم هذه التكبيرات التي انبعثت من قلب الرسول وقلوب أصحابه يوم الخندق عبر حناجرهم، لتردّدها وراءهم ـ تسبيحاً بعظمة الله واقتداره ـ رمال الصحراء وكواكب السماء!

وأيّما امرئ في الناس شهد ذلك المشهد، وسمع ذلك الهتاف، حريّ بأن تحدّثه نفسه بالفتح المبين الذي لن تلبث أن تنجاب عنه سجاف الغد، وتتكشّف أسرار المستقبل، بعد حينٍ قد يظنّ أنّه بعيد وما هو ببعيد.

أفلم تكن بينهم نظرة نافذة، ترىٰ بعين التخيّل الملهم ما لا تدركه الأبصار؟ أو أُذن غيبية تسمع بشارة القدر من خلف حواجز الأبعاد الزمنية وآماد المسافات؟ أو حدس صادق يتوفّز شوقاً لاستقبال نصر الله المكنون، ويسبق إليه خطوات السنين، ودورات النجوم والأفلاك؟

لِمَ لا ... وإنّ «الإحساس» بالمجهول وإن شتّ البُعد، ونأت المحسوسات ـ مكاناً وزماناً ـ لشيء وارد ومعلوم؟ وإنّ «التخاطر» للُغةٌ مفهومة، تعرفها الأنفس المشرقة، إذا ما تطابقت حسّاً بحسّ، وتوافقت وجداناً بوجدان؟ وإنّ تبادل الشعور على البُعد[2]،

---

١ . لعلع الصوت: إذا ارتفع وهزّ الفضاء من حوله.

٢ . البُعد: أي التلباثي (المؤلّف).

وانتقال المرائي والمسامع في إبّانه في شاهد لغائب، لهو حقيقةٌ واقعةٌ، ويقينٌ من يقين؟

ولقد حدث هذا بعد بضعة أعوام، بين سارية بن حصن وعمر بن الخطاب، فسمع عمر استغاثة سارية، ورأى الكرب الذي يعانية، فدلّه على الخلاص[1].

وملكات الأنفس البشرية أسرار وأعاجيب ليس لها حدود.

فإذا شطّ بامرئ تفكيره، فخال الزهراء قد توسّمت جلالة الفتح المرتقب الذي رأىٰ أبوها معامله علىٰ لمع البرق ودويّ الطَرْق، فهل من تثريب؟

نحن لا نقول: إنّها رأت، وليس ثمّة ـ علىٰ أنّها رأت ـ دليل منقول، لكنّنا أولىٰ بألّا ننكر عليها حدّه ملكة الاستشعار، وألّا نغمطها[2] حدسها الصادق الذي لا يمين.

وكيف عسانا ننكر ونغمط وهي بضعة الرسول، والبضعة من الكلّ... كيانها من كيانه، ملكاتها من ملكاته، صفاتها من صفاته، مزاياها من مزاياه.

فإن يكن أحد في المسلمين قد استشعر خطورة ما ينبئ عنه هتاف الهاتفين، وتكبير المكبّرين، من فتحٍ مبينٍ، فإنّها إذاً أول المستشعرين!

* * *

ومن الحقيق بالذكر أن يقال: إنّ النظرة التي تُعنى بتعمّق حديث الخندق أخلق بأن تقف أمام حدث الصخر والشرر وقفة تأمّلٍ وإمعان فكرٍ ترجع بها علىٰ جناح الذهن إلى الوراء بضع سنين، لتتراءىٰ في مرآة حديث الإسراء، فلا يكاد الحدثان إلّا يتشابهان صورة وصورة، لأنّهما يتضاهيان في الإجمال وإن تباينا في التفصيل.

فلقد أسرى الله بعبده المختار من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصىٰ، فإذا الرسول قد انتقل بين القبلتين، ثم رجع ـ عوداً علىٰ بدء ـ إلى حيث كان، وإذا هو قد طُوِّق في نقلته الإعجازية بالسماوات العُلىٰ، ليرىٰ ـ من آيات ربّه الكبرىٰ ـ كبرى

---

١ . أورده محمد الجزري الشافعي في أسنىٰ المطالب: ٢٦٥ وقال معقّباً: روىٰ قصّته الواحدي والبيهقي بسند ضعيف. وفيه: «الحصين بن سارية».

٢ . غَمِطَ النعمة: لم يشكرها.

الآيات، وإذا الناس حين بلغهم الأمر قد هالهم خبره، وتزلزلت منهم العقول والقلوب، فلاذوا من هذا الذي راعهم بحصون من الريب والظنون.

لكنّ الشكوك لا تلبث أن تتهاوىٰ علىٰ جانبي مسراه، والظنون تنحسر عن أسرار رحلته القدسية بعد أن دحضها بالبراهين المادية، والمرائي اليقينات.

ألم تر كيف وصف لهم معالم على الطريق، وروىٰ أنباءً حديثةً صادفته في إسرائه كانت مغيبة عنهم، ثم مالبثت أن طالعتهم بعد قليل فصدّقت قوله، وطابقت واقع الحال، ما كان النبي ليعلمها لولا أن شهدها شهادة عيان؟

فهل ممّا يناقض سواء الاستقراء أن يخلص الفكر العدل إلى لونٍ من التنظير بين حادث الصخر والشرر وبين واقعة الإسراء؟

لا تناقض في المضاهاة.

فتشابه الحدثين قائم، إذ كلاهما خرق النواميس الكونية، وكشف للرسول الغطاء عمّا لا تدركه الحواسّ المخلّقة في طبيعة الإنسان.

وتعال فاشهده عليه الصلاة والسلام، كيف انفتحت له ـ لحظة تهشّمت الصخرة وأضاء الشرر ـ أستار المسافات الزمانية، علىٰ مستقبلٍ مشرقٍ لا تنمّ أوضاع ذلك الحاضر المدلهمّ المتأزّم عن حلوله في غدٍ قريبٍ أو غدٍ بعيدٍ، ولا يستطيع أن يحيط به علماً إلّا الله ومن اختار من رسول!

وكيف انجابت له أيضاً سجاف الأبعاد المكانية عن مرائي لم يشهدها من قبل، ولا تقع منه في مجال الإبصار!

وكيف كان محالاً من محال ـ وما زال ـ أن يرىٰ أيّ إنسانٍ بنظرةٍ واحدةٍ، في نفس اللحظة، من نفس المكان، ما هو قائم خلفه، وقائم قدّامه، بسبب عجز العين الثابتة الحملاق عن الإلمام البصري بالمتعاكسات والمتفارقات الواقعة في الشرق والشمال والجنوب: ببلاد فارس وأرض الروم ومنطقة صنعاء؟

لكنّ محمداً رأىٰ هذا المحال.

فكيف تحقّق هذا الذي لا يقبل التحقيق؟!

لكأنّما جمع الله لنبيّه الدنيا كلّها، ووضعها في كفّه، ثم قال: هاك، أو كأنّما قد أُسري بعينيّ الرسول لتريا أطراف العالم جميعها وإن اختلفت المواقع، وتفرّقت الأوضاع، وتشتّت المسافات، بل كأنّما قد عُرج به أيضاً، نوعاً آخر من العروج.

فلئن كان قد عُرِجَ به ـ من قبل ـ علوّاً في مدارج السماوات إلى عرش الله، فلقد عُرج به هذه المرة علوّاً في مدارج الزمن إلى علم الله!

انتقل صعداً من «الآن» إلى ما بعد «الآن»، إلى سنين غير هذه السنين تحتوي الفتح المبين.

فأمّا إذ رأى المسلمون وهج الضوء، ثم طالعهم الرسول بما رأىٰ من نصرٍ مقبلٍ لم يزل بعد جنيناً في بطن الغيب، فتلك آية أُريد بها تثبيت عزائم أتباعه، ورفع روحهم المعنوي في وقتٍ كانوا يعانون فيه البأساء والضرّاء، وتوشك أن تتخطّفهم المصارع، يأتيهم بها عدوّهم من أمامهم ومن خلفهم، عن أيمانهم وعن شمائلهم، من فوقهم ومن تحت أرجلهم، فلا يكادون يعرفون أين النجاء.

ومع ذلك فلم ينكصوا على الأعقاب، لم يرتدّوا خطوةً واحدةً إلى الوراء، ظلّوا صابرين مصابرين حتّىٰ أتىٰ نصر الله.

فبينا نرىٰ يوم الإسراء الأكبر كثرةً من المسلمين قد غلب عليهم الريب في النقلة بين القبلتين، وفي رحلة السماء، فصبأوا عن الدين الحقّ، إذ نرىٰ يوم الخندق المسلمين أجمعين أشدّ صبراً على البلاء، وأوثق تصديقاً برؤى الرسول، حتّىٰ لقد كبّروا تكبير الفتح، وكأنّما قد امتلكوا فعلاً بلاد اليمن فارس والروم.

وذاك وقوف في وجه فتنة الشكّ والارتياب أعظم درجةً من الثبات لضرب السيوف وطعن الحراب.

وبينا نرىٰ أنّ المعراج كان غَسولاً لأحزان رسول الله أن فقد خديجة حاضنة الإسلام، وأبا طالب حامية، وكان تأنيساً له أيضاً بعد أن تجهّمه[1] الناس، إذ نرىٰ

---

١ . تجهّموا الناس: عبسوا بوجهه، أعرضوا عنه.

حديث الخندق قد جمع المؤمنين في رباط، طرفه أمنهم علىٰ نسائهم وذراريهم المحتشدين في المعاقل والآطام، وطرفه الآخر ثقتهم الوطيدة بأنّ معركتهم الوشيكة الوقوع إن هي إلّا خطوة واسعة على الطريق إلى دينونة العالم كلّه للإسلام.

وذاك تعويض عن رضا البشر برضا الله، وتبديل الذي هو خير وأرفع شأناً بالذي هو أدنىٰ وأهون قيمةً.

وبينا نرى المشركين في تلك الأُولى يكذّبون ما ذكره النبي عن رحلته العلوية، ويجتذبون إلى التكذيب طائفةً غير قليلةٍ ممّن كان إيمانهم علىٰ حرف، إذ نرى المنافقين في الثانية يسخرون، فلا تقوىٰ سخريّتهم علىٰ تحريك شعرةٍ في أصحاب الإيمان.

يخبركم محمد أنّه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرىٰ، وأنّها تُفتح لكم، وأنتم تحفرون الخندق فلا يأمن أحدكم علىٰ نفسه أن يخرج إلى الغائط!

فلا يكون جواب المسلمين عندئذٍ إلّا قولهم: الحمد لله، موعود صدق.

ذلك لأنّ أهل الإيمان تزايلت عنهم الشكوك، وشغلوا بهذا الوعد الحقّ الذي وعدهم الله، وصوّره أدقّ تصوير نطقه الربّاني في تنزيله الكريم: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا * هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً * وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾[١].

فكذّبتهم الأيام ... وحقّ الوعد الإلهي.

والذي لا مرية فيه أنّ حديث الخندق ـ وهو حقّ من حقّ، شدّ به الله أزر الذين آمنوا في وقت محنة ـ قد كان أيضاً وسيلة «دعائية» خليقة[٢] بأن تتلقّىٰ الأعداء

---

١. الأحزاب: ١٠ ـ ١٢.

٢. خليقة: جديرة.

بإرهابٍ غلّاب[١]، يحطّم ثقتهم، ويهزّ كبرياءهم، ويهوي بغلواء طغواهم، فإذا هم ـ بتعبيرنا المعاصر الدارج ـ في «الحجم» الطبيعي الذي ينبغي أن يكونوا فيه.

أم يحسب حاسب أنّهم أمنع على الله وأشد شكيمةً من صاحب اليمن، وكسرىٰ فارس، وقيصر الروم؟

أم هم أعظم قوةً، وأصلب أيداً من كلّ تلكم القدرات الطاغية التي كان دأبها الدائب ضرب الإسلام، وتفتيت كيانه، فإذا عالم الغيب والشهادة الجبّار ذو البطش يملي لهم بعض إملاء، ثم يمزّقهم شرّ ممزّق، ويقتلع بنيانهم من الأُصول؟

في الأُولى ـ يوم الإسراء ـ يقع الإنكار.

تقول أُم هانئ بنت أبي طالب عن ليلة الإسراء: إنّ رسول الله نام عندي تلك الليلة، في بيتي، فصلّى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا ... فلمّا كان قبيل الفجر، أهبّنا رسول الله ... فلمّا صلّى الصبح، وصلّينا معه، قال: «يا أُم هانئ، لقد صلّيت معكم العشاء الآخرة، كما رأيت، بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصلّيت فيه، ثم صلّيت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين ...».

تقول السيدة: فقلت له: يا نبي الله، لا تحدّث به الناس فيكذّبوك ويؤذوك.

قال: «والله لأُحدّثنهموه».

وحدّثهم فكذّبوه! وقال كثيرون: إنّ العير لتطرد[٢] شهراً من مكّة إلى الشام مدبرة، وشهراً مقبلة، أفيذهب محمد ويرجع في ليلةٍ واحدةٍ!!

وفي الثانية ـ يوم الخندق ـ لا تهتزّ العقيدة.

يقول المنافقون: بل قد أنذرهم قبل أن يحم فيهم القضاء.

ضرب لهم مثلاً للفئة القليلة الصابرة كيف تغلب الكثرة، وللصغير الضعيف كيف يقضي على الكبير العملاق، وكيف تخالف الحوادث اطراد ظروفها المنطيق، فتأتي

---

١. الغلّاب: صيغة مبالغة من «الغالب».

٢. تطرد شهراً: تستمرّ في السير شهراً.

النتائج بغير ما تؤدّي إليه المقدّمات، وبخلاف أدقّ الحسابات والتقديرات.

فليت الأحزاب ارعووا وفاءوا إلى الصواب!

ليت بني اسرائيل: قَتَلة الأنبياء ـ وهم أولاهم بالارعواء ـ قد أفادوا من الدرس الذي لقّنه آباؤهم على عهد داود، فذكروه وعلموه، وإنّهم لحقيقون بأن يستدركوا أحداث ماضيهم، ويستجيشوا في خواطرهم ثمرات الادّكار!

لكنّهم قوم بور.

وها هي قصتهم القديمة تلزمهم البوار.

يقول الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[1].

وبعث الله لهم «طالوت» ملكاً لحرب أعدائهم، وعلىٰ رأس أُولئكم الأعداء الطاغية «جالوت».

ومضىٰ بهم الملك زاحفين، وابتلاهم الله بنهر ... حتّىٰ إذا جاوزه هو والذين آمنوا معه، ودّ القوم المعنتون لو تحلّلوا من عهدهم، فقالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾[2].

القلّة هزمت الكثرة ... والصبي قتل العملاق!

---

١ . البقرة: ٢٤٦.

٢ . البقرة: ٢٤٩ ـ ٢٥١.

اللوحة الثالثة

يا إخوان القِرَدَة

عمرو بن عبد ودّ

حقّت كلمات الله.

المثل الذي ضربه ليقرّب للأفهام غلبة القلّة على الكثرة، صار كينونة.

كما حدث على جانب النهر منذ مئين من السنين ومئين، حدث شبيهه على جانب الخندق في ذلك اليوم ... الماضي البعيد تجسّد ليعيش في الحاضر المشهود.

والفتىٰ «علي» تبدّىٰ للخلائق وكأنّه اكتسىٰ هيئة «داود»، وفارس فرسان العرب: «عمروبن عبد ودّ» لاح في أعين الناس وكأنّه العملاق «جالوت».

فانخلعت عزائم المؤمنين! حتّى الذين أجنّتهم الآطام، من نساءٍ وولدان، افترسهم القلق، وتهاوت قلوبهم تحت الأقدام.

فلقد سرت إليهم الأنباء عن صولة ذلك الرئبال[1]، بطل الأبطال، وهو يتحدّىٰ أصحاب الرسول ... وكان مَن وسعه أن يرىٰ، يؤدّي لمن يسعه أن يسمع فينتقل التحدّي، من صف إلى الذي يليه، صورةً مرئيةً أو كلاماً يقال.

أَوَ كانت فاطمة سامعة كرائية، بين السامعين والرائين؟ وهل كان فؤادها بين

---

١ . الرِئْبال والريبال: جمعه رآبيل ورآبل ورآبلة وريابيل، وهو الأسد، وفي لغة: الذئب.

جنبها يدبّ دبيبه تحفّزاً للحظة النزال؟

أولىٰ بها أن توقن ـ إن كان لابدّ من لقاء ـ أنّ زوجها هو منازل الرئبال.

فقوة جنانه لا تزول، وتزول الجبال! وليس لشجاعته نظير في الامثال، وحداثة سنّه تمدّه بعزمة لا تلين، وغضبه في الله يوطئ له في استقبال الضواري الغضاب من ليوث الغاب وإن تكاثرت عليه تكاثر الذباب علىٰ معسول الطعام والشراب.

فيا ترىٰ كيف ستكون الواقعة بين الحنكة وبين الحماسة، بين بطولة البطل وبين حميّة الشباب، بين صلف الطغيان وبين ثقة الإيمان؟

* * *

علىٰ عُجبٍ وخيلاءٍ أخذ «عمرو» يخطر أمام جموع المسلمين، ثابت الخُطىٰ، هادئ الجأش، وعيناه ترميانهم بالتحدّي المشوب بالاستهانة والازدراء.

كان يدعوهم: ألا رجل يبارز؟

فينظر الواحد إلى الآخر، ثم لا يجيبونه إلّا بصمت عميق.

إنّها دعوة للموت!

وهل فيهم نم لا يعلم أنّه بإزاء فارس يعدل ألف فارس، بسيفٍ في يمينه كأنّه ألف سيف؟

ويزيد تحدّياً وسخريةً، والكلّ سكوت: أين جنّتكم التي تزعمون أنّ من قتل منكم دخلها؟ ... أفلا يحبّ أحد منكم أن يذهب إليها؟

فيهب علي: «أنا له يا رسول الله!».

فيردّه النبي: «إنّه عمرو!».

ثم يجول ببصره في جموع أصحابه من المشهود لهم بالبطولة، كأنّما يحثّهم أن يبرزوا لهذا المدل بجبروته الذي كان كلّ حرف من حروف كلماته يمرّغ رجولتهم في التراب.

لكنّهم يبدون كأنّهم لا يبصرون!

ولا يطيق عليٌّ هذا الهوان، فينتفض ثانية: «أنا له يا رسول الله!».

فيستقعده الرسول مرّةً أُخرىٰ: «إنّه عمرو!».

حتّىٰ إذا بلغ التردّد من أصحاب محمد مبلغه، وانكمشوا في جلودهم كما تختبئ في درقتها السلحفاة، وارتفعت الشماتة برجال الأحزاب إلى ذروة الاستهزاء ... عندئذٍ راح الفارس يتغنّىٰ باعتداده شعراً يهيّج الرهبة في نفوس خصومة إلى حدّ الرعب والانكسار، ويمدّ لأوليائه في الزهو إلى حدّ الاغترار.

أنشد يقول:

ولقد بححت من النداء ... بجمعهم: هل من مبارز؟
إنّي كذلك لم أزل ... متسرّعاً نحو الهزاهز
إنّ الشجاعة في الفتى ... والجود من خير الغرائز

فلم يستطع عليٌّ صبراً علىٰ هذه العنجهية المستكبرة الصلفة، وبادر يجيب المستعلي المفتون:

لا تعجلنّ فقد أتاك ... مجيب صوتك غير عاجز
ذو نيّةٍ وبصيرةٍ ... والصدق منجى كلّ فائز
إنّي لأرجو أن أُقيم ... عليك نائحة الجنائز
من ضربه نجلاء يبقىٰ ... صيتها بعد الهزائز

وخرج يقابل غريمه .

عندئذٍ له الرسول في لقاء ابن عبد ودّ: عملاق الفرسان الذي لا يُبارىٰ، فأعطاه سيفه، وألبسه درعه، وتوّجه بعمامته.

فلمّا أعدّه لمواجهة عدوّ الله، رفع كلتي يديه إلى السماء يضرع لربّه ويبتهل: «اللّهم إنّك أخذت عبيدة يوم بدر، وحمزة يوم أُحد، وهذا عليٌّ: أخي وابن عمي... فلا تدعني فرداً وأنت خير الوارثين»[1].

---

١ . رواه في كنز العمال ١٠: ٤٥٦ ح٣٠١٠٥ و١١: ٦٢٣ ح٣٣٠٣٤ عن علي وعزاه إلى الديلمي.

وارتهب المسلمون النتيجة.

لكنّ الزهراء، فيما أحسب، وفيما هو بها خليق، لم تكن لترتهب، وهي تدرك أنّ دعوة أبيها لابدّ بالغة عرش الله.

وفيم خوفها علىٰ زوجها وهي تعلم أنّ مصارع النخبة من صناديد الذين كفروا معلّقة بذؤابة سيفه، وثمّة ما زال يرنّ في أُذنيها ذلك الصوت الذي هَتَف به يوم بدر من أعلىٰ علّيّين ملك كريم، يقول:

«لا سيف إلّا ذو الفقار، ولا فتى إلّا علي»[١].

وها هو السيف!

وها هو الفتى!

وها هو النصر يكاد يتراءىٰ لمن استضاءت قلوبهم بنور الإيمان!

وتدانى الغريمان ... فأمّا عمرو بن عبد ودّ فقد أبىٰ عليه سدوره في غلواء الغرور إلّا أن يعجب كيف يجترئ عليه هذا الفتى الطريّ العمر، فاقتحمه بنظرة استعلاء، وسأله باستهزاء: من أنت؟ قال المناجز الصغير: «أنا علي بن أبي طالب».

فتظاهر بالرقّة له، والعطف عليه، وقال مترفّقاً كأنّما ليجنّبه الوبال: يابن أخي، لقد كان أبوك لي صديقاً، وكنتُ له نديماً.

فلم يبال عليّ رقّته وعطفه، بل بادر يجتذبه إلى حيث لا مندوحة له من المبارزة أو الاستسلام.

قال له: «يا عمرو، أنّك تقول: ما دعاني أحد إلى خلالٍ ثلاث إلّا أجبته إلى واحدةٍ منها».

قال عمرو: نعم.

ـ «فأنا أدعوك إلى الإسلام».

فضحك الرجل باستخفاف: دع عنك ذلك، فإنّي لا أترك دين الآباء والأجداد.

---

١ . رواه في الكنز ٥: ٧٢٣ ضمن ح١٤٢٤٢ عن ابن عساكر، وفي فتح الباري ١٠: ١٩٦.

ـ «وادعوك لأن ترجع بهذا الجيش الذي معك».

فتجلجلت بالسخرية نبراته: وتتحدّث العرب بفراري!

قال الفتىٰ: «أما وقد أبيت، فأنّي أدعوك للنزال».

فاصطنع عمرو الحلم في ثنايا نصح غلّلته الاستهانة، شأن المارد يستخسّ القزم ويزدريه: يابن أخي، من أعمامك من هو أشدّ منك، فليبرز لي، فأنّني لا أحبّ أن أقتلك.

قال علي بهدوء: لكنّني أحبّ أقتلك!

وكان هذا ختام الكلام.

فإن هي إلّا لحظة كلمح بالبصر، حتّىٰ أشعل الغضب دماء الفارس، فترك لحسامة الحديث.

ففي موطنٍ كهذا، عندما يسكت اللسان ينطق السنان! وعندما ينقضي الحوار يبدأ الصليل!

وفي مثل طرفة العين اهتزّ سيف فارس الفرسان بيمينه يلقي ومضاته تحت أشعّة الشمس المفروشة فوق أرض الميدان، حتّىٰ بدا للناس كأنّه عشرات من السيوف تضطرب في كلّ اتّجاه، مثلما اضطربت من قبل في أيدي سَحَرة فرعون عصيّهم وحبالهم صلالاً وحيات!

ووجم[1] المسلمون ... وأوجسوا خيفةً كما أوجس موسىٰ وهارون.

وحمل عمرو بحسامه[2] الذي لاح كألف حسام، علىٰ غريمه بضربةٍ قدّت درقته، ونفذت إلى رأسه فشجّته شجّةً حسب الراؤون أنّ فيها نهاية الشاب.

غير أنّ «الصغير» ثبت لايريم.

ثم مال بخفّة حركته عن مجال السيف الدوّار ... ثم عاجل العملاق بضربةٍ صاعقةٍ هوت علىٰ حبل عاتقة، فإذا المغوار التيّاه ببطولته الذاهبة في الآفاق،

---

١ . وجم: أمسك عن الكلام لهولٍ أو فزعٍ ونحوهما.

٢ . الحسام: السيف القاطع.

صريع على الثرىٰ، يخور[١] كثور مذبوح.

لكأنّما استحال سيف علي حينئذٍ ثعباناً أرقم، كعصا موسى، لقف ما أفك الساحر المبين!

وخيّم سكون رهيب ... كِلَا الفريقين المتخاصمين أصابهم الحسر، وسربلهم[٢] الذهول.

لكنّ التكبير ما لبث أن علا في صفوف المسلمين، بينا وجفت قلوب أهل الشرك، وشرقت[٣] بريقهم الحلاقيم.

فلقد قتل الصغير القصير المارد[٤] العملاق ... تماماً كما قتل داود جالوت!

ويومئذٍ دفن صيت ابن عبد ودّ حيث سالت دماؤه وهمدت أشلاؤه، وذهبت في الغابرين أُسطورة الفارس المغوار الذي كان يقوَّم بألف فارس، وحسامه الذي كان يعدل ألف حسام.

وكانت تلك بداية دحرة الأحزاب.

* * *

ولم تكن الخندق آخر ما تلوّث ببصمات يهود، ولا آخر ما ملأ بال الزهراء بالتوجّس من غدرات أهل الكتاب، ولا نهاية الملاحم التي التحم فيها سيف زوجها بأسياف بني إسرائيل.

ولقد بدا للناس أنّ ختن محمد على ابنته هو الحسام الذي شحذه الرسول وصقله ليجهز به علىٰ أبناء القِرَدَة، وعلىٰ أولياء الأصنام، كلّما طلع منهم قرن أو برز ناب.

فأنت حين تراجع قوائم الصرعىٰ من كِلَا الفريقين، لا تكاد ترىٰ غيره قد شقّ

١ . يخور: يصيح.

٢ . تسربل: لبس.

٣ . شرق: غصّ.

٤ . المارد: العاتي.

لكثرتهم الكاثرة اللحود، وقطّ الهام[١]، وفرى الأجسام.

وحين تستبطن سلوكه فيهم تجده موكلاً بالآجال ... وحين تراه بأعينهم فإنّه صنو عزرائيل.

وفي كلّ معمعةٍ تتعثّر دون غايتها الأقران، أو تنذر بغير ما تهفو إليه الآمال، يقدّمه الرسول ليقود الصفوف ... فإذا هو صاحب الحتوف! وإذا الغلبة له لزام! وإذا القضاء على الكائدين للإسلام صلاة وقيام.

وهل كان شيء أحبّ إلى المؤمنين من اجتباء النبي عليّاً كلّما حزب حازب، وبدرت محنة تهم أن تنوش الدين؟

أو كان أحد أنعم بالاً من الزهراء بهذا الاجتباء؟

بل كانت دائماً حريّة بأن تتوقّع دائماً أن يكون زوجها مناط الاختيار.

ذلك لأنّه الأخلق في الأشباه أن يدير الرحىٰ حتّىٰ تطحن أولياء الشيطان إن كان ثمّة له في ساحات الصيال أشباه.

ولأنّ اختصاص الرسول إيّاه ـ من بين تلامذته وأصحابه ـ لمثل تلك المدلهمّات[٢]، هو أدقّ اختصاص، وألزم انتقاء، لأنّه بوحي السماء، فما ينطق عليه الصلاة والسلام عن هوىً أوميلٍ خاصّ، وما كانت له الخيرة من دون الله، وما يقول أو يفعل إلّا بقضاء.

وقد وافقت الحوادث دقّة الاختيار.

وتعال فانظره ـ عقب الخندق ـ وأهل الشرك وحلفاؤه يفرّون مذعورين أمام جنود ربك ـ من رياح عواصف، ورعود قواصف، وأمطار جائحة كطوفان نوح ـ يأمر مؤذّنه فينادي في المسلمين: «من كان سامعاً مطيعاً، فلا يصلينّ العصر إلّا في بني قريظة»[٣].

---

١ . الهام: جمع هامة، وهي الرأس.

٢ . المدلهمّات: الصعاب المظلمة.

٣ . البداية والنهاية ٤: ١١٨، ١١٩، وانظر كتب السيرة النبوية، فصل غزوة بني قريضة.

فيطيع السامع ... ويتهيأ المطيع.

ويدفع هو رايته لعلي، فيندفع بهم كالإعصار إلى تلك الجماعة من يهود، الذين ظنّوا حصونهم مانعتهم من الهلاك.

وكما كانت فاطمة تخشىٰ علىٰ أبيها مكر بني اسرائيل، فقد خشي زوجها على النبي غدر شرذمتهم هذه، إذ سمع أنّهم يقعون في الرسول بكلّ قبيح، ويأتمرون به ليقتلوه.

فما أن أوشك الرسول أن يدخل أرض القوم الظالمين، حتّىٰ أسرع علي إليه يمنعه من الدنو من حصونهم خشية أن ينالوه.

عندئذٍ ابتسم رسول الله، وقال لصفيّه الأمين: «أظنّك سمعت منهم لي أذى؟».

قال: «نعم».

قال الرسول: «لو رأوني لما قالوا من ذلك شيئاً».

ثم دنا منهم حتّىٰ أصبح على أقصر من جرس الكلمة، ومرمى القوس، ونادى فيهم: «يا إخوان القردة! هل أخزاكم الله، وأنزل بكم نقمته؟»[1].

فاستخذوا وأجابوه: يا أبا القاسم، ما كنت جهولاً.

وضرب عليٌّ وجنده حولهم الحصار ... خمساً وعشرين ليلة ظلّوا حبيسي هلعهم وراء الأسوار والجدران.

ثم لم تغن عنهم حصونهم شيئاً ... بل انفتحت لهم أبوابها على الفناء.

* * *

وانظره عليه الصلاة والسلام إذ أمّن علىٰ مجتمعه الجديد عادية قريش إذ دعوه إلى الصلح بالحديبية فاستجاب، وإذ أمّن عليه الدول المجاورة، إذ أوفد رسله إلى ملوكها وأمرائها، فوجد لدن أكثرهم صدىً طيّباً، لوفادته يطمئنّ معه علىٰ مصير دعوته، ومستقبل دولته إلى حين.

---

١ . المصدر السابق.

وإذ أمّن عليه كيد يهود، إذ أفرغ منهم مشارف المدينة، فقضىٰ علىٰ بعضٍ، وأجلىٰ آخرين.

فقد ظلّ يخشىٰ بني جلدتهم المقيمين بخيبر في شمال حاضرته أن تتحرّك في نفوسهم ثارات قومهم أحقادهم فيمالئوا عليه «هرقل»، وإنّهم ـ فيما خَبِرَهم ـ لأشدّ مقتاً له وللذين آمنوا، وأشرس عداوةً من كلّ خصمٍ لئيم.

أفيدهم حتّىٰ ينالوه؟

بل الأولىٰ به أن يخضد[١] شوكتهم، ويقمع[٢] شرّتهم، ويسحق فيهم رأس الأفعى التي تتلمّظ[٣] لتنشب فيه نابها المسموم.

فإن هي إلّا عدّة أيامٍ، لا تعدوالشهر، أعقبت هدنة الحديبية، حتّىٰ سيّر إليهم سرّاً فرقةً غازيةً، بلغت مواقعهم المنيعة بعد ثلاث ليال.

وبُغِت أصحاب الآطام.

ما أن أسفر الصبح حتّىٰ فوجئ عمّالهم، وهم خارجون من صياصيهم إلى المزارع، أن رأوا بحيالهم جند المسلمين، وها لهم ما شهدوا، فولّوا مدبرين يتصايحون: هذا محمد والجيش معه!

وسمعهم الرسول، فقال: «خربت خيبر! إنا إذا نزلنا بساحة قومٍ فساء صباح المنذرين!»[٤].

وعلىٰ ما كانت حصونهم عليه من منعة، وسلاحهم من وفرة، وأولياؤهم من بعض قبائل العرب من قوة، فقد كتب عليهم ربّك الخسران.

ودار القتال ... واستعصىٰ على المجاهدين فتح بعض الحصون، ولم يكن أحد

---

١ . يخضد الشوك: قطعه.

٢ . قمع: استأصل.

٣ . تلمّظ: إذا أخرج لسانه ويدور به حول شفتيه.

٤ . رواه مسلم ٢: ١٠٤٥ ب١٤ من أبواب النكاح ح١٣٦٥ و٣: ١٤٢٦ ب٤٣ من أبواب الجهاد والسير ح١٣٦٥ وما بعده، كلاهما عن أنس، وأحمد في المسند ٣: ١١، ١١١ و٤: ٢٨.

يشكّ أنّها مفتوحة بإذن الله علىٰ يد ذلك الموكول بآجال الكفّار.

فهل يندبه الرسول الآن، أم يدخره حتّى يئين الأين، ويأتي الله بقضاءٍ لازمٍ ما عنه حِوَل ولا منه نجاء؟

وتتابعت الأيام والحصار يضيق، وأصحاب الصياصي[1] يستميتون في الدفاع، حتّىٰ حسب الناس أنّ اليهود قد تعاقدوا على الموت وهم وقوف، فألفوا من جسومهم جُدُراً صلبة هي التي تحمي الحصون، وليست تحتمي بالحصون!

وكان حصن «ناعم» أعصاها علىٰ هجمات المسلمين، وقد شاء الله أن يبتلي بهذا الحصن اثنين من خيرة أصحاب نبيّه فانطلقا على تعاقب، كلّ في يوم، ليفتحاه.

أمّا الأول: أبو بكر، فقد قاتل بالذين معه قدر وسعه أعنف قتال، وأشدّ صيال، فلم يغن عنه ما قاتل وما صال ... وبقي «ناعم» علىٰ نفس وضعه، كمثل لغز ضلّت عن سرّه حِيَل الحلول وألمعية العقول.

ولم ير الرجل بُدّاً من العودة، فعاد.

وأمّا الثاني: عمر بن الخطّاب، فقد حاول جهده في الغداة، ثم لم يكن قصاراه، كسلفه، غير ركونه للارتداء.

وأوشك إخفاق الصاحبين أن يصيب ثقة المسلمين في أنفسهم بالتوهين.

لكنّ الرسول بادر فنادىٰ في الناس: «لأُعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله»[2].

فتطاولت أعناقهم إلى الموعود!

أم كانوا في دخيلتهم يعلمون من يكون؟

---

١ . الصياصي: الحصون.

٢ . تواتر هذا الحديث، واستفاضت طرقه، نقلته كتب الحديث والتاريخ والسيرة والمناقب والتراجم بألفاظ متقاربة لا تضرّ بالمعنى قيد شعرة، أخرجته كتب الصحاح والسنن برمّتها، وأحمد وابن سعد وعاصم والخطيب والطبراني والهيثمي وابن كثير في البداية والنهاية والنسائي في الخصائص وأبو نعيم في الحلية ... لو أحصيناهم لتطلّب مساحة كبيرة من صفحات هذا الكتاب.

ودعا رسول الله عليّاً وقال له: «خذ هذه الراية فامضِ بها حتّىٰ يفتح الله عليك».

ثم أمره أن يبدأ بدعوتهم إلى الإسلام، فإن أجابوا فنِعْم، وإن أبوا فالقتال حتّىٰ يخرّوا صرعى، أو يقعوا جُثيّاً على الركب صاغرين.

وأضاف: «فوالله، لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك ممّا طلعت عليه الشمس!»[1].

وعلى الأثر خفّ أبو الحسن لما عهد إليه، فخلع درعه ليتحرّر من ثقله، فيكون أخفّ حركةً، وأسرع كرّاً، وأقدر على المداورة في النزال.

ومضىٰ بالراية.

فلمّا دنا من الحصن خرج إليه من فيه فقاتلهم، فضربه رجل من اليهود فطرح ترسه من يده، فاقتلع علي باب الحصن، وراح يقاتل وهو متترس به ... ثم مدّه قنطرةً علىٰ خندق الحصن، اجتاز عليه المسلمون إلى داخله.

يقول أبو رافع مولىٰ رسول الله: ... وظلّ الباب بيده وهو يقاتل حتّىٰ فتح الله عليه، ثم ألقاه حين فرغ ... وقد رأيتني في نفر سبعة، أنا ثامنهم، نجهد أن نقلب ذلك الباب، فلا نستطيع[2]!

* * *

وخربت خيبر!

وقع «ناعم» في أيدي المجاهدين، وكان وقوعه مفتاح النصر.

فمن ورائه تهاوت بقية الحصون، واحداً بعد الآخر، كأنّما قلاع أطفال، جدرانها ورق، وأساسها رمال!

---

١ . رواه في الأذكار النووية: ٢٧٨.

٢ . انظر كتب التاريخ والغزوات، فصل غزوة خيبر، وحوادث سنة سبع من الهجرة، تروي قصة الفتح، وشجاعة علي بن أبي طالب عليه السلام وما أبلى بلاءً حسناً في قلعه الباب، وجندلة صناديد اليهود وريابيلهم، ما عجز عن صنعه غيره.

فُتح «القموص».
سقط «الصعب».
اقتُحم «الزبير».
استسلم «الوطيح».
ودان «السلالم».
فكم من أبالسة خيبر غالت المصارع في تلكم المعامع!
كم في جبابرتهم جالت السيوف بالحتوف!

لقد آثروا ـ عندما اشتدّ بهم الكرب ـ الخروج من وراء الأسوار لملاقاة أصحاب محمد في حربٍ مكشوفةٍ، فذلك أولىٰ برجولة الرجال، وبطولة الأبطال ...فلعلّهم ـ لو فعلوا ـ أن يفلجوا علىٰ عدوّهم، أو يبادلوه ضربةً بضربة، وقتيلاً بقتيل.

كلّا لن يخشوا أن تخونهم الآجال ... ثم ماذا عليهم ـ إن كان لابدّ من هلاك ـ أن يذوقوا الحمام وهم علىٰ الأقدام؟

وانبرىٰ بطلهم «الحارث» إلى «عليّ»، فما قاربه حتّىٰ هدّه «ذو الفقار»، ثم لحقه آخر على الأثر إلى النار.

ثم عصف الغضب بسيّد فرسانهم «مرحب»، فأسرع في الزرد والحديد، وفي الصلف والازدهاء، ليثأر للحارث أخيه، وهو يصيح بخيلاء:

قد علمت خيبر أنّي مرحب … شاكي السلاح بطل مُجرَّب
أطعن أحياناً، وحيناً أضرب … إذا الليوث أقبلت تحرّب
إن حماي للحمى لا يقرب … يحجم عن صولتي المجرّب

فردّ عليّ:

أنا الذي سمّتني أُمي حيدرة … كلَيْث غابات شديد قسورة[1]
أكيلكم بالسيف كيل السندرة[2]!

---

١ . الليث وحَيْدرة وقَسْورة: من أسماء الأسد.
٢ . السندرة: ضرب من الأكيال الكبيرة.

والتقيا.

كان الزعيم اليهودي مهيباً ضخماً، فارع الطول، في كسوةٍ من الدروع والحلقة، تغطّي جسمه من قمّة رأسه إلى أظافير رجليه، لا تكاد تكشف من بدنه ثغرة ينفذ منها إليه سنّ إبرة، حتّىٰ لقد بدا كأنّه قلعة حصينة حيّة تدبّ علىٰ قدمين!

وكان عليٌّ أقصر قامةً، وأقلّ ضخامةً، حاسراً بغير درقة، عاطلاً بلا دروع.

وتقدّم «مرحب» مدلاًّ ببطولته وكبريائه، يهزّ في يمينه حربةً مخيفةً، ذات ذؤابات ثلاث، كتنّين ثلاثي الرؤوس.

وتصاولا هنيهات.

أمّا مرحب فإنّه اندفع بكلّ ثقله إلى قلب غريمه، مسدّداً ضربته، مصوّباً حربته بأسنانها الثلاث ... فإن سِنٌّ خسفت[1]، فخرقٌ في القلب، كنهشة صلٍّ[2]، لا تنفع فيه رُقىً ولا ترياق! ... وإن اثنتان فنِعْم التزاوج بين أفعىٰ وأفعوان! ... وإن كنّ ثلاثاً فرسل حِمام!

غير أنّ علياً راغ بخفّةٍ عن التنّين ... ثم رفع حسامه، ثم أهوىٰ به على رأس «مرحب»، فانفلقت درقته، وانشقّت جمجمته، وسقط اللئيم المغترّ وهو يفحص في الأرض برجليه حتّىٰ همد حركةً، وذهبت روحه إلى الجحيم[3].

وكبّر المؤمنون.

ثم تهاوت الحصون، واستسلم من بقي من أُولئك الطغام من بني اسرائيل بعد أن أعيتهم المقاومة.

فما أغنىٰ عنهم الصلف والعناد، ولا منعهم العدد والعتاد.

---

١ . خسفت: شقّت الجلد.

٢ . الصلّ: ضرب من الحيّات.

٣ . انظر كتب التاريخ والسيرة النبوية، فصل فتح خيبر، من حوادث سنة ٧ للهجرة، والاشعار التي سجّلت في تلك الواقعة.

اللوحة الرابعة

وفاة الرسول

يوم بلا نهار ... في نطاق الشعور مات النور!

الشمس احترقت، وغدت كومةً من الرماد ... ألوان الطيف تحوّلت إلى سواد.

النجم في سمائه تغوّر كينبوع جفّ، ولم تعد فيه قطرة من ومض تخايل العيون كخدعة السراب.

القمر اختنق وراء الأُفق، بعد شوطٍ غير قصير قطعه علىٰ مدرجة البدور.

كلّ شيءٍ يمضي ـ أماماً وخلفاً ـ إلى التغيير ... أشباه تليها نقائض، ونقائض تليها أشباه.

الغائب يعود ... السائر يقف ... الظاهر يغور ... فإذا الحركة جمود، وإذا الحيّز فراغ.

فالإنسان، ذلك المعقّد المجهول، ليس فقط كتلةً من اللحم والعظم والدماء، بل هو أيضاً مجمع أسرار.

أم لا، فما الروح؟ وكيف تنقلب حرارة الحياة في العروق زمهريراً يثلج الدم، ويجعله خيوطاً صلبة من الجليد؟

فما هي العواطف؟ وأيّ جهاز هذا الذي يفرز الحبّ كما يفرز الكراهية؟

وأين تعيش فينا الذكريات؟

ألغاز تحيّر العقول، أوّلها هو هذه العقول!

* * *

أفانسباح بفاطمة مثل هذا الشعور المجهول؟

لقد كانت الدنيا عندئذٍ كريهةً مقيتةً، شوهاء الهيئة، مريرة الطعم، شلاء الإقبال، سادرة الإدبار.

فالحدث الخطير المنتظر لا يُرىٰ بلمح البصر، لا يُسمع ـ قبل أن يقع ـ في خبر، لا يوزن بقانون الكتلة، لا يُحسب بلغة الأرقام ... لكنّه يُدرك بالحدس الصادق، والحسّ الشفيف.

فيا ليت حدسها لا يصدقها هذه المرّة! ليته لا يصيب! ليته يخيب في هذا الحدث ثم ينجح فيما عداه من كوارث وملمّات وإن كنّ مئات، ومئات مئات!

وإذا كانت الدلالات تشير بالأصابع الثابتة إلى موت الرسول، فلقد يصدق الإيماء، ثم يظلّ الموعد معلّقاً بالمجهول.

ولقد تختلف على الدلالة التآويل ... ولقد تتأرجح بين الاسترابة والاستيقان، فتميل آونةً نحو الاحتمال، وتميل آونةً نحو التقرير.

ومع ذلك، فأين في الخلق من لا يموت؟

إنّما المعوّل هنا على التوقيت والتمكين، أو وقت الوقوع ومكان الوقوع.

ودون هذا وذاك أجل مكتوب ... ومشيئة الله ... وحدس صادق كأنّه إلهام.

* * *

ولكم تزاحمت الآن تلك الدلالات، دلالةً بعد دلالة توالت في ذهن الزهراء، من وراء الماضي الذي غار عادت تدبّ علىٰ أرض المشهود.

ووقفت الابنة الحزينة تصغي وتنظر ـ في صمتٍ ووجدٍ ـ إلى هذا الذي يفرزه البال ... إنّها أحاديث وأحداث راحت تترسّل أمامها في موكب الزمان.

ثمّة فيها صور رسمتها الكلمات فإذا هي مسموعات، وبها كلمات اصطكّت فيها الحروف بالحروف، لتبعث بروقاً تلقي ظلالاً، فإذا هنّ جميعاً مشهودات.

فالصورة كلمة مرئية، والكلمة صورة مسموعة.

ولقد كانت فاطمة عندئذٍ تسمع ما تنطق به الصور، وتشهد ما ترسم الكلمات ... وكانت صافية الذهن، يقظانة الوعي، صاحية الانتباه.

ولقد تلوح شاردة النظر، غائصة اللون، معقودة الجبين، فلا يكون سهومها وشحوبها وقطوبها إلّا أجنّة الألم النفسي التي تمخّضت عنها أرحام الهموم ... أو تتبدّىٰ وفي عينيها بكأ[1] تجمد، إذ شوىٰ شجنها[2] المحرق جفنيها، فقدّد[3] الدموع ... أو تراها وعلىٰ خدّيها عبرتان ثبتتا لا تبرحان، قد انغرستا فيهما انغراس حلقتي المغفر يوم أُحد في وجنتي الرسول الجريح.

وربّما شِمْتَها، وهي كارهة لهذه الدنيا الخدّاعة، قد أثقلتها الحياة، وفدحتها المعاناة، فراحت تتحلّب شفتيها تحلّب الطفل ثدي أُمه الذي نضب[4] لبنه، فازورّ[5] عنه وهو أسيف.

وأيّ الأحاسيس كان يعتلج[6] في صدرها حينذاك؟

أفكان فمها مليئاً بالمرّ؟

كأنّه كان!

كأنّ شفتيها ثمرتا حنظل! وكأنّ لسانها شريحة من الصبّار!

أمّا فؤادها الشجيّ، فهو من ثقلٍ أشبه بصخرةٍ انحطّت من قمّة جبلٍ شاهقٍ، ثم

---

١ . البُكا: الدمع.

٢ . الشجن: الحزن.

٣ . قدّد: قطع.

٤ . نضب: غاض ونَشَف.

٥ . ازورّ: مال وأعرض.

٦ . اعتلج: اعتلىٰ.

تدحرجت عند سفحه إلى وهدةٍ عميقةٍ من الفراغ!

وأمّا أنفاسها التي راحت تلقفها لقف الظمآن قطرة مطرٍ هربت من جفاف البيداء، فإنّها من بهرٍ كانت تتقطّع، فيمجّها[١] منسماها مجاً، وما بلغت السحر، ولا جاوزت النحر!

وعندما جاءها من وراء الباب، ذلك الحديث القصير الذي دار بين زوجها وبعض الناس، هاجتها المواجع، وعاودتها الرؤى المقطّعة التي تحمل مآسي الدلالات ... وسمعت الحوار قال قائلون، يسألون: يا أبا الحسن، كيف خلّفت رسول الله؟

فأجاب باقتضاب: «أصبح بحمد الله بارئاً».

ثم خيّم السكون.

فهل هذا الذي ندّ عن أبي السبطين، إنّما كان نفثةً تلقائيةً عبّر بها «اللاشعور»، وبلا تفكير، عن رغبةٍ ذاتيةٍ، ملكت على عليٍّ من جوانب نفسه كلّ مكشوفٍ ظاهرٍ، وكلّ خفيٍّ مستورٍ، وكانت تودّ للنبي شفاءً عاجلاً من مرضه الأخير؟

أم هو مجرد تبشير بشير، أراد به أن يضيء للأمل، ويفسح للطمأنينة في قلوب المؤمنين لأنّه يكره التطيّر والتنفير؟

أم هو دعاء إلى الله ورجاء، لو شاء سبحانه وتعالىٰ لبّاه، فاستأخر بنبيّه، وبدّل قضاءً بقضاء؟

❋ ❋ ❋

وتوالىٰ علىٰ صفحة ذهنها موكب الذكريات.

وهاجها الادّكار.

ليس بعيداً عن سمعها وبصرها ذانك الظرفان التوأمان اللذان رؤي في كليهما نذيران، إن اختلفا هيئةً فقد اتّفقا في المضمون، يومئان إلى الرسول فلا يخطئان

---

١ . مجّ الشيء: لفظه.

الإيماء، يُلمحان بوشك ارتحاله عن دنيا الناس ... لا ينطقان عن هوىً، وإنّما بوحي السماء.

وعندما تنزّلت كلمات ربّك، فكشفت الغطاء عن الداهمة المروّعة، كانت فاطمة شاهدة سماع وعيان في المكان والزمان.

فالمكان: مكة.

والزمان: الشهر الثاني عشر من شهور العام.

والمناسبة: الحجّة الأخيرة لرسول الله التي سمّاها المسلمون بعد انتقاله عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلىٰ: «حجة الوداع».

إحدى تينك الدلالتين تروي قصّتها فتقول:

نزلت عندئذٍ سورة «الفتح» في أيام[1] التشريق: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً * وَيَنْصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾[2].

فعلم الرسول أنّه الرحيل، وأمر براحلته القصواء فرحّلت ... ثم خطب خطبة الوداع.

قيل: وكان عليه الصلاة والسلام قد وقف عند جمرة العقبة، وقال للناس: «خذوا عنّي مناسككم، فلعلّي لا أحجّ بعد عامي هذا»[3].

وقال لنسائه إذ حضرن معه الموسم: «إنّما هي هذا الحجّة، ثم الزمن ظهور الحصر»[4].

وكانت الزهراء في الحجيج، كما هو معلوم، فانقبض صدرها، كم انقبضت صدور

---

١ . وقيل: نزلت بعد الحديبية (المؤلّف).

٢ . الفتح: ١ ـ ٣.

٣ . أخرجه البيهقي في السنن ٥: ١٢٥ كتاب الحج عن جابر، وابن عبدالبرّ في التمهيد ٢: ٦٩، ٩١، ٩٨ وغيرها.

٤ . المصدران السابقان.

الذين يقرأون الرموز.

وعندما سُئل ابن عباس ـ بعد سنين ـ عن سرّ «الفتح»، قال: هو أجل رسول الله قد نُعي إليه[١]!

فالفتح «ختام» رسالة الرسول ... وماذا بعد الختام إلّا ارتحاله عن العالم الدنيوي، وصعوده إلى الله؟

تقول الأخبار: حدث هذا يوم جمعة، الضُحى قد ارتفعت، الحرّ اشتدّ... رسول الله على بغلته الشهباء وقد أمسك بمقودها بلال، أُسامة رافع ثوبه يستر به نبيّه من وهج الشمس... علي بن أبي طالب واقف بين يديه عليه الصلاة والسلام، لينقل عنه خطابه إلى هذا الحشد الزاخر.

وينصت الناس ... ويتكلّم الرسول ... ويُبلّغ علي:

ـ «يا أيّها الناس، أيّ يومٍ هذا؟».

قالوا: يوم حرام.

ـ «فأيّ بلدٍ هذا؟».

ـ بلد حرام.

ـ «فأيّ شهرٍ هذا؟».

ـ شهر حرام.

ـ «فإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، إلى يوم تلقون ربّكم».

وأعادها مراراً ... ثم رفع رأسه، فقال:

«ألا هل بلّغت؟».

قالوا: نعم.

---

١ . راجع كتب التفاسير، ضمن تفسير سورة النصر المباركة، تحكي الحوار الذي دار بين ابن عباس وعمر ابن الخطاب حول هذه السورة.

قال: «اللّهم اشهد!»[١].

وكان علي يؤدّي عنه طيلة خطابه، في حضوره اليوم هذا الموسم أدّىٰ عنه، كما أدّىٰ عنه في الموسم الماضي منذ عام.

قيل: إذ نزلت تلك الآيات من سورة التوبة، تعلن البراءة من المشركين، إذ يقول الناس للرسول: يا رسول الله، لو بعثت بها إلى أبي بكر، وكان أبو بكر على الحجّ آنذاك.

فقال الرسول: «لا يبلّغها إلّا أنا أو رجل من أهل بيتي»[٢].

ثم دعا عليَّ بن أبي طالب، وقال له: «اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى: ألا إنّه لا يدخل الجنّة كافر، ولا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان ... ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدّته»[٣].

ويستمرّ الخطاب ... ويستمرّ الأداء.

* * *

زوجها إذاً كان مؤتمن رسول الله علىٰ أمر الله، وكيله للبلاغ.

والوكالة نزول من الموكّل عمّا خوّل ـ كلّه أو أكثره أو أقلّه ـ ثم إسباغه على

---

١ . أخرجه البخاري ٢ : ٦٢٠ ب١٣١ من أبواب الحج ح١٦٥٤ و١٦٥٥ والبيهقي في السنن ٥ : ٨، ١٣٩ و٨ : ٢٠ عن ابن عمر.

٢ . تواترت كتب الحديث والسيرة والتفسير بنقل قصة بعث النبي ﷺ بسورة براءة أو عشر آيات منها أبي بكر ليقرأها على أهل مكة، ثم دعائه علياً ﷺ بأن يلحق به وردّه ليبلّغها علي بنفسه، واختلفت بعض الألفاظ منها: «لا يبلّغها ...»، وأخرىٰ: «لا يذهب بها ...» وثالثة: «لن يؤدّي عنّي...». راجع البخاري، في فضل الصحابة فصل : فضل علي بن أبي طالب ﷺ، وأحمد في مسنده ١: ١٥٠، ١٥١ والجمع بين الصحاح الستّة لرزين في الجزء الثاني في تفسير سورة براءة، وكتب التفاسير، ضمن تفسير سورة التوبة (براءة).

٣ . المصادر السابقة.

الوكيل، في ظرفٍ ما، لغرضٍ ما، ليمارسه وكأنّه أصيل ... وهي ولاية من وليٍّ لمولىً قد اجتباه، فقدّمه علىٰ كلّ من عداه، لثقته في أهليّته للنهوض بما فوّضه فيها ... وهي أدنىٰ إلى أن تبرم حينما يرىٰ صاحب الحقّ الشرعي ألا مندوحة له عن التوكيل.

فهل علىٰ مثل هذا الشريعة كانت تسير الاحتمالات؟

لتكاد ... وليوشك امرؤ أن يقول: إنّما كان ذلك «الأداء» لفتة نبوية، تمهّد لتوكيد ولاية أبي الحسن على الناس.

فما أن انفضّ الموسم، وانكفأ المسلمون عائدين من حجّة الوداع، حتّىٰ أذّن فيهم مؤذّن الرسول ببعض الطريق، فكفّوا الانطلاق.

كان ذلك في الثامن عشر من ذي الحجّة.

وكان اليوم: الأحد.

وكان «غدير خم» المنزل الذي نزلوه.

وأمر رسول الله فكُسح له تحت شجرتين، وصلّىٰ بالناس.

يقول الرواة[1]: ووقف عليه الصلاة والسلام، فخطب خطبةً عظيمةً، فبيّن فيها أشياء، وذكر من فضل علي وعدله وقربه إليه، ما أزاح به من النفوس ما افتأت به عليه بعض الناس وظلموه.

وقال، فيما قال:

«كأنّي دُعِيت فأجبت ... إنّي قد تركت فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[2].

---

١ . السيرة النبوية، لأبي الفداء. (المؤلّف).

٢ . حديث الثقلين من الأحاديث المشهورة التي اتّفق الفريقان على روايته، بأسانيد متعدّدة، حتّىٰ روي من طريق أهل البيت وحدهم باثنين وثمانين طريقاً. راجع على سبيل المثال: كتب التفسير، عند تفسير آية الاعتصام وآية المودة وآية التطهير، ورواه الدارمي ٢: ٤٣٢، والنسائي في الخصائص: ٣٠، والحافظ الكنجي في كفاية الطالب: «وقال: رواه أبو داود وابن ماجة القزويني، ورواه أيضاً ابن سعد ٤: ٨، وابن ←

وربّما قال أيضاً في مقام غير هذا المقام: «كتاب الله وسنّتي».

ولا يكاد يفترق الحديثان، فليس أولىٰ من آل بيته بحفظ سنّته ونشرها علىٰ وجهها الصحيح.

وأكمل يقول: «فانظروا كيف تخلّفوني فيهما ... فإنّهما لن يفترقا حتّىٰ يردا عليّ الحوض».

ثم قال: «الله مولاي، وأنا وليّ كلّ مؤمن».

وأخذ بيد علي فقال: «من كنت مولاه فهذا وليّه ... اللّهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه»[١].

فهل وعى الناس؟

وأقبل عمر بن الخطّاب علىٰ عليٍّ يقول: هنيئاً لك يا أبا الحسن! أصبحت وأمسيت مولىٰ كلّ مؤمنٍ ومؤمنة.

ومع ذلك فقد بدا ـ وما انقضى من الزمن كثير ـ كأنّما الناس قد أفرغت عيونهم وآذانهم من هذه اللفتة النبوية الكريمة، فنسوا المشهد والمسمع عن غفلة أو عن

← الجوزي في التذكرة: ٣٣٢ ب١، ومحب الدين في الذخائر: ١٦ والقندوزي في ينابيع المودة: ١٨ و٢٥ و٣٠ و٣٢ و٣٤ و٩٥ و١١٥ وغيرها».

١ . تواتر حديث الولاية، واستفاض نقله في كتب الحديث والتاريخ والسيرة والرجال والأدب، بعضها صرّحت باسم أمير المؤمنين علي عليه السلام وبعضها عبّرت بلفظ «هذا» ومن طرق متعدّدة، راجع على سبيل المثال: سنن الترمذي ٥: ٦٣٣ ب٢٠ من المناقب ح٣٧١٣ عن أبي سريحة أو زيد بن أرقم، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح. وسنن ابن ماجة ١: ٤٣ ب١١ من أبواب المقدمة ح١١٦ عن البراء بن عازب، ومسند أحمد ١: ٨٤ عن زاذان بن عمر، و: ١١٨ عن زيد بن يثيع، و: ١١٩ عن عبدالرحمان بن أبي ليلىٰ، و: ١٥٢ عن أبي مريم، المعجم الكبير للطبراني ٣: ١٧٩ ح٣٠٤٩ عن زيد بن أرقم أو حذيفة، و: ١٨٠ ح٣٠٥٢ عن حذيفة بن أسيد الغفاري، و٤: ١٧٣ ح٤٠٥٢ عن أبي أيوب الأنصاري،و: ١٧٣ ـ ١٧٤ ح٤٠٥٣ عن رياح بن الحارث النخعي، وطبقات ابن سعد ٥: ٢٣٥، ومستدرك الحاكم ٣: ١١٠ عن زيد بن أرقم، و: ١٣٣ ـ ١٣٤ عن ابن عباس، و٣٧١ عن رفاعة بن إياس الضبي عن أبيه عن جدّه، وخصائص النسائي: ٤٤ و٤٨ و٥١، وفي فهارس البداية والنهاية تجد أرقاماً طويلة تثبت مواضع نقل هذا الحديث في طبعة دار الكتب العلمية، والأمر نفسه في كنز العمال طبع مؤسسة الرسالة ...وغيرها.

إغفال، إلَّا أن ينبّههم منبّه لهذا الحديث الذي جرىٰ في «الغدير» ذلك اليوم المشهود من أيام الآحاد، عسىٰ أن يعيدهم إلى حقٍّ هجروه.

أفيجدي التنبيه؟

بل فات أوان جدواه!

وكفىٰ أن نعلم أنّ علياً نفسه قد ضاق بتغافلهم عن كلام نبيّهم ذاك، وودّ لو ذكّرهم به لعلّ الذكرىٰ تنفع المؤمنين!

فلقد وقف في عهد إمرته، بعد نحو ثلاثين عاماً من حجّة الوداع، برحبة مسجد الكوفة، وقال للناس: «أنشد الله رجلاً سمع رسول الله وشهده، يوم غدير خم، يقول ما قال، إلَّا قام».

فقام أُناس من الجمع فشهدوا أن قد رأوا رسول الله يأخذ بيد علي ويقول: «أتعلمون أنّي أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم؟».

قالوا: نعم يا رسول الله.

قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه اللّهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه».

وأضاف بعضهم: «وانصر من نصره، واخذل من خذله»[1].

وكان أنس بن مالك، وأبو هريرة، وزيد بن أرقم من الشاهدين.

* * *

وتوالت الدلالات علىٰ وشك رحيله عن دنيا الناس، ليس آخرها ولا أظهرها ـ فقط ـ قول الله ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً﴾[2].

قال قائلون: فلمّا تلاها النبي على الناس، استشعر بعضهم أنّ الخطب واقع، وأنّه عليه الصلاة والسلام منتقل من الدار الفانية إلى دار النعيم.

---

١ . انظر المصادر السابقة.

٢ . المائدة: ٣.

حدث هذا والرسول واقف بمنىٰ ...في الجمعة ... في نفس الحجّة.

وبكىٰ عمر، فلمّا سُئل ما يبكيك؟

قال: إنّه ليس بعد الكمال إلّا النقصان[١]!

أفلا يعجب عاجب أن يستيقن عمر وفاة النبي وهو أمامه حيّ ثم لا يلبث بعد شهرين ونصف شهرٍ أن ينكر موته وإنّه تحت بصره لمسجّىً علىٰ فراشه قد نضب فيه ماء الحياة؟!

العجب حقيق بأن يكون هو الشعور الذي يراود النفوس من تبدّل موقف عمر عندئذٍ نقيضاً بنقيض.

والشكّ إذاً أحرىٰ بأن يلفّ ذلك السلوك الذي نسب خطأً أو مغالاةً في تصوير حدّه الفاجعة إلى ابن الخطّاب.

فلقد زعم زاعمون: ما أن تردّد على الألسنة خبر وفاة الرسول، حتّى اهتاج عمر، وثار بالناس ثورةً أوشكت أن تكبح بحدّ سيفه قوله المردّدين، وهو يزأر كلَيْثٍ غضوب!

قال ـ على اتّفاقٍ في المعنىٰ، واختلافٍ في تركيب العبارات ـ : إنّ رجالاً من المنافقين زعموا أنّ رسول الله قد مات، ووالله ما مات رسول الله! لكنّه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسىٰ بن عمران! وليرجعنّ رسول الله، فيقطعنّ أيدي رجالٍ وأرجلهم زعموا أنّه مات[٢]!

تحكي عائشة خبر وفاة الرسول[٣]: مات رسول الله بين سحري ونحري، وفي ذولتي[٤]، فمن سفهي وحداثة سنّي أنّه قُبض وهو في حجري، فوضعت رأسه علىٰ

---

١ . انظر كتب التفاسير، ضمن تفسير الآية: ٣ من المائدة.

٢ . طبقات ابن سعد ٢: ٢٦٦ وما بعده، تاريخ عمر بن الخطاب: ٤٥.

٣ . السيرة النبوية، لأبي الفداء. (المؤلّف).

٤ . ذولتي: بيتي (المؤلّف).

وسادة، وقمت ألتدم[١] مع النساء وأضرب وجهي.

وتقول: فجاء عمر والمغيرة بن شعبة، فاستأذنا، فأذنت لهما، وجذبت إليّ الحجاب، فنظر عمر إلى الرسول فقال: واغشياه! ما أشدّ غشي رسول الله!

فهل ظنّها غشيةً؟

ربّما!

وتستطرد أُمّ المؤمنين: ثم قاما، فلمّا دنوا من الباب قال المغيرة: يا عمر، مات رسول الله!

تقول عائشة: فقلت: كذبت! بل أنت رجل تحوسك فتنة! إنّ رسول الله لا يموت حتّىٰ يفني الله المنافقين.

وخرج عمر يتهدّد الناس.

وجاء أبو بكر فدخل الدار، لايلتفت لأحدٍ، فلمّا عاد أقبل على الناس في المسجد، وحاول أن يكفّ صاحب الوعيد فلم يكفّ، مرّةً ومرّتين وثلاث مرّات.

وعندئذٍ أبلغ القوم جليّة الخبر الفاجع الأليم: من كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيّ لا يموت، وتلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾[٢].

فما نطقها حتّىٰ ملكت الدهشة عمر، فلا يستطيع أن ينبس أو يتحرّك، كأنّه عقر! ثم فاء وثاب!

ثم سُمِع يقول وهو مدهوش مذهول: أَوَ إنّها من كتاب الله!

وقال: والله ما علمت أنّ هذه الآية أُنزلت قبل الآن[٣]!

ولقد أكثرت روايات الرواة في تصوير تشكّكه في الوفاة التي وعتها من قبل

---

١. التدم: ناح.

٢. آل عمران: ١٤٤.

٣. ذكره ابن الجوزي في تاريخ عمر بن الخطاب: ٤٥ ـ ٤٦ عن أنس، ثم قال: انفرد بإخراجه البخاري.

أُذناه، ثم شهدتها الآن عيناه ... بدّلته الاسترابة بالاستيقان.

فإن يكن ـ كما يقولون ـ ارتاب، فعلىٰ غير ذلك يدلّنا علمه المسبق بما كان قبل أن يكون، ثم حظّه من الإيمان، ثم آي القرآن، فضلاً عن مخالفة هذا التشكّك لشكيمة ابن الخطّاب.

وإن يكن قد تابع أُمّ المؤمنين على ظنّها في بقاء النبي حيّاً حتّىٰ يُذهِب الله ريح المنافقين، فدون انحياز التابع لظنّ المتبوع قول عائشة نفسها: إنّ الرسول قُبض وهو في حجرها، فقامت والتدمت مع النسوة الأُخريات.

ذلك لأنّ «الالتدام» واللطم وضرب الوجوه لا يكون علىٰ من راح في غشية، إنّما يكون علىٰ من اجتاز النزع، نفض يده من هذه الحياة ... مات!

وذهب محمد إلى الله، خلع عن روحه ذلك الثوب البدني الذي كان يكتسيه، تحرّر من دنيا الناس، وانطلق إلى السماء.

وهل به الآن من حاجة إلى البقاء في هذه العاجلة بعد أن فرغ ممّا بُعث فيه؟

لقد ختم رسالته، بلّغ عن ربّه فأحسن البلاغ، أدّىٰ وأكمل الأداء.

وكان جوّ المدينة عندئذٍ يحترق بحرارة الصيف، هواؤه ألسنة لهيب تسوط الأجسام الأُفق قبّة من نار، العرق المنثال[1] على الوجوه حبّات من جمر.

في العيون غيوم، على الملامح وجوم ... الأنفاس تشتعل ... الحناجر جريحة، الجفون مقروحة ... الهمسات دموع، الأنين لغة الوداع.

ومن وراء هذا الأسى الأخرس حيناً، الصائح حيناً، النائح حيناً، كانت القلوب تتفتّت من هول المصاب الفادح وإن لم تخلّف وراءها آثار دماء.

ومن خلال الأنين والبكاء والعويل التي تدافعت عبر المدينة الحزينة، من كلّ رجاً نعيباً ونعيقاً، سرىٰ في كلّ شهقةٍ ولهثةٍ.

ومع كلّ صرخةٍ وولولةٍ، صوت الزهراء يشقّ الفضاء، وهي تنعىٰ أباها إلى

---

١. المنثال: المتساب، المنحدر.

السماء:

«أبتاه، أبتاه! ... يا أبتاه!
أجاب ربّاً دعاه ... يا أبتاه!
جنّة الخلد مأواه ... يا أبتاه!
إلى جبريل ننعاه ... يا أبتاه!
من ربّه ما أدناه ... يا أبتاه!»[١].

لكأنّي بهذا النعي قد أجّج ناراً لاهبةً في كلّ قلب، دبّ على أديم هذا الكوكب، منذئذ وحتّى الآن، وإلى موعد البعث، ما إن ندّ من شفتي الزهراء.

وكيف لا، وهي تعلن مأتم الإنسانية؟ تودّع سيّد البشر؟ تبكي الرحمة التي تجسّدت فيه؟

ومع ذلك فلا نخالها إلّا كانت تغالب شجنها لعلّها تغلبه، لعلّها أن تكفّ بعض ما حولها من معالم الأسى الفاجع، لعلّها أن تسمع أهازيج الملائكة وهي تنشد فرحةً باستقباله.

ففي الأرض دموع وعويل ... وفي السماء غناء وترتيل.

وعند جانب الغرفة، حيث وسد الرسول مثواه، وقف علي بن أبي طالب صفيّه وحبيبه يناجيه: «بأبي أنت وأمي، يا رسول الله! لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوّة والأنباء وأخبار السماء ... لولا أنّك أمرت بالصبر، ونهيت عن الجزع، لأنفدنا عليك ماء الشؤون، ولكان الداء مماطلاً، والكمد محالفاً، وقلّا لك! لكنّه ما لا يملك ردّه، ولا يُستطاع دفعه ... بأبي أنت وأمي! اذكرنا عند ربّك، واجعلنا من بالك»[٢].

---

١ . روى ندبها لأبيها أحمد في المسند ٣: ١٤١ و١٩٧ عن أنس، والبيهقي في السنن ٤: ٧١، وابن سعد في الطبقات ٢: ٨٣، والخطيب في تاريخه ٦: ٢٦٢.

٢ . نهج البلاغة: ٣٥٥ خطبة رقم (٢٣٥). وقلّا لك: أي مماطلة الداء ومحالفة الكمد قليلتان لك.

الفصل التاسع

- فدك
- أهواء الخلفاء على امتداد مائتي عام
- رضى فاطمة من رضاي
- حدود النحلة

اللوحة الأُولىٰ

فدك

خربت خيبر! عنا جبروتها لسلطان الله، أنباء سقوطه كانت للجيش الفاتح طليعة.

في الطريق إلى العودة، مضت جنود الرحمان، المرتحلة منها نحو «يثرب»، تتناغم خطواتها مع جرس التكبير، تصدح بموسيقىٰ ملائكيه، ترقص علىٰ لحون الصليل.

والدبيب المنبعث من حركاتها المنسابة فوق الحصباء، يهزّ الأرض هزّات جبّارة، لها أصداء تتجاوب بالرعب في قلوب يهود «فدك» القابعين في أوجرتهم وحجورهم قبوع الثعالب والأرانب المذعورة.

وما لهم لا تنوش خواطرهم الهواجس، والهلاك على الدرب يكاد يصبّحهم ذات صباح، أويمسّيهم ذات مساء!

فالويل وباء، ولكلّ وباء جرثومة، والجرثومة جُسَيْم لا منظور، يشيع في الهواء كالهباء، ليسرح بالمرض من سقيمٍ لسليم.

وعدوى الهزيمة المذلّة الساحقة التي صرعت «خيبر» فتركت قلاعها كالعهن المنفوش، وأبطالها كالفراش المبثوث، حريّة الآن بأن تنتقل إلى أهل فدك على اختلاف الأسنان والمنازل، من شيب وشباب، وزرّاع وفرسان.

فلقد أفزعتهم الأخبار، وحوش الرعب نهشت منهم التفكير، التهمت وعي اليقظة، التقمت راحة النعاس فهل من منجيّ يجنّهم[١] من المصير المخوف؟

بل سوف يحلّ بهم الوبال والخبال[٢]، لتحصدنّهم المنايا كما تحصد المناجل السنابل.

فهتاف النصر يندلع صوبهم عبر المراحل، ورحى الجهاد ما فتئت دوّارة، والجوّ حولهم يحمل رائحة معركة جديدة.

وما زال «علي» ـ فيما تحدّثهم الأنباء ـ يرفع راية المجاهدين بيمينه... ويا سوء ما يعني تصدّره تلكم الصفوف!

إنّه لخليق بأن يغرس في مسالكهم بذور الحرب ليجتنوا المصارع، إنّه لا يقود إليهم الجنود، وإنّما يقود الحتوف!

ولقد نضجت الآجال... أينع[٣] الثمر... وحان القطاف!

* * *

كغيرها من القرى اليهودية، كانت بلدة «فَدَك» منطقة منيعة، منزل مقاتلة شداد، مستودع سلاح وعتاد.

علىٰ رقعتها انتشرت الصياصي[٤] والمعاقل انتشار الكتابة علىٰ قرطاس، فبدت كمثل غابةٍ من الآطام والحصون، أو كمثل دَغْلٍ تزاحمت غيوله[٥]، وتكاثفت ظلاله... قد تحجّرت أشجاره: جذوعاً وسيقاناً، فإذا هي عماد من صخور وجلاميد[٦]...

---

١. يجنّهم: يمنع عنهم.

٢. الخبال: الهلاك.

٣. أينع: نضج.

٤. الصياصي: الحصون.

٥. الغيل: الشجر الكثيف.

٦. الجلاميد: جمع جُلْمُود، وهو الصخر الصلب.

وتصلّبت: فروعاً وأغصاناً، فإذا هي أعواد من فولاذ وحديد.

وكانت أيضاً مفروشة بزروع كبساط أخضر.

فالتربة مخصبة ولود، والماء سلسل فوّار، والنخل صنوان وغير صنوان، والثمر كثير.

وعندما دنا منها المجاهدون، وظنّ قومها أنّهم ـ كبني جلدتهم الخيبريّين ـ مأخوذون لا محالة بمشافر السيوف، جاءهم النجاء من حيث لا يحتسبون، هدية سخيّة من لدن ذلك الذي أرسله ربّه هدىً ورحمةً للعالمين.

فلقد بعث إليهم رسول الله أن يسلموا برسالته، فيكون لهم وعليهم ما للمسلمين وعلى المسلمين، أو أن يسلّموا إليه ما يملكون، ولهم دينهم الذي يدينون، فيمنحهم السلام.

فأبىٰ كفرانهم عليهم الأُولىٰ، وصالحوه علىٰ شرطه الأخير.

ورفع عنهم السيف... وغدت له أرضهم، نصفها يزرعونه له، ونصفها الثاني يزرعونه لأنفسهم، فيبقىٰ تحت أيديهم يستثمرونه، إلّا أن يرى النبي فيهم رأياً فيجليهم عن القربة جميعها حين يريد، ويعوّضهم عن نصيبهم المقسوم لقاء الجلاء.

وهكذا صارت «خيبر» للمسلمين كافّةً، إذ انتزعوها من أصحابها بقوة السلاح... وصارت «فدك» خالصة[1] لمحمد، لأنّه احتازها سلماً، ولم يجلب عليها المسلمون بخيلٍ ولا ركاب.

فتلك شرعة الله.

* * *

وإذا كانت هذه المصالحة حقنت دماء أبناء «فدك»، وحفظت عليهم حياتهم، وأثابتهم الأمان والسلام، فلقد كادت بعد سنوات قلائل أن توقع خلافاً غير محمود

١. حياة محمد، للدكتور هيكل. (المؤلّف).

العقبىٰ بين أهل الإسلام، الذين تقسّمتهم «الخلافة» شطرين، ما زال إلى اليوم مجالاً واسعاً لتصارع الآراء، وساحة فسيحة لتصاول الأقلام.

فما أن انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلىٰ، في غضون ما دون أربعة أعوام من ذلك النصر، حتّىٰ استولىٰ «الخليفة» الأول: أبو بكر علىٰ فدك، وضمّها إلى مال المسلمين... وراجعته فاطمة في الأمر.

وهل كانت فدك من المال العام؟

أم كانت خالصة للرسول من دون الناس؟

يقول الله: ﴿وَمَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

فما أوجف عليها المسلمون... بل صالح أهلها عليها الرسول.

ثم ذكر ذاكرون: أنّه نحلها الزهراء.

قال أبو سعيد الخدري: دعا رسول الله فاطمة فأعطاها فدكاً[٢].

وقال ابن عباس: أقطع رسول الله فاطمة فدكاً[٣].

وتناقلت ألسن ما رَوَياه، لكن الخليفة الأول رأىٰ غير هذا الذي قيل.

وعجب مَن عجب... وغضب مَن غضب.

وكانت فاطمة في قمّة العاجبين والغاضبين.

قالت: «فدك نحلة أبي أعطانيها حال حياته».

فسألها أبو بكر: هل لك بيّنة؟

وهل عليها البيّنة؟

إنّها صاحبة اليد... واليد حجّة الملكية.

---

١. الحشر: ٦.

٢. شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٦٨.

٣. المصدر السابق.

وهو المدعي... فالبيّنة إذاً عليه!

ومع ذلك، فإنّ أكثر من شاهد أيّدوا النحلة.

قيل: شهد علي... وشهدت أُمّ أيمن حاضنة رسول الله.

غير أنّ أبا بكر قال: أفبرجلٍ وامرأةٍ تستحقّينها[1]!

وحقّ له، وما له لا يقول ما قال؟

إنّ النصاب العددي للشهود: رجلان... أو رجل وامرأتان.

أفإذا شهدت امرأة أخرىٰ كشهادة أُمّ أيمن، ألا يكتمل بها النصاب؟

بلي! فالله يقول: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجِلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾[2].

* * *

ويأتي ما يمكن أن يكون فصل الخطاب.

نسمع نبأ يذكر: «وشهدت أسماء بنت عميس».

أفيكتمل النصاب؟ ويحقّ للأمر أن ينحسم؟

وللنحلة أن تصحّ؟ وللسجلّ أن يطوىٰ علىٰ كتاب النزاع؟

العجيب أن يرد رأي بتنحية شهادة «أسماء»، ذلك لأنّها ـ فيما تحاجّ متحاجّون ـ كانت زوجاً لهاشميٍّ هو جعفر بن أبي طالب، فهي إذن تجرّ إلى بني هاشم... فتجرّ إلى فاطمة!!

وصلة «القربىٰ» هذه التي تربط بينها وبين المشهود لها، تثير خشية أصحاب الاحتجاج المعروض أن تنعطف «أسماء» إلى الزهراء فلا تلزم جادّة الشهادة وتزيغ!

أفهذا تعليل؟!

وكيف وقد كان جعفر عندئذٍ شهيداً احتضنته أرض واقعة «مؤتة» من بضع سنين؟

---

١. المصدر المتقدّم: ٢١٩ ـ ٢٢٠ مسنداً عن أبي سلمة.

٢. البقرة: ٢٨٢.

كيف وقد كانت أسماء ـ الذي في تلكم الآونة ـ زوجاً للخليفة الأول، خلف عليها بعد جعفر، وأنجبت له ولده محمد بن أبي بكر الذي كان قد سلخ من عمره آنئذٍ ثلاثة أعوام؟

أو ليس هذا يدفع إلى التساؤل: إلى أيّ فريقي النزاع: فاطمة وأبي بكر، كان يظنّ بأسماء أن تميل لو أنّها احتكمت ـ كزعم أصحاب التعلّل ـ إلى جنوح العاطفة دون قوام الاستشهاد؟

غير أنّ المحاولات والزعوم تدفّقت في نفس الاتّجاه، تحجب الشهادات، أو تسقطها بمختلف التبريرات والتعلّات.

فلقد أطبق التاريخ شفتيه علىٰ آخر كلمة من حديثي أبي سعيد الخدري وابن عباس.

إنّه وضع الحديثين بين قوسين!... تركهما معلّقين في فراغ!

فما علمنا أن قد استشف ممّا ذكراه عن النحلة صدق أو زيف... ولا رأينا أحداً عُني بدعوة أبي سعيد وابن عباس إلى طرح حديثيهما علىٰ بساط البحث والمناقشة تحرّياً للخطأ أو الصواب، ابتغاء إحقاق الحقّ وحسم الخلاف... ولا سمعنا أن قد استشهد بهما، كما كان ينبغي أن يحدث، لو أريد للأُمور أن تستقيم!!

فلماذا ظلّ هذا الذي روياه شهادةً خرساء؟!

* * *

ثم تتعثّر روايات تهدر بقية الشهادات كما أُهدرت شهادة أسماء!

فشهادة علي لزوجته مردودة، لأنّها تجر إليه!

وشهادة الحسن والحسين مردودة، لأنّهما حدثان فرعان، ولا تُقبل شهادة الصغار والفروع!

وشهادة أُمّ أيمن مردودة، لأنّها أعجمية لا تفصح الكلام!

فإن كان الردّ مستنداً لهذه الأسباب، فما أشدّ تهافتها من أسباب!

وما أولاها بالإسقاط!

إنّها لتنهار من داخلها دون حاجةٍ إلى هدمها بحجّةٍ مناهضةٍ، ولا برهانٍ مضادّ، فهي تفتقر إلى أسناد من النظر الجادّ والتعفّف عن الانحياز، ولا تقوم علىٰ مثل هذا العبث الفكري الذي يسقط كلّ القيم الولائية الصادقة، كأنّما لا تصحّ الشهادة إلّا إن أتت من عدوٍّ خصيم!

أم كيف تفسخ شهادة علي بن أبي طالب، فيصمه الفسخ بما ينقض قول رسول الله فيه، إذ وصفه بأنّه «أقضى الناس»[١] والمسلمون كلّهم علىٰ قوله عليه الصلاة والسلام شهود عيان وسماع؟

وهل نسي أُولئك الفاسخون أنّه كان آمراءاً لا يتدنّىٰ إلى التطلّع إلى عروض الحياة، إذ هو ـ بإقرار الأعداء قبل الأولياء ـ أزهد الزهاد؟

وإذ إمره المسلمين ـ بكلّ جاهها وسطوتها ـ لا تساوي عنده نعلاً بالية[٢]، كما قال يوماً لابن عباس؟

وإذ الدنيا كلّها ـ وليس فقط الأرض المنحولة ـ هي أهون من جناح بعوضة، أو ورقة في فم جرادة؟

وماذا تشكّل «فدك» في نظرة، وقد سمعناه من بعد، يقول: «وما أصنع بفدك وغير فدك، والنفس مظانّها في غدٍ جدث، تنقطع في ظلمته آثارها، وتغيب أخبارها»[٣].

---

١. أخرج الحديث عن النبي ﷺ «أقضاكم علي» كلٌّ من: ابن حجر في فتح الباري ١٠: ٥٩٠، والعجلوني في كشف الخفاء ١: ١٨٤. ويذكر ابن سعد في طبقاته ٢: ٣٣٨ ـ ٣٣٩ روايات الصحابة عنه، فعن ابن مسعود قوله: «كنّا نتحدّث أنّ من أقضى أهل المدينة ابن أبي طالب»، وعن أبي هريرة قال: قال عمر: «علي أقضانا».

٢. نهج البلاغة: ٧٦ خطبة رقم (٣٣) يخاطب بها ابن عباس عند خروجه لقتال أهل البصرة، إذ قال له: «ما قيمة هذا النعل؟» وكان يخصفها، فقال ابن عباس له: لا قيمة لها! فقال ﷺ: «والله لهي أحبّ إليّ من إمرتكم، إلّا أن أُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً».

٣. المصدر السابق: ٤١٧ كتاب رقم (٤٥). والجَدَث: القبر.

ويقول: «إنّما هي نفسي أروّضها بالتقوىٰ»[١].

* * *

لقد كان ابن أبي طالب أنزه عن الانسياق وراء الذاتيات.

وكان أبو بكر أعرف بهذا التنزّه، وأوثق به علماً وتجربةً من كلّ مسلمٍ سواه.

وكان أهدىٰ سبيلاً من أن يعزّز موقفه حيال فاطمة بمثل هذا الذي أوردته بعض الروايات لهدم تلكم الشهادات بمدّعيات شتّى، يغلب عليها طابع التمحّل والافتعال؛ كالعجمة ! وصلة النسب! وحداثة السنّ! والفرعية! والجرّ إلى منفعة الذات!!

فما ذكر إلَّا أنّه قال بنصّ العبارة أو بفحوى المضمون: «لا يجوز إلَّا شهادة رجلٍ وامرأتين».

أخذاً بقوله تعالى في المداينات: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾[٢].

فهو لم يطعن في أمانة الشاهد، ولا طعن في جوهر الشهادة.

لكنّه ـ كما تقول لغة القانون ـ طعن في الشهادة من حيث «الشكل»، لا من حيث «الموضوع»؛ لافتقارها إلى تمامية هيئتها، وتكامل نصابها العددي للشهود.

وهكذا قام حكمه على الالتزام الدقيق بحرفية التشريع، وكأنّه يعيد إلى الخواطر ما كان من التزام النبي بحتمية تطبيق حدّ السرقة ـ بغير ترخّص ـ على امرأة ذات شرف ومكانة فلمّا روجع في أمرها عسىٰ أن يعفو عنها أو يخفّف؛ مراعاةً لمنزلتها الرفيعة، أبىٰ إلَّا أن يأخذها بحكم الله؛ نكالاً وعدلاً، وقال: «لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها!».

فألجم[٣] بقوله هذا ألسنة المستعفين.

---

١. المصدر المتقدم نفسه.

٢. البقرة: ٢٨٢.

٣. ألجم: أسكت.

وإذا كانت القوانين الوضعية ما زالت تحكم؛ استناداً إلى شهادة الواحد مع اليمين، ما اطمأنّت نفس الحاكم إلى صدق الشاهد، فلقد سبق الأخذ في الإسلام بالشهادة المفردة.

وثمّة أمامنا قصّة خُزَيْمة بن ثابت دليل.

قيل: اشترى النبي فرساً من أعرابي، فلمّا جاء ليقبضه الثمن المتّفق عليه أنكر صاحب الفرس، إذ دفعه طمعه إلى إيثار آخر بها زاده في ثمنها، فقال له الرسول: «أليس قد ابتعته منك؟».

ـ لا.

فشهد خزيمة بن ثابت لرسول الله، ولم يكن قد شهد البيع.

فسأل الرسول خزيمة «بِمَ شهدت يا خُزَيْمة ولم تحضر البيع؟».

قال: بتصديقك يا رسول الله، إنّا صدّقناك بخبر السماء، أفلا نصدّقك بما تقول؟[1].

فأقرّ النبي شهادته المفردة، وجعلها بشهادة رجلين.

ومنذئذٍ أُلحق باسم خُزَيْمة لقب «ذي الشهادتين».

كذلك ورد في الآثار: أنّ رسول الله وأبا بكر وعمر وعثمان كانوا يقضون بشهادة الواحد مع اليمين.

بل كان من حقّ الحاكم أن يحكم بعلمه، فيقضي للمدّعي بسند دعواه بلا بيّنة ولا شهادة، لأنّ العلم أقوى من البيّنة والشهادة.

ذكروا: أنّه لمّا جاء مال البحرين بعد وفاة النبي، أمر خليفة رسول الله فنودي في

---

١. أخرج الخبر النسائي في السنن ٧: ٣٠١ ـ ٣٠٢ وأبو داود في السنن أيضاً ٣: ٣٠٨ من كتاب الأقضية ح ٣٦٠٧، وابن الجوزي في الأذكياء: ٣١ مسنداً عن عمارة بن خزيمة عن عمّه.
وخزيمة هذا هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة بن ساعدة الأنصاري الخَطْمي؛ أبو عمارة المدني، شهد بدراً وأُحداً وما بعدهما من المشاهد مع رسول الله ﷺ، كما وشهد الفتح أيضاً، حيث كان يحمل راية بني خَطْمة، استشهد في صفّين مع علي ﷺ سنة ٣٧هـ حينما رأى قتل عمار، فسلّ سيفه وصاح: سمعت النبي ﷺ يقول: «تقتل عماراً الفئة الباغية» فقاتل حتّى قُتل. (تهذيب الكمال ٨: ٢٤٣ ـ ٢٤٤).

الناس: من كان له دين أو عدة علىٰ رسول الله فليأتني.

يقول جابر: فأتيت أبا بكر، فأخبرته أنّ النبي قال لي: «لو أتىٰ مال البحرين أعطيتك ثلاث حثيات»[1].

فأجاز الخليفة قول جابر... واعطاه مُدّعاه.

* * *

فلماذا إذاً لم يجز أبو بكر دعوى فاطمة بالنحلة استناداً إلى علمه اليقيني بصدقها، أوارتكازاً إلى شهادة الواحد إذ شهد عليٌّ أنّها صاحبة نحلة رسول الله؟!

لقد يقول قائل: إنّما احتاز الخليفة الأول فدكاً إلى بيت المال لأنّه لم يكن يعلم أنّ النبي نحلها ابنته الزهراء.

ربّما!

فالملك من خصوصيات مالكه، يعمل فيه بمطلق إرادته، ثم لا عليه ألّا ينشر خبر عمله فيه إلّا علىٰ من اختصّه بهذا العمل دون سواه.

وأنت تعطي من خصوصية ملكك ما شئت لمن شئت، فلا تكاد يُسراك ـ كما يجري المثل الدارج ـ تعلم بما أعطت يُمناك!... ثم لا يعرف أحد غير الذي أعطيت نبأ العطاء.

ومن هنا، فإنّ من لا يعلم وقوع العطيّة قد ينكر حدوثها، فيحكم بمقتضىٰ «علمه السلبي» أو «لا علمه!» وهو واثق بصواب حكمه، لأنّ الحقيقة التي لا يعلمها منقطعةٌ عنه نتيجةٌ لما قرّ في ضميره من إحساسه بأنّه من أخصّ خاصّتك، وأولاهم بمعرفة ما تفعل.

---

١. أخرجه البخاري ٢: ٩٥٣ ب٢٩ من أبواب الشهادات ح٢٥٣٧ عن محمد بن علي، عن جابر بن عبدالله. وليس فيه «مال البحرين» بل «من قبل العلاء بن الحضرمي». وفي الطبقات الكبرىٰ لابن سعد ٢: ٣١٨ عن أبي سعيد الخدري، وفيه عبارة: «مال البحرين». فكان الصدّيق لا يطالب أحداً من الصحابة بالبيّنة على الدين أو العدّة. فعجيب أنّه يطلب من الزهراء بيّنةً على النِحْلة؟!

وكان أبو بكر ـ بغير شكّ ـ من بين خاصّة صحب الرسول، الذين كان لا يكاد عليه الصلاة والسلام يحجب عنه سرائره المكنونة، فما البال بسلوكاته التي لا حرج لو تذيع؟

ثم لعلّ قائلنا هذا يضيف إلى افتراضه آخر، فيقول:

من الجائز أيضاً أنّ أبا بكر لم يعلم بتصرّف فاطمة في «فدك» تصرّف المالك في ملكه إبّان حياة الرسول.

ربّما!

فليس من المستبعد أن يخفىٰ عنه أنّها تصرّفت، لأنّ التصرّف سلوك شخصي خاصّ، لا يتحتّم معه الإعلان عنه علىٰ رؤوس الأشهاد.

ولا هو بمحال أن تكون الابنة قد وكّلت لأبيها التصرّف عنها، لأنّها تدرك أنّه أقدر منها، وأشدّ تمرّساً بإدارة المال.

أوعن تأدّبٍ في حقّه، وإجلالٍ لشأنه، تركت له القيام في ملكها بما هو أَليَق بالرجال.

أو أن تكون قد فعلت هذا تحرّزاً أن يقال فيها: أعطاها أبوها وما كاد حتّىٰ أسرعت فأخذت وزرعت واستثمرت، فبدت لأعين الناس في هيئة اللهيف المتعجّل، والمتحفّز المحروم.

أو أن تكون قد احتذت قول الله ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[1]، وقول الرسول: «أنا أولى بكلّ مؤمن ومؤمنة»[2]، فجعلت له الولاية عنها في هذه الأرض المنحولة، وليس أحد في العالمين أحقّ منها باحتذاء هذه الأقوال.

كلّ هذا احتمال، مجرّد تقدير، نستيسر فنقول: لا يقع في مجال التقرير.

فإذا بدر من أبي بكر ما ينفي وقوع النحلة ... وإذا قبض ومنع ... وإذا حرم الزهراء حقّاً لم ير مأتاه.

---

١. الأحزاب: ٦.

٢. سبق تخريجه ضمن حديث الولاية المتقدّم.

أفلا يرى الشيخ، وإنّه في بداره هذا لمعذور؟

أمّا أن يكون ساوره الشكّ في صدق فاطمة، فهذا هو المحال.

ذلك لأنّه يعلم أنّها بضعة الرسول، الصادقة من صادق، الأمينة من أمين، ولأنّه يعلم أنّها المنزّهة، قولاً وعملاً، عن الدنيّات: كبائرها وصغائرها، إذ أذهب الله عنها الرجس، فكانت وآل بيتها من المطهّرين.

ولأنّه يعلم أنّها تعفّ عن ذخائر كنوز الدنيا، فما بالك بسلخةٍ من الأرض مهما رقّت قيمةً في حساب الثروات، فإنّها أخسّ من أن تبلغ عُشر معشار قطرة واحدة في محيط تلك الكنوز.

ولأنّه يعلم أنّها الصدّيقة النورانية، التي رفعها ربّها مكاناً عليّاً فوق بنات جنسها إلى يوم يبعثون، وسلكها في خيط واحد من التشريف والتكريم مع قدّيسة القدّيسات: مريم البتول، أمّ السيد المسيح، التي أوحىٰ إلى ملائكته الأبرار فخاطبوها بنطقه القدسي الربّاني قائلين: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ ٱلْعَالَمِينَ﴾[1].

* * *

كلا!

ليس لائقاً إذاً أن يطارد خليفة رسول الله بهذه التهمة الفادحة: تهمة تكذيب الزهراء.

حاشاها!

وحاشاه!

ولا أن يذهب الرأي فيه مثل مذهب «الكُمَيْت» الشاعر، إذ نظم شعراً يقول:

إنّي أحبّ أمير المؤمنين ولا أرضىٰ بسبّ أبي بكر ولا عمرا

---

١. آل عمران: ٤٢.

ولا أقول إذا لم يعطيا فدكاً بنت النبي ولا ميراثه: كفرا
الله يعلم ماذا يأتيان به يوم القيامة من عذرٍ إذا اعتذرا[١]!

إنّما الأولىٰ في هذا المقام أن يقال: رأي ارتآه!!

أو يقال: تحرّج وتأثّم ـ وهو لم يكن يعلم بالنحلة ـ فحسم شكّه بما حسب أنّه يقين!!

أو يقال: كان اختلافه وفاطمة اختلاف تفسير!!

أو يقال: خشي الفتنة فسدّ الطريق دون أهل النفاق ودُعاة التفريق أن يقول قائلهم: خليفة رسول الله حابىٰ بنت رسول الله!!

نعم... له أن يرتأي ما شاء، وأن يتحرّج ويتّقي كيف شاء، وأن يفسّر كما شاء.

لكن ترتيب حكمه بالمنع على انتفاء علمه ـ فرضياً ـ بالنحلة، لابدّ أن يقابله ـ فرضياً أيضاً ـ من الناحية المعارضة، وجوب إسقاط هذا الحكم؛ لقيامه علىٰ أساس ثقته اللامحدودة بأنّ الرسول ما كان ليخفي عنه خبر «النِحلة» وإن أخفاه عن جماعة المسلمين.

* * *

والواقع أنّ النظرة إلى «فدك» قد انشطرت شطرين، فإذا هي رأيان، تماماً كانشطار الحيوان الاميبي الأُحادي الخليّة فإذا هو حيوانان مستقلّان، لكلٍّ منهما كيان.

وإذا كان أبو بكر قد احتجّ لرأيه بحديثٍ نبويٍّ، فعمّا قليل سيرد الاحتجاج، وما قد يثار عنه بحسب اختلاف النظر فيه.

أمّا حكمه ذاك بقبض النحلة، وردّها إلى مال المسلمين، فحريّ به أن يُرىٰ من وجهٍ آخر، وإنّه لتصوري ظنّي، قصارى سنده: لترجيح... أنّه أو من قبيل الاجتهاد.

فكما أنّه لا منع إلّا بنصّ، فإنّه لا حكم إلّا بسندٍ وثيق.

وليس عجيباً أن يتبدّىٰ ما قضىٰ به أبو بكر في هذا القضية، وكأنّه حكمٌ استقطب

---

١. ديوان الكميت الأسدي: ٣١، وفي الهاشميات: ١٨.

بعض الرواة، وأملىٰ لهم في إثباته وتوكيد صحّته بكلّ جهد جاهد، وكلّ عزم عنيد.

شأنهم في هذا شأن أمثالهم في الانجذاب إلى السلوكات «السلطانية» وإن هم تأوّلوا لذلك تأويلاً يساند ما يقدّمون.

عندئذٍ لا نعجب لو رأينا أمامنا رواية صدقٍ، راويتها يبدو وهو مثخن بالخدوش والخموش، وبناؤها يلوح وهو مَؤُوف[١] مملوخ[٢]... فإذا هي قصّة لا تكاد تطمئنّ إليها قوى الإدراك، تذكر لنا بصريح اللفظ وجليّ المضمون: أنّ نظرة الخليفة ونظرة فاطمة إلى فدك ـ كنحلةٍ ـ تتطابقان، حتّىٰ ليظهر أنّ بضعة الرسول تقرّ بأنّها لم تعلم بواقعة «النحل» من نطق أبيها، وإنّما علمتها من نطق سواه!

والقصّة تقول:... ولمّا قُبض[٣] النبي طلبت فاطمة ابنته إلى أبي بكر أن يردّ عليها ما ترك من أرض فدك وخيبر، لكن أبا بكر أجابها بقول أبيها: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة».

ثم قال لها: فأمّا إن كان أبوك قد وهب لك هذا المال، فإنّي أقبل كلمتك في ذلك وأنفذ ما أمر به، وأجابت فاطمة بأنّ أباها لم يفض إليها بشيءٍ من ذلك، وإنّما أخبرتها أُمّ أيمن بأنّ ذلك كان قصده... عند ذلك أصرّ أبو بكر على استبقاء فدك وخيبر، وردّهما إلى مال المسلمين[٤].

ومع هذا، فلم يقف أمر «النحلة» عند هذا الحدّ المحدود، إنّما ظلّت عشرات السنين مضغةً للغط الألسن، ومضماراً لاصطراع الأفكار.

ومن وراء هذا كلّه روايات شتّى، راحت تدفعها دفعاً على الحلبة الإسلامية، نحو غاياتٍ معلنة أُخرىٰ خفيّة، لتتبارىٰ علىٰ بلوغها تباري جياد السباق... بعضها نحو التوفيق، وبعضها نحو التفريق!

---

١. المؤوف: المصاب بآفة.

٢. المملوخ: الفاسد.

٣. حياة محمد، للدكتور هيكل. (المؤلّف).

٤. وسيأتي المؤلّف علىٰ مناقشتها، وردّها.

اللوحة الثانية

أهواء الخلفاء على امتداد مائتي عام

ما أن يتأمّل المرء هذه الرواية حتّىٰ يطفر سؤال: كيف يهب الواهب ثم تـخفىٰ هبته عن الموهوب؟

احتمال محال... فلو صدقت القصة علىٰ هذا الوضع لناقضت المقبول، ولخالفت المتداول المشهور.

أم لا، ففيم إذاً كان النزاع علىٰ «فدك» النحلة؟ وأيـن بـاعث كـان يـدعو إلى الخوض في أمرها بكلّ هذا الجدل المستطير الذي ثار؟

ومـا هـو المـوجب لاحـتشاد ذلك الذخـر الضـخم مـن آراء جـهابذة الفكـر الإسلامي، ذوي البـاع الواسـع فـي عـلوم المـنطق والفـقه والتـفسير والحـديث الذين تناولوها، ومـا زالت آثـارهم الفكـرية عـنها تـعيها لنـا إلى اليـوم جـلائل الأسفار؟

ولماذا نرىٰ فاطمة تطلب حقّها «الفدكي»، فلا تكفّ عن الطلب حتّى الغـضب، وقطع ما بينها وبين الخليفة الشيخ من صلات؟

وهلّا نعجب لولدها من بعدها، يواصلون الطلب والإلحاف فيه على امتداد مـا يقرب من مائتي عام؟

* * *

أجل... لو صحّت الرواية، ولم يُعلم الرسول زهراءه بنحلته، لانقطعت مسيرة التاريخ في هذه القناة، وتحوّل صيّبه[١] إلى غير مجراه الذي عشناه.

لكن... ليس بهذا تطالعنا الوقائع، وتنطق الشواهد، وتتحدّث الأدلّة، وتتكلّم الأسناد.

فالرواية كأنّها مدعاة، وهي أقرب إلى الخيال العابث منها إلى الصدق الرصين.

فأن يهب محمد فاطمة شيئاً يمكله، ثم لا يخبرها بأنّه وهب، ويخبر غيرها ـ أمّ أيمن أو من عداها من الناس ـ لهو ممّا لا يمكن أن يصدر من نبيٍّ أول مزاياه أنّه يحسن البلاغ، ويسلّم الحقّ إلى من يستحقّه، ويضع الكلم في مواضعه، ولا يتركه لاضطراب التأويل[٢].

وكانت «فدك» خليقة ببيانه الدقيق، ومقطع الحقّ فيها تبرزه الوقائع وتؤكّده المصاديق.

* * *

ولقد نعلم أنّ «فدك» تجاذبتها الأخبار، بين الإقرار وبين الإنكار، آناً إلى اليمين وآناً إلى اليسار.

لكنّنا نعلم أنّ ما ورد فيها من الروايات، كان ذا صورٍ جمّة، وألوان أعداد... وكلّها: بمبانيها ومعانيها، كانت تدور محاور مختلفات، من التقلّبات السياسية، والتيارات الفكرية التي ينفعل بعضها ببعض، متأثّراً ومؤثّراً في حركة الوقائع والاجتماع.

فللسياسة والفكر قوة وسلطان، ولكليهما قدرة على التغيير.

ومن ثم فإنّ الظروف المهيمنة على مصائر الأُمور، قد تسخوا أحياناً وتلين، فنراها تفسح المجال لما نسمّيه «الرأي الآخر» في لغة عصرنا الذي نعيش فيه،

---

١. الصيّب: المطر، وهو كناية عن الخير والبركة.

٢. وهل وظيفة الأنبياء والرسل إلّا إيصال البيان والتبيين؟

وأحياناً تشحّ وتشتدّ، فنراها تميل إلى التزّمت، وتأخذ بمنهاج تكميم الأفواه.

والحاكم ـ عادةً ـ صانع ومصنوع، فهو كما يصنع الأحداث تصنعه الأحداث، ثم لا مفرّ في نهاية المطاف ـ صَنَعَ أو صُنع ـ من خضوعه للأوضاع التي تسود مجتمعه أو تتحرّك فيه، أو تحرّكه.كما يحرّك اللاعب قطع الشطرنج على رقعتها السوداء البيضاء!

فقد يرىٰ خيره في مهاودة غريمة ومصانعته، فيهاود ويصانع حتّىٰ تواتيه فرصة لمهاجمته، فيهجم حتّى الاكتساح! أو يرىٰ خيره في العنف والشدّة، فيعنف ويجتاح!

ووشيكاً سنسمع معاوية ـ بعد أن توطّد له عرشه ـ يقول: لو أنّ بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، فلمّا سُئل: كيف؟ أجاب: إن شدّوها أرخيتها، وإن أرخوها شددتها[1].

وكذلك كان مسلك النظم الحاكمة حيال «فدك» نحلة الرسول، أو قل: حيال آل بيت الرسول! تلين عندما لا يكون لها بديل عن اللين إلّا البوار، وتقهر عندما تحسب أنّ الهوادة خسار.

ومن ثم فقد مرّت من الزمن فترات كانت وجهات النظر تتقارب خلالها بين الخصيمين، فتضيق شقّة الخلاف، فإذا النزاع بينهما كأنّه غاض، وإذا مظاهر الودّ تطفو على السطوح وإن اضطرمت النار في الأغوار، وإذا الفريقان علىٰ تربّص كأنّه تهاون، أو علىٰ تهاون كأنّه وفاق.

لهذا جرت المحكيات بنحلة «فدك»، ذهاباً وجيئةً، بين السخاء والمنع، آناً ترضىٰ فتدفع، وآناً ترفض فتقبض، وما ثمّة من معيارٍ ثابتٍ لهذه الحركة، الأُرجوحية بين القبول والإباء، أو الإباء والقبول.

فالسلطة ترضىٰ فتردّها علىٰ ولد فاطمة... ثم تغضب فتقبضها عنهم!

فإذا هي دولة بينهم وبين غيرهم، وإذا هي تتنقل من أُولاء إلى أُولئك، ومن أُولئك

---

١. تاريخ دمشق ٥٩: ١٨٨ ترجمة معاوية بن أبي سفيان.

إلى هؤلاء، بحسب تقلّبات السياسة من مدٍّ إلى جزر، ومن جزرٍ إلى مدّ، هدأ البحر أو هاجت الأنواء... أوبحسب نظرة هذا، أو هوىٰ ذاك من الخلفاء.

وظلّت هكذا دواليك، قرابة مائتي عام، كأنّها كرة تقاذفتها الصوالج من يسارٍ ليمين، ومن يمينٍ ليسار، من خلفٍ لقدّام، ومن أمامٍ لوراء.

* * *

عمر بن عبدالعزيز وفدك

ولا مجال هنا لغير الإيجاز... فالحصر نافلة، وفي التمثيل غناء.

تحدّثنا الأخبار: عالج عمر بن عبدالعزيز الخليفة الأموي قضية «فدك»، فأصّل ملكيّتها لرسول الله، أخذاً بالآية الشريفة:

﴿وَمَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾[1].

وانثنى من هذا إلى حقّ فاطمة المتفرّد فيها، ثم حقّ ولدها الأطهار من بعدها، فقال: «كانت فدك للنبي، فكان ينفق منها، ويأكل، ويعود علىٰ فقراء بني هاشم، ويزوّج أيّمهم، و...».

وقال: «إنّ فدك كانت ممّا أفاء الله علىٰ رسوله، ولم يوجف المسلمون عليه بخيلٍ ولا ركابٍ».

وكتب إلى واليه على المدينة: أبي بكر عمرو بن حزام، يأمره بردّ «فدك» علىٰ ولد فاطمة، وتردّد الوالي: على أيّ ولد السيدة الزهراء يردّ هذه الأرض؟

فلقد تكاثر نسلها بالزواج علىٰ مرّ ما سلف من أجيال:

منهم من تزوّج في آل الخطاب... ومنهم من تزوّج في آل عقيل... ومنهم من تزوّج في آل عثمان... ومنهم من تزوّج في غيرهم من خيار الناس.

---

١. الحشر: ٦.

واحتار عامل المدينة، نهج نهج بني اسرائيل إذ أبلغهم نبيّهم موسىٰ ـ بأمر ربّه ـ أن يذبحوا بقرةً فسألوه: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾.

قال لهم نبي الله: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذٰلِكَ﴾.

فعادوا يسألون ويجيب: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّاظِرِينَ * قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَ شِيَةَ فِيهَا﴾.

عندئذٍ أجابوه: ﴿ٱلْآنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[1].

وكذلك كان موقف الوالي من أمير المؤمنين، بعث إاليه يسأله في شأن ولد فاطمة: علىٰ سن أردّ منهم؟

فكأنّما شاء عمر بن عبدالعزيز أن يعيد إلى بال عامله قصّة بقرة بني إسرائيل، ويماثل ـ تقريعاً وملامةً ـ موقفه بموقف أُولئك اليهود الذين أعنتوا الكليم!

أرسل إليه: ...لو أنّني كتبت إليك أن تذبح شاة، لكتبت إليّ: أجماء أم قرناء؟ ولو أنّني كتبت إليك أن تذبح بقرة، لسألتني: ما لونها؟ فإذا ورد عليك كتابي هذا، فاقسمها علىٰ ولد فاطمة من علي.

وأطاع الوالي أمر عمر بن عبدالعزيز، قسّمها فيهم.

فكانت ـ أيام عمر ـ فيهم[2]... ثم أخذها يزيد بن عبدالملك... فلمّا سقطت الدولة الأموية ردّها عبدالله السفّاح[3].

* * *

---

١. البقرة: ٦٨ ـ ٧١.

٢. شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد. (المؤلّف).

٣. تدولت أرض «فدك» زمان الأمويّين ومن بعدهم العباسيّين، تارة يسلبونها، وأخرىٰ يردّونها... هكذا دواليك.

وتنبغي الإشارة هنا إلى روايةٍ أخرىٰ عن موقف عمر بن عبدالعزيز، في جانبٍ منها تساوق الرواية بعض تساوق، وفي جانب غيره تظهر علىٰ طرفٍ نقيض.

ويقدّم لها ناقلها برأيٍ ارتآه، فيقول:

«...ولعلّنا[١] نجمل ما وقر في أذهان المسلمين الثقات من أمر فدك بكلمةٍ قالها عدل من أعظم العدول بعد ثمانين سنة أو نحوها، بعيداً من الخصومة، بعيداً من زمانها، بعيداً من الشبهة فيها، لأنّه قال كلمته وفدك في يديه ينزل عنها باختياره، لا يدعوه إلى ذلك داعٍ غير وحي ضميره... ذلك عمر بن عبدالعزيز».

تذكر الرواية:

يقول عمر في مستهلّ عهده بالخلافة: إنّ فدك كانت ممّا أفاء الله علىٰ رسوله، ولم يوجف المسلمون عليه بخيلٍ لا ركابٍ... فسألته فاطمة إيّاها فقال: «ما كان لك أن تسأليني، وما كان لي أن أعطيك!» فكان الرسول يضع ما يأتيه منها في أبناء السبيل... ثم ولي أبو بكر فكان يفعل ذلك، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفّان، ثم علي بن أبي طالب... كلّهم كانوا يضعونها حيث كان يضعها الرسول.

وتمضي القصة:... وولي معاوية فأقطعها مروان بن الحكم...، يقول عمر بن عبدالعزيز: فوهبها مروان لأبي ولعبدالملك... فصارت لي وللوليد وسليمان، فلمّا ولي الوليد سألته حصّته منها فوهبها لي، وسألت سليمان حصّته منها فوهبها لي، فاستجمعتها، فما كان لي من مالٍ أحبّ إليّ منها... فاشهدوا أنّني قد رددتها إلى ما كانت عليه.

كانت الرحلة طويلة تلك التي قطعتها فدك، على امتدادٍ نحو قرنٍ من عمر الخلافة الراشدية والأموية، حتّىٰ آلت إلى عمر الثاني أو الراشد الخامس ـ بوصف أكثر المؤرخين ـ فردّها إلى ما كانت عليه.

وقد تنقّلت «النخلة» خلال معظم هذه الفترة من يد من لا يملك إلى يد من

---

١. فاطمة الزهراء والفاطميون، للعقاد. (المؤلّف).

لا يستحقّ، وأصحاب الحقّ الأصيل فيها مفصول ما بينهم وبينها، ممنوعون عنها بفعل تقلّبات السياسة، أو يحكم إغواء القدرة على الرغم والابتزاز.

فإلىٰ من ردّها عمر بن عبدالعزيز؟

إلى بني فاطمة؟ أم إلى أبناء السبيل؟

أغلب الظنّ ـ لو أنّه فعل بمقتضىٰ سياق الرواية ـ لكان إذاً حرم منها أُولئك الأوّلين، وردّها إلى هؤلاء الأخيرين.

فإن يكن ذلك، فلماذا حرمان بني فاطمة وقد علمنا أنّ أبا بكر في معرض ما دار بينه وبين الزهراء من مساجلات، قال لها: كان رسول الله يأخذ من فدك قوتكم، ويقسم الباقي، ويحمل منه في سبيل الله؟

أم أنّ أحداً من بني أُمية الذين احتازوا النحلة، قد سمح منها بشيء لأبناء الزهراء؟

أم أنّ أحداً من أبناء الزهراء قد ارتضىٰ أن يتفضّل عليه بشيءٍ منها أحد أُولئك الأمويّين؟

ثم كيف لعمر بن عبدالعزيز أن «يستجدي!» ذلك النفر من آله ما لم يكن لهم حقّ فيه وهو القادر أن يأخذ منهم أخذ عزيز؟

وما الذي دفع الخليفة الأول ـ بدء الأمر ـ إلى طلب البيّنة من فاطمة علىٰ أيلولة فدك إليها، ولا حاجة به للطلب، ما دام الرسول قد منعها عنها، عندما استوهبته إيّاها، وقال لها: ما كان لي أن أعطيك...؟

أسئلة تدور في فراغ!

* * *

وتقول الأخبار[1]: ونحا نحو عمر بن عبدالعزيز الأموي، الخليفة العباسي: عبدالله

---

١. فتوح البلدان للبلاذري: ٤٦ ـ ٤٧، شرح النهج ١٦: ٢١٧.

المأمون بن هارون الرشيد.

قيل: لمّا ولي المأمون الأمر، وجلس للمظالم، كان أول ما وقع في يده رقعة، ما أن ألقىٰ عليها بصره حتّىٰ دمعت عيناه، وقال للذي علىٰ رأسه من رجال حاشيته: ناد: أين وكيل فاطمة؟

فنادى... فقام شيخ عليه دُرَّاعة[1] وعمامة وخفّ تِعِزّيٰ، فتقدّم من الخليفة وجعل يناظره في فدك، والمأمون يحتجّ عليه، وهو يحتجّ على المأمون... حتّى إذا اقتنع أمير المؤمنين بحجج الشيخ، أمر أن يسجّل لأبناء فاطمة بها.

فكُتب السجلّ، وقُرئ عليه، فأنفذه.

وكُتب بما سُجِّل إلى قثم بن جعفر: عامله على المدينة.

وكان ممّا أورد في كتابه: ... أنّه كان رسول الله أعطى ابنته فاطمة فدك، وتصدّق عليها بها... وأنّ ذلك كان أمراً ظاهراً معروفاً عند آله... ثم لم تزل فاطمة تدّعي منه بما هي أولىٰ من صُدِّق عليه... وأنه قد رأىٰ ردّها علىٰ ورثته.

* * *

وما فعله عمر بن عبدالعزيز، وعبدالله المأمون، ومن نهج علىٰ نفس نهجيهما من الخلفاء، فيه دلالة لا يمكن نقضها أوالمماراة فيها، تقدّم لنا إقراراً بحقّ الزهراء في فدك «النحلة» بمضمون المعنى الذي لا يُختلف علىٰ حقيقة فحواه، أو بصريح اللفظ الذي لا يُتأوَّل مغزاه.

فالأول ـ الأموي ـ يؤكّد أنّ «فدك» بالنطق القدسي، هي ممّا أفاء الله علىٰ رسوله ممّا لم يوجف المسلمون عليه بخيلٍ ولا ركاب.

ثم يقضي باختصاص ولد فاطمة بها، لا من فراغ، وإنّما نتيجة لازمة بطبيعة الحال، لعلمٍ انحدر إليه من أسلافه، ومن خلال ذوي الاطّلاع على حقائق الأُمور،

---

١. الدرّاعة: جمعها دراريع، ضرب من القمصان.

هداه إلى أنّ الزهراء أُمّ أُولئكم الولد، كانت وحدها مالكتها من دون سواها من آل الرسول.

وهل كانت الابنة لتنفرد بها لولا أن تكون قد انتقلت إليها «نحلةً»، ممّا «أفاء» الله ـ ملكاً خالصاً ـ علىٰ أبيها عليه الصلاة والسلام؟

والثاني ـ العباسي ـ: يعلن باللفظ الواضح والعبارة الجليّة أنّ الرسول «أعطىٰ» ابنته أرض فدك، وأنّ ذلك كان أمراً ظاهراً معروفاً عند آله.

فأهل النبي إذاً على العطيّة شهود... ولا مجال بعد هذا لشبهةٍ أو تلبيس.

ومن ثم فقول الخليفتين هذين إقرار، بوقوع «النحل» وثبوته.

إقرار بليغ!

وكفىٰ به بلاغة أن أتانا من لدن رجلين ذوي سلطانٍ غير محدودٍ، يملكان المنع لو شاءاه، ولا معقّب علىٰ ما يشاءان.

وما نظنّ شهادةً أقوىٰ أو أسطع ممّا يعلنه مثلهما، وهما سليلا أُسرتين ظاهرتي اللدد والخصومة لآل البيت، ما كانا ليحابيا الزهراء، أو ينصراها علىٰ أسلافهم الذين جاروا علىٰ حقّها وحقّ عقبها لولا توهّج هذا الحقّ توهّجاً تغشى له عيون المكابرة والإنكار.

بل ما هي بشهادة، بل اعتراف!

والاعتراف سيّد الأدلّة كما يقال، وكما تجري بوصفه أو «تكييفه» القوانين والأعراف.

ولقد بلغ ما بدا من تألّق هذا الحقّ واقترانه بالحقيقة إلى الحدّ الذي سمعت فيه من قد مال بأبي بكر ـ وهو راضي النفس غير متحرّج ـ نحو مساندة واقعة «النحل»، والأخذ فيها بقول فاطمة دون مراجعة ولا جدال.

قيل[1]: جاءت فاطمة إلى أبي بكر وقالت له: «إنّ أبي أعطاني فدكاً ...».

---

١. شرح نهج البلاغة، لابن لأبي الحديد. (المؤلّف).

وأخبرته أنّ زوجها وأُمّ أيمن شاهدان.

فاكتفى الخليفة الشيخ بقولها... ولم يزد علىٰ أن أجاب: ما كنت لتقولي علىٰ أبيك إلّا الحقّ.

وأبو بكر رجل رقيق ليّن الكلام، ثم أضاف: قد أعطيتكها.

ودعا بصحيفةٍ من أدم، فكتب لها فيها بذلك، وخرجت راضية مرضية.

فما أن خطت خطوات بعد بابه، حتّىٰ لقيها عمر بن الخطاب، ومعها الكتاب... فسألها ما كانت تفعل! فأخبرته فأخذ منها الصحيفة، وأسرع إلى صاحبه يحاوره: أنت أعطيت فاطمة فدك؟

ـ نعم.

ـ وكتبت بها لها؟

ـ نعم.

وقصّ عليه ما ذكرته من شهادة علي وأُمّ أيمن.

قيل: فردّ عمر: إنّ علياً يجرّ إلى نفسه! أمّا أُمّ أيمن فإنّها امرأة!

وأسرع فبصق في الكتاب!

ثم خرقه... ثم مزّقه... فامحىٰ أصله ومحتواه!

* * *

تلك حكاية تمخّضت عنها بعض الأخبار، عسير معرفة كيف تسلّلت إلى مجرى الأحداث... كيف نُسبت إلى التاريخ، فذُكر أنّها من ولائده، إلّا أن تكون «نغلاً» أو ابنة غير شرعية لوهم أحد الإخباريين!

فكلّ ما سبقها وما تلاها، ممّا سجّلته الصحاح، يكاد يلفظها مقدّمةً وقواماً ونتيجة.

ومع ذلك، فدع عنك اتّهامها بأنّها وليدة افتعال، أو مرور نصّها الأصيل بمراحل مجهولة من الحذف أو الإضافة أو التعديل، أو أنّها زوّقت بالمغالاة... فهذه كلّها أحكام ظنّية، كما تخضع لاحتمال الوقوع قد تخضع أيضاً لاحتمال الانتفاء.

وليكن النظر فيها من خلال استكناه جوهرها الخالص، علىٰ ضوء طبائع الوقائع، وسجايا الأشخاص.

* * *

فأمّا «الصُّدفة» التي جمعت في اللحظة الحاسمة بين عمر وفاطمة، عند باب أبي بكر، علىٰ حديثٍ، فإنّها أندر من أن تقع بين شخصَيْها هذين في واقع الظروف التي كانت قائمة آنذاك.

إنّها أولىٰ بأن تتبدّىٰ كلقاء مقحوم، أبعد من أن تكون رواية محقّقٍ، يقف علىٰ أرضٍ صلبةٍ من حقائق الأحداث، أدنىٰ إلى أن تُحسب كشطحة قصّاص، بل كأنّها نوع من «الحبكة الفنية» التي يتوخّاها كلّ يراع مُفتن، وخيال خلّاق، ليجعل ما يحكي أعظم إثارة، وأقدر على الاستهواء، وأشدّ نعومة، لتتزحلق علىٰ سطوحها الملساء الانفعالات النفسية، المفتونة أبداً بالإهراع إلى كلّ غريب وعجيب!

* * *

وأمّا فاطمة فهي الأريبة اللبيبة، الجريئة القلب، الألمعية الذكاء، تقدّر فتحسن المعادلة كما تحسن المفاضلة والترجيح، وتنظر فتغوص بنظرها الثاقب في جواهر الأشخاص والأمور، فيها الفطنة، وفيها الحكمة، وراثة عن الرسول، لا هي حمقاء فتندفع بغير تحسّب، ولا هي خرقاء فتخدع من غرّة أو اغترار، وما لا تدركه بسرعة لمح العقل، حريّ به أن تدركه بصفاء الروح وملكة الاستشفاف.

فكيف إذاً تفرّط في «صكّ» الملكية الذي سجّله لها الخليفة الشيخ، مختوماً واجب النفاذ؟

ولماذا تدفعه ـ طائعة مختارة ـ إلى ابن الخطّاب ما أن يطلبه منها، دون أن تتردّد وترتاب؟

وما حاجته إليه ما دامت قد أعلمته فحواه؟ أم قد نسيت أنّ عمر كان أميل الناس

عن زوجها وعنها، في لقاء «السقيفة» وفي يوم «الدار والنار»؟

لئن كان شيء أخلق بأن يخامر ذهنها لحظة مدّ يده إليها ليأخذ منها الصحيفة، فهو الشكّ في آرابه ونواياه... أو هو توقّع ما ينبغي أن تتوجّسه منه، فتحذره وتتوقّاه.

* * *

وأمّا أبو بكر فإنّه ـ فيما تحدّثت به سجاياه ـ كان أقوىٰ من عمر شكيمةً، وأصلب عزيمةً، فهو أولىٰ بان يبادر ولا يبتدر، وبأن يقود ولا ينقاد، ما هو بالمُنبتّ الذي ينتظر أن يصدر غيره له القرار، ولا الذي يميد به رأيه، كراكب الزئبق، فيتقلّب من يمينٍ ليسار، ومن أمامٍ لوراء، من رضىً إلى إباء، ومن إقرارٍ إلى إنكار، ثم لا يدري علىٰ أيّ جنبيه ينام!

ولا الهَيُوب[1] الخوّار[2]، الذي ينكُل وما أقدم، وينكص وما قام، ولا هو صاحب الحِنْث والنكث الذي ينقض ولمّا يجفّ عن عهده المداد! ولا متهافت الشخصية الذي يُقاد بخطمه كالمطيّة الذلول وإن حاول حمله على الانقياد عمر بن الخطاب وألف عمر بن الخطاب!

فإذا كان لابدّ من تعليل لورود هذا الخبر المقحوم، فسرّ ذلك عند أُناس عساهم أرادوا تبرئة أبي بكر من «تهمة» رفض النحلة، فنفضوها عن كاهله، ووضعوها علىٰ كاهل صاحبه! فهل أغنوا عنه؟

ما نراهم، وما نراه! فلا هو بَرِئٌ من الرفض، ولا هو يسلم بالنفض، وإنّما كان قصارىٰ ما فعلوه أن أدانوه وما أنصفوه، ووضعوه من حيث أرادوا أن يرفعوه!

* * *

وعلىٰ أيّ وجهٍ من الوجوه يتفحّص المرء هذه «الحكاية» فإنّها تلوح كأنّما

---

١. الهَيُوب: الجبان، الذي يهاب الناس.

٢. خار الثور يخور: إذا صاح، ورجل خوّار.

تشكّل إضافة جديدة إلى تأبّي خليفة رسول الله على الإقرار بحقّ ابنة رسول الله في نحلة أبيها ولا تنفيه.

فلقد رسمت لنا الوقائع الجارية أبا بكر في صورة من لا يكاد يقبل النحلة عامةً، كمبدأ من مبادئ انتقال المال من الأسلاف إلى الأخلاف.

وله رأيه، علىٰ أيّ حال.

فربّما كان لنظره هذا أسباب، ربّما كانت لديه معاذير، ربّما آثر الأخذ في انتقال المال من الآباء إلى الأبناء، بالقاعدة الأصيلة العريضة وهي «التوريث».

ولا سبيل هنا إلى الإدلاء في مسلكه برأيٍ محسومٍ، بل السبيل هو التشيم من خلال حساب الافتراضات والاحتمالات... والتكهنّ وسيلة ظنّية تقديرية قد تخطئ وقد تصيب.

ومع ذلك فإنّها محاولة فكرية، قد يتيسّر بها لناشد الحقيقة النظر إلى الأُمور من وراء مثل مجهر يوسّع المساحة، ويكبّر الدقائق، ويكشف عن مجاهيل عسىٰ أن يعثر فيها علىٰ ما يجدي ويفيد.

ولعلّ ممّا يهوّن على المرء الاستقراء أنّ ثمّة صورة تحفظها لنا المرويّات، وتكاد تكون مرآة تعكس فكر أبي بكر، وتبيّن اتّجاهه المؤثر للميراث على النحلة من حيث هما قاعدتان للامتلاك.

تقول الرواية: وكان أبو بكر قد «وهب» لعائشة أرضاً بالعالية، كان النبي أعطاه إيّاها... فأصلحها، وغرس فيها، ثم جعلها لابنته أُمّ المؤمنين.

فلمّا حضر وعائشة تمرضه، جلس فتشهّد، ثم قال: يا بنيّة! إنّ أحبّ الناس غنىً إليّ بعدي أنت، وإنّ أعزّ الناس فقراً عليّ بعدي أنت، وإنّي كنت نحلتك أرضي التي تعلمين، وأنا أحبّ أن تردّيها عليّ فيكون ذلك قسمةً بين ولدي علىٰ كتاب الله، فإنما هو مال الوارث[1].

---

١. الصدّيق أبو بكر، للدكتور هيكل. (المؤلّف).

ويتطرّق الظنّ إلى الذهن، فيكاد يرىٰ في موقف أبي بكر هذا ما قد يكشف عن فكرةٍ ربّما ظلّت راسبة في عقله الباطن زمناً، ورافضة للنحلة كقاعدة للتمليك، فلمّا أُتيح لهذه الفكرة الطفو من أعماقه اللاواعية علىٰ سطح إدراكه الواعي ـ ما أن أشرف على الرحيل عن دنيا الناس ـ بادر فبلورها في سلوك عملي، فرفض نحلة أمّ المؤمنين.

ويتطرّق الظنّ أيضاً إلى أنّه تحرّى العدالة فحرم ابنته نحلتها منه، كما حرم فاطمة نحلة رسول الله. فلا يقال كال لهذه بمكيال ولتلك بمكيال.

أمّا هو فيعلّل موقفه بأنّه إنّما يؤثر أن يكون مال الأب ميراثاً، وقسمةً بين ولده، على كتاب الله لا على مقتضى الرغبة الخاصّة، كما يبيّن من حديثه للابنة الجليلة.

أما سمعناه يقول لها عن نحلته: هي مال الوارث، وأحبّ أن تكون قسمة على كتاب الله؟

وليست النحلة كالميراث.

فالنحْل يعني تفرّد المنحول بما قد نحله من مال، وهو بصفته هذه يحجب جانباً من الإرث عن مستحقّيه، والميراث يعني مشاركة آخرين في المال الموروث.

ومع التسليم بشرعية حقّ المالك الأصيل في التصرّف في ماله، بتوزيعه بأساليبٍ شتّى في حدود معلومة، فإنّ الخليفة الأول ـ فيما نضح به سلوكه ـ قد تبدّىٰ كمن يرىٰ أنّ قاعدة التوريث هي أول كلّ تلكم الأساليب، وأولاها بالاتّباع.

غير أنّ ما ينبغي الالتفات إليه ها هنا هو أنّ وضع نحلة فاطمة ووضع نحلة عائشة مختلفان، في ميزان الهبات.

فما يجري علىٰ نحلة أُم المؤمنين لا ينطبق علىٰ نحلة الزهراء... فبينما كانت فاطمة وحيدة الرسول، كان لعائشة إخوة وأخوات، ومن ثم فإنّ تمييزها بنحلةٍ من دون ولد أبي بكر فيه إجحاف بولده الآخرين.

قيل: جاء رجل إلى النبي فقال له: إنّي أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطيّةً، فأمرتني أن أُشهدك يا رسول الله.

فسأله رسول الله: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟».

قال: لا.

قال الرسول: «فاتّقوا الله واعدلوا بين أولادكم»[١].

قيل: فرجع فردّ عطيّته.

* * *

فإن يقل قائل:

من ذا ينكر أنّ فاطمة كان لها أخوات، يحقّ لهنّ ـ علىٰ أساس هذا الحديث ـ أن يسوَّين بالزهراء؟

جاء الجواب: نعم لقد كان... لكنّهنّ جميعاً سبقنها إلى لقاء الله.

وكانت أُخرىٰ من لحقْنَ بالجوار الكريم: أُم كلثوم، فقد ذهبت إلى الرفيق الأعلىٰ في السنة التاسعة للهجرة، في شعبان.

أمّا فاطمة فقد توفّيت بعد ذلك بأكثر من عامين، في العام الحادي عشر، في شهر القرآن: شهر رمضان.

لقد نصر الله رسوله علىٰ خيبر في صفر، من سنة سبع، وتبع نصره هذا وقوع «فدك» في يديه، خالصةً له، ثم مضت الأيام بعدها مشحونةً بالأحداث الحواسم الجسام، تتوالىٰ دراكاً علىٰ صعيد الإسلام، لا تكاد تترك فرصةً لالتقاط الأنفاس.

فها هي غزوة «مؤتة» تقبل، وفي وفاضها مأساة دامية، ليس لها في المعارك مثيل... كانت أقرب إلى مذبحةٍ منها إلى اصطفاق سلاح بسلاح.

وعلىٰ ما أبلىٰ فيها المسلمون من بلاء، فإنّها شَدَخَتهم، وكادت تشعب صفّ مقاتلتهم كما يشعب الزجاج!

وكيف لا، وقد صرعت ثلاثة من خيرة قادة المؤمنين، هم: زيد بن ثابت،

---

١. أخرجه البخاري ٢: ٩١٤ ب١٢ الإشهاد في الهبة من أبواب الهبة ح٢٤٤٧، والبيهقي في السنن ٦: ١٧٦، كلاهما عن النعمان بن بشير.

وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن رواحة، تعاقبوا على القيادة، وتعاقبت عليهم المنون، والراية في أيديهم، وأقدامهم على الأديم لا تريم؟

ومن لهم بأجنادٍ يكفونهم عدوّهم وإن هم منه إلّا كقطرةٍ في محيط؟

فجيشهم ثلاثة آلاف؟ وجحافل الروم مائة ألف، ومعهم مثلهم: مائة ألف من المستعربين... ومع ذلك فقد يسّر ربّهم لهم، علىٰ يد خالد بن الوليد، ما بدا كأنّه انتصار!

وها هي أيضاً غزوة مكة أو الفتح المبين، تأتي على الأثر، فترقأ الدمع، وتلأم الصدع، وتداوي الجروح.

فلولا أن أوقع الله الرعب في قلوب المشركين، وسبقت مشيئته إلى عباده بالنصر، فربّما كان لها شأن غير ما كان.

ثمها هي هوازن، وما انقضت على «الفتح» إلّا أيام، قد خرجت ـ رجلاً وطفلاً وامرأةً، بعددها وعدّتها، بمالها وميرتها[1] ـ لتجتثّ محمداً ورجاله من الجذور، وما ناصبها العداء، ولا آذنها بقتال.

ويمضي المسلمون للّقاء ومعهم طائفة من أهل مكة، لعلّ كثرتهم إنّما سعت ابتغاء المغنم والسلب وليس ابتغاء نصرة الدين، وفي عماية الصبح، ينحدر جند الإسلام في أحد أودية «تُهامة»، فلا يروعهم إلّا كتائب العدوّ تنقضّ عليهم من مضايق بين الشعاب قد كمنت فيها من الليل الذاهب، وراحت تشدّ عليهم شدّة رجلٍ واحدٍ، من كلّ جانب.

ويضطرب الأمر، ويختلط على المجاهدين، وتدفعهم البغتة إلى التشتّت أو إلى النجاة، لم يثبت منهم سوى الرسول وعليّ ونفر قليل من صحابة الذين باعوا نفوسهم لله.

ويصيح رسول الله منادياً الفرّار: «أين أيّها الناس؟ هلمّ إليَّ!».

---

١. الميرة: الطعام.

لكن بعض قريش يحرّك الموقف الضنك[١] ما في قلوبهم من ضغنٍ علىٰ محمد، حتّىٰ ليودّ أحدهم أن يغدر به لولا أن كفّه الله عن نبيّه فأنجاه.

وتتحدّث ألسنتهم بما احتوته جوانحهم السوداء من شماتةٍ وغلٍّ، فيقول كبيرهم[٢]: والله لا تنتهي هزيمتهم دون البحر!

ويقول آخر: ألا بطل السحر اليوم!

أمّا الرسول فقد ثبت في مكانه لا يزول وإن غشيه الكفّار، مُذكّراً الناس: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب!»[٣].

وتمرّ به في هذه اللحظة الحازبة أُم سليم بنت ملحان[٤]، فتدنو منه، وفي يدها خنجر أعدّته لتبعج[٥] به أيّما مشركٍ يهمّ أن يناله بشرٌّ.

ويملكها خوفها عليه، فتودّ لو افتدته بالنفس والآل، فتقول في لهفة مزاجها ولاء: بأبي أنت وأمي يا رسول الله!

ثم يملكها غضبها على الأُلىٰ من رجاله تشتّتوا عنه، فتهيب به وهي محنقة يأكلها

---

١. الضنك: الضيق.

٢. في تاريخ الطبري: هو أبو سفيان. (المؤلّف).

٣. رواه البخاري ٣: ١٠٥١ ـ ١٠٥٢ ب٥٢ من أبواب الجهاد ح٢٧٠٩، و:١٠٥٤ ب٦٠ من أبواب الجهاد ح٢٧١٩، و: ١٠٧١ ب٩٥ من أبواب الجهاد ح٢٧٧١، و: ١١٠٧ ب١٦٤ من أبواب الجهاد ح٢٨٧٧، ومسلم ٣: ١٤٠٠ و١٤٠١ ب٢٨ في غزوة حنين من كتاب الجهاد والسير ح١٧٧٦ وما بعده كلاهما عن البراء بن عازب. وفي تاريخ الطبري ٢: ٣٤٨ حوادث سنة ٨هـ. وقوله ﷺ: «أنا النبي لا كذب» أي أنا النبي حقّاً وصدقاً فلا أفرّ ولا أزول.

٤. أم سليم بنت ملحان بن خالد الأنصارية الخزرجية النجارية، أم أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، اشتهرت بكنيتها، واختلف في اسمها، فقيل: سهلة، وقيل: رميلة، وقيل: رميثة، وقيل غير ذلك، كانت تحت مالك بن النضر والد أنس في الجاهلية، فلمّا أسلمت غضب عليها وخرج إلى الشام ومات هناك، فخطبها أبو طلحة الأنصاري وهو مشرك، فاشترطت عليه أن يسلم على أن يكون هذا مهرها. وكانت تغزو مع النبي ﷺ، وروت عنه أحاديث، وكانت تعدّ من عقلاء النساء. (أُسد الغابة ٥: ٥٩١ من كتاب النساء، الإصابة في معرفة الصحابة ٨: ٢٤٣ برقم ١٣١٤ باب الكنى).

٥. بعج: طعن.

الغيظ: اقتل هؤلاء الذين يفرّون عنك، كما تقتل هؤلاء الذين يقاتلونك، فإنّهم لذلك أهل!

لكنّه، بكلّ السماحة في نفسه الصافية، وبكلّ الثقة في قلبه الركين، يردّ عليها بهدوء: «أو يكفي الله يا أُم سليم!»[1].

ويكفيه الله.

ويسجّل النطق الربّاني هذه المحنة التي أراد لها الله أن تكون، ثم أراد أن تنحسر، فينزل ربّك في قرآنه العظيم: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾[2].

* * *

فترة عصيبة في حياة الإسلام، تلك التي أعقبت «خيبراً» حتّىٰ حسم الله الأخطار.

قصيرة الأمد كحلم، ثقيلة الوقع ككابوس، طولها عامان وقليل، فما بلغت منتصف ثالث الحؤول!

لكنّ حلقها شرق بالشدائد والمشقّات، في شهورها وأيامها طالما عربد الشيطان، علىٰ قصرها وضيقها، تزاحمت سيوف الشرك وخدع النفاق على أصحاب الايمان.

فإذا بين الذين هدى الله قد وَهَن من لم يكن ليهن، وفرّ من لم يكن ليفرّ... وحسب من في قلوبهم مرض أنّ العاقبة للأوثان!

ثم مكّن الله لأهل دينه في سعيٍ دائبٍ شاقّ، أخذ ينساح بدعوة الحقّ فوق وجه

---

١. البداية والنهاية ٤: ٣٢٦. وروى الخبر مسلم أيضاً ٣: ١٤٤٢ ب٤٧ غزوة النساء مع الرجال، من كتاب الجهاد ح١٨٠٩، وأحمد ٣: ٢٧٩ عن أنس. وانظر تاريخ الطبري ٢: ٣٤٩ حوادث سنة ٨هـ، وذكر قصة الخنجر.

٢. التوبة: ٢٥ ـ ٢٧.

الجزيرة، على أودية الرمل ومضايق الجبال، ثم أتبع سعيهم بـجهدٍ جـبّارٍ خـلّاقٍ لإقامة الدولة البازغة، وتنسيق نظامها، وتأمين حـدودها مـن سـطوات كسـروية فارس، وطغيان قيصرية الروم.

ثم أذن فأدال قوى البناء والخير علىٰ قوى الهدم والشرّ، وغلّب النظرة السليمة على السقيمة، فعقلت العقول، وصفت الأنفس، واغـتسلت الخـواطـر، وانـصقلت الأفكار، واستضاءت ـ بنور ربّها ـ البصائر والأبصار.

وبين هذا كلّه راحت الوفود تقبل علىٰ محمد من مختلف أنحاء بلاد العرب، في الأطراف والأعماق، إقبال النحل على الزهر، والفـراش عـلى الضـوء، تـعلن أنّـها أسلمت وجهها لله الواحد، وجاءت تقبس من النور والرحيق.

أفئن شغلت كلّ تلكم الشواغل رسول الله عن شأن نفسه وشأن آله، فتريّث ببرّه الزهراء بعض تريّثٍ حتّىٰ تحين لحظة فراغ، استطال علىٰ فريقٍ مـن النـاس ذانك العامان، وقال قائلهم: فيم هذا الاستئخار؟

أم ليس يوافق هذه الظروف المنتكثة الوقائع، المضطربة الأحوال أن يغلب المهلُ العجلةَ، ويتقدّم العامّ على الخاصّ؟

أم لا يُلفت موتُ زينب ثم أُم كلثوم في سنتين متعاقبتين أباهما المـحزون إلى الزهراء: بقية عقبة، فينحلها من خالص ملكه شيئاً يعينها علىٰ قسوة العيش أن كانت ذات عيال وبلا مال؟

أم كنت تظنّه تاركها علىٰ متربةٍ، وفي يده فضل مالٍ ممّا أفاء الله عليه، يـمنعها مذلّة الإدقاع؟

أو ليس هو القائل: «إنّك إن تدع ورثتك أغنياء، خير من أن تدعهم عالةً يتكفّفون الناس»[١]؟

---

١. أخرجه أحمد ١: ١٧٣، والبيهقي في السنن ٦: ٢٦٨ و٢٦٩، والنسائي في السنن ٦: ٢٤٢ و٢٤٣ كـلّهم عن سعد بن أبي وقّاص. وفي مسند أحمد ١: ١٦٨ بلفظ: «إنّك إن تدع أهلك بعيش، أو قال: بخير...».

بلىٰ! فما أحسب الرسول قد أعطىٰ زهراءه فدكاً، فيما بين أواخر صفر من سنة سبع وبين شعبان من سنة تسع، أو فيما بين فراغه من «خيبر» وبين ما سبق وفاة أُم كلثوم، بل نحلها إيّاها بعد هذا التاريخ... ومن قال بغير هذا وإنّما يقارف خطل الرأي، وفساد التقدير.

ذلك أنّ فاطمة لم تكن قبل ذلك وحيدة الرسول... ودون نحلها فدك في وقت آخر وأُختها هذه علىٰ قيد الحياة: حديثه الذي دعا الناس فيها إلى المساواة في النِحَل بين الأبناء.

أم كان لا يطابق بفعله قوله، فيأمر بشيء، ويعمل بنقيضه، وإنّه لهو القدوة الطيّبة للمسلمين؟

كلّا، وحاشاه!

بل عصمة الرسول تقضي بصدق حديثه، تؤكّد أنّه نحل فدك ابنته «الوحيدة»: الزهراء، بعد أن غاب عن الوجود كلّ ما نسل من بنين وبنات!

اللوحة الثالثة

رضىٰ فاطمة من رضاي

في حديثٍ جرى بين السيدة عائشة أُم المؤمنين، وبين عروة بن الزبير ابن أُختها: ذات النطاقين أسماء.

تقول زوج الرسول: إنَّ فاطمة ابنة رسول الله سألت أبا بكر بعد وفاة الرسول أن يقسّم لها ميراثها: ما ترك أبوها ممّا أفاء الله عليه، فكان جواب أبي بكر: إنَّ رسول الله قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة».

وأضافت السيدة في نطاق موضوع الكلام وإن كانت الإضافة علىٰ غير ترتيبٍ في سياق ما ترويه: وكانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبها: ما ترك رسول الله من خيبر وفدك وصدقته بالمدينة، فأبىٰ أبو بكر عليها ذلك، صارحها برأيه قاطعاً مانعاً فيما دعته إليه، أو ادّعته وتدّعيه.

قال: لست تاركاً شيئاً كان رسول الله يعمل به إلّا عملت به، فإنّي أخشىٰ إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ.

تقول عائشة: فغضبت فاطمة ... فهجرت أبا بكر ... فلم تزل مهاجرته حتّى توفّيت[1].

* * *

١. صحيح البخاري ٣: ١١٢٦ ب٦١ من أبواب الخمس ح٢٩٢٦ و٢٩٢٧، و١٣٦ ب٦٦ فضائل الصحابة ح٣٥٨.

وقصة الغضب الذي هاج حلم الزهراء، وأجملته عبارات أُم المؤمنين في إقلال، تفصح عنه بعض الإفصاح عبارات آخرين... فإذا هو غضب عميق جليل.

قيل: فردّت ابنة الرسول محنقةً على خليفة الرسول، تقول: «والله لا أُكلّمك أبداً!».

فيقول: والله لا هجرتك أبداً!

فتزداد غضباً: «والله لأدعونّ الله عليك!».

فيردّ الخليفة بهدوء: والله لأدعونّ الله لك!

وأبو بكر ـ كما معلوم ـ امرؤ شديد الأناة، لبق التعبير، رفيق رقيق.

ويحدثنا الجاحظ: فيحتمل أبو بكر منها هذا الكلام الغليظ، ويقبل عليها معتذراً، بقول المعظّم لحقّها، المكبّر لمقامها، والصائن لوجهها، المتحنّن عليها: ما أجد أعزّ عليّ منك فقراً، ولا أحبّ إليّ منك غنىً: ولكنّني سمعت رسول الله يقول: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة»[١].

وتستمرّ حكاية مغاضبة فاطمة لأبي بكر: فلمّا حضرتها الوفاة، أوصت بأنّه لا يصلّي عليها... فدفنت ليلاً... وصلّىٰ عليها العباس بن عبدالمطلب، وكان بين وفاتها ووفاة أبيها ثنتان وسبعون ليلة[٢].

ولا خلاف على لحاقها بالنبي وإن اختُلف على المدّة بين الوفاتين، من أربعين ليلة إلى ستة أشهر.

ولا خلاف أيضاً في أنّ أبا بكر لم يُعْلَم بوفاتها، ولم يصلّ عليها وإن كان الأرجح الذي يشبه الإجماع: أنّ من صلّىٰ عليها هو زوجها: علي بن أبي طالب، وليس عمه العباس.

وقيل أيضاً: وجرت مغاضبتها لأبي بكر إلى أبعد الحدود، حتّىٰ لقد رفضت أن

---

١. كتاب العباسية، لأبي عثمان الجاحظ، نقلاً عن شرح النهج. (المؤلّف).

٢. شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد. (المؤلّف).

تلقاه وصاحبه عمر، عندما رأيا لزاماً أن يحسرا عن نفسيهما سخطها فيترضّياها عسىٰ أن ترضىٰ.

ويسّر لهما زوجها اللقاء... فلمّا دخلا أشاحت عنهما بوجهها تعتزم الجفوة المقذعة[١] والصمت اللاذع[٢]، لولا أن راحا يلحفان[٣] في الرجاء أن تسمع منهما أويظلّا لا يبرحان ما أبت أن تأذن لهما بالكلام.

وأذنت... فبادر أبو بكر يخاطبها بأعذب حديث: يا حبيبة رسول الله! والله إنّ قرابة رسول الله أحبّ إليّ من قرابتي، وإنّك لأحبّ إليّ من عائشة ابنتي... أقتراني أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقّك وميراثك من رسول الله؟ إلّا أنّي سمعت رسول الله يقول: «لا نورث، ما تركناه فهو صدقة».

عندئذٍ رأت ألّا بدّ من ردّ، فسألته ورفيقه: «أرأيتكما إن حدّثتكما حديثاً عن رسول الله تعرفانه وتعملان به؟؟».

فأسرعا يجيبان: نعم.

قالت: «نشدتكما الله! ألم تسمعا رسول الله يقول: رضىٰ فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحبّ فاطمة ابنتي فقد أحبّني، ومن أرضىٰ فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟».

قال الصاحبان: قد سمعناه من رسول الله.

فرفعت وجهها وكفّيها إلى السماء، وهي تقول في حرارةٍ ومرارةٍ: «فإنّي أُشهد الله وملائكته أنّكما أسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت رسول الله لأشكوكما إليه»[٤].

* * *

---

١. المقذعة: الفاحشة.

٢. اللاذع: المحرق.

٣. ألحف السائل: إذا ألحّ إلحاحاً شديداً.

٤. الإمامة والسياسة، لابن قتيبة. (المؤلّف).

وتتناقض الروايات، تضطرب اضطرباً شديداً، متأرجحة بين الغضب والسخط، وبين الرضا والقبول، فلا يكاد المرء يتبيّن ـ إلّا بشقّ الأنفس ـ أيّها الجدير بالتصديق

تطلع علينا منها رواية تقول: لمّا مرضت[1] فاطمة أتاها أبو بكر الصدّيق فاستأذن عليها، فقال علي: يا فاطمة، هذا أبو بكر يستأذن عليك.

قالت: أتحبّ أن آذن له؟

قال: نعم فأذنت له، فدخل عليها، فقال: والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلّا ابتغاء مرضاة الله، ومرضاة رسوله، ومرضاتكم أهل البيت، ثم ترضّاها حتّىٰ رضيت.

فليت ذلک كان!

فما نحن بصدد عدوّين يتناجزان، بل رفيقي إسلام، قد يختلفان فكراً فلا يذهب بهما الخلاف إلى العداوة، ويجتهدان الرأي فيخطئ أحدهما وله أجر، ويصيب الثاني وله أجران.

ويوشك ناقل هذه الرواية عن راويها أن يسندها إلى الإمام علي بن أبي طالب، ويذكر أنّه سمعها من علي، أو سمعها ممّن سمعها من علي! فتتوثّق، وتتوطّد لها أركان تحييها بين الحقائق التي لا تلحق بها الشبهات.

ثم يضيف: وقد اعترف علماء آل البيت بصحّة ما حكم به أبو بكر[2].

وبعض محتوىٰ هذا الحكم: ألّا نحلة هناك!

وليس عجباً أن يتضارب كثير من الروايات التي ترسم بعض الأحداث التي تكوّن لُبنات في بناء التاريخ الإسلامي، لأنّ هذا التضارب معلوم مشهود... لكن العجب كلّ العجب هو في تناقض أقوال أُولئك «الآل» في قضيةٍ قد ساندها عمر بن عبدالعزيز والمأمون بن الرشيد وغيرهما من الخصوم، ثم يجتمع أولياؤها وأصحابها

---

١. مرضها الأخير. (المؤلّف).

٢. السيرة النبوية، لأبي الفداء. (المؤلّف).

من آل البيت ضدّاً إلى ضدّ، حتّىٰ ليعجب المرء لهم كيف يختلفون فيما يُرىٰ وإنّه لمن بداءة الأُمور!

فلقد نُسب إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ـ أخو الإمام الباقر ـ أنّه سُئل رأيه في انتزاع أبي بكر «فدك» من يد فاطمة بنت رسول الله.

فأجاب زيد: إنّ أبا بكر كان رجلاً رحيماً، وكان يكره أن يغيّر شيئاً فعله رسول الله، فأتته فاطمة فقالت: إنّ رسول الله أعطاني فدك.

فقال لها: هل لك علىٰ هذا بيّنة؟

فجاءت بعلي فشهد لها، ثم جاءت بأُم أيمن فقالت (لأبي بكر وعمر): ألستما تشهدان أنّي من أهل الجنة؟

قالا: بلىٰ.

قالت: فأنا أشهد أنّ رسول الله أعطىٰ فاطمة فدكاً[1].

ولسنا ندري علىٰ أيّ هيئةٍ تُرىٰ «نحلة» فدك من خلال هذه الرواية المنقولة عن زيد... أتظهر لنا في صورة ثبوت، أم تظهر في صورة انتفاء؟

ولقد علمنا من قبل أنّ شهادة أُم أيمن ظلّت تتبدّىٰ لأُناسٍ، وإنّها لأشبه بلغوٍ لاغناء فيه.

فإذا رأىٰ بعضهم في هذا الخبر الزيدي حجّةً تؤكّد ملكية فاطمة لفدك ـ إذ كانت تتصرّف فيها أيام أبيها، وبقيت في يدها بعد وفاته حتّىٰ انتزعها أبو بكر ـ أفليس يرى آخرون فيه حجّةً أقوىٰ ـ إذ شهد زيد أنّ الخليفة الأول وقد استردّها، إنّما سلك فيها نفس مسلك رسول الله، ولم يغيّر شيئاً فعله رسول الله!

حجّة ذات وجهين يتعارضان.

إنّها تخرج بالنحلة عن طريقها الذي انتهجه آل بيت النبي ومن لفّ لفّهم من الأولياء علىٰ إجماع، أو علىٰ ما هو أشبه بالإجماع.

---

١. شرح النهج، لابن أبي الحديد. (المؤلف).

ومن ساندهم أيضاً من الخصوم.

ونسمع مرةً أخرىٰ أنّ زيداً قال: أمّا أنا، فلو كنت مكان أبي بكر لحكمت بما حكم به أبو بكر في فدك[١]!

* * *

لكنّنا لا نشكّ في أنّ غضب فاطمة ما كان لينبثق من فراغ، بل إنّنا لنراه كان أكبر من «فدك» لو أنّنا عايرناه بمعايير شخصيتها التي اجتمع فيها من مقوّمات السلوك السويّ ما لم يجتمع لغيرها من الأسوياء.

فما كانت لتأبه بالمادّيات، ولا لتقيم وزناً للمال، ولا لتتطلّع لعروض المتاع، ولا لتهتمّ بضرورات الحياة العادية التي يحتاجها غمر[٢] الناس، فضلاً عن أوساطهم، دع ذوي اليسار.

كانت ربّة البيت التي تقوم في عشها الصغير بكلّ جليل وضئيل من الأُمور... تسهر علىٰ راحة الزوج، ترأم الصغار[٣]، تطحن بالرحىٰ فتمجل[٤] منها اليدان، تستقي بالقربة وتنضح حتّىٰ ليُشفي بصدرها الجهد والبلل على البوار، توقد تحت قدرها وتنفخ في النار حتّىٰ ليوشك ثوبها علىٰ بدنها أن يحترق قبل أن ينضج الطعام!

ومع هذا فلا يأذن لها أبوها بخادمٍ تخفّف عنها بعض ما تعانيه... بل قد آذاه أن رآها تتقلّد قلادةً من ذهب أتاها بها عليٌّ من سهمٍ صار اليه، وقال لها عليه الصلاة والسلام: «يا بنيّة! لا تغترّي بقول الناس: فاطمة بنت محمد، وعليك لباس الجبابرة!»[٥].

---

١. طبقات ابن سعد ٢: ٣١٦.

٢. غمر الناس: غالبيتهم.

٣. رَأم الصغار: رعايتهم.

٤. مجلت يداه: إذا خشنتا من طول العمل وشدّته.

٥. ذخائر العقبى: ٥١ عن أسماء بنت عميس، وانظر مستدرك الحاكم ٣: ١٥٢ و١٥٣ عن ثوبان مولىٰ رسول الله ﷺ.

فأسرعت فباعت القلادة، واشترت بثمنها عبداً مسلماً أعتقته تقرّباً إلى الله.

* * *

لقد كانت فاطمة فيما عهدنا، تحيىٰ علىٰ التعفّف، وتطعم التقشّف، وتعيش بالكفاف، شبعها في العبادة... ريّها في الدعاء... ثروتها الإيمان.

كانت لا تأخذ من دنياها بنصيبٍ ذي بال، وإن كادت الدنيا بكلّ كنوزها لتسجد عند قدميها وتدعوها: هلمّي وهاك!

فهل كانت «فدك» تستحقّ من مثلها هذا الغضب المهتاج؟

سؤال تتفجّر منه الإجابات، وتدور حوله كدورات الكواكب والأقمار حول نجمٍ انفصلت منه، فإذا هي جسيمات من نفس الجنس منجذبة إليه لا تزال!

وإذا هذه الإجابات ـ بالأصل وبالجوهر ـ بضَع من ذلك السؤال، فما هي تلكم البضع المتناثرة علىٰ أديم «مجرّة» الاستفسار؟

ربّما يقال: أثمّة من الأُلىٰ يعرفون طبيعة الزهراء من يُعلّق سخطها علىٰ هذا العقار؟ أم من يتتبّع شعورها ويتقصّاه، ثم يُعيي فكْرَه أن يراه أدخل في باب الحزن منه في باب الحسرة علىٰ ما ضاع؟

أم من لا يكاد يوقن أن قد آسفها من صاحب محمد ـ رفيق عمره، وثاني اثنين إذ هما في الغار ـ إنكاره دعوىٰ نحلتها إلّا أن تأتيه ببيّنةٍ وبرهان، كأنّما اهتزّت في عينيه صورتها، فاختلطت الملامح، وبهتت الألوان؟

لكأنّها بمنزل ارتياب! كأن دعواها ادّعاء! كأنّ شهادة شهودها افتراء!

وهل شيء هنا أشدّ علىٰ نفسها من ظنّة سوء تأتيها ممّن يعرف لها قدرها الرفيع، ومكانتها العليّة بين القدّيسات المطهّرات، وتعرف هي أنّه ـ من بين أصحاب أبيها المجتبين ـ كان الأُنموذج الحيّ للولاء والوفاء؟

ربّما يقال أيضاً: أَوَ لم يؤاسفها منه أن لم يرع فيها ما كانت تحسب أنّه عنده

الأحقّ بالرعاية الأولىٰ بالحفظ، الأخلق بالذكر لأنّه من «ذكر» الله؟

فلقد أنزل الله في ذكره الحكيم علىٰ لسان نبيّه: ﴿قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾[١].

وورد في الأثر[٢]: جاء أعرابي إلى النبي فقال: يا محمد، اعرض عليَّ الإسلام.

قال الرسول: «تشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله».

فاستفسره الرجل: تسألني عليه أجراً؟

ـ «لا ... إلّا المودّة في القربىٰ».

ـ قرباي أم قرباك؟

ـ «قرباي».

ولقد ذهب أهل التفسير مذهبين مختلفين في من هم ذو «القربىٰ»: منهم[٣] من أخذ اللفظة علىٰ إطلاق معناها فعمّم، ومنهم[٤] من قصرها علىٰ قرابة الرسول.

---

١. الشورىٰ: ٢٣.

٢. مسند أحمد ٤: ٣٥٩، سنن البيهقي ٩: ٢٠.

٣. كابن جرير الطبري في تفسيره ٢٢: ٥، والقرطبي في جامع الأحكام ١٤: ١٨٣ كلاهما ضمن تفسير آية التطهير المباركة عن عكرمة ومقاتل، وفي الاثنين نظر. ومن يراجع كتب التراجم يدهشه ما تتناقله هذه الكتب عن حال هذين المفسّرين. انظر تهذيب ابن حجر ٧: ٢٦٧ و١٠: ٢٨١، تاريخ البخاري ٨: ١٤، تقريب التهذيب ٢: ٢٧٢، وفيات الأعيان ٤: ٣٤٢.

٤. كالماوردي الشافعي في تفسيره ٤: ٤٠١، والبغوي في معالم التنزيل ٣: ٥٢٩، والزمخشري في الكشّاف ٤: ٢١٩، والخازن في لُباب التأويل ٣: ٢٥٩، وهو ما يتمسّك به الفريق الأعظم والأكبر من المفسّرين المعروفين كابن عباس وأبي سعيد الخدري وأضرابهما.

ويُذكر أنّ للأستاذ توفيق أبو علم بحث رائع وشيّق كتبه مختصراً في كتابه النفيس «السيدة نفيسة»: ٦٧ وما بعده، يورد فيه آراء القوم في من يُراد بأهل البيت وذوي القربىٰ من الآيتين الكريمتين: آية التطهير وآية القربىٰ، من يراجعه يجد بغيته ويشبع نهمه في هذه المسألة. وقد تمّ طبع الكتاب بحلّة قشيبة ونشره من قبل المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب ومزيَّن بتحقيق يليق بمكانته.

روي عن الإمام الحسن[1] أنّه قال: «إنّا من أهل البيت الذين افترض الله مودّتهم علىٰ كلّ مسلم، فقال: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾[2]».

* * *

هذه بضع من ذلك السؤال المتفجّر من سخط فاطمة أسئلة شتّى، كتفجّر تلك الجسيمات الكونية من كواكب وأقمار وكويكبات عن جسمٍ نجميٍّ راحت تدور حوله في أفلاك ومسارات، وهي منجذبة إليه، مرتبطة به، لا تقترب منه إلّا بمقدار، ولا تبعد عنه إلّا بمقدار.

تماماً كارتباط الطفل بصدر أُمه الحنون... تماماً كتعلّق ذرّات النور بمنبع الشعاع.

وتتوالىٰ مع الجانب المنازع في النحلة تساؤلات هي إجابات، أو تتوالىٰ إجابات في هيئة تساؤلات.

فربّما يقال: وما أهمية فدك في نظر أصحاب السلطة حتّىٰ لنجدهم حريصين على احتيازها كلّ هذا الحرص الشديد العنيد؟

ما جدواها عليهم وإن هي إلّا ضيعة صغيرة لا غناء فيها لذوي سطوة جامعة ضمّت إلى صولة السياسة وفرة النصير وجبروت المال؟

هنا قد يكون الجواب: إنّما المال عصب السياسة، ومجلبة الناصر، وسلاح الغلبة في كلّ نزاع.

فقد كانت «فدك» علىٰ ما ذكر أُناس: جليلة جدّاً، وفيها من النخل ما يعادل نخل

---

١. الميزان في تفسير القرآن، للطباطبائي. (المؤلّف).

والرواية تحكي خطبةً للحسن بن علي عليهما السلام. ينقلها الطبراني في المعجم الأوسط ٣: ٨٧ ـ ٨٩ ح٢١٧٦، والقندوزي في ينابيع المودّة ١: ٨ و٣: ١٥٠ عن الحافظ جمال الدين الزرندي في درر السمطين، وابن حجر في الصواعق المحرقة: ٢٢٨ وعزاه إلى الدولابي.

٢. الشورىٰ: ٢٣.

الكوفة كلّها آنذاك... ويرتفع ريعها أحياناً إلى سبعين ألف دينار.

فهي ـ بهذه الصفة ـ خليقة بأن تزيد في قوتهم المادّية، وتفوّقهم الاقتصادي بما تغلّه من حاصلات، فترجّح كفّتهم علىٰ كفّة أُولئك الذين كانوا يرون لأنفسهم وحدهم الحقّ في إمرة المسلمين.

أم أنّ إثارة قضية «فدك» في تلكم الآونة، إنّما كان «لعبة» سياسية بارعة، أُريد بها شغل منافسيهم بهذه القضية الجانبية، واستدراجهم بها بعيداً عن القضية «الأصلية» المتمثّلة في خلافةٍ قد اقتُنصت من وراء ظهورهم اقتناصاً، وكانوا موقنين أنّها حقٌّ لهم ليس لغيرهم نصيب فيه؟

أم أمسك «جهاز الحكم» فدكاً بمخالبه وأنيابه، لا يردّها علىٰ مستحقّيها، مخافة أن يظنّوا في الحاكم خوراً قد يشجّعهم على المطالبة بما حرموه من سلطان؟

إنّ التشدّد في مثل هذا المقام هو السلوك الذي يوجبه على الحكّام إضفاء الهيبة، وضبط الأوضاع، ورعاية النظام العام... والذي يتشدّد في القليل خليق بأن يبدو لخصومه وإنّه لأحرىٰ بأن يتشدّد في الكثير.

فذلك من مظاهر القوة التي تكفّ عن الحاكم استهانة الناس به، وتربّص الطامعين من حوله لانتزاع ما في يديه من سلطان إن غفت عنهم عينه، أو ارتخىٰ في قبضتيه عنان الأُمور، لذلك فهو آمن علىٰ ملكه ما بقي منافسوه علىٰ وهن، وما شغلتهم الدنيا من شؤونهم بالخاصّ دون العام.

قيل[1]: إنّما أراد أبو بكر بمنع «فدك» عن فاطمة، ألّا يظهرا لعلي ـ وقد اغتصباه الخلافةِ ـ رقّةً وليناً وخذلاناً، ولا يرىٰ عندهما خوراً... فأتبعا القرح بالقرح!

وذكر علىٰ لسان الإمام جعفر الصادق: لمّا بويع أبو بكر، أشار عليه عمر أن يمنع علياً وأهل بيته الخمس والفيء وفدكاً، فإنّ شيعته إذا علموا ذلك تركوه، وأقبلوا إليك رغبةً في الدنيا.

---

١. شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد. (المؤلف).

ويعقّب الصادق: فصرفهم أبو بكر عن جميع[1] ما هو لهم.

وورد أيضاً: سئل علي بن أبي طالب: كيف كان يصنع أبو بكر وعمر في الخمس نصيبكم؟

فقال: أمّا أبو بكر فلم يكن في ولايته أخماس، وأمّا عمر فلم يزل يدفعه إليَّ في كلّ خمس، حتّىٰ كان خمس الري وجند نيسابور.

فقال وأنا عنده: هذا نصيبكم أهل البيت في الخمس.

قد أُحلّ ببعض المسلمين، واشتدّت حاجتهم، فقلت: نعم.

فوثب العباس فقال: لا تعرض في الذي لنا!

فقلت: ألسنا من أرفق المسلمين!

وشفع أمير المؤمنين، فقبضه.

يقول علي: فوالله ما قبضناه، ولا قدرت عليه في ولاية عثمان، ذاك سهم ذي القربىٰ.

وظاهر الحوار يومئ أنّ سهم قرابة الرسول كان يُسلَّم إلى علي، فيكون هو الذي يوزّعه علىٰ مستحقّيه من ذوي قربىٰ رسول الله على ما أنزل الله في آية التسهيم.

وقد فرضه الله كرامةً لهم، لقرابتهم من رسوله، وتنزيهاً عن الاستعانة بصدقات الناس وإن لم يكن عليهم ضير ولا جناح أن يتصدّق بعضهم علىٰ بعض.

ذكر ابن عباس: قال رسول الله: «رغبت لكم عن غسالة الأيدي، لأنّ لكم في خمس الخمس ما يغنيكم، أوقال: ما يكفيكم»[2].

* * *

---

١. أي: فدك. (المؤلّف).

٢. رواه ابن كثير في تفسيره ٣: ٤٩١ ضمن تفسيره الآية: ٤١ من سورة الأنفال، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

وحديث «الصادق» يفسّر لنا، كلمةً بكلمة، وحرفاً بحرف، ما جاء في كلام عائشة أُم المؤمنين لابن أُختها عروة بن الزبير.

فخلاصة قول الإمام جعفر: أشار عمر علىٰ أبي بكر أن يمنع علياً وأهل بيته الخمس والفيء وفدكاً، فاستجاب... وصرفهم عن جميع ما هو له، ومن بينه فدك: نحلة النبي لابنته الزهراء وخلاصة قول السيدة عائشة: سألت فاطمة أبا بكر نصيبها فيما أفاء الله علىٰ رسوله من صدقته بالمدينة وفدك، وسهم خيبر... فأبىٰ أبو بكر، وأجمل إباءه في كلمات: أنّ رسول الله قال: «لا نورث، ما تركناه فهو صدقة»[١].

فهل سألته فدكاً إذ هي نحلة، أم سألته إيّاها إذ هي ميراث؟

---

١. العواصم من القواصم، لأبي بكر ابن العربي. (المؤلّف).

اللوحة الرابعة

حدود النِّحلة

محمد هو الرسول، واحد أم اثنان

في نطاق خصوصية النبي بفدك كانت نحلته لفاطمة، ذاك من بدائه الأُمور، فهل نحلها شطراً وحبس آخر؟

لم يرد بهذا بيان، بل كانت للنحلة صفة العمومية، بغير تحفّظ ولا تحديد، أم عسىٰ كان ما أفاء الله علىٰ رسوله من أهل فدك لا يشمل كلّ أرضها، وكلّ مالها، وكلّ ما بها من زروع وضروع؟

يحدّثنا أحد الرواة: بعثوا إلى رسول الله فصالحوه على النصف من فدك...[1].

ولم يبيّن الراوية مشمول «النصف» أهو من الأرض وحدها، أم ممّا ضمّت من ثمار وأموال... ولكنّه ناقض هذا «التنصيف» فأضاف: وكانت فدك لرسول الله خالصةً... فعمّم، ومقدّمة حديثه لا تفضي إلى التعميم!

ويحدّثنا راوية آخر:... أرسلوا لرسول الله فبايعوه علىٰ أنّ لهم رقابهم، ونصف أراضيهم ونخلهم... فلمّا أجلاهم عمر أقام لهم حظّهم من الأرض والنخل...[2].

وأذن، فلم يكن فيء الرسول منها ـ علىٰ هذا القول ـ إلّا النصف من الأرض والثمار.

---

١. سيرة ابن هشام ٣: ٣٥٢. شرح نهج البلاغة ١٦: ٢١٠ عن ابن إسحاق.

٢. شرح نهج البلاغة ١٦: ٢١٠ و٢١١ عن مالك بن أنس وغيره.

ويحدّثنا ثالث:... صالحهم رسول الله على النصف، حتّىٰ أجلاهم عمر بعد أن عوّضهم عن النصف... وترك صاحب الرواية كلمة «النصف» بلا توصيف، فلم يضع النقط فوق الحروف، كأنّما شاء أن يدع قارئه يختار بين نصف الأرض، أو نصف المال، أو نصف الثمر، أو نصف الجميع!

ثم يزيد حديثه تعميةً، فيقول:... فلم يزل الأمر كذلك حتّىٰ أجلاهم عمر بعد أن عوّضهم عن النصف الذي لهم... من مالٍ أتاه من العراق...[١].

فإذا اتّجهنا الوجهة الأخرىٰ، وجدنا من يجعلنا نقطع بأنّ فدكاً: أرضاً وزروعاً وضروعاً، كانت كلّها فيئاً لرسول الله، صالح أصحابها عليه.

هذه حقيقة لا شُبهة فيها، يكفينا بياناً علىٰ صدقها: إقرار رئيسها بها، بما لا يفسح مجالاً لجدال.

جاء في الأخبار: لمّا بلغ أهل فدك ما أصاب خيبر، بعث رئيس الفدكيّين يوشع ابن نون إلى النبي بالصلح: أن يعطيه فدكاً، ويؤمنه ويؤمن قومه... علىٰ أن يعمل في نخيلها بأن يكون له نصف الثمر...[٢].

وجاء أيضاً:... وبقيت بقيّةٌ من أهل خيبر، تحصّنوا... فسألوا رسول الله أن يحقن دماءهم، ويسيّرهم، ففعل، وسمع ذلك أهل فدك، فنزلوا علىٰ مثل ذلك، فكانت فدك للنبي خاصّةً...[٣].

ولم يبعد عنّا أنّ صلح خيبر قام علىٰ ثلاثة أُسس: أن يُخلّي أهلُها أموالهم للنبي، وأن يحقن عليهم دماءهم، وأن يُسيّرهم.

فإذا نزل أصحاب فدك علىٰ مثل ذلك، ففدك كلّها إذاً لرسول الله.

ثم دع عنك هذا كلّه إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ

---

١. رواه مالك بن أنس عن عبدالله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم. انظر شرح نهج البلاغة ١٦: ٢١٠.
٢. ذكره ابن أبي الحديد في الشرح ١٦: ٢١٠ بسنده عن الزهري.
٣. البداية والنهاية ٥: ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾[١].

والقطعي الثابت أنّ المسلمين لم يوجفوا علىٰ «فدك»، لا علىٰ بعضٍ منها، ولا على النصف، ولا عليها كاملة.

فكلّها إذاً بحكم الله فيء خالص لرسول الله... وكلّها لفاطمة نحلةً من أبيها؛ وفاقاً لمنطق لسانها الذي لا يمين، فضلاً عن شهادة شهودها المأمونين.

فلماذا إذاً التنصيف؟

* * *

لماذا هذا «التبضيع»؟

الرأي أنّ اختلاط الروايات أدّىٰ إلى اختلاف التحديد، وأنّ نِصْفيه الثمار مقابل العمل ربّما اشتبه بها الأمر علىٰ نفرٍ من الإخباريّين، فظنّوا النِصْفية تنطبق أيضاً على الأرض انطباقها على الزروع.

ثم أفسح هذا الخلاف السبيل إلى بروز نقاط جديدة، لعبت دوراً كبيراً في توسيع رقعة الجدل سنين طويلة بين هذا الفريق وذاك من المختصمين.

فماذا يعني ـ علىٰ سبيل التمثيل ـ تعويض عمر أهل فدك عن نصف «الأرض» إلّا أن يكونوا شركاء في الملكية؟

ومن أيّ مالٍ عساه عوّضهم سوىٰ مال المسلمين؟

ألم يقل راوية: إنّه عوّضهم من مالٍ أتاه من العراق؟ أَوَ ليس هذا يفيد أنّ فدكاً لم تكن «خالصةً!» لرسول الله، وأنّها ملك للدولة أو على الأقلّ ملك مشترك بينها وبين الرسول؟

ثم... ألا يجرّ هذا إلى التساؤل عمّا إذا كان نصيب النبي فيها قد آل إليه بشخصه أم بصفته؟ هل هو له إذ هو محمد، أم إذ هو رسول الله؟

---

١. الحشر: ٦.

هنا يجيء الجواب سؤالاً بسؤال، فيقال: وهل هما اثنان؟

الأمر هنا أشبه بأن يقال: نصف الإناء فارغ! ثم يقال: نصف الإناء ملآن!

عبارتان مختلفتان... صحيحتان؛ لأنّ الإناء واحد، ولأنّ حجم الامتلاء فيه مساوٍ لنفس حجم الفراغ! إنّما التباين من وضع إلى آخر، فإنّه في اختلاف الميل بين زاويتي الرؤية.

فليس محمد إلّا الرسول الذي شاء ربّك أن يكون ـ والرسالة القدسية وديعة في يمينه ـ من بني الإنسان، وليس الرسول غير الإنسان الذي شاء ربّك أن يكون ـ وهو في إطاره البشري ـ محمداً خاتم المرسلين.

وكما أنّه محال انسلاخه من بشريته ـ بطوعه أو بقهرٍ من قوةٍ مخلوقةٍ جبريةٍ ـ فمحال أيضاً انسلاخه من رسالته الربّانية.

فالرسالة ليست ثوباً ينضوه بنفسه عن نفسه، أو ينضوه عنه سواه، ذلك لأنّها تكليف من الله، وما هو من الله مشيئة جرت عليه بقضاء الله فلا خيار له فيه، ومشيئته سبحانه لا تحدّها من حساب أعمار الخلائق حدود.

إنّها قديمة قدم الأزل، موغلة في الغد إلى أبد الأبد.

دلالة هذا أنّ الذين سبقوه بالحقب والأدهر[١]، من الرسل والأنبياء، قد بشّروا به قبل أن يظهر في الناس، وما بشّروا إلّا وقد أماط[٢] لهم ربّ العالمين أستار غيبه الخبيء المكنون، فرأوا خاتمهم، إن لم يكن بلحظ العين فبحسّ الوجدان، وشفيف الروح، أو بالوحي الأقدس الذي يتنزّل في الروع.

يقول تعالى على لسان السيد المسيح: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللهِ إِلَيْكُم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[٣].

---

١. الأدهر والدهور: جمع دهر، وهو الزمان.

٢. أماط: أزاح، كشف.

٣. الصف: ٦.

ويقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّـذِي يَـجِدُونَهُ مَكْـتُوباً عِندَهُمْ فِي ٱلتَّورَاةِ وَٱلْإِنْجِيلِ﴾[1].

وباسمه عليه الصلاة والسلام طالما لهجت ألسنةٌ، واستنارت قلوبٌ، على امتداد التاريخ.

* * *

ودع هنك هذا كلّه، وتعال إلى كلمة سواء.

ألم يقل مالك الملكوت: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾؟[2].

ألم يقل الرسول: «أنا أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم»؟[3].

بلىٰ... قد قال... وقال.

فهل في هذا وذاك إلّا ما يفيد أنّ محمداً له الولاية الكاملة علىٰ جميع الذين اتّبعوه؟

لا خلاف! إنّ حكمه عليهم لزام، أنفذ من حكمهم لأنفسهم، وعلىٰ أنفسهم، ثم أنفذ من حكم بعضهم علىٰ بعض.

فما من مناص لهم من خضوعهم له عليه الصلاة والسلام، لأنّ طاعتهم إيّاه حتم واجب، إذ هي كاشفة عن طاعتهم لله، مقترنة بها بلا انفصام... بل هو أولىٰ بهم في كلّ ما يتعلّق بأمور دينهم ودنياهم، بشؤونهم المعنوية والمادّية على السواء؛ لمكان الإطلاق في الآية الكريمة[4].

فكيف لا تكون له الولاية علىٰ ماله؟

---

١. الأعراف: ١٥٧.

٢. الأحزاب: ٦.

٣. أخرجه البخاري ٢: ٨٠٥ ب٥ من أبواب الكفالة ح٢١٧٦، ومسلم ٣: ١٢٣٧ ب٤ من ترك مالاً فلورثته من كتاب الفرائض ح١٦١٩.

٤. تفسير الميزان، للطباطبائي. (المؤلّف).

كيف لا يكون له القضاء فيه لابنته أنّىٰ شاء؟

كيف يخالفونه فيما وليه وقضىٰ به؟

إنّما عليهم السمع والطاعة، والأداء والوفاء، ولا سبيل لهم إلى الميل عنه، والنأي[1] منه، استجابةً لرغبات الأنفس، وزيغاً[2] مع الأهواء.

* * *

قضى الرسول إذاً في فدك حسبما ألهمه الله.

فما أفاءه الله عليه من مال أهلها، فإنّه له خاصّةً، يفعل فيه ما يشاء، بغير مراجعةٍ من أحد ولا تعقيب.

وإذا كان فريق من الناس قد اجتهدوا الرأي، فإذا فدك في نظرهم أولىٰ بأن تكون من المال العام، فذاك في أغلب الظنّ نتيجة لاختلاف الروايات اختلافاً فتح الباب واسعاً للتأويل... ثم للجدال... ثم للانتقال بها إلى حيث قد ماثلوا بينها وبين الغنائم والأنفال.

ومع ذلك فالأنفال هي ـ أصلاً ـ لله ولرسول الله، يقول تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنْفَالِ قُلِ ٱلْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[3].

وهي نوعان: نوع يمثّله كلّ ما أُخذ من دار الحرب بغير قتال، ويمثّله أيضاً كلّ أرضٍ انجلىٰ عنها أهلها بغير قتال، وكلّ موقعٍ لم يوجف عليه بخيلٍ ولا ركاب... تماماً كالفيء، وهي بمنزلته.

والنوع الآخر هو «غنائم الحرب»، وهي أصلاً لله ورسوله.

وقد اختلف في شأنها: أهي غنائم غزوة بدر أم غنائم الحرب عامةً بغير تخصيص.

وتعدّدت في أسباب ما نزل فيها من القرآن الروايات.

---

١. النّأي: البُعد.

٢. زاغ عن الطريق: إذا مال عنه، ومنه يقال: زاغت الشمس.

٣. الأنفال: ١.

يروي عبادة بن الصامت: خرجنا مع رسول الله، فشهدت بدراً، فالتقى الناس، فهزم الله العدوّ، فانطلقت طائفة من المؤمنين في آثار العدوّ يشيعون فيهم القتلة، وأكبّت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله لا يصيب العدوّ منه غرّةً... حتّىٰ إذا كان الليل، وفاء المسلمون بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها، فليس لأحدٍ غيرنا فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدوّ: لستم بأحقّ منّا، نحن الذين نفينا العدوّ عنها وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله: لستم بأحقّ منّا، نحن الذين أحدقنا برسول الله، وخفنا أن يصيب العدوّ منه غرّةً، واشتغلنا به... فنزلت: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنْفَالِ﴾.

وسُئل عبادة: وفي أيّ القوم كان النزول؟

فكان جوابه: فينا ـ نحن أصحاب بدر ـ نزلت، حين اختلفنا في النَّفْل، فساءت فيه أحلامنا![1].

قيل: لمّا نصر الله أهل بدر، وأعطاهم أكتاف أعدائه، حسبوا أنّهم يملكون الغنيمة، وتخاصموا فيها فلدّوا في الخصام، تساءلوا: لمن هي؟ ألطائفةٍ، أم لهم أجمعين؟ وماذا يملك الذي يملك؟ وكيف يملك؟ وهل تُقسّم بينهم بالسوّية، أم علىٰ تفاوت بحسب دور كلٍّ وبلائه؟ فأنزل الله: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنْفَالِ قُلِ ٱلْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

فكفّوا أيديهم، وصارت الغنيمة لله ورسوله، يقسّمانها كيف شاءا، أو ينفلان منها ما شاءا، أو يرضخان[3] منها ما شاءا[4].

---

١. راجع التفاسير، عند تفسير الآية: ١ من سورة الأنفال المباركة. ويروي الأثر ابن كثير الدمشقي عن الامام أحمد. راجع تفسيره ٥: ٢: ٤٤٩، وانظر مسند أحمد ٥: ٣٢٢.

٢. الأنفال: ١.

٣. رضخ له: أعطاه قليلاً.

٤. مجمع البيان، للطبرسي. (المؤلّف).

فلمّا علم البدريّون ألّا حقّ لهم في شيءٍ من الغنائم، أقبلوا على النبي يقولون نادمين: يا رسول الله، سمعاً وطاعةً! فاصنع ما شئت.

فتقبّل منهم، وبيّن الله لهم نهجه في الغنائم: ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾[1].

فصدع محمد بأمر ربّه... فخمّس الغنيمة أخماساً، وسهّم الأخماس سهماناً، ثم جعل للمجاهدين النصيب الأوفىٰ، فخصّهم بأربعة أخماس، يأكلونها و«يملكونها[2]»، وقسّمها عليهم بالسويّة، لا إيثار لأحدٍ علىٰ آخر، لا تفرقه بين مقاتلٍ وقاعد، لا تمييز لفارسٍ عن راجلٍ... وجعل الخمس الباقي سهماً سهماً لله ورسوله ولمن ذكرت الآية.

قيل: ولم يكن الخُمس مشروعاً يوم بدر[3]، وإنّما شُرّع يوم أُحد.

* * *

ولقد سُئل ابن عباس عن «ذي القربىٰ» الذين ذكر الله... فأجاب: إنّا كنّا نرى أنّا هم، فأبىٰ ذلك علينا قومنا.

فاستفسروه عن سهمهم في الخمس: لمن تراه؟

فقال: هو لقربىٰ رسول الله، قسّمه لهم رسول الله[4].

والأخبار متواترة عن أئمة أهل البيت في اختصاص الخمس بالله ورسوله،

---

١. الأنفال: ٤١.

٢. تفسير الميزان، للطباطبائي. (المؤلّف).

٣. مجمع البيان. (المؤلف).

٤. رواه ابن كثير في تفسيره ٣: ٤٩١ ضمن تفسير الآية: ٤١ من سورة الأنفال، ثم قال: وهذا الحديث صحيح، رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي. وانظر تفسير العياشي السمرقندي ٢: ٦١ ح٥٢، ومجمع البيان ٤: ٥١١.

والإمام من أهل بيته، ويتامىٰ قرابته، ومساكينهم، وأبناء سبيلهم، لا يتعدّاهم إلى غيرهم.

وهو فيما يرون لا يختصّ بغنائم الحرب، بل يعمّ كلّ ما يُسمّى غنيمة بالمفهوم اللغوي، من أرباح المكاسب والكنوز والغوص والمعادن والملاحة، وذلك موهبة من الله لآل البيت بما حرّم عليهم من الصدقات، إلّا أن تكون صدقة بعضهم لبعض.

أُثر عن الإمام علي قوله: «إنّ الله حرّم الصدقة علىٰ رسوله، فعوّضه سهماً من الخمس، عوضاً ممّا حرّم عليه... وحرّمها علىٰ آل البيت خاصّةً دون أُمته، فضرب لهم رسول الله سهماً، عوضاً ممّا حرّم عليهم»[1].

فلقد علمنا أنّه عليه الصلاة والسلام كان يأكل الهدية، ولكنّه لم يكن يأكل الصدقة.

وذكروا أيضاً: أنّ الخمس كان يجب في المتاع والضياع، وعلىٰ كلٍّ من التاجر والصانع بعد مؤونته.

بل يقول أبو الحسن: «هو في كلّ ما أفاد الناس من قليل أو كثير».

قيل: ما كان من الغنائم قسمة لله فهو للرسول، وما كان للرسول فهو للإمام من آل البيت، وكان الرسول يعطي منه علىٰ ما يرى هو، وكذلك كان يفعل الإمام[2].

وقيل: ويقرب من المسلّم فيه ـ وبخلاف ما عليه الروايات من طرق أئمة أهل بيت النبي ـ ما قد جاء بأنّ الخمس إنّما يختصّ بغنائم الحرب ولا يتعدّاها إلى ما يصدق عليه ـ لغةً ـ اسم الغنيمة.

كما أنّ سهم الله وسهم رسوله لأُولي الأمر بعد رسول الله[3].

* * *

---

١. مجمع البيان ٤: ٨٣٧ ضمن تفسير الآية: ٤١ من سورة الأنفال.

٢. مجمع البيان ٤: ٥٠٩.

٣. انظر تفسير القرطبي ٨: ١١ ضمن تفسير الآية: ٤١ من سورة الأنفال.

ويتزاحم الكلام حول فدك الفيء، حتّىٰ ليحار المرء فيما خلص منها: أهو نصف الثمر، أم نصف الأرض، أم نصفهما جميعاً، أم كلّ ما تشمل رقعتها من أرض وزروع وأموال؟

وكذلك الحال بالنسبة لتفسير الإنفال، فتكثر فيها الأقوال كثرةً تتباين معها معانيها، وتتغاير الآراء تغايراً يؤدّي إلى البلبال.

وما ظنّك بكلمةٍ يجمع مفهومها الغثّ إلى الثمين، ونعني: الخسيس والقيّم في نفس الآن؟

فهي سلب الرجل: درعه وسيفه، أوالزوائد عن أُصول الأشياء، أو ما سقط من المتاع بعد قسمة الغنائم، أو ما شذّ عن المشركين إلى المسلمين من عبدٍ أو جاريةٍ، وهي ميراث من لا وارث له، أو القرىٰ والديار التي تركها أهلها بالجلاء، أو الآجام ورؤوس الجبال، أو بطون الوديان، أو قطائع الملوك.

وكثرت ـ من هذين الوجهين: الضئيل والجليل ـ التفاسير، وتشعّبت الطرق أمام الاستقراء والاجتهاد، واحتدم الصراع الحجّي بين فريقي النزاع، وكلٌّ يحاول أن يتعلّق بدليلٍ يجعل له الغلبة على الآخرين: الفريق الذي يسيطر ولا يملك... والفريق الذي يملك ولا يسيطر، حيث هذه نتيجة طبيعية لتزاحم التفريعات.

فإذا «فدك» غارقة في نقاشٍ لا آخر له، ينتقل بها من ضيق الحصر الموضوعي إلى بسطة الانفساح الجدلي، حولها انعقدت اليقينيات بالظنّيات، واقترنت التآويل بالتهاويل، فيها أكثر المناطقة أُولوا الحجج البادهة والألسن الأزاعيل[1]، علىٰ ساحتها اجتمع حسم التقرير بذبذبة الترجيح.

والخلاف الذي هي محوره انقلب كفاحاً لتسويد مبدأ، لا تهافتاً على امتلاك مال، تحوّلت من مشكلةٍ خاصّة إلى قضيةٍ عامة.

لم تعد مجرّد «شيء» تخومه مرامي البصر، بل غدت «معنىً» يلمّ بأبعاده ومض البصيرة.

---

١. الأزاعيل: النشطة التي لا تفتر أبداً.

فلقد خرجت من التحديد إلى التجريد، وخلعت المادّية لتكتنى الرمزية.

ما هي بقطعة أرضٍ أو تركةٍ... بل فكرة.

ما هي بإرثٍ بل تراث... والإرث حصيلة ملكية فردية، تؤول إلى فردٍ أو أفراد، أمّا التراث فهو مجموعة الآراء والعادات الحضارية المنتقلة جيلاً عن جيل.

الآن تمثّل فدك «الإمرة»... تجسّم الشكل المعنوي للخلافة، وأُلحق فيها لمن ينبغي أن يكون، لكأنّها ترمز إلى «الوصية».

وعندما استطار الجدل، وامتدّت بفاطمة الأيام بعض امتداد، والقوم لا يزالون ينكرون عليها نحلة الرسول، بدا من أحاديثها كأنّما نكرانهم ليس في أصله شُحّاً بأرض، بقدر ما هو إهدار لحقّ زوجها في «ولاية الأمر».

نسمعها تتناول ما حُرِمَتْه من فيء أبيها، فلا نكاد حتّىٰ نجدها تعوج بموقف القوم يوم السقيفة إذ غمطوا علياً حقّه في الخلافة، فحبسوا بيعتهم عنه وهم أعلم بمقامه، وأولىٰ بالانتصاف له لولا أُمور في نفوسهم مالت بهم عن جادّة الطريق.

تخطب الناس مرّةً، فتذكّرهم أن هداهم الله بأبيها رسول الله إلى الدين القيّم، فطهّرهم بالإيمان من الشرك، ونزّههم بالصلاة من الكبر، ثم لا تزال تعدّد آلاءه عليهم سبحانه، حتّىٰ تبلغ الذي أغفلوه فتلفتهم إليه.

تقول:

«... وجعل طاعتنا نظاماً... وإمامتنا أماناً من الفرقة...».

وتحدّثهم عن سوء ما كانوا عليه عند البعثة لولا أن جاهد النبي، وجاهد عليّ... فيكون من بعض ما ورد في حديثها الجليل:

«... وكنتم علىٰ شفا حفرةٍ من النار... أذلّةً خاسئين، تخافون أن يتخطّفكم الناس... فأنقذكم الله بأبي، بعد أن مُني ببُهَم الرجال، وذُؤْبان العرب، ومَرَدَة أهل الكتاب، كلّما فغرت فاغرةٌ ن المشركين قذف «أخاه» في لهواتها، فلا ينكفئ حتّىٰ يطأ صماخها بأخمصه، ويخمد لهبها بسيفه...».

وتعرج رامزةً إلى موقفهم من علي:

«... فلمّا اختار الله لنبيّه دار أنبيائه... أطلع الشيطان رأسه هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً... فوسمتم غير إبلكم، ووردتم غير شربكم، هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والرسول لما يُقبر!...».

لكنّها في مرّةٍ أُخرىٰ لا تورّي. إنّما تميط اللثام عمّا تومئ إليه فتفصح عن «البيعة» بعد تلغيز، وعن «الإمام» بعد ترميز.

تقول:

«ويحهم! أنّىٰ زعزعوها عن رواسي الرسالة! والطيبين بأُمور الدنيا والدين!...».

وتتساءل في استنكار:

«وما الذي نقموا من أبي الحسن؟».

ثم تجيب وإن كان السامع بغير حاجة إلى جواب:

«نقموا منه ـ والله ـ نكير سيفه، وقلّة مبالاته بحتفه... وتنمّره في ذات الله... وتالله، لو مالوا عن المحجّة اللائحة لردّهم إليها، ولأوردهم منهلاً نميراً، ولأصدرهم بطاناً، ونصح لهم سرّاً وإعلاناً...».

وتلت: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

* * *

مع استشاطه النزاع، واحتدام الجدال، نحت النِحْلة نحو الرمزية، كالشأن في كلّ مطالبٍ ممنوع، ورأي مكبوت... هذه طبيعة الأُمور.

وإذا كانت فاطمة قد اتّجهت في أحاديثها هذا الاتّجاه، وهي أمام المانع والكابت، فأجر بمن تبعوها من نصير أن يتعلّقوا بالترميز.

---

١. الأعراف: ٩٦.

ثم لاغرو لو رأينا الإمام نفسه آخذاً بنهجها وإن قد طالما سمعناه يجابه ويصارح الأُلىٰ نازعوه حقّه في ولاية الأمر بالرأي السافر، والكلمة المدوّية التي تكاد تنفجر من شدّة وقعها الأصماخ.

قيل[1]: سُئل مرّةً عن «فدك» ما حدودها، فكان جوابه فيما ذكر أصحاب الخبر: حدّ منها جبل أُحد، وحدّ منها عريش مصر، وحدّ منها دومة الجندل، وحدّ منها سيف البحر... وتلك هي تخوم أرض الإسلام عند طرح السؤال.

فكأنّه يرىٰ أنّ فدكاً هي الدولة.

كأنّه يقول: «الإمرة!».

وقيل أيضاً: عرض الرشيد على الإمام الكاظم أن يأخذ فدكاً، مردودة عليه وعلى ولد فاطمة، إذ حقّهم فيها لا شُبهة فيه.

فقال الكاظم: «ما آخذها إلّا بحدودها».

ـ نعم.

ـ «لئن أعلمتك لن تقبل!».

قال الرشيد: وما حدودها؟

قال الكاظم:

«الحدّ الأول: عدن، والحدّ الثاني: سمرقند، والحدّ الثالث: أفريقية، والحدّ الرابع: سيف البحر ممّا يلي الخزر وأرمينية».

فهال الأمر الرشيد، فقال: فلم يبق لنا شيء!

قال الكاظم: «قد أعلمتك أنّي إن حددتها لم تردّها!»[2].

---

١. شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٢٢.

٢. فدك، للموسوي القزويني. (المؤلّف).

الفصل العاشر

- ما أتاكم الرسول فخذوه
- الأخماس والسهمان
- ما ترك ديناراً ولا درهماً
- منع أم امتناع

اللوحة الأُولىٰ

ما آتاكم الرسول فخذوه

المشهور أنّ نِحْلة «فدك» كانت أول ما سألت فاطمة أبا بكر أن يردّه عليها من حقّها فيما أفاء الله علىٰ رسوله من أموال المشركين.

هذا ما يقوله التسلسل الطبيعي للأحداث، وما يتّفق ومنطق الأُمور.

ذلك أنّ فدكاً ملكية خاصّة للزهراء، والمال الخاصّ أولىٰ من صاحبته بالرعاية والاهتمام، وأحقّ بالمبادرة إلى احيتازه، والحرص عليه، وبخاصّة إذا خيف عليه التردّي في هوّة ضياع، أو وهدة نزاع، أو عُدِي عليه واقعاً وفعلاً بالاستيلاء.

أمّا سؤالها الخليفة نصيبها فيما تركه أبوها ممّا تجري عليه قواعد «التوريث»، فلا عجب لو جاء تالياً لطلب النِحْلة، لأنّه لا خطر من تأخير دعواه، ولأنّه حقّ ثابت، تضمنه فرائض المواريث التي أنزل الله، فلا مأتىً إذاً للاختلاف عليه، ولا خوف أيضاً من التنازع فيه، ولأنّه إلى جوار هذا هدف مشترك بين أكثر من فرد، إن تأخّر شريك عن طلبه لنفسه، فلابدّ من تحقّق غرضه من خلال سعي رفاق طلبه الآخرين، وبدون مظنّة خلاف يمكن وقوعه بين الشركاء.

فالرأي هنا لما اشتمل عليه القرآن من الآيات المحكمات التي تعين الوارث وتحدّد المواريث، وهي قول فصل لا شبهة فيه.

* * *

المسيرة الحثيثة، وظروف السياسة، والدوافع النفسية التي كانت ترين علىٰ جوّ الحياة في المجتمع الإسلامي آنذاك، هي التي قضت بتقدّم مطلب النِحْلة علىٰ كلّ ما عداه من آراب[1].

وعلىٰ ما جاء في حديث أُم المؤمنين، وورد في قول «الصادق» مصداقه، فقد صرف أبو بكر فاطمة وأهل البيت عن جميع ما هو لهم من حقوق فيما أفاء الله على الرسول.

ووقع الحرمان في ثلاثة ألوان من المال: الفيء... السهم... الصدقة.

وفي نطاق الفيء كانت النِحْلة، وفي نطاق خيبر كان السهم، أمّا الصدقة فكانت في مال آل إلى النبي من هبة «مخيريق»، وفي جانبٍ من أرض بني النضير.

وعن الفيء نقرأ في التنزيل الحكيم قول الله: ﴿وَمَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[3].

وتشير السورة الكريمة، مستقرّ هذا النطق القدسي، إلى قصة إجلاء بني النضير.

ومحتوى آيتيها هاتين يدلّنا علىٰ أنّ الله أفاء علىٰ نبيّه ما تحصّل من أموال أُولئك اليهود.

تذكر التفاسير في معنى الآية الأُولىٰ: ... والذي أرجعه الله إلى رسوله من أموال بني النضير، قد خصّه به، وملكه وحده إيّاه... فلم تسيروا عليه فرساً ولا إبلاً بالركوب حتّىٰ يكون لكم فيه حقّ، بل مضيتم إلى حصونهم مشاةً لقربها من المدينة... وقد سلّط الله النبي علىٰ بني النضير، فله فَيْؤهم يفعل فيه ما يشاء.

وفيما ورد، بالآية التالية، تقول: «... إنّه بيان لمصارف الفيء المذكور في الآية

١. آراب وأرآب: جمع إرْب، وهو المطلب.

٢. الحشر: ٦.

٣. الحشر: ٧.

الأُولىٰ، مع تعميم الفيء ليشمل فيء أهل القرىٰ، أعمّ من بني النضير وغيرهم وهو لله وللرسول، منه ما يختصّ بالله، والمراد به صرفه وإنفاقه في سبيل الله، علىٰ ما يراه الرسول... ومنه ما يأخذه الرسول لنفسه... ثم منه لمن ذكرت الآية...»[١].

وقد أحسن المفسّر إذ قال: إنّ الله «أرجع» تلك الأموال إلى رسوله، فأيّما مالٍ هو في حقيقته ملك لله، يضعه سبحانه في يد من اقتضت إرادته الربانية، وأيّما «مالك» ـ بتعبيرنا الاصطلاحي المألوف ـ إن هو إلّا «قابض» للمال، عامل عليه، موظّف فيه.

* * *

ويفيد مفهوم ما سلف: أنّ المسلمين الذين خرجوا لإجلاء هؤلاء الأعداء، أوشكوا ألّا يلقوا في انطلاقهم عنتاً ولا مشقّةً، ولم يكابدوا في لقائهم من لأْواء القتال وويلاته ما يكون عادةً في الحروب.

وانقسم رواة الأخبار، فبعضٌ يذكر وقوع قتال، وبعضٌ يغفل.

يقول أحدهم: حاصرهم الرسول خمسة عشر يوماً حتّىٰ صالحوه علىٰ أن يحقن لهم دماءهم، وله الأموال والحلقة...[٢].

وآخر يقرّر: حاصرهم النبي حتّىٰ بلغ منهم كلّ مبلغ، فأعطوه ما أراد منهم، فصالحهم علىٰ أن يحقن لهم دماءهم، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم، وأن يسيّرهم إلى أذرعات بالشام.

ويروي ثالث:... فأخذ المسلمون السلاح، وساروا إليهم فقاتلوهم عشرين ليلة، حتّىٰ لم تبق لديهم ريبة في سوء مصيرهم إذا أصرّوا علىٰ متابعة القتال... فسألوا محمداً أن يؤمنهم... فصالحهم علىٰ أن يخرجوا... ولكلّ ثلاثةٍ منهم بعير يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب... وتركوا وراءهم للمسلمين مغانم كثيرة.

ثم يضيف: وكان ما خلّت اليهود من الأرض خير ما غنم المسلمون، غير أنّ هذه

---

١. تفسير الميزان، للطباطبائي. (المؤلّف).

٢. تاريخ الطبري. (المؤلف).

الأرض لم تعتبر أسلاب حرب، فلم تقسّم بين المسلمين، بل كانت لرسول الله خاصّةً يضعها حيث يشاء، وقد قسّمها على المهاجرين دون الأنصار، بعد أن استبقىٰ قسماً خصّصت غلّته للفقراء والمساكين[1].

ويقول غيره[2]: قسّم النبي فيء بني النضير بين المهاجرين... ولم يعط الأنصار شيئاً منه، إلّا اثنين من فقرائهم، وقيل: إلّا ثلاثة:

أبا دُجانة سماك بن خرشة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمّة... صرف فيهم لا بأنّهم سهماء في الفيء، بل بما أنّه صرف في سبيل الله.

* * *

لم تحسب إذاً أرض بني النضير، وما فيها من زروع ومتاع في الأسلاب، ولم تُقسم على المسلمين ما تُقسم الغنائم: أخماساً أخماساً، وسهماناً سهماناً، إنّما غدت من خالص ملك رسول الله، يتصرّف فيها كيف يشاء، علىٰ سنن ما حكم به ربّه في أمثالها من الأفياء.

يقول ابن عباس: نزل قوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ نزل في أموال أهل القرىٰ، وهم: قريظة وبنو النضير وهما بالمدينة، وفدك وهي من المدينة على ثلاثة أميال، وخيبر، وقرىٰ عرينة وينبع، جعلها الله لرسوله يحكم فيها ما أراد، وأخبر أنّها كلّها له...[3].

ويكاد هذا الحديث يؤرّخ للمقاسم كيف تكون في أموال الأعداء.

ففي خلال نحو ثلاثة أعوام، فيما بين أول ربيعي السنة الرابعة، وأولهما من السابعة، تمّ القضاء علىٰ سلطان اليهود القضاء المبرم، فلم يعد لهم شأن في حساب السياسة والاقتصاد والاجتماع في الدولة الجديدة.

* * *

---

١. حياة محمد، للدكتور هيكل. (المؤلّف).

٢. تفسير الميزان للعلّامة الطباطبائي. (المؤلّف).

٣. انظر تفسير القرطبي ١٨: ١٢ ضمن تفسير الآية: ٧ من سورة الحشر، ومجمع البيان ٩: ٤٨٢.

أمّا بنو النضير، فقد كان منهم وعليهم، ما أنبأتنا به الأحداث، وانتهىٰ بهم في العام الرابع إلى إلقاء السلاح، والاستسلام لجند الإسلام.

وأمّا بنو قريظة فقد استُؤصلوا استئصالاً في السنة التالية، في إثـر «الخـندق»، وكان غزوهم امتداداً لوقعة «الأحزاب».

حاصرهم النبي خمساً وعشرين ليلةً حتّىٰ جهدهم الحصار، فلمّا أيقنوا أنّ الرسول غير منصرفٍ عنهم حتّىٰ يناجزهم، قال لهم أحدهم، كعب بن أسد: يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنّي عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيّها شئتم.

قالوا: وما هنّ؟

قال: نتابع هذا الرجل ونصدّقه، فوالله لقد تبيّن لكم أنّه لنبي مرسل، وأنّه للذي كنتم تجدونه في كتابكم، فإن فعلتم أمنتم علىٰ دمائكم وأموالكم وأبنائك ونسائكم.

قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره.

قال كعب: فإذا أبيتم هذه عليّ، فهلمّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين بالسيوف، ولم نترك وراءنا ثقلاً يهمّنا، فإن نهلك نهلك، وإن نظهر فلعمري لنجدنّ النساء والأبناء.

قالوا: نقتل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم؟

قال: فإذا أبيتم، فإنّ الليلة ليلة السبت، وعسىٰ أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها، فانزلوا لعلّنا نصيب منهم غرّة.

قالوا: نفسد سبتنا، ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه مـن كـان قـبلنا إلّا مـن علمت، فأصابه من المسخ ما لم يَخْفَ عليك؟

فلمّا ضاقت عليهم السبل، ارتضوا بحليفهم سعد بن معاذ سيد الأوس أن يحكم فيهم، فحكم: أن يُقتل الرجال، وتُقسم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء.

فقسّم الرسول أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين، وأعلم في ذلك اليوم سُهمان الخيل، وسُهمان الرجال، وأخرج منها الخمس، فكـان للـفارس ثلاثة أسهم: سهم له، وسهمان لفرسه... وكان للراجل سهم. وكان ذلك أول فيءٍ وقع

فيه التسهيم، وعلىٰ هذه السنّة سارت المقاسم[١].

* * *

وأمّا خيبر، فكان غزوهم في السابعة، قاتلهم رسول الله أعنف قتال حتّىٰ لم يبق في أيديهم من حصونهم إلّا ثلاثة: «الشقّ» و«نطاة» و«الكتيبة»، فسارعوا يصالحون الرسول، فجعل «الشقّ» و«نطاة» في سُهمان المسلمين، وجعل «الكتيبة» خمس الله ورسوله وذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل.

ورضخ من خيبر لنسوةٍ من نساء المسلمين شهدنها معه، ولم يضرب لهنّ فيها بسهمٍ. وقسّمها علىٰ أهل الحديبية، من حضر منهم الوقعة ومن غاب، وكان فيهم أبو بكر بطبيعة الحال، وكان فيهم عمر أيضاً، فكلاهما قاتل عليها، وكلاهما شهد الحديبية قبل ذلك بقليل.

قيل[٢]: وقد كان رسول الله يعطي أزواجه ن خيبر مائة وسق: من التمر ثمانين، ومن الشعير عشرين، ثم قسّمها عمر، فخيَّر أزواج النبي أن يقطع لهنّ من الماء والأرض، أو يمضي لهنّ على ما كان، فمنهنّ من اختارت الأرض، ومنهنّ من اختارت الوسق... وكانت عائشة في أُولىٰ الطائفتين.

* * *

وأمّا فدك، فأعقبت خيبر بوقتٍ قصير.

وبلغ قومها خبرُ ما حاق بخيبر، فزُلزلوا زلزالاً شديداً أن يصيبهم ما هو شرّ ممّا أصاب إخوانهم هؤلاء، فلمّا أن جاءهم من لدن محمد رسول ينذرهم: أن أسلموا برسالة الله أو سلّموا أموالكم أو يستحر فيكم القتل، قذف الله في قلوبهم الرعب فجنحوا إلى السلم، ونزلوا للنبي علىٰ مثل ما نزل له أهل خيبر: أرضهم له، ورقابهم لهم، وعليهم الجلاء، ومنذئذٍ أصبحت «فدك» فيئاً خالصاً لرسول الله إذ حازها

---

١. تاريخ الطبري. (المؤلّف).

٢. صحيح البخاري. (المؤلّف).

صلحاً، لم يُهرق فيها دم، ولم يوجف عليها المسلمون بخيلٍ ولا ركاب، ولم يعلم أن قد وقع فيها تقسيم، بل كانت للنبي خالصةً خاصّةً، ولمن اختصّ بالشيء حقّ مطلق في التصرّف فيه واستناداً إلى هذه الخصوصية نحلها النبي ابنته الزهراء.

* * *

وكفعل أصحاب خيبر فعل أهل وادي القرىٰ.

بدء الأمر تأهّبوا بالسلاح والرجال، إذ أدركوا أنّ محمداً لابدّ معرّج عليهم برجاله، الذين أظفرهم الله بالخيبريّين إذ هو عائد من ديارهم إلى المدينة.

ونزل الرسول أداني أرض العدوّ، والأُفق قد اصطبغ بدم الشفق، والشمس قد جنحت إلى الغروب، فلمّا أن كان آخر الليل، قال الرسول: «من رجل يحفظ علينا الفجر لعلّنا ننام؟».

قال بلال: أنا يا رسول الله.

ولاشكّ في أنّ فَيْأَهم إلى النوم، كان يعبّر عمّا يحسّون من طمأنينة، لكن عينه غلبته، وصحبه كلّهم رقود، فلم يوقظه إلّا مسّ الشمس وقد أشرق النهار.

وهبّ الرسول: «ماذا صنعت بنا يا بلال؟».

ـ يا رسول الله، أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك.

ـ «صدقت»[1].

ثم التقى الجمعان، فما أن صلصلت سيوف، وتعانقت رماح، حتّىٰ أيقن أعداء الله أنّ حياتهم في الإذعان.

وعلى أثرهم قَبِلَ أهل تيماء الجزية من غير قتال، وبذلك دانت اليهود كلّها للنبي، وأصبح محمد والذين معه بمأمن من ناحية الشمال إلى الشام، كما كانوا بمأمن بعد الحديبية من ناحية الجنوب.

ومع ما فرط منهم من الإساءات في حقّ الرسول سنين عدداً، فقد أحسن فيهم

---

١. أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية ٤: ٢١٣ مسنداً عن أبي هريرة.

السيرة: صالح بعضهم على الجزية، وأعفىٰ منها آخرين، وأمر ألّا يُفتنوا عن يهوديّتهم ما رأوا أن يظلّوا عليها مقيمين.

* * *

أمّا صدقة المدينة التي ورد ذكرها في حديث أُم المؤمنين لابن أُختها أسماء، فقد كان بعضها ذلك القسم من أرض بني النضير الذي خصّص الرسول غلّته للفقراء والمساكين، وكان بعضها في حوائط «مخيريق» التي وهبها لرسول الله، ومخيريق هذا كان من ثراة بني النضير، وكان ذا علمٍ ونظرٍ في الدين.

فلمّا أزفت آزفة «أُحد» قال الرجل لقومه: ألا تنصرون محمداً؟

فتعلّلوا تعلّةً ظنّوا أنّها معفيتهم من الأخذ برأي صاحبهم، فقالوا له: اليوم السبت!

لكأنّما يدعوهم إلى رحلة صيدٍ ليبلوهم أيكفون أيديهم أم يصيدون؟

كأنّهم يخشون إن لم يسبتوا أن يمسخهم الله قردةً وخنازير كأهل تلك القرية ﴿ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾[1].

وكأنّهم بهذه العلّة يعفون أنفسهم من نصرة ﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنْجِيلِ﴾[2].

لكنّها حيلة مخادع، وخدعة محتال.

ويردّ عليهم مخيريق، قاشراً عنهم ما يدّعون من إيمان: لا سبت لكم.

ثم يأخذ سيفه، فيمضي مع النبي، يقاتل بكلّ عزمات قلبه المضيء، حتّىٰ تثخنه الجراح، فلمّا حضرته الوفاة، قال: أموالي إلى محمد، يضعها حيث يشاء.

فكانت ثروته تلك عامة صدقات رسول الله[3].

---

١. الأعراف: ١٦٣.

٢. الأعراف: ١٥٧.

٣. البداية والنهاية ٤: ٣٨ عن ابن إسحاق، الإصابة ٣: ٣٩٣ رقم (٧٨٥٠)، المغازي ١: ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

قيل: وأوقف الرسول بساتين مخيريق على خصوص فاطمة، وكان يأخذ منها لحوائجه وأضيافه.

ثم ورد أنّ الزهراء قد أوصت من بعدُ بهذه الحوائط السبع، وبكلّ ما كان لها من مال إلى زوجها: علي أبي الائمة الأعلام.

وماذا لو أوصت؟

فلقد أنزل الله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[1].

ولم تحدّد الآية أين البدء وأين الانتهاء.

* * *

من هنا تشعّبت الآراء شتّىً في الوصية عامةً لمن تكون، وما المقدار، وهل تجب أو تجوز أم لا وجوب فيها ولا جواز.

قيل: هي في المال من ألف درهم إلى خمسمائة[2]، وقال ابن عباس: إلى ثمانمائة درهم[3] وروي عن الإمام علي بن أبي طالب: أنّه دخل علىٰ مولىً له يعوده في مرضه، وكان لديه سبعمائة درهم يخشىٰ أن يفوته وضعها حيث يرضى الله.

فسأله مولاه: ألا أُوصي؟

قال الإمام: «لا، إنّ الله سبحانه قال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْراً ...﴾ وليس لك كثير مال»[4].

وجاء من وجه آخر: أنّها في الثُلث، ذكروا: أنّ سعد بن أبي وقّاص قال لرسول

---

١. البقرة: ١٨٠.

٢. وهو قول قتادة. راجع مصنّف ابن أبي شيبة ٧: ٣٠٩ ب٤٨ من أبواب الوصايا ح٢. وفي تفسير القرطبي ٢: ٢٥٩ ضمن تفسير الآية: ١٨٠ من البقرة: عن الشعبي، وفي مجمع البيان ٢: ٤٨٣ نسبه إلى إبراهيم النخعي.

٣. انظر سنن البيهقي ٦: ٢٧٠ بسنده عن طاوس عن ابن عباس. وفي تفسير القرطبي ٢: ٢٥٩: روي ذلك عن علي وعائشة وابن عباس.

٤. رواه عبدالرزاق في المصنّف ٩: ٦٢ ح١٦٣٥١ و١٦٣٥٢، والبيهقي في السنن الكبرىٰ ٦: ٢٧٠ من كتاب الوصايا.

الله: أريد أن أُوصي، وإنّما لي ابنة، قلت: أُوصي بالنصف؟

فردّ الرسول: «النصف كثير».

ـ فالثُلث؟

ـ «الثُلث، والثُلث كثير».

فأوصى الناس بالثُلث، وجاز لهم ذلك[1].

ويعلّق ابن عباس: لو غضّ الناس إلى الربع! لأنّ رسول الله قال: «الثُلث، والثُلث كثير»[2].

وتحدّث الإمام جعفر الصادق عن الوصية، فقال: «حقّ جعله الله في أموال الناس لصاحب هذا الأمر...».

فسألوه عن المقدار: لذلك حدود؟

ـ «نعم».

ـ كم؟

قال: «أدناه السدس، وأكثره الثُلث».

ثم تفرّق القول في فرضية الوصية، ذكر فيها وجوب الأداء، وذكر الجواز، وذكر أنّها من المندوب إليه، المرغَّب فيها[3]... بل ذهب الظنّ ببعضهم بعيداً، فزعموا أنّها منسوخة[4].

---

١. أخرجه في الموطّأ ٢: ٧٦٣ ب٣ من أبواب الوصية ح٤، ومسلم ٣: ١٢٥٠ ب١ من أبواب الوصية ح١٦٢٨ عن عامر بن سعد عن أبيه.

٢. رواه البيهقي في السنن ٦: ٢٦٩ من كتاب الوصايا عن هشام بن عروة عن أبيه.

٣. ذهب ابن عمر وابن عباس وابن زيد إلى انّ الآية كلّها منسوخة، وبقيت الوصية ندباً، وهو قول مالك. راجع تفسير القرطبي ٢: ٢٦٣.

٤. فقد قال ابن عباس والحسن وقتادة: إنّ الآية عامة، تقرّر الحكم بها برهة ثم نسخت منها كلّ من كان يرث بآية الفرائض، وقالوا: نُسخت الوصية للوالدين بالفرض من سورة النساء، وثبتت للأقربين الذين لا يرثون، وهو مذهب الشافعي وأكثر أصحاب مالك. وفي تفسير القرطبي ٢: ٢٦٣ ما لفظه: وفي البخاري عن ابن عباس قال: كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين، فنسخ من ذلك ما أحبّ، فجعل للذكر مثل حظّ الانثيين، وجعل للأبوين لكلّ واحد منهما السدس. راجع صحيح البخاري ٣: ١٠٠٨ ح٢٥٩٦.

ربّما استناداً إلى فرائض المواريث التي تحدّد بالنقاط والأرقام حقوق الأخلاف في أموال الأسلاف، ربّما أخذاً بحديث «لا وصية لوارث»[١] الذي يحجب عن الوَرَثة حقّ الإيصاء.

فإذا قيل: إنّما تصحّ وصية الوارث بإجازة الوَرَثة جميعاً لها، فإنّا لم نعلم أنّ وَرَثة فاطمة، وهم بنوها، عارضوا وصية أُمهم لأبيهم الإمام.

أمّا القول بالنسخ، فإنّ الإجماع ـ إلّا نفراً ـ منعقد علىٰ أنّه ليس نسخ «ذات» الوصية، بل هو نسخ «فرضية» الوصية.

ومن ثم فإنّ هذا الحديث أولىٰ بأن يعتبر تقييداً لطلاقة الوصية لا نفياً لها، فلا وصية ـ علىٰ هذا الأساس ـ لوارثٍ إلّا في ثُلث المال وإن وافق عليها الوارثون.

ومع ذلك فقد ذكروا أيضاً: أنّ الوصية في القليل والكثير ممّا يقع عليه اسم المال.

نُقل عن أبي جعفر أنّه سُئل: هل يجوز الوصية للوارث؟

فأجاب: «نعم، وتلا قوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ...﴾[٢]».

ذلك لأنّ ظاهر الآية الكريمة يفيد جواز إيصاء الموصي بكلّ ما يملك للموصىٰ له.

* * *

آراء عدة في الوصية تنبثق من ذخائر التراث، وتتبدّىٰ في ضوء العقل، وتنتشر علىٰ صفحات الاجتهاد، وقبسات حديثة وفكرية لا يعسر على المرء أن يتبيّن من خلالها أنّ حوائط «مخيريق» السبعة قد غدت لرسول الله، يفعل فيها ما يشاء.

لهي هبة ... أو عطية ... أوهدية ... أو أيّما صورة أخرىٰ من صور «الأيلولة» التي تنقل إلى رسول الله حقّ التصرّف المطلق فيها، لأنّها تقع في نطاق ملكيّته الخالصة.

وقد جعل الرسول هذه البساتين من صدقته، ثم أوقفها علىٰ خصوص الزهراء،

---

١. أخرجه الترمذي ٤: ٤٣٣، ٤٣٤ ب٥ من أبواب الوصايا: ما جاء لا وصية لوارث ح٢١٢٠ و٢١٢١ عن أبي أمامة الباهلي وعمروبن خارجة، وأحمد في المسند ٥: ٢٦٧ عن أبي أمامة.

٢. البقرة: ١٨٠.

وهل لامرئ أن يوقف ما ليس من حرّ ماله؟

وبهذا غدت فاطمة وليّة الوقف، لها أن تصرف ريعه في مصارفه، ومن حقّها أن تأكل منه بحكم هذه الولاية، وعليها أن تحفظ أصل هذا الوقف، لا يباع، ولا يورث، ولا يوهب.

ورد عن عمر بن الخطاب: أنّه لا جناح على من ولي الوقف أن يأكل منه[1].

ويقصّ علينا ابن عمر: أنّ أباه أصاب أرضاً بخيبر، فأتى النبي فقال له: يا رسول الله، إنّي أصبت أرضاً لم أصب مالاً قطّ أنفس منه، فكيف تأمرني به؟

قال الرسول: «إن شئت حبست أصلها، وتصدّقت بها».

فتصدّق عمر أنّه لا يباع أصلها، ولا يوهب، ولا يورث[2].

كالشجرة والثمرة... الأصل: الشجرة، والصدقة: الثمرة. أمّا الأصل فثابت لا يتغيّر إلّا بالإنماء، وأمّا الصدقة فيبدو أنّها كانت تنتقل من يدٍ إلى يد، لا بما أنّها فقط غلّة، بل بما أنّها أيضاً حقّ من حقوق الانتفاع.

يحدّثنا أنس: كان لأبي طلحة حديقة تستقبل مسجد المدينة، كان رسول الله يدخلها ويستظلّ فيها ويشرب من مائها، فلمّا نزلت آية: ﴿لَن تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أقبل أبو طلحة على النبي فقال: إنّها أحبّ أموالي، فهي إلى الله وإلى رسوله، أرجو برّه وذخره فضعها حيث أراك الله.

فقال الرسول: «بخ يا أبا طلحة! ذاك مال رابح، قبلناه منك، ورددناه عليك، فاجعله في الأقربين»[3].

---

١. انظر صحيح البخاري ٣: ١٠١٢ ب١٢ هل ينتفع الواقف بوقفه من كتاب الوصايا.

٢. صحيح البخاري ٢: ٩٨٢ ب١٩ الشروط في الوقف من كتاب الشروط ح٢٥٨٦، سنن الترمذي ٣: ٦٥٩ ب٣٦ في الوقف من كتاب الأحكام ح١٣٧٥ كلاهما عن ابن عمر.

٣. أخرجه البخاري ٢: ٥٣٠ ـ ٥٣١ ب٤٣ الزكاة على الأقارب من كتاب الزكاة ح١٣٩٢، ومسلم ٢: ٦٩٣ ب١٤ فضل النفقة والصدقة على الأقربين من كتاب الزكاة ح٩٩٨.

اللوحة الثانية

الأخماس والسهمان[1]

أُثر عن النبي ﷺ أنّه قال: «أُعطيت خمساً لم يُعطهنّ نبي قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيّما رجل من أُمتي أدركته الصلاة فليصلّ... وأُحلّت لي الغنائم، ولم تحلّ لأحدٍ قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصّةً، وبُعثت إلى الناس عامة»[2].

ولم يكن قوله عليه الصلاة والسلام في الغنائم منشئاً لحقّ المسلمين فيها، بل كان كاشفاً لهذا الحقّ، ناقلاً له نقل تثبيت.

فلقد غدت الغنائم حِلّاً لمن فُرضت لهم، بمقتضى النطق الإلهي القائل: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3].

والواجب في المغنم تخميسه[4].

---

١. كانت خاصة للرسول، ولم يقع فيها تسهيم. (المؤلّف).

٢. روى الحديث كثير من الصحابة كالإمام علي عليه السلام وابن عباس وأبي موسى وأبي ذر وجابر بن عبدالله وابن عمر بتفاوت يسير في بعض الالفاظ وتقديم وتأخير في العبارات. أخرجه الشيخ الطوسي في الأمالي: ٤٨٤ من المجلس (١٧) ح١٠٥٩، وأحمد ٣: ٣٠٤ و٥: ١٤٨، ومسلم ١: ٣٧٠ كتاب المساجد ح٥٢١، وقد أحصى الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ٨: ٢٥٨ وما بعده الروايات بألفاظها المتعددة.

٣. الأنفال: ٦٩.

٤. السياسة الشرعية، لابن تيمية. (المؤلّف).

ويصرف الخمس لمن ذكرت الآية: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[١].

ويقسم الباقي بين الغانمين، وهم الذين شهدوا القتال، من قاتل كمن لم يقاتل.

يقول عمر: الغنيمة لمن شهد الوقعة[٢].

ولابدّ أن تكون القسمة عادلة، فلا يميّز واحد على آخر، ولا يُحابىٰ لنسبٍ أو فضل أو رياسة.

روي: أنّ سعد بن أبي وقّاص رأىٰ لنفسه فضلاً علىٰ من دونه، فذهب إلى النبي فقال له: يا رسول الله، الرجل يكون حامية القوم يكون سهمه وسهم غيره سواء؟

فردّ الرسول: «ثكلتك أمك ابن أم سعد! وهل تُرزقون وتنصرون إلّا بضعفائكم؟»[٣].

علىٰ أنّه يجوز للإمام أن ينفل مَن ظهر منه زيادة نكاية... كسريّة تسرّت من الجيش، أو رجل صعد حصناً عالياً ففتحه، أو حمل علىٰ مقدَّم العدوّ فقتله فهزم العدوّ.

فلقد كان النبي ينفل بذلك.

وقُسم للراجل سهم... وللفارس ثلاثة: سهم له، وسهمان لفرسه، لأنّ الفرس يحتاج إلى مؤونة نفسه، ومؤونة سائسه الذي يقوم على شأنه ويرعاه[٤].

* * *

والغنيمة: ما أُخذ من أموال الحرب من الكفّار بقتال، وهي هبة من الله تعالىٰ للمسلمين.

---

١. الأنفال: ٤١.

٢. أخرجه القرطبي في تفسيره ٨: ١٦ ضمن تفسير الآية: ٤١ من الأنفال عن النبي ﷺ وقال: أخرجه البخاري.

٣. رواه أحمد ١: ١٧٣.

٤. السياسة الشرعية. لابن تيمية. (المؤلّف).

وقد اختلف العلماء في كيفية قسمة الخُمس الذي في الآية المتحدّثة عنه، فقال بعضهم: يقسم علىٰ ستّة أسهم: سهم الله، وسهم لرسوله، وهما ـ مع سهم ذي القربىٰ ـ للإمام القائم مقام الرسول، وسهم ليتامى آل محمد، وسهم لمساكينهم، وسهم لأبناء سبيلهم، لا يشركهم في ذلك غيرهم، لأنّ الله سبحانه حرّم عليهم الصدقة لكونها من أوساخ الناس، وعوّضهم من ذلك الخمس[١].

وقالوا[٢]: سهم الله للكعبة، والباقي لمن ذكرهم الله.

وقال آخرون: إنّ الخُمس يقسم علىٰ خمسة أسهم، وإن سهم الله والرسول واحد، ويصرف إلى الكراع والسلاح[٣].

وقال غيرهم: كان للنبي سهم من خمسة أسهم، يصرفه في مؤونته، وما فضل من ذلك يصرفه إلى الكُراع[٤] والسلاح والمصالح.

وقالوا[٥]: يقسم الخمس علىٰ أربعة أسهم: سهم ذي القربىٰ لقرابة النبي، والأسهم الثلاثة لمن ذكروا بعد ذلك من سائر المسلمين.

وجاء أيضاً: يُقسم على ثلاثة أسهم، لأنّ سهم الرسول قد سقط بوفاته... وسقط سهم ذي القربىٰ[٦].

وطائفة رأت: سهم الله وسهم رسوله لأُولي الأمر من بعد الرسول وراثةً، فله ثلاثة أسهم: سهمان وراثةً، وسهم مقسوم له من الله... فله نصف الخمس، أمّا النصف

---

١. مجمع البيان للطبرسي. (المؤلّف). ويذكر أن الطبرسي قال بعده: وروىٰ ذلك الطبري عن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام ومحمد بن علي الباقر عليه السلام.

٢. وهذا القول هو ـ في الحقيقة ـ قول آخر، يذهب إليه أبو العالية والربيع بأنّه يقسّم على ستّة أسهم، إلّا أنّهما قالا: سهم الله للكعبة، وليس إلى الإمام القائم مقام الرسول صلى الله عليه وآله كما يذهب إليه القول الأول.

٣. وهذا القول مروي عن ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة وعطاء. راجع مجمع البيان ٤: ٨٣٥ وتفسير القرطبي ٨: ١٠ كلاهما ضمن تفسير الآية: ٤١ من الأنفال.

٤. الكُراع: اسم لجميع الخيل.

٥. وهو مذهب الشافعي. انظر تفسير القرطبي ٨: ١٠.

٦. وهو ما يذهب إليه أبو حنيفة وأهل العراق. انظر مجمع البيان ٤: ٨٣٦ وتفسير القرطبي ٨: ١٠.

الثاني فبين أهل بيته، ليتاماهم ومساكينهم وأبناء سبيلهم، لكلٍّ سهم، تُقسهم بينهم على الكتاب والسنّة ما يستغنون به في سنتهم، فإن فضل منهم شيء فهو للوالي، وإن عجز أو نقص عن استغنائهم كان على الوالي أن ينفق من عنده ما يستغنون به، وإنّما صار عليه أن يمونهم لأنّ له ما فضل منهم[١].

* * *

ومع جلاء ظاهر آية القسمة، فقد أكثر فيها أهل التفسير الاجتهاد، فتعدّدت الآراء أو التساؤلات: أيُقسم الخُمس على ستة أسهم كمنطوق الآية؟ أم خمسة؟ أم أربعة؟ أم ثلاثة؟

وهل يُفْرَدُ لذي القربىٰ سهم، أم ـ علىٰ حسب شرح الشرّاح ـ إن أفرد لهم فهو جائز، وإن لم يفرد فهو جائز؟

ومن هم أولئك الذين يحسبون في قرابة الرسول؟

بنو هاشم خاصةً، أم بنو هاشم وبنو المطلب جميعاً: فقيرهم وغنيّهم سواء؟

وهل اليتامىٰ والمساكين وابن السبيل يتعيّن أن يكونوا من ذوي قرابة محمد، أم يحقّ أن يكونوا من سائر الناس؟

وماذا عن سهم ذي القربىٰ، أيسقط حقّهم فيه ـ كما سقط سهم النبي بوفاته ـ لأنّ أبا بكر حرمهم إيّاه، ثم لم يراجعه في ذلك مراجع من أصحاب رسول الله؟

أشتات من الآراء!

* * *

وإذا كان المُجمع عليه أنّ السهم لصاحبه خاصّةً، يمتلكه ويتصرّف فيه، فثمة ملحظ هنا جدير بالالتفات، يشير بوضوح إلى أنّ القوم كانوا يعاملون «المال الثابت».

---

١. تفسير الميزان للطباطبائي. (المؤلّف).

كالأراضي والضياع، المعاملة التي تتيح التصرّف في الغلّات دون الأُصول، سواء اتّخذت تلكم الأُصول هيئة سهمان أم هيئة صدقات.

وعلى ذلك دلالات.

فلقد رأينا أبا بكر ـ كما روي عن عائشة ابنته ـ يأبىٰ أن يعطي فاطمة صدقة أبيها بالمدينة، وفدك، وخمس خيبر، محتجّاً بما نقله عن رسول الله: «لا نورث، ما تركناه صدقة»، ثم قائلاً لها: «إنّما يأكل آل محمد من هذا المال»[1].

ومقولة الخليفة هذه تدلّ على استمرارية «الأكل» وبالتالي على استمرارية «وجود» المال، ثم على انتقاله إلى مجال «الصدقة»، والصدقة لا تكون في الأصل، وإنّما في الريع.

ومن المعلوم أنّ رسول الله، عندما آلت إليه «فدك»، كان يعمل فيها بما يراه، فيصرف «حاصلاتها» في ذوي قرابته، وما يفضل عنهم يصرفه في الجهاد.

فالأصل مصون، والريع هو مورد الإنفاق.

ورأينا علي بن أبي طالب يشتري لفاطمة قلادة من «سهم» له، فباعتها وأنفقت ثمنها في عبدٍ مسلمٍ أعتقته، وليس أبعد من المعقول أن يكون ثمن الحلية قد اقتطع من جسد السهم لم يقتطع ممّا يغلّه من ثمار.

ورأينا عمر يخرج عن أرضٍ له بخيبر ـ لعلّها من سهمه ـ فيتصدّق بها في سبيل الله، وفي الرقاب والمساكين والضيف وابن السبيل وذوي قرباه[2]، ورأيناه أيضاً في عهد ولايته يعود إلى أنصبة نساء النبي المقسومة لهنّ من خيبر قسمة تمر وشعير، فيبقي لمن شاءت منهنّ نصيبها علىٰ حاله: قسمة ثمار، ويخيّر لمن شاءت فيقسم لها قسمة أرض وماء.

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٢١٧ ـ ٢١٨.

٢. رواه الترمذي ٣: ٦٥٩ ب٣٦ في الوقف من أبواب كتاب الأحكام ح١٣٧٥، وابن الجوزي في تاريخ عمر بن الخطاب: ١٨٥ ب٦١ في ذكر صدقاته.

وكيفما كانت نوعية التقسيم، فما زادت ولا نقصت نسبة المقسوم مقارناً بالأساس.

ثم كان على الوالي ـ كما سبق البيان ـ الإنفاق من السهم علىٰ مستحقّيه ما يكفيهم سنتهم، فإن فضل منه شيء حفظ الفضلة، وإن نقص عن حاجتهم أكمل لهم ما يغنيهم مما فضل عنهم في سوالف السنين.

وعلىٰ كثرة ما تدوولت فدك بين آل فاطمة من ناحية وبين الأمويين والعباسيين من ناحيةٍ أخرىٰ، فالثابت ـ تاريخاً ـ أنّها ظلّت موضع نزاع بين الفريقين على امتداد ما يقرب من مائتي عام[1]. فلماذا بقيت كلّ هذه السنين الطوال؟

لأنّ تصرّف أولئك وهؤلاء فيها لم يكن يتناول ـ بطبيعة الحال ـ إلّا ما تخرج من غلّات، فلو أنّهم تصرّفوا في «العين»، إذن لاستهلكت واندثرت ولم يعد لأصلها وجود.

ولعلّ ممّا قد يضيف نقطةً علىٰ حرف في هذا المجال فيؤكّد الصرف من الريع مع الإبقاء على الأصل ما يمسّ، ما جاء على لسان الخليفة الأول في سهم ذي القربىٰ، إذ سألته فاطمة إيّاه، فكان جوابه: سمعت رسول الله يقول: «سهم ذوي القربى لهم في حياتي، وليس له بعد موتي»[2].

---

١. إذ أنّ الخليفة عثمان قد أقطعها مروان بن الحكم على ما قاله صاحب فتوح البلدان: ٤٤، وبعد الأحداث التي جرت زمان أمير المؤمنين علي عليه السلام ومن بعده الإمام الحسن عليه السلام، وبعد أن ولي معاوية الخلافة أقطع فدك مروان ثلثه، وعمرو بن عثمان ثلثه، ويزيد ثلثها الآخر، فلم يزالوا يتداولونها حتّى خلصت كلّها إلى مروان أيام ملكه (شرح نهج البلاغة ١٦: ٢١٦، فتوح البلدان للبلاذري: ٤٦)، ثم أقطعها إلى ابنه عبدالعزيز الذي وهبها لابنه عمر، فلمّا تولّىٰ عمر بن عبدالعزيز بن مروان ردّ فدك على ولد فاطمة عليها السلام ولما تولّى يزيد بن عبدالملك انتزعها منهم فصارت في أيدي بني مروان حتّى انقرضت دولتهم (شرح نهج البلاغة ١٦: ٢١٦، سنن البيهقي ٦: ٣٠١). فلمّا قام أبو العباس السفّاح بالأمر ردّها على عبدالله بن الحسن بن الحسين عليه السلام، ثم قبضها المنصور الدوانيقي في خلافته، وردّها المهدي بن المنصور على الفاطميّين، ثم قبضها موسى بن المهدي من أيديهم، ولم تزل في أيدي العباسيّين حتّى تولّى المأمون فردّها عليهم سنة (٢١٠ هـ)، لكن لما تولّى المتوكل انتزعها وأقطعها إلى عبدالله بن عمر البازيار وإلى الأبد.

٢. والخبر يرويه كنز العمال ٥: ٦٢٩ ح١٤١٠٨ وعزاه إلى ابن راهويه، ثم قال بعده: «وفيه الكلبي متروك».

وذلك برهان على استمرارية بقاء «عيون» السهمان مهما تداولتها الأيدي وتوالت عليها العهود.

* * *

ويوشك مدلول ما أسلفناه أن يصل بنا إلى مبدأ اقتصادي عام، عامل مستحقّات الأفراد التي أفاءها الله عليهم من الأموال الثابتة، كالأراضي والضياع، بغير ما يعني مفهوم الملكية الشخصية الآن.

فلم تعد هذه الملكية فردية خاصّةً ـ كمطلق معنى الخصوص والتفرّد ـ لصاحبها حقّ التصرّف فيها: غلّةً وأصلاً، علىٰ مشتهاه، إنّما حيل بين مُلّاك تلكم العيون أن تؤدّي تصرّفاتهم الأُحادية فيها وفق أهوائهم إلى تفتّت أصولها، ثم إلى اندثارها بعد حين.

ومن ثم وجدنا ملكيتهم الخاصّة في هذه الأموال الثابتة قد قُيّدت، وفُقدت صفة «الفردية» بمعناها الواسع، فإذا هي في هيئةٍ أُخرىٰ يمكن أن نسمّيها: ملكية «جماعية»، أو ملكية «اشتراك»، أو ملكية «انتفاع»، أو ملكية «شيوع» أو أيّما صورة لفظية أخرىٰ توافق طبيعتها، يمتنع بها التصرّف الفردي المطلق في الأُصول وإن لم يمتنع في الريوع[1].

وعلى هذا النحو أيضاً كانت حال الصدقات، عيونها تستثمر ولا تستهلك، فيكون الإنفاق من غلّاتها علىٰ ما خُصّصت، وتبقىٰ أُسسها ثابتة لا يتناولها التوزيع.

وقد اصطلح علماء مدرسة الخلفاء من محدّثين ومؤرّخين وفقهاء ولغوين وغيرهم علىٰ تسمية كلّ ما خلف رسول الله من ضياع وعقار بالصدقات؛ استناداً إلى

---

١. يبدو أنّ «تأميم» التركات والضياع له جذور في عمق التاريخ الإسلامي!! رغم أنّه لم يؤثر في تواريخ الأمم السابقة الأخرىٰ، ولو كان قاعدةً متّبعة قد جرىٰ عليها خلفاء الأنبياء السابقين بالنسبة إلى تركاتهم لاشتهر الأمر، وتواتر عنهم في ذلك عبر الأزمان المتلاحقة.

ويجدر ذكره أنّ للدكتور محمد سعيد رضا بحثاً مفصّلاً عن المصادرات في التاريخ، نشرته مجلّة كلية الآداب / جامعة البصرة، العدد (١٥) سنة ١٩٧٨م.

ما ورواه أبو بكر عن الرسول أنّه قال: «ما تركنا صدقة» ولذلك بقيت أُصوله مصونة على امتداد بضعة قرون، لم تتوزّع ولم يؤول أيّها إلى إنسان، إلّا رَحْل رسول الله، إذ دفع أبو بكر آلة الرسول ودابّته إلى علي بن أبي طالب وقال: ما سوىٰ ذلك صدقة.

والصدقة هنا ليست الزكاة، بل هي تطوّعية، أمّا الزكاة فصدقة مفروضة.

روي: أنّ رجلاً أتى النبي يسأله من الصدقة، فقال له عليه الصلاة والسلام: «إنّ الله لم يرض في الصدقة بقسم نبي ولا غيره، ولكن جزّأها ثمانية أجزاء فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك»[١].

وبيّن الله من جُزئت الصدقة فيهم: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ ٱللَّهِ﴾[٢].

فأمّا وهكذا كان التصرّف في المال الثابت فقد نجت أُصوله أن تتآكل، إذ يُنفَق ريعها وحده في الوجوه المحبوس عليها؛ كحال الأوقاف، فإن سدّت غلّتها الحاجة فذاك، وإن عجزت عوّض ولي الأمر، وإن زاد منها شيء جعل مجعل مال الله، أو فيما يسمّىٰ بالأموال السلطانية، أو المال العام.

وقد تساءل بعض المؤرّخين عن غضب فاطمة علىٰ أبي بكر ما وجهه، ثم عرض ما دلّه عليه تفكيره، فقال: إنْ كان غضبها عليه لمنعه إيّاها ما سألته من «الميراث» فقد اعتذر إليها بعذرٍ يجب قبوله، وهو ما رواه عن أبيها رسول الله أنّه قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة».

ثم يكمل فيقول وهي ممّن تنقاد لنصّ الشارع الذي خُفي على أزواج النبي حتّىٰ أخبرتهنّ به عائشة ووافقنها عليه![٣].

---

١. رواه أبو داود في سننه ٢: ١١٧ باب: من يعطي من الصدقة ح ١٦٣٠ عن زياد بن الحرث الصدائي، والبيهقي أيضاً ٤: ١٧٤ و٧: ٦.

٢. التوبة: ٦٠.

٣. السيرة النبوية لأبي الفداء. (المؤلّف).

ويعلن: وليس يظنّ بفاطمة رضي الله عنها أنّها اتّهمت الصدّيق فيما أخبرها به، كيف وقد وافقه علىٰ رواية هذا الحديث عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب... وألحق بهم جماعة آخرين من صحابة الرسول.

ولسنا أيضاً بمن يتّهم أبا بكر، وما ينبغي أن يكون موضع اتّهام فإن هو إلّا اختلاف النظرات.

ويؤكّد هذا القول، في صحّة حديث: «لا نورث» الإمام ابن تيمية فيقول: والرواية عن هؤلاء ثابتة في الصحاح والمسانيد.

ثم يأتينا بحجّةٍ يجدها تؤيّد انتفاء وراثة رسول الله، وتعلّل حكمة الانتفاء، يقول: إنّ الله تعالى صان الأنبياء أن يورثوا دنيا، لئلّا يكون ذلك شبهة لمن يقدح في نبوّتهم بأنّهم طلبوا الدنيا وورّثوها لورثتهم... ثم إنّ من وَرَثَة النبيﷺ أزواجه، ومنهم عائشة بنت أبي بكر، وقد حُرمت نصيبها بهذا الحديث النبوي... ولو جرىٰ أبو بكر مع ميله الفطري لأحبّ أن ترث ابنته[1].

أمّا أبو الفداء[2] فيقرّر: ولو تفرّد الصدّيق برواية ذلك الحديث، لوجب علىٰ جميع أهل الأرض قبول روايته، والانقياد له في ذلك.

ويستمرّ المؤرّخ في مناقشة قصّة غضب الزهراء، فينتقل من كلامه عن الميراث إلى الكلام عن «الصدقة» فيضيف: وإنْ كان غضبها لأجل ما سألت الصدّيق إذ كانت هذه الأراضي «صدقة» لا «ميراثاً» أن يكون زوجها ينظر فيها، فقد اعتذر أبو بكر بما حاصله: أنّه لمّا كان هو خليفة رسول الله، فإنّه يرىٰ أنّ فرضاً عليه أن يعمل بما كان يعمله رسول الله، ويلي ما كان يليه رسول الله، ولهذا قال: وإنّي والله لا أدع أمراً كان يصنعه فيه رسول الله إلّا صنعته.

وهل من حرجٍ علىٰ صاحب هذا التأريخ أن يتساءل ويجيب؟ أو هل من حرجٍ

---

١. العواصم من القواصم لأبي بكر ابن العربي. (المؤلّف).

٢. السيرة النبوية لأبي الفداء. (المؤلّف).

أن ينتهي به تفكيره، من خلال نظره في حركات الأحداث، ومقولات المحدّثين، إلى النتيجة التي يفضي به إليها الاستقراء؟

لا حرج، فله أن يناقش ما شاء، ويستخلص ما شاء... إنّما الحرج عليه في أن يضع المتوافق والمتناقض علىٰ درجةٍ سواء.

فهو يقرّ بالنقيض، ثم لا ينكر نقيض النقيض.

فإذا حكمه الآن في المرفوض أنّه مقبول، وإذا هو بعد قليل في المقبول أنّه مرفوض... وكأنّما رأيه في كلا الحالتين ليس الرأي «الموضوعي» الذي ينبني على جواهر الأُمور، بل هو الرأي «المرحلي» الذي يتحوّل مع تغيّر الأشخاص أو اختلاف الظروف.

ذلك أنّه يظاهر أبو بكر عند القبض والامتناع، ثم يظاهر ابن الخطّاب عند المنح والإطلاق.

فلقد ورد في صحائفه التأريخية أنّ عمر، بعد مرور نحو عامين من إمرته، ردّ إلى علي والعباس «صدقة» النبي بالمدينة التي كان أبو بكر قبضها عن الزهراء فيما قبضه عنها من مختلف ما طالبته به من حقوقها في أفياء الرسول[1].

فإذا لم يكن لفاطمة حقّ في هذه الأرض: أرض الصدقة. فكيف أباح عمر زوجها ما منعها إيّاه أبو بكر منذ مستهلّ خلافته حتّى انتهاء عهده بالحياة؟

وإذا كان لها فيه حقّ فلماذا منعها إيّاه؟

أول الخليفتين منع! وثاني الخليفتين أباح!

ويتعذّر التعليل... إلّا أن يكون المنع، ثم المنح، يتعلّقان بأسبابٍ أخرىٰ، وأشياء هي غير الأرض: أصل النزاع... أو أن تكون سياسة الحكم ـ لأمرٍ ما ـ قد ارتأت خيرها في التغيير.

* * *

---

١. سيأتي تخريجه.

وكانت عامة صدقة الرسول بالمدينة بساتين اليهودي مخيريق... منضمّة إلى ذلك القسم ممّا أفاء الله علىٰ نبيّه من أرض بني النضير، الذي علمنا أنّ رسول الله خصّص غلّته للفقراء والمساكين.

ينقل إلينا صاحب «السيرة النبوية»[1] عن صحيح البخاري[2] مبيّناً نظرة أبي بكر، ثم نظرة عمر، فيما ارتأته فاطمة من حقٍّ لها في فيء أبيها، فيقصّ علينا ذلك من خلال النزاع بين علي والعباس في «ميراث» الرسول.

فبينا جماعة من الصحابة عند عمر، دخل عليه «يرفأ» مولاه يقول: هل لك في علي والعباس؟

قال: نعم.

وأذن لهما... فدخلا وسلّما.

فلمّا جلسا، أقبل العباس علىٰ عمر يخاطبه: يا أمير المؤمنين، اقضِ بيني وبين هذا!!

يقول البخاري: وكانا يختصمان فيما أفاء الله على رسوله من فيء بني النضير.

لكنّ الناقل: أبا الفداء، لأمرٍ ما لم يذكر هذه العبارة التي تبيّن أنّ فيء بني النضير هو الذي كان محور الاختصام... فربّما سقطت سهواً! وربّما أغفلها المدوّنون!!

وتمضي القصة... يتكلّم عمر عن حديث «لا نُورِّث» الذي سمعه أبو بكر من الرسول، ثم يستشهد المختصمين، ومن حضر المجلس، أيعلمون هذا الحديث؟ فيشهد جمعهم أنّهم يعلمون.

ويستمرّ عمر في كلامه عن فيء بني النضير، يقول: فإنّي أحدّثكم عن هذا الأمر: إنّ الله كان قد خصّ لرسوله في هذا الفيء بشيءٍ لم يعطه أحداً غيره، قال سبحانه: ﴿مَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ... إلى قوله قَدِيرٌ﴾[3].

---

١. السيرة النبوية لأبي الفداء. (المؤلّف).

٢. صحيح البخاري ٥: ٢٠٤٨ ب٣ من أبواب النفقات ح٥٠٤٣ و٦: ٢٦٦٣ ب٥ من أبواب الاعتصام بالكتاب والسنّة ح٦٨٧٥.

٣. الحشر: ٦.

وواضح أنّ الصدر من الآية الذي اكتفى المؤرّخ بايراده في سفره، يتطابق مع صدر الآية التالية[١]، حرفاً بحرف، وكلمةً بكلمة، حتىٰ لقد يتطرّق إلى وهم القارئ من أول وهلة، أنّ عمر كان يعني الآية الأخيرة.

فصدر الآيتين كليهما بعد اسقاط هذه الواو ﴿مَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ وتمام الأُولىٰ منهما يفيد أنّ الله سلّط رسوله علىٰ بني النضير، فما أفاءه الله عليه من أموالهم ـ بغير إيجاف ـ فهو للنبي وحده، يفعل فيه ما يريد... وتمام الثانية فيه إشعار بأنّ المسلمين سألوا النبي أن يقسم الفيء بينهم جميعاً، فأرجعه إلى رسوله، وجعل له أن يصرف منه ـ في الوجوه التي ذكرته الآية ـ حسبما يشاء.

دلالة ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[٢].

ودلالته أيضاً: أنّ رسول الله قد قسم منه للمهاجرين ولم يقسم للأنصار إلّا ثلاثة لا بما أنّهم سهماء في الفيء، بل بما أنّه صرف في سبيل الله

والواقع أنّ إسقاط «الواو» قد أسقط شارح النصّ التاريخي في خطأ مقصود أو غير مقصود، إذ نراه يشير إلى الآية التي ذكرها عمر بن الخطاب في حديثه مع علي والعباس علىٰ أنّها السابعة من سورة الحشر، بينما الحقيقة أنّها السادسة في ترتيب الآيات.

ولو أنّنا أخذنا بإشارته لخرجنا عن النسق الطبيعي للرواية، ولذهبنا إلى غير ما ذهب عمر... ولحسبناه يعني الفيء الذي أوجف عليه المسلمون، وما كان أميرالمؤمنين ـ في حديثه ـ إلّا يعني الذي لم يوجف عليه، وكان للرسول خاصّةً، فهذا هو الذي لم يُقسم في الناس، بل غدا للنبي ينفقه حيثما أراد.

* * *

---

١. الآية: ٧.

٢. الحشر: ٧.

ويستمر حديث أمير المؤمنين عمّا أفاء الله على النبي خالصاً من أرض بني النضير، فيقول: فكانت خالصةً لرسول الله... والله ما احتازها دونكم، ولا استأثر بها عليكم، لقد أعطاكموها، وبثّها فيكم، حتّىٰ بقي منها هذا المال... فكان رسول الله ينفق منه علىٰ أهله نفقة سنتهم، ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال الله.

ويمضي عمر في قوله: فتوفّىٰ الله نبيّه، فقال أبو بكر: أنا ولي رسول الله... فقبضها، فعمل بما عمل به رسول الله...ثم توفّىٰ الله أبا بكر، فقلت: أنا وليُّ وليّ رسول الله...فقبضتها سنتين أعمل فيها بما عمل رسول الله وأبو بكر، ثم جئتماني فدفعتها إليكما، لتعملا فيها بما عمل رسول الله، وأبو بكر، وعملت فيها أنا.

ويتساءل: أفتلتمسان منّي قضاءً غير ذلك؟

ثم يقرّر: لا والذي بإذنه تقوم السماء والأرض!

وكانت فاطمة ـ برواية عائشة كما نعلم ـ قد سألت أبا بكر نصيبها ممّا ترك رسول الله من خيبر وفدك وصدقته بالمدينة، فأبىٰ أبو بكر عليها ذلك، وقال: لست تاركاً شيئاً كان رسول الله يعمل به إلّا عملت به.

فلمّا خلفه عمر، دفع صدقة النبي بالمدينة وما كان قد بقي من فيء بني النضير الىٰ علي والعباس، أمّا خيبر وفدك فأمسكهما عمر وقال: هما صدقة رسول الله، كانتا لحقوقه التي تعروه، ونوائبه، وأمرهما إلى من ولي الأمر.

قيل: وكان ما فعله عمر أن فوّض النظر إلي علي والعباس في هذا الفيء، ثم اختلفا، بسبب إشاعة النظر بينهما، فسألاه أن يقسم بينهما النظر، فيجعل لكلّ واحدٍ منهما نظر ما كان يستحقّه لو أنّ الأرض قسمت قسمة ميراث، لكنّه تحرّج أن يفعل، امتثالاً لحديث: «لا نورث، ما تركنا صدقة»، وظلّ النظر[1] مشاركة، يعملان فيها به، الىٰ زمن عثمان بن عفان.

---

١. السيرة النبوية لأبي الفداء. (المؤلّف).

اللوحة الثالثة

ما ترك ديناراً ولا درهماً

لفظاً ومعنىً، ظاهراً وباطناً، يؤكّد ما سلف من حديث عمر عن فيء بني النضير: أنّ أرض فدك كانت ملكاً خالصاً لرسول الله.

لم يختلف علىٰ هذا «بكري ـ عمري» من الأُلىٰ لزموا جانب الخليفتين: الأول والثاني... ولا «فاطمي ـ علوي» ممّن أخذوا برأي آل البيت النبوي الكريم.

إنّما الخلاف قد انصبّ على ملكية الزهراء لهذه الأرض... أو في حقيقة وقوع النحلة.

ولقد رأينا أبا بكر ـ بعد أن أبى الإقرار لفاطمة بنحلة أبيها ـ أبىٰ عليها الميراث.

قالت له مرّةً: «لئن مُتَّ اليوم من كان يرثك؟».

قال: وُلدي وأهلي.

فسألته: «فلِمَ ورثت أن رسول الله دون ولده وأهله؟

فتعجّب: ما فعلت!».

فردّت: «بلى! إنّك عمدت إلى فدك ـ وكانت صافية لرسول الله ـ فأخذتها، وعمدت إلى ما أنزل الله من السماء فرفعته!»[1].

---

١. شرح نهج البلاغة ١٦: ٢١٨.

وتخاطبه مرةً أخرىٰ في مسجد النبي، فتقول: «يابن أبي قحافة! أفي كتاب الله أن ترث أباك، ولا أرث أبي؟».

وتحدّثه ومن اجتمعوا لها في هذا المحفل: «وزعمتم ألّا حظوة لي، ولا إرث من أبي، ولا رحم بيننا...أفخصّكم الله بآيةٍ أخرج منها أبي؟! أم تقولون: أهل ملّتين لا يتوارثان؟ أو لستُ أنا وأبي من أهل ملّةٍ واحدةٍ؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟»[1].

ويتعدّد بينها وبينه اللقاء، ويحتدم الجدل، فلا تزال تدعم قولها بآيات من كتاب الله، ولا يزال هو يستمسك برأيه معتصماً بانتفاء وراثتها للرسول.

في كلام له يجيب: سمعت رسول الله يقول: «إنّما هي طعمة أطعمنيها الله حياتي، فإذا متّ فهي بين المسلمين»[2].

وفي غيره يكون ردّه: إنّ الله عزَّ وجلَّ إذا أطعم نبيّاً طعمةً فهي للذي يقوم بعده[3].

ولقد ورد حديث منع التوريث على لسان أبي بكر علىٰ أكثر من صورة، تتّفق جميعاً في المعنىٰ، ولكنّها تختلف في التركيب، ولعلّ أشهر ما وصلنا منها اثنتان:

الأُولىٰ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة».

والثانية: «لا نورث، ما تركناه فهو صدقة»[4].

أمّا نصيب الورثة الشرعيّين، فقد جاء في ذيل هذه الأخيرة عبارة مانعة تقرّر ألّا حقّ لهم في مال النبي، وإنّما لهم المأكل، لا شيء سواه من مال الله.

تقول العبارة: «إنّما يأكل آل محمد من هذا المال ـ مال الله ـ ليس لهم أن يزيدوا على المأكل».

---

١. من خطبة الزهراء ﷺ، يرويها ابن أبي الحديد في شرحه ١٦: ٢١١.

٢. طبقات ابن سعد ٢: ٣١٤ بسنده عن الكلبي عن أبي صالح عن أم هانئ.

٣. مسند فاطمة للسيوطي ١: ٤ عن مسند أحمد، شرح نهج البلاغة ١٦: ٢١٨ ـ ٢١٩ بسنده عن الوليد بن جميع عن أبي الطفيل.

٤. العواصم من القواصم لأبي بكر ابن العربي. (المؤلّف).

فلعلّه عنىٰ بهذا القول أنّ مال الرسول بعد وفاته أصبح من المال العام... أوعنىٰ أنّ لهم حقّاً في مال الله، ترك رسول الله وراءه شيئاً أولم يترك، فلا مدعاة لقلقهم إن حرموا الميراث.

وكيفما كان، فقد حُرمت فاطمة ممّا كان للرسول... ومُنعت عنها أرض النحلة.

وقد هوّن شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة» من قيمة فدك، «فنبّه إلى أنّ أبا بكر وعمر أعطيا من مال الله أضعاف هذا الميراث للذين كانوا سيرثونه، قال: وإنّما أخذ منهم قريةً ليست كبيرةً، لم يأخذ منهم مدينةً ولا قريةً عظيمةً!

وأضاف: وقد تولّىٰ عليٌّ بعد ذلك، وصارت فدك وغيرها تحت حكمه، ولم يعط لأولاد فاطمة، ولا زوجات النبي، ولا ولد العباس شيئاً من ميراثه[1].

وليس المجال هنا بمجال موازنة بين قليل وكثير، أو صغير وكبير... ولا بمقام تناول امتناع الإمام عن ردّ التركة النبوية لنبي الزهراء وغيرهم من الوَرَثة وإن كان زهد علي، وعزوفه عن المنافع المادية، وأخذه أهله بالقشّف، فيها الجواب[2].

* * *

وإذن، فقد دفع عمر إلى علي والعباس «صدقة» النبي بالمدينة.

والصدقة المفروضة الواجبة هي الزكاة، ثالث ركنٍ من أركان الإسلام... وهي في جميع أنواع المال، لا في مال واحد، بدلالة قوله تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[3].

فعمّم وشمل... ولم يقل جلّ شأنه: «ما لهم» على التخصيص والإفراد.

---

١. منهاج السنّة ٣: ٢٣٠ و٢٣١.

٢. واذا كانت مواقف علي عليه السلام كلّها رائعة، فموقفه من الزهد والعزوف عن الدنيا ومصالحها من أكثرها روعةً وإشراقاً. ولا ريب أنّ زهده الذي صار يُضرب به المثل عُدَّ من الأوسمة الإلهية الرفيعة التي اختصّ بها دون غيره.

٣. التوبة: ١٠٣.

وتؤخذ من كلّ مالكي النصاب، من: الورق والذهب، والإبل والبقر والغنم، والغلّات والثمار... وجعلها سبحانه في ثمانية أقسام من الناس، كما ورد في الآية الشريفة[١]، تُصرف لهم فريضة.

علىٰ أنّ لفظ «الصدقة» قد اتّسع معناه في التعبير اللغوي، فشمل غير أولئك الذين خُصّوا بها، إلّا أن يكون ذلك «الغير» داخلاً في نطاق أحد تلك الأقسام.

فقيل: هي العطيّة يراد بها المثوبة لا المكرمة، وقيل: ما يتصدَّق به، وقيل: تُؤخذ علىٰ سبيل الكفّارة للذنوب.

وإذا كان لهذه المعاني باب إلى الصدقة الواجبة، فلقد لا يؤكّد مفهومها الشرعي اللازم أنّها قد لا تجيء محكومة بالنصاب.

ولعلّنا نذكر: أنّ ابن الخطاب استأمر رسول الله في أرض له طيّبة أصابها، فقال له عليه الصلاة والسلام: «إن شئت حبست أصلها، وتصدّقت بها»[٢] ففعل، وأصابت صدقته ذوي قرباه.

فكان استثماره استثمار تطوّع، وكان إنفاقه اختيار.

وكذلك فعل «أبو طلحة» فتصدّق في الأقربين[٣].

ومع هذا، فإنّ الذي لاشكّ فيه هو أنّ كثيراً من المسلمين كانوا أدخل في باب «الفقراء» من أُولئك الأقرباء!

وذكروا: أنّ رجلاً سأل النبي: يا رسول الله، أيّ الصدقة أفضل؟

قال الرسول: «أن تصّدّق وأنت صحيح حريص، تأمل الغنىٰ وتخشى الفقر،

---

١. الآية: ٦٠ من سورة التوبة ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٢. صحيح البخاري ٢: ٩٨٢ ب١٩ الشروط في الوقف من كتاب الشروط ح٢٥٨٦، سنن ابن ماجة ٢: ٨٠١ ب٤ من وقف من كتاب الصدقات ح٢٣٩٦.

٣. مسند أحمد ٣: ٢٥٦، حلية الأولياء ٦: ٣٣٨.

ولا تمهل حتّىٰ إذا بغلت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان»[١].

وجاء أنّ الحسن قال: «أحقّ ما تصدّق به الرجل آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من الآخرة»[٢].

وقد يعني هذا الذي ورد عن الرسول وحفيده: العطيّة، أو الوصيّة، أو البذل ابتغاء مثوبة الله، ولكنّه لا يعني ـ بأيّ حالٍ من الأحوال ـ الصدقة المفروضة أو الزكاة.

بل قد سمّى الخليفة المأمون نحلة «فدك» صدقة، وأثبت هذا في السجل، فدوّن: إنّ رسول الله أعطى ابنته فاطمة فدكاً، وتصدّق عليها بها...[٣].

ولا موجب هنا للإشارة إلى أنّ أُم السبطين لم تكن في أيّ من أقسام الصدقات... إنما ينبغي أن تتّجه الإشارة إلى أنّ بعض الألفاظ كانت تخرج أحياناً عن معانيها الاصطلاحية اللازمة إلى معانٍ أُخرىٰ، من قبيل التقريب أو علىٰ سبيل المجاز.

* * *

وكيفما كان الأمر، فلا مناص من التسليم بحديث امتناع توريث النبي، لا بالمخالفة لمن أبوا الأخذ به، وإنّما تعفّفاً عن الطعن في صدق راويه الذي اختصّه رسول الله ـ ووضعته شيمة وسلوكاته ـ بمقام جليل.

فإذا عرض امرؤ لهذا الحديث، فلا عن شكٍّ فيه، بل لإمعان النظر فيما عسىٰ قد ينطوي عليه مبناه، يقول أبو بكر في أحاديث شتّى، علىٰ اتّفاق في المؤدّىٰ واختلاف في الصياغة: سمعت رسول الله يقول: «نحن ـ معاشر الأنبياء ـ لا نورث، ما تركناه صدقة».

---

١. صحيح البخاري. (المؤلّف). وقد أخرجه أيضاً مسلم ٢: ٧١٦ ب ٣١ بيان أنّ أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح ح١٠٣٢، والنسائي ٥: ٦٨ و٦: ٢٣٧ عن أبي هريرة.

٢. صحيح البخاري. (المؤلّف). ورواه في تفسير الحسن البصري ١: ٤١٨ ضمن تفسير الآية: ٦٠ من التوبة.

٣. فتوح البلدان للبلاذري: ٤٦ ـ ٤٧.

وتقول السيدة عائشة: إنّ فاطمة سألت أبا بكر بعد وفاة الرسول أن يقسم لها ميراثها: ما ترك أبوها ممّا أفاء الله عليه.

والميراث لا يكون إلّا في تركه، فهل ترك رسول لله عند وفاته شيئاً يورث؟

بل لم يترك! إنّما كان ـ فضلاً عن زهده على امتداد عمره ـ يعيش أواخر أيامه معيشة شظف وجشوبة لم تكن تخفىٰ علىٰ أحدٍ من عامة المسلمين، ولا من خاصّة أصحابه، حتّىٰ لكأنّما كان يحرص علىٰ أن يتحرّر من كلّ مظاهر الحياة الدنيوية، ويغتسل من درن المادة قبل بدئه رحلته الأخيرة إلى الله.

جاء في الأثر: دخل عليه عمر بن الخطاب، وهو على حصير خشن قد أثّر في جبنه، فقال له: يا نبي الله! لو اتّخذت فراشاً أوثر من هذا!

فأجابه: «مالي وللدنيا! ما مثلي ومثل الدنيا إلّا كراكبٍ سار في يوم صائف، فاستظلّ بشجرةٍ ساعة من نهار، ثم راح وتركها»[١].

وروي عن أنس أنّه قال: سمعت رسول الله يقول: «والذي نفس محمد بيده، ما أصبح عند آل محمد صاع برٍّ، ولا صاع تمر».

ويستطرد أنس: ولقد رهن درعاً له عند يهودي بالمدينة وأخذ منه طعاماً، فما وجد ما يفتكّها به حتّىٰ مات[٢].

ولا يعني هذا أنّه عليه الصلاة والسلام لم يملك شيئاً قطّ في حياته، بل قد كان لديه الكثير من دور ومساكن، وإماء وعبيد، وخيول وسلاح، وثياب وأثاث، وكلّ ما يستلزمه دوره القيادي العظيم في المجتمع الإسلامي المتفتّح للنمو والازدهار... إنّما مفهوم القول: أنّه لم يترك من ممتلكاته العريضة تلك ما يمكن اعتباره ذا قيمة.

ولعلّه تصدّق[٣] في حياته متجزّئاً، بكثير ممّا كان في ملك يمينه، فأعتق من

---

١. رواه أحمد ١: ٣٠١، مستدرك الحاكم ٤: ٣١٠ كلاهما عن ابن عباس.

٢. أخرجه ابن ماجة ٢: ١٣٨٩ ب ١٠ معيشة آل محمدﷺ من كتاب الزهد ح٤١٤٧، وأحمد ٣: ٢٣٨.

٣. أبو الفداء. (المؤلّف).

أعتق من إمائه وعبيده، وأرصد ما أرصد من أمتعته ـ مع ما خصّه الله به من الأرضين من بني النضير وخيبر وفدك ـ حتّىٰ لم يعد وراءه ـ لدن مماته ـ شيء يورث!

قيل: وكان عند محمد أول ما اشتدّ به المرض سبعة دنانير، خاف أن يقبضه الله إليه وما تزال باقيه عنده، فأمر أهله أن يتصدّقوا بها... لكن اشتغالهم بتمريضه، والقيام في خدمته، واطّراد المرض في شدّته أنساهم تنفيذ أمره.

فلمّا أفاق ـ يوم الأحد الذي سبق وفاته، من إغمائه ـ سألهم ما فعلوا بها، فأجابت عائشة: إنّها ما تزال عندها، فطلب إليها أن تحضرها، ووضعها في كفّه ثم قال: «ما ظنّ محمد بربّه لو لقي الله وعنده هذه!»[1].

ثم تصدّق بها جميعاً علىٰ فقراء المسلمين.

فخرج بهذا ـ فيما يكاد يكون الأقرب إلى الواقع ـ عن آخر ماله، ما خلف شيئاً يورث، ولا أوصىٰ لأحدٍ بشيء.

جاء عن عمرو بن الحارث أنّه قال: ما ترك رسول الله ديناراً ولا درهماً، ولا عبداً ولا أمةً، إلَّا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه، وأرضاً جعلها صدقة[2].

وعمرو هذا هو أخو أُم المؤمنين «جويرية»، فهو صهر الرسول، ومن أولىٰ الناس بأن يعلم علم يقين ما ترك وما لم يترك رسول الله.

وأُخته جويرية هي التي قالت فيها عائشة: كانت امرأة حلوة ملّاحة، لا يراها

---

١. حياة محمد للدكتور هيكل. (المؤلّف). وأخرج الرواية ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ ٢: ٢٣٧ ـ ٢٣٩ من طرقٍ عدّة. ويذكر أنّه ذكر روايةً من طريق سعيد بن منصور مسنداً إلى سهل بن سعد قال: كانت عند رسول الله ﷺ سبعة دنانير وضعها عند عائشة، فلمّا كان في مرضه قال: يا عائشة ابعثي بالذهب إلى علي، ثم أُغمي عليه ﷺ، وشغل عائشة ما به حتّىٰ قال ذلك ثلاث مرات، كلّ ذلك يُغمىٰ على رسول الله ﷺ ويشغل عائشة ما به، فبعثت ـ يعني به ـ إلى علي فتصدّق به.

٢. صحيح البخاري ٣: ١٠٠٥ ب١ من أبواب الوصايا ح٢٥٨٨. طبقات ابن سعد ٢: ٣١٦.

أحد إلّا أخذت بنفسه... فأتت رسول الله... فوالله ما هو إلّا أن رأيتها علىٰ باب حجرتي فكرهتها![1].

كرهتها غيرةً!

ذلك أنّ رسول الله لمّا أظفره ربّه ببني المصطلق، وسيقت نساؤهم سبايا قُسّمن بين أهل النصر، وقعت جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، سيد القوم وقائدهم، في سهم ثابت بن قيس، فكاتبته علىٰ نفسها، فلمّا عاد الرسول للمدينة، انطلقت جويرية إليه، وهو عندئذٍ بحجرة عائشة، تستأذن في لقائه.

وطرقت الباب... فما أن فتحته عائشة حتّىٰ رأت أمامها شابة مفرطة الحسن، ريّانة الصبا، فكرهتها خشية أن تقع في نفس الرسول.

ودخلت الصبية، وكلّها قلق وذعر، فخاطبت النبي بصوت شجيٍّ عذبٍ، مرتجف النبرات، فيه ضراعة، وفيه اعتزاز: يا رسول الله، أنا بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه... وقد أصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس، فكاتبته علىٰ نفسي، فجئتك أستعينك على أمري[2].

فرقّ لها قلبه أن تهون، ويستذلّها الرقّ بعد رفعةٍ وعزٍّ وحرية، فقال لها: «فهل لك في خيرٍ من ذلك؟».

فسألت في لهفة: وما هو يا رسول الله؟

أجاب: «أقضي عنك كتابتك، وأتزوّجك».

فتألّق وجهها الحلو، وتلوّن بالفرح، وقالت: نعم[3].

---

١. رواه أحمد ٦: ٢٧٧، والبيهقي في الدلائل ٤: ٤٩، والطبراني في المعجم الكبير ٢٤: ٦١. نساء حول الرسول: ١٢١ ـ ١٢٢.

٢. نساء النبي لبنت الشاطئ. (المؤلّف)

٣. رواه أبو داود في سننه ٤: ٢٢ ح٣٩٣١، طبقات ابن سعد ٨: ١١٦ ـ ١١٧ وقال: فلا أعلم امرأةً أعظم بركةً على قومها منها. ذلك أنّ النبي الأكرمﷺ قد أعتق بسبب ذلك ما كان في يديه من سبي بني المصطلق.

ويبدو أنّ الأب قد خفّ إلى المدينة عندئذٍ، ليفتدي الأسيرة الحسناء، فسعى إلى النبي فقابله في الأمر، قال: يا محمد! أصبتم ابنتي وهذا فداؤها، فإنّ ابنتي لا يُسبىٰ مثلها!

فكان جواب الرسول: «أرأيت أن أُخيّرها، أليس قد أحسنت؟».

قال الحارث: بلى.

فلمّا أتاها أبوها وذكر لها ذلك، قالت: اخترت الله ورسوله[1].

وكانت الخطبة... ثم كان الزواج.

وإذ علم المسلمون الخبر، أطلقوا ما بأيديهم من سبي بني المصطلق، وهم يقولون: أصهار رسول الله!

وعرفت جويرية في تاريخ الإسلام بأُم المؤمنين التي لم تكن امرأة أعظم منها علىٰ قومها بركة.

* * *

عائشة نفسها أقرّت أنّ رسول الله مات ولم يخلف وراءه تركةً، سُئلت عمّا ترك، فقالت: تسألونني عن ميراث رسول الله؟

ثم أجابت: ما ترك رسول الله ديناراً ولا درهماً، ولا عبداً ولا وليدة[2]... وأضافت إلى عبارتها هذه في حديثٍ آخر: ولا أوصىٰ بشيء.

وسياق حديث عائشة هذا، يفصح عن «ما» وهي نافية لما تضمّنته جملتها الفعلية من كلّ ما عرف باسم الدينار والدرهم والعبد والوليدة، وأنّ أثرها النافي قد فعل فعله في هذه المسمّيات، فأعدم وجودها من وقت سابق لذكرها، إن يكن يعسر ـ زمنياً ـ تحديد بدئه، فإنّ منتهاه هو لحظة الوفاة.

إنّه نفي قطعي لا ترخّص فيه، يجري مجرى التعبير القرآني القائل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا

---

١. طبقات ابن سعد ٨: ١١٨.

٢. المصدر السابق ٢: ٣١٦ ـ ٣١٧ عن زرّ بن حبيش عنها.

لِبَشَرٍ مِن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَالِدُونَ﴾[١].

وعلىٰ صورة تركيب ما جاء بالآية الكريمة: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ٱئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾[٢].

بل قد يجوز القول بأنّ النفي يمكن ـ من قبيل القياس ـ أن يتناول ما يقع في حدود قيم تلك المنفيات، والقياس مبدأ معمول به، وقاعدة سليمة يتساوىٰ بها الحكم على المتماثلات[٣].

وروي أنّه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَفْعِهِمَا﴾[٤] عزف كثيرون عن شرب ذلك المسكر الذي يسمّونه الخمر، ومالوا عنه إلى نوعٍ آخر، لعلّه النبيذ، قائلين: إنّ هذا المسكر الذي سمّوه بغير الخمر حلال!

ولُبّس علىٰ أبي الأسود الدؤلي، فظنّ ظنّهم... ثم ردّه عن ذلك طبعه إلى الحكم بأنّ النوعين واحد، وقال:

دع الخمر تشربها الغواة فإنّني ... رأيت أخاها مجزياً بمكانها
فإن لا يكنها، أو تكنه، فإنّه ... أخوها غذته أمه بلبانها[٥]

ثم أنزل سبحانه تحريمها صريحاً في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ

---

١. الأنبياء: ٣٤.

٢. يونس: ١٥.

٣. ولا يخفىٰ أنّ الحديث عن القياس كثر بين الفقهاء كثرةً غير متعارفة، وأُلّفت في خصوصه الكتب، وصنّفت عنه المجلّدات، وكان موضع خلاف كثير، وجدل وردود ومناقشات عريضة، نظراً لما يترتّب عليه من ثمرات فقهية واسعة، وتتأسّس بفضله أحكام عديدة.

٤. البقرة: ٢١٩.

٥. ديوان أبي الأسود الدؤلي: ٨٢ ط بولاق، وذكر البيتين البغدادي في خزانة الأدب ٥: ٣٢٠ ـ ٣٢٥ برقم (٣٩٣). وورد ذكر البيتين في اللسان وتاج العروس مادة «كون».

وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنْصَابُ وَٱلْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾[1].

ثم بيّن رسول الله أنّ الخمرة تُستخرج وتُعتصر من مواد شتّى؛ كالعسل والعنب والزبيب والتمر والحنطة والذرة والسلت والشعير... وكلّ أنواعها هذه يحكمها التحريم.

ثم كان القياس، فحقّ أن تدخل في نطاق الحرمة أشربة أخرىٰ وغير أشربة، تخامر العقل، وتهزّ القوى الإدراكية، وتقود إلى الشرّ، لأنّ العبرة ليست بالاسم وإنّما بالأثر.

* * *

وظاهر قول عائشة أنّ رسول الله لم يترك شيئاً بعده من جنس المال، أو هو إن ترك فقد ترك ما دون الدرهم قيمة، وذكرُها بعضَ أنواع المقتنيات أدنىٰ إلى التعبير التصويري منه إلى الحصر والتحديد.

فقد ترك عليه الصلاة والسلام أشياء عديدة؛ كخاتمه وثيابه ونعاله وعصاه، وبعض من شعره، وغيرها من خصوصياته، التي تدوولت من بعده ـ لا من قبيل الأرث ـ بل للتبرّك ومن قبيل التذكار.

وقد عُلم أنّ أبا بكر في أثناء خلافته مهر بخاتم رسول الله.

ولا تزال بمصر إلى اليوم بقايا من هذه النفائس الطاهرة، منها شعيرات من رأس النبي أو لحيته، وقطعة من نسيج ثوبٍ كان يكتسيه.

وهذه وأمثالها من متروكات رسول الله لا تُحسب في المال بمفهومه المادي، لأنّها «كنوز» معنوية رفيعة القدر، أثمن من أن تقوَّم بمال.

أمّا المال، على اختلاف صوره من ذهبٍ وفضّةٍ وعقارٍ، وما إليها ممّا يخضع لأساليت التعامل والاتّجار، وبمعناه المصطلح عليه، فلم يكن في تركه الرسول.

---

١. المائدة: ٩٠.

علىٰ هذا تدلّنا قصّة الدنانير، وبه نطق قول عائشة، وبنفس ألفاظه حدثنا علي بن الحسين[١]، وفي معناه وردت روايات آخرين[٢].

بل قد زادت السيدة أُم المؤمنين في حديثها حتّىٰ شملت الوصيّة، فنفت أن النبي عند موته أوصى بشيءٍ لإنسان: «ولا أوصى بشيء».

سُئل عبدالله بن أوفى: هل كان النبي أوصىٰ؟

قال: لا.

قيل: كيف كتب على الناس الوصية، وأُمروا بها؟!

قال: أوصىٰ بكتاب الله[٣].

وورد أيضاً: ذكروا عند عائشة أنّ علياً كان وصياً... فقالت السيدة: متىٰ أوصى إليه! وقد كنت مسندته إلى صدري، فدعا بالطست، فلقد أنخنث في حجري، فما شعرت أنّه قد مات، فمتى أوصىٰ إليه؟![٤].

وما ذكر من هذا الحوار الذي دار بين ابن أوفىٰ وصاحبه بشيء مفهومه بأنّه إنّما قيل في مقام غير هذا المقام، لأنّه يخرج بنا عن محلّ الكلام، وينحرف بسامعيه إلى غير مقتضىٰ حديث عائشة الذي نفت به وجود تركة «مالية» في ذمّة الرسول، كما نفت وجود وصيّة في هذه التركة على السواء.

والحال هكذا في حديثها الثاني الذي عرض فيه ذكر «الإمام».

فأمّا أنّ النبي صلوات الله عليه قد أوصى بالقرآن، فذاك هو «البلاغ» الذي جاء من أجله، والذي ما فتئ يردّده على أسماع الناس، تارةً من خلال الآيات المنزَّلة

---

١. رواه ابن سعد في الطبقات ٢: ٣١٧ بسنده عن عديّ بن ثابت عن علي بن الحسين عليهما السلام، ولفظه: «توفّي رسول الله ﷺ ولم يدع ديناراً ولا درهماً، ولا عبداً وأمةً». والملاحظ أنّه لم يذكر العقار ولم يشر إليها.

٢. كرواية عكرمة عن ابن عباس، وزاد: «ولا وليدة، وترك درعه رهناً عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير». الطبقات الكبرىٰ ٢: ٣١٧.

٣. صحيح البخاري ٣: ١٠٠٦ ب١ من أبواب الوصايا ح٢٥٨٩، والسائل هو طلحة بن مصرّف.

٤. المصدر السابق: ح٢٥٩٠، و٤: ١٦١٩ ب٧٨ مرض النبي ﷺ ووفاته، من كتاب المغازي ح٤١٩٠.

عليه، وأخرىٰ من خلال أحاديثه التي لم تنطق عن الهوىٰ، وثالثة من خلال ألوان سلوكه المترجمة كتاب الله إلى أفعال.

فالوصية بالقرآن حاصلة ليل نهار، لأنّها رسالة الرسول التي بُعث بها بشيراً ونذيراً للعالمين، من يوم كلّفه بها الله إلى يوم انتهىٰ أجله، ولقي وجه ربّه الكريم

ولقد مكث محمد في الدنيا ثلاثاً وعشرين سنة، هي عمرة الرسولي، وما علم أحد ولا ادّعىٰ أنّه كفّ عن التبليغ ساعةً من يوم، ولا يوماً من شهر، ولا شهراً من عام.

فقول ابن أوفىٰ: إنّ النبي «أوصى بكتاب الله» هو من قبيل لزوم ما لا يلزم، وتكرار لمعلوم ما فتئ صاحب الرسالة يردّده ويعيده، فلا حاجة ثمة لترديد مردّد ولا لإعادة معيد!

وقول عائشة: «ومتى أوصىٰ!» وهي تعني علياً، إنّما يجري علىٰ نفي الوصية «الولائية» التي خصّ بها النبي ابن عمه إذ جمع عشيرته ليدعوهم إلى الدين، ويعينوه علىٰ نشره، فسخروا منه، وردّوا دعوته الهادية، إلّا ذلك «الغلام» الصغير إذ قال: «أنا يا رسول الله عونك أنا حرب علىٰ من حاربت».

فردّ النبي على الفتى الموعود بالولاية بكلامٍ قال فيه: «أنت وليّي ووصيّي...»[1].

---

١. استفاضت كتب الفريقين في نقل هذا الحديث وإن تفاوتت في بعض الألفاظ. منها «أنت وليّ كل مؤمن بعدي»، ومنها: «أنت وليّي في كل مؤمن بعدي»، ومنها: «أنت وليّي في الدنيا والآخرة»، ومنها: «وصيّي وموضع سرّي وخير من أتركه بعدي». انظر على سبيل المثال: المعجم الكبير للطبراني ١٢: ٧٧ ح١٢٥٩٣ عن ابن عباس، الخصائص للنسائي: ٤ فصل: الترغيب في موالاته والترهيب عن معاداته عن عائشة عن أبيها، الأمالي للطوسي: ٣٥١ المجلس (١٢) ح٧٢٦ عن ابن أبي ليلىٰ، مناقب ابن المغازلي: ٢٠٠ ح٢٣٨ عن عبدالله بن بُرَيْدة، الرياض النضرة ٢: ١٧٨ وقال: أخرجه الحافظ أبو القاسم البغوي في معجم الصحابة. الكنجي في كفاية الطالب: ٢٦٠ عن ابن بُريدة، عمدة ابن البطريق: ١٣٢ ف١٣ ح١١١ عن ابن عباس وعزاه إلى مسند أحمد (انظر مسند أحمد ١: ٣٣٠)، وفي: ١٣٤ ف١٣ ح١١٥ عن البراء بن عازب وعزاه الىٰ تفسير الثعلبي ضمن تفسير الآية: ٢١٤ من سورة الشعراء ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، وكان قد ذكره
←

وإذ جمع محمد المسلمين بعد ذلك بسنين في «غدير خم» فخطبهم، ثم قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه»[١].

أمّا حديث السيدة عن ميراث الرسول بعد موته، فإنّ معنىٰ «الوصية» في سياق عبارته لا يمكن أن يتطرّق إلّا إلى الوصية في مال التركة، أخذاً بما جاء في التنزيل:

← في: ١٢١ ف١٢ ح١٠١، وأخرجه أيضاً العلّامة الحلّي في كشف اليقين: ٢٥٤ قال في المبحث التاسع: في نصّ النبي ﷺ على عليٍّ أمير المؤمنين ﷺ بالخلافة بعده...ثم قال: تواترت الإمامية على ذلك، ونقل الجمهور منه شيئاً كثيراً. وأخرجه أيضاً الهيثمي في مجمع الزوائد ٩: ١٢٠ عن ابن عمر، وابن كثير في البداية والنهاية ٧: ٣٥٠ ـ ٣٥١ عن ابن عباس، والحاكم في المستدرك ٣: ١٤ عن ابن عمر.

وممّا يذكر أنّ النبي الأكرم ﷺ قد قال ذلك في مناسبات عدّة ذكره أعلام الحديث والسيرة والتاريخ ومن طرق متعدّدة، فما يثبت أنّه ﷺ قد كرّر قوله فيه لأكثر من مرّة أو مرتين.

١. تواتر هذا الحديث بين محدّثي ورواة ورجاليي وعلماء المسلمين قاطبةً، حتّىٰ اشتُهر بحديث «من كنت مولاه» أخرجته كتب الصحاح والحديث والسيرة والتاريخ والتراجم فذكر شطراً منها على سبيل المثال لا الحصر: مسند أحمد ١: ٨٤ عن زاذان بن عمر عن علي ﷺ، و ١١٨ عن سعيد بن وهب وزيد بن يثيع كلاهما عن علي ﷺ، و ١١٩ عن ابن أبي ليلىٰ عن علي ﷺ، و٤: ٣٧٠ عن زيد بن أرقم، و٥: ٤١٩ عن رياح بن الحرث، سنن الترمذي ٥: ٦٣٣ ب ٢٠ مناقب علي ح٣٧١٢ عن زيد بن أرقم، فضائل الصحابة لابن حنبل ٣: ٥٩٧ ح١٠١٧ عن زيد بن أرقم أيضاً، مستدرك الحاكم ٣: ١١٠ عن زيد، و: ١٣٣ ـ ١٣٤ عن ابن عباس، و: ٣٧١ عن رفاعة بن إياس الضبي عن أبيه عن جده، صحيح ابن حبّان ١٥: ٣٧٦ ح٦٩٣١ عن أبي الطفيل، المصنّف لابن أبي شيبة ٧: ٤٩٩ ح٢٨ عن زيد بن يثيع، وح٢٩ عن أبي يزيد الأودي عن أبيه، تاريخ دمشق ٤٢: ٢٠٦ ح٨٦٨٢ عن عبدالرحمان بن أبي ليلى، الكافي ١: ٢٩٤ ح٣ عن عبدالحميد بن أبي الديلم عن الصادق ﷺ، و٨: ٢٧ ح٤ عن جابر بن يزيد عن الباقر ﷺ تهذيب الأحكام للطوسي ٣: ٢٦٣ ح٧٤٦ عن حسّان الجمّال عن الصادق ﷺ، سنن ابن ماجة ١: ٤٣ ح١١٦ عن البراء وفيه: «مولى من أنا مولاه، اللّهم والِ...»، ومثله في فضائل الصحابة لابن حنبل ٢: ٦١٠ ح١٠٤٢، وفي مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٣٥ وكلّها عن البراء، المعجم الكبير للطبراني ٤: ١٧ ح٣٥١٤ عن حبشي بن جنادة، و٥: ١٧١ ح٤٩٨٥ عن زيد بن أرقم، والأمالي للطوسي: ٢٥٥ المجلس (٩) ح٤٥٩ عن زيد بن نفيع، أُسد الغابة ٢: ٢٣٨ رقم ١٥٨٩ عن رافع مولى عائشة، ومثله في الإصابة ٢: ٣٧٣ رقم ٢٥٦٠، عنه كنز العمال ١١: ٦٠١ رقم ٣٢٨٩٩، عيون أخبار الرضا ﷺ ٢: ٥٩ ح٢٢٧ عن الحسن بن عبدالله الرازي عن الإمام الرضا ﷺ عن آبائه ﷺ، الأمالي للمفيد: ٥٨ ح٢ عن الحارث بن ثعلبة، والخصال: ٦٦ ح٩٨ عن حذيفة... وغيرها كثير جداً.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[١].

والخير بمعناه اللغوي، ومعناه اللازم في هذا المجال هو المال، وفسّره بعض المفسّرين أيضاً بأنّه «الخيل» استخلاصاً من قصّة سليمان إذ يقول القرآن: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾[٢].

وربّما استند المفسّرون في قولهم هذا إلى مضمون هذه القصّة التي تشير إحدى الروايات إلى أنّ سليمان ورث عن أبيه ألف فرس أصابها من العماليق... فلمّا أن عرضت عليه شغله شغفه بها عن بعض صلاته حتّىٰ توارى النهار.

ربّما استند المفسّرون أيضاً إلى حديث رسول الله، إذ روي أنّه قال: «الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[٣].

فهي دابّة الحرب والسلام، أداة الكرّ والفرّ في الجهاد والطراد، مجلبة المغنم، مركبة النصر... وهي ـ علىٰ أيّ حال ـ مال.

* * *

---

١. البقرة: ١٨٠.

٢. ص: ٣٠ ـ ٣٣. ويذكر أنّ الدكتور وهبة الزحيلي ذكر في تفسيره المنير ٢: ١١٨ ضمن تفسير الآية: ١٨٠ من البقرة عن مجاهد قوله: «الخير في القرآن كلّه: المال». غير أن صاحب اللباب في علوم القرآن الإمام أبا حفص عمر بن علي الحنبلي الدمشقي (بعد سنة ٨٨٠هـ) قد ذكر في تفسيره لهذه الآية عن أبي العباس المقرئ قوله: وقد ورد لفظ «الخير» في القرآن بإزاء ثمانية معان، وهي المال، الإيمان، الفضل، العافية، الثواب، الطعام، الظفر والغنيمة، الخيل. وأتىٰ لكلٍّ منها شاهداً من القرآن. راجع اللباب ٣: ٢٣٤ ط١ دار الكتب العلمية لسنة ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٣. صحيح مسلم ٢: ٦٨٣ ب٦ من أبواب الزكاة ضمن ح٢٦، و٣: ١٤٩٢ ب٢٦ الخيل في نواصيها الخير... ح١٨٧١ عن ابن عمر.

اللوحة الرابعة

منعٌ أم امتناع

طابق الخبر حديث أُم المؤمنين، عندما قالت: ما ترك رسول الله شيئاً، ولا أوصىٰ بشيء، فقولها الحقّ الذي ليس بعده قول قائلٍ، ولا رؤية راءٍ، ولا سمع سميع.

فلقد نفت وجود تركة للنبي، حتّىٰ موقت رحيله، نفي شاهد عيان، ورفيق عِشْرة حضر لحظة الوفاة، وسمع منه عليه الصلاة والسلام آخر ما نطقت به شفتاه.

لمحته في ذلك اليوم القائظ[1] الحزين من صيف شبه الجزيرة، يميل على الزهراء وهي بجواره، فيسرّ لها كلمات، فتنحدر علىٰ وجنتيها الدموع... ثم يسرّ لها أُخريات، فينكشف الكرب، وتتبدّىٰ باسمةً طلقة الأسارير.

وشهدته بعد هذا وقد جيء له بإناء فيه ماء بارد، راح يغمس يده فيه، ويمسح بها علىٰ محيّاه، وسمعته وقد شقّ عليه النزع، يضرع إلى ربّه ويدعوه: «اللّهم أعنّي علىٰ سكرات الموت»[2].

فتحسّ به يثقل في حجرها، ويروّعها الموقف، ويأخذها هوله، فلا تملك إلّا أن تجمّد عينها عليه، وقلبه يكاد يكفّ عن الخفوق.

---

١. القائظ: الشديد الحرّ.

٢. مسند أحمد ٦: ٦٤، ٧٠، ٧٧، سنن ابن ماجة ١: ٥١٨ ب ٦٤ ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ من كتاب الجنائز ح١٦٢٣ عن عائشة.

وتروي لنا هذه السويعة الكريثة من عمرها البشرية، فتقول: فذهبت أنظر في وجهه، فإذا بصره قد شخص وهو يقول: «بل الرفيق الأعلىٰ من الجنة»[1].

كانت كلماته تلك جواباً لسؤال أتاه من وراء المجهول، أُذنه وحدها التقطته، لأنّه هو وحده الذي اختُصّ من دون الخلق بالتخيير.

فما أن يلقف سمع السيدة كلماته هذه حتّىٰ تقول: خيِّرتَ فاخترت والذي بعثك بالحقّ، علمت أنّها النهاية.

من قبلها علمتها فاطمة ـ حين الهمس ـ عندما غامت بالأسىٰ عيناها، ثم مالبث أن أشرق محيّاها بالسرور.

وتتمّ أُم المؤمنين روايتها فتقول: وقُبض رسول الله بين سحري ونحري[2].

فكانت آخر من سمعه ورآه قبل جوازه إلى الله... وكان ذلك آخر عهده بالحياة.

علىٰ هذ أجمع الرواة.

❋ ❋ ❋

فإذا تحدّثت عائشة من بعد عمّا فعل الرسول أو قال وسراجه يلفظ بقية أنفاسه، فحديثها إذاً هو القول الفصل، ونقطة الختام التي ليس بعدها كلام!

ولقد قالت في شأن ماله ما لم يدع سبيلاً إلى الظنّ بوجود مال، لم يترك شيئاً

---

١. مسند أحمد ٦: ٢٧٤، إتحاف السادة المتقين ١٠: ٢٨٨.

٢. أخرج ابن سعد في طبقاته ٢: ٢٦٢ ـ ٢٦٣ أخباراً من طرق متعددة عن جابر وابن عباس وكعب الأحبار والشعبي وعلي بن الحسين عليه السلام وعبدالله بن محمد بن عمر بن علي عن أبيه عن جدّه تروي أنّه صلى الله عليه وآله توفي في حجر علي عليه السلام.

وفي هذا السياق أخرج ابن سعد بسنده عن سليمان بن داود بن الحصين عن أبيه عن أبي غطفان قال: سألت ابن عباس: أرأيت رسول الله توفي ورأسه في حجر أحد؟ قال: توفّي وهو لمستند إلى صدر علي، قلت: فإنّ عروة حدثني عن عائشة أنّها قالت: توفّي رسول الله بين سحري ونحري! فقال ابن عباس: أتعقل؟ والله لتوفّي رسول الله صلى الله عليه وآله وإنّه لمستند إلى صدر علي، وهو الذي غسّله وأخي الفضل بن عباس، وأبىٰ أبي أن يحضر، وقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يأمرنا أن نستتر، فكان عند الستر.

يورث، ولأنّه لم يترك، فإنّه لم يوص؛ لأنّ الوصية لا تكون إلّا في ملك يمين، وقد صفرت يداه! ما ترك بيضاء ولا صفراء! كلّ ما كان يملكه قد سبق أجله بسنين أو بشهور أو بأيام إلى مجال العدمية والانتفاء.

حتّى الدرهم لم يكن له في جرابه مكان! ألم تقل عائشة نفسها عندما سُئلت عن ميراث الرسول: ما ترك رسول الله ديناراً ولا درهماً... قالت ذلك علىٰ سبيل القطع، لا على سبيل الاحتمال؟

ألم يتّجه باهتمامه كله ـ وروحه قد بلغت الحلقوم ـ إلى تلك الدنانير الزهيدة قيمةً، فأمر أكثر من مرّة أن يخرجوها من ملكه، ويتصدّقوا بها، ليلقىٰ ربّه وكفّاه نظيفتان من كلّ مقتنىً مملوك؟

إنّ الذي يُلفته لحظة النزع ذلك القليل الضئيل الذي يملكه، فيعني نفسه بالتخلّص منه كأنّما ليغتسل من درن، لأولىٰ بان يلفته الكثير الوفير لو قد كان في ملكه ما يُحسب ـ نسبياً ـ بالوفرة أو الكثرة، بالقياس إلى هذا القدر التافه من «النقود».

ثم لأولىٰ به أن يتصدّق بكلّ ما تصل قيمته ـ صعوداً ـ إلى الدرهم إذا أخذنا في الاعتبار قول عائشة الذي يدلّنا لفظه ومفهومه أنّه لم يترك شيئاً ممّا يطلق عليه اسم المال.

والدرهم ـ كما نعلم من عبارة السيدة ـ هو الحدّ الأعلىٰ لم «لم يتركه» رسول الله... ومن ثم فإنّ كلّ ما بلغ من مقتنياته عليه الصلاة والسلام قيمة الدرهم، حتىٰ أن يدخل في نطاق انتفاء الوجود عند الوفاة.

فإن نجد قائلاً يقول: إنّما يسري هذا على «العيون»، أو «المال السائل» كما نسمّيه الآن... ثم يتسائل: فما الرأي في «المال الثابت» كالأراضي والضياع؟ وفي «المال الراعي» كالابل والأغنام؟ عندئذٍ يقال: كلّها ينطبق عليه نفس الحدّ «العيني» المحدود.

فلقد ذكروا ـ كما سلف البيان ـ أنّ عمرو بن الحارث، أخا جويرية أم المؤمنين، قال: ما ترك رسول الله عند موته درهماً ولا ديناراً، ولا عبداً ولا أمة.

وأضاف: ولا شيئاً... ثم استثنىٰ إلّا بغلته البيضاء، وسلاحه، وأرضاً جعلها صدقة فحصر التركة في «المستثنىٰ» بغير زيادة ولا نقصان، وبلا سبيل إلى التأويل.

وروي عن السيدة عائشة ـ كما مرّ بنا ـ أنّه لم يترك أيضاً بعيراً ولا شاةً... وبهذا وذاك انتفىٰ عنه وجود أيّ نوع لديه ـ عند وفاته ـ من أنواع المال السائل، والمال الثابت، والمال الراعي، وكلّ ما يطلق عليه اسم المال، إلّا أرض الصدقة والبغلة والسلاح.

ومقتضى ما أوردناه يدلّنا علىٰ أنّه عليه الصلاة والسلام قد نجّز ـ قبل وفاته ـ العتق في جميع ما كان يملك من العبيد والإماء، وتصدّق بكلّ ما كان عنده من الأثاث والحيوان.

* * *

علىٰ أنّ ثمة آثاراً من أدواته الشخصية بقيت بعده، لا يلتفت إليها كميراث، ولا يتطلّع وريث، إلّا أن يكون احتيازها من أجل قيمتها التاريخية، ومن قبيل التيمّن والاعتزاز.

فمن ذلك خاتمه الذي كان يضعه في يمينه، وهو من فضّة، ونصّه منه، نقش عليه في ثلاثة أسطر: «محمد رسول الله»، «محمد» سطر، و«رسول» سطر، و«الله» سطر، وكانت كتابته مقلوبة ليُطبع على الاستقامة.

وقد استخدمه أبو بكر، واستخدمه عمر، واستخدمه عثمان حتّىٰ سقط منه في بئر أريس.

وكانت له أيضاً عُصية قيل: دُفنت معه، وسيف ظلّ عند علي، ثم انتقل إلى الحسين حتّى استشهد بالطفّ، فصار إلى ابنه زين العابدين.

وبُردة اشتراها أبو العباس، أول العباسيّين، تداولها بعده خلفاؤه، فكان الخليفة يلبسها علىٰ كتفيه يوم العيد، فيخرج بها وعليه من السكينة والوقار ما يصدع القلوب.

ونعل تدوولت حتّىٰ آلت إلى الملك الأشرف موسىٰ ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، فعظّمها، فلمّا بنىٰ دار الحديث الأشرفية إلى جانب القلعة، وضعها في إحدى خزائنها، فما زالت بها إلى الآن.

أمّا ركائبه، فليس في شيءٍ من الروايات أنّه مات عنهنّ إلّا بغلته البيضاء التي قيل: كانت هدية له من المقوقس صاحب الاسكندرية، وورد أنّها عمرت حتّىٰ صارت عند علي بن أبي طالب في أيام خلافته، وانتقلت بعده إلى عبدالله بن جعفر، وهي من الضعف بحال جعله يجشّ لها الشعير ويطحنه لتستطيع أكله[١].

* * *

فماذا بعد عمّا يقال: إنّه ميراث؟

صدقة المدينة؟ إنّها ـ كما نعلم ـ بقيّة من أرض بني النضير، وبساتين مخيريق.

فأمّا البساتين فقد أوقفها الرسول علىٰ خصوص ابنته فاطمة... الصدقة في الريع، والأصل لا يوهب ولا يباع.

وأمّا بقية فيء رسول الله من بني النضير، فقد هدأ النزاع فيها بين الزهراء وأبي بكر بعد وفاة بضعة الرسول... فلما اختصم علي والعباس فيها، علىٰ وجه الإرث، أبىٰ عمر عليهما ذلك، وقبضها عنهما سنتين من ولايته ...ثم بد له فردّها إليهما علىٰ أن يعملا فيها بما عمل رسول الله، وبما عمل فيها خليفتاه.

وظاهر الخبر أنّه أباحهما التنظّر عليها معاً، مجتمعين لا على انفراد... فقد تحرّج ـ فيما يلوح ـ أن يقسم النظر بينهما فيها بما يشبه قسمة الميراث ولو في الصورة الظاهرة محافظةً منه على امتثال حديث منع التوريث.

وطويت بهذا صفحة من صفحات الخلاف.

* * *

١. السيرة النبوية لأبي الفداء. (المؤلّف)

ثم ماذا عن خيبر؟

ماذا ـ أيضاً ـ عن فدك؟

أمسكهما جميعاً عمر... كان رأيه كرأي أبي بكر من قبل، قال: هما صدقة رسول الله... كانتا لحقوقه التي تعروه، ونوائبه، وأمرهما إلى من ولي الأمر.

ولقد نعلم أنّ الرسول خمسّ خيبر وسهّمها عندما فتحها الله عليه، فجعل «الشقّ» و«نطاة» في سهمان المجاهدين، وجعل «الكتيبة» خمس الله ورسوله وذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل.

وكان يعطي من خيبر لزوجاته ـ كلّ زوجةٍ ـ أوساقاً، من التمر: ثمانين، ومن الشعير: عشرين... سمعناه هذا وعرفناه.

وسمعنا وعرفنا أيضاً أنّه عليه الصلاة والسلام رضخ من خيبر لنسوةٍ من المسلمات ـ حضرن الوقعة معه ـ دون أن يضرب لهنّ فيها بسهم[1].

ثم سمعنا وعرفنا أنّ عمر بعد وفاة النبي قد قسم خيبر، فخيّر أزواج النبي أن يقطع لهنّ من الماء والأرض، أو يمضي لهنّ علىٰ ما كنّ عليه... وحدث الخيار.

* * *

ولا وجه هنا للتساؤل لماذا النبي أعطىٰ؟ ولماذا رضخ؟ وبأيّ معيار أو أيّ مقدار؟

فذاك حقٌّ له، يعمل فيه كيف شاء، وفقاً للقاعدة الإلهية التي تقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾.

إن هو أعطىٰ فشأنه والعطاء.

إن هو منع فلا مراجعة.

في أُولئكنّ النسوة المسلمات قيل: دون أن يضرب لهنّ بسهم، رضخ لهنّ ممّا

---

١. تاريخ الطبري ٢: ٣٠٦ من حوادث سنة (٧).

أفاء الله عليه من فيء بني النضير، وفي أُمهات المؤمنين قيل: كان يعطي أزواجه من خيبر أوساقاً من التمر والشعير: عشرين وثمانين.

والعبارة هنا تعني تكرار العطاء، تفيد الاستمرار.

إنّما يقع التساؤل في سلوك عمر إذ أعاد تقسيم «خيبر»، فأبقىٰ لمن آثرت من نساء النبي الوسق، وأبدل غيرها به الأرض والماء.

فهل فرض لهنّ بما أنهنّ سهماء؟ ربّما!... وإن لم يرد في هذا بيان صريح.

أم أعطاهنّ تكرّماً، فلماذا لم يجز نفس التكريم على الزهراء؟

أم قسم لهنّ ممّا بقي من سهم الرسول؟ لو صحّ هذا فإنّهنّ إذاً وريثات! ولخرق بفعله حديث منع التوريث، ولجبّ مبدأ إسقاط سهم رسول الله بالوفاة، ولخالف أيضاً مسيرة التاريخ... ثم لغلّف حديثاً لعائشة بالشبهات، وألقىٰ به في المدّعيات.

فلقد روي عنها: أنّ أزواج النبي حين توفّي رسول الله، أردن أن يبعثن عثمان إلى أبي بكر ليسألنه ميراثهنّ... فقالت عائشة: أليس قد قال رسول الله: لا نورث، ما تركناه صدقة؟[1].

يقول ناقل الخبر: فهذه إحدى النساء الوارثات ـ إن لو قُدِّر ميراث ـ قد اعترفت أنّ رسول الله جعل ما تركه صدقةً لا ميراثاً.

ثم يضيف: والظاهر أنّ بقية أُمّهات المؤمنين وافقنها علىٰ ما روت، وتذكّرن ما قالت لهنّ من ذلك، فإنّ عبارتها تؤذن بأنّ هذا أمر مقرّر عندهنّ، والله أعلم!

فجاءت إضافته من ناحية الاستنتاج، وليس من خلال الاستيقان، ذكّرت عائشة صويحباتها نساء النبي بحديث «لا نورث» فتذكّرن، وقد كنّ نسين!!

والمرء لا يكون بحاجة إلى من يذكّره بشيءٍ هو من أخصّ خصوصياته، وأولاها عنده بالاهتمام، لأنّه شيء يتّصل بحياته اليومية: مال... ركيزة العيش والقوت.

فإن نسيه، فربّما لأنّه من الضآلة بحيث لا يجدي عليه أو لا يكاد، أو لأنّه قد

---

١. رواه ابن أبي الحديد في الشرح ١٦: ٢٢٠، ٢٢٨ عن الزهري عن عروة عن عائشة.

مضىٰ علىٰ عهده به وقت أنساه، أو لأنّه فقد قيمته ولم يصبح حقيقاً بالادّكار.

فإذا كان كذلك من الناحية المادية، فما القول في ثقله المعنوي، إذ هو خيرة من ذخائر تعاليم رسول الله، ولبنة في صرح شريعته الشامخ، وزوجاته أجدر بأن يحفظنه لأنّهنّ اختُصصن به؟

لكنّهنّ ـ فيما بدا من حديث عائشة ـ قد غفلن عنه، هوى منهنّ في جبّ النسيان!

وكيفما كان الأمر، فتلك دلالة واضحة علىٰ أنّ حديث: «لا نورث» الذي سمعه أبو بكر من النبي، لم تتحرّك به شفتا رسول الله إلّا في «ماضٍ» أتاح نسيانه، لا يحسب ما بينه وبين وفاته عليه الصلاة والسلام بالشهور والأيام، وإنّما بالأعوام.

* * *

ثم لعاجب أن يعجب: كيف يتّفق لنسوة النبي جميعهنّ، إلّا واحدة، أن ينسين هذا الحديث؟!

لقد علمنا أنّ الرسول تزوّج خمس عشرة امرأة... ودخل بثلاث عشرة منهنّ، وجمع بين إحدىٰ عشرة، ثم توفّي عن تسع نساء.

فهل يسهل أن تنسىٰ ذلك الحديث ثمانٍ من تسعٍ، لا همّ لهنّ إلّا العناية بالزوج، وتلقف كلّ كلمةٍ يقولها، وكلّ فعل يأتيه، إذ هنّ أولى الناس بالاصغاء والاقتداء؟!

وهل هو من قبيل المصادفة وحدها أن ينسين هذا الحديث في نفس الوقت الذي تأبىٰ فيه فاطمة الائتمار به، واتّباع ما جاء فيه؟!

لو حدث لهذا، فإنّها إذاً الصدفة التي تقارب الخيال، أو تشبه المحال!

فأمّا وقد تواكب النسيان والإباء، فلا محالة إذاً من افتراض أنّ الحديث إنّما جاء في «امتناع» التوريث، وليس في «منع» التوريث.

والتوريث «حَدَث» له عمر زمني، كغيره من الأحداث... ومن ثم فإنّ «منع» وقوع أيّ حَدَث، إنّما يكون نتيجة لحركة قوة خارجة عن إطاره، تحول بينك وبينه، وتحرمك القدرة علىٰ بلوغه، فإذا هو في متناول يدك ولكنّك لا تستطيع مدّها إليه...

تماماً كأن يمنعك طبيبك السير وقدماك لا تزالان معك... وكأن تتلبّد الغيوم وتكثف فتحرمك رؤية صفاء السماء، والصفاء موجود!

أمّا «امتناع» وقوع الحَدَث، فلا يكون إلّا بسبب قوة ذاتية فيه، ومن داخله، كفّته عنك، وكفّتك عنه، فاستحال عليك إتيانه، لأنّه خارج من نطاق الممكن، وداخل في نطاق المستحيل... بات في الماضيّة لا في الحضورية، غدا معدوماً أو كالمعدوم.

من هنا فنحن من الحديث القائل: «لا نورث ما تركنا صدقة» أمام وجهين:

أن يكون الرسول قد قضىٰ بمنع توريث أيّما شيءٍ تركه وراءه، فوقع «المنع» موقعه من إرثه، من لحظة قضائه بذلك حتّىٰ لحظة وفاته، ثم ظلّت له القدرة على الاستمرار.

وإذا كنّا لا نعلم متىٰ وقع «المنع»، وأين، وفي أيّة مناسبة، فإنّنا بلاشكّ أحرياء بأن نعلم أنّه لابدّ قد وقع في حضورية أبي بكر، والنبي في الأحياء.

مصداق هذا: أنّ أبا بكر وهو يروي الحديث قال: سمعت رسول الله يقول... ولم يقل خليفة الرسول: سمعت «أنّ» رسول الله قال.

وبهذا تكشّف كلام الخليفة الأول عن «ماضية» السماع، فهو إذاً قد تلقّىٰ أمر المنع من المانع، ولم يتلقّه من امرئ سواه.

وأمر المنع قد وقع علىٰ شيءٍ كان ملكاً موجوداً، يخضع لشريعة المواريث... ثم انعدم وجود هذا الملك، أو تعطّلت خصيصته التوريثية على الأقلّ، ما أن نطق النبي بذلك الحديث الذي سمعناه ينقل به «ما تركه» إلى وعاء «الصدقة» من وعاء «الملكية» الذي يجوز التوريث في محتواه.

وحالة «الأمرية» ممتدّة هنا علىٰ مدار الأجيال والسنين، تحسب أن يظهر فيما بعد إرث كان مجهولاً، فيفلت من قيد التطبيق.

فالمنع لا يتعلّق بفترة زمنية محدودة، لكنّه مستمر... قانون قائم دائم.

* * *

هذا وجه.

والوجه الثاني: أن يجيء حديث الرسول في صورته التقريرية تلك بياناً لانعدم وجود ما يورث.

أو أن يكون قد سُئل في مالٍ تركه لم يعرف بعضهم مصرفه، فبيّن لهم قائلاً: «ما تركنا صدقة».

ولسنا نذهب مذهب القائلين بأنّ «ما» هنا نافية، فيكون المعنىٰ: لم نترك صدقة... ويحقّ بهذا انحصار المتروك في التوريث، إنّما نقول: هي اسم موصول بمعنىٰ «الذي»؛ لاستقامة التصوير مع مطلق عبارة الحديث.

علىٰ ذلك فإنّ صيغة الحديث تفيد «الماضيّة»، وتشكّل خبراً عن حدثٍ قد ثبت وقوعه... وظاهر الصيغة هكذا: أبعد من أن يحمل معنىٰ «المنع»، وأقرب إلى أن يحمل معنىٰ «الامتناع».

هذا هو ما يمكن تبيّنه من البناء التعبيري للحديث المعروض.

فإذا كان لابدّ من دلالةٍ لتوكيد ذلك، فكفانا قول عائشة، وقول عمرو أخي جويرية، ثم ما نقله إلينا غيرهما من الأُلىٰ تحدّثوا عن انتفاء تملّك الرسول عند موته أيّ نوعٍ من أنواع المال.

وكفانا أيضاً أنّ صحائف التاريخ تظهرنا علىٰ هذا الانتفاء، فنقرأ فيها أنّ رسول الله في حياته قد وجّه ماله إلى الصدقة، وأنّه ـ قطعاً ـ لم يخلف إرثاً يورث، فكيف يتأتىٰ أن نجد فدكاً في يمينه لحظة وفاته؟ ثم ترىٰ وهي تركة تمتنع أيلولتها إلى فاطمة بحكم حديث: «لا نورث» كما امتنعت كنحلة، بحجّة تهافت البيّنة؛ لنقص النصاب العددي للشهادة؟

الفصل الحادي عشر

- هل النبوة ميراث؟
- قالوا... وقال الله
- وما فدك؟!

اللوحة الأُولىٰ

هل النبوة ميراث؟

رحل ونوره بين يديه... وكان نوره عمله.

أمّا كفّه فكانت فارغة من النشب والمتاع، ما ترك وراءه ملكاً أو قنية... لا من مال سائل، ولا من مال سائم، ولا من عقار.

وهل كان له هوىً في أرب خاص؟ أو غرض في عرض؟

بل العاجلة زائلة... دار غرور... زخرف حائل، كلّ ما فيها هباء منثور، إن هي إلّا سلعة بائرة[1]، تجارة خاسرة، عرض حاضر، يأكل منه البرّ والفاجر، ثم يذوب في الأجل... كحبّة ملح أُلقيت في بحرٍ زاخرٍ... يذوب! كنفس سراج جفّ زيته وكفّن في الظلمة: كخفقة حلم قتلته اليقظة.

وقد أفلح من عاش دنياه علىٰ جوعتين وشبعة، ثم غادرها إلى الخلود... نفسه راضية مرضية، ضميره رائق كقطرة الندىٰ، قلبه ناصع كلؤلؤة، جبينه نقيّ كالفجر، يده طاهرة من قتر الاقتناء... وكيانه كلّه لله.

* * *

ولقد ذهب محمد إلى ربّه كيوم ولد، لم يدع وراءه من متاع الدنيا قدر نقير أو

---

١. سلعة بائرة: إذا كسدت.

قطمير[١]، ما خلّف «تركة»... ولا ترك «وصية»... ولا جعل «صدقة» غير صدقة المدينة التي عرفنا أن قد بيّنها وأجمعت عليها الروايات.

فأين إذاً يمكن أن تدخل «فدك» وقد سدت دونها أبواب كلّ أولئك الثلاث من صور أيلولة المال؟

* * *

إنّ خلاصة الخلاف في أمر «فدك» بين الطائفتين المتنازعتين عليها: أنّها كانت على طريقين يلتقيان فيّتفقان، ثم ينشعبان فيفترقان.

فأمّا الاتّفاق فعلىٰ أنّها كانت ملكاً لرسول الله، آلت إليه بحكم الله، يصنع فيها ما يشاء.

وأمّا الاختلاف فعلىٰ أنّها في نظرة أُولي الطائفتين قد انتقلت من يد رسول الله الىٰ يد ابنته قبل وفاته بوقتٍ طويل أو قصير... فهي بهذا ليست في إحدى الأيلولات الثلاث... بل هي ملك لفاطمة خاصّ، ولها باب خاصّ لكنّها في نظرة الطائفة الثانية ظلّت في يمين الرسول حتّىٰ مات، ومن ثم دخلت في باب «التركات»، غدت إرثاً ينقسم بين مستحقّيه... ثم أُعيد فيها النظر من خلال منطق «لا نورث»، فتعطّلت أيلولتها الوراثية، لتصبح في المال العام.

* * *

وهكذا نشب الخلاف، وتبودل بين الفريقين في شأنها حوار موصول، وجدال ما زال.

قيل[٢]: بعيداً من الخصومة، بعيداً من زمانها، بعيداً من الشبهة فيها... يمكن إجمال ما وقر في أذهان المسلمين الثقات في أمر «فدك»، بكلمةٍ قالها ـ بعد ثمانين سنة أو

---

١. النقير: النكتة في ظهر النواة، والقطمير: القشرة الرقيقة بين النواة والتمر، وكلاهما كناية عن الصغر والقلّة.

٢. فاطمة الزهراء والفاطميون، لعباس العقّاد. (المؤلّف)

نحوها من الخلاف عليها ـ عدلٌ من العدول وهي عندئذٍ في يديه، ينزل عنها باختياره، لا يدعوه إلى ذلك داعٍ غير وحي ضميره... ذلك عمر بن عبدالعزيز.

فلقد ذكروا: أنّه قال في مستهلّ عهده بالخلافة: إنّ فدك كانت ممّا أفاء الله علىٰ رسوله ولم يوجف المسلمون عليها بخيلٍ ولا ركاب، فسألته فاطمة إيّاها، فقال: ما كان لك أن تسأليني، وما كان لي أن أعطيك، فكان يضع ما يأتيه منها في أبناء السبيل.

ثم ولي أبو بكر وعمر وعثمان وعلي فوضعوا ذلك بحيث وضعه رسول الله، ثم ولي معاوية فأقطعها مروان بن الحكم، فوهبها مروان لأبي ولعبدالملك، فصارت لي وللوليد وسليمان... فلمّا ولي الوليد حصّته منها، فوهبها لي، فاستجمعتها... وما كان لي من مالٍ أحبّ إليّ منها... فاشهدوا أنّني قد رددتها إلى ما كانت عليه...[1].

فهل ردّها لتكون ـ كما جاء بصدد هذا الخبر ـ في أبناء السبيل؟

يناقض هذا ـ ما سيرد من بعد علىٰ لسان أبي بكر، وأقرّه عليه عمر وابن عوف ـ أنّ رسول الله كان يأخذ من فدك قوت أهله ثم يقسم الباقي، ويجعل منه في سبيل الله.

وأغلب الظنّ أنّه ردّها علىٰ بني فاطمة، اعترافاً بحقّ أُمّهم فيه نحلة، ووفقاً لما أوردت روايات أخرىٰ عن عمر بن عبدالعزيز، والمأمون بن الرشيد.

ومع ذلك، فما كان لينبو بابنة الرسول أن تملك «فدك»، وينفق منها رسول الله وهي في يده، علىٰ نحو فعله بها وهي ملك يمينه، قبل أن يخرج عنها للزهراء.

* * *

والذين أنكروا علىٰ فاطمة النحلة لم ينكروها ذاتاً، وإنّما أنكروها شكلاً، لافتقار البيّنة علىٰ ملكّيتها إلى اكتمال نصاب الشهادة.

---

١. فتوح البلدان للبلاذري: ٤٦، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦: ٢٧٨.

فلم يكن في النحلة ما يخالف المألوف... ولقد نحل محمد صاحبه أبا بكر أرضاً، فلم يلق ذلك التفاتة اعتراض... ثم نحل أبو بكر هذه الأرض ابنته الأثيرة: عائشة، فظلّت في يدها بضع سنين دون أن يثور حولها تساؤل متسائل، أو نجد امرؤاً طالبه أو طالبها بالبيّنة على ملكيتها بشهادة مكتملة ـ أو منقوصة ـ النصاب!

ويبدو أنّ هذه الواقعة قد حدّت هوناً من تشدّد المتشدّدين في مخالفة حقّ فاطمة في فدك، فجنح أصحاب بعض الروايات إلى التخفيف من المعارضة، ومالوا الىٰ الملاينة في الحساب!

تلطّفوا في التصوير وفي التعبير، فتجنّبوا التطرّف، كأنّما قد آثروا التقريب بين السلب والإيجاب!

في إحدى المحاورات التي كثر تبادلها بين فاطمة وأبي بكر، نرىٰ فاطمة تتمسّك بحقّها في ميراث أبيها، فيقول لها الخليفة: إنّ رسول الله قال: «إنّا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة».

فتحتجّ عليه بقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾[1] وبقوله سبحانه في شأن زكريا إذ دعا ربّه: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾[2].

فتجيئنا الرواية بردٍّ لأبي بكر هو صيّب من الرقّة واللطف علىٰ غير ما ينتظر تصويره بأقلام المعارضين والمخالفين!

يقول الشيخ: يا بنت رسول الله، أنت عين الحجّة، ومنطق الرسالة، لا يد لي بجوابك، ولا أوقعك من صوابك، ولكن هذا أبو الحسن بيني وبينك هو الذي أخبرني بما تفقدت، وأنبأني بما أخذت وتركت.

والكلام علىٰ هذه الهيئة التي وضعها راوي الخبر علىٰ لسان أبي بكر، هو أدنىٰ

---

١. النمل: ١٦.

٢. مريم: ٥ ـ ٦.

إلىٰ المجاملة الرقيقة منه إلى المواجهة بالحقيقة التي كان يستيقنها الرجل ـ حسبما دلّتنا المحكيات ـ ثم أمسك هنا عن ذكرها، كياسةً وحسن سياسة، مؤثراً المحاسنة على المخاشنة، ورفق الملاينة والمهاودة علىٰ جفوة الصرامة والإنكار.

وهل جاءنا نبأ يقول: قد علم أبو بكر من علي حديث انتفاء توريث النبي؟ أم المشهور الشائع، الذي يشبه الإجماع، أنّه هو الذي سمع الحديث من رسول الله، ثم رواه، ثم أخذه عنه صحابة رسول الله الذين ردّدوه؟

* * *

ويدور حوار آخر حول نفس الموضوع، فيقول أبو بكر: يا ابنة رسول الله، والله ما ورّث أبوك ديناراً ولا درهماً... وأنّه قال: الأنبياء لا يورثون.

قالت فاطمة: «إنّ فدك وهبها لي رسول الله».

قال: فمن يشهد بذلك؟

فجاء علي فشهد... وجاءت أم أيمن فشهدت أيضاً.

ثم جاء عمر بن الخطاب وعبدالرحمان بن عوف فشهدا أنّ الرسول كان يقسمها.

وعندئذٍ قال أبو بكر: صدقت يا ابنة رسول الله، وصدق علي وصدق عمر، وصدق عبدالرحمان... ذلك أنّ مالك لأبيك! لقد كان رسول الله يأخذ من فدك قوتكم، ويقسم الباقي، ويجعل منه في سبيل الله.

وسألها: فما تصنعين بها؟

أجابت: «اصنع بها كما يصنع أبي».

قال: فلك على الله أن أصنع كما يصنع فيها أبوك!

فاستحلفته: «الله لتفعلنّ؟».

فأقسم: الله لأفعلنّ!

قالت: «اللّهم اشهد!».

فكان أبو بكر يأخذ غلّة فدك فيدفع إليهم منها ما يكفيهم، ويقسم الباقي... وكان عمر كذلك، ثم كان عثمان كذلك، ثم كان علي كذلك[١].

* * *

ويلفت النظر في هذا الحوار أنّ أبا بكر قد أعلن تصديقه جميع الذين شهدوا، لهذا الرأي أو لذاك... إلّا أُم أيمن!

فقد التفت عنها، وأغفل الإشارة إلى ذكرها، بتصديقٍ أو بتكذيب!!

وإن كان لهذا من دلالة، فإنّه يكشف لنا أنّ راوية الخبر كان من بين الأُلىٰ أسقطوا شهادة هذه السيدة الفاضلة، مرّةً بحجّة أنّها امرأة، ومرّةً بحجّة أنّها أعجمية لا تجيد التعبير!

* * *

وقد استفاض الحديث في «فدك» أقصى استفاضة، وبلغ الحوار والنقاش فيها حدود الغلوّ في اللجاج، حتّىٰ ليتبيّن للناقد المتفحّص أنّ المراد منه لم يكن إثبات النحلة، أو نفي وقوعها، بقدر ما هو «مناظرات أدبية» قصارىٰ الهمّ من ورائها إبراز براعة الفريقين المتعارضين في استنباط براهين وحجج يتصاولان بها تصاول الفرسان في مواقع الطعان، وكلٌّ يبتغي الفلج بمنطقه علىٰ غريمه وإن لم يصل أيّهما فيها إلى مقطع الحقّ وفصل الخطاب.

ولا نبالغ إن قلنا: إنّ أبرز جانب من هذا الحديث استشرى الجدال فيه هو انتفاء وراثة الأنبياء.

ففي هذا الجانب أكثر القوم التأويل، حتّىٰ لنراهم قضوا بحتمية قبض أنبياء الله أيديهم عن توريث أبنائهم ما فيها من متاع.

ولزموا لزوم ما لا يلزم، فذهبوا في تأويلهم بعيداً، مقرّرين: أنّ النبي ـ أيّ نبي ـ

---

١. فاطمة الزهراء والفاطميون، للعقاد. (المؤلّف)

إن ورّث شيئاً، فإنّما لا يورث إلّا نبوّةً وحكمةً، وعلماً لدُنيّاً من عند الله.

فالأيلولة هنا ـ من الأب لولده ـ أيلولة روحانية، محورها الدين، وليست أيلولة مادّية محورها المال.

وبغير هذا تقول صيغة «الحديث»... ذلك أنّها، وإن نفت توريث الأنبياء نشب الدنيا، فهي لم تشر إلى النبوّة كميراث.

ونحسب أنّ كلّ ما ورد في هذا الموضوع من تأويلات، إنّما جاء بآخرة، ولم يأتِ في زمان الخلاف على النحلة، ولا عاصر القول بحديث: «الأنبياء لا يورثون».

أم من ذا الذي علمناه ـ من بين المحدّثين الأوّلين، وأصحاب رسول الله ـ رأىٰ أنّ النبوة تركة، فلم يعصمها ـ برأيه هذا ـ من أن يجري عليها ما يجري على التركات المالية التي تقسم على الوَرَثة أنصبة معلومة بحسب درجات القربىٰ من الظهور والبطون، لكلّ ذي درجةٍ نصيب محسوب؟

أبو بكر نفسه، الذي نقل إلينا: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» لم يقل مثل هذا المقال.

إنّما النبوة اجتباء وإذا كان من العلم ما هو كسبي، ومنه ما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء، فالنبوّة كلّها نور.

الله يجتبئ لنبوّته من عباده من يشاء، بتقديره الإلهي يختار... لا بمنازل الجاه، ولا بصلات الأنساب، ولا بمعايير الثراء... ثم يؤدّب ـ سبحانه ـ عبده المختار فيحسن تأديبه، ثم يؤتيه من فضله، ويعلّمه ما لم يكن يعلم، ثم يؤهّله بالكمالات، فإذا بلغ قدرة الأداء والتبليغ، بعثه لنشر دعوته، فينطلق بها، مبشّراً ومنذراً، ليفيض على الناس الهداية والنور.

وأيّما امرئٍ يملك مالاً، فإن ملكيّته تكسبه حقّ التصرّف في هذا المال، فيعطي منه وينفق، ويتصدّق، ويقطع، ويوزع على الوجه الذي يرتضيه.

أفئن أُوتي النبوّة، وتفرّد بها من دون قومه، أيتصرّف فيها تصرّفه في المال؟

كلا، ولا جدال!

فالنبوّة من أمر الله، وما كان من أمر الله لا حكم فيه إلّا الله.

وأيّما نبي فإنّه بشر، ومن ثم فهو لا يسلم من التأثّر ببعض مشاعر النفس الإنسانية، وميولها الفطرية التي قد تهذّبها التربية النبوية، ولكنّها لا تجتثّها من الجذور.

فماذا لو مالت به عاطفته لأحد ولده ـ دون بقيّتهم ـ ميلاً يدفعه إلى تفضيله؟

لكأنّه يودّ أن يورثه! وأنّى له! أو يشركه في أمره! فكذلك دعا موسىٰ ربّه، إذ قال له: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَٱجْعَل لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[1].

* * *

إنّ للعاطفة دوراً لا ينكر أثره في تشكيل حياة الانسان، وفي توجيه سلوكه وسلوك من حوله ن الألىٰ تمسّهم آثارها، قربوا منه أو بعدوا عنه.

ولقد شهدنا صوراً لتأثّر الأنبياء بميول عاطفية وقفوا أمامها خافضي الجناح!

ولا تثريب عليهم ما صفت خلائقهم، فهذا من لوازم الفطرة وطبائع النفوس.

ألم تر إلى نبي الله يعقوب إذ يؤثر ولده يوسف حبّاً علىٰ إخوته، فتنال منهم الغيرة منالها، حتّىٰ لنجدهم يكيدون لأخيهم كيداً، فيهمّون بقتله، وتهمّ أن تعود إلى الحياة ـ في أشخاصهم ـ عشرة قبابيل؟!

ألم تر إلى سيد الرسل والبشر: محمد يعدل بين زوجاته في لياليه، ثم لا يسعه أن يقسم بينهم عاطفته بالسويّة، فيقدّم إحداهنّ على البقية، لأنّ قلبه ليس بيده بل بيد مقلب القلوب؟

* * *

---

١. طه: ٢٤ ـ ٣٢.

وما تطارح به أهل التأويل من حوار يكاد أكثره يكون أقرب إلى العبث والثرثرة ولغو الكلام الذي نراه مسطوراً، فلا نقع منه إلّا قطرات من المداد تـتابعت تشكّـل ألفاظاً وعبارات لا تبسط رأياً، ولا تشغل حيّزاً من فكر مفكّر، لأنّها خاوية جوفاء، قد أفرغت من أيّ مضمون!

وتعال فانظر كيف ذهب بعضهم في وراثة الأنبياء مذهباً شـطح بـهم إلى أبـعد الحدود!

ظنّوا أنّ دعوة زكريا حجّة بالغة علىٰ توريث النبوّة، وارتكزوا في ظنّهم هذا إلى زكريا إذ نادى ربّه نداءً خفياً، قال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً * وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾.

فاستجاب له الله: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ٱسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَـبْلُ سَمِيّاً﴾[١].

فأمّا وزكريا نجّار فقير، لا يكاد يحصل علىٰ قوت يومه إلّا بشقّ نفسه، فأيّ إرثٍ إذاً سيترك لولده الذي رزقه الله؟

لا شيء إلّا النبوّة؛ لافتقاره إلى كلّ ما عداها من ضروب المواريث!

ومصداق نظرتهم هذه أنّ الله استجاب لشرط الطالب فآتاه المطلوب! وليس فوق هذا علىٰ توريث النبوّة دليل قاطع، كما يحسبون!

* * *

وتعال أيضاً فانظر، كيف يقال: إنّ امتناع وراثة شيء عن الأنبياء إلّا نبوّتهم، إنّما يعني انفساح مجال إرث البنوّة لكلّ الأبناء!

ومقتضىٰ هذا القول أن يكون كلّ أولاد آدم أنبياء!

---

١. مريم: ٤ ـ ٧.

وكلّ أولاد رسول الله ...!!

وهذا تحميل للحديث بما هو فوق ما يطيق، وهو نتيجة معتسفة[1]، وتلاعب بمنطق الجدال، وخرق للبداهة.

ولئن جاز أن يحرز ولد نبي شيئاً من علم أبيه، فمرجع الأمر ـ بدءاً ـ إلى الاكتساب.

ومع ذلك فلسنا ننكر أن الله قد يودع صدر أحد خلقه علماً لم يطّلع عليه هذا من أنبيائه أو ذاك، ثم لا يطعن هذا في نبوّة النبي، ولا ينال من قدرة ولا كفايته لما اختير له.

فمن العلم ما هو كسبي، ومنه ما يقذفه الله في قلب أحد عباده الصالحين.

وبين يدي هذا الذي نشير إليه، قصّة موسىٰ وفتاه، التي أوردها القرآن.

إذ انطلقا ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً * قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً * قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ ٱللهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً * قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾[2].

فانطلقا... لكن صحبتهما لم يكتب لها أن تطول.

أعجز موسىٰ فهم ما كان العبد يفعله، ولم يطق ألّا يسأل؟

وضاق العبد الصالح بإلحاف النبي بالسؤال... وافترقا إلى غير لقاء.

---

١. معتسفة: ظالمة، منحازة.

٢. الكهف: ٦٥ ـ ٧٠.

اللوحة الثانية

قالوا... وقال الله

هنا وهناك غُلواء في الجدال.

راحوا يتصيّدون الهنّات، ويفترضون الافتراضات، ثم يبنون عليها النتائج، ويستخلصون منها الأدلة... كلٌّ بحسب براعته المنطقية، وقدرته على الاستنباط!!

ويتوالى الحوار... ويتشعّب شعباً شعباً.

وكأنّما الإرث غاية! وكأنّما الفطرة البشرية التي تعمل لحفظ النوع الإنساني حريّة بأن تتعطّل وظيفتها، ويمّحي هدفها، ما لم يدعمها إرث: نبوّةً أو مالاً كان!

فربّ سائل يسأل: أيخالف المعقول أن يرث الابن ثروة أبيه، ويرث معها نبوّته؟ أم يرث النبوّة وحدها وتنحجب عنه وراثة المال؟

علىٰ غير هذا تدلّنا حال سليمان، فلقد اجتمع له الملك والنبوّة كما اجتمعا لأبيه.

أُوتي وداود من كلّ شيء ـ على وجه التعميم ـ لا على الاقتصار بالنبوّة وحدها دون قوة المال، ودون صولة السلطان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالاَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾[1].

---

١. النمل: ١٥ ـ ١٦.

ثم قد يسرح الخيال بالمتسائل والتسآل إلى نبيٍّ له ولد ضلّ واتّبع هواه وصدف عن دين الله، أترىٰ يصل إليه شيء من نبوّة أبيه؟

أم نبوّة الولد يكون فيها شيء من صفات أبيه وإن كان ذلك الأب قد خالف عن ذكر الله؟

مثلان ضربهما تعالىٰ، أنّ النبوّة لا يتقدّم بها ـ ولا يتأخّر ـ نسب من الأنساب.

مثل الأب كمثل أبي إبراهيم، إذ قال له ابنة: ﴿يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً * يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيّاً * يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾[1].

ومَثَل الابن كمَثل ابن نوح، إذ ركب أبوه ومن أسلموه مع الفُلك ﴿وهي تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾[2].

فأخذت الرحمة نبي الله علىٰ ولده، فناداه وكان في معزل: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَن رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[3].

فالنبوّة إذاً خصوصية... لا تعطي من نفسها أباً لأجل ابنه، ولا ابناً لأجل أبيه... فأخرِ بها ألّا تكون في المواريث.

* * *

ومع ذلك فقد يقال: بل لا تكون وراثة النبوّة في عموم الأبناء، وإنّما يجتبي الله لها من بينهم من يشاء.

---

١. مريم: ٤٢ ـ ٤٦.

٢. هود: ٤٢.

٣. هود: ٤٢ و٤٣.

عندئذٍ يقال: إنّها إذاً اجتباء... وظيفة اجتماعية ـ لو جاز التعبير ـ تتسنّم ذروة الاجتماع، لأنّها قائمة علىٰ قدسية الاختيار، يختصّ بها الله من اختار من خلقه علىٰ أساس من مشيئة ربانية، لا علىٰ أساس أصلٍ أو نسبٍ أو حكمةٍ أو ثروةٍ أو جاه.

يستوي عندها من يمدد إلى نبيٍّ بوشيجه[1]، ومن لا يمدد بسببٍ من الأسباب، فيها تتّسع مشيئة الله للأبوّة والبنوّة والأُخوة، كما تتّسع أيضاً لم لا يرتبطون بأي صلةٍ من دم.

فها هم أُولاء إبراهيم وولده اسماعيل... وزكريا وابنه يحيىٰ... وموسىٰ وأخوه هارون... كلّهم أنبياء، لكنّهم لم يتنبّأوا عن طريق الميراث.

ثم هذا عيسىٰ بن مريم نبي رسول، ولا أب له يعزىٰ إليه توريثه نبوّته، أفأراده الله دليلاً علىٰ أنّ النبوّة لا تنحدر في الأصلاب؟

* * *

ومع ذلك، فلا ينبغي أن يتطرّق ظنّ ظانٌّ إلى أنّ امتناع وراثة الابن نبوّة أبيه يعني انتفاء قاعدة الوراثة بمعناها العام.

فالوراثة عملية بيولوجية، تبدأ نشاطها في الخلية الإنسانية، وبها تنتقل إلى الفرد صفاته البدنية، وسماته العقلية التي يكتسبها من أبويه، ثم تنمو هذه الخصائص وتتبلور فيه كلّما تكاثرت خلاياه، واتّسعت رقعته الكيانية على امتداد عمره الجنيني وما يليه من أطوار حياته الدنيوية، حتّىٰ يغدو بشراً سوياً، من بدنٍ ونَفسٍ وروح، متميّز الصفات؛ متكامل الذات.

وليس عجيباً أن يجري علىٰ هذا السنن «الميسّر ـ المعقّد» توارث الخصائص، وتوالي الأطوار، وإنّما العجيب ألّا تنتظم هكذا في سلكها المقدور.

فهذه هي حركة الحياة... وهي قدرة خالق قدير.

---

١. الوشيجة: الصلة، الرابطة.

والمقابلة بين فاطمة والرسول لا تخفي عنّا آثار هذا التطوّر والانتقال.

وأول ما يتبدّىٰ لنا في فاطمة من ملامح خلائقها ومعالمها النفسية الموروثة: تلك القوة الإيمانية الجبّارة التي أمدّتها بيقينٍ صابرٍ عنيد، يساند الحقّ، ويلزم سمته، ويواكب مسيرته مهما اعترضتها العقبات، وحالت الحوائل، وتألّبت[1] عليها الخصومات.

وهل أظهر صورةٍ للعناد في نصرة الحقّ، والصبر علىٰ مكاره طريقه من أن تقف قريش بقضّه وقضيضها[2]، بخيلها ورجلها، بمالها وسطوتها في وجه محمد، فلا تستطيع أن توهن عزمه أو تردّه خطوة إلى الوراء؟

واعدته الثراء والملك، وتوعّدته العذاب والهلك ليطرح عنه الأمر الذي جاءها به، ودعاها اليه، فلم تلن قناته، ولم يأبه فتيلاً بالوعد أو الوعيد، بالسلطان أو الموت، وإنّما ثبت حيث هو، وقال بكلّ الثقة والإصرار: «والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري علىٰ أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته»[3].

وتكشف القوة الايمانية في الزهراء عن معدن نقيٍّ كالذهب، صلب كالفولاذ، هو عماد شخصيةٍ مستقلّةٍ منفردة، لا تخضع لعنف، ولا تُوخذ بلين، ثم لا يغفل لها قدر ولا يهمل حساب.

ولئن كان ميراث هذه القوة قد انتهىٰ اليها من خلال أبٍ وأُمٍّ هما مَثَلان فريدان في الآباء والأمهات فلقد يغني هنا أن يقال: إنّ ميراثها من أبيها يغطّي كلّ ميراث.

إرث إيماني، ثريّ بلا حدود، هو ملء الأرضين وملء السماوات، انتقل من أبٍ هو أعظم من ارتقىٰ بالعقيدة في ذهن الإنسان إلى أعلى درجةٍ من درجات الربوبية

---

١. تألّب: تجمّع وتحشّد.

٢. أي جميعهم، يقال: جاء القوم قضّهم وقضيضهم، أي كلّهم وجميعهم.

٣. أخرجه الألباني في السلسلة الضعيفة: رقم (٩٠٩).

التي بلغتها أطوار الأديان على امتداد الزمان، وحفر في الوجدان البشري صورةً من التنزيه لإلهٍ سميع بغير أُذن، بصيرٍ بغير عين، باطشٍ بغير يد، مبدعٍ بغير أداة، مالكٍ بغير شريك، واحدٍ بغير شبيه، ليس كمثله شيء حين تذكر له جلائل الصفات.

وإرث إيماني ثريّ، من أُمٍّ هي أطهر النساء، آتاها الله حسّاً دينياً مرهفاً، قبست بعضه من أبيها «خُوَيْلد» الذي عرفته الدنيا في إحدىٰ تردّياتها الدينية، رجلاً قويّ الشكيمة في تديّنه، لا يداري في معتقده ظروف زمانه، ولا يترخّص فيه، بل نراه يقف وحده، وليس معه سوىٰ يقينه، في وجه «تبّع» الآخر حين سوّلت نفسه له انتزاع الحجر الأسود من بيت الله، واحتماله بعيداً عن مكانه المقدّس إلى اليمن في الجنوب.

عندئذٍ نازعه خويلد، ولم يخش علىٰ نفسه منه سطوة الصولة، وغشم السلطان.

بقوة يقينه تصدّىٰ له تصدّي الجبل الأشمّ للأعصار، غيرةً منه علىٰ هذا المنسك من مناسك دينه أن تُنتهك حرمته ويُستباح.

فهل راعه من العاهل جبروت؟ بل روَّع تبّع أعظم ترويع.

ذكروا: أنّه رأىٰ في منامه ما قوّض عزمه، فاندكّت رغبته، وانهدت نزعته، وأصبح وهو يبارح موقعه، وقد خلّف المنسك المقدّس حيث كان[1].

إرث إيماني من أبي الزهراء للزهراء.

وإرث إيماني من أُمّ الزهراء للزهراء.

وإذا اقترن هذا بذاك، فقد بلغت فاطمة بهذا الاقتران أصالة مدى متّصل الآثار فيما ورثته هي، وفيما تورثه من بعدها من أعقاب[2].

وما أخلده من ميراث!

* * *

---

١. البداية والنهاية ٢: ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

٢. فاطمة الزهراء والفاطميون، العقّاد (المولّف)

نعم... ما أخلده من ميراث!

ما أخلده حين نستنبئ شواهده، فإذا هي تتمثّل في انتفاضات النهضات التي تأتينا علىٰ يد هاتيك الأجيال المتحدّرة إلينا من ابنة الرسول، جيلاً وراء جيل.

إنّها لبليغة الإيماء، ناطقة الإشارة تلك الانتفاضات!

إنّها تخترق إلينا حواجز الماضي، وعلىٰ يديها تراث القرون لتحيي الموروث في القائم المشهود، وتأتي بالقديم في الجديد.

إنّها بعث... إعادة تشكيل حياة... ولادة بعد إذ ظُنّ أنّ الليالي عاقر والزمن عقيم.

فإن تكن خمدت حيناً، فإغفاءة بركان ثائر!

تماماً كسطح البحر، لا يعني سكونه الظاهر ألّا يبسطه مدّ ويقبضه جزر، كأرتال الموج لا تكفّ عن الإقبال والإدبار، وعن الكرّ والفرّ... موجة تهبط لتعلو موجة، ولجّة تسكت لتزأر لجّة.

حين تهدأ تهدهد الرمل، وحين تهدر تقتلع الصخر.

دائماً في نشاط... دائبة الحركة وإن لم تكن دائبة الفَوَران.

وذلك الموروث المستتر خلف الزمن، الرابض[1] في أبعد أعماق النفس، كلّما آن له أن يظهر، اتّخذ لنفسه الهيئة التي توافق الظروف.

فهو قادر على التكيّف والتشكّل والتلوّن كما تفعل أنواع الأحياء لتتلاءم مع البيئات والأجواء.

تارةً هو نهضة دينية... ومرّة صحوة فكرية... وآناً حركة سياسية.

وفي كلّ أولئك كانت الوسيلة دائماً هي الإرث الإيماني، أو قوة الإيمان، وكانت الغاية دائماً هي الإيمان.

* * *

---

١. رَبَضَ الرجل: إذا أقام في مكان وأوىٰ إليه.

فلم تُجِنّ الأنفس الطاهرة والوجدانات النقية قوةً إيمانيةً كالقوة التي أجنّتها الزهراء، ولم يعرف تاريخ البشرية ـ على امتداده ـ ثباتاً كثبات بني علي وفاطمة علىٰ حقّهم في الإمامة أو في خلافة الرسول.

«حُوربوا فيها زمناً وتولّاها من لاشكّ عندهم ولا عند الناس في فضلهم عليه؛ كيزيد بن معاوية، فأنفوا أن يتركوها استخذاءً وخضوعاً ...وحاربوا فيها كما حُوربوا، وصمدوا للطلب الحثيث طالبين ومطلوبين مائة سنة، ثم مائتين، ثم ثلاثمائة سنة حتّىٰ دانت لهم الخلافة باسمهم في عهد الدولة الفاطمية... فلولا خصال فيهم تعين علىٰ هذا النضال، لما ثبتو هذا الثبات... فإذا كان مرجع هذه الخصال إلى وراثة ـولابدّ لها من نصيب من الوراثة ـ فقد ورثوها عن فاطمة كما ورثوها عن علي، بل هي إلى ميراثهم من الزهراء أقرب منها إلى ميراثهم من الإمام...»[1].

وإذا خيّل لامرئ أنّهم طلبوها حكماً، يتسنّمون به غارب السلطة، فما كان أقرب أيديهم منها ساعة وفاة الرسول، ولا أحد عندئذٍ يعلم الخبر، ولا مطمع فيها لطامع يرجوها لنفسه علىٰ خلاف معهم أو على اتّفاق... لكنّهم لم يطلبوها غاية، وإنّما طلبوها وسيلة.

ولا ملامة عليهم في ذلك، لأنّهم الأولىٰ بالولاية، الأعرف بحقّها، الأقدر على القيادة علىٰ نهجها المستقيم.

والولاية ـ لامريّة ـ هي أقصر الطرق إلى تحقيق الخير العام وإن رأينا الوالي ـأيّ والٍ ـ مهما أصاب، لا يعدم قادحاً من هنا، وشانئاً من هناك.

فالكمال لربّ الكمالات.

ولقد طلبت فاطمة وعلي الإمرة أو الخلافة إيماناً واحتساباً في الله... ثم طلبها بنوهما من بعد ابتغاء وجه الله، وعلىٰ سنن رسوله والزهراء والإمام ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ

---

١. فاطمة الزهراء والفاطميون، للعقّاد. (المؤلّف)

ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[١].

ولولا أن قعد عنهم النصير بعد مؤازرة، وأحجم بعد إقدام!

لولا أن مطلتهم بحقّهم الأيام!

لولا أن خذلهم الحميم والغريم!

وكان شرّ القعود قعود الأنصار يوم السقيفة، وإنّهم لسدنة آل البيت وأولياؤهم، فراحت تلوم من خلالهم المسلمين من كلّ مفرطٍ في حقّها، مستكين إلى الاستخذاء:

«أأُهضم تراث أبي[٢] وأنتم بمرأىٰ[٣] منّي ومسمع، ومنتدىٰ ومجمع،... وأنتم ذوو العدد والعدّة، والأداة والقوة، وعندكم السلاح والجُنّة[٤]، توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح[٥]، معروفون بالخير والصلاح... لانبرح أو تبرحون نأمركم فتأتمرون؟

فأنّىٰ حرتم[٦] بعد البيان، وأسررتم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الإقدام[٧]...!

ألا وقد أرىٰ والله أن قد أخلدتم إلى الخفض، وركنتم إلى الدعة، وأبعدتم من هو أحقّ بالبسط والقبض!

ألا وقد قلت ما قلت علىٰ معرفةٍ منّي بالخذلة التي خامرتكم، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، لكنّها فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وبثّة الصدر، وتقدمة الحجّة[٨]... فدونكموها فاحتقبوها[٩]... باقية العار، موسومة بغضب الجبار!

---

١. الأعراف: ٩٦.

٢. أأُهضم تراث أبي: أي أأُظلم من حقّي من ميراث أبي.

٣. بمرأىٰ: أي وأنتم حاضرون ترون ظلامتي.

٤. أي: وعندكم السلاح لإحقاق الحق، والوسيلة للتحصّن من كلّ عدوان.

٥. أي: موصوفون بالشجاعة والبسالة.

٦. أي: فكيف بعد عرفانكم الحقّ أصبحتم حائرين متردّدين.

٧. أي: تراجعتم إلى الوراء بعد الإقدام.

٨. أي أنّ ما قلته لم يكن رجاء للنصرة، ولكنّه تعبير عن ألمٍ تجاوز حدّ الصبر.

٩. حَقَب الشيء: إذا احتبسه لأمرٍ ما.

فبعين الله ما تفعلون... وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد!» [١].

فإذا كان ثمة بقية من كلام يقال في هذا المقام، تعيه الأفئدة قبل الأسماع، ويكون مثلاً للآثار الموروثة التي تدلّنا علىٰ صلابة العزم اليقيني، ووثاقة القوة الإيمانية، فليس مَثَلٌ أقرب مورداً، ولا أرفع مقاماً، ولا أروع مخبراً ومظهراً من الحسين الشهيد ابن الشهيد.

جاء إلى الدنيا من أطهر النطف التي استودعها أكمام الأرحام، لتفرزها أقدس البطون والظهور.

وخرج من الدنيا وهو أصدق شاهد علىٰ تطابق الوارث والموروث، وتمثّل الفروع عناصر الجذور.

فما أن أذن له ربّه أن ينهض للفتنة يدفعها عن الدين وأهله، حتّىٰ جدّ لقمعها كجدّ أبيه علىٰ نحو ما وصفته من قبل الزهراء سيدة النساء:

«... لاينكفئ حتّىٰ يطأ صماخها بأخمصه [٢]**، ويخمد لهبها بسيفه، مكدوداً** [٣] **وذبّاً في ذات الله، مجتهداً في أمر الله... مشمّراً** [٤] **ناصحاً، مجدّاً كادحاً، لاتأخذه في الله لومة لائم...»** [٥].

وفعل.

خفّ يناضل عن حقّ الله وكرامة الإنسان، حارب جحافل الطاغوت وأعتدتها، وإنّها لأعداد من الأجناد، وقاذفات الحتوف، تُحسب بالألوف والألوف.

وظلّ وحده في الميدان حتّىٰ نهاية الصراع.

---

١. من خطبتها المشهورة التي تناقلتها كتب التراجم والسيرة والبلاغات.

٢. أي: لا يرجع في حروبه حتّىٰ يدوس على رؤوسهم وأذانهم بباطن قدميه. وهي كناية عن الشجاعة والشدة في إذلال العدوّ.

٣. مكدوداً في ذات الله: أي أتعب نفسه في أوامره ونواهيه.

٤. مشمراً: أي مسرعاً وملبّياً للأوامر الإلهية.

٥. من خطبة الزهراء العصماء.

فإن يكن غالته الخيانات، فذاك قدره المقدور... لكنّه أدّىٰ، انتصر للثبات... حتّى إذا سطّر بدمه آخر الأبيات في ملحمة الفداء، وطوى الزمن سجلّ كربلاء، غدا سبط الرسول آية لكلّ ذي بصر وبصيرة، أُسطورة الأساطير وما هو بأُسطورة، وذهب في الخالدين مثلاً للبطولة بلا قرين، وسيداً للشهداء، وعنواناً مضيئاً لقوة الإيمان... وإماماً لكلّ مؤتمّ بيقين.

* * *

وكما شابهت فاطمة أباها في قوة يقينة، وصلابة عزيمته، فقد شابهته في دقائق سلوكه وانفعاله.

كانت أشبه به سمتاً في هدوئه، وفي جدّه ووقاره، وفي اتّقاء بادرات الغضب بكلّ ما يزدخر به صدر ذي الشمم والأريحية من الحلم والمروءة.

تأنف[١] الهذر والثرثرة، وتؤثر الصمت عندما يكون علىٰ درجة سواء مع بلاغة الكلام.

وكان محيّاها ـ بوضاءته وتعبيرات قسماته ـ كمحيّاه، وحركاتها وسكناتها كحركاته وسكناته، ومشيتها كمشيته.

روي: أنّها خرجت على الذين هجموا دارها يهمّون أن يحرقوها[٢]! فروّعوا روعاً

---

١. أنف من الشيء: إذا ترفّع وتنزّه عنه.

٢. تناقلت كتب التراجم والتاريخ والسيرة خبر هجوم القوم على بيت فاطمة ﷺ وإحراقهم الدار، أو عزمهم على إحراقه رغم ما قيل لهم: إنّ فيها فاطمة! ولعلّ من أبرز من روى هذه الحادثة:

١ ـ ابن أبي شيبة العبسي الكوفي (٢٣٥هـ) في كتابه المصنّف ٧: ٤٣٢ رقم (٣٧٠٤٥) ط ١ عن زيد ابن أسلم عن أبيه.

٢ ـ ابن قتيبة الدينوري (٢٧٦هـ) في كتابه الإمامة والسياسة ١: ١٢ فصل (كيف كانت بيعة علي بن أبي طالب) ط ٣ مصر، عن عبدالله بن عبدالرحمان الأنصاري.

٣ ـ البلاذري البغدادي (٢٧٩هـ) في كتابه أنساب الأشراف ١: ٥٨٦ رقم (١١٨٤) فصل (أمر السقيفة) ط مصر، عن ابن عون.

←

شديداً زلزلهم عن مواطئهم، وأطار قلوبهم شعاعاً إذ خيّل إليهم وهي تطلّ بطلعتها عليهم، أنّهم يرون الرسول[١].

ويوم علمت أنّ أبا بكر قد أجمع علىٰ منعها أرض فدك، لاثت خمارها علىٰ رأسها، وأقبلت في لمّةٍ[٢] من حفدتها تطأ ذيولها، ما تخرم شيئاً من مشية رسول الله.

وأثر عن السيدة عائشة أنّا قالت:

ما رأيت أحداً من خلق الله أشبه حديثاً وكلاماً برسول الله من فاطمة[٣].

وما قالت عائشة عن المشابهة بين الزهراء وبين أبيها، قد بلغ من الشهرة والذيوع ما لا حاجة معه إلى تقصّي حقيقته بغربلة الروايات والموازنة بين الرواة.

← ٤ ـ اليعقوبي (٢٨٤هـ) في تاريخه ٢: ١٢٣ فصل (خبر سقيفة بني ساعدة) ط بيروت.

٥ ـ الطبري (٣١٠هـ) في تاريخه ٢: ٤٤٣ حوادث سنة ١١هـ ط بيروت، عن زياد بن كليب.

٦ ـ ابن عبد ربّه (٣٢٨هـ) في كتابه العقد الفريد ٥: ١٣ و١٤ ط ١ بيروت، و٣: ٦٤ ط مصر فصل (كتاب السجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم...).

٧ ـ الطبراني الشامي (٣٦٠هـ) في كتابه المعجم الكبير ١: ٦٢ رقم (٤٣) ط ٢ دار احياء التراث العربي بتحقيق حمدي عبدالمجيد السلفي، عن عبدالرحمان بن عوف عن أبيه.

٨ ـ الشهرستاني الأشعري (٥٤٨هـ) في كتابه الملل والنحل ١: ٥٧ ط دار المعرفة بيروت، عن النظّام.

٩ ـ أبو الفداء (٧٣٢هـ) في كتابه المختصر في أخبار البشر ١: ١٥٦ ط بيروت، و١: ١٦٥ ط القاهرة.

١٠ ـ النويري الكندي (٧٣٣هـ) في كتابه نهاية الارب في فنون الأدب ١٩: ٤٠ ط القاهرة عن زيد ابن أسلم عن أبيه.

١١ ـ ابن كثير القرشي البصري (٧٤٤هـ) في كتابه السيرة النبوية ٤: ٤٩٥ فصل (قصة السقيفة) ط بيروت.

١٢ ـ عبدالفتاح عبدالمقصود (المؤلّف) في كتابه السقيفة والخلافة: ١٤ ط القاهرة.

١. ممّن روىٰ شباهة فاطمة عليها السلام بأبيها صلى الله عليه وآله في الصحاح والسنن ومسانيد الجمهور: البخاري في الأدب المفرد: ١٣٦، والترمذي ٢: ٣١٩، وأبو داود ٣: ٢٢٣ باب ما جاء في القيام، مستدرك الحاكم ٤: ٢٧٢، فتح الباري ٩: ٢٠٠ عن ابن حبّان كلّهم عن عائشة. وروىٰ ذلك أحمد ٣: ١٦٤ عن أنس، ومسلم في كتاب الفضائل باب فضائل فاطمة عليها السلام.

٢. اللمّة: الطائفة من الناس.

٣. أخرجه الحاكم في مستدركه ٣: ١٥٤، ١٥٩، والبخاري في الأدب المفرد: ١٤١، والبيهقي في السنن الكبرىٰ ٧: ١٠١.

«فلقد قيل على ألسنة الثقات جميعاً، ويزاد عليه في حديث السيدة عائشة أنّ امرأة، في فضلها واعتزازها بنفسها، كانت ترى للزهراء -في علمها ورصانتها- فضلاً على سائر النساء»[١].

ولم تكن الصلة بين فاطمة وأبيها مجرّد صلة بين ابنة وأب على نحو ما عهدنا أن تكون عليه الصلات ـ بحكم الوراثة، وبحكم الولاء، وبحكم الانتماء ـ بين الأبناء وبين الآباء.

إنّها علاقة نوعية متميّزة، بل متفرّدة المثال، لا مسبوقة ولا ملحوقة... روحانية العاطفة، ربّانية الصفاء.

كمثل نجم درّي، متوهّج السنا، متلألئ الشعاع كان حبّها إيّاه... وكمثل هالة من ضياء نديّ كانت أشواقها تطوف حوله ـ أقماراً وكويكبات ريّانة الإشراق ـ مع كلّ ليل وكلّ نهار.

وكانت مظاهر شوقها وحبّها تتمثّل في اعتزاز يفوق الاعتزاز، فلم يعرف فخر بالانتساب للرسول كفخر الزهراء، ولم يعرف أب يفخر بخلفٍ كفخر بالزهراء.

كان إذا دخل عليها قامت إليه، ورحّبت به، وأخذت بيده فقبّلتها[٢] بشغفٍ لهيفٍ، وكأنّما تودعها كلّ نسمة حياة.

وكانت إذا دخلت عليه أخذ بيدها فقبّلها، ورحّب بها، وفرش لها رداءه وأجلسها، ثم لا يكون له عنها شاغل، وكأنّما هذا اللحظة من اللقاء هي وحدها الحياة.

* * *

وبلغ اعتزازه بها مداه في صغارها وهو يراها فيهم فيرىٰ أعزّ ما في الوجود،

---

١. فاطمة الزهراء والفاطميون، للعقّاد. (المؤلّف)

٢. أخرجه الترمذي في سننه ٢: ٣١٩، والحاكم في مستدركه ٤: ٢٧٢، والبخاري في الأدب المفرد: ١٣٦، والبيهقي في سننه ٧: ١٠١، أسد الغابة ٥: ٥٢٢، مجمع الزوائد ٨: ٤٢ وقال: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات.

ويستلهم مشاعره نحوهم، فإذا هي خلاصة حنان أُمومة افتقدتها في طفولتها الزهراء، قد اجتمعت إلى حنان أبوة ثاكلة انفرط حظّها من ذكورة الأبناء.

فربّما كان يقوم علىٰ أُولئك الصغار، يتسقط ما يريدون وما يشتهون فيقضيه والأبوان قاعدان أو نائمان بل كان أسبق حساً ويداً إليهم من أبويهم إلى ما يحسّون أو يرغبون.

وربّما كان يدور عليهم، متعسّساً[1] متفقّداً، وقلبه علىٰ كفّيه، في أيّة ساعةٍ من ليلٍ أو أخرىٰ من نهار سبغت الظلمة أو تنفّس النور، بل كانت اللحظة من يومه لا تدخل عنده في حساب الزمان إن لم يلتفّوا حوله زهرات فوّاحة العطر، وبسمات رطيبة السنا، ونبضات عذبة الإيقاع.

وكانت فاطمة تعتزّ بهذه الأبوّة الكبيرة التي تفيض عليها وعلىٰ بنيها بإشراق نفسي يملأهم بالحنان والحبّ ودفء الحياة، فتوليها مكانةً تعلو بها فوق الأبوّة الصغيرة المتمثّلة فيها وفي الإمام.

وكان يسعدها وهي تداعبهم وتهدهد طفولتهم أن تهزج فتنسبهم في هزجها لأبوّة الرسول، وكانت تأخذ بكفّيّ الحسن أو الحسين في كفّيها وتقيمه علىٰ قدميه، وترقّصه وهي تغنيه:

وا بأبي شبه النبي!   لست شبيهاً بعلي

* * *

وعلمت عن فاطمة بلاغة يتشكّك فيها بعض من يريد التشكيك، لكن رغبة الاسترابة عند هذا المستريب لم تكن لتنال شيئاً من قوة الحقائق الثابتة، ولا أن تطمس نصاعة الوقائع التي لم يختلف عليها التاريخ[2].

---

١. عسّ الرجل: إذا طاف بالليل يحرس ويتفقّد الناس.

٢. ويكفيك من خطبتها الغرّاء التي ارتجلتها أمام جموع الأنصار ومن حولها نساء هاشميات، فضجّوا بالبكاء والعويل لما وجدوا فيها من عظيم المعاني، ورفيع السبك، وقوة البيان، ما يغني عن إقامة البرهان علىٰ فخامة بلاغتها، وروعة بيانها في نطقها وكلامها.

فلقد نشأت هذه الابنة الأثيرة على الأب، الحبيبة إلى الله، وهي تسمع كلام أبيها سيّد البلغاء.

ثم شاء الله أن تتزوّج فعاشت سنين عدداً مع زوج تربّى مثلها في حجر النبوّة، ونهل من حكمتها ونوابع كلمها ما رفعه فوق كلّ نابغ بليغ... فلمن تكون البلاغة إن لم تكن لهذا الإمام المتّفق علىٰ بلاغته بين محبّيه وشانئيه؟

وسمعت القرآن يُرتَّل في الصلوات وفي سائر الأوقات... وتحدّث الناس في زمانها بمشابهتها لأبيها، في مشيتها وحديثها وكلامها، ومنهم من لا ينطق في أمرها عن الهوى ولا يحابيها.

فكيف السبيل إلى التشكّك في بلاغتها؟

وفيم يكثر الخلاف علىٰ مثل ذلك النصيب من البلاغة إذا نسب إليها؟

ولماذا نستعظم البلاغة علىٰ من نشأت سامعة لحديث محمد، مطبوعة علىٰ مشابهته في حديثه؟

ولماذا نستعظم علىٰ زوجة الإمام، الذي كان المتّفقون علىٰ بلاغته أكثر من المتّفقين علىٰ شجاعته وهي مضرب الامثال؟

ولماذا نستعظم هذا التفوّق البلاغي علىٰ سامعة القرآن بالليل والنهار مع الذكاء واللبّ الراجح والفكر المستنير؟

أسئلة قد يطول فيها اللجاج... لكنّها تبقىٰ بلا جواب إلّا أن نتحرّى الإنصاف وصواب الرأي وسلامة الاستقراء، فإذا هي دعاوى متحيّز لا يميّز، وخطل مستريب لا يخفىٰ علىٰ لبيب!

هذا هو منطق الوراثة في حياة الزهراء... ومنطق البيئة... ومنطق الصحبة الصفيّة لصفيّين تذوب فيها الفروق بينهما، ويتوحّد الاثنان... وقبلها منطق الصفات النورانية التي صيغ منها كيان امرأة من نور، هي سيّدة النساء.

وكلّها يتحدّث بألف لسان ولسان.

* * *

ولقد أكثر القوم الخوض في شأن النبوّة كميراث، وأسرفوا فيها القول إسرافاً علق بها الأنظار، وشغل الأذهان بها عن القضية الأصلية: قضية توريث المال... بل أغفلوها كلّ الإغفال.

فأمّا إذ أنكروا النحلة، فقد انتقلت فدك إذاً إلى وعاء المواريث، وحقّ لفاطمة أن تطلبها بمقتضىٰ شرعة الله فيما يترك لأسلاف للأخلاف.

لكنّهم أبوا عليها هذا التفسير، قالوا ما قالوا في امتناع وراثة أبناء الأنبياء عن آبائهم إلّا ما كان من نبوّة وعلم، ولا سبيل إلى وراثة المال.

وقالت ما قالت في ذكر الله الذي قضىٰ بتوريث المال للأبناء عن الآباء، أنبياء وغير أنبياء، فالله يقول: ﴿لِلْرِجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلْنِسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾[1]

ويقول: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللهُ فِي أَوْلاَدِكُم لِلْذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنْثَيَيْنِ﴾[2].

وإذ الحكم الآن في قضيتها هو القرآن، فمن ذا غيره بيده الميزان؟

وثبتت علىٰ حقّها بعزم حديد، وبكلّ ما ازدخر به قلبها من الأرث الإيماني وصدق اليقين.

---

١. النساء: ٧.

٢. النساء: ١١.

اللوحة الثالثة

وما فدك؟!

للحقّ لا للإرث.

قيل: الحديث في فدك لا ينتهي إلى مقطع للقول متّفق عليه.

غير أنّ الصدق فيه أنّ الزهراء أجلّ من أن تطلب ما ليس له بحقّ، وأنّ أبا بكر أجلّ من أن يسلبها حقّها الذي تقوم البيّنة عليه.

فما أخذ الخليفة الأوّل شيئاً من فدك حين ضمّها إلى مال المسلمين، مهما ادّعىٰ عليه مدّعون، ولا خسرت فاطمة شيئاً بهذا الخروج، لأنّ فدك في نهاية المطاف جرت علىٰ نفس ما كانت تجري عليه وهي في يد الرسول.

بل الحقّ كان رائد كلٍّ من الفريقين، والصدق كان الأُسلوب، وإنّما هو الحرج في ذمّة الحكم بلغ أقصاه بهذا القضية، بين هؤلاء الخصوم الصادقين المصدّقين[1].

* * *

لكنّ المسألة ـ فيما نرىٰ ـ لا يمكن أن تخضع للجمع والطرح وغيرها من قواعد الحساب، أو تُعايرَ مادياً بمعيار الكسب والخسار، فذلك مقياس قصاراه هنا أن يقيس ما لا يقاس!

---

١. رأي العقّاد. (المؤلّف)

فليس هكذا ينظر إلى «فدك» بالنظرة التي تريناها وهي مجرّد أرض وماء وزروع... وليس هكذا ينظر إلى فاطمة كمن تسعىٰ للفوز بعروض.

بل المسألة هنا هي مسألة الحقّ لذاته، وفي ذاته، إذ هو قيمة عُليا يفرضها الدين، والخُلق، وصلاح المجتمع، واستواء العلاقات الإنسانية بين الناس وهي بهذا واجبة الرعاية ضماناً لاتّزان السلوك، وهي لهذا حتمية الاتّباع في كلّ وقت، وفي كلّ حال، سواءً أدرّت غنماً مادياً أو جفّ الضرع وانقطع الإدرار!

فما الحق؟

بفهومه الأسمىٰ هو الله... وبمفهومه العام هو منهج الله.

وحين ينظر ـ من خلال عيني فاطمة ـ إلى الحقّ، أيّ حقٍّ، نجده أمراً ثابتاً لا يُترخَّص فيه، ولا يحتمل التأويل... هل يترخَّص في أمرٍ شرعه الله؟

* * *

في هذا الضوء نرىٰ قضية «فدك» مسألة مبدأ، لا مسألة أرض.

أم لا، فما «فدك» الأرض؟ ما قدرها في دنيا الثروات؟ ما جدواها علىٰ من يستوي عنده الذهب والتراب؟ ما قيمتها عند موقن يوقن أنّ هذه الدنيا بكلّ نعيمها هباء وسراب؟

لو أنّ تربة «فدك» مخصاب إلى أبعد حدود التخيّل، تُخرج في كلّ يوم شجرة، تطلع بكلّ فرع مائة زهرة، تتفتّح كلّ زهرة عن ألف ثمرة... لو أنّ ثرىٰ أرضها تبر، وحصاها درّ. وحصباءها زمرّد وياقوت ومرجان... لو أنّ ماءها ينبع من نهر الكوثر.

لو أنّ هذا كلّه وأضعافه، كان لتلك السلخة[1] الدنيوية من الأرض علىٰ مقربة من المدينة، لما لقيت «فدك» هوىً عند فاطمة، ولا اجتذبت منها نظرة، ولا ساوت شعرة.

وأنّىٰ لزهراء محمد أن تتطلّع إلى نَشَب[2]، أو تتعلّق من هذه الحياة بسبب، وهي

---

١. السلخة: الجلدة من الشيء، وهنا: القطعة من الأرض.

٢. النَشَب والنَشَبة: العقار.

التي تربّت في حجر النبوّة أليفة زهدٍ وترفّعٍ عن رغبات النفس وزخارف المتاع!

وهل الدنيا عندها سوىٰ عمر قصير المدىٰ مهما طال. يقطعه المرء سائراً علىٰ جسر، ينتقل فوقه من «هنا» إلى «هناك»، من الأُولىٰ إلى الآخرة، من برّ المادة والفناء إلى برّ الروح والخلود؟

فماذ يُعنيها من أمر «فدك»، وماذا يُغنيها منها، أويُغني عنها ما تثمر من مال أو تساوي من مال إلى آلاف الأمثال، في العالم الجديد الذي لن تلبث أن تطرق بابه عمّا قريب؟

لا عناء، ولا غناء!

كلّ ما كان يهمّها منها أن تكون قرباناً تقدّمه بيدها إلى الله، تماماً كقُربان هابيل...فإن تقبّل الله فذاك، وإن تحرّك بالحسد غضب قابيل، فلن تعدم صوتاً يرنّ في البرية صائحاً على امتداد السنين: قابيل! ماذا فعلت بأخيك؟!

* * *

كلّا! ليس مثل الزهراء من يطلب المال، أو يحزن لضياع المال.

فحسبها في هذه العاجلة لُقَيْمات تسدّ الرمق، وتقيم الأود، فيصلب القدّ، ويعتدل العد، وتمتنع الأرض تحتها أن تميد.

والعيش بعد هذا ميسور بالأسودين: الخبز والماء.

زارها النبي يوماً وهي تطحن بالرحىٰ، وعليها كساء خشن من وبر الإبل، فهاله ما كانت عيه من هزال، فيه نصب المكدود، وشحوب الواهن، ووصب العليل، عندئذٍ بكى الرسول من إشفاق، وقال: «تجرّعي يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة»[١].

---

١. روى الخبر جابر الأنصاري أنّه رأى النبيﷺ فاطمة وعليها كساء من أجلة الإبل وهي تطحن بيديها وترضع ولدها، فدمعت عينا رسول اللهﷺ فقال لها ما قالﷺ، فأجابته ؊: «يا رسول الله، الحمد لله على نعمائه، والشكر لله على آلائه». قال جابر: فأنزل الله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ بحار الأنوار ٤٣: ٨٦، عنه اعلام الهداية ٣: ٩٥.

وبقيت تتجرّع إلى منتهى الحياة.

ومع ذلك فلم نرها تستعين علىٰ شدّة دهرها ولأوائه بمالٍ تملكه، أو مالٍ ترجو أن يكون ملك يمين، إنّما رأيناها ـ المرّة بعد المرّة ـ عن طعامها وطعام أُسرتها لفقيرٍ أو مسكينٍ أو عابر سبيل، ثم تبيت ومن معها الليلة والليلتين والثلاث، علىٰ طوىً وجوع.

فإذا كانت حاورت أبا بكر في «فدك»، وألحّت أنّها لها ـ بحكم النحلة أو بحكم الميراث ـ فذلك لأنّها لها حقّ، والحقّ واجب النفاذ والاتّباع، وعندها من القوة الإيمانية ما يجعلها تسعىٰ حثيثاً اليه، وتتشبّث به، وتخرجه إلى دائرة الأداء دون تردّد ولا تفريط.

وعندما انطلقت آخر مّرة لمطالبة الخليفة به، كانت تعلم أنّه لن يغيّر اتّجاهه، ولن يَهِنُه من إصراره، ولن يلين كثيراً ولا قليلاً من صلابة العناد التي عرفتها وعرفها الناس فيه.

ومع ذلك انطلقت... وما عليها لو أبىٰ، وألقىٰ اليها معاذيره؟

وما عليها أيضاً لو أنّها حاجّته مرّةً ومرّات فلم يستجب، ثم ردّها بصفقة المغبون؟

إنّها اذن ستكون أدّت ما عليها لله، وغرست في أرواع الأجيال الثبات كيف يكون، وأبقت على الزمن قضيتها قضية نضال.

فلقد كانت موقنة أنّ «فدك» لها بحقّين: حقّ بمقتضىٰ نحلة الرسول، وحقّ بمقتضى شرعة المواريث في محكم التنزيل.

وإذا تحدّث القرآن فقد تحدّث الله، وإذا تحدّث الله فلا مجال بعد حديثه لحديث، فكلمته سبحانه هي العليا، وحكمه هو الفيصل... ثم لا مراجعة عليه ولا تعقيب.

* * *

ومضت في لمّةٍ من حفدتها، وقد لاثت خمارها علىٰ رأسها، واشتملت بجلبابها الفضفاض[١] السابغ جسدها النحيل.

كانت الهزال يمشي علىٰ قدمين، وكانت الشحوب والذبول، وأولئك الذين شهدوها عندئذٍ، رأوا فيها رسول الله في آخر أيامه، ساعة خرج على الناس بالمسجد مستنداً إلى علي والعباس، لولا أنّها كانت تمشي بغير أسناد.

وكانت وئيدة[٢] الخطوات في غير ونيّ[٣] ولا تكسّر، عادلة القامة، سمراء الوجه كأنّما صبغته أشعة الأصيل، وضّاءة الجبين، في أنفها شمم، وفي مقلتيها نجمان.

وكان المسجد يكتظّ باللغط والضجيج، وتزدحم فيه الأنفاس، فالناس به أبابيل أبابيل[٤].

لكنّها ما أن بدت حتّىٰ ذابت الأصوات في السكون، بل خرس الشهيق والزفير! بل هدأ أيضاً الهدوء! وتعلّقت بها الأحداق كقطرات سود من عصارة الليل الذاهب نثرها الفجر على طيلسان هذا النهار! وخشعت القلوب.

* * *

بصوت جهير، ثابت النبرة، جليّ العبارة، واضح المخارج والمقاطع، تحدّثت إلى الجماهير، وهي تستدرج الخليفة إلى الحوار.

حمدت الله، وصوّرت صفاته على مقتضىٰ ذاته... وقالت في الرسول، فأجملت ملامح رسالته، وألمّت بجهاده... ثم عرجت علىٰ دور صفيّة في ضرب الكفران، وإعلاء شأن الدين، حتّى إذا انتهت إلى يوم وفاة سيد المرسلين، أنحت باللائمة

---

١. الفضفاض: الواسع، العريض.

٢. المشي الوئيد: إذا كان فيه رزانة وتأنّي.

٣. ونىٰ يني ونياً ووناءً ونيةً ونيّ: إذا ضعف وفتر وكَلَّ.

٤. الأبابيل: الفِرَق والجماعات المتجمّعة في مكان واحد. والأبابيل جمع لا واحد له.

عليهم أن خالفوا عن عهده، فجحدوا حقّ آله وبنيه:

«... هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لمّا يندمل، والرسول لمّا يُقبر...».

ثم انثنت إلى حقّها الهضيم:

«وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي من أبي، أفحكم الجاهلية تبغون؟ بل قد تجلّى لكم، كالشمس الضاحية، أنّي ابنته، أيّها المسلمون...».

وانتقلت توجّه الخطاب للخليفة:

«أأُغلب علىٰ إرثي يابن أبي قحافة؟ أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟ أفعلىٰ عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾[1] وفيما اقتصّ من خبر يحيىٰ وزكريا إذ قال: ربّ ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾[2]».

وراحت تعدّد الأمثال، وما جاء به القرآن في أحكام المواريث، وقالت:

«... وزعمتم ألّا حظوة لي ولا إرث من أبي، أفخصّكم الله بآيةٍ أخرج أبي منها؟ أم هل تقولون: أهل ملّتين لايتوارثان؟ أوَ لست أنا وأبي أهل ملّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟...».

* * *

ولم تخنها فراستها في خليفة الرسول، فعلىٰ كثرة ما لامت، وكثرة ما أدلت به من براهين، عاد الرجل إلى ما كان عليه من التشبّث بحديث امتناع التوريث.

ليست هذه هي المرة الأُولى التي قارعها برأيه ذاك، سالخاً عنها حقّها في كلا النحلة والميراث على السواء، تحجّج بنفس الحجّة من قبل، مرّات.

كان شديد العناد... أو نقول: كان ثابت اليقين علىٰ ما ارتأى أنّه يقين.

---

١. النمل: ١٦.

٢. مريم: ٥ و٦.

وفي هدوء، بصوت رقيق، وبعبارة عذبة ناعمة الألفاظ، قال: يا بنت رسول الله! لقد كان أبوك بالمؤمنين عطوفاً كريماً، رؤوفاً رحيماً، وعلى الكافرين عذاباً أليماً، وعقاباً عظيماً، فإن عزوناه وجدناه أباك دون النساء، وأخاً لبعلك دون الأخلاء، لا يحبّكم إلّا كلّ سعيد، ولا يبغضكم إلّا كلّ شقي بعيد... فأنتم عترة رسول الله، على الخير أدلّتنا، وإلى الجنة مسالكنا.

ثم توجّه إليها بكلّ حصافة الذكي الأريب، ودهاء المداور المنطيق، في وداعه المترفّق الرقيق: وأنت يا خيرة النساء، وابنة خير الأنبياء، صادقة في قولك، غير مردودة عن حقّك، ولا مصدودة عن قصدك، والله ما عدوت رأي رسول الله، ولا عملت إلّا بإذنه، وإنّي أشهد الله وكفىٰ به شهيداً، أنّي سمعت رسول الله يقول: «نحن معاشر...».

وأحسبها لم تكن بحاجة إلى أن تلقي بالها إلى بقية بيانه، فلقد سمعته من قبل، أو سمعت نظيره جملة كجملة، وعبارة كعبارة، وأدركت أنّه لن يتزحزح عن إصراره.

فلمّا بلغ غاية مقاله، انبرت تردّه:

«ما كان أبي رسول الله عن كتاب الله صادفاً، ولا لأحكامه مخالفاً...».

وألقت ببرهانها إليه، وجابهته ببرهانها الساطع، تلت عليه ما أنزل الله في محكم الذكر من آيات المواريث.

وكان الغضب قد نال منها فصاحت، ثم صاحت مغضبة:

«كلا! ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1] ...».

والتفتت تخاطب الجمهور، وكلماتها تقطر مرارة:

«معاشر الناس المسرعة إلى قيل الباطل، المغضية على الفعل الخاسر، أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟ لبئس ما تأوّلتم...».

---

١. يوسف: ١٨.

وكآخر خفقة تلفظها ذبالة السراج قبل أن ينطفئ، لمعت عبرتان على حافتي جفنيها، لا تتحدّران إلى وجنتيها، وإنّما تعلّقتا بأهدابها الوطفاء[١] السود.

ومالت بصفحة وجهها إلى حيث مرقد الرسول، وتحرّكت شفتاها وإن لم تنسبا بكلام، كانتا ترتعدان أوتهينمان[٢]، حديثها أسىً بليغ... وصوتها صمت وقور... لكأنّما كانت تهمس لأبيها بسرٍّ لا تريد أن يشاركه سواه فيه.

ومع ذلك فقد ارتجّت قلوب الجماهير في الصدور، وفاضت العيون بالدموع، وعلا النواح والعويل.

فلم يُر أكثر باكياً ولا باكية من ذلك النهار.

* * *

ولمّت ثوبها على جسدها النحيل، وفي هدوء حزين بارحت المكان، والزحام حولها بحر لجّي من الأنين، ينفلق أمام هيبتها فلقين ليفسح لها الطريق، كما انفلق البحر لعصا موسى الكليم.

وعندما انكفأت إلى دارها، واستقرّ بها المجلس، أقبل عليها زوجها يستنبئها خبر ذلك اللقاء.

فتريّثت ملياً لتلتقط أنفاساً قد تخفّف بعض ما تحسّ بصدرها من ضيق، وما تعاني من إرهاق، وبصوتٍ خافتٍ جرسه همس، ورنينه أنين، قالت له ولونها كاب[٣]، وعيناها منكسرتان: **«خرجت كاظمة، وعدت راغمة».**

ولم يكن الإمام في حاجة إلى أن يسمع منها، فالوجوم في وجهها أفصح من كلّ بيان.

---

١. أهداب وطفاء: إذا كثر شعرها.

٢. الهَيْنَمة: الصوت الخفي.

٣. أي ضارب إلى السواد.

لقد كان أقدر علىٰ تفهّم طبيعة أبي بكر، وأعلم بأنّه لا يعود فيما اعتزم وأبـرم، فلات حين مآب!

لكنّه أحبّ ـ باستفسارها في تلكم الآونة ـ أن يسري عـنها بـعض التسـرية، فيفسح لها في الكلام عسىٰ أن تنفّس من خلاله عن همّها الحبيس.

وسمعها تميل عليه بالخطاب، أخذت تعاتبه من قـلب مـنفطور، مـلؤه أحـزان نابغيه الألم، بـعبارات حـرّى، تشـتعل فـي ألفـاظها الحـروف، لكـنّ عـتابها ذاك الذي راحت تبثّه إيّاه، كان عتاب وامق مشفق، ليس لوم لائم زار، ولا تثريب قـالٍ غضوب.

قالت له وكأنّ حديثها بكاء:

«أضرعت خدّك يوم أضعت جدك، ما كففت قائلاً ولا أغنيت طائلاً ليتني متّ قبل هنيئتي ودون ذلّتي! عذيري الله منه عادياً، ومنك حامياً! ويلاي في كلّ شارق، ويلاي في كلّ غارب، مات العمد ووهـن العـضد، شكـواي إلى أبـي، وعدواي إلى ربّي...».

* * *

كانت كلماتها العاتبة تتساقط من شفتيها كقطرات دموع.

ومع ذلك فقد كانت تعلم أنّ زوجها فوق هذا العتاب، وكلّ عتاب.

ولئن كانت الخلافة فاتته لحظة أن قبض يده عن بيعة العباس وأبي سفيان يوم توفّي رسول الله، فالقبض كان هو الأحرىٰ به في ذلك المقام... أم كان يدع جثمان الرسول لم يجهّزه لرحلته الأخيرة، ثم ينازع الناس تراثه وسلطانه؟ أم كان يقبل أن يُبايَع من وراء أظهر المسلمين، فتكون البيعة من خلف رتاج؟

بل كان واثقاً أنّه الأولىٰ بالخلافة، بلا منازع ولا نزاع... وأنّ الإمرة له لا محالة، سارع فصفّق علىٰ يدي شيخي قريش أو استأخر إلى حين... وأنّ حقّه فيها يقين من يقين، ليس فقط بحكم قرابته من حامل الرسالة، بل فوق هذا وقبله بـحكم

جلائل صفاته، ورفيع ملكاته، وتلك القدرات لأُسطورية التي أُوتيتها ويعزّ مثلها في الأقران، لا في هذا الزمان، وإنّما إلى آخر الزمان!

فأمّا وولاية الناس هي حقّه الثابت الذي قرّرته الشواهد والبيّنات، فذروة الحقّ فيه أن يتقدّم بها اليه الناس، لا أن يسبق هو اليها تقرير الناس ذلك رأيه... وهو مثالية من مثالياته التي ينفرد بها، ويأبى الإباء كلّه أن يبيعها بما في الدنيا من عروض الجاه وصوالج السلطان.

فإذا كان حظّه في الأمر قد افترسته «فلتة» ـ وقي الله شرّها كما يقال! ـ قلبت الأوضاع، وارتفعت بما في الوهدة إلى قمة اليفاع، أفيلام علىٰ ما وقع وما للفلتات من مكان في مجالات التقدير والحساب؟

إذا كان ميران النفوس قد مال عن قوام الاعتدال، فمجهول المجاهيل يوم التقى الجمعان، أن اتّفقا بعد احتدام الخلاف، علىٰ ما لم يجلّ ببال إنسان، لا من خصوم ولا من أعوان.

وإذا كانت فاطمة يؤاسفها الآن أن قد فات الإمام حقّه المستيقن المعلوم، فلقد كانت تؤمن ـ مع كلّ إحساسها بالألم والإحباط ـ أنّ ما فعله هو الصواب وإن أوصد القوم دون حقّه ألف باب وباب!

* * *

ورفعت الزهراء وجهها إلى السماء، وناجت الله:

«اللّهم إنّك أشدّ قوةً وحولاً، وأشدّ بأساً وتنكيلاً...».

وكاد علي يشرق بدمعة، لكنّه وارىٰ عنها عينيه، وحاول أن يهوّن عليها أساها الكظيم أن ينفجر به صدرها كانفجار المرجل بضغط بخار مكتوم.

قال كمن لا يبالي ما كان:

«لا ويل لك، بل الويل لشانئيك، نهنهي عن وجدك يا ابنة الصفوة، وبقية النبوّة، فما أعدّ لك أفضل ممّا قُطع عنك... فاحتسبي الله...».

فومض علىٰ محيّاها طيف بسمة شاحبة شحوب الشعاع لحظة إبحار الشمس، في بحر الليل، علىٰ زورق الغروب.

وقالت بصوت وسنان النبرات:

«حسبي الله!».

* * *

وكان هذا بداية الأُفول.

فالقلب كسير... والصدر حرج... والفكر شرود... والجرح عميق عميق.

إنّ القهر لبلاء، لكن كظم المقهور شعوره بالظلم هو أفدح البلاء... أعتى الأوجاع، كنقر الجرح قد انطوىٰ علىٰ قيحه، كعربدة الداء إذ يعيث في قرحه، كنار مستعرة اللظىٰ، مشبوبة الأوار، تأكل الضلوع.

وهل أقسىٰ على المقهور من إحساسه بالظلم وهو يرىٰ حقّه يضيع وفي يده مقطع الحجّة وفصل الخطاب، ثم ما من سميع؟

ولقد يهجع الظالم، ولكن لا يهجع المظلوم.

فصاحب الهموم لا ينام لأنّ الهموم لا تنام... سهاده يحتوي الليل والنهار، فيومه ليلان ساهران، أو هو نهاران أعميان.

ينطبق جفناه ولا تغفو عيناه... لا رقاد... لا راحة ولا قرار... بل كرب موصول، وضيق لا تنفرج حدّته ولا يزول.

وإذا كانت آفة الزهراء ضعفها الجسماني الذي أورثها ذلك الهزال، فلقد زادت الآن علىٰ آفتها تلك آفات عشرات ومئات: آفة بكلّ مسلم خرس لسانه، وارتعد بيانه دون نصرة حقّها المهضوم!

فكم ناش نفسها وبدنها من عوامل الوهن نتيجة لهذا الخرس وهذا الارتعاد؟!

أعداد وأعداد!

وأنّىٰ لها احتمال هذه الأعباء الثقال؟

بل كان لابد أن تنوء، ومثل حملها لينوء بالعصبة أُولي الأيد والقوة والعزم من الرجال.

* * *

وبدأ الانهيار... الزيت أخذ ينضب[١] في المصباح... الفتيلة راحت ترتجف.

مع كلّ صباح كانت تنداح علىٰ محيّاها الهادئ قطرة جديدة من الشحوب... اللون يحول... انكسرت العينان المضيئتان... في صدرها اشتجرت الأنفاس... علا السحر، وضاق النحر، فاختلط علىٰ منسميها الشهيق والزفير.

وبين الفينة والفينة كانت تتطلّع إلى صغارها بنظرات غائمة من خلال قلبها الملهوف.

لهم الله!

أحان لهم أن يذوقوا من ألم اليتم ما ذاقت يوم شيّعت أُمها خديجة لتثوىٰ في ثرى الحجون؟

غير أنّ حزنها لهم لم يمنعها أن تستشعر راحة النفس والبال، لكأنّي بيد قدسية لا مرئية غسلت كيانها كلّه بالسكينة.

رحل الشجن... ذاب الألم...العبوس في ملامحها استحال بسمة... انقشع الغيم عن عينيها، وبرق فيهم نجمان يتلألآن، قد ألقيا نوراً يخترق ظلام المجهول.

ليس خيالاً هذا الذي ـ أحسبها ـ تراه، ليس أضغاث أحلام، ليس رؤيا منام.

أوَ لم يعدها رسول الله وهو يتأهّب لرحلة الوداع أن سيلتقيان عمّا قريب؟

إنّ وعده لحقّ، وإنّ «القريب» قد حان.

وإنّه ليتراءىٰ لها ـ من فرط شوقها اليه، كما كان من قبل ـ ترائيه، ليكاد ينهض ليستقبلها مشوقاً بين ذراعيه، ليكاد يبسط ثوبه، وهو يفسح لها في جلسةٍ إلى جواره مثلما اعتادت واعتاد.

---

١. ينضب: ينقص، يقلّ.

الترحاب نفس الترحـاب، والإعـزاز نـفس الإعزاز، ومـلمس أنـفاسه وهـو يـقبّلها قـبلته المألوفـة، كـنفس المـلمس لولا أنّـها الآن قـد امـتزجت بـعبير الجنّة!

وبكلّ الإيمان والحنين والحبّ همست في أُذن الوجود: «صدق رسول الله».

* * *

ثم نشطت إلى اللقاء الموعود.

هذه الضاوية التي أشفت بها ساعاتها الأخيرة على النهاية، بدت وكأنّما نـهلت العافية من قدحٍ غير منظور، أونشقت البـرء مـن نـفحة نسـمةٍ مـباركة الغـدوات والروحـات.

وتلفّتت تخاطب الإمام وهو رابض بجانب الفراش:

«هل صنعت ما أردت؟».

قال: «نعم».

ـ**«فهل أنت صانع ما آمرك به؟»**.

ـ «نعم».

قالت تستحلفه:

«فإنّي أنشدك الله ألّا يصلّيا علىٰ جنازتي، ولايقوما علىٰ قبري».

فغصّ حلقه بريقه، ونحّىٰ[1] عنها عينيه، ليخفي دمعةً بدرت، قد اجتمع فيها سهوم الأسىٰ بحنان الرحمة.

علىٰ شبابها الغضّ الذي انقصف عوده الأخضر، وما عاش بالدنيا إلّا كمقدار عمر زهرة، كان أساه.

ورثاء لصاحبيه أبي بكر وعمر، اللذين باءا بغضبها، كانت الرحمة.

---

١. نحّىٰ: أدار.

فما أحقّهما لآن بالشفقة أن قد أغضبا هذه التي يغضب لغضبها الله، ولم يشفع عندها لهما ما أبديا من ندم، وساقا من معاذير.

لهما الله!

* * *

وخطت أولى خطواتها علىٰ طريق الرحيل.

بسكينة المؤمن بقدر الله، المتطلّع إلى قضائه، هتفت بالمرأة، اللائذة بها كظلّها بصوت خفيض:

«يا أمه!».

فانسلّت اليها من جانب الفراش، رفيقتها تلك القائمة علىٰ خدمتها، الساهرة علىٰ راحتها، لتكون منه عند طرف البنان، رهن الإشارة الصامتة، والنظرة المؤمنة، والهمسة الوانية كنفحة النسيم الوسنان.

تلكم الرفيقة الحانية: سلمى[1] زوج أبي رافع مولىٰ رسول الله، انسابت في هدوء وخفّة إلى الزهراء بخطىً خرساء، بدت كأنّما تسبح اليها، في جوّ الحجرة الصغيرة، علىٰ ريشة عصفور!

كانت تمشي كمشية المسيح على الماء!

فلقد خشيت أن يؤذي الضاوية الغالية وقع الأقدام... بل حفيف الثياب! بل تردّد الأنفاس!

* * *

ولم يكن بفاطمة من سقم عضوي ممّا عرف أهل زمانها من أسقام فلا عرض لمرض... لا أثر لعلّة تنطق بها الملامح أو الجوارح، وما بها من وعكة، إن هو إلّا صدىٰ أوصاب نفسية هي حصيلة ما عانت من ضغوط الهموم والغموم.

---

١. وقيل: أسماء بنت عميس. (المؤلّف)

من وقوعها في بؤرة الإحساس بقهر المقهور... من تنكّر الوليّ الغريم... من الظلم الذي طاردتها به الأيام... من مجازاتها بجزاء سِنِمَّار[١].

وكان لابدّ ـ وهذه هي الحال ـ أن تعاف الناس، ودنيا الناس، فتضيق بالعيش، وتكره الحياة، وتتطلّع روحها ملهوفةً إلى النزوح.

ولقد أجملت هي خلاصة مشاعرها تلك في كلمات:

قيل: لمّا اشتدّ بفاطمة الوجع، وثقلت في علّتها، اجتمع عندها نساء من المهاجرين والأنصار، فقلن لها: كيف أصبحت من علّتك، يا بنت رسول الله؟

قالت وقولها له علىٰ شفتيها مثل طعم الصبّار:

«أصبحت والله عائفة لدنياكنّ، قالية لرجالكنّ... لفظتهم بعد أن عجمتهم، وشنأتهم بعد أن سبرتهم... فقبحاً لفلول الحدّ، وخطل الآراء، وزلل الأهواء! ولبئسما قدّمت لهم أنفسهم!...».

وذاك كلام ممرورٍ، لا تغسل المرارة عن قلبه أن يمضمض فاه بما في الأرض جميعاً من أمواه!

هكذا غدت الزهراء، قَلَت البشر، ومقتت الأشياء، ولم تعد بها رغبة في أن تمتدّ حياتها بعد يومها الحاضر يوماً آخر.

كلّ قواها النفسية والمعنوية كانت تعمل ـ لا إرادياً ـ علىٰ أن تقطع، من مرحلة عمرها هذه الأخيرة، في ساعات معدودات، ما قد يقطع غيرها من عمره في سنوات وسنوات.

وما عليها الآن لو تشيخ وتبلغ أجلها، ما دام هذا هو سبيلها إلى الخلاص؟

وشاخت في أيام... فكلّ يومٍ بعام، أوبأكثر من عام!

---

١. وسنمّار رجل رومي، بنى الخورنق الذي بظهر الكوفة للنعمان بن امرئ القيس، فلمّا فرغ منه ألقاه من أعلاه فخرّ ميّتاً. وإنّما فعل ذلك لئلّا يبني مثله لغيره، فضرب العرب به المثل لمن يجزي بالإحسان الإساءة. (مجمع الأمثال للميداني ١: ٢٢٠ ـ ٢٢١).

ويبس العود، شحبت الخضرة، نضب الري، غاض الرواء، من فرط هزالها بدت كأنّها طيف.

ومالت عليها سلمىٰ ـ بملء صدرها حناناً ومحبةً، وبملء عينيها نظرات أسيانة بلّلتها الدموع ـ تلبّي النداء: لبّيك يا حبيبة رسول الله!

فرمقتها الزهراء رمقة مواساة، وهمست:

«اسكبي لي غسلاً، يا أُمّه».

وجيء لها بالماء، فلمّا اغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل أيام العافية، هتفت بصاحبتها مرّةً ثانيةً:

«إيتيني بثيابي الجدد».

فأتتها بها... حتّىٰ إذا ارتدتها، وسوّتها على جسدها النحيل لا ينكشف منه شيء، قالت:

«اجعلي فراشي وسط البيت».

عندئذٍ روّعت سلمىٰ أشدّ ترويع، في قلبها تحجّر الألم، في عينيها ماتت النظرات، كلّ ما حولها ذاب في الذهول.

فلغير هذه الخاتمة الفاجعة أعدّت المرأة نفسها، وجلست مجلسها ذاك عند قدمي سيدة النساء.

كانت تأمل البرء للحبيبة التي يعتصرها الذبول، تحلم لها بالشفاء كلّما سرح بها الفكر إبّان يقظة النهار، أو في أيّما غفوةٍ غابرةٍ تلمّ بها إن سجا الليل، ولوّنت الظلمة الأُفق بالسواد.

فلولا أن قد شلّتها الرهبة صوتاً وحركةً، لملأت المكان بالنواح والعويل.

لكن بسمةً خابية الشعاع رفت علىٰ شفتي فاطمة الذابلتين، أعدتها بابتسام حزين.

عندئذٍ همست، من بين دموعها، وبصوت متحشرج مضطرب النبرات والرنين: بأبي أنت وأُمي يا حبيبة رسول الله!

ثم ائتمرت بما أُمرت... فما أن فعلت حتّىٰ نهضت الغالية إلى الفراش تضطجع عليه مستقبلة القبلة متهيّئة للقاء الله.

وكانت البشاشة علىٰ وجهها، والفرحة في ناظريها وهي تقول:

«يا أُمّه! إنّي مقبوضة الساعة، وقد اغتسلت، فلا يكشفنّ أحد لي كتفاً».

ثم تشهّدت... ثم أطبقت جفنيها... ثم استسلمت، راضية مطمئنة، للقضاء المحتوم.

وما لها لا تستبشر، وإنّها لعلىٰ موعد في ظلّ الله بساحة الرضوان، مع أحبّ إنسان؟

* * *

وحان موعد الرحيل.

أدبرت زهرة النبوّة عن الدنيا، لتغدو في علّيين.

حدث هذا ذات مساء وكان الشهر: رمضان، واليوم: الثالث، والليلة: الثلاثاء.

منذ بضع وعشرين من السنين، شهدتها الدنيا وهي تطلع في حديقة الوجود البشري زهرةً قدسيةً من عبير طهور، ولألاء نور، ليس كمثلها شذىً ونضرةً في الرياحين والزهور.

ثم تشهدها الآن وماؤها يجفّ، وعودها ينقصف، وما زال ضوؤها النديّ يسطع، وعطرها الفوّاح يتضوّع[١] عبر الآفاق، وملء الأجواء.

فما أضيق فسحة الأجل!

ما أقصر العمر الذي كتب لها أن تحياه!

قضت وهي في رونق الشباب، في عزّة الصبا المنفتح على الحياة.

ولولا أنّ الشمس والقمر والنجوم وأمثالها ممّا تضمّ الأكوان تجري في أفلاكها بحسبان... لولا أنّها جميعاً من آيات الله التي لا تتأثّر حركاتها، ولا تتغيّر مساراتها

---

١. يتضوّع: ينتشر.

لحياة إنسان أو لموت إنسان... إذن لقيل: قد انتحب على فاطمة النيِّران، وبكى المشرقان والمغربان!

لكنّه قدر مقدور... قضاء محتوم يتساوىٰ فيه الخلائق، من شَرُفَ كمن هان.

وها هي ذي الزهراء تتجرّع نفس الكأس، تنطلق إلى حيث لا مآب[1]، ترتفع عن دنيا الناس، تحلّق بعيداً عن قلى القالين، وعدو العادين، تتساموٰ أيضاً فوق حبّ المحبّين ووفاء الأولياء.

وما لها الآن وهذه المشاعر الدنيوية التي تتعاور النفوس؟

فلم تعد الآن من أبناء الطين والحمأ المسنون، كما خرج جسدها من التراب، عاد كسيرته الأُولى إلى التراب.

ترحّلت كياناً من الصفاء في الخلود، مضت راضية مرضية إلى الحياة الأبدية بذلك العالم النوراني الجديد.

وعندما غفا الكون، ونصب الليل خيامه، وتناثرت في الأُفق بضع من الأنجم السواهر شاحبات الشعاع، ولبست الدنيا ثياب الحداد... كان ثمّة ـ بناحيةٍ من البقيع ـ نُفَيْر قليل من الصحب والآل يشيّعون الزهراء.

فلمّا سُوي اللحد على الجسد، واحترقت الأهداب والجفون، وشاطت الأنفاس، ودقّت القلوب لحنها الجنازي... تقدّم علي يلصق وجهه بالقبر الطاهر، ويشمّ ثراه، وينعي إلى النبي بضعته، ويردّ له بقيّة نبوّته، وهو يودّع رفيقة حياته، وكيانه كلّه قد هدّته الأحزان.

وبصوتٍ هامسٍ، كلماته أنين، ونبراته حسرات، قال:

«السلام عليك يا رسول الله، عنّي وعن ابنتك النازلة في جوارك، والسريعة اللحاق بك... قلَّ يا رسول الله عن مصيبتك صبري، ورقّ عنها تجلّدي... إلّا أنّ لي في التأسّي بعظيم فرقتك، وفادح مصيبتك موضع تعزٍّ... ولقد وسدتك في

---

[1] . مآب: رجعة، عودة.

ملحودة قبرك، وفاضت بين نحري وصدري نفسك، إنّا لله وإنّا اليه راجعون... لقد استرجعت الوديعة، وأخذت الرهينة... أمّا حزني فسرمد، وأمّا ليلي فمسهد إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم، وستنبئك ابنتك بتضافر أُمتك علىٰ هضمها، فأحفها السؤال، واستخبرها الحال... هذا ولم يطل بك العهد، ولم يخل منك الذكر، والسلام عليكما سلام مودّعٍ لا قالٍ ولا سئم... فإن أنصرف فلا عن ملالة، وإن أقم فلا عن سوء ظنّ بما وعد الله الصابرين...».

وهكذا مضت قدّيسة القدّيسات عن هذا الكوكب.

فإذا رحيلها ذاك رحيل خير نعمةٍ مهداةٍ، وإذا غيابها نهاية الأجل لآخر من بقي من ولد رسول الله علىٰ قيد الحياة.

حدث هذا في أُمسية نابغية الألم، موصول همّها بهموم كلّ الليالي الليلاء التي تعاقبت علىٰ مدى الزمان.

وكان الشهر: رمضان.

واليوم: الثالث.

والليلة: الثلاثاء.

وانفضّ الجمع، وكان الوداع... لكن بقيت الدموع.

وطوي الكتاب!

الفهرس

المقدمة ٣

كلمة المحقّق ٥

من هي فاطمة الزهراء؟ ٦

لسنا وثنيّين ٧

نحو قراءة رشيدة للإسلام ٩

وقراءة واعية لفكر الآخرين ١٠

التقريب والتثريب ١٣

فاطمة بضعة النبي ﷺ ١٤

ببغاوات ومستشرقون ١٦

رجال جريثون ١٦

هذا الكتاب ١٧

الفصل الأول ٢١

اللوحة الأُولىٰ: النار في الكعبة ٢٣

اللوحة الثانية: سفينة باقوم ٣٢

هدم الكعبة وإعادة بنائها ٣٦

اللوحة الثالثة: من باب الصفا ٤٤

اللوحة الرابعة: الرداء والحجر ٥٤

رؤيا عبدالمطلب ٦٣
اللوحة الخامسة: الموعود ٦٨
بمدينة «يثرب» ٧٣
وبمكة أيضاً ٧٣
اللوحة السادسة: نجم الزهراء ٨١

الفصل الثاني ٩٣
اللوحة الأُولىٰ: لقاء لبقاء ٩٥
ولادة علي ٩٧
طير أبابيل ١٠٤
اللوحة الثانية: كمثل درّة مكنونة ١١٢
النبأ العظيم ١١٩
اللوحة الثالثة: عمرها: بالآلام لا بالأعوام ١٢٥
إعلان الدعوة ١٢٨
اللوحة الرابعة: الأصل غدق والفروع جناة ١٣٣
الراهب بحيرا ١٣٨
الراهب عيص ١٤١
الراهب نسطورا ١٤١
سطيح الكاهن ١٤٣
اللوحة الخامسة: دموع في الحرم ١٤٥
اللوحة السادسة: الموحّدون ١٦٢
زيد بن نُفَيل ١٦٩
وَرَقَة بن نَوْفَل ١٧١
زيد بن عمرو ١٧٢
قُسّ بن ساعِدَة ١٧٣

الفصل الثالث ١٧٧
اللوحة الأُولىٰ: كانت تحمل همّ الجميع ١٧٩
إلى الحبشة ١٨٧
اللوحة الثانية: لن يصلوا إليك ١٩١
اللوحة الثالثة: سنوات عجاف ٢٠٥
اللوحة الرابعة: الخروج ٢١٧
موت خديجة وأبي طالب ٢٢١
اللوحة الخامسة: لا تبكي يا بنيّة ٢٣٢

الفصل الرابع ٢٤٧
اللوحة الأُولىٰ: هل الصخر يخضرّ ٢٤٩
اللوحة الثانية: عقد مع الله ٢٦١
اللوحة الثالثة: ربح البيع ٢٧٦
الإسراء ٢٧٨
اللوحة الرابعة: بعيداً عن مكة ٢٨٨
الهجرة ٢٩٤
اللوحة الخامسة: فرسان جناح ٣٠٥

الفصل الخامس ٣١٥
اللوحة الأُولىٰ: في واحة السلام ٣١٧
اللوحة الثانية: هي والكمال ٣٢٨
اللوحة الثالثة: ترضىٰ فيرضى الله، تغضب فيغضب ٣٣٩
اللوحة الرابعة: وترامت إليها القلوب ٣٤٩

الفصل السادس ٣٥٩
اللوحة الأُولىٰ: جبرائيل قال ٣٦١
اللوحة الثانية: خطبة الزهراء لعلي ٣٧١
اللوحة الثالثة: زينب تفارق زيداً ٣٨٤
الإفك ٣٩٢
اللوحة الرابعة: أبناء لا أدعياء ٣٩٩
زواج الرسول بزينب ٤٠٤
اللوحة الخامسة: اللّهم إنّهما منّي وأنا منهما ٤٠٨

الفصل السابع ٤١٧
اللوحة الأُولىٰ: زفاف ٤١٩
اللوحة الثانية: قلادة خديجة ٤٢٨
اللوحة الثالثة: علىٰ عتبة الأُمومة ٤٣٨
اللوحة الرابعة: كأنّه محمد ٤٤٧
ولادة الحسن ٤٤٧
اللوحة الخامسة: علىٰ سفح أُحد ٤٥٨
حمزة وهند ٤٥٩
اللوحة السادسة: سيوف في الأيدي الناعمة ٤٦٧
اللوحة السابعة: الحسن والحسين نجمان نيِّران ٤٧٨

الفصل الثامن ٤٩٣
اللوحة الأُولىٰ: قتلة الأنبياء ٤٩٥
اللوحة الثانية: حديث الشرر والصخر، الإسراء الثاني ٥٠٩
اللوحة الثالثة: يا إخوان القِرَدَة ٥٢٠

عمرو بن عبد ودّ ٥٢٠
اللوحة الرابعة: وفاة الرسول............ ٥٣٣

الفصل التاسع............ ٥٤٧
اللوحة الأُولىٰ: فدك............ ٥٤٩
اللوحة الثانية: أهواء الخلفاء على امتداد مائتي عام ٥٦٣
عمر بن عبدالعزيز وفدك............ ٥٦٦
اللوحة الثالثة: رضىٰ فاطمة من رضاي............ ٥٨٣
اللوحة الرابعة: حدود النِّحلة............ ٥٩٥
محمد هو الرسول، واحد أم اثنان ٥٩٥

الفصل العاشر............ ٦٠٩
اللوحة الأُولىٰ: ما آتاكم الرسول فخذوه............ ٦١١
اللوحة الثانية: الأخماس والسهمان ٦٢٤
اللوحة الثالثة: ما ترك ديناراً ولا درهماً ٦٣٧
اللوحة الرابعة: منعٌ أم امتناع ٦٥٢

الفصل الحادي عشر ٦٦٣
اللوحة الأُولىٰ: هل النبوة ميراث؟ ٦٦٥
اللوحة الثانية: قالوا ... وقال الله ٦٧٥
اللوحة الثالثة: وما فدك؟! ٦٨٨